العقيدة السياسية في التصور الإسلامي

أحمد طه

بسم الله الرحمن الرحيم

البيانات الوصفية:

اسم الكتاب بالعربية: العقيدة السياسية في التصور الإسلامي.

Book Title: Political doctrine in the Islamic concept.

اسم المؤلف: أحمد طه.

الطبعة: الإلكترونية الأولى - صيغة PDF.

لغة الكتاب: العربية.

عدد الصفحات: 858.

مقاس الصفحات: 17 × 24 سم، (هوامش: يمين 2.5، 2، 2، 2 سم).

سنة النشر: 1446 هـ - 2024م.

الناشر: مدونة أمتي.

رؤوس الموضوعات: السياسة الشرعية، العقيدة السياسية، النظرية السياسية، العلاقات الدولية، نظام الحكم في الإسلام، الإسلام السياسي، الجماعات الإسلامية، النظم السياسية، الدولة الإسلامية، التربية السياسية، الخلافة الراشدة، الدين والدولة، الإسلام والسياسة، التصور الإسلامي، السنة النبوية السياسية، منهاج النبوة، الحكم الرشيد، النظرية الاقتصادية، البرامج السياسية، الصرع الدولي، التغيير.

فِهرِس

***

مُقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70-71]

***

وبعد.. فقد كان عنوان هذا الكتاب هو "المرونة السياسية.. والثبات على المبدأ".. والحقيقة عندما أكتب لا أعرف بالضبط مصير ما انتهي إليه من كتابة؛ هل سيكون مقالاً أو بحثاً أو كتاباً.. فلا أخطط ابتداء، إنما أكتب محاولاً بأقرب وسيلة بيان ما أستطيع بيانه ـ بفضل الله وفتحه ـ وعندما بدأت الكتابة في هذا البحث.. كنت أحاول معالجة مسألة التصلّب الحركي المفضي إلى لا شيء، ومسألة التميع السياسي الذي ينتهي

إلى التخلي عن المبادئ؛ لذا مضى البحث يحاول معالجة "التوازن" بين (المرونة والثبات على المبدأ)..

ثم فتح الله عليّ بما لم أكن أخطط له، والأفكار تُولّد الأفكار.. حتى ولو لم يكن بينها رابط! ثم قررت تغيير اسم البحث إلى: "**العقيدة السياسية.. في التصور الإسلامي**" وأسأل الله أن يوفقني ويُرشدني ليكون دروساً في "**التربية السياسية الراشدة**"..

ولعل القارئ سيلحظ أن الكتاب يصلح أن يكون مجموعة منفصلة من المقالات ـ أشبه بالدروس في الموضوع الواحد ـ وليس وحدة كاملة متناسقة البنيان؛ وذلك لطبيعة الظروف التي مرت بها كتابة هذا الكتاب، وعدم وضوحه لي بالضبط عند بداية الكتابة فيه؛ نخرج على نحو ما سيراه القارئ إن شاء الله.

وقد يجد القارئ تشابهاً أو مناقشة بعض الأفكار بمحاور متشابهة أحياناً ومختلفة أحياناً تتناول الموضوع الواحد من زوايا مختلفة، فتخدم بعض الموضوعات بعضها البعض، وربما يجد تكراراً أو تأكيداً على بعض المعاني.

وقد حاولتُ جهدي ـ والله المستعان ـ في إخراج الكتاب بصورة تغطي بعض جوانب العقيدة السياسية، وتنسيق موضوعه، وترتيب أفكاره المتناثرة. وحاولتُ ـ أيضاً ـ وأنا أشرح بعض الأفكار ضرب الأمثلة الواقعية، بحيث تتحول الأفكار إلى صورة تطبيقية يسهل فهمها وهضمها.. وقد تختلف النظرة للأمثلة الواقعية وطريقة رؤيتها ووزنها، وأرجو أن لا يكون اختلاف النظر إليها مشوشاً على الفكرة الأصلية؛ فالغرض من جميع الأمثلة في هذا الكتاب ليس "التحليل السياسي" بقدر ما هو مزيد من توضيح المعاني.

واجتهدتُ في الابتعاد بلغة الكتاب عن اللغة الفلسفية التي تتحدث بكلمات وتراكيب باردة، وعن اللغة الباهتة التي تدور حول نفسها ولا تصل إلى شيء، أو التي تزج القارئ

بدوامة من الألفاظ للتعبير عن معنى بديهي، أو التي تُدخل القارئ في معانٍ تجريدية دون ارتباطها بالواقع، أو التي لا تحمل الصبغة الإسلامية.

هذا وأود لفت انتباه القارئ الكريم إلى أنني اطلعتُ على نوعية من الكتب تقوم بها مراكز أبحاث ودراسات، مظهرها أنها: "مقاومة للطغيان العربي، وقريبة من الحركة الإسلامية" إلا أنني وجدت أنها إما باهتة بلا وجهة لا أدري ما الغاية النهائية من ورائها، وإلى ماذا تدعو القارئ؟ وإما تعالج موضوع الكتاب معالجة إسلامية ـ بمعنى العودة في البحث إلى المراجع الإسلامية ـ إلا أنها تنتهي نهاية علمانية! وإن كانت معتدلة.

وإما تنطلق من مبدأ أن الإسلام ـ والحركة الإسلامية ـ في قفص الاتهام أو القصور أو الجهل أو اليأس أو الاستحالة، ويعملون على تربيتها ونقدها ليس نقداً إسلامياً، يهدي إلى سبيل الرشاد، إنما هو التقريع الشديد، والتهم الجاهزة، والباطلة، والوصاية التي تنتهي أيضاً إلى نهاية علمانية! وإن كانت معتدلة.

وهناك كتب تنطلق من محطة التيه لا أدري هل المؤلف يعاني من التيه، ويَلوك في رطانة وسفسطة في موضوعات شتى لا تدري وجهته بالضبط، أم هذه طريقته في الفكر والدراسة والحصول على الدرجة العلمية؟!

وهناك كتب تعاني من القصور في فهم الإسلام، والقصور في فهم الواقع، والقصور في فهم الحركة الإسلامية، وتجاربها.. ويغلب عليها مرجعيتها الأكاديمية ـ كما درست وتعلمت ـ فتخلص من خلال هذا النقص المتعدد الجوانب إلى نتائج وأحكام خاطئة، على حسن نية أصحابها وتدينهم ورغبتهم في الإصلاح.

وهناك كتب لم تنطلق من معاناة الحركة، وواقعية التجربة، وتحديات الواقع، وضغط العدو الداخلي والخارجي، وإنما تُحلق في الخيال، وتفترض فرضيات خاطئة لا وجود لها.

وهناك كتب تخلص إلى وجوب تموضع الإسلام كله في حدود مقررات الديمقراطية العلمانية (كسبيل أوحد للحل، ولا سبيل غيره)، وفرض "المنهج السلمي" عليه كحقيقة مقدسة أبدية هي أم الحقائق، وقدس الأقداس، ومبدأ الفكر والحركة والعمل، وتريد من المسلمين ـ أو العاملين لتمكين الإسلام ـ بالتسليم المطلق والأبدي لواقع الدولة القومية العلمانية بكل طغيانها وانحرافاتها وفسادها، والهدف الأول والأخير هو: "**تحسين جودة المناخ الديمقراطي والمشاركة فيها**".. وتمارس ـ هذه الكتابات ـ عملية تفكيك لكل جهود علماء المسلمين في (مقاومة العلمانية والطغيان، والتمكين للإسلام) مستعينين بلغة أكاديمية ومرجعيات متعددة مختلفة، تتوه بالقارئ في دهاليز شتى، ثم تتركه هناك! لا يجد حيلة ولا يستطيع سبيلا!

وكل أولئك مما يستهلك عقل المسلم، ويشتته، ويذهب به في سبل متفرقة!

نسأل الله أن يهدينا إلى ما اختُلف فيه من الحق بإذنه، وأن يهدينا إلى سبيل الرشاد.

***

والحقيقة أنا أُقدم الكتابة في الأمور السياسية ـ من الناحية الفكرية والنظرية ـ على غيرها من الكتابات، ونفسي لا تميل إليها كثيراً، ولا كثير من القراء كذلك! ولكن الأمانة تقتضي الكتابة فيها لأنها ما زالت ثغراً مفتوحاً، وتحتاج إلى كتابات مستمرة ومتجددة وإلى اجتهاد وصبر، حتى نصل إلى "التربية السياسية الربانية" لأبناء الأمة المسلمة، بعيداً عن التصورات والأفعال المخالفة للتصور والمنهج الإسلامي.

وقد وضعت هذا الكتاب ضمن الأعمال المميزة على المدونة، رغم أنه يعتبر عملاً غير متكامل ـ في نظري ـ لكن أرجو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعله خطوة على طريق سياسي تربوي يجب أن تَسبر الأمة أغواره، وتربي أبنائها عليه؛ حتى تصل إلى طريق الرشد بإذن الله.

وكل ما يهدف إلى حفظ دين الأمة، ويحفظ لها حياتها، ومقدراتها ومستقبلها، ويعالج قضاياها المصيرية، ويحررها من التبعية والطغيان والفسوق والاستبداد والاحتلال، ويجمعها على كتاب الله.. لهو عمل مميز يتقدم على كل غيره.

والعقيدة (النظرية) السياسية في التصور الإسلامي تعني: أننا نتحدث عن نظرية سياسية انطلاقاً من رؤية ومرجعية إسلامية؛ لا نزعم فيها الحصر أو الكمال، ولكن محاولة "التسديد والتقريب"، وكشف بعض المعالم التي نسأل الله ـ تعالى ـ أن تكون معالم ربانية ليس فيها من الهوى، ولا أماني الشيطان ما يُفسدها.

وإننا إذ نبحث في "العقيدة السياسية" من خلال "التصور الإسلامي"، فعلينا أن نؤكد:

ـ إنَّ هذا البحث ليس بحثاً أكاديمياً مجرداً، بل هو واجب وفرض ومعنى انتسابنا للإسلام، حيث هو المرجعية العليا والحاكمة على كل تصوراتنا واعتقادنا وأفعالنا، ولا يحل لنا الخروج عنه إلى غيره من النظريات الوضعية.

ـ إنَّ ما نستخلصه من دروس في هذا الكتاب، لهو جهد بشري.. إن أصابنا فيه، فمن توفيق الله ونوره وهدايته، وإن أخطأت ـ فالخطأ وارد ـ وهو من نفسي، وجهلي.. واستغفر الله منه.

وكل صواب وافق كتاب الله، وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو مُلزم لكل مسلم. والفهم الخطأ أيضاً مردود إلى الفهم الصحيح على ميزان الكتاب والسنة.

ـ إنَّ من واجب المسلم العمل بالصواب الموافق للكتاب، والتجاوز عن الخطأ وتصحيحه.. وليس معنى وجود الخطأ البشري أن هذا الخطأ ينسحب على الإسلام، أو يجعل المسلم في حِل من العودة إليه، فالإسلام مرجعية عليا، وحاكمية أبدية؛ لا يمكن لمسلم أن يتجاوزها أبداً.

***

ويهدف هذا الكتاب إلى تحقيق "**التربية السياسية الربانية الراشدة**" والتي بدورها تهدف إلى:

ـ تحقيق العبودية الخالصة لله ـ جل جلاله ـ في شؤون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية خاصة، وكل شؤون الحياة عامة. ومن ثم فهو مطلوب من "**كل**" مسلم.

ـ التمكين لدين الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الأرض، وتبليغ رسالته، وهذه وظيفة الأمة المسلمة التي أخرجها الله تعالى للناس، وجعل خيريتها معقودة على هذا الأمر.

ـ الحفاظ على موارد الأمة البشرية، وثرواتها؛ لتُوظف التوظيف الأمثل في سبيل الرشد، في تجارة رابحة مع الله لن تبور، والحيلولة دون هدرها في سبل شتى متفرقة عن سبيله.

وهذه الأهداف مجتمعة تهدف إلى:

ـ نجاة الإنسانية وسعادتها في الدنيا والآخرة.

ـ تحقيق الرحمة والقسط والإحسان والكرامة الإنسانية.

ـ النهي عن الفساد في الأرض، والتصدي لأئمة الكفر والنفاق.

ـ تحكيم شريعة الله، وإعلاء كلمته.. ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وأسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن ينفع به، ويتقبله، وأن يَمن علينا بحسن القول، ورشد العمل.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

***

1- السياسة.. وعلومها

هناك تعريفات عدة للسياسة، منها أنها: قيادة الناس، وفن الممكن في عالم الواقع مهما كان. ومنها الحكمة. ومنها الحل الممكن، والحل الوسط، والحركة بين المتناقضات والتمييز والترتيب بين الأولويات، والموازنة بين الأمور، وتحقيق الأهداف، والواقعية الحركية. ومنها تدبير الأمور والقيام بها. ومنها القيام على الشيء بما يصلحه. ومنها ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد. ومنها: "تحصيل أعلى المصلحتين وإنْ فات أدناهما، ودفع أعلى المفسدتين وإنْ وقع أدناهما" أو "تحصيل أعلى المصلحتين بتفويت أدناهما (إن تعذر الجمع بينهما)، وارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما (إن تعذر دفعهما جميعاً)" فالأصل: وجوب الجمع بين المصلحتين، وإن تعذر الجمع بينهما أمر بأفضلهما، ودفع المفاسد كلها كلما أمكن.

ومنها معانٍ مستقبحة مثل: الخداع، والمراوغة، والغش، والنفعية الذاتية، والسطو والسرقة والتسلط باسم القانون والشرعية..

ويمكننا القول إن التعريف العام للسياسة هو: حكم وقيادة الناس، وفق مجموعة من القواعد والأسس والتصورات والأحكام، وإدارة شؤون الحياة ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والتربوية والإعلامية والعلاقات الخارجية... إلخ. ضمن نطاق جغرافي معين ذات سيادة.

وتتعدد هذه المعاني بحسب مقصد صاحبها ونيته، وبحسب الثقافة، والسياق.. ولسنا هنا نهتم بالإمساك بتعريف جامع مانع لها، وإنما نقصد المعاني المراد بيانها مباشرة من خلال العناوين والسياق ومن خلال المقاصد التي نرنو إليها.

والسياسة العلمانية المادية هي: فن الكذب، والدجل، والسرقة، والخداع، والإفساد، والاحتيال، واستغفال الجماهير، وسرقتهم باسم القانون، وبالقوة العسكرية، وفرض ضرائب السحت عليهم، والتناحر بين الأحزاب والأيديولوجيات، وتحكم العائلات الغنية، والتحالف مع "أكابر المجرمين" ضد الشعوب المستضعفة. ولا يمنع ذلك استعانتها بكل قوة في سبيل تحقيق ذلك، والمرونة في التطبيق، والواقعية في الحركة، والاستعانة بالخبراء في كل مجال، من أجل المال والسلطة والسيطرة على الجماهير.

والسياسة في الإسلام هي: حكم وقيادة الناس، وفق مجموعة من القواعد والأسس والتصورات والأحكام، وإدارة شؤون الحياة ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والتربوية والإعلامية والعلاقات الخارجية... إلخ. ضمن نطاق جغرافي معين ذات سيادة. والقادة هم: المؤمنون العاملون للصالحات. يستمدون القواعد والأسس والتصورات والأحكام والقوانين والمرجعيات الدستورية والقانونية من كتاب الله والصحيح الثابت من سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإدارة شؤون الحياة بالرحمة والحق والعدل والإحسان والرضى والشورى، وتحقيق فاعلية الأمة وخيريتها، وتحقيق الخلافة الراشدة على الأرض، بإعلاء وتبليغ كلمة الله ورسالته، والنهي عن الفساد في الأرض، ودفع الباطل ومقاومته، وتحقيق سعادة الإنسان وصلاحه وفلاحه في الدنيا والآخرة.

"وقواعد النظام السياسي في الإسلام تقوم على أمرين.. أولاً: حاكمية الله. وثانياً: الشورى."[1]

والتعريف العملي للسياسة: تحقيق الإنجازات في عالم من التحديات والصعوبات.. مع إعلاء القيم الأخلاقية الربانية، ودون التخلي عن المقاصد والمبادئ الإسلامية، فالسياسة

(1) [«كتاب: "السياسة الشرعية" - جامعة المدينة العالمية» (ص341)] وسنعود لذلك بالتفصيل ـ لاحقاً ـ إن شاء الله.

تعني أنها "**حركة إيجابية**" متفاعلة في واقع الحياة، ومشتبكة معه، ومؤثرة فيه، وقاصدة إصلاحه، والمبادئ والمقاصد الإيمانية والأخلاقية لا بد أن تكون قاعدة انطلاق، وبوصلة توجيه. وخلاصتها: "**التمكين لدين الله في الأرض**"، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ. وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: 54-56]

ومن ثم فالسياسة في الإسلام لا تعرف "السلبية"، ولا تعرف "اللا أخلاقية"، بل لا بد من أن تمضي بهذين الجناحان: **الإيجابية الحقة والتفاعل، والإيمان والأخلاق.**

السياسة في الإسلام هي: الحركة الإيجابية في تحقيق الإصلاح الرباني المستطاع في واقع الحياة، امتثالاً لقوله تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: 7]

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]

وكلما كانت "النفس الاجتماعية" متماسكة واسعة يشد بعضها بعضاً، كلما كان "وسعها" عظيم الأثر. والأمر بسيط: التمسك بالمبادئ الإسلامية ـ دون تلون ـ والعمل بالحديث الشريف: "**فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**"(1)

فالمسلم يُفرق بين (**الصواب**) و(**الممكن**)، فالصواب: هو الصورة المثالية التي ندعو إليها، ونؤمن بها، ولا نتنازل عنها، ولا نساوم عليها، وإليها نسعى ونجهد.

و(**الممكن**): هو خطة العمل المتاحة ضمن الظروف والأدوات والملابسات. فلا يقعدن بنا "الصواب" عن العمل الممكن، ولا "العمل الممكن" ينحرف بنا عن الصواب ويُنسينا إياه، فلا نصل إليه أبداً.

والصواب: هو إعلاء الإسلام، وجعله هو المرجعية العليا التي تَعلو ولا يُعلى عليها، وهو الشريعة الحاكمة، وهو أساس الاجتماع والانتساب والهوية والثقافة والفكر والحضارة.

والممكن: هو كل ما يؤدي إلى هذا الطريق، وكل ما يحمي للمسلمين دينهم وأمنهم، وحياتهم ومقدراتهم وثرواتهم، ويدفع عدواً يكره ليس الإسلام وشريعته فحسب، ولا الإسلام وشعائره فحسب، بل يكره اسم الإسلام، وأسماء المسلمين.. وما تخفي صدورهم أكبر ـ بل يكره كل من يريد القوة والسيادة لبلاده أياً كانت ملته؛ لضمان الهيمنة العالمية ـ وهم في تدافع مستمر لردة المسلمين عن دينهم ـ واستعبادهم هم وكل المستضعفين في الأرض ـ وكل صد لهذا الهجوم، وكل جهد يُحيد هذا العدو، وكل متنفس، وكل ملجأ، وكل خطوة على الطريق.. لهو عمل عظيم وجهاد كبير إذا كان خالصاً لوجه الله الكريم.

***

(1) [صحيح البخاري/ 7288]

وحركات التغيير الإسلامية إنما تهدف إلى تغيير الواقع، وتسلك في ذلك كل حيلة، وسبيل ـ لا يتعارض مع كتاب الله ـ تمضي تستفرغ وسعها، وتبحث عن "أرضية" واقعية لعملها، وعندما تعجز عن ذلك، أو تَفسد نيتها، أو يختلط عليها أمرها، أو يتم اختراقها فكرياً، أو تتكلس عن التصحيح والتقويم.. يحدث لها حالة من "العقم السياسي" فتصبح كالمرأة العجوز العاقر! يؤدي هذا العقم إلى أن يتحول عملها كله إلى حالة من "الردح السياسي واللطميات" وبكاء الأطلال، وانتظار المجهول، أو معجزة من السماء! ومن ثم استنزاف الجهود في العبث، وحرق الطاقات والموارد، وتضييع الأعمار، وتفويت الفرص! وتوهيم الناس بأن الردح واللطم يعتبر عملاً سياسياً!

والعمل السياسي والتغيير إنما يأتي من وضوح المشروع، والدفاع عن مبادئه، والاجتماع عليه، والعمل الواقعي من أجله، لا سيما عندما يكون لحركات التغيير ملايين الأتباع تنتظر كلمتهم، وتنتظر "خطة العمل" الواجب تنفيذها، والتضحية من أجلها.

وإنَّ الحركات الدعوية، أو السياسية، أو الجهادية عندما تتحول إلى كيان مستقل ـ بديلاً عن الأمة أو تُختزل فيه الأمة ـ ويكون له هويته، ومصالحه، وحساباته الخاصة؛ فإنه يتحول إلى "عقبة" في طريق تمكين الإسلام كرسالة جامعة. والحركة التي تستحق وصف "الإسلامية" هي: **التي تقوم لله وحده، وتقوم بالقسط.. لأجل الله، لا لأجل الذات الفردية أو الجماعية.**

***

ويجب أن تُفرّق جماعات التغيير بين:

السياسة العلمانية المادية: والتي تُدرس ـ غالباً ـ في الجامعات، وتُرسخ مفاهيم غير صحيحة، ولا منطلقة من التصور الإسلامي وتفسيره للحياة والوجود والإنسان.

والسياسة الإسلامية الربانية: بمفهومها الأكاديمي النظري، والذي ينطلق من العقيدة الإسلامية الصحيحة نحو الله، والوجود، والحياة، والإنسانية، ومقومات هذا الإيمان[1]، وهي القواعد العامة والتفصيلية الحاكمة للاجتماع الإنساني، ورسالة الأمة المسلمة.

وسياسة الواقع: الذي تحتك به ـ ومطلوب منها تطويعه حسب تصور الإسلام وأحكامه ـ حيث الواقع من التشابك والتعقيد والمشكلات ما لا يخطر على بال ـ مهما بلغ وعيها ـ طالما لم تحتك به الاحتكاك المباشر!

وإنَّ السياسة الحقيقية للأنظمة الباغية الفاسدة المجرمة تظل خلف سُتر كثيفة لا يطلع عليها أحد، ومهما شطح الخيال في تصور حجم الفساد والبغي والسرقات فلن يصل مداه، حتى يرى بأم عينه الحقيقة على أرض الواقع، ويجب على جماعات التغيير أن تكون مستعدة لمواجهة مكر تزول منه الجبال، وفساد تنهد منه الأرض..

وإنَّ المسلم يحترم العلم والعلماء، ويحترم التخصص، والدراسة الأكاديمية بشكل عام، ولكن فيما يتعلق بالدراسات السياسية خاصة ـ والعلوم الإنسانية الفلسفية عامة ـ يجب الانتباه إلى أن التخصص السياسي ـ في كثير من جامعات وكليات عالمنا الإسلامي ـ لا يعني أن المُتخرج فيها بالضرورة على علم حقيقي، **أولاً:** بالسياسة من المنظور الإسلامي، حيث يتم عزل الإسلام عن كل الدراسات الإنسانية ـ وعلى رأسها السياسية ـ وتكون المناهج أحاديث في مبادئ عامة مثل: أنواع الدول، وأنظمة الحكم، وإدارة الدول وجغرافيتها، والتاريخ السياسي والمؤسسات الدولية، وأصول الدبلوماسية... إلخ، فهي

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ كتاب: "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته".

[**ملاحظة:** سأضع ـ إن شاء الله ـ الروابط الإلكترونية لبعض الكتب، والمقالات الداعمة لموضوعات ودروس الكتاب في الهوامش، ثم سأضعها كلها مجتمعة في جدول بنهاية الكتاب، لمن شاء التركيز على قراءة موضوعات الكتاب، ثم قراءة الكتب، والمقالات الداعمة لاحقاً.]

دراسة وصفية لا تدعو إلى تغيير، ولا تُعالج مشكلة.. بل تدعو إلى كيفية التكيف مع الواقع السياسي القائم للأنظمة الباغية، وتمجيد العلمانية الغربية، والإحسان في خدمتها.

وثانياً: ليس بالضرورة على علم حقيقي بالواقع السياسي الحقيقي، حيث تهتم هذه الدراسات فقط ـ في الغالب ـ بكيفية التموضع في النظام السياسي المحلي وإدارته، والتوافق مع السياسة والقوانين الدولية.

وإنَّ فقدان القاعدة الإسلامية في الدراسة، وفقدان الخبرة السياسية العملية في التغيير الحقيقي.. يجعلنا ننظر بحذر شديد تجاه الأطروحات الفكرية والعملية للمتخرجين في هذه الجامعات، ولا نقصد التعميم، ولا الانتقاص من قدرهم ومنزلتهم.. ولكن يجب التدقيق في الأطروحات من الناحية النظرية والعملية؛ للتأكد من انطلاقها من الأسس الإسلامية، ومن رؤية واقعية صائبة؛ تهدف إلى تحقيق: **الحكم الراشد اتباعاً للسنة النبوية السياسية، والخلافة الراشدة في الأرض، واتباع هدى الله جل جلاله، ابتغاء مرضاة الله.**

حيث رأينا أطروحات لمشاهير من المفكرين السياسيين ـ وبعضهم ذات توجه أو ثقافة إسلامية! ـ وكانت أطروحات كارثية، وتميل إلى العلمانية، وتُحلّق في الخيال، وتقوم على فرضيات خاطئة، وعلى أسس هشة، وعلى حسن الظن بأئمة النفاق في الداخل، وأئمة الكفر في الخارج! وتتوه بالمُتلقي في ضروب التيه البعيد، مُغلّفة بمصطلحات تضفي حكمة مزيفة على هذه الأطروحات.

يقول د. عبد الوهاب المسيري (رحمه الله) في الدراسات الأكاديمية التي بلا معنى: "إنَّ كلمة "أكاديمي" فقدت معناها، وأصبحت تشير إلى أي شخص عديم الخيال، يُلحق بحثه قائمة طويلة بالمراجع، ويشرح أطروحته بطريقة مملة، ولا يُبدي أي رأي، ويحدث أصواتاً معرفية... فهناك دراسات "أكاديمية" بالمعنى السلبي للكلمة، والتي عرَّفتها بأنها:

"الدراسة التي يكتبها أحد المتخصّصين الأكاديميين دونما سبب واضح، ولا تتسم بأي شيء سوى أنها "صالحة للنشر" لأن صاحبها اتبع مجموعة من الأعراف والآليات البحثية (من توثيق ومراجع وعنعنات علمية موضوعية) تم الاتفاق عليها بين مجموعة من المتخصصين والعلماء."

والهدف عادةً من مثل هذه الكتابات (التي يُقال لها "أبحاث" مع أنها لا تنبع من أي معاناة حقيقية ولا تشكل "بحثاً" عن أي شيء) هو زيادة عدد الدراسات التي تضمها السيرة العلمية للأكاديمي صاحب الدراسة، فيتم ترقيته، فالصالح للنشر هو عادةً ما يؤهل للترقية، قد تقوم الدنيا ثم تقعد، وقد يُقتل الأبرياء وينتصر الظلم وينتشر الظلام، وصاحب "البحث" لا يزال يكتب ويوثق ويعنعن وينشر، ثم يكتب ويوثق ويعنعن وينشر، وتدور المطابع وتسيل الأحبار ويخرج المزيد من الكتب، ثم يذهب صاحبنا إلى المؤتمرات التي تُقرأ فيها أبحاث أكاديمية لا تبحث عن شيء ليزداد لمعاناً وتألقاً، إلى أن يُعيّن رئيس المجلس الأعلى لشؤون اللاشيء الأكاديمي، يتحرك في عالم خالٍ من أي هموم إنسانية حقيقية ـ عالم خالٍ من نبض الحياة: رمادية كالحة هي هذه المعرفة الأكاديمية، وذهبية خضراء هي شجرة المعرفة الحية المورقة...

فنقطة البدء هي قلق وجودي عميق أدّى إلى ظهور مشروع فكري متكامل، والهدف يظل دائماً هو الوصول إلى الحقيقة وكيف يمكن تحويل الحقيقة إلى عدل"[1]

***

والمسلم ـ والإنسان عموماً ـ شخصية باحثة بطبيعتها، والإنسان المسلم شخصية تبحث عن "الحق" أينما كان، لتلتزمه وتستقيم عليه.. وإنَّ المسلم بحاجة ماسة للقراءة والتعلم، بل وتعلم كيفية القراءة والبحث.. والمسلم يبحث عن الحقيقة ليس من أجل ثقافة باردة في العقل،

(1) [كتاب: "رحلتي الفكرية"، د. عبد الوهاب المسيري، ص 259]

بل من أجل "**النجاة**" في الدنيا والآخرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وسيهدي ـ بإذنه ـ الذين جاهدوا ليعرفوه سبحانه، ابتغاء مرضاته، واتباع رضوانه..

إنَّ الغرض من القراءة ـ وكل علم ـ شيء محدد هو: "الإيمان، والاستقامة"، "قُلْ: **آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**"(1)، فالمسلم لا يقرأ من أجل التفاخر أو التباهي أو ادعاء العلم والثقافة.. فهذا طريق الأشقياء!

جاء في الحديث الشريف: عَن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ**"(2) وإني أنصح بالقراءة البحثية التي يكون للقارئ فيها "سؤال" محدد يبحث للإجابة عنه، وينتقل بين دهاليز المعرفة ليمسك أطراف الحقيقة من جميع جوانبها، وعليه أن يقرأ قراءة "الكرماء" الذين يمرون على اللغو والمتشابه مرور الكرام: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ [الفرقان : 72]

وأن يقرأ قراءة "المؤمنين": ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر : 18]

ولا يتعصب لـ "شخص الكاتب" ولا يعتقد فيه "العصمة والحق المطلق" إنما يبحث عن "الحكمة"، "**الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، حَيْثُمَا وَجَدَهَا، فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**"(3)

---

(1) [مسند الإمام أحمد/14990]، [**ملاحظة**: جميع الأحاديث الواردة في هذا الكتاب، تدور أسانيدها ـ إن شاء الله ـ بين الصحيح والحسن والحسن لغيره، وفق معايير السادة المحدثين. والغالبية العظمى منها من الصحيح، والمتون جميعها صحيحة إن شاء الله]

(2) [جامع الترمذي/ 2654، وصحيح ابن ماجه، والأحاديث المختارة للضياء المقدسي] وهناك من ضَعف السند، والمعنى صحيح إن شاء الله، يؤيده حديث: "إن أولَ مَن تُسعَّرُ بهم النارُ ثلاثةٌ: منهم: الذي طلب العلمَ وقرأ القرآنَ لغيرِ اللهِ ليقالَ: هو عالمٌ، وليقالَ له: قارئٌ".

(3) [سنن ابن ماجة/4169]

وأن يقرأ قراءة أهل العلم.. الذين يتمسكون بالمُحكم من القول، ولا يتبعون المتشابه منه.. وهذا طريق الاستقامة بلا "طغيان": ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ﴾ [هود : 112]

***

وبعض المفكرين السياسيين ـ الذين ينتمون إلى الحركة الإسلامية ـ يتأثرون بالكّابات الغربية! وبضغوط سياسات النشر، فيكتبون كّابات تحليلية ـ وإن كانت نافعة ودقيقة ومهمة في رفع الغفلة، وإيقاظ الوعي ـ إلا إنها باهتة خالية من ذكر الله، وغير مصبوغة بصبغة الله، ولا يظهر فيها الولاء لله ورسوله، والدفاع عن الأمة المسلمة في قضاياها المصيرية بصورة واضحة تامة؛ فيغلب عليها النَفس الغربي في التحليل، دون الإمساك بصلب القضايا، وتحوم حول الموضوع دون الدخول فيه! وتفترض النوايا الحسنة؛ فتروح تبحث عن حل لمشكلات الأنظمة "الخائنة الفاسدة"! وتتأثر بمزاعم الغرب حول "الحيادية في البحث العلمي" وأنه يجب أن يكون خالياً من التحيزات الدينية والمذهبية... إلخ[1]؛ فتخرج بهذه البهاتة واللا روح!

بينما يجب أن يكون كل عمل المسلم مصبوغ بصبغة الله، وباسم الله؛ لأنه يرجو الثواب والجزاء من عند الله.

والمسلم لا ينطلق من مجرد منطلقات وطنية فحسب، بل منطلقات إيمانية إسلامية ثم وطنية بعد ذلك.

---

(1) والمسلم لا يتعصب التعصب الأعمى، بل يتعصب للحق وحده، ويدور معه حيث دار.. طاعة لله، واتباعاً لسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يظلم أحداً، ويقوم بالقسط، ويشهد لله، ولو على نفسه والأقربين، ويَعدل العدل المجرد من الشنآن والهوى.

يجب أن يكون كل عمل المسلم يحمل الولاء لله ورسوله، والحب لدينه، والانطلاق باسمه.. كل فكر المسلم، وتأليفه، وعلومه يجب أن تكون هكذا، يجب أن نتخلص من أكاذيب الغرب حول حيادية العلم، وجعله ملحداً أو بارداً أو باهتاً لا معنى له..

فالسياسة والفكر والاقتصاد والتربية والاجتماع وكل العلوم الإنسانية يجب أن تكون كل منطلقاتها ربانية خالصة، وتروح تبحث في مشكلات الحياة على الأرض باسم الله، وولاءها المطلق لله ورسوله، ولنصرة الأمة المسلمة.. بل حتى العلوم التجريبية يجب أن تكون كل منطلقاتها كذلك ربانية خالصة، فلا يدرس المسلم الطبيعة دراسة مادية مجردة عن الله الخالق المدبر، ولقد عاب الله ـ جل جلاله ـ على الجهلاء الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة غافلون: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7]

وما يلتقي مع الإسلام من عدل وخير وبر وتقوى فالمسلم لا يقبله أيضاً مجرداً، إنما يقبله "باسم الله" على شريعة الله، ابتغاء مرضاة الله. وما يرفضه الإسلام من إلحاد وكفر وظلم وعدوان ولا دينية فهو محاداة لله ورسوله، والإسلام يرده ويجاهد أصحابه ما استطاع لذلك سبيلاً رشدا.

وإنَّ من الخيانة الذهاب باسم الحياد العلمي أو الدراسة الأكاديمية إلى إخراج علوم للمسلمين لا تحمل هذه الروح الربانية، ولا الصبغة الإلهية، ولا المرجعية القرآنية، بل لقد كان مجرد تخلّف بعض المسلمين عن النهوض بالجهاد، والتكاسل عن أمانة الرسالة خيانة! ونادى الله عباده المؤمنين محذراً إياهم من تلك "الخيانة" فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 27]

فالمؤمن يحمل أمانة هذا الدين، أمانة بلاغه البلاغ الحق المبين، والدفاع عنه، والجهاد في سبيله في كل ميدان.

وهذه الروح هي التي يمكن ـ بإذن الله ـ أن تُوقظ الأمة، وتدفعها للحياة من جديد.

ومن ثم يجب على جماعات التغيير أن يكون فكرها السياسي إسلامياً خالصاً، ومطلعة ومدركة لكل الأفكار المضادة له، وعلى بصيرة بواقعها من الناحية التاريخية والحاضرة، وقادرة على استشراف المستقبل، وقراءة المشهد السياسي المحلي والعالمي قراءة حكيمة دقيقة، ثم الخروج **بخطة عمل تنفيذية** من وراء ذلك.

كما عليها أن تعرف التركيبة السياسية المحلية والعالمية التي تحكم الأنظمة والناس، والتي هي ـ بطبيعة حالها وواقعها ـ فوق الدستور والقانون والمجتمعات قاطبة.. وهي شبكات تتكون من قيادات عسكرية وأمنية ومخابراتية، وأسر حاكمة، ورجال المال والأعمال، ورجال نافذون ـ وأخفياء ـ في قلب الدولة؛ يُكوّنون شبكات مصالح تتكون بصورة تلقائية لالتقاء مصالحهم جميعاً في الفساد والإفساد واستعباد الشعوب، والهيمنة على كل مصادر (المال، والسلطة) ويبقون في الظل أحياناً، وفي العلن أحياناً أخرى؛ ويمثلون العمود الفقري للدولة والنظام..

ولا تختلف السياسة العالمية كثيراً عن وضع الأنظمة الفاسدة في بلادنا.. ففي بلاد الغرب الديمقراطي الليبرالي توجد هذه الشبكات التي تربطها مصالح متشابكة كنسج خيوط العنكبوت إلا أنها أكثر نعومة وإقناعاً وتجيد "**اللعبة الديمقراطية**" في السيطرة، وفي بلاد الشرق الديكتاتوري يتم استخدام التعذيب والعنف والإرهاب من أجل زرع الخوف في نفوس الجماهير من أجل السيطرة الاجتماعية.. فيجيدون "**الجريمة الإرهابية**".. التي تسحق كرامة الشعوب. وهؤلاء جميعاً هم "أئمة الفساد ـ شياطين الأنس" المسؤولون عن سفك الدماء في الأرض كلها!

وعلى جماعات التغيير أن تتدرب على كيفية مواجهة هذه الشبكات الحاكمة، وفهم خريطة تفاعلها، وتكويناتها، وارتباطاتها الداخلية والخارجية، وكيفية تحييدها؛ حتى لا تصطدم بها دون أن تشعر، وهي غافلة عنها.

وعلى جماعات التغيير أن تعترف بمساحة "الجهل" الحاصلة نتيجة تستر هذه الشبكات خلف ستر كثيفة لا يطلع عليها إلا أهلها.. وأن تحاول جهدها في رفع الجهل، وحساب حسابه والآثار المترتبة على نقص المعلومات حوله؛ حتى تكون خطوتها محسوبة بدقة، وعملها وجهدها في المسار الصحيح.

وإذا قدر الله لها التمكين، فيجب أن تستلم هذا الواقع على سواء، وشفافية.. حتى لا تتحمل آثار مفاسده السابقة، فما أن تتكلّف بالمسؤولية حتى يقع على عاتقها مشكلات لا نهاية لها، وتعقيدات لا سواء فيها، وعليها ألا تنشغل بمحاولة الإصلاح وإطلاق الوعود قبل محاولة وضع خريطة الفساد والمفسدين، **وامتلاك القوة اللازمة لحماية عملية الإصلاح والمواجهة**، ووضع الخطة المحكمة للقضاء عليهم دون حدوث انهيارات اجتماعية.. ودون تحملها نتائج مفاسد وأباطيل مئات السنين؛ فتسدد وتقارب، وتبث البشرى، وتقترب من الناس، وتعلمهم الحق، وتبصرهم بالحقائق، وتزهد في متاع الدنيا وغرورها، وتحذر أفخاخ ومحاضن الفساد القابعة في كافة المكونات السياسة والاقتصادية والاجتماعية.

فعلى جماعات التغيير أن تقرأ واقعها قراءة سياسية صحيحة، ودقيقة، وترسم خريطته بوضوح وشفافية، وترسم مصلحة الإسلام والمسلمين كخطة عمل تنفيذية.. هذه القراءة تُبِين المحددات السياسية التي تحكم الواقع، فتعرف أقصى الحدود السياسية الممكنة في هذا المجال السياسي، وأدناها.. فلا تخدع الناس بخطاب جماهيري ـ كما يفعل الدجاجلة ـ من أجل كسب التعاطف والنصرة بلا خطة عمل سياسية.. بل يجب المصارحة والمكاشفة مع جماهير الأمة المسلمة، ذلك أن المسلم العامل لدينه وأمته، قبل أن يكون سياسياً.. فيجب أن يكون دعوياً أميناً، فالرائد لا يكذب أهله، والمسلم لا يخدع أمته..

ويجب أن لا يستسلم العقل لهذه المحددات السياسية على أنها "جبرية قدرية سياسية" لن تتغير، بل أساس عمله هو الإبداع والتغيير، واقتناص وخلق الفرص لإنشاء واقع جديد هو الذي يضع محدداته.. لا أن يستسلم لها. والموازنة بين الواقع والمأمول تحقق الإيجابية في التغيير، ويتم توظيف الطاقات والموارد التوظيف الصحيح.

وفي حالة اليقظة تستطيع أن تتلاعب بالعدو وتحبط مخططاته، وفي حالة الغفلة يتلاعب بك العدو ويحبط خططك.

***

وكتاب الله يُعلمنا التوازن بين القول والفعل.. فلا يتضخم القول على حساب الفعل، ولا يكون الفعل بلا ركيزة من قاعدة إيمانية أخلاقية..

وكان المقت الأكبر ـ في المنظور الإسلامي ـ هو مخالفة قول المؤمن لفعله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: 2-4]

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28]

وهذا التوازن يحقق الإيجابية والفعالية المطلوبة، والشخصية الاجتماعية المتزنة؛ فلا تنتفخ العقول بالكلمات والأفكار دون عمل، ولا تمضي الأعمال حسب الأهواء بلا خريطة فكرية نابعة من الإيمان والأخلاق، ولذا قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا. وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 114-115]

فكان التصور الإسلامي يتجه إلى الفعل (الأمر بالصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس) مع (النية والقصد والتوحيد) بأن يكون العمل خالصاً لوجه الله الكريم، وابتغاء مرضاته، مع اتباع الرسول وسنته ومن سار على دربه، فهو (**عمل**)، و(**نية**)، و(**اتباع**).. وهذه هي محاور العمل الإسلامي.. ولا يمكن أن يعجز إنسان أو جماعة تغيير عن تحقيق ذلك..

وعندما يقع التضييق على جماعات التغيير في أن تصل إلى هدفها بالقضاء على أنظمة الفساد والبغي، ولا يتكون لديها القوة والقاعدة الاجتماعية والأدوات اللازمة لذلك، فإن مساحة عملها ما زالت قائمة - ولا يمكن أن يحول بينها وبين هذه المساحة أحد - وهي مساحة **العمل** (الأمر بالصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس، وما في حكمها من بر وتقوى) **والنية والاتباع**، وأن تبقى في هذه المساحة التي ربما لا يكون لها كبير تأثير بالحسابات السياسية الضيقة، إلا أن مقامها عند الله عظيم، وتأثيرها إنما يأتي في قابل الأيام، وغرسها يأتي أُكله ولو بعد حين، وهو عمل أفضل من الدخول في مساومات مجرمة مع أنظمة عميلة باغية تستدرج حركات التغيير إلى مستنقعاتها العفنة؛ لنزع أصالتها وإفساد خطابها، وجعلها خادمة لهم.

والتحرك بشرف وأمانة وإخلاص لله ورسوله والأمة المسلمة في هامش سياسي محدود، خير من التحرك بغير ذلك في هامش أكبر من أجل مصالح مُتوهمة، فما عند الله - وما كان لله - هو خير وأبقى. وهذا هو الحساب السياسي بالمقاييس الإسلامية.

***

2- بين النظرية والتطبيق

النظرية: يجب أن تكون شرعية واضحة مثالية، محققة لكتاب الله، ويجب الدعوة إليها على كمالها كما هي، لأنها دعوة لا نملك أن نختزل منها شيئاً، ويجب أن تصل للناس كما هي دون زيادة أو نقصان.

وأما **التطبيق**: فإنه يخضع للظروف والملابسات والسياقات والمتاح من "الهوامش"، ويحاول التطبيق أن ينتقل من الهامش إلى القلب، أو من الأَسر إلى الحرية.. والتطبيق فعل بشري، خاضع للتقييم والتقويم، واحتمالية الخطأ والصواب، ويجب أن يظل دائماً في حالة "**التسديد والتقريب والتحسين المستمر**".. يفرض التطبيق مجموعة من التحديات والعقبات، التي ربما تضغط بشدة على النظرية! وهنا تقع الإشكالية: هل الاستمساك بالنظرية على مثاليتها دون تطبيق وحركة؟ أم العمل على التطبيق والحركة مع تأثر النظرية بالفعل البشري؟!

وهذه الإشكالية تسبب إشكالية أخرى.. وهي "**الافتراق**"! حيث يتمسك البعض بالنظرية دون تطبيق.. ويعيب على من "يُطبق ويتحرك" قصوره في الاستمساك بمثالية النظرية، ويعيب الذي يُطبق ويتحرك على المُستمسك بالنظرية دون تطبيق سلبيته وقعوده! وقد يقع البأس بينهما!

والصواب ـ فيما أرى ـ هو الحركة المستمرة، لأنها هي التي تكشف النفس والواقع، وتفتح آفاقاً جديدة، ومعرفة حقيقية بالواقع، ولا يمكن تطبيق النظرية بلا فهم الواقع فهماً منشأه الحركة، والعمل على "**التوازن**" وإعادة التصحيح؛ لأن كل حركة ستؤدي إلى الجنوح أحياناً، ومن ثم فمن الضروري عملية التقويم المستمرة..

وعليه، فالاستمساك بالنظرية وحدها دون حركة خوفاً من التلوث بالواقع هو في الحقيقة قتل للنظرية، وتعجيز وتفشيل لها، وكذلك الاستسلام للانحراف عن النظرية أثناء التطبيق قد يؤدي في النهاية إلى الخروج الكلي عنها، ومن ثم يجب معالجة الأخطاء بإيضاح الخطأ، وبمعاقبة المخطئ، وبإيجاد تغيير وتحديث آلية جديدة لمنع تكرار الخطأ، وليس بترقية المخطئ وتكريمه، أو ترك مسببات الأخطاء كما هي، ولذا، كان من أهم الواجبات المقدسة للأمة هو: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" خالصاً لوجه الله الكريم، خاصة في الشؤون الاجتماعية والسياسية والتطبيقية للأمة المسلمة، وللناس عامة.

ولرفع البأس بين النظرية والتطبيق يجب أن تتم عملية "**الائتلاف القلبي والعمل الجاد الواقعي**" حيث الائتلاف القلبي يمنع الاقتتال البيني[1]، وإنَّ تحول القضية إلى تحدٍ وجودي، وقضية أيديولوجية، يصنع حواجز نفسية عميقة بين المسلمين..

وإنَّ العمل الجاد الواقعي يستنفذ الطاقة في العمل واكتشاف خريطة الواقع، ويمنع المجادلة التي تفضي إلى العدمية.

والواقع الإنساني لا مفر من التعامل معه كما هو لا كما نتمنى، فلو كان على ما نتمنى ما كان لحركتنا معنى.. فدوماً سنجد "التحديات الواقعية" في كل زمان، ومكان، **والمطلوب**: هو الاشتباك مع هذا الواقع، والتأثير الإيجابي الرباني فيه، وعدم الانعزال عنه بحجة أنه واقع منحرف أو واقع مُعقد، ولذا جاء في الحديث الشريف: عَن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: "**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ**"[2]، وعنه ـ عليه الصلاة والسلام: "**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**"[3] أي: أهلكهم بتخذيلهم وتفشيلهم، أو كان أهلكهم بتخليه عن دوره ومسؤوليته الفردية والاجتماعية.

(1) انظر: درس "الائتلاف القلبي" ص 461 من هذا الكتاب.

(2) [صحيح مسلم/2667]

(3) [صحيح مسلم/ 2625]

المساحة الآمنة

في واقعنا المعاصر، ومع تراجع الحركة الإسلامية ـ على سبيل المثال ـ على المستوى الدعوي والسياسي والجهادي، وفراغ الساحة من قيادات جديدة، ومشروع جديد يستطيع مواجهة الطغيان، والتصدي لقضايا الأمة المصيرية، نجد البعض يذهب إلى المساحة الآمنة التي لا تُزعِج الطغاة والمفسدين كثيراً، وهي مساحة التصدي للإلحاد، والشذوذ، وشبهات الديانات المخالفة، أو مساحة الغرق في العلوم الفقهية البعيدة عن واقعنا ـ وما أُبرئ نفسي ـ ورغم أهمية التصدي لهذه الموضوعات، وهي لا شك أفضل من لا شيء، إلا أنها ليست المساحة التي تُحقق التغيير للأمة وتحررها وتجمعها، أو تنصر الإسلام والمسلمين..

فهذه الموضوعات هي مجرد أعراض لمرض استرقاق الأمة المسلمة، والتسلط عليها، وإفشالها، وتقزيمها، والسيطرة عليها.. ولا بد من عملية تحريرها، وتجميعها، ورد روح الإسلام إليها من جديد، وإخراجها من حالتها الغثائية.. **هذه هي مساحة العمل الأصلية..** ولا بد من أن يتوجه إليها الشباب، ويتم تربيتهم عليها تربية رسالية ربانية بعيدة عن السطحية، والحزبية، والغلو، والعلمانية.. بحيث يتكوّن جيل جديد قادر على قراءة واقعه، وقادر على مواجهته، وإدارة أزماته برؤية ربانية خالصة، وقادر على إحياء الأمة من جديد، ومن ثم الانتقال من **الوعي التربوي** إلى **الوعي الحركي** الفعال.[1]

والوعي التربوي المجرد ـ في الغالب ـ ليس له خطة تنفيذية حركية عملية واقعية آنية.

وأما **الوعي الحركي** فهو الذي له خطة تنفيذية عملية واقعية، وهذا من أشد ما يخشاه ويحاربه الطغاة، ويَصعب أن يستمر الوعي التربوي دون الوعي الحركي، فالطغيان يتحرك لمواجهة الوعي الحركي الذي يستهدف الاشتباك والمواجهة المنظمة والواقعية والمُواجِهة

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "خط الفاعلية.. وأجهزة الاستخبارات الفكرية".

للطغيان، حتى إن انتصر الطغيان ـ لا قدر الله ـ تحرك نحو أصحاب الوعي التربوي للقضاء عليهم..

فالطغيان والطغاة يستهدفون أي وعي ـ ولو الفكر المجرد ـ الذي يقف لهم، أو ينكر منكرهم، أو يدعو إلى البراءة من المنكر، والمتابعة على ظلم..

ولا يمكن أن يؤثر الوعي التربوي ـ على المستوى الاجتماعي السياسي ـ إلا بدعم الوعي الحركي، بل وأن يتحول كل وعي تربوي إلى وعي حركي فعَال مؤثر، فالطغيان حركة واقعية تريد الإفساد في الأرض؛ باستعباد البشر وسرقة حقوقهم، وانتهاك كرامتهم، وتدمير إنسانيتهم، وتعبيدهم للشيطان.. وجعلهم مادة لمتاعهم وشهواتهم وجنود إفسادهم وطغيانهم..

ولا بد من مواجهة الطغيان بوسائل مكافئة لوسائله.. وبالطبع ليس شرطاً أن يتساوى في العتاد والعدة، فالقلة القليلة المنظمة الواعية التي تحسن إدارة مواردها، تغلب الكثرة المتفرقة الطالبة للمتاع، والداعية للإفساد.

ولا بد لمواجهة حركة الطغيان الواقعية، أن تكون حركة الإصلاح واقعية متدافعة، ولا تكتفي بالوعي التربوي فحسب.. الذي قد يصلح لإنقاذ الفرد، لكنه لا يصلح لإنقاذ المجتمع دون حركة وقوة وقدرة على مواجهة الباطل.

وإنَّ الطغيان يستهدف الأمة ـ وإنسانية الإنسان ذاته ـ ويريد تحويل الأمة إلى مجرد مجموعة من الأرقام محصلتها النهائية يساوي صفراً، يساوي لا شيء من حيث قيمتها الاجتماعية والحضارية، وأثرها السياسي، وجعلها بلا إنسانية، ولا كرامة، ولا رسالة، ولا حياة، وجعلها تخون أمانتها، وتتخلى عن رسالة ربها، ويتركها نهباً لشياطين الإنس والجن..

فلا يمكن أن يستمر الطغيان والطغاة في أمة تشعر قيمتها وإنسانيتها، ورسالتها، وحضارتها، فالطغيان إنما يستمر في الأمم الميتة التي استُرقت.. ولا بد لمواجهة الطغاة من إحياء الأمة من جديد، وتحريرها **فكرياً** بتصحيح مفاهيمها حول قيمتها ورسالتها، **وحركياً** بفك الآصار والأغلال التي عليها.

***

3- التغيير السياسي

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: 53]

إنَّ أحوالنا اليوم ـ أياً كانت ـ هي ثمرة لما بأنفسنا من: (نوايا، وأفكار، وعقائد، وأخلاق، وقيم وموازين، وشعور، ودوافع).. وكل هذه مجتمعة تؤدي إلى "السلوك العملي" في واقع الحياة.. فواقعنا هو ثمرة دواخلنا.

فإن كنا نعاني اليوم من: الذلة والضعف والمسكنة والاحتلال وهيمنة العدو، والتشتت في الأرض، وتسلط المنافقين والمفسدين، فهذه "النتيجة" سببها "ما بأنفسنا" من: ضعف وخوف وشرك ونفاق ورياء وحسد وجهل وأثرة وطمع.. ومن ثم فالبداية هناك.

وإن كنا نتمتع بفضل الله: بالعزة والسيادة والريادة والاستعلاء على العدو، وتقلد الراشدين مناصب الحكم والتوجيه، فهذه "النتيجة" سببها "ما بأنفسنا" من: إيمان وتوحيد وربانية وإخلاص وتجرد وجهاد.

وإننا عندما ننظر بعين الحسرة والقهر والغضب إلى تسلط الظالمين والمنافقين على رقابنا.. يسخرون من ديننا، ويتلاعبون بمقدراتنا، ويتحالفون مع أعدائنا، ويستعبدوننا، ويستبيحون دماءنا وأعراضنا، ويسرقون ثرواتنا.. فنتمنى الأماني بحصد رؤوس الظالمين حصداً، وقد ينجح البعض في فعل ذلك، ثم نجد أنه لا فائدة، ولم يتغير شيء على مستوى النظام السياسي، ولا الاجتماعي، بل زاد الظالمون في قهرهم.. وأخرجت الشجرة الخبيثة

للفساد والنفاق، آلاف الظالمين غيرهم! وانتقل الناس من شر إلى ما هو أشر منه؛ لأنهم لم يقتلعوا الشجرة الخبيثة من جذورها، وانشغلوا بالانتقام من بعض ثمارها.

وعندما نحاول "المشاركة السياسية" من أجل الإصلاح تحت هذه المنظومة الفاسدة والمنافقة.. نجده يتحول إلى صفقات مشبوهة، وعبث سياسي، ورياء وسمعة، وإضفاء الشرعية على الظلم والفساد والبغي والعدوان، ومهما بلغ الفعل السياسي تحت قوانين ومنظومة النفاق هذه لا يتأتى من ثماره من شيء، اللهم إلا قليلاً من المنافع التي لا تسمن ولا تغني من اقتلاع الفساد وشجرته الخبيثة من جذورها.. بل نجد هذه المشاركة مجالها مُحدد بدقة، وتحت هيمنة الظالمين والفاسدين ومتى ما شاءوا أن يهدموا ويحلوا هذه البرلمانات، فلا يكلفهم ذلك إلا جرة قلم!

وعندما نذهب لـ "العمل الدعوي" من أجل إصلاح الفرد والمجتمع، نجد أيضاً المنظومة الفاسدة تحيط بالدعاة، وتفتك بهم، وتتوحش عليهم، وتحدد لهم "الخطوط الحمراء"، والمواضيع التي يتحدثون فيها، بل ويمنعون عنهم الحديث عن آيات قرآنية وسور بعينها ـ أو تأويلها تأويلات باطلة، هي تحريف الكلم عن مواضعه ـ خشية استثارة الشباب المسلم! ثم من ينجح في استقطاب الشباب نحو الفطرة السوية، والإيمان الحي.. فإن هذه الأنظمة المنافقة تطلق الحملات الإعلامية، والفنية، والأدبية، والثقافية، والتعليمية، وتُنشأ الأوضاع.. لخلق واقع من الفواحش، والإباحية، والفقر، يجد معه الشباب المسلم أن تمسكه بدينه كأنه يقبض على الجمر.. يذهب ليحصن نفسه بالزواج فيجد دونه أهوال وعقبات مادية، بل يجد إنه حتى لا يملك ثمن الحرام! فيذهب بعضهم للتصنع والتميع والتذلل للنساء لاستمالة قلوب المتهتكات، أو يذهب إلى المخدرات، ويضطر بعضهم إلى الهجرة للدول الغربية هرباً من هذا الواقع البائس! منهم من يهرب بدينه فيكون تحت أعين الأجهزة الأمنية هناك، ومنهم من يهرب لدنياه فيتعرض للذوبان والانسلاخ من الهوية بالكلية! فيصبح شباب الأوطان الإسلامية ـ في أغلبه ـ مشروعاً للهجرة، حلمه

الهرب بعيداً، بل ويصبح هذا الحلم بعيد المنال؛ فيلقي بنفسه في البحار، لعله يصل إلى "جنة الغرب" كما يظنون، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إذن.. ما العمل؟

نتمنى على الله الأماني، أَلَا يرسل الله لنا رسولاً ينقذنا من هذا الضياع والحيرة في الفكر والشعور والسلوك؟!

هناك بالفعل كثير منا ينتظرون نزول المسيح ـ عليه السلام ـ أو ظهور المهدي!! بعدما تملكهم اليأس وحاصرهم الفشل، ولكن وجود الرسول، ونحن نحمل ما بأنفسنا من أمراض وانحرافات لا يُجدي شيئاً أيضاً، فجاء في الحديث الشريف: عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَ: "**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي...** "[1]

كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، ومع ذلك قاتلتهم! وتفاخروا بقتل المسيح ـ عليه السلام: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157]

ولُعنوا على لسان أنبيائهم، وفعلوا من الجرائم والموبقات والآثام ما جعلهم عن جدارة "أئمة الإضلال والإفساد" في الأرض!

وهناك كثير منا ما يشغله أمر الدنيا عن الدين، ولا يُحدث نفسه بالمحاولة ابتداء! يقول ابن مفلح المقدسي الحنبلي (المتوفى: 763 هـ): "مِنْ عَجِيبِ مَا نَقَدْت مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ كَثْرَةُ مَا نَاحُوا عَلَى خَرَابِ الدِّيَارِ، وَمَوْتِ الْأَقَارِبِ وَالْأَسْلَافِ، وَالتَّحَسُّرِ عَلَى الْأَرْزَاقِ بِذَمِّ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ وَذِكْرِ نَكَدِ الْعَيْشِ فِيهِ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْ انْهِدَامِ الْإِسْلَامِ، وَشَعَثِ الْأَدْيَانِ،

(1) [صحيح البخاري/ 3455]

وَمَوْتِ السُّنَنِ، وَظُهُورِ الْبِدَعِ، وَارْتِكَابِ الْمَعَاصِي، وَقَضٍّ فِي الْفَارِغِ الَّذِي لَا يُجْدِي، وَالْقَبِيحِ الَّذِي يُوبِقُ وَيُؤْذِي، فَلَا أَجِدُ مِنْهُمْ مَنْ نَاحَ عَلَى دِينِهِ، وَلَا بَكَى عَلَى فَارِطِ عُمْرِهِ، وَلَا آسَى عَلَى فَائِتِ دَهْرِهِ وَمَا أَرَى لِذَلِكَ سَبَبًا إلَّا قِلَّةَ مُبَالَاتِهِمْ بِالْأَدْيَانِ وَعِظَمَ الدُّنْيَا فِي عُيُونِهِمْ ضِدَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَرْضَوْنَ بِالْبَلَاغِ وَيَنُوحُونَ عَلَى الدِّينِ"[1]

أمام كل هذا الفشل، والحيرة، والاضطراب.. نعود مرة أخرى إلى هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لماذا لا نهتدي بهذه الآية في واقعنا؟!

بالتأكيد الخلل فينا.. ومتى علمت الأمة داءها وعلاجه فلا تعدم الوسائل له.

"إن [الآية] من جانب، تقرر عدل الله في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها.. ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم.. ومن الجانب الثالث يلقي تبعة عظيمة ـ تقابل التكريم العظيم ـ على هذا الكائن. فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه ويملك أن يزاد عليها، إذا هو عرف فشكر، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر، وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه.

وهذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانباً من جوانب "التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان"، وعلاقة قدر الله به في هذا الوجود، وعلاقته هو بهذا الكون وما يجري فيه.. ومن هذا الجانب يتبين تقدير هذا الكائن في ميزان الله، وتكريمه بهذا التقدير، كما تتبين فاعلية

(1) [«الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح المقدسي، توفى 763 هـ» (3/ 240)]

الإنسان في مصير نفسه وفي مصير الأحداث من حوله؛ فيبدو عنصراً إيجابياً في صياغة هذا المصير - بإذن الله وقدره الذي يجري من خلال حركته وعمله ونيته وسلوكه...

كذلك تصور هذه الحقيقة ذلك التلازم بين العمل والجزاء في حياة هذا الكائن ونشاطه؛ وتصور عدل الله المطلق، في جعل هذا التلازم سنة من سننه يجري بها قدره، ولا يظلم فيها عبد من عبيده: {وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}"(1)

"لقد أرشدنا سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة، حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا، وحل بهم الدمار، ثم لعدولهم عن سنة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة في الرأي، والصدق في القول، والسلامة في الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل، ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية، وأتوا عظائم المنكرات، خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين"(2)

لقد انهزم المسلمون في غزوة أحد.. وقال الله لهم ـ وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165] فأرجع ـ سبحانه وتعالى ـ

(1) [في ظلال القرآن، سورة الأنفال، سيد قطب، ص 1535]

(2) [تفسير المنار، سورة الأنفال، ج 10، ص 38، والاقتباس للشيخ الأستاذ محمد عبده رحمه الله]

الهزيمة إلى ما حمله القوم في نفوسهم[1].. وذكر هذا "الحمل" فقال: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 152]

وفي سياق آخر قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41]

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]

بل إن وجود قلة من الصالحين لا تمنع من الهلاك الاجتماعي.. عندما يكثر في هذا المجتمع الخبث، فلا بد للنجاة من أن يغلب الطيب الخبيث، جاء في الحديث الشريف: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **نَعَمْ "إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"**[2]

ولا يغتر المسلم بكثرة الخبث، ولا يخاف منه، ولا يُسلم له، بل عليه مدافعته وجهاده، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 100]

"وأما ذنوب الأمم فعقابها في الدنيا مطرد، ولكن لها آجالا ومواقيت أطول من مثلها في ذنوب الأفراد، وتختلف باختلاف أحوالها في القوة والضعف كما تختلف في الأفراد بل أشد، فإذا ظهر الظلم واختلال النظام ونشأ الترف وما يلزمه من الفسق والفجور في أمة من الأمم تمرض أخلاقها فتسوء أعمالها وتخل قواها، ويفسد أمرها

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ كتاب: "دروس من غزوة أحد".

(2) [موطأ الإمام مالك/ 1864]

وتضعف منعتها، ويتمزق نسيج وحدتها، حتى تحسب جميعا وهي شتى - فيغري ذلك بعض الأمم القوية بها، فتستولي عليها، وتستأثر بخيرات بلادها، وتجعل أعزة أهلها أذلة. فهذه سنة مطردة في الأمم على تفاوت أمزجتها وقواها، وقلما تشعر أمة بعاقبة ذنوبها قبل وقوع عقوبتها، ولا ينفعها بعده أن يقول العارفون: يا ويلنا إنا كنا ظالمين. على أنه قد يعمها الجهل حتى لا تشعر بأن ما حل بها، إنما كان مما كسبت أيديها، فترضى باستذلال الأجنبي، كما رضيت من قبل بما كان سببا له من الظلم الوطني، فينطبق عليها قولنا في المقصورة:

من ساسه الظلم بسوط بأسه.. هان عليه الذل من حيث أتى

ومن يهن هان عليه قومه.. وعرضه ودينه الذي ارتضى

فلينظر القارئ أين مكان الشعوب الإسلامية من هذه العبرة، والشعور بعقوبة الجناية والحاجة إلى علاج التوبة، وقد ثلت عروشها، وخوت صروح عظمتها على عروشها، وكانت أجدر الشعوب بمعرفة سنن الله في هلاك الأمم واتقائها، وأسباب حفظ الدول وبقائها، فقد أرشدها إليه القرآن، ولكن أين هي من هداية القرآن، وقد ترك تذكيرها به العلماء، فهجره الدهماء، وجهل أحكامه وحكمه الملوك والأمراء..

ثم نبتت فيها نابتة لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، أقنعهم أساتذتهم أعداء الإسلام، بأن لا سبب لهبوطها وسقوطها إلا اتباع القرآن، فأضلوهم السبيل، ولفتوهم عن الدليل، فذنب هؤلاء أنهم يجهلونه، وذنب أولئك أنهم لا يقيمونه، هؤلاء مقلدة للأجانب الطامعين الخادعين، وأولئك مقلدة لشيوخ الحشوية الجامدين، فمتى تنتشر دعوة المصلحين أولي الاستقلال، فتجمع الْكِلْمَةُ بما أوتيت من الحكمة والاعتدال، على قول الكبير المتعال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾."[1]

إذن.. التغيير ـ سواء أكان سياسياً أو اجتماعياً أو فردياً ـ يبدأ من "الأفكار الفعلية التي تتفاعل في نفوسنا" وليست مجرد الأفكار المدعاة في الخارج.. وإننا إذا راجعنا فشلنا خلال المائة عام الماضية، فعلينا أن نفتش في ذواتنا الفردية والاجتماعية[2]، وعندما نفتش بصدق قد نتفاجأ بأننا من دواخلنا نحمل أمراضاً قد لا تختلف كثيراً عن أمراض المنافقين والفاسدين المتسلطين علينا، والذين نرغب ونطمع في تغييرهم!! ولعل نتيجة التفتيش تنتهي إلى أن أئمة النفاق والفساد مجرد صورة عن دواخلنا!!

وإنَّ توجيه الخلل لأنفسنا لا ينفي ولا يُبرأ ساحة المنافقين والمفسدين والمجرمين.. كلا! بل إننا ندعو إلى تطهير أنفسنا وتوبتها لتكون جديرة وقوية ومؤهلة لجهاد الظالمين، وخلافتهم الخلافة الراشدة.

وهناك من يستغل دعوة "النظر في أنفسنا" ليجعلها وسيلة لليأس والقنوط، أو الانقطاع والقعود، أو الراحة والدعة، أو انتظار المجهول! فيثبط الناس عن كل فعل فيه نفع وصلاح، وإن القلوب النابضة بالإيمان لتأبى ذلك، فقد قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أسباب هزيمة أُحد: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165] ، وقال قبلها: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146] وقال بعدها: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا

---

(1) [تفسير المنار، ج 8، ص 278]

(2) ناقشتُ ـ بفضل الله ـ بعض أمراضنا في كتابي: "أمراض الاستبداد ـ الجزء الثاني"، و"انحرافات في الحركة الإسلامية".

لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 172]

ومن ثم فعلينا أن نعيد تقويم وتصحيح وتنقية نفوسنا من الداخل، وتحصينها ضد عوامل الفساد والنفاق، والاجتماع على: **إخلاص تام لله، وتجرد له سبحانه، وتواضع تام للحق..** عندها سيتولى الله ـ سبحانه ـ عملية تحويل ما بأنفسنا من "صلاح" إلى واقع جديد، وسيُغير هو ـ سبحانه ـ أحوالنا من الذلة إلى العزة، ومن التبعية إلى الريادة، ومن الضعف إلى القوة.

سيمنحنا الله الفرص، ويهدينا سبيل الرشاد، ويُبارك جهادنا، ويُولي علينا خيارنا، ويُلهمنا إلى طريق النصر والتمكين.(1)

وإنَّ مسألة "غيروا ما بأنفسكم" ـ أمام هذه الحيرة وأمام ضخامة هذا الباطل ـ قد تبدو سهلة، بسيطة.. ولكنها ليست كذلك، إن تغيير ما بأنفسنا قد يواجه من دواخلنا (سواء النفس الفردية أو النفس الاجتماعية): **العناد، والبلادة، والاستكبار، والخبث، والنفعية، والذاتية**، قد يواجه: **زينة الحياة الدنيا وغرورها وأطماعها..** قد يواجه: **التعصب والجهل والغلو والحسد والغل**، قد يواجه: **التنازع والتفرق وحب الرياسة والتسلط على الناس والتنافس على الملك**، قد يواجه: **العجز والكسل والسمعة والرياء والتملق والنفاق**، قد يواجه: **الظلم والتعنت والغفلة..** وكلها عقبات كبرى أمام "رحلة التغيير".

وإنَّ الرحلة قد تطول أمام أقوامنا حتى نجتمع على "الهدى" وتحمله نفوسنا بإخلاص وتجرد، ولكن رحلة الإنسان تبدأ الآن.. وما يكابده من معاناة وآلام فكلها ابتلاءات في ميزان حسنات المؤمن، فمن يتعامل مع الله يكسب كل شيء.

---

(1) انظر مقال: "سنن الله في الأمم وتطبيقها على المسلمين" للشيخ محمد عبده رحمه الله.

إنَّ التغيير السياسي ـ من المنظور الإسلامي ـ لا يمكن أن نتصوره أنه عملية انتخابية أو محاصصة سياسية أو تعديل بنود في دستور أو حزمة قوانين.. إنه أشمل من ذلك بكثير، إنه ينطلق من آماد بعيدة.. من هناك، من عالم النفس الإنسانية، يعالج الأمراض من جذورها الحقيقية، وينطلق ليغرس الشجرة الطيبة؛ التي تُخرج الثمار الطيبة.

***

4- أزمة المُتدينين

يمكننا أن نقول: إنَّ أزمة المتدينين بدأت بعد ثورة القراء والعلماء على الطاغية الجبار الحجاج بن يوسف الثقفي، وانقضاض عروة الحكم شيئاً فشيء، جاء في الحديث الشريف: **"لتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ، عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ، تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ"**[1] وانفصال سياسة الحكم والمال شيئاً فشيء عن ظل الشريعة الغراء، وظلال السنة النبوية، والعض على الملك، والغرور بالدنيا، جاء في الحديث الشريف:

"... فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ"[2]

حَاول العلماء الحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه من التماسك الاجتماعي المبني على أساس الاستسلام لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتمسك بكل ما يمكن التمسك به.. ولكن محاولة الاقتراب من إصلاح الحكم، وإصلاح الفكر السياسي كانت محاولة مميتة، من يقترب منها تطير رأسه ـ ولا كرامة ـ مهما بلغت منزلته!

ولقد تعرض أئمة المذاهب الفقهية إلى مضايقات شديدة، ولم يسلم أحد من ذلك، إلا أن مكانتهم في العلم والإيمان والتقوى كانت تأبى السكوت على ظلم، ولم يمنعهم الإرهاب من قول الحق ما استطاعوا لذلك سبيلاً، جاء في الحديث الشريف: **"سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ"**[3].

(1) [مسند الإمام أحمد/ 21655]

(2) [صحيح البخاري/ 4015]

(3) [المستدرك على الصحيحين/ 3 : 191]

وقد تميزت هذه العصور بالفتوحات الإسلامية، أو بالدفاع عن الأراضي الإسلامية، وحرية الدعوة إلى الله، وإشاعة المظاهر الإسلامية مثل: القضاء بالشريعة بين الناس، والتربية الإسلامية، ومواجهة الفكر الإسلامي للأفكار الدخيلة والمعادية.. إلا أنه حدثت أزمة كبيرة في الفكر السياسي الإسلامي، وفي تكوين الشخصية المسلمة، حيث أصبح الكثير من المسلمين يؤثر السلامة، ويتملّكه اليأس من إصلاح منظومة الحكم، وأصبح التغلب بالسيف، ثم وراثة الحكم هو خلاصة الواقع السياسي ـ على مظاهر الخير في وحدة الجغرافية الإسلامية، والمرجعية الإسلامية في الشعائر والتربية والفكر والثقافة والهوية والانتماء... إلخ ـ بل وانتقل إيثار السلامة، وحالة اليأس من كونها حالة طارئة على جيل من الأجيال أو زمن من الأزمنة إلى "عقيدة" لازمة للمسلمين في كل زمان ومكان! المخالف لها مُتهم بأنه من "الخوارج أو المعتزلة"! وتكونت عقيدة (طاعة الظالمين) "وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك، فاسمع وأطع"![1] فتأولوا التأويلات الباطلة، وحرّفوا أقوال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لتوافق "دين الملك"!

ومع مرور الوقت بدأ المسلم ينأى بنفسه عن واقعه وأمته، ويؤثر النجاة الفردية، بعد اليأس من الإصلاح، متأولين حديث: "كَيْفَ بِكُمْ وَبِزَمَانٍ أَوْ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ زَمَانٌ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً تَبْقَى حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ وَاخْتَلَفُوا، فَكَانُوا هَكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَقَالُوا: وَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: **تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ وَتَذَرُونَ مَا تُنْكِرُونَ وَتُقْبِلُونَ عَلَى أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُمْ**"[2] وفي رواية: "**وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ**"

وعن: "حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ

(1) راجع ـ إن شئت ـ مقال: "وإن ضرب ظهرك".
(2) [سنن أبي داود/ 4342]

وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ، قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ، قَالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ، قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ، قَالَ: نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ، قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ، قَالَ: **فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**"(1)

وقد يحتاج المسلم إلى العزلة للفهم والتربية وخشية الفتنة، لكن ليس الأمر على إطلاقه.. فأين يذهب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبلاغ رسالة الله، ومجاهدة الباطل والظلم، وإحياء الأمة، والدعوة إلى الله؟ وأين اتقاء الفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة، بل تعم المجتمع كله؟!

كما يمكن أن نفهم من قوله ـ عليه السلام ـ "**وَتُقْبِلُونَ عَلَى أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُمْ**" تكوين "القاعدة الصلبة الخاصة" التي ينطلق روادها لإصلاح أمر العامة.. كما نفهم أيضاً عدم الانشغال بالأمور التافهة، وتفاصيل تُشغل عن إطلاق خطة "**التربية والعمل والتغيير**"، حيث الدخول في تفاصيل أمور العامة ـ وهي منحرفة ـ محرقة للأوقات والأعمار، وربما الأخلاق كذلك.

وبالفعل هناك حالة من العجز لا يستطيع معها الإنسان أن يفعل شيئاً، لأنه بمفرده وحيداً، وتعرضه لتغيير الواقع منفرداً قد يكون فيه خطورة عليه هو فيجرفه التيار، ففي هذه الحالة يجب أن يتمسك هو بتغيير نفسه، ويحافظ على إيمانه وثباته وهذا حسب طاقة كل إنسان في قدرته على الحفاظ على إيمانه، وتغيير واقعه، ولا يلغي هذا مسؤوليته الفردية

---

(1) [صحيح البخاري/ 3606]

عن نفسه، ومسؤوليته الاجتماعية عن أمته، فالعجز ليس حالة دائمة، والاستضعاف المهين والمُذل مرفوض في الإسلام.. ولذا، كان هناك الرواد، وكان من سادة الشهداء من يُنكر على الإمام الجائر الضال.

كما أن مخالطة الناس المخالطة التي تصبر على إصلاحهم، والقيام بالمسؤولية الاجتماعية أفضل وأثبت، كما جاء في الحديث الشريف: "**الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**"(1).

***

ثم مع مرور الوقت وتضاعف الطغيان والإفساد تصبح نجاة المسلم الفردية على المحك أيضاً، فالطغيان والإفساد لا يتوقف، والشيطان يستهدف الإنسان كل الإنسان، ولا ييأس أبداً من محاولة إفساد الجميع، وهو خبير بالنفس الإنسانية! ثم تصبح الأجيال التالية على حافة الهاوية، فماذا ترك لهم أصحاب النجاة الفردية من تراث وتربية وواقع يمكن أن تنمو فيه هذه الأجيال الفتية نمواً صالحاً!

وإذا كانت هذه هي عوامل الفساد الداخلي، فلم يكن الأعداء الطبيعيين للأمة المسلمة بمعزل ولا غفلة عما يجري، بل يعدون العدة للإجهاز على هذه الأمة لصرفها عن دينها بالكلية، وتمزيق ما تبقى من وحدتها، وتدمير جغرافيتها، وسلخها من دينها، وهويتها، وشريعتها: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: 82] ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: 217] ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109]

---

(1) [جامع الترمذي/ 2507]

وطبيعة هذا العدو المقررة في كتاب الله تفرض على هذه الأمة الجهاد الأبدي إلى يوم الدين، ولا ينجح ويثمر هذا الجهاد إلا بالتمسك بكتاب الله، وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتطهر من مظاهر الطغيان والبغي والعدوان والظلم التي تدمر المجتمع الإسلامي ـ وتدمر أي مجتمع ـ وتخلع عنه روح الأخوة، والتآلف، والتماسك، والانتماء، والتكافل، والتراحم، ومكارم الأخلاق.

ولكن مضت السنن الإلهية في طريقها، وسقط العالم الإسلامي، وسقط معه مميزات "الملك العضوض" حيث الهوية والانتماء والوحدة والثقافة والفكر والاستعلاء الإيماني والقضاء بالشريعة، واحترام مظاهر الدين، والتمسك بالفضائل، ومكارم الأخلاق، وإن فسدت قصور الحكم، ومنها ما كان يقترب من ظل الشريعة، ومنها ما كان يبتعد، ومنها ما كان يحب الدين، ويرفع راية الجهاد باسم الله في سبيل الله..

وجد العالم الإسلامي نفسه بلا هوية، ولا انتماء، ولا شريعة، فانطلق الأعداء ـ من أهل الكتاب والمشركين ـ في تمزيق الجغرافيا والتاريخ، والفكر والثقافة، والشريعة والهوية، والصبغة والوحدة، واستبدالها بما هو مضاد للإسلام في كل شيء..

والإسلام بالنسبة للأمة المسلمة والعالم الإسلامي لم يكن مجرد دين اعتنقته، بل كان بالنسبة لها الرحم الذي خرجت منه، والثمرة التي منه أينعت، ومن ثم وجدت الأمة نفسها بلا نسب ولا هوية ولا أصل.. في مهب الريح، محاطة بأئمة النفاق من الداخل، وبأئمة الكفر من الخارج.

وتضاعفت أزمة المتدينين أمام هذا الواقع الذي يتبدل سريعاً لصالح العلمانية، التي تأتي بنظام حياة متكامل، وتريد تحييد الدين عن كل مظاهر الحياة، واعتبار الإسلام مجرد عقيدة فردية ـ ليس لها علاقة بنظام الحياة ـ وحتى هذه العقيدة الفردية لن يتركوها

لهم، بل سيعملون من أجل خلق الواقع المضاد لها في كل مجال ونشاط، حتى يدب فيها الوهن، وتتحلل شيئاً فشيء!

ولا يمكن للدين ـ أي دين ـ أن يعيش ويبقى إلا من خلال وجود الواقع الذي يتحرك وينمو فيه، ويتمثل فيه ظل الشريعة، وتمارس فيه الشعائر والشرائع ومكارم الأخلاق، ويُأمر فيه بالمعروف، ويُنهى فيه عن المنكر، ويُجاهَد فيه الطغاة والفسدة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 24-25] فنداء المسؤولية الاجتماعية السياسية: {**يا أيها الذين آمنوا..**} هنا هو دعوة للحياة.. لحياة الإيمان، وحياة الوجود الشرعي للأمة التي تحمل رسالة الله إلى العالمين، وإن القعود عن الأسباب التي أحيا الله هذه الأمة من أجلها قد يُضيع عليها إيمانها الأول، فلا بد إذاً من المواجهة، ولا بد من الاستجابة لله وللرسول فيما يدعونا إليه، ولا يغرن أحد سابق إيمانه، فإن الله يَحول بين المرء وقلبه!

"وإنَّ من أشنع ما أراده أعداء الدين خلال العقدين السابقين.. هو نزع الروح التغييرية من التدين، ومن مفهوم الإسلام عند أهله، فالناس تنتمي للإسلام انتماءً مسالماً لأعدائه.. متعايشاً مع مختلف الظروف.. شخصياً بدرجة كبيرة.. يصلح الإنسان فيه في خاصة نفسه بعض الصلاح، لكنه أبداً لا يكون اهتداءً لنفسه وللناس.. إنه أبداً لا يقاتل على الدين.. إنه أبداً لا يكون تغييرياً في هذه الحياة.. فهو متعايش مع كل صور الباطل والظلم والفساد والانحراف الموجودة.. إنه يعيش بجوارها دون المدافعة الواجبة شرعاً"..

والداعية حين يتشاغل عن قضايا الأمة المصيرية، كالخلافة الغائبة، والشريعة المحاربة، والمقدسات المحتلة، والثغور الملتهبة، وغيرها من النوازل الكبرى.. ويرضى فقط باللعب

في حدود المسموح به والآمن، كقصة رقيقة، وموعظة لطيفة، وقضية وهمية يحارب فيها أعداء منقرضين، أو أطلال أعداء لا يمثلون التحدي الأخطر على الأمة حالياً، ونحوها.. يمارس انتحاراً دعوياً..

والداعية حين لا يكون صوتاً للحق، ونصرة للمظلوم.. بل ينتقل ليكون تشويشاً على الحق، ولو بتدليس هو دون الكذب الصريح. وينتقل إلى تسويغ ظلم، ولو بأوهى تأويل. ويهمل المظلوم في أحسن أحواله، ويجلده في أسوئها. حين يفعل ذلك.. يمارس انتحاراً دعوياً..

والداعية حين يغير المواقف والمبادئ الشرعية الثابتة، ليتواءم مع أوضاع جديدة، ربما تكون قهراً يغل اليد، وربما تكون مكتسبات توضع في اليد. فيتحرك البدن واللسان ليكون في صف عدو للإسلام، يسبغ عليه شرعية مدعاة. بينما هو يطعن في نسبة الشرعية لأصاحبها الأصليين، الذين هم أحق بها وأهلها. ويوهم غيره أو يتوهم في نفسه أن قلبه في صف أهل الإيمان. لكنها حكمة الكبار، ومصالح الصغار، هي التي صنعت تلك الازدواجية ـ كما يظنها ـ حين يتغير هكذا.. يمارس انتحاراً دعوياً.»[1]

وإنَّ الآثار الاجتماعية والسياسية للظلم والعدوان ـ إن ينتشر ـ تصبح الفتنة عامة.

يقول شمس الدين ابن الموصلي (توفى: 774هـ): «وإذا جَار السلطان انتشر الجور في البلاد وعم العباد.. فرَقت أديانهم، واضمحلت مروءاتهم، وقست قلوبهم، وفشت فيهم المعاصي، وذهبت أماناتهم؛ فضعفت النفوس، وقنطت القلوب؛ فضعفوا عن إقامة الحق؛ فتعاطوا الباطل، وبخسوا الكيل والميزان، وروجوا البهرج؛ فرفعت منهم البركة، وأمسكت السماء غيثها، ولم تخرج الأرض زرعها ونباتها؛ فقَل في أيديهم الحطام؛ فقنطوا وأمسكوا الفضل الموجود، وتناجزوا على المفقود؛ فمنعوا الزكوات المفروضة، وبخلوا بالمواساة

(1) [كتاب: "ملف التغيير"، د. أشرف عبد المنعم، ص27، 72]

المسنونة، وقبضوا أيديهم عن المكارم، وفشت فيه الأيمَان الكاذبة، والختل في البيع والشراء، والمكر والحيل في القضاء والاقتضاء، فيظل أحدهم عارياً من محاسن دينه، متجرداً من جلباب مروءته، ومن عاش كذلك فبطن الأرض خير له من ظهرها»(1)

وجاء في الأثر: "سَيَجِيءُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامٌ تَكُونُ وُجُوهُهُمْ وُجُوهَ الآدَمِيِّينَ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبَ الشَّيَاطِينِ، أَمْثَالُ الذِّئَابِ الضَّوَارِي، لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الرَّحْمَةِ، سفَّاكُونَ لِلدِّمَاءِ، لا يَرْعَوُونَ عَنْ قَبِيحٍ، إِنْ تابعْتَهُمْ وَارَبُوكَ، وَإِنْ تَوَارَيْتَ عَنْهُمُ اغْتَابُوكَ، وَإِنْ حَدَّثُوكَ كَذَبُوكَ، وَإِنِ ائْتَمَنْتَهُمْ خَانُوكَ، صَبِيُّهُمْ عَارِمٌ، وَشَابُّهُمْ شاطِرٌ، وَشَيْخُهُمْ لا يَأْمُرُ بِمَعْرُوفٍ وَلا يَنْهَى عَنْ مُنْكَرٍ، الاعْتِزَازُ بِهِمْ ذُلٌّ، وَطَلَبُ مَا فِي أَيْدِيهِمْ فَقْرٌ، الْحَلِيمُ فِيهِمْ غَاوٍ، وَالآمِرُ بِالْمَعْرُوفِ فِيهِمْ مُتَّهَمٌ، الْمُؤْمِنُ فِيهِمْ مُسْتَضْعَفٌ، وَالْفَاسِقُ فِيهِمْ مُشَرَّفٌ، السُّنَّةُ فِيهِمْ بِدْعَةٌ، وَالْبِدْعَةُ فِيهِمْ سُنَّةٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُسَلَّطُ عَلَيْهِمْ شِرَارُهُمْ، وَيَدْعُو خِيَارُهُمْ فَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ"(2)

ويقول العلاّمة ابن المبرد الحنبلي الدمشقي (توفى: 909 هـ) واصفاً عصره، وحال بعض علمائه: «والعجبُ من بعض المتفقّهة الفَجَرة، يذكرون هذه الأحاديثَ [فضل الإمام العادل] لكثير من الظَّلَمَة ممن انغمس في الظلم، وعامَ فيه وسبح، وأخذَ أموال الناس من غير حِلّها، وقتل النفسَ الحرامَ أكثرَ من ألفِ مرة بغير حق، واستحلَّ أموال الناس ودماءهم وأعراضَهم، ويُزيِّنُ له أنه عادلٌ، ولولا أنت ولولا أنت؛ ليتوجَّه بذلك

(1) [«حسن السلوك الحافظ دولة الملوك، شمس الدين ابن الموصلي (توفى: 774هـ)» (ص65)]

(2) [(المعجم الكبير للطبراني/ 11169)، ونقول "جاء في الأثر" عندما نشك في رفعه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا القول جاء مرفوعاً إلى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ من طريق ابن عباس، ولا نظنه مرفوعاً ولا موقوفاً، بل هو تعبير من الراوي عن حال عصره السياسي والفتن التي تموج فيه، ولذا، فقد جعله العلاّمة ابن الجوزي والسيوطي من الأحاديث الموضوعة، وللأسف جرت العادة عند بعضهم أن يجعل لما يقوله من حِكَم ومواعظ وآراء سديدة سنداً مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم! ليجعل له قيمة ورواجاً! ولذا، نجد في بعض الأحاديث الموضوعة حِكماً وآراء قيمة! وهي ظاهرة جديرة بالبحث والدراسة]

عندَه، وينفق سوقه، فلا كَثّرَ الله في المسلمين من أمثالهم... وكل هذا من ستر كَفَرَةِ فَجَرَةِ الفقهاءِ لهم، ونعتهم لهم أنهم على العدل، وهم على الظلم والجوْر الذي ليس بعده ظُلم ولا جَوْر...

فالعجبُ كلُّ العجب من كلبٍ نجس لا دينَ له ولا عقلَ، ومع ذلك يزعُم أنه فقيه، ويدخل علي الكفرة الظلمة الفجرة في القرن التاسع والعاشر، ويُزَيِّنُ لهم، ويُحَسِّنُ لهم أنهم علي العدل، وأنهم من العادلين، مع قتلِ النفس المحرمة، وعدم توقِّي دماء المسلمين وأموالِهم وأعراضِهم، ومع ذلك، منهم من يُزين لهم ذلك، وأنه خير، وأن بعض أئمة الإسلام أَباحَ قتلَ الثلثين في صلاح الثلث، ونحو ذلك، وكل ذلك زورٌ وبهتانٌ وافتراءٌ علي الأئمة، لا حقيقةَ له، ولا أصلَ، وقد عملتُ في ذلك مصنَّفًا، ومَنْ عنده إيمان ومعرفةٌ يعلم أنه لا يحلُّ قتلُ أدنى أدنى نفسٍ مسلمةٍ لصلاح أحدٍ، كائنًا مَنْ كان، ولو اجتمع أهلُ الأرض على قتل نفس مسلمة بغير حق، أكبّهم الله به في نار جهنم...

وإنّه في هذا الزمان، فسد الأمر بالكلية، ولم يبقَ للمسلمين مال، ولا بيتُ مال، إنّما عاد المالُ لصاحب الحال، حتى إنّهم يكنزونه لأنفسهم وأولادهم، وليس ثمّ على أحد منهم لا من إسلام، ولا مسلمين، ولا مصالح لا عامة ولا خاصّة، فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم...

فلما صار في زماننا، وقبلَه، استأثر الولاةُ بالبلاد، واستقطعوها لأنفسهم، فصار للسلطان في كل بلاد منها ما يصلح له من خيارها، كزرع، وداريا، وعيثا، وغير ذلك من أحسن البلاد... فتخوّلوا في ذلك، وشروا منه الخيلَ واللباسَ من الحرير وغيره، والمماليكَ الكثيرة المتّخذة لِلواط وغيرِه، والعبيد الكثيرةَ المتّخذة للواطِ وغيره، والسراريَّ، وبنوا الدُّور العظيمة، وتوسَّعوا في المآكل والمشارب، فَبطِروا وأَشِروا، فخرجوا من الحلال إلى الحرام، وشربوا الخمور، ووطئوا الإناث والذكور، ودخل إليهم الشّيطان من سائر الحيطان، واتّخذوا الأعوان من كلّ مارد شيطان، فأمروهم بالظّلم والمعاصي،

فلستَ ترى في بابهم غيرَ كلبٍ بلاصي، وطردوا الفقهاء والقراء، وصاروا أعداءهم في السرّاء والضرّاء، فإن حصل لواحد منهم فلتة، أو دخل إليهم بغتة، لم يسعه غيرُ الموافقة والمعاشرة والمرافقة، فإن سكروا سكر، وإن بطروا، بطر، وإن جاؤوا بحرام، أفتاهم بأنه عينُ الحلال، فيدُه متناوِلَةٌ قبل أيديهم، وهو كالشيطان يُغويهم، فهذا شأنه يُفسد أكثرَ مما يُصلح، وليس يرعوي عن قبيح ولا يفلح»[1]

***

احترفت الأنظمة الباغية "صناعة الإرهاب والتوحش" على سنة الجاهلية الأولى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: 10] وأصبح الخوف هاجساً يطارد الكثير من المتدينين! وأصبح جزءاً من التكوين النفسي عند البعض، وقضى على ملكة الإبداع، وانتهاز الفرص، وخلقها، والحركة الإيجابية..

ولما بدأ السادة العلماء يُدركون خطورة هذا المنحى، وأثره على حاضر ومستقبل الأمة.. بدءوا في الدعوة والتربية، فكان لكتّابتهم الأثر الطيب في إيقاظ الهمم والضمائر، إلا أنها من جانب آخر: أزعجت النائمين، وشعروا بالغيرة أمام هذه الروح، بينما هم قد اختاروا لأنفسهم الكتابات القديمة، والدوران في دائرة الجدل الفقهي المذهبي باعتبار أن هؤلاء هم العلماء، وهذا هو الدين الموروث، وقد استمرءوا واستعذبوا التناطح الفقهي، والعقائدي، والجدال، والتفاخر بقهر الخصوم.. بينما الواقع يذهب بعيداً جداً نحو العلمانية، وبينما الأمة تنسلخ من دينها وهويتها!

وأصبح قطاع كبير من المتدينين يتسم بالغفلة السياسية، وسقوط الوعي الحضاري، ويستخف بهم الذين لا يؤمنون! وساهموا ـ دون قصد ـ في ترسيخ الوجود العلماني!! وقد

---

(1) [«إيضاح طرق الاستقامة في بيان أحكام الولاية والإمامة، ابن المِبْرَد الحنبلي (المتوفى: 909 هـ)» (ص123، 127، 247)]

تلقى بعضهم تعليماً مشوهاً، منقوصاً، ضعيفاً، بعيداً. وبينما كان بعض المتدينين يهتم بأدق وأبعد التفاصيل الفقهية والتي لا يترتب عليها شيء لا في الإيمان ولا في العمل الصالح، كان العدو ـ من أئمة النفاق والكفر ـ يستهدف مقاصد الشريعة كلها، والتي هي عند الفقهاء حفظ (الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال)، ويأتي على بنيان الأمة من قواعده!

وأدى الحسد والبغضاء إلى تبديع ومهاجمة من يحاول من العلماء إيقاظ الأمة، وإعادة إحيائها من جديد.. وبيان شمولية الدين، وأنه ليس مجرد عقيدة باردة، ولا شعيرة فاترة! ومن جانب آخر: هناك أئمة الكفر ترصد كل حركة تحاول إحياء هذه الأمة، وجمعها على كتاب ربها، وتواجه ذلك بالسحق والإبادة والتقتيل والتشريد، مستعينة بذلك بعملائها في داخل الأمة.

ومع كل دورة إرهاب وتوحش، يحسب المتدينين داخلياً؛ يتكون هاجس الخوف، يؤثر في طريقة التفكير والإبداع، وإيجاد الحلول، والاستفادة من التجربة؛ يتملّكهم اليأس والعجز، ويسيطر عليهم شعور القهر؛ فيتم الاستسلام للواقع، ويتمسك المتدينون بآخر ما يمكن التمسك به من مقومات النجاة الفردية، محاولين النجاة بأنفسهم، وعزل أنفسهم شيئاً فشيء، ومنهم من يستذله الشيطان؛ فيستخدم علمه أو مكانته أو شهرته في تأييد العلمانية، والطغيان، والإفساد في الأرض؛ فيركنوا إلى الذين ظلموا! ذلك أن عدم مقاومة وجهاد الظلم يخلق بيئة جاذبة لسقوط الجميع ـ إلا من رحم ربك ـ ولذا فالمسلم مهما بلغ به العجز والضعف لا يرضى بالظلم ولا يُتابع عليه، ويظل ينكره بقلبه أبداً، جاء في الحديث الشريف: "**إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ...**"(1)

(1) [صحح مسلم/ 1856]

وقوله عليه الصلاة والسلام: **"مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ"**[1]

أدى هذا الواقع التاريخي، وتوحش الأنظمة الجبرية، وتسلط أئمة النفاق والكفر إلى غربة الإسلام، وإلى عزله عن الحياة السياسية والاجتماعية، مع نشر الفكر العلماني الجاهلي، الذي يعد بالجنة على الأرض، والتي نموذجها الحضاري هو "الغرب"..

وأصبح من يدعو إلى دخول الإسلام في الحياة السياسية[2] هو من صنف (الإرهابي، الإسلاموي، الأصولي الراديكالي، المتطرف) يدعو إلى بدعة ليست من الإسلام في شيء، إنما هم مجرد تجار دين، يريدون أن يصلوا إلى الحكم مستغلين العاطفة الدينية عند الجماهير!

وأصبح المسلم في حِل أن يكون علمانياً أو ليبرالياً أو يسارياً أو قومياً أو شيوعياً، ولا يخدش ذلك في إسلامه شيئاً! بل هناك من العلمانيين في بلادنا من يحارب الإسلام في شريعته، ويحارب أولياء الله المتقين.. وتمضي حياته كلها في محاداة الله ورسوله، ثم في النهاية يذهب للعمرة والحج! ويطعم الفقراء والمساكين، ويظن نفسه من أولياء الله الصالحين!

وزاد هذا الاختلاط والغربة والتميع من أزمة المتدينين، وأزمة التدين بشكل عام.. فمن جانب: انفصل الدين عن واقع الحياة، وحلّت مكانه العلمانية.

---

(1) [صحيح مسلم/ 52]

(2) ونحن لا ندعو إلى دخول الإسلام إلى الحياة السياسية، إنما ندعو أن تنبثق الحياة السياسية - والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية... إلخ، وكل نشاط الحياة - من الإسلام ذاته، وتُصبغ بصبغة الله، وليس مجرد ترقيع، ولا ترضية، ولا مادة دستورية.. فنحن لا نَمن على الله بإسلامنا له!

ومن جانب آخر: ليس هناك إعلان صريح عن الخروج من الإسلام إلى الإلحاد والكفر بل التفاخر بالانتساب للإسلام، وممارسة بعض شعائره.

ومن جانب ثالث: هناك العدو المتربص بأي محاولة لتصحيح مفهوم الإسلام على المستوى الدعوي الفكري، وعلى المستوى التطبيقي الواقعي.

ومن جانب رابع: هناك حالة من الاضطراب عند المتدين الحائر بين النجاة بنفسه، وبين تغيير واقعه.

ومن جانب خامس: الجهالة بكيفية التماسك والوحدة وتحقيق الائتلاف القلبي لمواجهة الواقع العلماني الجاهلي المتوحد والمتماسك والذي يوالي أفراده بعضهم بعضاً، فنعوذ بالله من جَلَدَ وبأس ويقظة الفجار، وعجز وتراخي وغفلة الثقات.

ومن جانب سادس: تنوع صور التدين بين التدين الفردي، والصوفي، والسلفي، والجهادي، والسياسي... إلخ.

ومن جانب سابع: تحول الجهاد السياسي إلى تعصب أعمى، وحمية جاهلية في كثير من الأحيان.

كل هذا التعقيد والتشابك خلق أزمة عند المتدينين بشكل عام، جعل منهم رغم كثرتهم الكاثرة غثاء ليس له كبير تأثير، ولا قدرة على التفاعل السياسي والاجتماعي، ولا همة في الإبداع، ولا يقظة عند الخطر، ولا وحدة في الشعور، ولا تماسك عند المواجهة، ولا إعداد للقوة.

إضافة إلى ذلك: سلوك بعض المتدينين ومظهرهم جعل بعضهم ينفصل شعورياً واجتماعياً عن الأمة المسلمة، وجعل الأمة تنظر إليهم نظرة الغرباء، ولربما فرح المتدينون بهذه النظرة، وبهذا التميز! وهو أمر جد خطير.. إذ يتحول الدين الذي يجب على **كل** مسلم

أن يقوم بشعائره وآدابه ويتمسك بهويته حكراً على طائفة خاصة في المجتمع، ينظر إليها المجتمع العام نظرة استغراب أو نظرة شفقة أو احترام أو سخرية أو محاربة!

ولم يتعلم بعض المتدينين من الواقع حولهم ـ والحياة كتاب مفتوح، والتجارب الناجحة كثيرة ـ وافتقدوا لأدوات عصرهم ووسائله الفعالة، وسيطرت عليهم حالة "العجز والكسل"، فجعلت من بعضهم غثاء كغثاء السيل، غير قادر على التماسك والوحدة والتعاضد والمواجهة كالبنيان المرصوص، وما أن تأتي دعوة من هناك أو هناك للاجتماع، إلا وتظهر أمراض الاستبداد من التعصب والأثرة وعبادة الذات والشح والطمع والاختلاف والضعف والترهل...إلخ[1] ولكن كل محاولة على الطريق هي جديرة بالاحترام والتقدير، ولا يضيع أجرها عند الله ـ طالما كان هناك إخلاص له سبحانه ـ الذي لا يُضيع أجر المحسنين.

ولكن الحديث هنا عن النجاح، عن تفعيل قوة التدين، وحب الدين، والتفاني في حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والانتقال من حالة "**التدين الخامل**" إلى "**التدين النشط**"، ومن حالة "**العجز والكسل**" وغلبة العلمانية إلى حالة "**القوة والوحدة**" وغلبة الإسلام. من حالة "**الشعور بالتميز والطهر**" إلى حالة "**التجرد والتضرع لله سبحانه**"، والتعوذ به من النفاق والشقاق والسمعة والرياء، ويسأل المسلم ربه أن يكون من الأتقياء الأنقياء الأخفياء، جاء في الحديث الشريف: "**إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَإِنَّ مَنْ عَادَى لِلَّهِ وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الأَبْرَارَ الأَتْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ، الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ**"[2] والتربية على "الوجل" والمسلم يأتي الطاعات: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: 60-61] وفي

(1) راجع كتاب: "انحرافات في الحركة الإسلامية".

(2) [المستدرك على الصحيحين/ 3989]

تفسيرها: "أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: "لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ **وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**"(1)

***

إنَّ أهل التدين اليوم كثرة ـ بفضل الله ـ ثم بفضل جهود العلماء الربانيين المخلصين.. الذي شعروا بواجبهم فانطلقوا ولم ييأسوا ولم يعجزوا، جاء في الحديث الشريف: "**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ...**"(2)

ولا بد من أن يقوم أهل التدين ـ والمسلمين بشكل عام ـ بواجبهم الاجتماعي والسياسي في إنهاض وإيقاظ الأمة، ومواجهة الواقع بالوسائل المكافئة ـ مع التميز السلوكي الرباني ـ والاستعلاء بالإيمان ومكارم وصالح الأخلاق فلا يخطوا ولا يتسافلوا أمام ضغط الواقع المنحرف، ولا يكون ذلك إلا بإزالة عوامل الفرقة، وإصلاح ذات البين، وتقديم الائتلاف القلبي على الخلاف الفقهي.

وإنَّ مواجهة الواقع بوسائله المكافئة يتطلب التحرر من الخوف، ومعالجة أي آثار فكرية أو نفسية لأمراض الاستبداد(3)، والقدرة على فهم التاريخ، والواقع، والقدرة على التحليل والتوقع، ووضع الخطط والرؤى القابلة للتنفيذ، والتطبيق، والإبداع في إيجاد الفرص

---

(1) [جامع الترمذي/ 3175]

(2) [صحيح مسلم/ 2667]

(3) راجع كتاب: "أمراض الاستبداد ـ الجزء الثاني".

والحلول، وأخذ الكتاب بقوة.. وليكونوا على يقين أن تدينهم الفردي قد لا يصمد طويلاً أمام ضغط الواقع العلماني والعولمة الإلحادية العالمية، ولو صمد.. فقد لا يصمد لذريتهم من بعدهم ـ لا قدر الله ـ ولا بد من المواجهة حتى يكسب الإسلام أرضاً جديدة، ولا يتركون صغيرة ولا كبيرة في معركة المواجهة إلا وأعدوا لها العدة.. والله قد كتب لهم النجاح شرط الإخلاص له، وشرط اتباع السنن الإلهية، واستفراغ الوسع والجهد، قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21]

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: 51-52]

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 110]

وإنَّ عليهم أولاً بيان هذا الدين **البيان الحق الصادق**، وبيان أن الله **لا يقبل** من المسلم أن يؤمن ببعض الكتاب، ويكفر ببعض ـ كما فعل أهل الكتاب ـ قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 85]

ولا يقبل من المسلم أن يستسلم لغير شريعة الله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: 18-19]

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 123-124]

ولا يقبل أن يكون الولاء لغير الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: 1]

ولا يقبل أن يكون المسلم مصبوغاً بجاهلية أو علمانية: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: 138]

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112]

ولا يقبل من المسلم أن يكون علمانياً أو يسارياً أو اشتراكياً أو ليبرالياً... إلخ: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 49-50]

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]

ولا يقبل أن يَسكن ويقعد المسلمون ـ وهم قوة وكثرة ـ عن مقاومة وجهاد الظلم والظالمين: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: 78-80]

وغيرها مما جاء به كتاب الله، وكانت عليه سنة رسوله صلى الله عليه وسلم. خاصة **مقومات الإيمان** التي من ينقضها فقد وقع في فعل من **أفعال الكفر**، ومضاهاة لأفعال الكافرين.. الأمر الذي ـ وإن انتسب صاحبه للإسلام في الدنيا ـ فهو في الآخرة من الخاسرين، ما لم يرجع ويتوب إلى الله.

هذه البيان الحق، والدين الصادق القوي المتين، هو مصدر كل قوة، والدافع لكل حركة، والمحرك للإخلاص لله، والتجرد له جل جلاله..

وإنَّ التراخي عن هذا البيان، والتهاون في هذه الدعوة يفقد المسلمين قوتهم، ويجعل قطاع كبير من الأمة تمضي إلى العلمانية ظنّاً منها أن دينها بخير، وأنه ليس عليها من بأس! وأنه يحل لها أن تختار بين الأطياف والتيارات السياسية المختلفة، ومن ثم يفقد الدين رجاله، ويفقد الدعاة إلى الله وكتابه شرعيتهم بالنسبة إلى الأمة، ويتساوى الإيمان والكفر، والإسلام والجاهلية، والحق والباطل، واتباع الشريعة واتباع العلمانية. ومن هنا يأتي التيه، والخلل، والضياع، والانهزام، والهزيمة.

وإنَّ البلاغ التام أمانة على كل مسلم: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39]

بعدها تأتي أمانة الدفع بأهل القوة والأمانة لمناصب القيادة، وتَوسيد الأمر لأهله ـ بعيداً عن العصبية والأثرة الجاهلية والمحاباة ـ ليتولوا القدرة على مواجهة الواقع في شجاعة وإبداع وقدرة على الاستمرارية أبداً.. وتربية الكوادر، والدماء الجديدة المتحفزة للنصرة، والانطلاق؛ والتي تخلفهم دون أن تترك فراغاً كبيراً.

والرواد لديهم من الروح والطاقة والإيمان ما يستطيعون به أن يواجهوا ليس واقعهم فحسب، بل العالم كله.. وهذه القبسات هي قبسات من نور النبوة، ومن سنن الأنبياء، وهؤلاء لا يُقال فيهم ما يُقال لأهل العجز.. بل يُقال لهم: انطلقوا فاصنعوا التاريخ، وأخرجوا الناس ـ بإذن ربهم ـ من الظلمات إلى النور، وأيقظوا الشعوب، وأحيوا موات القلوب، وبمثل هؤلاء تنهض الأمم.

هؤلاء هم الذين ينطلقون لتحقيق "**المكاسب القوية**" على كل صعيد ـ ولا يعبئون بـ "**المكاسب الهشة**"[1] ـ ويواجهون العلمانية في كل ميدان، ويكسبون للإسلام أرضاً جديدة كل يوم، ويسحبون البساط من تحت العلمانية، ويعملون على تأليف قلوب المسلمين، ورد الناس لدينها رداً جميلاً بالحسنى، ويُبدعون كل يوم في خلق أدوات جديدة قريبة من الناس، سهلة عليهم، مؤثرة في واقعهم.. يتحركون في كل ميدان، ويستفيدون من كل تجربة، يُرسخون أقدامهم، ويَبذرون بذورهم، ويَستنبتون الأشجار الطيبة الباسقة التي تتطلع إلى السماء، عندها ـ وبإذن الله ـ سيتغير الواقع لصالح الإسلام والمسلمين.

***

(1) انظر: درس "المكاسب الهشة" ص 415 من هذا الكتاب.

5- الموازين والمُحددات

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 174-175]

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: 257]

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 161-163]

يَظن بعض الطيبين أن القرآن الكريم مجرد كتاب مبارك نقرأ منه "سورة الكهف" يوم الجمعة، ونختمه في رمضان، ونستعمله في الرقى والمس، والقراءة على الميت! ويظن البعض أن القرآن الكريم مجرد كتاب أخلاق ودين ليس له علاقة بالحياة (الاجتماعية السياسية)، وليس له علاقة بالعالم المحيط بنا! فالإقبال عليه ـ مع تقديسه وحبه والتمتع بتلاوته ـ هو إقبال عاطفي مجرد عن طلب الهداية فيه.. الهداية الواقعية السياسية الاجتماعية، والعمل به على تمكين دين الله في الأرض، وحتى بعض الذين يحبون أن يُمكن لدين الله في الأرض، يظنون أنهم بمجرد تلاوته التلاوة اللفظية، وأن يكونوا أتقياء في خاصة أنفسهم، أن التمكين سيهبط عليهم من السماء! دون مجاهدة المنافقين والمجرمين والكافرين الجهاد الكبير بهذا القرآن!

وظيفة القرآن: هو أن يضع الإنسان على الصراط المستقيم، طوال رحلته على هذه الحياة.. حتى يصل به إلى الجنة بفضل الله، هذا الصراط المستقيم، وهذه الحياة بكل نشاطها، وألوانها، وتنوعها، وصراعاتها، وأهوائها، وشهواتها.. للقرآن فيها كلمة، وللقرآن فيها نور، وهداية، وفي موضوع كتابنا "العقيدة السياسية" له فيها منهاج حياة متكامل، ودقيق، وحاسم، الخروج فيه عن جزئية واحدة من جزئيات منهجه؛ يؤدي إلى انحراف وخلل ما بقدر هذا الخروج عن الصراط المستقيم.

"فالإسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم؛ لأن ما جاء به من إصلاح البشر في جميع شئونهم الدينية ومصالحهم الاجتماعية والقضائية يتوقف على السيادة والقوة والحكم بالعدل وإقامة الحق، والاستعداد لحماية الدين والدولة، وفيه أصول وقواعد"[1]

وأخطر ما تعرض له كتاب الله ـ القرآن الكريم ـ هو: عزله عن الحياة السياسية والفكرية والواقعية والاقتصادية، وعدم تدريسه الدراسة الحقة في هذه المجالات تحديداً! فحتى بعض

(1) [«تفسير المنار» (11/ 217)]

من يحب القرآن ـ وربما يحفظه عن ظهر قلب! ـ قد يظن أن القرآن الكريم لا يملك محددات وموازين للعالم من حولنا ـ وخاصة العالم السياسي والاقتصادي والاجتماعي ـ ويظن أنه مجرد كتاب مقدس، نتلوه ـ التلاوة اللفظية ـ في المناسبات، دون أن يكون بحد ذاته هو "**المرجعية**" في الفهم، و"**النور**" في الاهتداء، و"**الميزان**" في الحكم، و"**المنهج**" في التطبيق والحركة.

وحتى بعض من يطلب فيه الفتوى، ومن يتصدر للفتوى.. تكون الفتوى مجرد ترقيع، ليس لها جذور سياسية، واقتصادية، مثل: السؤال عن "فوائد البنوك"، ففي النهاية: اقتصاد الأمة كله تحت هيمنة العالم الغربي، ودورة الربا العالمية. **والواجب الحق، والتدين الصحيح** هو: العمل على إنهاء هذا العالم الربوي، وإقامة المنهج الإسلامي في الاقتصاد، وهذا عند البدء فيه بجد، نجد أنه جهاد كبير وعظيم، ورؤية كونية للعالم أجمع.. ومن ثم نستطيع أن نقارن من ناحية الفكر والشعور، والحركة والسلوك بين من يسأل عن وضع ماله في البنك.. ويختلقون له إفكاً يسمونه "شباك المعاملات الإسلامية"! ليخدعوا به البسطاء المتدينين، وبين من يريد أن يحطم الهيمنة اليهودية الصليبية على الاقتصاد، التي تنشر الربا في العالم أجمع، يتبعه الاحتكار، والسحت، والإفساد، والظلم، والغبن، والفقر، والإباحية، وتدمير الأخلاق، وتركيع الدول... إلخ!

وإننا لا نسخر من المسلم الطيب الذي يتحرى لدينه، ويسأل عن فوائد البنوك، بل هذا دليل إيمان وتقوى، إنما نقول: إن المسألة أوسع من ذلك بكثير، وإن للقرآن العظيم هدفاً عظيماً، يهدف إلى إقامة حياة كاملة مستقيمة، وليس ترقيع الباطل، وتجميله، ولا التعايش معه ومداهنته ومهادنته!

***

والناس صنوف شتى في التعامل مع القرآن:

(1) منهم من ينبذ القرآن وراء ظهره، وينكر أي دور له في الحياة المادية الدنيوية، وهؤلاء هم "المنافقون العلمانيون"، الذي يسيرون على سنن بني إسرائيل حذو النعل بالنعل:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 101]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 60-61]

وللأسف سيطر هذا الفريق على التوجيه السياسي والاقتصادي والتربوي في المدارس والجامعات، وتخرج على أيديهم أجيال من المسلمين، يدرسون النظريات السياسية والاقتصادية دراسة علمانية خالصة، ويا ليتها دراسة وطنية.. بل دراسة عولمية تُمجد الغرب، وتقف على بابه، وتتوجه بجسدها وقلبها وروحها إلى قِبلة الغرب، وحيثما كانوا يُولون وجوههم شطره.

وعندما يدهش المسلم الطيب إذ يجد آيات الكتاب تُشرّح واقعه تشريحاً دقيقاً، وتنطق كأنها نزلت عليه الآن، يُسارع المنافقون يقولون: لا تُدخلوا الدين المقدس في مثل هكذا أمور، وتحولوا الأمور إلى صراع ديني!

وبهذا يتم صناعة التيه والضلال صناعة أكاديمية متقنة، تأخذ الأمة إلى الضلال البعيد.

(2) ومنهم من يشتري به الثمن القليل، ليؤيد به الباطل، ويشرعن به الظلم، ويبارك به الفسوق والعصيان، كما قال تعالى:

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ. وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 41-42]

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 77]

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 9]

وهؤلاء خدم الطغاة، وعبيد الملوك في كل جيل وقبيل.

(3) ومنهم من يغفل عن التلاوة الحقة لهذا القرآن: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 121] وتلاوته الحقة هي التلاوة التي تطلب الاهتداء من آياته في كل حياتها، بكل نشاطها، وهي التي تطلب منه النور، وتحدد معالم الطريق، ومن عنده تُقيم الميزان.. الذي تزن به القيم والتصورات، والمفاهيم والسلوك، ثم بعد ذلك تنطلق على ضوئه، وتمضي في معالمه.

والصنف الأول والثاني أمرهم مفضوح للمسلم الصادق، أما الصنف الثالث فهو الذي يحتاج لمزيد من البيان..

لقد رأينا مِن حفظة كتاب الله، ومِن العاملين في محاولة تمكين دين الله في الأرض.. رأينا كيف يقعون في "**الغفلة**" و"**حسن الظن بالعدو**".. الأمر الذي يؤدي إلى إبادة جماعية للجيل المسلم، وتسلط أئمة النفاق والكفر على رقاب المسلمين يستذلونهم، ويريدون ردتهم عن دينهم!

وعند تحليل أسباب تلك الغفلة، وسبب حسن الظن بالعدو.. والقراءة في أدبيات هؤلاء العاملين لدين الله وحركتهم.. نجد أسباب هذا الخلل هو "مخالفة" بعض آيات الكتاب، أو "الهوى والتأويل المتعسف أو الباطل لها"؛ لتوافق الأحكام المُسبقة لديهم، أو أماني كاذبة ليس لها أساس ولا وجود في الحياة.

ونضرب بعض الأمثلة ـ لمزيد من التوضيح:

ـ يقول أحدهم في قيادات المنافقين: "لقد كنا نحسن بهم الظن، ولم نكن نتوقع أن ينقلبوا علينا، لقد عاهدونا، وتوافقنا، وكنا نأمل في إصلاحهم!" والله تعالى يقول: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا. وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [النساء: 88-89] ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73]

يقول العلاّمة ابن القيم رحمه الله: «جِهَادُ الْمُنَافِقِينَ إِنَّمَا هُوَ بِتَبْلِيغِ الْحُجَّةِ، وَإِلَّا فَهُمْ تَحْتَ قَهْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} فَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَصْعَبُ مِنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ، وَهُوَ جِهَادُ خَوَاصِّ الْأُمَّةِ وَوَرَثَةِ الرُّسُلِ، وَالْقَائِمُونَ بِهِ أَفْرَادٌ فِي الْعَالَمِ، وَالْمُشَارِكُونَ فِيهِ وَالْمُعَاوِنُونَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانُوا هُمُ الْأَقَلِّينَ عَدَدًا فَهُمُ الْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا. وَلَمَّا كَانَ مِنْ أَفْضَلِ الْجِهَادِ قَوْلُ الْحَقِّ مَعَ شِدَّةِ الْمُعَارِضِ، مِثْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهِ عِنْدَ مَنْ تَخَافُ سَطْوَتَهُ وَأَذَاهُ،

كَانَ لِلرُّسُلِ ـ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ ـ مِنْ ذَلِكَ الْحَظُّ الْأَوْفَرُ، وَكَانَ لِنَبِيِّنَا ـ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ـ مِنْ ذَلِكَ أَكْمَلُ الْجِهَادِ وَأَتَمُّهُ»(1)

والناظر والمتأمل في كتاب الله في أحوال المنافقين والهجوم عليهم هجوماً شديداً ـ كما في سورة النساء والتوبة والبقرة والمنافقون ـ يحسب أنه ليس هناك من عدو للأمة المسلمة سوى هؤلاء المنافقين، وهم بالفعل كذلك.. فوجود عدو من بني جلدتك ويتكلم بلسانك، ويدعوك إلى النار، ليس مثل عدو ظاهر العداء، مستعلن الكفر.

ـ ويقول أحدهم: "لقد كنا نظن في الأمم المتحدة، والقانون الدولي، والمحكمة الدولية، والكونجرس الأمريكي، والهيئات الدولية العدالة والإنصاف، وطلب الحقوق" والله تعالى يقول:

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120] ويقول سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: 51-52]

---

(1) [«زاد المعاد في هدي خير العباد - ط الرسالة» (3/ 5)] ولم يكن يتصور ـ رحمه الله ـ أن يكون المنافقون ـ في عصرنا ـ هم أئمة الحكم والتوجيه، فكان يظن أن يبقوا دائماً "تحت قهر أهل الإسلام".. وإنَّ الأمة التي يحكمها المنافقون بحاجة إلى إحياء وإصلاح؛ حتى يتصدر حكمها أهل الإيمان لا أهل النفاق.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: 73]

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: 55-56]

ـ ويطلب أحدهم: الوحدة والتوافق مع أنظمة النفاق، ويتمنى أن يهتدوا، ويستقيموا، ويتحدوا في مواجهة الأعداء! والله تعالى يقول:

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 88]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: 11]

ـ ويريد أحدهم: الحلول السلمية وحدها ـ دون أدنى قوة صلبة ـ ويتمنى أن يستمع العالم الحر! لحقوقه ومَظلمته، ويسألهم الإنصاف والعدالة بما يَدّعون من حقوق وحريات! والله تعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]

ـ ويصدق أحدهم إمكانية السلام مع يهود، ويثق في عهودهم ومواثيقهم، والله تعالى يقول:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: 82]

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64]

وكل هؤلاء نحسبهم من حفظة الكتاب! ومن الذين يتلونه "التلاوة اللفظية" ولكنهم لا يرون كيف يصطدم فكرهم ومنهجهم وأمانيهم بآيات الكتاب اصطداماً مباشراً، ومخالفة ظاهرة، ولا يدركون مآل أحوالهم إلا بعد وقوع الكارثة!

فالذي أحسن الظن بأئمة النفاق، وغفل عن بعض آيات الكتاب.. أحسبه لا يعرف أن القرآن الكريم يملك رؤية متكاملة، وخطة محكمة لمواجهتهم. والذي ظن في الأمم المتحدة خيراً أحسبه لا يعرف أن للقرآن الكريم أحكاماً في ذلك. والذي يطلب الوحدة والتوافق مع العدو ـ الذي من بني جلدتنا ـ يظن أن رؤيته حكيمة مستقيمة، وربما بتأثير شعور الضعف، وقلة الحيلة.. يلجأ إلى تمني أماني يستحيل أن تحصل. والذي يمضي في "الرهبانية السلمية" ربما لا يعرف أحكام المواجهة مع المنافقين والبغاة، وسنن التمكين. والذي ظن في يهود خيراً أحسبه لم يقرأ كتاب الله ـ عز وجل ـ من قبل.

وإنَّ "**الغفلة عن بعض آيات الكتاب**" و"**حسن الظن بالأعداء**" ليست مجرد أخطاء عابرة، ولا ذنوب تمحوها التوبة والأذكار! بل إنَّ حالة واحدة من الغفلة ـ إنَّ الانحراف عن آية واحدة فقط ـ قد يفتك بالأمة كلها، ويدمر عليها حاضرها ومستقبلها ـ ما لم ترجع إلى كتابها وتتوب لربها ـ فتُستعبد وتُسترق وتُفتن في دينها وأمنها وحياتها كلها! ويتسلط عليها أعدى أعدائها.

فالذي أحسن الظن في أئمة النفاق، ضاعت منه الدولة.. وغرقت أمته في فتن كقطع الليل المظلم، وضيّع عليها الفرص والتضحيات، وخدر وعي أمته وشل حركتها وقوتها.

والذي انتظر الأمم المتحدة وجد نفسه عارياً ضائعاً مشرداً لا نصير له، ولا ولي.

والذي طلب الوحدة والتوافق لم يُمهله الزمن إلا قليلا حتى وجد من يَطلب الوحدة معهم أشر وأشرس وأفتك من العدو الذي يطلب الوحدة من أجل مواجهته.. فلم يعرف خريطة العدو، ولا من أين يبدأ!

والذي طلب الحلول السلمية وحدها ـ دون أدنى شيء من قوة ـ وجد نفسه مُعلقاً على أعواد المشانق، ودماء أتباعه تجري أنهاراً.

والذي وثق في يهود وجد نفسه مغدوراً به، وضاع منه كل شيء.

والأسوأ من كل ذلك أن تقع كوارث ومآلات الانحراف عن كتاب الله، فلا يتوبون ولا هم يذكرون.. استكباراً عن الاعتراف بالخطأ، والاستنكاف عن المراجعة والتوبة، والطمع في مكسب من وراء الكوارث، وهذا ولا شك انحراف إضافي تولد من انحراف عن آيات الكتاب.. فالانحراف يجر وراءه انحرافات، والاهتداء يزيد المؤمن هدى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17] ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 60] ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77]

***

ولهذا فالجدية التامة في التعامل مع هذا الكتاب أحد الأسس المنهجية في تلاوته حق التلاوة.. تلاوة التسليم والاتباع، تلاوة التدبر والتخطيط، تلاوة العمل والتنفيذ، تلاوة التجرد والإخلاص، قال تعالى:

ـ ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 43]

ـ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا

عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: 169-170]

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا. وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا. فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 50-52]

- ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63]

- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: 73]

فكل انحراف - ولو بسيط - عن الكتاب، هو ظُلمة.. وكل ظُلمة تؤدي إلى الضلال، والتمادي في الظلمات يؤدي إلى الضلال البعيد الذي لا رجعة منه، ولا نجاة: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15-16]

فيجب على الأمة - إذا أرادت أن تحقق النصر والتمكين، وتحل كل مشكلاتها، وتنتصر على أعدائها، وقبل ذلك تحقق إيمانها بالله - أن ترجع إلى كتاب ربها؛ لتستفتيه في أمور حياتها كلها، وتأخذ ما يُقال لها بقوة وعزيمة وحسن توكل على الله، واستفراغ الجهد والوسع في المضي على صراط الله المستقيم، وتثق تمام الثقة في نور الله - مهما حاول البعض التوهين من توجيهات الكتاب، أو ظهر في الواقع ثمة معارضة للتوجيه الإلهي، مثل أن يقال: لقد أنصفتنا الأمم المتحدة في مسألة كذا، وكذا.. فقد يكون هناك مصلحة سياسية أخرى للعدو من وراء ذلك، أو يكون مجرد محاولة للالتفاف على قضية ما، أو

محاولة خداع المسلمين، وتخديرهم، وتأميلهم... إلخ، فلا يعترضن أحد على الكتاب بمثل هذه المعارضات، ويتمسك بالكتاب بكل قوة، فلا يبصر إلا به، ولا يمضي إلا على طريقه.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]

***

6- الدين والسياسة

هل للدين علاقة بالسياسة؟

هل حقاً لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة؟ وهل الدين لله، والوطن للجميع؟

هل يصح أن الدين الطاهر المقدس يتداخل مع السياسة النجسة البراجماتية ذات التقلبات والتوازنات التي تختلف من حين لآخر؟

هل يصح أن يتداخل الدين مع المصالح السياسية للأحزاب والجماعات والدول، وماذا عندما تتغير هذه المصالح، هل الدين العظيم يدور مع المصالح السياسية حيث دارت؟

أليس المرشح "الإسلامي" يتاجر بالدين، عندما يجعله ضمن برنامجه السياسي، ويستخدم المنابر الدينية في الترويج لخطابه الدعائي السياسي؟ هل نحن كفرة عندما لا نتاجر بالدين ولا نقحمه في المجال السياسي؟

أليس التمييز على أساس الدين يعتبر خطاباً عنصرياً وغير وطني ويخالف حقوق الإنسان؟

كل هذه الأسئلة وغيرها يسألها البعض بجهالة وحسن نية ـ وهم قلة ـ وتلوكها ألسنة العلمانيين صباح مساء، تارة تحت شعارات تقدمية يسارية، وتارة تحت شعارات ليبرالية، وتارة تحت شعارات قومية وطنية!

وإنَّ استنكار أن يكون للدين علاقة بالسياسة ـ وهي نشاط من أنشطة حياة الناس ـ وهي النشاط الحاكم لحياة الناس، هو استنكار من قديم، استنكره كل ملأ مجرم مترف على رسل الله، وقالوا: ما دخل الدين في نشاطنا الاقتصادي؟ وما دخل الدين في قيمنا وسلوكنا الأخلاقي؟ وما دخل الدين في نظامنا السياسي والاجتماعي؟

ولكنهم في جرمهم كانوا أكثر وضوحاً وصراحة.. أما مجرمي اليوم فيحترفون الدجل في الزعم باحترام الدين، وبقدسية الدين، وبعظمة الدين، ويحلفون أنهم متدينون.. ولكنهم - حرمة للدين وتعظيماً له - لا يحبون إقحامه في مجال قذر ونجس تتقلب فيه المصالح والأهواء؟ وإنهم أفضلاً حالاً ممن يجعلون الدين مطية للوصول إلى الحكم!

وإذا كنا نتحدث عن "الإسلام" فقد كان التطبيق السياسي للمبادئ الإسلامية، أو المخرجات السياسية والاجتماعية والاقتصادية - وكل نشاط الحياة - للمنهج الإسلامي مسألة لا خلاف عليها إطلاقاً بين المسلمين قبل انهيار الدولة العثمانية، وقبل الاحتلال الغربي لبلاد المسلمين.. كانت الإشكاليات في صحة وجودة هذه المخرجات وعمل المسلمين فيها، ولكن لم يكن هناك جدال على المبدأ أبداً.. فكانت الخلافة الراشدة نموذجاً مهدياً للتطبيق الصحيح للمبادئ والمنهج الإسلامي، وكان الملك العضوض رغم ما كان فيه من انحراف في سياسة الحكم والمال، إلا أنه لم يكن ليجادل في المبدأ، بل كان يزعم أنه يمثل الدين، ويحمي حوزته، ويستمد شرعيته منه، ويجاهد في الدفاع عنه وعن أمته.. وهذا الجهاد كان أعظم ميزة في الملك العضوض رغم ما فيه من المخالفات للسنة السياسية النبوية الراشدة.

ومن يقرأ كتاب الله، ويتصفح في سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - سيجد مبادئ كلية، وأخرى تفصيلية لكل نشاط الحياة، وقد عبر عنها القرآن العظيم: بالصراط المستقيم، والخروج من الظلمات إلى النور، والهدى الإلهي، والدين القيم، والتبيان لكل شيء، وسبيل الرشاد، والنور المبين... إلخ، هذه الحقيقة التي هي أظهر من أن تُبين، وعلى البداهة معلومة.. تعرضت لضربات خبيثة ماكرة على يد المستشرقين وتلاميذهم، جاءت هذه الضربات كالتالي:

بعد انهيار الدولة العثمانية، وسقوط الوحدة السياسية للمسلمين، وضياع رمزية الخلافة كنظام سياسي جامع - وقد كانت أحد مظاهر الملك العضوض، ولم تكن خلافة راشدة

ـ إلا أنها كانت تمثل وحدة سياسية رمزية، وفيها خير أفضل مما جاء بعدها من شرور وفساد وعلمانية وتفتيت العالم الإسلامي.. وهيمنة العدو الغربي بحقده الصليبي الدفين، وبأطماعه في السيطرة على العالم الإسلامي.. السيطرة الدينية والثقافية والسياسية والفكرية والاقتصادية والعسكرية، بدأ يطلق المستشرقين ليُجهزوا على فكرة الإسلام السياسية وإنه ليس له أي علاقة بالسياسة، وإنه مجرد دين!

فعمل المستشرقون ـ وبعيداً عن الأمانة العلمية، إنما المكر السيئ الخبيث ـ على محاور عدة:

ـ اعتبار الإسلام ديناً عظيماً، لكن ليس له نظام سياسي واضح.

ـ اعتبار الإسلام ديناً عظيماً، لكن لا أمل في أن يكون له نظام سياسي ناجح.

ـ اعتبار الإسلام ديناً عظيماً، وله تاريخ عظيم، وفترة من الخلافة الراشدة، إلا أنها كانت فلتة من فلتات الزمان، ولا يمكن تكرارها أبداً، بل ولا حاجة للبحث في تكرارها، فهي محاولة مستحيلة الحدوث في عصرنا هذا.

ـ اعتبار الإسلام ديناً عظيماً، وتاريخ عظيم، وشريعة مثالية.. إلا أنها كانت فترة تاريخية، ومرحلة من مراحل التطور الحضاري، ولا يمكن ـ في ظل عصرنا هذا ـ الاقتداء بها، أو محاولة تطبيق نسخة منها، حيث تغيرت الأحوال، والظروف والسياقات التاريخية والحضارية.

ـ اعتبار الإسلام ديناً عظيماً، وتم استغلاله سياسياً في ظل الصراع على الحكم.

ـ اعتبار الإسلام ديناً عظيماً، ولكن له صوراً من الفهم والتطبيق تختلف بحسب الزمان والمكان، فليس هناك إسلام واحد.. بل إسلامات متعددة.

ـ اعتبار الإسلام ديناً بلا دولة، ولا شريعة، ولا قوة ولا حكم، يُستفتى في نواقض الوضوء، ولا يُستفتى في أوضاعنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ـ الترويج للغرب بأنه النموذج المثالي للحضارة، وأنه لا يُعادي الإسلام والمسلمين أبداً، إنما يعادي النماذج السياسية التي تستغل الدين في السياسة، وتؤذي المسلمين بمحاولتهم التصدي للهيمنة الغربية، فالغرب يحارب فقط الإرهابيين والأصوليين والمتطرفين؛ فأسلم وأفضل طريق هو الاستسلام للنظام الدولي دون القلق على الدين حيث جنابه محترم مصون!

والخلاصة التي كان يَرنوها المستشرقون هي: فصل الإسلام عن واقع الحياة الجديد.. لتكون "العلمانية" هي المنهج والنظام الجديد، ومن ثم محاولة "**علمنة الإسلام**" بطريقة ليس فيها الهجوم على الإسلام كدين، وتجنب استفزاز مشاعر المسلمين الدينية بالطعن في الدين أو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كان كثير من المستشرقين من يفعل ذلك! ولكن الآثار السلبية لهذا الهجوم الوقح وردة فعل المسلمين جعلت مدارس الاستشراق تُفضل منهج تعظيم الدين مع حصره في عقيدة ساكنة في الضمير، وشعائر وطقوس في جدران المساجد، دون أن يخرج عن هذه الحدود قيد أُنملة. حتى كان خروج المرأة وهي متحجبة في الشارع هو خروج عن حدود جدران المسجد، واعتبرت فرنسا الحجاب رمزاً للأصولية والإسلام السياسي والتطرف يجب القضاء عليه وتحرير المرأة منه! وما زالت المعارك حول الحجاب لم يخب أوارها قط!![1] بل تحول شعيرة الصلاة أيضاً إلى عمل أصولي يجب الحذر منه، وتجنبه!

وقد انبهر بعض المسلمين بعمل المستشرقين ـ وقد كانوا يعملون بجد وتفان! ـ وراحوا إما عن جهالة أو سوء قصد تكرار ما يقولونه ويرددونه في كتبهم ومحاضراتهم، وقد افتتنوا

(1) راجع ـ إن شئت ـ كتاب: المستشرقون والإسلام، محمد قطب.

بذلك ربما أمام الهزيمة النفسية الحاصلة، وإما بسبب العجز عن إيجاد النموذج السياسي الراشد ـ وهو عمل المسلمين بالأساس ـ وإما لأن الدولة والقوى الخارجية كانت تدعم بكل قوة هذا الخطاب، وإما لاقتناع البعض بأن الدين يجب بالفعل أن يكون بمنأى عن الصراعات السياسية وخبثها! وإما عن نفاق خالص، وإيمان بدين العلمانية..

هذا على مستوى الفكر، أما على مستوى الواقع السياسي.. فقد وقعت البلاد في قبضة وهيمنة القوى الغربية وسيطرتها، وما زالت حتى يومنا هذا!

ولكن نظراً لأهمية الفكر الذي يُولد الإرادة، ويدفع إلى التغيير، ويحدد مسار الحركة.. كان العدو الخارجي حريصاً جداً على هذا الاختراق الفكري، ويبذل فيه كل ما يستطيع من أجل القضاء على الفكرة الإسلامية من أساسها، ولم يكن أيضاً يعمل في مجال الفكر وحده..

بل عندما قامت الحركة الإسلامية لترد الروح الإسلامية في واقعنا، ومحاولة إحياء الأمة بالقرآن.. أعملوا فيها قتلاً وإرهاباً وتوحشاً في كل مكان، متهمين إياها بكل نقيصة، وجعلوها عنواناً للإرهاب بينما هي المعتدى عليها، وبالفاشية بينما هي التي تتعرض للإبادة، وبالأصولية والتطرف بينما هي التي تحاول أن تمضي على سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأوجدوا لها بدائل من "رجال دين" صنعهم الغرب على عينه، وتحت إشرافه، ليكونوا بديلاً عن الحركة الإسلامية، وليسحبوا البساط الشعبي والحاضنة الاجتماعية للحركة الإسلامية! هذا غير البدائل الليبرالية واليسارية والقومية!

فكانت حرباً على مستوى الفكر، وعلى مستوى الواقع السياسي، وعلى مستوى الأعمال العدائية ضد الحركة الإسلامية.

والعجيب أن العدو لم يكتف بمحاولة "علمنة الإسلام" ونزع دوره في الحياة بمختلف نشاطها، بل حاولوا أيضاً "**أسلمة العلمانية**" بتكييف وضعها بصورة شرعية عند الضرورة،

فيخرج أئمة الضلالة ليضفوا شرعية دينية على أوضاع علمانية فاسدة فاجرة مجرمة، ليمضوا على سنة أهل الكتاب في تحريف الكلم عن مواضعه، وبيع آيات الله بثمن قليل، وهم يحتاجون لذلك فقط عندما تصل الحركة الإسلامية، والروح الإسلامية إلى درجة من الحضور الشعبي والسياسي.. فيسارع الطغاة والفجرة في البحث عن شرعية دينية لأوضاعهم!

وجدير بالذكر أن هذه "العلمانية" يمكن تسميتها بـ "**العلمانية السياسية**" أي: التي تعمل في المجال السياسي والاقتصادي، ونظام الدولة، وهناك "**العلمانية الكُلية**" التي تهدف إلى عولمة وفرض مفاهيمها وثقافتها وتفسيرها للحياة والوجود والإنسان، وتستهدف ليس فقط الجزء السياسي، بل الكل الإنساني من تصور وفكر وثقافة وفلسفة ومفاهيم وتربية وأخلاق.. بحيث تفسر له الحياة والوجود تفسيراً كلياً شاملاً، ومُحدِداً للقيم والموازين، والصواب والخطأ، وهي جميعها ـ لا شك ـ تفسيرات مادية إلحادية، وتريد فرض تصوراتها بكل وسيلة ممكنة باعتبارها "الدين الصحيح" أو التفسير الصحيح للتاريخ أو نهاية التاريخ، ولهذا نجد ـ على سبيل المثال ـ اهتمامهم البالغ والعجيب في تطبيع المثلية ـ الشذوذ الجنسي.[1] واعتبارها من أهم مقومات الحرية الإنسانية!

***

وأما جواب شبهات العلمانية وأذنابهم:

ـ فالإسلام دين جاء ليحكم هذه الحياة بكل نشاطها، ومن ضمنها ـ وعلى رأسها ـ المجال السياسي ونظامه، ومن يرد حكمه فقد كفر ببعضه أو كفر به بالكلية.

ـ وإنَّ الجميع يتاجر بالدين.. ولكن هناك تجارة رابحة، وتجارة خاسرة، التجارة الرابحة هي التجارة مع الله، فكسبها مضمون وربحها بعرض السموات والأرض وخيرها أبدي:

(1) انظر كتاب: "المثلية الجنسية بين الإسلام والعلمانية".

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: 29]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: 10-13]

وهناك تجارة خاسرة ـ في الدنيا والآخرة ـ تجارة من يبيع آيات الله بثمن قليل لأسلمة العلمانية، وعلمنة الإسلام، والإيمان ببعضه والكفر ببعضه الآخر: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 14-16] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: 86]

فاختر أي التجارتين تريد؟

ـ وإنَّ واقع السياسة النجس والخبيث، إنما جاء الإسلام ليُطهره ويُزكيه؛ وليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الباطل إلى الحق، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الظلم إلى العدل، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ـ وإنَّ من يزعم الإسلام، ويستغله في تحقيق غرض سياسي، إنما إثمه على نفسه، وواجب على المسلمين الأخذ على يد الظالم، وإرغامه على الحق إرغاماً، وواجبهم امتثال حياتهم السياسية وفق المنهج الإسلامي، بل أن تنبثق حياتهم السياسية ـ وغيرها من الأنشطة ـ من إسلامهم وإيمانهم.

ـ وإنَّ المسلمين إنما يدورون مع كتاب ربهم حيث دار، وإن جميع مصالحهم السياسية الآنية والبعيدة تتمثل في التمسك بكتاب ربهم بكل قوة.

ـ والإسلام لا يجعل هناك منافسة شرعية بين "مرشح إسلامي" و"مرشح علماني" ابتداء، حيث لا شرعية للعلمانية.. إنما المنافسة بين مرشحين يتنافسون على خدمة الإسلام، وإعلاء كلمة الله، ونصرة دينه، والانتصار للأمة الإسلامية.

ـ والإسلام يجعل رسالته أغلى من ملء الأرض ذهباً، ورسالة بهذه القيمة ـ وفيها سعادة الدنيا، والفوز العظيم الأبدي في الآخرة، والنجاة من النار ـ جدير بها أن تُميز بين الناس (بالحق والعدل والرحمة) على أساس الدين، وليس على أساس الجنس أو اللون أو اللغة أو حدود الأرض! فالإسلام أغلى من كل ما في الأرض: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: 47] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 91] ولا يتصور هذا المعنى إلا الذين آمنوا حقاً باليوم الآخر، ويستعدون للحساب ويتطلعون للجزاء، وهذا التمييز إنما هو رحمة بالإنسانية ابتداء.. فهو يُنبهها إلى الحق في هذا الدين، ويُعرّفها أنه لا يتساوى مع غيره من الأديان، وأن أصحابه يؤمنون إيماناً يقينياً بأنه دين الله الحق الذي لن يقبل غيره، وكل هذا يدفع غير المسلمين إلى النظر في هذا الدين، والبحث في يقين أصحابه، ولماذا هم مؤمنون إلى هذه الدرجة؟

كما أن هذا الدين يقوم على قاعدة أخلاقية أصيلة ربانية تصلح أن تكون أمينة على الجميع، وعادلة بين الجميع.. وهذا الشيء الذي حرمت منه البشرية منذ أن غابت دولة الإسلام عن الوجود والشهود.

***

إنَّ العدو الغربي يدرك قوة الإسلام أكثر مما يدرك المسلمون اليوم! لقد جربوه طويلاً، وعرفوا أثره في قلوب المسلمين، وخبروه في حروبهم الصليبية التي لم تنقطع! وقد تكسرت على صخرته أطماعهم طويلاً! ولذلك فهم حريصون على وأد الفكرة الإسلامية في مهدها، والقبول ـ على مضض ـ شعائر هذا الدين باسم الحرية، وحقوق الإنسان، واحترام الآخر.. مروجون لأنفسهم أنهم أهل التسامح، وأصحاب القيم العالمية، والروح الإنسانية، والمواطنة العالمية... إلخ من هذا الدجل الخالص والمحترف!!

"إنَّ الاستعمار يُبقي للناس صور العبادات الميتة، إذ لا غناء لهم فيها، ولا خطر عليه منها، ويساعد على جعل الدين مقطوع الصلة بكرامة الإنسان الفردية والاجتماعية والسياسية.

فالدين ـ في نظره ـ يجب أن يعادي هذه الحقوق المقررة بالفطرة، أو أن يكون عوناً لمن ينتهكونها! أو على الأقل، يجب أن يكون محايداً بإزائهم وإزائها.

أما أن يؤيد الدين هذه الحقوق، وأن يحض على النداء بها، وأن يجعل في مقدمة الشهداء من يموتون فداء لها، فلا!

وعلى هذا المبدأ المجرم، قام الاستعمار الداخلي في الشرق، فأسلم الشعوب لقمة سائغة، وغنيمة باردة، للغزاة الأوروبيين الذي استولَوا على كل شيء واستغلوه لمصلحتهم قبل أي شيء.

ونعني بالاستعمار الداخلي فقدان الأمم القدرة على حكم نفسها بمن تختار من أبنائها، وسقوط أزمة الحكم في أكثر الأحايين بين أناس تمقتهم الجماهير، وتتمنى زوالهم لأنهم يؤثرون شهواتهم على مصالحها، ولا يملكون كفاية حقيقية للبقاء في مناصبهم، ومن ثم فهم يستديمون حكمهم بالإرهاب والاحتيال وغير ذلك، ونجاح الاستعمار الغربي في أقطار الشرق مهدت له هذه الأحوال.

ثم جاء دور الأحرار في الكفاح. واسترداد ما ضاع، فمن الغفلة أن ننسى دروس الماضي وعبره: **"لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين"**. ولقد لدغتنا المظالم في الداخل فسمَّمت دماءنا، وهدَّت قوانا، وسبَّبت لنا هزائم مريرة، فيجب ألا نمكن لها من العودة أبداً. ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾

... نعم قد تنسحب جيوش الاحتلال، وتختفي السيادة المباشرة، غير أن أوضاعاً أخرى ستحل محلها فوراً، وتبقى الأمم ضعيفة مقودة بخيوط خفية إلى السادة الأولين أنفسهم أو إلى بديل لا يقل عنهم لؤماً وضراوة.

إنَّ الاستعمار قد يتطور ويبدل أزياءه وفق الأحوال التي تلائمه، ولكنه باق ما بقي حق ضعيف وباطل قوي... ودول أوروبا وأمريكا كقطيع من الذئاب يعدو هنا وهنالك بحثاً عن الفرائس...

فلا بد من محاربة الاستعمار الداخلي، حتى لا يكون هناك مجال لأيِّ تدخل خارجي. وحتى تهب الشعوب على قلب رجل واحد بإزاء أي هجوم يُوّجه إليها من أعدائها الآخرين.... فإن الحاكم المستبد، الذي تنتهي تصرفاته بإذلال الشعب، واحتقار رأيه، وكبت رغائبه، هو الحاكم الذي يمهد تمهيداً واسع النطاق للاستعمار، ويفتح أبواب البلاد على مصراعيها، للعدوان الأجنبي، ومما لا ريب فيه، أن سياط الحكومة في الداخل

تؤطى الظهور لقبول السياط من الخارج! ومتى انحنت القامات مرّة لمن يريد من الحكام المجرمين، انحنت مرة ومرة، لمن يشتهي ذلك من طغاة المستعمرين"[1]

والحرب الغربية ليست ضد الحكم الإسلامي فحسب، "وإنما هي ضد الإسلام الرافض لقيم الحداثة الغربية: الليبرالية.. والعلمانية، وعن هذه الحقيقة يفصح المفكر الاستراتيجي الأمريكي "فرانسيس فوكوياما" فيقول: «إن الحداثة التي تمثلها الولايات المتحدة الأمريكية والديمقراطيات المتطورة ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية، وإن المؤسسات التي تجسد مبادئ الغرب الأساسية ستستمر في الانتشار عبر العالم.. وإن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي لديها مشاكل أساسية مع الحداثة.. فالحركات الأصولية الإسلامية ترفض لا السياسات الغربية فحسب، إنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة، وهو العلمانية نفسها..

وإن المسألة ليست ببساطة حرباً على الإرهاب، وليست المسألة الحقيقية هي السياسات الخارجية الأمريكية في فلسطين أو العراق، ولكن الصراع الأساسي الذي نواجهه أوسع من ذلك بكثير.. إنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية، وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي حول الدولة العلمانية.. وهذا هو التحدي الأيديولوجي الذي يمثل في بعض جوانبه تحدياً أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية»"[2]

ولكن.. لماذا يرفضون ويكرهون الإسلام إلى هذه الدرجة، ويريدون فصله وتمزيقه، والزعم باحترام شعائره، ومحاربة شرائعه ومبادئه وأهدافه وموازينه وتصوراته؟!

---

(1) [كتاب: "الإسلام والأوضاع الاقتصادية"، ص 71 وما تلها باختصار، محمد الغزالي] وقوله: "الحاكم المستبد" حسن ظن كبير منه رحمه الله، فالأمر أبعد بكثير جداً من الاستبداد، لقد وصلنا إلى قعر الخيانة والنفاق.

(2) [الإسلام في عيون غربية، د. محمد عمارة، ص 49]

إنَّ الزعم باحترام شعائر الإسلام هو مسألة براجماتية بالنسبة للغرب تحت دعاوى الحرية أو التقدمية اليسارية، وإلا فهم كارهون لكل ما يمت للإسلام بصلة، وما هجوم الغرب المستمر على شعائر الإسلام منا ببعيد.. أما الذي لا يتجملون جميعاً أمامه ولا يزعمون فيه حرية بل حرب معلنة لا هوادة فيها هو "حكم الإسلام" وشريعة الإسلام" و"سياسة الإسلام"؛ لأن هذا الحكم سيقوض مبادئ الحضارة الغربية نفسها القائمة على عبودية المادة ـ أو بمعنى أدق عبودية الشيطان ـ إنهم يكرهون بشدة أن يقول الإسلام في نظم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسلوكية.. "هذا حلال وهذا حرام" "هذا إيمان وهذا كفر" فهذه بموازينهم ليست من حق الإسلام، بل من حق "العلمانية"، والإسلام عندما يتدخل في هذا الشأن العلماني فهو بذلك أصولي راديكالي، إرهابي، متطرف، عدواني، غير متسامح! يحاد ويحارب وينابذ الحضارة الغربية، ويهددها من أساسها! إنهم يكرهون بشدة أن يكون هناك "ولاء وبراء" و"جهاد باسم الله" في الإسلام، فإنما الولاء للعلمانية والبراء من كل ما يخالفها ويعاديها، والقتال إنما باسم القومية حصراً، ولمصالح الدول الكبرى فقط.

إنهم يعلمون أن حكم الإسلام **سيحارب الربا والاحتكار والمضاربات الباطلة والنهب** الذي يقوم عليه اقتصادهم، **وسيحارب الإباحية والدعارة والمسكرات والمخدرات** التي هي متعة حياتهم (أو وسيلة الهرب من الحياة!)، **وسيحارب الظلم والعدوان واستعباد الشعوب الضعيفة** الذي قامت عليه حضارتهم، **وسيحارب استغفالهم للناس وتعبيدهم للمال والشهوات، وسيحارب إفساد يهود في الأرض** الذين مكنوا لهم في قلب العالم الإسلامي، **وسيحارب سيطرتهم وهيمنتهم على العالم الإسلامي لإفشاله**، وإضعافه، وسرقة مقدراته ونهب ثرواته، **وبالجملة سيحارب الإفساد والباطل في الأرض..** ولأنهم يدركون ذلك فإنهم يحاربونه حرباً لا هوادة فيها، وواجب المسلمين أن يدركوا ذلك أيضاً، ويستعدون له، ويجاهدون ـ باسم الله ـ في دفع هذا الباطل والإفساد في الأرض.

"إنَّ الصليبيين يعرفون ويقول الصرحاء منهم ـ وقد سمعته في أمريكا بأذني ـ أن الإسلام هو الدين الوحيد الخطر عليهم. فهم لا يخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهودية، إذ إنها جميعاً ديانات قومية لا تريد الامتداد خارج أقوامها وأهليها، وهي في الوقت ذاته أقل من المسيحية رقياً. فأما الإسلام فهو ـ كما يسمونه ـ دين متحرك زاحف. وهو يمتد بنفسه وبلا أية قوة مساعدة. وهذا هو وجه الخطر فيه في نظرهم جميعاً. ولهذا يجب أن يحترسوا منه، وأن يقاوموه ويكافحوه.....

وهؤلاء الصليبيون يعرفون أن الإسلام ليس شيئاً آخر غير حكم الإسلام، فهو لا يستطيع أن يتحقق كاملاً وقوياً في هذه الأرض بغير هذا الحكم، الذي يحوّل العقيدة شريعة، ثم يقف ليحميها ويدفع عنها.

لذلك يحاربون رجعة الحكم إلى الإسلام محاربة قوية لا هوادة فيها. يحاربونها بنفوذهم وبقوتهم، كما يحاربونها بوساطة المغفلين منا، وذوي المصالح الذين يخشون حكم الإسلام عليها...

إنه لا ضير من الإسلام حين يكون تمتمة بالشفاه وطقطقة بحبات المسابح، أو أدعية وتراتيل، أو محملاً يطاف به سبعاً، ويسلم مقود الجمل الذي يحمله رسمياً! أو مولداً تطلق فيه "الصواريخ" أو مشيخة طرق أو نقابة أشراف تخلع فيها الخلع وتمنح فيها الألقاب.. إلى آخر أجهزة التخدير التي يستغلها الطغاة والمستغلون ليلهوا بها الجماهير. فأما حين يصبح حكماً جاداً ينفذ شرائع الإسلام في الحكم والمال، ويمنح الحقوق الإنسانية والاجتماعية والقانونية لكل فرد وكل جماعة، ولا يفرق بين الشعائر التعبدية والشرائع القانونية.. فدون هذا ويصبح الإسلام خطراً يتقى، وكارثة تدفع، ومعركة يخوضها الطغاة والمستغلون بكل ما يملكون!"[1]

---

(1) [معركة الإسلام والرأسمالية، سيد قطب، ص95، 103]

"إنَّ الله ـ سبحانه ـ يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك! ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه. لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم. ليس بالأمس فقط. ولكن اليوم وغداً. وفي كل أرض، وفي كل جيل!

وإنَّ الله ـ سبحانه ـ يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفاً. ولا يمكن أن يدع الخير ينمو ـ مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة! ـ فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر. ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل. ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة!

هذه جبلة! وليست ملابسة وقتية...

هذه فطرة! وليست حالة طارئة...

ومن ثم لا بد من الجهاد.. لا بد منه في كل صورة.. ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير. ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود. ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح. ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة.. وإلا كان الأمر انتحاراً. أو كان هزلاً لا يليق بالمؤمنين!

ولا بد من بذل الأموال والأنفس. كما طلب الله من المؤمنين. وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. فأما أن يقدر لهم الغلب، أو يقدر لهم الاستشهاد، فذلك شأنه ـ سبحانه ـ وذلك قدره المصحوب بحكمته.. أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم.. والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل.. والشهداء وحدهم الذين يستشهدون..

هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة، وفي منهجها الواقعي، وفي خط سيرها المرسوم، وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية، التي لا علاقة لها بتغير الظروف.

وهذه النقط لا يجوز أن تميع في حس المؤمنين ـ تحت أي ظرف من الظروف. ومن هذه النقط.. الجهاد.. الذي يتحدث عنه الله سبحانه هذا الحديث.. الجهاد في سبيل الله وحده. وتحت رايته وحدها.. وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه "شهداء" ويتلقاهم الملأ الأعلى بالتكريم."[1]

***

وبشكل عام.. فإن جدلية الدين والسياسة من أعقد التصورات عند المسلمين، وهم في حالة من الصراع الفكري، والاضطراب أيضاً حولها. فهناك إشكاليات معقدة حولها، منها: (**انتصار العلمانية الأوروبية وهيمنتها، وفقه الملك العضوض، وأخطاء الإسلاميين والحركة الإسلامية**).

انتصار العلمانية الأوروبية: فقد كان هذا الصراع قديماً قائماً في الغرب حيث هيمنة الكنيسة والإمبراطور على حياة الشعوب، ثم قامت الثورات التي تخلصت من تلك الهيمنة، وأبعدت الدين بالكلية عن حياة الناس، ورأت فيه الرجعية والظلام، والاستبداد والكذب، والوهم والأسطورة[2]..

وعَمّق هذا البعد قيام الثورة الصناعية، وتقهقر المسلمين، وانهيار خلافتهم، وجرائم الكنيسة وفضائحها.. ولكن العلمانية أخذت مراحل كثيرة في التطور، لأنها قامت واستقرت بعض حروب طاحنة ضاع فيها مئات الملايين من البشر! واستقر النظام العلماني العالمي على المبدأ "الديمقراطي الرأسمالي" وهو امتداد للحضارة الرومانية سلوكاً، والإغريقية فكراً، بكل إباحيتها وفلسفاتها في الحياة والصراع على المادة، وأصبحت "الديمقراطية

(1) [في ظلال القرآن، ص 742]

(2) مع اعتبار أنه لا يمكن إلغاء دور الدين بالكلية؛ فهو حاجة فطرية إنسانية، تظل تلح على الإنسان، ولذا نجد استغلال الأحزاب اليمينية الغربية للدين، ونجد كذلك حركات الإصلاح الديني في أوروبا، ولكن يظل الدور المفسد لكل دين باطل، وكل انحراف عن الهدي الإلهي له أثره في إفساد حياة البشر.

الرأسمالية الليبرالية" قمة التطور السياسي والاقتصادي لدى الغرب، وأصبحت الحرية في الفجور والعري والإباحية مطلقة دون أي قيد من دين أو قانون أو أخلاق، وبقي النظام الديمقراطي أفضل من النظام الاستبدادي المتعنت، لما في الديمقراطية من صور: الرقابة، والمحاسبة، والعزل. ولكن بقيت الرأسمالية تستعبد الشعوب، وتمتص دمائهم، وتسترق حياتهم، وتجعلهم مجرد "موارد بشرية" لشركات حفنة قليلة من المرابين وسُراق الثروات؛ وعندما يبدأ الاستغناء عن هذه الموارد البشرية، أو تقليص عددها، أو ظلمها تشريعياً، أو إجراءات تقشف تقطع عليهم التمتع بحرية الإباحية؛ تبدأ المسيرات والتظاهرات التي تسمح بها الديمقراطية ! هذا باختصار ما حصل من صراع بين الدين والسياسة في الغرب.

أما عند المسلمين: فالصراع ضارب بجذوره في عمق التاريخ منذ معركة صفين حتى اليوم، ومرّ المسلمون بأطوار شتى في علاقة الدين بالسياسة (سياسة الحكم والمال ونظم الحياة) فالمرحلة الأولى: مرحلة الرشد حيث هيمنة الدين على (الروح والمجتمع والدولة) والمرحلة الثانية: مرحلة الاستبداد حيث اتخاذ عباد الله خولاً ـ عبيداً للملوك ـ وماله دُولة بينهم، وكتاب الله دخلاً يتخذون منه وسيلة لتثبيت شرعيتهم، وبغيهم! رغم ما فيها من مظاهر الخير مثل الجهاد في سبيل الله. ثم المرحلة الثالثة: سقوط الوحدة السياسية للمسلمين، وانتهاك السيادة على بلادهم تحت وقع هجمات الاستعمار (اللصوصية والاحتلال) الدولي لبلاد المسلمين، وتقسيم بلادهم، ونهب ثرواتهم، وإفساد قيمهم، وتولية رجالاتهم على المسلمين.

وأما أخطاء الإسلاميين: ففي "محاولة التغيير" للعودة إلى المكانة السابقة للدولة الإسلامية، والأمة المسلمة.. وقع الصراع بين الإسلاميين والعلمانيين، فأما الإسلاميون: فقد وقع بعضهم في خطأ فاحش، وهو استخدام قوة الدين كوسيلة لنصرة جماعاتهم وأحزابهم ومواقفهم بصورة ذاتية، كما أن سقوط الفقه السياسي الراشد، بفعل تقديس البعض لـ "فقه الملك العضوض" في أمور السياسة من جانب، وتقديم أنفسهم أحياناً

كثيرة كعلمانيين بنكهة إسلامية من جانب آخر[1]، جعلهم بلا مشروع سياسي راشد حقيقي، وأما العلمانيون: فمنهم من يريد تحييد الدين عن الصراع السياسي منعاً لاحتكاره من قبل جماعة أو حزب أو لجهالتهم بالتصور السياسي الإسلامي الراشد، أو تعميم بعض الممارسات الخاطئة على الجميع، أو التبعية والانبهار بالغرب، أو طمعاً في دنيا. ومنهم من هو كاره للدين ابتداء، ولما أنزل الله، وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم. وما زال هذا الصراع قائماً حتى اليوم! [2]

***

إذن.. فما هي علاقة الدين الإسلامي بالسياسة، وكيف تكون هذه العلاقة سوية صحيحة مستقيمة؟

في البداية الإسلام جاء ليحكم، هذه حقيقة أولية يجب أن تكون مستقرة في عقولنا، وشريعته وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم جاءت لتسود، لتسود في أمر السياسة والحكم والمال، كما جاءت لتسود في أمور العبادات والصلوات، كما جاءت لتسود في الأخلاق والقيم والتصورات والموازين، كما جاءت لتسود في التشريعات والقوانين.

وإن تحكيم الشريعة ـ في مجال النظام ـ في الدولة المسلمة، يبدأ من سياسة الحكم والمال، وتولية الأصلح من خلال نظام الشورى المناسب لكل مرحلة حضارية تمر بها الأمة، والحاكم مجرد عامل عند الأمة، يقودها بكتاب الله ليس له من نصيب في المال أكثر من غيره من المسلمين، وليس له حق في توريث الحكم لأحد من بعده، وأما سياسة المال، فالثروة والمال حق خالص للأمة، يُوزع كما أمر الله، بلا محاباة ولا تمييز ولا استئثار،

(1) انظر كتاب: "العلمنة من الداخل" ـ د. البشير عصام المراكشي.

(2) راجع بحث: "الدين والسياسة.. تحليل المشهد".

ولهذا جاء التنبيه النبوي باتباع سنته ـ في كل شيء ـ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين في سياسة الحكم والمال.

فالدين يُمثل القوة الروحية، والاجتماعية، والسياسية، والفكرية، والتعبدية بالنسبة للمسلمين، وهو الهوية الجامعة لهم.

ولكن الذي يحدث أثناء الانحراف عن الرشد.. أن يُستخدم الدين كقوة سياسية يحتكرها حزب أو جماعة، فتجعل من نفسها المتحدث الرسمي باسم الدين، أو هي وحدها الفرقة الناجية المنصورة، أو التلاعب بعواطف الناس لتبرير مواقفها وأخطائها باسم الدين، أو جعل الإسلام كميراث للأبناء لا يحق لأحد أن يأخذ منه إلا بإذن الحزب أو الجماعة.. والحق إن ذلك من أفحش صور الصد عن سبيل الله، والإساءة إلى الإسلام.

والصورة الصحيحة: إنَّ المسلمين كونهم مسلمين لا يسعهم إلا أن يَحكموا ويُحكموا بالإسلام، فهذه صورة الحرية التي يريد الله فيها للإنسان أن يتحرر من النظم الوضعية، والتشريعات البشرية، ليكونوا أحراراً أمام سيد واحد.. جل جلاله.

فهناك فرق أن يكون الدين هو القائد، وأن يكون هناك أشخاص تركب الدين وتتخذ من كتاب الله مطية لتحقيق أغراضها السياسية! فالسلطان السياسي للمسلمين هو: "كتاب الله" وشرط الولاية والشرعية علينا "**ما أقام فيكم كتاب الله**". وبذلك فهو القوة الروحية والسلطة العامة لكل المسلمين. ولا يحق لأحد أن يتخذه كوسيلة لتحقيق مصالح شخصية أو حزبية.

وإنَّ المسلمين لا يسعهم إلا أن يقوموا بأمر هذا الدين وأن يكون هو الاختيار الأوحد لهم، لا يحيدون عنه. وليس هو أداة للتلاعب الحزبي، أو الصراع الانتخابي.

وليس في الإسلام صورة الحاكم بأمر الله، ولا ظل الله في الأرض، ولا يحكم أحد باسم الحق الإلهي المقدس! فكل هذه صور من انحرافات الكنيسة في عصورها الوسطى

المظلمة، إنما الحاكم ونظامه.. يحكم بأمر الأمة التي اختارته، وقدّمته لهذه المهمة، والحاكم والأمة خاضعون جميعاً لسلطان الكتّاب.

والمؤسسات الدينية مثل: المسجد والمنبر والقضاء الشرعي والجامعات ومؤسسات الفتوى وغيرها، ليست في خدمة الحاكم ونظامه، وليست تابعة له، بل هي مؤسسات مستقلة حيادية؛ تعمل في خدمة الدين والشرع، وحماية وصيانة الأمة، ولها حق الاعتراض والاحتساب على الحاكم وكافة مؤسساته التنفيذية، وتقوم بواجبها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بكل صدق وإخلاص وموضوعية، وتدور مع الكتّاب ـ لا الرئيس ـ حيث دار.

وعليه؛ فإن الحركة السياسية لكل المسلمين لا بد من أن تكون إسلامية باسم الله، دون احتكار المشروع الإسلامي، أو التحدث الحصري باسمه.. بل إن كل جماعة أو حزب ـ أو أي صورة من صور الاجتماع ـ يُقدم نفسه على أن حركته مجرد "اجتهاد" لا حق مطلق.. اجتهاد قد يصيب وقد يخطئ، والخطأ محمول على فهم وحركة أصحابه لا على الإسلام ذاته. وفي ذلك الاجتهاد فليتنافس المتنافسون. مع الحذر أن يتحول بعضهم إلى "جماعات وظيفية" تؤدي وظيفة وخدمة للعدو من أئمة النفاق في الداخل وأئمة الكفر في الخارج، ومع الحذر أيضاً أن يكون البأس بينهم لا بين عدوهم.

وبالعموم.. فالإسلام يواجه الواقع بالوسائل المكافئة له، ويواجه قوة الباطل.. بقوة الحق. ويمضي في طريق السنن الإلهية، ويحقق سنن التغيير في هذا الواقع، دون انتظار صورة سحرية غامضة الأسباب لمجرد كونه مسلماً!

والصحيح.. إنَّ الأمة ـ بمجموعها ـ هي التي تقوم بأمر دينها، وتقوم بالمهمة التي من أجلها أخرجها الله تعالى للناس، ولا تجعل الحاكم يتلاعب بالدين من أجل غرض سياسي، فهي حامية الدين، وتمنع الحاكم أن يُصور نفسه للناس أنه هو الإسلام، وغيره

هو الفتنة والضياع؛ وبذلك يسهل مراقبة الحاكم، وعزله، ومحاسبته من خلال مؤسسات الأمة المختلفة، التي تستطيع أن تحقق أقصى فاعلية لمفهوم "الشورى" بمعناه الواسع والشامل.

وهذه الحركة السياسية تحتاج إلى الصدق الخالص ـ لا سيما في هذا الصراع العلماني الإسلامي ـ دون رغبة في شرف أو رياسة أو مال، ويحتاج إلى فقه سياسي راشد نقي من لوثات "الملك العضوض" ومن لوثات "العلمانية المادية" ويحتاج إلى تنوع في الطرح بعيداً عن "الغلو" و"العصبية الجاهلية" اللذان يؤديان إلى "البغي" على الآخرين، فيُحبط البغي النصر والتمكين، ويُمتع أصحابه إلى حين ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ.

***

ومن ثم فهناك مجالان للنقد والفكر والحركة:

المجال الأول: المجال العلماني المادي التغريبي، مثل نقد الفكر العلماني.. وبيان تهافت العلمانية، وخطورتها ودجلها، وكفرها، وفجورها، وطغيانها، وإفسادها للدين والدنيا، والبديل عنها هو الإسلام، وهو طريق الخلاص في الدنيا والآخرة.[1]

والمجال الثاني: مجال نقد العمل الإسلامي، وهو نقد لأفعال البشر، وفكرهم وأعمالهم.. والبديل عن "العمل الإسلامي" هو "عمل إسلامي آخر" أصح منه، وأقوم منه، وأرشد منه، وأخلص منه. وهو واجب كل مسلم.[2]

(1) انظر مقال: خطورة الفكر العلماني. والإسلام العلمانية، ونمط الحياة. وفتنة العلمانية.

(2) انظر كتاب: "انحرافات في الحركة الإسلامية". وبحث: "الاتجاهات النفسية للحركة الإسلامية".

ولا نخلط بين المجالين حيث يحلو ويطيب للعلمانيين اتخاذ أخطاء من يعمل للإسلام وسيلة لنبذ الدين كله، أو الزعم بضرورة تقديسه بوضعه محبوساً بين جدران المسجد إلى يوم الدين![1]

فالتمييز بين هذين المجالين يضع المسلم على طريق الرشد السياسي بإذن الله، ويُبصره بالحقائق، ويجعله يُفرّق بين المتشابهات.

***

(1) انظر فصل "فلسفة توماس هوبز" من [كتاب: "مدخل إلى الفلسفة السياسية، ص 149 د. محمد أحمد] وهو ـ صاحب نظرية العَقد الاجتماعي ـ وتأثيرها في ترسيخ الفكر العلماني الليبرالي القائم على المنفعة والمتعة الفردية وجعلها هدفاً أسمى للوجود، والذي يقرر من جانب آخر: اعتقال الدين وجعله تحت سلطة الدولة المطلقة، وهي الفكرة التي تسيطر على الفكر الغربي اليوم.

7- الإسلام السياسي

الإسلام هو الإسلام.. بمبادئه الروحية، والأخلاقية، والسلوكية، والفكرية.. والحياتية، يمتزج فيه الروحي بالمادي.. الشعائري التعبدي، بالتشريعي الواقعي؛ ليُخرج الشخصية المسلمة الربانية التي حياتها وحركتها وسكونها لله رب العالمين، وهذا معنى "الإسلام" لله..

تقسيم الإسلام إلى سياسي وروحي، شعائري وشرائعي، قد يصح عند الدراسة الأكاديمية؛ لتوضيح المعالم والأهداف، ولكن لا يصح عند الحديث عن الإسلام كوحدة واحدة هي "منهج حياة"..

"إنَّ الإسلام ليس مجموعة من الوصايا الخلقية والعبادات الشخصية وانتهى الأمر.. إنه نظام شامل للتحرر السياسي والعدل الاجتماعي، وضمان وثيق لحقوق الإنسان وكرامات الأمم.

وإذا كان الصلاح النفسي حجر الزاوية في كل دين فإن الإسلام ينشئ هذا الصلاح إنشاءً عن طريق خلق البيئة الفاضلة..

والحكم في نظر الإسلام أداة مهمة من أدوات هذا التكوين العام فإذا نسي وظيفته أو فرط فيها كان مصدر خلل هائل في الكيان الإسلامي كله..

وإذا تنكر للإسلام أو تمرد على حدوده أمسى سرطاناً يغتال اليوم والغد..

وإني لأعتبر هوان المسلمين في هذا العصر هو النتيجة الحتم لفساد الحكم في بلادهم من زمن بعيد"[1]

ويحاول المنافقون، والذين في قلوبهم مرض منذ نزول القرآن وتشريعاته.. إلى التفريق، والتقطيع، وجعل القرآن عِضين، والإيمان ببعضه، والكفر ببعضه ـ كما فعل أهل الكتاب من قبل ـ وهذه المحاولة مستمرة على مر الأزمان، وها هي تظهر اليوم للطعن في شريعة الإسلام، ومن يحاول إعادة الإسلام مرة ثانية إلى قيادة الحياة.

صحيح.. إنَّ من يقوم بهذه المحاولة هم بشر، يعتريهم القصور والنقص والخطأ والانحراف والتوظيف، والغرق في الأيديولوجيات، ولكن قصورهم وانحرافهم ـ البشري والمتوقع ـ لا يمكن أن ينسحب بحال على "المبادئ الإسلامية السياسية" ذاتها! فنروح نصف الإسلام بالسياسي، ثم نتهم الإسلام ذاته، فإن لم يكن هذا هو الكفر، فما الكفر؟!

وإنْ وقع الانحراف والقصور ممن يحاول إعادة الإسلام ومبادئه لقيادة الحياة، فليس معنى ذلك اتهام الإسلام، إنما معنى ذلك قيام غيرهم من المسلمين ـ طالما يزعمون الإسلام ـ بهذه المهمة، وتقديم الصورة الأقرب والأصوب لمبادئ الإسلام.

وقد نَشَأت هذه التسمية "الإسلام السياسي" بعد اجتياح موجة العلمانية سواء العلمانية الليبرالية أو العلمانية اليسارية العالم الإسلامي، باعتبار العلمانية هي الأساس لنشأة الدول القومية الحديثة على أنقاض الدولة العثمانية، وذلك بعد فشل تكوين خلافة عربية حينها..

ولما قام بعض المسلمين بمحاولة إحياء الأمة بهذا الدين من جديد، ورده إلى دوره القيادي والروحي في هذه الأمة، باعتباره جواب سؤال النهضة، والحرية، والتحرر من

(1) [كتاب: "من معالم الحق"، ص 105، محمد الغزالي]

الاحتلال الأجنبي... إلخ، أُطلق هذا المصطلح "الإسلام السياسي"، وكان الغرض من هذه التسمية عدة أمور:

الأول: عزل أهله عن بقية المسلمين، باعتبار ما يقومون به هو عمل يخصهم وحدهم، وتفسيرهم الخاص للإسلام، وهم من وراء ذلك يطمعون في السلطة، ويتاجرون بالدين، ويُوظفون الدين لتحقيق أغراضهم الخاصة، أو فرض رؤيتهم وتفسيراتهم على الجماهير أو ارتباطهم بأجندات خارجية غير وطنية.

الثاني: شيطنة هذا النوع من الإسلام، باعتباره لا يمثل الإسلام والمسلمين، ومحاربته بكل وسيلة ممكنة سواء بصورة سرية أو علنية، دون استفزاز الجماهير بأنهم يحاربون الإسلام بشكل عام، إنما يحاربون نوعاً معيناً، وصورة خاصة من الإسلام لا تُمثل المسلمين بشكل عام، بدليل إن الذين يطلقون هذه الحرب الشعواء ـ التي لا يرقبون فيها إلاً ولا ذمة ـ هم من جانب آخر يرحبون بالإسلام في صورته التعبدية والشعائرية مثل الاحتفال بالأعياد، والمناسبات الدينية بل ويشجعون عليها ويشاركون فيها.

الثالث: جعل كل من يحاول الاشتباك مع الواقع "باسم الله" على "شريعة الله" هو من أتباع الإسلام السياسي، ومن ثم فهو متهم بكل أنواع التهم مثل: (الأصولية، الراديكالية، الإرهاب، التطرف، التجارة بالدين، الرجعية، التخلف، الغلو، التشدد) ومن ثم استحلال كل وسائل المحاربة معه.

الرابع: تصنيف بعض توجهات "الإسلام السياسي" على الطريقة الغربية باعتبارهم "اليمين المتطرف أو المعتدل" ومن ثم إعطاء الشرعية لبقية التصنيفات والتوصيفات الأخرى مثل اليسار وغيره. وجعلها مجرد معركة حزبية سياسية بين أحزاب وتوجهات فكرية أيديولوجية مختلفة.

الخامس: الأريحية في مهاجمة هذا النوع من الإسلام، واستخدام المسلمين أنفسهم في الهجوم عليه، والسخرية منه، والاغتيال المعنوي والمادي لأهله باعتبارهم أعداء للدين والوطن.

السادس: التأكيد على أن الإسلام ليس بحاجة إلى دولة أو خلافة.. فهو مجرد دين يعتنقه أفراده بصورة شخصية ذاتية؛ فالمتدين منهم: يصلي، ويصوم، ويتصدق، ويحج عندما يشيخ، وغير المتدينين: يتذكرونه في عقود الزواج، ومراسم الموتى!

وتم تصنيف وتوصيف أتباع الإسلام السياسي بأنهم "الإسلاميون أو الإسلامويون"(1)؛ لنفس الغرض من تقسيم الإسلام إلى إسلام سياسي وآخر غير سياسي!

وتعريف الإسلام السياسي (حسب مراكز الأبحاث الغربية، وحسب ممارسات العدو على المسلمين):

هو الإسلام الذي يعمل على:

- إعلاء شريعة الله، وجعلها هي المرجعية الأصلية الأساسية العليا التي تَعلو ولا يُعلى عليها.

- يدعو إلى التحرر من الاحتلال الغربي والشرقي بكل أنواعه سواء الاحتلال العسكري أو السياسي أو الفكري أو الثقافي أو الاقتصادي... إلخ، شرط أن يكون هذا التحرر باسم الله، ابتغاء مرضاة الله.

- رفض الهيمنة الغربية على البلاد الإسلامية، ومحاربة تقسيمها إلى مناطق نفوذ؛ لسرقة ثروات المسلمين، واستبعادهم من خلال أنظمة عميلة تابعة وخاضعة للمحتل.

(1) راجع مقال: الإسلاميون.. إشكالية المصطلح.

ـ معالجة المشكلات والأزمات الواقعية (بكل أنواعها وأشكالها) من خلال الرؤية والتصور الإسلامي والأحكام والقوانين الإسلامية.

ـ توحيد الأمة المسلمة على أساس الأخوة الإيمانية والوحدة الدينية والفكرية والتشريعية والروحية الواحدة، باعتبارها أمة واحدة، ذات دين واحد، وكتاب واحد، ورسول واحد، ومصير مشترك.

ـ نشر الفضيلة والعفة والقيم الأسرية الربانية، حيث العلمانية تعتبر "الإباحية الجنسية" ـ بكل صورها وتوابعها ـ هي قدس الأقداس.. وكل محاولة لضبط هذه الشهوات هو اعتداء على الحرية! ولذلك تعتبر فرنسا "حجاب المرأة المسلمة" إحدى صور الإسلام السياسي الذي يجب محاربته بكل وسيلة لدرجة منعه في كل مكان، ولم يعتبروا ذلك ضمن الحرية الشخصية!

ـ كل من يدعو إلى الله وكتابه وينشط بين الجماهير، وكل من يحاول التغيير من خلال العملية السياسية الديمقراطية والأحزاب السياسية في بعض البلدان، أو خلال المقاومة المسلحة، هو من أتباع الإسلام السياسي.

ـ كل من يتخذ موقفاً عدائياً من دولة يهود، ويكون هذا الموقف العدائي ذات مرجعية إسلامية، وعلى أساس ديني فهو أيضاً من أتباع الإسلام السياسي.

وإنْ نجح العدو ـ سواء المحتل الخارجي أو المنافقين في الداخل ـ في محاربة الإسلام السياسي ـ بزعمهم ـ فإنهم يتوجهون للبقية الباقية من الإسلام للإجهاز عليها، فلا يَعودون يُرحبون بالإسلام في أي صورة من صوره، حتى ولو كانت مجرد احتفالات دينية! بل يسخرون منها، ويشككون فيها، ويستهزئون بالمسلمين، ويطلقون موجة شديدة من الإلحاد والإباحية لمحاولة القضاء على كل معالمه ومظاهره!

***

فهل يعرف الإسلام مثل هذا التقسيم، وهل يمكن تقسيم الإسلام إلى إسلام سياسي وآخر غير سياسي؟ وهل يمكن أن يكتفي المسلم من الإسلام بالشعائر دون الشرائع في صورها السياسية؟

دعونا نضرب بعض الأمثلة للإجابة على هذا السؤال:

ـ عندما يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 278-279]

أليس للإسلام سياسة اقتصادية واضحة؟ فهل الدعوة إلى بيانها وتنفيذها يجعل أصاحبها من أتباع الإسلام السياسي المغضوب عليه وعليهم؟

ـ عندما يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55]

أليس للإسلام خلافة ولأهله التمكين ـ إن هم أقاموا شروط هذا التمكين؟ فهل العمل على تمكين دين الله في أرضه، يجعل أصحابه من أتباع الإسلام السياسي المغضوب عليه وعليهم؟

ـ عندما يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: 19]

أليس للإسلام سياسة أخلاقية وتربوية واضحة في ذلك؟ فهل الدعوة إلى تطبيقها يجعل أصاحبها من أتباع الإسلام السياسي المغضوب عليه وعليهم؟

ـ عندما يقول الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: 54-58]

أليس للإسلام قواعد أخلاقية، وضوابط لا يخضع فيها لمقررات الأمم المتحدة والهيئات الدولية، ومواثيقها، ويحارب كل الدعوات لتطبيع أي فواحش؟ فهل الدعوة إلى المواثيق القرآنية يجعل أصاحبها من أتباع الإسلام السياسي المغضوب عليه وعليهم؟

ـ عندما يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59]

أليس للإسلام صورة اجتماعية وسلوكية واضحة في ذلك؟ فهل الدعوة إلى تطبيقها يجعل أصاحبها من أبتاع الإسلام السياسي المغضوب عليه وعليهم؟

ـ عندما يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]

أليس للإسلام سياسة فكرية، وطريق ومنهج اتباع واضح الرؤية والمعالم؟ فهل الدعوة إليها يجعل أصاحبها من أتباع الإسلام السياسي المغضوب عليه وعليهم؟

ـ عندما يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: 18-19]

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 49-50]

أليس للإسلام سياسة قضائية، وشريعة وأحكام وأسس وقواعد تحكم هذه الحياة؟ فهل الدعوة إلى تطبيقها وإقامتها يجعل أصاحبها من أتباع الإسلام السياسي المغضوب عليه وعليهم؟

ـ عندما يقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]

أليس الإسلام لا يقر بشرعية الاجتماع السياسي لمن لا يتخذ كتاب الله مرجعية وحكماً؟ فهل الدعوة إلى إسقاط شرعية أئمة النفاق يجعل أصاحبها من أتباع الإسلام السياسي المغضوب عليه وعليهم؟

ـ عندما يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190] ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29]

أليس للإسلام سياسة حربية وجهادية في ذلك؟ فهل الدعوة إلى تطبيقها يجعل أصاحبها من أتباع الإسلام السياسي المغضوب عليه وعليهم؟

ـ عندما يقول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 15-16]

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 7-8]

أليس للإسلام سياسة ورؤية لهذه الحياة الدنيا، وله خطة في كسب الحياة الآخرة، والاعتدال في الحياة الدنيا دون طغيان؟ فهل الدعوة إلى تفسير الحياة والوجود والإنسان من خلال كتاب الله يجعل أصاحبها من أتباع الإسلام السياسي المغضوب عليه وعليهم؟

ـ عندما يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... ﴾ (1)

أليس هناك أمة مسلمة لله تؤمن به، وتجتمع على كتابه لتنفيذ أمره، واجتناب نهيه، والامتثال لطاعته، والرضى به رباً وإلهاً؟ فهل الاستجابة لنداء الله ـ وهو نداء المسؤولية الاجتماعية السياسية ـ يجعل أصحابه من أتباع الإسلام السياسي المغضوب عليه وعليهم؟

وغيرها الكثير والكثير.. بل إن كل آية وسورة في كتاب الله ـ وكل سنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ نجد لها سياسة واضحة، ومسار ومنهجية ذات معالم تأخذ بيد المسلم لتمضي به على صراط الله المستقيم في كل حياته، دون اتباع السبل الأخرى مهما كانت مسمياتها وزخارفها وزينتها وبهرجتها وانتفاشها، وفي الحديث الشريف:

"عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: "**خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ يَوْمًا خَطًّا، وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ خَطًّا، وَخَطَّ عَنْ يَسَارِهِ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا فَقَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، وَقَرَأَ** ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

(1) وهذا النداء في القرآن الكريم يُنادي به الله ـ تعالى ـ على الأمة المسلمة حوالي 89 مرة.

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾"(1)

***

إنَّ الغرب ـ من خلال مراكز أبحاثه وحروبه الفكرية، وحروبه العسكرية ـ ومحاولة أئمة النفاق المتسلطين على حكم الأمة المسلمة سياسياً واقتصادياً، والمتسلطين عليها ثقافياً وفكرياً، والدجاجلة من شيوخ الدين.. يحاولون من خلال شيطنة الإسلام السياسي سلخ المسلمين عن دينهم وشريعتهم.. وإطفاء مصدر النور والهداية لديهم، وتركهم لقمة سائغة لعدوهم ليتداعى عليهم من كل جانب، وإذا نهضوا للمقاومة.. فلتكن تحت أي مسمى إلا أن يكون "باسم الله"، فلتكن باسم الوطن، والقومية، والحدود، والجنس، والشرف، والواجب، والقانون الدولي... إلخ، حتى يمكنهم التغلب عليهم، ويكونون عرايا من الإيمان والتقوى، ومن ثم يسهل الهيمنة عليهم..

وإنَّ الإسلام ـ بمبادئه وتشريعاته السياسية والأخلاقية والفكرية والسلوكية ـ هو السبيل الوحيد.. الوحيد لتحرير الأمة من هذا الأَسر، واسترداد كرامتها وحقوقها وثرواتها، وحريتها، هو السبيل الوحيد للتحرر من البغاة والطغاة والجبابرة، ولهذا فهم يكرهون الإسلام، ويحاربون الإسلام الذي يُزلزل عروشهم، ويُسقط شرعيتهم، ويُغري الجماهير بمقاومتهم. ويرحبون بالباطل المتلبس بزي الإسلام الذي يُقر باطلهم، ويُؤيد ظلمهم، ويُبيح فجورهم.

وسينتصر الإسلام ـ لأنه نور من الله ـ وسينهزم الطغاة في الدنيا، وفي الآخرة عذاب شديد.

(1) [البحر الزخار/ 1865، ومسند الإمام أحمد/ 14853]

والعدو إن سلخ المسلمين عن دينهم وشريعتهم ـ لا قدر الله ـ فقد ضمن كل شيء؛ ضمن عدم وجود عقيدة تدفعهم إلى استرخاص النفس والمال في سبيل الله، وضمن في النهاية استعباد المسلمين، وإفساد منظومة الحكم.. حيث لن يكون هناك مرجعية حضارية وفكرية وسياسية سوى المرجعية الغربية، ومن ثم فهم لها تابعون، ولا يوجد مقاومة أو بديل عن الحضارة الغربية؛ فيكون التسليم المطلق لها دون أدنى اعتراض.

***

وقد كان لأخطاء بعض المسلمين ـ وهم يحاولون إحياء الأمة، وردها لدينها ـ الأثر السيء الذي ساهم في صد المسلمين عن دينهم، وعن شريعة ربهم، حتى لقد ارتبط في ذهن البعض بصور مشوهة قبيحة تلفظها الفطرة!

وكان من أكبر وأشد الأخطاء هو الفشل في بيان حقائق هذا الدين؛ حيث يدعون الناس إلى أحزابهم وجماعاتهم، بصورة فيها نوع من التعصب! دون بيان حقائق الدين الكبرى بصورة كلية مجردة، ودون بيان أحوال "الكفر البواح" الواقعة في الأمة، ودون إسقاط شرعية كل مُجتمِع على كفر بواح.

ومن ثم تصور كثير من الناس إن المسألة مجرد تنافس سياسي، أو اجتهاد فقهي، أو صراع حزبي، أو تنوع ثقافي؛ وهم في حِل من أمرهم في الاختيار بين: الإسلام السياسي أو العلمانية، أو بين الشريعة الإسلامية أو الشريعة الغربية... إلخ، ولهم حرية الاختيار كيفما شاءوا ففي الأمر سعة!

وقد ساعدت الممارسات الباطلة والقبيحة والانتهازية والفاشلة من بعض أتباع الإسلام السياسي[1] في تأكيد ما يروج له الغرب وأئمة النفاق، ولصق ممارسات البشر

(1) انظر: كتاب "انحرافات في الحركة الإسلامية".

وأخطائهم بالإسلام ذاته! ومن ثم تزهيد الناس فيه أكثر وأكثر، وتوهين صورته في قلوبهم، واعتبار العلمانية الديمقراطية هي الحل الأفضل والمثالي!

***

إنَّ إقامة الإسلام في الحياة الدنيا ـ إقامته كما جاء في كتاب الله ـ هو مسؤولية "**كل**" مسلم، وليس مسؤولية من يدعو إلى ذلك وحده.

إنَّ أخطاء البشر في التطبيق، وانحرافاتهم إنما تعود عليهم وحدهم، وهذه الأخطاء يجب أن تدفع بقية المسلمين للنهوض بالتصحيح والتقويم والعمل الصحيح الماضي على صراط المستقيم، وليس الزهد في الإسلام ذاته. بل إن أخطاء البشر تنقل الأمر من "فرضة الكفاية" إلى "فرض العين"، عندما تفشل المشروعات التي تدفع هجمة العلمانية والنفاق، وحتى عندما نصل لفرض الكفاية فلكل مسلم نصيبه من الدعم والبذل والمشاركة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]

إنَّ الإسلام لا يعرف مثل هذه التقسيمات، فهو دين يرد الأمر كله لله.. أمر الدنيا والآخرة، ومحاولة عزله عن الحياة الدنيا وطريقة حكمها وسياستها هو "الكفر البواح" والانسلاخ الكلي من الدين، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه؛ ومن يفعل ذلك ف: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: 151]

إنَّ للإسلام منهج رباني، مثالي، واقعي، شامل، مُحكم.. واجب إقامته على **كل** مسلم: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]

إنَّ فشل البعض أو سقوطهم أو انتكاس الآخرين أو اشتداد الباطل وانتفاشه أو وحشية المعارك كل ذلك يجب ألا يُيأس المسلمين من دينهم، بل عليهم رفع رايته بكل قوة، ويقين، وعزيمة، وثقة في وعد الله - الذي هو الجنة - متى أخلصوا له الدين، وثقة في وعد الله - الذي هو التمكين - متى اجتمعت الأمة، وبذلت وسعها وجهدها، واتبعت كتاب ربها وحده دون أن تتفرق بها السبل عن سبيله جل جلاله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 77-78]

***

8- الكفر البواح

جاء في الحديث الشريف: "عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: "دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ، قُلْنَا: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ـ صَلى اللّهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ ـ صَلى اللّهُ عَليه وَسَلم ـ فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، **وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**"[1]

وفي رواية: "عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: "بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللّهُ عَليه وَسَلم ـ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، **وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ**"[2]

وفي مسند الشاميين: "قَالَ عُمَيْرٌ: فَحَدَّثَنِي خُضَيْرٌ، أَوْ حُضَيْرٌ السُّلَمِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ مِنَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللّهُ عَليه وَسَلم ـ وَزَادَ "**إِلا أَنْ يَأْمُرَكَ بِإِثْمٍ بَوَاحًا عِنْدَكَ تَأْوِيلُهُ مِنَ الْكِتَابِ**"، قَالَ: جُفَيْرٌ أَوْ خُفَيْرٌ، قُلْتُ لِعُبَادَةَ: **فَإِنْ أَنَا أَطَعْتُهُ قَالَ: يُؤْخَذُ بِقَوَائِمِكَ فَتُلْقَى فِي النَّارِ، وَلْيَجِئْ هُوَ فَلْيُنْقِذْكَ**"[3]

فظهور "الكفر البواح" أو "الإثم والمعصية البواح" ـ كما جاء في روايات أخرى ـ وهذا يدل على استحلالها وشيوعها.. يُسقط شرعية النظام السياسي، ويصبح واجب على المسلمين تغييره بكل وسيلة ممكنة.[4]

---

(1) [صحيح البخاري/ 7056، وصحيح مسلم]
(2) [صحيح البخاري/ 7199]
(3) [مسند الشاميين للطبراني/ 225]
(4) انظر بحث: "مُنازعة أولي الأمر".

والحديث هنا عن "فعل" الكفر البواح، وليس عن إجراء حكم التكفير على فرد معين، بمعنى آخر: ظهور الكفر البواح أياً كان سببه ومصدره وفاعله؛ فيجب القضاء عليه، واستئصال ظهوره الفج المعلن المستبيح، وهذا هو "**المعنى السياسي الاجتماعي**" للحديث، فليس الحديث هنا عن "تكفير أفراد" وليس هو حكم فقهي قضائي يستلزم استيفاء شروط، وانتفاء موانع.. بل الحديث عن نزع يد الطاعة من "سلطة الكفر البواح" والقضاء عليها، وإظهار الإيمان لله، والطاعة لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتزام شرائع الإسلام، وإعادة الأمر إلى أهله الذين يقومون بالكتاب، ويُحِقون الحق. ولهذا جاء في الرواية الأخرى ـ والتي نعتبرها مُكملة للحديث ـ (**نقوم ونقول بالحق، لا نخاف في الله لومة لائم**)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39]

ومن الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان:

1- **تنحية شريعة الله، وحكم الله عن شؤون الحياة في** (نظم الحكم والسياسة، وفي التشريع، وفي القضاء، وفي الاجتماع، وفي الاقتصاد، وفي التربية والتعليم، وفي العلاقات الدولية... إلخ).

والله تعالى يقول:

ـ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]

ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 60-61]

- ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 49-50]

- ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: 10]

- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 21]

- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]

ومن أهم الأهداف التي عمل عليها العدو التاريخي للمسلمين - من يهود وصليبيين - بعد سقوط العالم الإسلامي والسيطرة عليه وتفتيت وحدته السياسية هو: تنحية شريعة الله عن نظم الحكم والاجتماع والقضاء، واستبدالها بالقوانين الغربية الوضعية في القضاء، وبالفكر الغربي العلماني الملحد في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، وسلخ المسلمين سلخاً عن هويتهم ودينهم وتاريخهم وحضارتهم، ومحاولة الهيمنة المطلقة عليهم في كل شيء، مستعينين في ذلك بمنافقين وخونة وطغاة وبغاة، أتموا لهم مهمتهم على أتم وجه، والعياذ بالله. وهذا من أوضح صور الكفر البواح.

2- ولاية الكافرين المحاربين.

والله تعالى يقول:

ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ. وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 51-57]

ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 100- 101]

ـ ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22]

ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ. ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ

مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 84-85]

- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: 73]

- ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: 8]

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: 11]

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118]

- ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 138-139]

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا. إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 144-145]

ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: 1]

والولاية تعني: التحالف والتناصر والدعم بمختلف أشكاله وأنواعه، وإنَّ الأنظمة والجماعات والأفراد التي تنتسب إلى الإسلام.. عندما توالي الكافرين المحاربين فهذا من أوضح وأشد صور "الكفر البواح"، الواجب القضاء عليه في الدنيا، وفي الآخرة فإنه ينتظرهم الحساب العسير، والعاقبة الوخيمة والعياذ بالله.

ولا يَدخل في هذه الولاية المُحرمة الآثمة المُكفرة، ما فيه تعاون على البر والتقوى مع غير المسلمين المُسالمين، وما فيه مصالح مشتركة متبادلة بين الشعوب والأمم. أما عندما يحارب العدو التاريخي للمسلمين فئة من المسلمين في بلد ما، ثم يدخل بعض من ينتسب إلى الإسلام من (الأنظمة والجماعات والأفراد) في أحلاف الكافرين المحاربة فهو إذن منهم، وحكمه حكمهم، ومصيره مصيرهم، وهو من الخيانة العظمى لله ورسوله وأمته المسلمة.

3- استحلال الحرام المُجمع عليه، وتحريم الحلال المُجمع عليه.

قال تعالى:

ـ ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: 67-68]

ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 149-150]

ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 278-279]

ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 121]

ـ ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 62-63]

ـ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31]

واستحلال الحرام المجمع عليه مثل: استحلال الربا، والخمور، والزنا، وتحريم الحلال المجمع عليه مثل: تجريم وتحريم التعدد للرجل في الزواج، ومنع شيوع المظاهر الإسلامية مثل حجاب المرأة المسلمة.. هو من أوضح صور "الكفر البواح"، ويجب أن نُفرق بين: "**فعل الإثم**"، وبين "**شرعنة الإثم**".. فالمسلم قد يفعل الإثم وهو يعلم أنه إثم ـ مثل أن يشرب الخمر ـ ثم يستتر ويتوب، أما عندما يستحل الحرام (حتى ولو لم يفعله بشكل شخصي) فهذا الاستحلال، وتحويل الأمر إلى: (**نمط حياة اجتماعي، وقانون قضائي، ونظام سياسي**)، فهو بذلك قد دخل في "الكفر البواح" الظاهر الذي انتقل من فعل المعصية (والإقرار بكونها معصية تستلزم التوبة، والستر، والخجل) إلى تطبيع هذه المعصية وجعلها (**نمط حياة، وسلوك طبيعي لا حرج فيه، ولا ستر منه، ولا حاجة لتوبة، ولا خوف من عقاب الله، ولا رجاء لثوابه**).. وهذه الحالة "**العلمانية ـ اللا دينية الدنيوية**" هي من أوضح صور الكفر البواح، والكفر العملي باليوم الآخر. وظهورها يُسقط شرعية النظام السياسي الحاكم، ويُسقط شرعية كل اجتماع إنساني يُقرها، ويرضها، ويُتابع عليها.

4- **محاربة الإسلام في** (شريعته، ونظمه، وأحكامه، وأخلاقه، والاستهزاء بآياته وشريعته، ومحاربة أولياء الله الصالحين، وقتال الدعاة إلى الحق، وتعذيبهم واعتقالهم لردهم إلى النفاق والخيانة، وتمكين الملحدين وأعداء الدين من المناصب القيادية، والإفساد في الأرض، وتصحيح أديان الكافرين وتوهين دين الإسلام)

قال تعالى:

ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: 5]

ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ. كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 20-21]

ـ ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 33]

ـ ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]

ـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76]

ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

الْفَسَادَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: 204-206]

ـ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ. كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [آل عمران: 85-88]

ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: 150-151]

وكثير من الأنظمة الحاكمة في بلاد الأمة المسلمة، إنما تستمد شرعيتها الدولية من "محاربة الإسلام" وحماية "دولة يهود" الجاثمة على قلب الأمة في بيت المقدس.. وتتفانى في محاربة وقتال الدعاة إلى الله بكل حيلة ووسيلة، وبمنتهى الوحشية والإرهاب! وتُحسن إلى أعداء الأمة التاريخيين من (يهود وصليبيين) حباً لهم، وأُخوة فيهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: 11]

ولذا وعدهم الله جميعاً النار:﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: 68]

5ـ الإقرار بالنظريات المادية الإلحادية وتعميمها.

قال تعالى:

- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56-58]

- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا. وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: 1-6]

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: 67-68]

- ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ. وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: 5-6]

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 31]

- ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا. وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ

عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا. وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 27-30]

- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 190-191]

وتُقدم هذه النظريات المادية (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية) في صورة مبهرجة من "العلم والتنوير والثقافة"(1) وتنتظم في صورة أحزاب سياسية، ونظريات اجتماعية، ومناهج تعليمية وكتب دراسية، وفن وسلوك وممارسة، متجردة عن كل معاني الإيمان بالله واليوم الآخر، ونابذة لكتاب الله وموازينه، وحدوده، وقواعده، داعية إلى علمانية صريحة لا تؤمن بمرجعية كتاب الله، ولا تؤمن ابتداء بدور الدين في الحياة الدنيا.. وتقر وتوافق على المواثيق والمعاهدات الدولية التي تُشرّع الفحشاء والإلحاد والإباحية والشذوذ... إلخ، وهذا من أوضح صور "الكفر البواح"، وهذا ما عليه الغرب من قديم، وقد جلب الغرب معه هذه المناهج والنظريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والأخلاقية، وفرضها بالحديد والنار على الأمة المسلمة، ثم أكمل وكلاءه - من بعده - المهمة على أكمل وجه؛ في محاولة سلخ الأمة عن دينها سلخاً تاماً، باسم الحرية والتقدمية والتطور والمجتمع الدولي.

---

(1) انظر - إن شئت - مقال: العلم والإلحاد، واليسار الناعم.

يقول الشيخ محمد الغزالي (رحمه الله): "نجح الغزو الثقافي في تأليف عصابات من المرتدّين تستبقي ما حقّق من أهداف إبّان استعماره للعالم الإسلامي الواسع. إنه ألغى الشريعة الإسلامية وعطل نصوصها في ميادين شتى، وأوهن جانب العقيدة بعد ما قطع صلتها بالتربية والسلوك وأنشأ تقاليد جديدة لا ترتبط بالحلال والحرام ولا تكترث للقاء الله!

وهذه العصابات الكفور تخلط عامدة بين حرية الفكر وحرية الكفر!.. وتتبنى ألواناً من الثقافات الخائنة والفنون المنحلة لا تزيد أمتنا إلا خبالاً وقد انتسب إليها كل كاره للتراث الديني، وكل تارك للصلاة والصيام..

ولا ريب أن هؤلاء مُوجّهين من قادة الصليبية والصهيونية يحثّون خطاهم ويشدّون أزرهم، والهدف القريب والبعيد منع المسلمين من العودة إلى دينهم وتزهيدهم في أحكامه وشعائره.

إنَّ هذا الجيش من المرتدين الجدد يحرس مخلفات الاستعمار العسكري، ويشتبك في صراع مكشوف مع كل مسلم وَفِيّ لدينه وتاريخه وحضارته، والراية التي رفعها الحرية والتجديد والتنوير!

وقد نظرت إلى السائرين تحت هذه الراية فما وجدت منهم غيوراً على كتاب الله، بل قل: ما وجدت فيهم مُصدِّقاً له!! وما وجدت فيهم من يحترم رسالة الإسلام أو يحفظ حدودها. فإذا أعلن أحد الناس ريبته في مقدساتنا طاروا إليه يشجِّعونه ويقوُّون ظهره، ويُحرضونه على الله ورسوله!

لمن يعمل هؤلاء المرتدون؟ لأعداء العرب والمسلمين وحدهم!"[1]

---

(1) [كتاب: "الحق المر"، ج4، ص 32، محمد الغزالي]

وجدير بالذكر أن العلمانية[1] ـ وأهل النفاق ـ يكرهون كل حديث عن "الكفر"، واتهام من يُبين حقائق الإسلام بالتكفيريين الظلاميين... إلخ، ليس غيرة على إسلامهم ـ إن كان بقي لهم منه نصيب ـ وإنما بسبب أن العلمانية تكره بشدة أن يحكم الإسلام في أي وضع، تكره أن يقول كلمته، ثم تزعم التقوى، فتروح تزعم التدين وتقول: الإيمان علاقة سرية خاصة بين العبد وربه![2] العلمانية تكره أن يتهمها الإسلام بأي تهمة، خاصة عندما تكون هذه التهمة هي أشد حالات الإدانة في الإسلام وهي "الكفر".. وتكره بالجملة كل حديث عن الغيب، والحساب والجزاء الأخروي.. فالحديث عن "الكفر" يطعن العلمانية في ثلاث جوانب:

ـ أن يَعلو الإسلام ويقول حكمه وكلمته.

ـ أن يدمغ العلمانية بوصفها الصحيح وميزانها في الإسلام.

ـ أنه يُدينها ويتوعدها بالعذاب الأخروي، ويدخلها في المجال الغيبي.

ومن ثم.. فأمام هذه الإدانة فهو يُسقط شرعيتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

***

(1) وللتذكير نقصد بالعلمانية: الفكر المادي الذي لا يقوم على هدى من الله، مثل: العلمانية الليبرالية، والعلمانية اليسارية (الاشتراكية والشيوعية)، وما يتفرع عنهم من أيديولوجيات وتطبيقات.

(2) وقد استسلمت العلمانية لحاجة الفطرة لـ "الإيمان والروحانيات" فجعلت هذه "الحاجة" ليست عبادة خالصة لله ـ سبحانه ـ إنما هي حاجة يتم إشباعها حسب الهوى والميول، فمن يجد في نفسه الحاجة للإيمان والتأمل والروحانيات.. فيمكنه ـ إن شاء ـ أن يُصلي في الليل، أو يلعب اليوجا، أو يحضر حلقة غناء صوفي، أو ترانيم في كنيسة، أو يعيش لحظات تأمل، أو نحو ذلك مما يجد فيه هواه (وكلها في ميزان العلمانية سواء!) دون أن يكون هناك استسلام مطلق لله ـ جل جلاله ـ واتباع لكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وجعل الإيمان مجرد "تجربة روحية" لا دخل لأحد في كيفية إشباعها فإنها ـ وإن كان مظهرها عبادة ـ فهي تمجيد للذات الفردية، وبذلك فهي ليست "عبادة خالصة لله".

وعلى الجانب الآخر: وفي محاولة الدجاجلة الدفاع عن طُغاتهم فإنهم يستخدمون حديث: **"لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا"**، ويقولون: لم يظهر الكفر البواح، والطغاة يقيمون الصلاة، ولم يستعلنوا الكفر الصريح، والسُنة السكوت عليهم، والفتنة في الخروج عليهم.. ويشترطون أن يستعلن الطغاة وأئمة النفاق كفرهم باللسان! وهذا لن يحصل أبداً، ومن ثم فهم في مأمن[1].. وفي هذه الفتنة ييأس الشباب فينطلق يُكفر الجميع، أو يتوجه إلى الفكر العلماني.. اليساري أو الليبرالي.[2]

***

والحكمة من منازعة الأمر أهله عند ظهور الكفر البواح - أو الإثم البواح - والتضحية بالنفس والمال والغالي والنفيس من أجل إسقاط أنظمة الكفر البواح، لم يكن - بكل تأكيد - الغرض منه الطمع في سلطة أو إحلال طاغية مكان آخر، بل بالأساس للحفاظ على الأمة المسلمة من أن تنزلق إلى هاوية النفاق، والفسوق، والعصيان، عندما تتمكن سلطة الكفر البواح من رقاب المسلمين؛ فتنحل الأمة وتصبح غثاء كغثاء السيل[3]، وتضيع الغاية التي من أجلها أخرجها الله تعالى للناس، وهي تحمل أمانة الرسالة والخلافة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تبليغ دين الله، وتمكين رسالته في الأرض، فتلقى الله وهي خائنة له - جل جلاله - ولرسوله وللمؤمنين.

***

(1) "قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَبْقَى مِنَ الإِسْلامِ إلا اسْمُهُ، وَلا يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إلا رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُم يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ، وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، عُلَمَاؤُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْ عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ، وَفِيهِمْ تَعُودُ" [السنن الواردة في الفتن للداني/ 236]

(2) راجع فصل "شرعنة الاستبداد" من كتاب: "أمراض الاستبداد - الجزء الثالث".

(3) راجع مقال: "غثاء السيل".

ولم تنتظم كل صور "الكفر البواح" في هذه الأمة ـ عبر تاريخها كله ـ مثلما تكتمل وتظهر اليوم! وكثير من الأنظمة السياسية التي تحكم الأمة المسلمة اليوم تجمع "الكفر البواح" من أطرافه كلها، وتزيد عليه، وتُحسن إليه، وتمعن وتتمادى فيه إلى أقصى دركٍ؛ لتنال الرضى والشرعية من النظام الدولي، ومنهم من يفعل ذلك إحساناً للطاغوت، حتى ولو لم يكن هناك خطر يتهدد عرشه إنما يُخرج أضغانه، ويفعل ما يُمليه عليه نفاقه![1]

وهناك تقصير كبير من الدعاة إلى الله في عصرنا هذا، في بيان هذا "الكفر البواح"، خشية اتهامهم بأنهم يُكفرون المسلمين، وبأنهم من "الخوارج" ومن "التكفيريين" فيطلقون عليهم حرباً إعلامية لا هوادة فيها؛ فينأون بأنفسهم عن بيان الحق، ويؤثرون السلامة! وهناك كذلك تقصير كبير من السياسيين المسلمين العاملين في الحقل السياسي من هذا البيان، فالمسلم داعية إلى الله في كل حين، وفي كل موطن، ويحمل أمانة البلاغ، ولا يحل له أن يكتم من رسالة الله شيئاً، ولا أن يخشى في الله لومة لائم، وأن يقول ويقوم بالحق؛ فهذه أهم "**مصلحة سياسية**" واجب تحقيقها، والعمل عليها.

ولا يخفى أن هناك حالات من الغلو في التكفير وقعت كردة فعل على المحاربة الشديدة لله ورسوله ودينه وكتابه وشريعته.. واصطدمت بالجميع، وعممت على الجميع، ورمت الأمة بالشرك والردة، واستحلت دماءهم وأموالهم، وكان لها من الأثر السيئ والقبيح في صرف كثير من الدعاة عن بيان الحق، والدعوة إليه، والعمل على إقامته، وفي صد الناس كذلك عن سبيل الله. [2]

***

(1) يقول العلاّمة الجويني إمام الحرمين: «ومن لم يكن ذا كفاية، ولم يكن موثوقاً به لفسقه، لم يجز نصبه، ولو نُصب، لم يكن لنصبه حكمٌ أصلاً» [«غياث الأمم في التياث الظلم» (ص316)]. فما بالنا بمن يقع في الكفر البواح، والعياذ بالله؟!

(2) راجع بحث: "الغلو في التكفير"، ومقال: "بين منهجين".

وجدير بالذكر أن هناك بعض الأنظمة السياسية والاجتماعية تمارس الكفر البواح بكل تبجح، واستعلان، وإقرار بالعلمانية الصريحة، وهناك بعض الأنظمة ـ عندما تنشط الدعوة إلى الله، وتستفيق الجماهير الإسلامية، وتعود إلى دينها، وتستجيب لدعاة الحق، فإن هذه الأنظمة تمارس "الكفر البواح" بصورة فيها نوع من التجميل، والتأويل الباطل المكذوب، فتسمي "ولاية الكافرين المحاربين" (اتفاقيات دولية)، وتسمي نبذ شريعة الله والتحاكم إلى كتابه (مصلحة وطنية، والدين لله والوطن للجميع، وحقوق الأقليات)، وتسمي محاربة الإسلام وقتال الدعاة وأولياء الله (محاربة الإرهاب والأصولية)، وتسمي استحلال الربا (فائدة حللها بعض العلماء، وضرورة اقتصادية عالمية لا مفر منها)... إلخ! وتجلب من الدجاجلة (الدعاة على أبواب جهنم) الذين يضفون شرعية فقهية على "كفرهم البواح"! وكل هذه المحاولات التجميلية لا تُلغي قبح الكفر البواح، ولا حقيقته، ولكنها تُصعب المهمة على دعاة الحق، في كشف زيف الباطل، وبيان حقيقة الكفر البواح.. المُتعين على المسلمين إزالته بكل وسيلة ممكنة.

وبيان الكفر البواح لا يعني تكفير المسلمين، ولا رميهم بالشرك والردة.. فكما أسلفنا، ومن الناحية السياسية، نحن نتعامل مع حالة سياسية اجتماعية من الكفر البواح، ظهورها يستلزم ويستوجب على المسلمين القضاء عليها، وتطهير الأمة منها، دون إجراء الأحكام على أعيان الأفراد بصفتهم الشخصية، إنما نتحدث عن الشخصية الاعتبارية للنظام السياسي، وما ينبثق عنه من صور اجتماعية.

فلا شرعية سياسية ولا اجتماعية لـ "الكفر والإثم البواح"، ولا شرعية لحكم أئمة النفاق[1].

(1) راجع مبحث "طاعة أولي النفاق" من كتاب: "أمراض الاستبداد ـ الجزء الثالث".

بل إن شيوع الإثم البواح ولو لم يكن كفراً، وشيوع الذنوب والمعاصي والمفاسد، والتهتك والانحلال، والظلم والعدوان، والفسوق، فإن دفعه ومنعه والقضاء عليه ومنازعة أهله، والعمل على التمكين لدين الله التمكين السياسي والاجتماعي والحربي من أوجب الواجبات على الأمة المسلمة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55]

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 39-41]

وبيان الكفر البواح ـ المذكور أعلاه هو وغيره ـ **مقدمة تأسيسية، وقاعدة انطلاق** لإصلاح الأمة، وإحيائها من جديد، وتحريرها من أسر واستعباد أئمة النفاق في الداخل، ومن أئمة الكفر في الخارج، وبالأساس حماية لدينها وإيمانها ذاته.(1)

***

(1) انظر مقال: "مجالات التكفير".

9- الخوارج.. البُعد السياسي

الخوارج: فرقة مُبتدعة خرجت على الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ في سياق تاريخي مُعقد، واضطراب لأمر المسلمين، واشتعال فتنة الملك العضوض، وغالت هذه الفرقة في تصوراتها وحركتها، واستفحل أمرها فيما بعد..

ومحددات الخوارج من الناحية الفقهية هي: تكفير عموم المسلمين، وإجراء أحكام الردة عليهم باستحلال دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

والمحددات النفسية لهم هي[1]: المثالية المفرطة، والاستكبار، وسفه الرأي.. فأحلامهم وذوي الرأي منهم سفاء![2]

والمحددات السياسية لهم هي: معارضتهم الشديدة لكل مظاهر الظلم، ولكن في النهاية يفشلون في الإنكار الصحيح لهذا المنكر.

وكان للخوارج تأثير سيئ وخطير على الفكر الإسلامي والحركة الإسلامية عبر التاريخ، وفي مقالتنا هذه نحاول المقاربة للبعد السياسي للخوارج.

إنَّ معارضة الظلم، وإنكار المنكر من الخوارج له أصل شرعي عظيم، وشجاعتهم في إنكار المنكر كانت تجذب الشباب المتحمس والرافض والواقع عليه هذا الظلم.. وكذلك النظرة المثالية التي كانوا يريدون أن يكون الواقع عليها؛ فنجد أن إنكار المنكر والمثالية أمران لا خلاف عليهما بين أحد، ولكن التعاطي معهما، والحركة الواقعية أدت إلى رمي المسلمين

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "البعد النفسي للخوارج".

(2) ونرى عند غير المسلمين صوراً نفسية من الحالات الخارجية المتطرفة والمغالية والعدوانية أيضاً؛ فهناك مشترك نفسي عام لمثل هذه الحالات سواء عند المسلمين أو غيرهم.

بالشرك والردة، وتحويل المعركة إلى قتل المسلمين أنفسهم! الأمر الذي يُحدث عملية تآكل ذاتي للأمة من داخلها، كالذي يكون مطلوباً منه علاج مريض فبدلاً عن أن يطلب له الدواء ضربه بالسيف! فتحول إنكار مظالم وفواحش الملك العضوض إلى مظالم أشد أو مثلها!

ونلحظ في حركة الخوارج انقطاعها عن جذورها الاجتماعية في الأمة، فكانت بلا حاضنة، وكذلك لا تسمع لأحد إلا من داخلها، ويتفشى فيها التكفير بصورة خطيرة حتى يصبح هاجساً ومرضاً! وفي حالة العجز ينتهي الأمر عند التكفير والانقطاع الروحي والنفسي والاجتماعي عن الأمة، وفي حالة القدرة ينتهي باستحلال دماء المسلمين، وتقديم قتالهم على قتال الكافرين!

وتنتهي حركتهم إلى:

- محاربة وقتل المسلمين والأبرياء.. بزعم الجهاد، حتى وصل الأمر بالخوارج المعاصرين إلى قتل المسلمين في المساجد بزعم أنهم مشركون!!

- التمكين لأعداء الله، وأعداء الأمة.. بزعم قتال المرتدين أولى.

وخطورة هذا الانحراف الفكري والسلوكي يتلخص في:

- رمي المسلمين بالشرك والردة، واستباحة دمائهم وأموالهم.

- القتل العشوائي للآمنين والأبرياء.

- العمل من خلال خطة العدو، والتمكين له.

- خداع الشباب الصغير بأوهام لا أصل لها، ودفعه لتفجير نفسه!

- إرباك وتعطيل الحركات ـ القريبة من الصواب ـ التي تحاول تحرير الأمة من أعدائها.

- الصد عن سبيل الله، بالتنطع والغلو وتبني الآراء الشاذة.

كما استغلت أجهزة المخابرات في عصرنا هذا "**سلاح التكفير**" لإطلاقه بين الحركات المسلحة لإفساد حركتها، وقطعها عن الأمة، واستطاعت توظيفه باحترافية عالية لترسيخ الأنظمة الفاسدة.[1] كما استغلت "أدبيات الخوارج" بشكل عام لإفساد حركات التغيير.[2]

***

أما المثالية السياسية:

فللمثالية وجهين:

الوجه الأول "المثالية المُصلحة الإيجابية": وهذه من خصائص التصور الإسلامي، فالإسلام يهدف إلى تحقيق المثالية، والوصول إلى الكمال الرباني النبوي في أي واقع يُعالجه، وهذا هو هدفه الأسمى.. ولكنه في سبيل هذا الهدف، لا يغفل، ولا يجهل واقعه، وتحدياته، ولا ييأس من الإنسان، ولا يتنكب لأمته.. بل يصبر عليها، وعلى أذاها، ويرى فيها وفي أجيالها وأنسالها الرجال العظماء الذي سيغيرون وجه التاريخ، والمثالية المُصلحة الإيجابية تدخل على الإنسان من كل أقطاره، وتأخذ بيده برفق، وتنطلق به في تفاءل وبشرى، وتصبر على تغيير الواقع شيئاً فشيء قدر الوسع والطاقة، وتُسلّم الراية لمن بعدهم بمنتهى الحرص والحب والتواضع والتفاؤل والصبر، ومن ثم فهي ليست مُعادية للإنسان، بل حريصة عليه، وليست هي ضد الأمة بل إلى جانب الأمة ومن داخلها، ولهذا فهي مثالية في أهدافها واقعية في حركتها.

(1) انظر بحث: "أجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المسلح".

(2) انظر بحث: "الخوارج المعاصرون.. الجيا والدولة". ومقال: "تكفير المتوقف في التكفير".

وهذه المثالية مُخالفة للفكر الفلسفي الغربي الذي يتحدث عن "المدينة الفاضلة - يوتوبيا" سواء الحديث عنها بصورة مستحيلة الحدوث، أو الثرثرة الفارغة حولها، فالمسلم لا يرفع رأساً لهذه التفاهات، ويتعامل معها من المنظور النقدي لا منظور التسليم لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثاني "المثالية المُفسدة السلبية": وهذه من خصائص الحركات الخارجية على الأمة، لقد كانت هذه الحركات تطمح إلى واقع سياسي إسلامي مثل الذي كان عليه الشيخان (أبو بكر وعمر رضي الله عنهما) ولا ترى خلافة راشدة إلا هما! وقد كانت خلافتهما بحق أعظم خلافة - خاصة العهد الذهبي للإسلام في خلافة عمر رضي الله عنه - ولكن عندما صاحب هذه المثالية المُفسدة محاولة العودة القسرية المصطنعة المتكلفة، الغافلة عن التدافع التاريخي، والسنن الاجتماعية.. كانت محاولة فاشلة، وفشلها يعني استباحة دماء المسلمين، وترسيخ وشرعنة أكبر للملك العضوض.. حيث تقول "الأنظمة الباغية" للشعوب المسلمة المغلوبة على أمرها: انظروا نتيجة إنكار المنكر؛ إنه تكفيركم واستحلال دمائكم وأموالهم، وليس لكم إلا الخضوع لنا!

المثالية المفسدة معادية للأمة، مُتنكرة لها، قاسية عليها، تتعالى على الأمة، وتجد الأنظمة السياسية الباغية الظالمة ضالتها فيها باعتبارها "النموذج السيئ القبيح" لمن يحاول إنكار المنكر، ويطلب المثالية بصورتها الربانية، وسلوكها الصحيح.

***

كما اصطنعت الأنظمة الباغية - حماية لعروشها - فرقاً خارجية معاكسة لحركة الخوارج التاريخية.. ولكن المحصلة واحدة وهي "معاداة الأمة ومشروعات التغيير التي تحاول إحياءها" وإذا كانت فرق الخوارج التاريخية تنفعل ضد الظلم، وتطلب المثالية وإن أخطأت الطريق، وضلت الهدف نتيجة الكبر الذي في نفوسهم، أو الضلالة عن الاهتداء

للصراط المستقيم.. فإن الفرق الخارجية المعاصرة (التابعة للطغاة) كانت أسوأ منهم ـ وإن لم تَسع على المسلمين بالسيف إلا في حالات محددة عند قيام الثورات الشعبية ـ كانت أسوأ منهم لأنها قدّست طبقة الحكام والملوك وخلعت عليهم صفات الربوبية، وكانت شديدة العدوان شديدة القسوة على الأمة، هادفة إلى تعبِيدها للطغاة والفسقة والفجرة والجبابرة، ومُهاجِمة بكل وحشية وصلافة ووقاحة منقطعة النظير للعلماء والدعاة والمصلحين.. وتبيح لطبقة الحكام إبادة شعوبهم والقضاء عليها في سبيل حماية العروش باسم "طاعة ولي الأمر" وجعلوها ديناً وعقيدة هي أصل الأصول! فخرجت بذلك على الأمة، ووقفت كحاط صد ضد تحريرها، ووسادة أمان لكل طاغية وجبار ومفسد!

***

الواقع الطهوري، والملك العضوض

نرى مشكلة الواقع الطهوري، تظهر عند بعض الخوارج لما أبدوا صورة "التصلب السياسي"، فهم قد اعترضوا على مظالم الملك العضوض وما فيه من الأثرة والظلم والمحاباة والبغي، والاستبداد بالسلطة والثروة، وهذا الاعتراض صحيح وفي محله ـ ما لم يستحلوا دماء المسلمين ـ ولكن إن قعد بهم هذا الاعتراض عن: شهود الجهاد، ودفع الصائل، وحضور الجماعات، والانسجام مع الأمة المسلمة، فقد أصبحوا بذلك خوارج على الأمة المسلمة، رغم مطلبهم "الطهوري الأول" فقد أدى بهم هذا التصلب إلى الابتعاد عن الشهود الاجتماعي والسياسي والحضاري للأمة..

ولقد كان في جيش النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ شارب الخمر، وفاعل الفاحشة، وتنازع في الأمر، وعصيان، وإرادة الدنيا، ومنهم على العكس من ذلك تماماً.. ولكن النبي الكريم كان يقبل الجميع، ويستغفر للجميع، ويدعوهم للتوبة أثناء الجهاد وفي وقت

المعركة.. ولم يكن يشترط عليهم أن يكونوا مثل العناصر الممتازة التي بلغت مرتبة عظيمة من الصلاح والصدق والشهادة!

وأما موقف الصحابة (ومن والاهم وتبعهم) من الملك العضوض فقد كان هو الموقف الصحيح الصائب؛ لقد أنكروا تبديل سنة النبي ـ عليه السلام ـ في سياسة المال والحكم، وأنكروا كل ما عارض إيمانهم وإسلامهم، ووقفوا للحكام، بل أقسم بعض الصحابة أنه لن يسكن أرضاً بها فلان من الحكام! ولكنهم ماذا فعلوا بعد ذلك؟

لقد اتبعوا خطة الرشد والصلاح، فما تركوا ميداناً في الدعوة والجهاد إلا سلكوه، ونفعوا الأمة بهذه المواقف الإيجابية الحقة التي حفرت تاريخهم بأحرف من نور، فانطلقوا في ميدان الجهاد لتحرير الإنسان، ودفع الخطر عن الأمة، ورفع راية الدعوة.. رغم أن هذا الجهاد يكون فيه من الأثرة والاستحواذ على المغانم لصالح الملوك! ولكنهم لم يعبئوا بذلك فحيثما نصرة الدين، والأمة.. تجدهم؛ وهذه الإيجابية العظيمة والمرونة في المواجهة، هي التي فتحت الفتوحات العظيمة، وأطلقت مدارس الفقه والدعوة.. والبديل كان هو مسلك الخوارج الطهوري الذي كان يريد الواقع كما يتمنى، لا كما هو.. وأما الراشدون فهم الذين انطلقوا في كل ميدان، على قدر وسعهم وطاقتهم لينصروا دين الله، ويدافعوا عن أمته، رغم اعتراضهم الكثير على تبديل السنة، وطمس بعض معالم الشريعة في سياسة الحكم، والمال..

ونحن بالتأكيد لا نرفض الواقع الطهوري، بل نطمح إليه، ونعمل على إيجاده وصنعه، ولكننا نرفض أن يُعيقنا غيابه عن أي حركة إيجابية نافعة تحفظ للأمة دينها وأمنها ومقدراتها، ونحاول أن نسلك في أنفسنا وحياتنا مسلكاً طهورياً مثالياً، ولا نتوقف أبداً عن المحاولة والعمل بحجة الأخطاء والواقع المدنس؛ لأن توقفنا سيؤدي إلى مزيد من السوء والضعف والسقوط، ومن ثم استحالة تحقيق المنهج الطهوري بشروطه هذه، والسبيل الصحيحة ـ بإذن الله ـ لتحقيق منهج الطهر والمثالية هو: النزول إلى الواقع

والاشتباك معه ـ مهما كان ـ محسنين التوكل على الله، والإخلاص له جل جلاله، وغرس البذور الصالحة في الأرض كلها، دون انتظار رؤية ثمرتها، أو الطمع في الأخذ منها!

وفي هذا المعنى يقول الإمام أبو بكر الجصاص (رحمه الله): "القاضي إذا كان عدلاً في نفسه فولي القضاء من قبل إمام جائر.. فإن أحكامه نافذة وقضاياه صحيحة وأن الصلاة خلفهم جائزة مع كونهم فساقاً وظلمة وهذا مذهب صحيح، ولا دلالة فيه على أن من مذهبه [أي: الإمام أبو حنيفة] تجويز إمامة الفاسق؛ وذلك لأن القاضي إذا كان عدلاً فإنما يكون قاضياً بأن يمكنه تنفيذ الأحكام، وكانت له يد وقدرة على من امتنع من قبول أحكامه.. حتى يجبره عليها ولا اعتبار في ذلك بمن ولاه؛ لأن الذي ولاه إنما هو بمنزلة سائر أعوانه، وليس شرط أعوان القاضي أن يكونوا عدولاً..

ألا ترى أن أهل بلد لا سلطان عليهم لو اجتمعوا على الرضا بتولية رجل عدل منهم القضاء حتى يكونوا أعواناً له على من امتنع من قبول أحكامه.. لكان قضاؤه نافذاً وإن لم يكن له ولاية من جهة إمام ولا سلطان..

وعلى هذا تولى شريح وقضاة التابعين القضاء من قبل بني أمية، وقد كان شريح قاضياً بالكوفة إلى أيام الحجاج، ولم يكن في العرب ولا آل مروان أظلم ولا أكفر ولا أفجر من عبد الملك، ولم يكن في عماله أكفر ولا أظلم ولا أفجر من الحجاج!

وكان عبد الملك أول من قطع ألسنة الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. صعد المنبر فقال إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف يعني عثمان، ولا بالخليفة المصانع يعني معاوية، وإنكم تأمروننا بأشياء تنسونها في أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بعد مقامي هذا بتقوى الله إلا ضربت عنقه، وكانوا يأخذون الأرزاق من بيوت أموالهم، وقد كان المختار الكذاب يبعث إلى ابن عباس ومحمد بن الحنفية وابن عمر بأموال فيقبلونها..

وذكر محمد بن عجلان عن القعقاع قال: كتب عبد العزيز بن مروان إلى ابن عمر ارفع إليّ حوائجك، فكتب إليه إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال (إن اليد العليا خير من اليد السفلى) وأحسب أن اليد العليا يد المعطي، وأن اليد السفلى يد الآخذ، وإني لست سائلك شيئاً، ولا راداً عليك رزقاً رزقنيه الله منك والسلام..

وقد كان الحسن وسعيد بن جبير والشعبي وسائر التابعين يأخذون أرزاقهم من أيدي هؤلاء الظلمة لا على أنهم كانوا يتولونهم ولا يرون إمامتهم وإنما كانوا يأخذونها على أنها حقوق لهم في أيدي قوم فجرة..

وكيف يكون ذلك على وجه موالاتهم وقد ضربوا وجه الحجاج بالسيف، وخرج عليه من القراء أربعة آلاف رجل هم خيار التابعين وفقهاؤهم، فقاتلوه مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بالأهواز ثم بالبصرة ثم بدير الجماجم من ناحية الفرات بقرب الكوفة.. وهم خالعون لعبد الملك بن مروان، لاعنون لهم، متبرئون منهم..

وكذلك كان سبيل من قبلهم مع معاوية حين تغلب على الأمر.. بعد قتل عليّ عليه السلام، وقد كان الحسن والحسين يأخذان العطاء، وكذلك من كان في ذلك العصر من الصحابة، وهم غير متولين له، بل متبرئون منه.. على السبيل التي كان عليها عليّ عليه السلام إلى أن توفاه الله تعالى إلى جنته ورضوانه، فليس إذاً في ولاية القضاء من قبلهم ولا أخذ العطاء منهم دلالة على توليتهم واعتقاد إمامتهم"[1]

***

وقد حاول العلمانيون ـ بحجة المسلك الطهوري أيضاً ـ إثناء وإبعاد المسلمين عن العمل السياسي، بحجة أن السياسة نجاسة، والدين طاهر مقدس! وهي محاولة خبيثة عدائية

(1) ["أحكام القرآن" لأبي بكر الجصاص الحنفي، (المتوفى: 370 هـ) ج1، ص87]

تحاول أن تجعل الإسلام وحركته ينزوي في زوايا المسجد، وتمنعه أن يؤدي أي دور إيجابي، فيغيب تأثيره وفعاليته عن الحياة! والأصل أن يكون له السيادة العليا، فيعلو ولا يعلى عليه، ولا شرعية للعلمانية.

وقد "نفى العلمانيون تهمة الإلحاد عنهم، وقالوا: نحن مؤمنون! والإيمان لا يعدو أن يكون علاقة بين الإنسان وربه، تستقر في الضمير، وتظهر في الأخلاق..

أما أن تكون للإيمان ظلال في ميدان القانون، أو الفنون، أو آفاق الحياة المتجددة فذاك ما ننكره. إن للدين مجاله الخاص الذي يعمل داخله، ولا ينبغي أن يتجاوزه.

قلت: لو سلّمنا جدلاً بأن الدين لا يحتل إلا هذه الرقعة الضيقة فما أحسبكم مؤمنين بالله! وما أظن أحدكم تقرب إلى الله بصلاة، أو أناب إليه باستغفار أو ادخر حسنة تنفعه يوم الحساب.. إنكم تنقلون التديّن إلى زاوية لا تطلع عليها العيون كما يزعم من شاء ما شاء وهو آمن من المؤاخذة!

ولكن مَنْ قال: إن الدين علاقة خاصة بين المرء وربه؟ وأنه لا يتناول العلاقة بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان وشتى النظم الاجتماعية والسياسية؟

إن الكفر بالله وضِعَت له علامات بارزة في السلوك الاجتماعي مثلما وضعت له هذه العلامات في السلوك الفردي، وأي نص أصرح من قول الله لنبيه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65] إن الكفر كما يكون رفضاً للعقيدة يكون رفضاً للشريعة، والذي يأبى قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11] مثل الذي يأبى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]

وطىٌّ أعلام الإسلام في ميدان التشريع تمهيد حاسم لطيَّه في ميدان الاعتقاد، ونحن نعرف خطة الاستعمار الثقافي في ضرب الإسلام. إنه يضرب اليوم في مجال القضاء ليستطيع إغلاق مساجده غداً.

والزنجي الشيوعي الثائر في جنوب السودان يطلب الآن إلغاء الشريعة الإسلامية! أتراه يكتفي بذلك تاركاً فرصة البقاء لكلمة التوحيد؟ إنه يبيِّت لها الشر، وينفذ خطته على مهل!

ومع ذلك فنحن لا نقسم الوحي الإلهي قسمين. نعطي حق البقاء لقسم، ونحكم بالموت على آخر! ذاك يعني حكماً بالموت على الدين كله وحكماً آخر بالموت على دنيانا كلها..

إن شعار العلمانية يُرفع للنفاذ إلى صميم الإسلام والإتيان عليه من القواعد، والمدهش أن ذلك يتم في وقت تيقظت فيه ملل أخرى وسعت لأن تكون لها دولة. وهي التي لم تقم لها دولة خلال قرون طوال. ألا تكون العلمانية خيانة عظمى."[1]

***

الخروج "عن" الأمة (الفكر المحتقن والمتصلب)

والمرونة السياسية لا يصلح معها الفكر المحتقن والمتأزم والمشحون بشحنات أيديولوجية معقدة! فهدف الحركة السياسية هو الوصول إلى "نتيجة إيجابية نافعة مُوفقة"، وليس الانتصار في معارك وهمية، أو محاربة طواحين الهواء.. ثم إنها لا تناقش القضايا الأيديولوجية والاختلافات أثناء حركتها، فهي تحمل أمانة الوصول إلى نتيجة، وتخطو خطوة على الطريق الطويل..

(1) [كتاب: "جهاد الدعوة" للشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله]

الفكر المحتقن يجعل معركته الأساسية معركة انتصار على الخصوم، ولا مانع عنده أن تنهار الأمة، ويتداعى عليها كل عدو، ويحاصرها كل وغد وطاغية.. حتى تؤمن الأمة بفكرته وبطرحه هو، وربما يشترط أن يمر هذا الطرح من خلاله هو.. هذا الفكر الذي يتعامى ـ عن عمد ـ عن الواقع وتحدياته، فانتصار الأيديولوجيا بالنسبة له هو الغاية الأولى، ويهون أمامها كل شيء، فهي تملأ عليه نظره حتى يعود لا يرى شيئاً.. إنه كمن يرى بيتاً مأهولاً بساكنيه على وشك السقوط، ويحاول مَن حوله أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، ولكنه يمر ـ دون أن يلتفت ـ وينظر بلا مبالاة إلى هذه المعمعة، فلا يشغله إلا حكم نجاسة كلب مس جلبابه وهو يمضي! ويرى نفسه أكثر حكمة وعقلاً، وانفصاله عن الأمة طهراً وقداسة! وما من قضية مصيرية للأمة إلا ويُخرج لها من الشواغل والتوافه ما يُفسد على الناس فهمهم وعملهم.. وهذه الحالة من علامة الانفصال والخروج "**عن**" الأمة، الذي قد يؤدي ـ إنْ تمادى صاحبها ـ إلى "الخروج" "**على**" الأمة!

ومواجهة هذا الفكر المحتقن، يكون بالاستمساك بالخطة العامة، والحفاظ على الثوابت، والانشغال بالعمل دوماً، وترك الجدال والمراء والعبث الفارغ من قيمة أو جهاد.

والقضايا السياسية (وعالم السياسة) ـ في كافة الأزمنة والأمكنة ـ يختلط فيها الحق والباطل.. وليس فيه ديمومة، بل هناك "ديناميكية ـ تفاعلية" تتغير بتغير الفواعل السياسية، والظروف الإقليمية والدولية.

وإن أصحاب "المشروع الإسلامي" لن يجدوا أبداً بيئة مثالية لعملهم.. ولكن "هوامش" يمكن العمل من خلالها لخلق الفرص للدعوة والتمكن السياسي.

لقد دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - في (جوار - حماية) مشرك، و(تفاوض) مع مشرك، وهَمّ أن يعطي (الأموال) للمشركين حماية للمسلمين.. ولم "يشترط" عليهم أن يكونوا على دينه حتى يدخل في حماية مشرك، أو يتفاوض، أو يتألف القلوب. وكل هذا

مما تقتضيه الظروف والأحوال، ولكنه في نفس الوقت لم يداهن في دعوته ورسالته ـ وحاشاه عليه الصلاة والسلام ـ فالدعوة والرسالة لا بد من أن تكون تامة خالصة، تُبلغ كما هي. أما الأمور السياسية فهي حسب معطيات الواقع وظروفه.. وحسب وجود وإمكانية تحصيل خير الخيرين، ودفع شر الشرين.

نخطأ حينما نظن أن "الرسالة الدعوية" كـ "الحركة السياسية" فالرسالة الدعوية يجب أن تكون على صورتها المثالية.. على سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - أما المواقف السياسية فهي حسب ما يحقق التمكن والخير للوجود الإسلامي، وحسب الظروف والسياق والمتاح.. دون الاستسلام للواقع، مع التدافع لمزيد من التمكين والترسيخ للإسلام في كل مكان ومجال.

وقد يُحول الهوى والتعصب والغلو "المواقف السياسية" إلى قضية براجماتية، مما يفسد علينا "الفكر السياسي الرشيد" فيجب أن نتخلص من حظوظ النفس وحظوظ الحزب والطائفة؛ لتكون مواقفنا السياسية متجرد وخالصة لصالح المشروع والوجود الإسلامي.

***

ويجب في مرحلة التربية السياسية لشباب الأمة الانتباه لمسائل: (**المثالية، والواقع الطهوري، والفكر المحتقن، والنَفس الخارجي في الفكر والحركة**)، والإجابة الشافية الوافية عن كل تساؤلات الشباب في ذلك؛ حتى نضمن ـ بإذن الله ـ **سلامة عقولهم من الأفكار الباطلة، وسلامة نفوسهم من الكبر والتعالي، وسلامة حركتهم من الضلال والتيه، وضبط انفعالاتهم بلا إماتة لها، ولا إحراق لهم.**

فالتربية السياسية الصحيحة لشباب الأمة تضعهم على الصراط المستقيم، وتسير بهم في طريق الرشد، وتحفظ عليهم أوقاتهم وأعمارهم.. والمنح، والفرص الربانية.

ويجب التركيز في تربية الشباب على:

- الانتساب إلى الأمة المسلمة جميعها، وشعور الجسد الواحد والمسؤولية الجماعية عن قضايا الأمة.

- التركيز على "تواضع الشباب" لأمته، ولدينه، والتأكيد على عدم وصايته على الأمة، وبعدم كونه صاحب الحق المطلق، وكونه مجرد خادم لدينه وأمته، وتربيتهم على إنقاذ الأمة لا قتلها.

- تنمية الفكر السياسي الإسلامي للشباب؛ لتمكينهم من قراءة واقعهم وتاريخهم وتاريخ البشرية قراءة صحيحة.

- قطع الطريق على نمو أي أشكال للتعصب والغلو، وتربيتهم تربية رسالية تدور مع الكتاب حيث دار، وتقوم لله، وتشهد بالقسط.

ـ الحذر من القضايا الهامشية والفرعية ـ حتى ولو كانت سياسية ـ التي تستهلك الوقت والجهد، ولا تؤثر كثيراً من ناحية: تحقيق مقاصد الشريعة أو خطة العمل الواقعية التنفيذية الهادفة للتمكين لدين الله في الحكم والسلطة السياسية.. وفي كل مجال ونشاط.

-تربيتهم بالقرآن الكريم، فكراً وخلقاً وسلوكاً بعيداً عن أوهام من يجعلون كل خلاف محتمل عقيدة ينعقد عليها الولاء والبراء![1] وبعيداً عن من يحبون تمزيق الأمة بالآراء الجدلية، ومحاربة طواحين الهواء![2]

وفي كل خطوة وخاطرة وفكرة وحركة التأكيد والتشديد على: **التجرد التام، والإخلاص الكلي لله جل جلاله**؛ حتى يُكتب لهم الأجر والتوفيق بفضل الله ومنته.

***

(1) انظر مقال: "أسئلة في العقيدة". و"العقيدة الإسلامية".

(2) انظر كتاب: "العقائدية القاصرة"، أ. شريف جابر.

10- التشيع السياسي

مَثّلت سيرة الإمام عليّ ـ رضي الله عنه ـ الدفاع عن الخلافة على منهاج النبوة ضد بدعة الملك العضوض.. وكانت شيعته ـ في عصره ـ هم أهل الحق والسنة والجماعة، ولما استقر أمر الملك العضوض، تعرض شيعة الإمام علي إلى اضطهاد وظلم شديد؛ لأنهم مثلوا جانب المعارضة ضد الحكم الأموي حينها.. وثارت الثورات ضد هذا الحكم.

ورغم ما كان لدولة بني أمية من فتوح كبيرة نشرت الدين شرقاً وغرباً، وما عاشه المسلمون من وحدة جامعة، كان لكثير من علماء أهل السنّة مواجهات ضد ظلمهم وبغيهم.. منها ثورة القراء: «قال أبو البختري الطائي: قاتلوهم فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدن دينكم وليغلبنكم على دنياكم.

وقال الشعبي: قاتلوهم فوالله ما أعلم أحداً على بسيط الأرض أجور منهم في حكم، ولا إغلاء في ظلم لا تركاً ولا ديلماً.

وقال سعيد بن جبير (سيد التابعين): قاتلوهم بنيّة ويقين ولا تتأثموا في قتالهم، فعليّ كل إثم يدخل عليكم في ذلك، قاتلوهم على جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين واستذلالهم الضعفاء، وإماتتهم الصلاة.»[1]

«وكان مذهب [الإمام أبو حنيفة] مشهوراً في قتال الظلمة وأئمة الجور، ولذلك قال الأوزاعي: احتملنا أبا حنيفة على كل شيء حتى جاءنا بالسيف يعني قتال الظلمة فلم نحتمله، وكان من قوله: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض بالقول، فإن لم يؤتمر له فبالسيف، على ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم. وسأله إبراهيم الصائغ وكان

(1) [«أنساب الأشراف» (7/ 340)، وتاريخ الطبري]

من فقهاء أهل خراسان ورواة الأخبار ونساكهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: هو فرض وحدثه بحديث عن عكرمة عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتل". فرجع إبراهيم إلى مرو وقام إلى أبي مسلم صاحب الدولة فأمره ونهاه وأنكر عليه ظلمه وسفكه الدماء بغير حق، فاحتمله مراراً ثم قتله. وقضيته في أمر زيد بن علي مشهورة وفي حمله المال إليه وفتياه الناس سراً في وجوب نصرته والقتال معه وكذلك أمره مع محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن حسن، وقال لأبي إسحاق الفزاري حين قال له: لم أشرت على أخي بالخروج مع إبراهيم حتى قتل؟ قال: مخرج أخيك أحب إليّ من مخرجك. وكان أبو إسحاق قد خرج إلى البصرة، وهذا إنما أنكره عليه أغمار أصحاب الحديث الذين بهم فقد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تغلب الظالمون على أمور الإسلام، فمن كان هذا مذهبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كيف يرى إمامة الفاسق؟»[1]

«وكان أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن عليّ رضوان اللَّه عليهما، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة»[2]

ولا يكاد يستقر ملك بني أمية إلا وتقوم عليه ثورة! ولم يكن الشيعة كعقيدة ومنهج وطائفة كان قد تشكل بعد بالصورة التي عليه اليوم..

ورغم مظالم الحكم الأموي إلا أنه يعتبر أفضل فترة في مرحلة الملك العضوض ـ وبه بقية الصحابة والتابعين ـ لأنه استلم الأمر على أفضل ما يكون من خلافة راشدة مثلت

(1) [«أحكام القرآن للجصاص ط العلمية» (1/ 85)]
(2) [«تفسير الكشاف - للزمخشري» (1/ 184)]

بنقائها وجهادها وزخمها دفعة قوية للأمة لتنطلق تسيح في الأرض، فكان جهاد الأمويين هو أفضل ميزة في الملك العضوض، والدفاع عن العالم الإسلامي الميزة العامة له.

حتى مرحلة زيد بن علي لم يكن اعتبار الشيعة خارجة عن الخط العام لعلماء المسلمين والأمة المسلمة.. حتى ظهرت بعض التفسيرات والغلو في مسألة "الإمامة والخلافة" ومن أحق بها.. والحق ـ فيما أرى ـ أن ترتيب أفضلية الصحابة ليست مسألة خلافية ينعقد عليها الولاء والبراء ولا التبديع ولا التفسيق، وليس مسألة مَن هو أولى بالخلافة أيضاً ضمن ذلك، فهي مسألة منذ يومها الأول مسألة اجتهادية بين المسلمين وذوي الأحلام منهم، وتركها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شورى بين المسلمين.

ولكن لعبت الأهواء والغلو والمظالم والأحوال النفسية والاجتماعية والسياسية في ظهور تيارين من الغلاة؛ **الأول**: التيار الذي ناصب الإمام عليّ ـ وبقية شعيته ـ العداء جهرة، واعتبر سبه ولعنه وقتاله والبراءة منه عبادة يتقربون بها إلى الله! وكانوا يسمونهم "التُّرابيّة السبئيّة" وقتلوا حُجْرُ بن عديّ صبراً عليها، وقضى على هذه البدعة المضلة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ كما خففت الثورة العباسية من غلواء هذا الأمر[1]. والحمد لله.. لم يتأصل هذا الاتجاه أو يصبح عقيدة ـ كما حصل عند غلاة الرافضة ـ إلا قلة قليلة من النواصب يَستنكر عليهم أهل السنة هذا الجهل القبيح. قال الحافظ ابن حجر في حديث "الفئة الباغية" «وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة وفضيلة ظاهرة لعلي، ولعمار، ورد على النواصب الزاعمين أن علياً لم يكن مصيباً في حروبه.»[2]

---

(1) والثورة العباسية لم تنصف آل البيت كذلك عندما شعروا بالخطر على ملكهم وكرروا مظالم بني أمية، وقامت عليها ثورة النفس الزكية ـ ولم تكن ثورات طائفية أو عائلية أو مذهبية بل كانت لاستعادة السنة النبوية الراشدة في الحكم ـ حتى إن «مالك بْن أنس استفتي في الخروج مع محمد [ثورة النفس الزكية]، وقيل له: إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر، فقال: إنما بايعتم مكرهين، وليس على كل مكره يمين فأسرع الناس إلى محمد، ولزم مالك بيته.» [«تاريخ الطبري» (7/ 560)]

(2) [«فتح الباري» لابن حجر (1/ 543)]

والثاني: التيار الذي بدأ يتشكل بعد مرحلة زيد بن علي في مناصبة العداء لأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ والبراءة منهما، باعتبار أنهما اغتصبا حق الإمام علي في الخلافة، وتآمروا عليه! وأنهم خالفوا وصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في النص على إمامة عليّ، وتكوين سردية تاريخية معقدة حول (فاطمة رضوان الله عليها، وحقها في أرض فدك، وغيرها من القضايا التي مازالت حاضرة إلى يومنا هذا كأنها حصلت الآن!) والتعميم على الجميع بمظلومية آل البيت! وبدأ يتكون من وراء هذا الغلو تياران:

الأول: يؤصل للظلم والبغي والعدوان، ويستهزأ بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويبارك الاستبداد والظلم، بل ويجعله سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وكل مُنِكر للمظالم هو محل اتهام بـ: الخروج أو الاعتزال أو التشيع. (تحت مزاعم الدفاع عن الصحابة والسنة) [1]

الثاني: يجعل من الظلم الذي تعرض له شيعة عليّ وآل البيت، تكأة للطعن في مرحلة الخلافة الراشدة، والانفصال تدريجياً عن الخط العام المرضي من عموم المسلمين.[2] (تحت مزاعم حب آل البيت والانتصار لهم)

ومن هنا نشأت بدعة "الملكية الوراثية"، و"الإمامة الوراثية".. التي قضت على "الخلافة على منهاج النبوة".[3]

---

(1) وأصبح عند البعض مجرد حب آل البيت، والانتصار للإمام علي في دفاعه عن السنة النبوية السياسية جريمة تستوجب على صاحبها الاتهام بالرفض، وقد اتُهم بعض علمائنا ـ أهل السنة ـ بهذه التهمة منهم: الإمام الشافعي، والنسائي، وابن عبد البر، والطبري، رحمهم الله جميعاً!

(2) وهناك تيار الخوارج الذي يُكفر الجميع ويستحل دماء المسلمين. ولا نحسب أنه كان صاحب تأثير فكري وتأصيل شرعي ممتد عبر القرون، بل كان حالة انقلابية دموية دائمة. انظر درس: "الخوارج.. البعد السياسي" ص 125 من هذا الكتاب.

(3) لمزيد من التفصيل والتوثيق راجع ـ إن شئت ـ كتاب: أمراض الاستبداد ـ الجزء الثالث (المدخل التاريخي: من على منهاج النبوة إلى بدعة الملك العضوض).

وانقسمت الشيعة إلى طوائف عدة:

ـ التيار المعتدل المتمثل في الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه.

ـ التيار المغالي المتطرف (الإثنا عشرية) الذي يجعل الإمامة مسألة من صلب العقيدة، ويتخذ من الطعن في بعض الصحابة منهجاً لإثبات ذلك، ولا يتجاوز نفسياً أو فكرياً هذه المرحلة التاريخية السياسية، ويستحضرها في كل شأن، حتى ملئت عليهم فكرهم وشعورهم.

ـ التيار الباطني الخبيث الذي اتخذ من حب آل البيت، ومظلمتهم وسيلة لنشر الفكر الباطني الذي وصل إلى حد تأليه الإمام علي، وشركيات متعددة مثل الحلول والاتحاد، وخرافات لا حصر لها، مثل النصيرية والقرامطة والإسماعيلية.[1]

والغالبية العظمى هي من الشيعة الإمامية (الإثنا عشرية) وفيها أيضاً تيار معتدل عاقل لا يُغالي في مسائل السب والطعن واللعن، وصاحب منطق ورأي.. وهناك تيار متطرف مُغالي في سب بعض الصحابة، ولعنهم والبراءة منهم، ويُظهر ذلك ويتعمده، وبعضهم يستعمل "التقية" لإظهار خلاف ما يبطن. وقد أدخل الأزهر الشريف دراسة المذهب الجعفري من ضمن منهاجه، ومذهب العبادات والمعاملات لا يتطرق في الغالب إلى أصول العقائد.

نلحظ هنا أن "الأحداث السياسية التاريخية" في مسألة الخلافة والإمامة تحولت لدى الشيعة إلى "عقيدة وولاء وبراء" يجب فيه: تحديد الموقف من بعض الصحابة حينها، واتخاذ موقف مضاد لكل من لم يوافق آل البيت في أي من مواقفهم.. ومن هنا ينشأ الانحراف والفرقة بشكل عام.

(1) انظر كتاب: "فضائح الباطنية" للعلاّمة أبي حامد الغزالي.

إنَّ الذي كان يجب الاتفاق عليه والالتفاف حوله هو "السنة النبوية السياسية الراشدة في الحكم" من حيث الأصول العامة والمبادئ في: **العدل والشورى والرضى وإنصاف المظلوم والدفاع عن الأمة والجهاد في سبيل الله وتحكيم كتابه.** هذه الثوابت هي الحقيقة بالتمسك بها والصالحة لكل زمان ومكان، ومن قام بها على وجهها الصحيح ـ ولو كان عبداً حبشياً ـ فهو الإمام الواجب طاعته، ومن قام ببعضها وترك البعض وجب متابعته على الصحيح وإنكار الباطل والمنكر، ومن جحدها كلها فوجب الخروج عليه.

ولكن تفرقت بنا الأهواء، وتقطعت بنا السبل، ولعبت الأهواء والغل والحسد والمطامع والمظالم والعقد التاريخية في تعميق الهوة والانقسام والتقاتل بين أبناء الأمة الواحدة.

***

الموقف الشرعي من الشيعة:

الشيعة ـ بالعموم ـ هم من المسلمين، وليسوا كفاراً أو مرتدين. وهناك قلة مِن أهل السنة مَن كفرهم بالعموم، وهناك من كفر رؤوس الطائفة وحكم بالإسلام لعموم أفرادها.. ونحن لا نسلك هذا المسلك.

ونعتبر كل من شهد "أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله" وزعم أنه مسلم، فله حكم الإسلام الظاهر، وتجري عليه أحكام الإسلام الظاهرة.. فإن وقع في (بدع أو شرك أو أفعال كفرية) ونحو ذلك.. جرى إظهار كل انحراف عن الصراط المستقيم بقدره، مع بقاء اسم الإسلام ـ لا حقيقته ـ وهذا الموقف الشرعي هو الخط العام لعلماء المسلمين عبر التاريخ[1]، وإن ظهر من بعضهم بعض الأقوال بالحكم بالكفر فهو من باب تعظيم العقوبة

(1) وهو نفس المسلك الذي سلكناه مع الأنظمة المنافقة الباغية الخائنة للدين والأمة، كما أوضحنا ذلك في درس "الكفر البواح" ص 108 من هذا الكتاب.

وتغليظ الجرم أو الخسارة في الآخرة.. وليس إخراج من انتسب للإسلام بفعل (ووضعوا شروطاً مشددة لتكفير المعين)، حيث يعذرون بالجهل والتأويل ـ ولو كان فاسداً ـ والتقليد والإكراه والخطأ وعوارض الأهلية... إلخ.

ونحن هنا لا نميل إلى "الإرجاء" بل إلى "الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة" التي تفتح القلوب، وتنور العقول، وتكبح جماح الغلو، والغلو المضاد، وترخي الستر على الأمة، وتحاول جمع كل أبنائها إليها، دون المسارعة ـ أو الفرح والعياذ بالله ـ بإخراج ملايين الناس من الأمة! وفي نفس الوقت دون التراخي أو التهاون في التمسك بصحيح الدين والعقيدة النقية الخالصة، والتربية على الوجل والخشية من الله ونحن نأتي الطاعات، ونعظم الوقوع في أي معصية مهما صغرت، ولا نُبشر صاحبها بنجاة في الآخرة، ما لم يتب في الدنيا ويؤمن ويعمل صالحاً.

ومن الجدير بالذكر هنا، ذكر طائفة من كلام علمائنا ـ أهل السنة ـ في ذلك حسماً لمسألة التكفير[1]؛ لما يترتب عليها من موقف سياسي:

قال العلاّمة ابن حزم (رحمه الله): «وأما من سب أحداً من الصحابة رضي الله عنهم فإن كان جاهلاً فمعذور وإن قامت عليه الحجة فتمادى غير معاند فهو فاسق كمن زنى وسرق وإن عاند الله تعالى في ذلك ورسوله صلى الله عليه وسلم فهو كافر. وقد قال عمر ـ رضي الله عنه ـ بحضرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن حاطب وحاطب مهاجر بدري دعني أضرب عنق هذا المنافق! فما كان عمر بتكفيره حاطباً كافراً بل كان مخطئا متأولاً. وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ "آية النفاق بغض الأنصار" وقال لعلي "لا يبغضك إلا منافق"»[2]

(1) حتى ولو افترضنا أن الشيعة يُكفرون أهل السنة، ويعتبرونهم جميعاً نواصب فهذا لا يغير في الحكم شيئاً. فالخوارج يكفروننا ولا نكفرهم.

(2) [«الفصل في الملل والأهواء والنحل» (3/ 143)]

وجاء في أحكام القرآن لابي العربي (رحمه الله): "قَالَ هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ: سَمِعْت مَالِكًا يَقُولُ: مَنْ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ أُدِّبَ، وَمَنْ سَبَّ عَائِشَةَ قُتِلَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [النور: 17] فَمَنْ سَبَّ عَائِشَةَ فَقَدْ خَالَفَ الْقُرْآنَ، وَمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ قُتِلَ.

قَالَ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ رحمه الله: قَالَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ: مَنْ سَبَّ عَائِشَةَ أُدِّبَ، كَمَا فِي سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسَ قَوْله تَعَالَى: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [النور: 17] فِي عَائِشَةَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ، وَإِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ». وَلَوْ كَانَ سَلْبُ الْإِيمَانِ فِي سَبِّ عَائِشَةَ حَقِيقَةً لَكَانَ سَلْبُهُ فِي قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» حَقِيقَةً.

قُلْنَا (أي ابن العربي): لَيْسَ كَمَا زَعَمْتُمْ؛ إنَّ أَهْلَ الْإِفْكِ رَمَوْا عَائِشَةَ الْمُطَهَّرَةَ بِالْفَاحِشَةِ، فَبَرَّأَهَا اللَّهُ، فَكُلُّ مَنْ سَبَّهَا بِمَا بَرَّأَهَا اللَّهُ مِنْهُ فَهُوَ مُكَذِّبٌ لِلَّهِ، وَمَنْ كَذَّبَ اللَّهَ فَهُوَ كَافِرٌ. فَهَذَا طَرِيقُ قَوْلِ مَالِكٍ. وَهِيَ سَبِيلٌ لَائِحَةٌ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا سَبَّ عَائِشَةَ بِغَيْرِ مَا بَرَّأَهَا اللَّهُ مِنْهُ لَكَانَ جَزَاؤُهُ الْأَدَبَ."(1)

وقال العلاّمة ابن تيمية (رحمه الله): «قد ينقل عن أحدهم (أي الأئمة) أنه كفر من قال بعض الأقوال، ويكون مقصوده أن هذا القول كفر ليحذر، ولا يلزم إذا كان القول كفراً أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل؛ فإن ثبوت الكفر في حق الشخص المعين، كثبوت الوعيد في الآخرة في حقه، وذلك له شروط وموانع، كما بسطناه في موضعه... وإن كان قد أخطأ في تأويل تأوله نخالف السنة، أو أذنب ذنباً، فإنه من إخوانه الذين سبقوه بالإيمان، فيدخل في العموم، وإن كان من الثنتين والسبعين فرقة،

(1) [«أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية» (3/ 366)]

فإنه ما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليسوا كفاراً، بل مؤمنين فيهم ضلال وذنب يستحقون به الوعيد، كما يستحقه عصاة المؤمنين.

والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يخرجهم من الإسلام، بل جعلهم من أمته، ولم يقل: إنهم يخلدون في النار. فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته؛ فإن كثيراً من المنتسبين إلى السنة فيهم بدعة، من جنس بدع الرافضة والخوارج. وأصحاب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ علي بن أبي طالب وغيره لم يكفروا الخوارج الذين قاتلوهم، بل أول ما خرجوا عليه وتحيزوا بحروراء، وخرجوا عن الطاعة والجماعة، قال لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن لكم علينا أن لا نمنعكم مساجدنا، ولا حقكم من الفيء. ثم أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نحو نصفهم، ثم قاتل الباقي وغلبهم، ومع هذا لم يسب لهم ذرية، ولا غنم لهم مالاً، ولا سار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين، كمسيلمة الكذاب وأمثاله...

فالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعون لهم بإحسان لم يكفروهم (أي الخوارج)، ولا جعلوهم مرتدين، ولا اعتدوا عليهم بقول ولا فعل، بل اتقوا الله فيهم، وساروا فيهم السيرة العادلة. وهكذا سائر فرق أهل البدع والأهواء من الشيعة والمعتزلة؛ وغيرهم فمن كَفَّرَ الثنتين والسبعين فرقة كلهم فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، مع أن حديث الثنتين والسبعين فرقة ليس في الصحيحين، وقد ضعفه ابن حزم وغيره لكن حسنه غيره أو صححه...

ومع هذا فلا نشهد لمعين بالنار لإمكان أنه تاب، أو كانت له حسنات محت سيئاته، أو كفر الله عنه بمصائب أو غير ذلك كما تقدم، بل المؤمن بالله ورسوله باطناً وظاهراً، الذي قصد اتباع الحق وما جاء به الرسول، إذا أخطأ ولم يعرف الحق كان أولى أن يعذره الله في الآخرة من المتعمد العالم بالذنب؛ فإن هذا عاص مستحق للعذاب بلا

ريب، وأما ذلك فليس متعمداً للذنب بل هو مخطئ، والله قد تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان.»(1)

وقال: «وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين: من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين وهو خير من أن يكونوا كفاراً»(2)

«وسئل ـ رحمه الله تعالى ـ : عن رجل يفضل اليهود والنصارى على الرافضة؟

فأجاب: الحمد لله، كل من كان مؤمنا بما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو خير من كل من كفر به؛ وإن كان في المؤمن بذلك نوع من البدعة سواء كانت بدعة الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية أو غيرهم؛ فإن اليهود والنصارى كفار كفراً معلوما بالاضطرار من دين الإسلام. والمبتدع إذا كان يحسب أنه موافق للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا مخالف له لم يكن كافراً به؛ ولو قُدِّر أنه يَكْفُرُ فليس كُفْرُهُ مثل كُفْرِ من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم.»(3)

وقال العلاّمة ابن عابدين (رحمه الله): «اتفق الأئمة على تضليل أهل البدع أجمع وتخطئتهم وسب أحد من الصحابة وبغضه لا يكون كفراً، لكن يضلل إلخ. وذكر في فتح القدير أن الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ويكفرون الصحابة حكمهم عند جمهور الفقهاء وأهل الحديث حكم البغاة. وذهب بعض أهل الحديث إلى أنهم مرتدون. قال ابن المنذر: ولا أعلم أحداً وافق أهل الحديث على تكفيرهم، وهذا يقتضي نقل إجماع الفقهاء. وذكر في المحيط أن بعض الفقهاء لا يكفر أحداً من أهل البدع. وبعضهم يكفرون

(1) [«منهاج السنة النبوية» (ج5، ص240، وما تلها باختصار]

(2) [«مجموع الفتاوى» (13/ 96)]

(3) [«مجموع الفتاوى» (35/ 201)]

البعض، وهو من خالف ببدعته دليلاً قطعياً، ونسبه إلى أكثر أهل السنة، والنقل الأول أثبت وابن المنذر أعرف بنقل كلام المجتهدين، نعم يقع في كلام أهل المذهب تكفير كثير ولكن ليس من كلام الفقهاء الذين هم المجتهدون بل من غيرهم، ولا عبرة بغير الفقهاء، والمنقول عن المجتهدين ما ذكرنا اهـ.

ومما يزيد ذلك وضوحاً ما صرحوا به في كتبهم متوناً وشروحاً من قولهم: ولا تقبل شهادة من يظهر سب السلف وتقبل شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية. وقال ابن ملك في شرح المجمع: وترد شهادة من يظهر سب السلف لأنه يكون ظاهر الفسق، وتقبل من أهل الأهواء الجبر والقدر والرفض والخوارج والتشبيه والتعطيل. اهـ.

وقال الزيلعي أو يظهر سب السلف يعني الصالحين منهم وهم الصحابة والتابعون؛ لأن هذه الأشياء تدل على قصور عقله وقلة مروءته، ومن لم يمتنع عن مثلها لا يمتنع عن الكذب عادة، بخلاف ما لو كان يخفي السب اهـ. ولم يعلل أحد لعدم قبول شهادتهم بالكفر كما ترى، نعم استثنوا الخطابية لأنهم يرون شهادة الزور لأشياعهم أو للحالف، وكذا نص المحدثون على قبول رواية أهل الأهواء، فهذا فيمن يسب عامة الصحابة ويكفرهم بناء على تأويل له فاسد.»[1]

***

الموقف السياسي من الشيعة:

كان لا بد من هذا التمهيد السابق (تاريخياً وشرعياً) حتى نستطيع أن نبصر ـ بفضل الله ـ الموقف السياسي، والموقف السياسي ليس منفصلاً عن الموقف الشرعي، إنما هو وليد لما يقرره الموقف الشرعي من أمور، ومتى صح الموقف الشرعي.. كان الموقف

(1) [«حاشية ابن عابدين = رد المحتار ط الحلبي» (4/ 237)]

السياسي على "الصراط المستقيم"، وبقي المضي على هذا الصراط باعتدال ورشد وعدل وفاعلية.

تقتضي السياسة الراشدة التعامل مع الشيعة، كالآتي:

ـ على أنهم طائفة من المسلمين. واعتبارهم كذلك لا يعني ـ بكل تأكيد ـ تأييد الانحرافات والأباطيل التي عندهم.[1]

ـ على مباركة الصوت المعتدل الحصيف منهم الذي يدعو إلى التعاضد والأخوة والقواسم المشتركة.

ـ كشف الغلو، والتطرف ومحاصرة مادته ودعاته، وبيان صحيح الدين بكل وضوح وحسم والدعوة إليه، والدوران مع الحق حيث دار.

ـ تجنب إثارة النعرات الطائفية، والبحث عن كلمة سواء.

ـ إحقاق الحق والعدل مع كل الناس أياً كان مذهبهم وطائفتهم، بل ودينهم.

ـ حسن إدارة الخلافات بصورة تضمن بقاء الأمة، وتجنبها الفتن والصراعات الداخلية. وتمنع عدوها الخارجي أن يفسد ذات بينها، ويجعل بأسها بينها.

ـ أن لا نسمح لأحد بفرض أجندته أو مشروعه علينا، وحتى يكون ذلك لا بد أن نكون أقوياء، ولدينا رؤية ومشروع وعمل وجهاد.

---

(1) ونحذر من "التكفير السياسي" فقد استمعت لخطبة جمعة تكفر الشيعة، وبعدها بفترة قال الشيخ ـ من على نفس المنبر ـ الشيعة الأخوة المسلمون أبناء الوطن. ففي الأولى كانت رغبة الملك لما سخط عليهم. والثانية كنت رغبة الملك لما رضي عنهم! وهذا تلاعب بالدين عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة.

وإنَّ الخطأ في مسألة تكفير الشيعة ـ على سبيل المثال ـ أحدث إرباكاً خطيراً في حركة المسلمين وجهادهم، فمثلاً:

ـ إبان الاحتلال الأمريكي للعراق وقع خلاف خطير بين المجاهدين في مسألة تكفير عموم الشيعة، وذهب بعضهم لاستهداف أسواقهم ومساجدهم! وترك مجاهدة المحتل الأمريكي، وانحرفت بوصلة الجهاد هناك. وظهر من هذا الغلو "تنظيم الدولة" الذي استهدف الجميع بلا استثناء حتى المجاهدين أنفسهم!

ـ كذلك استغلت الأنظمة المنافقة الباغية في بلادنا التي لا تعرف التسنن ولا التشيع ولا أي دين سوى دين الكرسي والعرش، استغلت مسألة التكفير هذه في الطعن في حركات الجهاد في فلسطين المحتلة، وتم توظيف أقوال بعض العلماء من أهل السنة، وأقوال العلماء الباطلة والمنحرفة من علماء الشيعة لتزكية الخلافات وإشعال نيران الفرقة والتشكيك في عقيدة حركات المقاومة والجهاد في فلسطين..

حيث دعمت إيران وأذرعها ـ كحزب الله ـ حركات المقاومة السنية في فلسطين، وكانت هذه حسنتها الوحيدة لأهل السنة، وفي نفس الوقت أذاقت الويلات لأهلنا في سوريا[1]، والعراق.. عندما دعمت "النظام النصيري ـ العلماني" في الأولى، وعندما ساعدت المحتل الأمريكي في الثانية وتفكك بعدها العراق.

---

(1) يحسب النظام السوري نفسه ضمن "محور المقاومة" بينما أراه من دول الطوق والحماية لدولة يهود، ويستغل حركات المقاومة لتكون ورقة سياسية يلعب بها مع النظام الدولي، ولولا الحقد الطائفي أو الظلم والعدوان لكان إسقاط هذا النظام المجرم من أولويات إيران الاستراتيجية، وممهد للقضاء على دولة يهود. ولكن للأسف دعمته بكل ما أوتيت من قوة! وجاءت روسيا لتزيد من شدة وعذابات أهل سوريا، فرّج الله عنهم وكتب لهم النصر المبين إن شاء الله، وأمدهم بمدد من عنده. والنظام السوري يحاول الآن أن ينأ بنفسه عن إيران ومحور المقاومة عندما يشعر أن هذا الأمر يهدد نظامه وبقائه. مع العلم أن حركة حماس والمقاومة الفلسطينية ترى النظام السوري من أكبر دعامي المقاومة، وقدم لها الكثير من المساعدات، كما يقول القيادي في الحركة خليل الحية!

ومن جانب آخر: يجب أن ندرك سبب هذا الدعم وما الموازين الاستراتيجية والبراجماتية القائمة عليه، تقول د. فاطمة الصمادي: "ظل مفهوم "تصدير الثورة" عنصراً أساسياً في استراتيجية إيران الدفاعية، وكان من أولوياتها الأمنية، بعد حربها مع العراق، بناء تحالف إقليمي يكون قوة ردع تواجه أعداءها في الخارج وتبعد الخطر عن حدودها، فتكون خطوط الدفاع الاستراتيجي الإيراني، في المقام الأول، في لبنان وسوريا والعراق واليمن وفلسطين.

فلو وقع هجوم أميركي / إسرائيلي على إيران "فإن المنطقة بأكملها ستتحول إلى منطقة حرب فسيفسائية، بحيث لا يبقى للعدو أي منطق آمنة.. ولن تكون القواعد الأمريكية والإسرائيلية الـ 32 في المنطقة، في مأمن من الصواريخ الإيرانية.. وستكون مصالحهم مهددة في عشرات الدول، في الوقت نفسه""[1]

ومن جانب ثالث: تقوم الأجهزة الاستخبارية والإعلامية اليهودية ـ التي تستغل مثل هذا الخلاف ـ في تزكية الخلافات والتشكيك في البعد الديني والأخلاقي لحركات المقاومة في فلسطين.. لدرجة أن موظفي أجهزة الاستخبارات اليهودية كانت وهي تحقق مع بعض شباب المقاومة تعيب عليهم أنهم يتلقون الدعم ممن يسب الصحابة ـ رضي الله عنهم! فكأن يهود يدافعون عن السنة![2]

---

(1) [كتاب: "إيران وحماس.. من مرج الزهور إلى طوفان الأقصى" ص 130، وانظر ص 183 "ما شروط الدعم الإيراني لحماس" / د. فاطمة الصمادي] هذا وقد نقلت المؤلفة تصريحات للقادة الإيرانيين توضح أن سبب الدعم هو قضية عقائدية، ومبدأ ثابت، ونصرة للمستضعفين، وهدف من أهداف الثورة الإيرانية!

(2) وكثيراً ما يلعب أدعياء السلفية على هذا الوتر خدمة لطغاتهم وملوكهم. ويتهمون ـ مثلاً ـ "حركة حماس" بأنها رافضية ودمية في يد إيران! وذلك لعزلها عن محيطها العربي الإسلامي السني. وقد صنفتها بعض الأنظمة العربية "جماعة إرهابية" يحظر دعمها ـ ولو معنوياً ـ والتعامل معها. راجع مقال: "هل التيار المدخلي صديق لدولة إسرائيل؟" ولا يعني ذلك أن "حركة حماس" مقدسة منزهة عن الخطأ، فلكل حركة أخطائها.. ننكرها بكل حرية، ولا نتخذ من هذه الأخطاء وسيلة لهدمها لصالح عدو الملة والدين.

وهم بالفعل قالوا ذلك: إنَّ الأنظمة المنافقة الفاسدة التي تزعم أو تنتسب إلى أهل السنة، تتقرب إلى دولة يهود وتواليهم بكل ما أوتيت من قوة ـ وهو فعل من أوضح صور الكفر البواح ـ وتحارب معها حركات الجهاد والمقاومة في فلسطين[1]! وتريد أكثر من دولة يهود القضاء عليها ـ لما تظنه من خطر على عروشها، فتعمل ضد دينها وأوطانها ومصالح شعوبها[2] ـ وتريد دولة يهود (بمساعدة الدول التي تزعم السنية) أن تقضي على كل حركات المقاومة وعلى نظام إيران ـ الذي يدعمها ـ من أجل أن تحقق حلمها في إسرائيل الكبرى من الفرات شرقاً إلى النيل جنوباً، ومن جنوب تركيا إلى شمال السعودية (حتى المدينة المنورة [عند خيبر] في بعض الخرائط)! وتكون هي سيدة الشرق الأوسط الجديد بمساعدة المحتل الأمريكي وحلفاءه، وتتفرغ أمريكا للصراع مع الصين وروسيا، فتتخذ من الخلافات والتناقضات السنية الشيعية، وسيلة لإذكاء الخلافات وإشعال الفتن بين العالم الإسلامي! وهذا ما يجب أن ينتبه إليه عموم المسلمين من أهل السنة خاصة.

فمثلاً: فرح بعض الناس بإعدام أمريكا لرئيس العراق السابق صدام حسين، وفرح البعض لقتل الصهاينة لحسن نصر الله زعيم حزب المقاومة الشيعية بلبنان.. ولا يخفى جرائم كل منهما، فالأول كان طاغوتاً أذاق شعبه الويلات، والثاني ساهم بشكل مباشر

---

(1) بينما كان على هذه الأنظمة أن تتهافت ـ ولو نفاقاً ـ لتحرير المسجد الأقصى، وبيت المقدس.. وقد كانت بعض الأنظمة القومية العربية قديماً تستمد شرعيتها من ادعائها قضية "تحرير فلسطين" بينما اليوم تستمد أمنها وشرعيتها الدولية من خدمة دولة يهود، لدرجة أن يهود قالوا: إن بعض حكام المنطقة العربية صهاينة أكثر من اليهود أنفسهم! ووجودهم مرتبط بوجود دولة يهود.

(2) خسرت مصر ـ على سبيل المثال ـ حوالي 65% من إيراد قناة السويس، وهي من أهم موارد مصر ـ بعد تهديد الحوثيين للسفن الإسرائيلية في البحر الأحمر، وكان في استطاعة النظام المصري نصرة أهلنا في فلسطين وإيقاف العدوان عليهم، ولكنه دعم يهود! ـ ويسمون هذه الخيانة بـ "التوترات الجيوسياسية في المنطقة!"، وبقية الأنظمة العربية أوجدت بديلاً برياً لفك الحصار البحري على إسرائيل! كما سمح "نظام السيسي" بمرور السفن المحملة بالأسلحة الفتاكة لدولة الاحتلال وتسهيل كل سبل الدعم اللوجيستي عبر الموانئ المصرية، لدرجة استدعت استنكار منظمة العفو الدولية!

في تقتيل وحصار وتهجير وتشريد الشعب السوري، ودعم النظام المجرم فيها.. ولا ننكر حالة الثأر التي في قلب كل من تَعرض للأذى والضر على أيديهم، ولكن عندما يمزق الأمريكان العراق فلا نفرح، وعندما يقتل الصهاينة حسن نصر الله، فلا يمكن أن نشارك الصهاينة فرحتهم ونُوزع الحلوى! فقد قُتل في معركة طوفان الأقصى التي أطلقتها حركة حماس السنية.

ويقولون بورع كاذب مدعين الحكمة: "اللهم اضرب الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بينهم سالمين" بينما نحن لم نفعل شيئاً سوى الفرجة على موتنا وانهزامنا وضعفنا واستعبادنا وأسرنا وانتظار الدور في إبادتنا!

وقد بلغت الحماقة بالبعض بالإشادة والفرح بالاجتياح اليهودي البري لجنوب لبنان وضاحية بيروت نكاية في الشيعة! هذا الاجتياح الذي يهدف قادته إلى السيطرة التامة على العالم الإسلامي كله، وليس الشيعة وحدهم!

فهذا العدو الصهيوني والصليبي الذي قتل حسن نصر الله، سيأتي أيضاً لقتلنا واستعبادنا [وقد قُتل بإسقاط 85 قنبلة أمريكية خارقة للتحصينات تزن الواحدة منها طناً من طائرات حربية متطورة، وكل قنبلة قادرة على اختراق التحصينات بعمق حوالي 11 إلى 30 متراً تحت الأرض] وهذه أمور تضعنا أمام تحديات هائلة لعدو متفوق عسكرياً وتقنياً واستخباراتياً ومالياً.. يريد بث الرعب في قلوب الجميع.

وإنما نفرح أن نتمكن بأيدنا وبسلاحنا وبقوتنا من الثأر للمظلومين، والانتصار للرب والدين، ووراثة الأرض وتمكينها للصالحين منا، وأن يمتلأ شعورنا وقلوبنا وعقولنا بهذه التحديات الكبرى، والقضايا المصيرية. وإن أي اقتتال داخلي في الأمة المسلمة يجب أن يظل داخلياً لا يُستعان فيه أبداً بالعدو الأصلي، ولا نصطف فيه أبداً مع العدو الأصلي

شعوراً وحركة.. حتى يتم احتواء هذا الصراع داخلياً، ولا نعطي الفرصة للعدو الأصلي أن يحيط بنا جميعاً.

وإذ نذكر قوة العدو فإننا لا نتمادى في تهويلها خشية الوقوع في "الهزيمة النفسية والانسحاق" أما التفوق الهائل للعدو، والدعم العالمي الذي يتلقاه، والتحزب العالمي ضد الأمة المسلمة ـ ولا يريد العدو أكثر من هزيمتنا النفسية واستسلامنا أمامه وتدمير الرغبة في القتال ضده والظن بأن لا جدوى من مواجهته ـ ولكن نذكره حتى يكون شعورنا وفكرنا وحركتنا تتناسب مع حجم ما نواجهه على كل صعيد (من أعداء الداخل من المنافقين، وأعداء الخارج من يهود وصليبيين وحلفائهم)؛ فتتوارى الذات، والصغائر، وسفاسف الأمور، والحسد، والطمع، والشح، والغل، والبغض.. وتظهر الوحدة، والإخلاص، والفداء، والتضحية، وارتفاع الاهتمامات لمثل هذه التحديات التي تستهدف الدين والأمة كلها. فلا تملكنا الهزيمة أبداً، ولا نسرد في الغفلة صماً وعمياناً.

وإنَّ خطة صهيون هي أن تجعل أعظم رؤساءنا وحُكامنا يلحسون غبار رِجلها، ويكونون عبيداً لها، فما بالنا ببقية الأمة؟! ويكونون هم سادة المنطقة كلها وحُكامها من النيل إلى الفرات.

ونتذكر دوماً أن يهود إنما هم ابتلاء مضروب عليه الذلة والمسكنة ـ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ـ ومتى أخلص أهل الإيمان إيمانهم، واستفرغوا وسعهم، وأعدوا عدتهم، ودخلوا عليهم الباب.. إلا وأنزلوا بهم شر هزيمة، وأخرجهم الله من ديارهم وأموالهم، وسحق علوهم وإفسادهم في الأرض.

***

فهل ـ مثلاً ـ أخطأت حركات الجهاد والمقاومة في فلسطين إن تلقت دعماً من إيران أو حزب الله؟

الحقيقة لا.. طالما كان هذا الدعم لا يساوم على الدين، بل يساعد في دفع الضر والعدوان على المسلمين، ولا حرج فيه حتى ولو كان من عدو كافر كفراً أصلياً.. بشرط أن لا يسبب ضرر وأذى على مسلمين آخرين.

قال العلاّمة ابن القيم رحمه الله "فِي بَعْضِ مَا فِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْفِقْهِيَّةِ"، منها: "«أَنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْبِدَعِ وَالْفُجورِ وَالْبُغَاةِ وَالظَّلَمَةِ إِذَا طَلَبُوا أَمْرًا يُعَظِّمُونَ فِيهِ حُرْمَةً مِنْ حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، أُجِيبوا إِلَيْهِ وَأُعْطُوهُ وَأُعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ مَنَعُوا غَيْرَهُ. فَيُعَاوَنُونَ عَلَى مَا فِيهِ تَعْظِيمُ حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا عَلَى كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَيُمْنَعُونَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، فَكُلُّ مَنِ الْتَمَسَ الْمُعَاوَنَةَ عَلَى مَحْبُوبٍ لِلَّهِ تَعَالَى مُرْضٍ لَهُ، أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ، مَا لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَى إِعَانَتِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ مَبْغُوضٌ لِلَّهِ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ وَأَصْعَبِهَا وَأَشَقِّهَا عَلَى النُّفُوسِ»[1]

فلو افترضنا أن الصين الشيوعية أو روسيا الصليبية أرادت أن تقدم دعماً للمسلمين في فلسطين (عسكرياً أو تقنياً أو سياسياً أو مادياً) نكاية في أمريكا التي تدعم أوكرانيا في حربها ضد روسيا.. فهذا الدعم غير مرفوض وغير محرم، رغم أن الصين تحارب المسلمين في تركستان الشرقية، ورغم أن روسيا تحارب المسلمين في سوريا.

وفي صراع روسيا مع أمريكا.. ورغم أن كل منهما عدو، فإننا لا نفرح إذا سحقت أمريكا روسيا، فبذلك تنفرد أمريكا بالتوحش على العالم أجمع - والعكس صحيح أيضاً! - وإن "توزان الرعب" قد يعطي فرصة للأمة المسلمة للخلاص، فـ "الميزان السياسي والشرعي" - ولا فرق بينهما في الإسلام - هو "مصلحة الدين وقوة الأمة المسلمة"، وندور معه حيث دار.

***

(1) [«زاد المعاد» ت الرسالة (3/ 269)]

ومن ثم أمام هذه المعضلة العجيبة التي تصطف فيها الأنظمة العربية التي تزعم السنية مع دولة يهود ضد حركات المقاومة السنية في فلسطين المحتلة وتساعدها في الإبادة الجماعية لشعب فلسطين واحتلالها كلها وتدنيس المسجد الأقصى، بينما تقف إيران الشيعية مع حركات المقاومة السنية، **يجب الانتباه إلى عدة أمور:**

ـ الحذر الشديد من إعطاء الفرصة للعدو الخارجي ـ يهود وصليبين ـ من توظيف أي خلاف داخل الأمة، ليشغلها بنفسها ويجعل بأسها بينها.[1]

ـ إنَّ هذا الحذر لا يعني التهاون في التمسك بصحيح الدين، وبيانه، والدعوة إليه.

ـ اتخاذ الموقف الصحيح في المكان الصحيح.

ـ الاطمئنان إلى "الثمرة" المرجوة في يد من تقع، هل تصب في مصلحة الإسلام والمسلمين.. أم تقع في يد العدو، وتزيد من ضعف المسلمين.

ـ الضعف يُغري بالعدوان، فلا بد أن نكون أقوياء ـ على كل صعيد ـ لصد أي مشروعات تستهدف وجودنا وديننا وشريعتنا ومقدساتنا.

ـ الشهادة بالحق والقيام بالقسط في كل موقف متجردين خالصين لله وحده لا شريك له.

***

(1) كما نلحظ ـ خلال الفترة الماضية ـ إشعال الخلاف الأشعري السلفي حول قضية الصفات الإلهية، وسعي بعض الأدعياء السفهاء في تكفير وتبديع الإمام النووي وابن حجر رحمهما الله! وإشغال الناس بمثل هذه القضايا، التي تفسد عليهم دينهم وأخلاقهم، ويُغرر بالشباب الصغير! بينما العدو يخطط ويمضي في القضاء المبرم على هذه الأمة المكلومة، واستعبادها من كل طريق! ولا ندري ما الجهات التي تقف وراء هذا الخبث!

إنَّ عالم السياسة مليء بالتناقضات والتغيرات والتوازنات والحركة الدائبة المستمرة[1].. ومن حق المسلمين الاستفادة من أي دعم ـ وهم في مرحلة الاستضعاف والتوحش عليهم ـ وكلها واقعة في باب الإكراه والإلجاء والضرورة التي تقدر بقدرها، **مع الانتباه لعدة أمور:**

ـ إنَّ الاستفادة من هذه التناقضات لا يعني مباركة المجرم في جرمه، ولا شرعنة أفعاله، ولا مشاركته في أي إثم أو بغي أو عدوان أو أي ضرر ـ مهما صغر ـ يقع على مسلم.

ـ إنْ كان ثمة مصالح مشروعة متبادلة ـ مع أي طرف ـ فلا بد أن لا تكون على حساب الدين أو الحق أو الحقيقة.

ـ أن تكون الجهة التي تتلقى الدعم لها شرعية (دينية وفقهية وسياسية) وتُعبر عن مصلحة المسلمين العامة في مكان شرعيتها ونفوذها. وذلك منعاً لتعدد الشرعيات والطمع في الجاه أو المال أو السلطة والنفعية الذاتية.

ـ تعدد الشرعيات بين الجهات العاملة للدين والأمة كما نحسبهم ـ في الأماكن المختلفة أو في نفس المكان ـ تجعل من ذلك معضلة كبرى، في ظل صراعات وتحالفات إقليمية ودولية.. ولا منجي منها إلا: الإخلاص لله، وتقوى الله.

ـ أن لا تفسد هذه المساعدات المبادئ الأساسية للجهاد والعمل. فلا تكون فتنة لأصحابها وتتحول إلى منافع ذاتية خاصة؛ بل طوق نجاة لعموم المسلمين.

---

(1) بل وصل الأمر أن يكون هناك تحالفاً بين طرفين في مكان وساحة ما، وعداء وتحارب بين نفس الطرفين ـ في نفس الوقت! ـ في مكان وساحة أخرى. فمثلاً: رغم الحرب الطاحنة بين روسيا وأوكرانيا، تستمر اتفاقيات الغاز التي تسمح للغاز الروسي أن يمر عبر الأراضي الأوكرانية، وتحصل أوكرانيا منها على رسوم عبور!

ـ أن لا تُستغل هذه المساعدات في تحريف بوصلة العمل، أو توظيف الحركة لصالح الداعم.

ـ ضمان سمو الأخلاق الربانية الإسلامية في كل سلوك سياسي.[1]

ـ أن يكون هناك إجماع من القيادات الراشدة على قبول هذه المساعدة، والرقابة الدائمة عليها.. بحيث تضمن الشورى ـ بعد التجرد والإخلاص لله ـ من الافتتان بالمال أو السلطة أو المصلحة الخاصة. فتصبح جهداً إضافياً ـ بلا مقابل ـ من أجل توظيفها التوظيف الأمثل الذي يحقق مصلحة المسلمين.

ـ الانتباه إلى التغيرات التي قد تحصل فجأة في عالم السياسة وتبدل الولاءات والتوازنات، فقد تقبل حركة تغيير مساعدة من عدو عدوها، ثم تتغير هذه العداوة لاحقاً، أو يتم المساومة عليها، فليس هناك ثبات في عالم السياسة وخريطة التوازنات.

ـ الحذر من أن تتحول المساعدة والدعم إلى أفخاخ أو عملية تجسس ضد حركة التغيير، واتخاذ التدابير اللازمة التي تحول دون وقوع ذلك.

ـ أن نطمئن إلى مشاعرنا وحركتنا.. فكل ما يُفرحنا يغيظ العدو، وكل ما يغيظنا يُفرح العدو:

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120]

---

(1) انظر: درس "الأخلاق والسياسة" ص 565 من هذا الكتاب.

ـ أن يمتلأ القلب بالحمد لله ذكراً، وشكره فعلاً.. والنظر إلى قدره ورحمته التي يفتحها لعباده، ويمدهم بمدده وأسبابه، فيتعلق القلب بالله لا بالداعم:

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 40-41]

***

11- الفقه السياسي

يُعتبر "الفقه السياسي" فرعاً عن الفقه الإسلامي العام، ومن ثم يجب فيه أمران:

الأول: فقه وفهم وإدراك واستيعاب المقاصد الإسلامية وأحكامها ومبادئها وأهدافها وغاياتها من خلال التصور الإسلامي ومرجعيته من الكتاب والسنة؛ للتمكين لدين الله في الأرض.

الثاني: فقه وفهم وإدراك الواقع السياسي والاجتماعي والتاريخي على مستوى الأمة، وعلى مستوى الأمم الأخرى بما يسمح بتطبيق وإقامة مبادئ وأحكام الفقه السياسي الإسلامي.

وكان الدخول المبكر لمرحلة "الملك العضوض" مما أبطأ من نمو هذا الفقه، وحصره في بعض الموضوعات.. ولكن مع بداية صحوة الأمة وانتباهها من غفلتها بدأ هذا الفقه يتحرك ويقتحم موضوعات جديدة، وإجابات للأسئلة والقضايا المصيرية للأمة المسلمة.

ومما أصاب هذا الفقه من أمراض وآفات:

- إقرار بعض المذاهب الفقهية "ولاية المتغلب" بإطلاق:

وهذا مما كان له الأثر السيئ في شرعنة الاستبداد، واعتبار ذلك عقيدة وأحد أهم مبادئ أهل السنة والجماعة، وما هي إلا بدعة مُضلة ما أنزل الله بها من سلطان. ومن مُحدثات الأمور، وسلّمت الأمة - وهي مُستذلة مُهانة - لعدوها الخارجي دون حتى أن تستطيع أن تقاوم وتصرخ.(1)

---

(1) تم بفضل الله الحديث التفصيلي عن هذا الموضوع في كتاب "أمراض الاستبداد - الجزء الثالث"، ومناقشة آلية شرعنة الاستبداد، وعرض بعض الضلالات الفكرية في الفقه السياسي، وغيره من الموضوعات، فلا نُطيل المقام هنا.

ـ الولع بأحداث نهاية الزمان، وعلامات الساعة:

فما أن تنزل بالأمة نازلة أو تُصيبها مصيبة إلا ويخرج كثير من الدعاة والعلماء للحديث عن ظهور "علامات الساعة"، وأحداث نهاية الزمان.. ويستشهدون ببعض الأحاديث لإنزالها على واقعنا، وهذا داء ـ من قديم ـ تُصاب به الأمم التي لا تحب التفكر والتدبر السياسي والاجتماعي في أحوالها؛ فتهرب إلى "البعد القدري" للأحداث!

وإنَّ الحديث عن علامات الساعة في خضم التدافع بين الأمة وأعدائها؛ مما يشغل الناس بما لا ينفع، فهذا الحديث القدري يجعل الناس تستقيل من دورها ومسؤوليتها.. وتجلس في مقاعد المتفرجين تتابع نهائيات العالم!

وإنَّ لكل شيء في هذه الحياة بعده القدري، وبعده الشرعي.. أما "**البعد القدري**" فهو أمر إلهي خالص؛ فهو سبحانه يدبر الأمور، وكل شيء عنده بمقدار، وكل الأمور تجري بمشيئته ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ونحن أمام هذا القدر في محل "**التسليم والرضى**".

أما "**الأمر الشرعي**": فهو حديث الواجب والمسؤولية والعمل والتدافع والحركة.. هذا هو ما يجب أن يشغل بال وعقل وفكر المسلمين.. فمهما وقع من أحداث يجب أن يكون نطاق تفكيرنا وعملنا محصوراً في جانب: "**الإخلاص والعمل**"، ولا شيء غير ذلك، حتى ولو قامت الساعة الآن.

فمنهج الفكر الإسلامي هو "**منهج الفسيلة**"[1] منهج العمل حتى اللحظة الأخيرة، جاء في الحديث الشريف: "عَنْ أَنَسَ بْنَ مَالِك قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ**"[2]

(1) الفسيلة: النبتة الصغيرة.

(2) [مسند الإمام أحمد/ 12569]

منهج **"الإعداد والعمل"**، فالذي سأل عن موعد الساعة ـ فضلاً عن الاهتمام بعلاماتها الصغرى والكبرى[1] ـ كان جوابه كما جاء في الحديث الشريف: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ـ صلى اللهُ عليه وَسلم ـ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟، قَالَ: **"وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟"**[2]

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا. إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا. إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا. كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 42-46]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187]

فلو افترضنا أن جميع علامات الساعة الصغرى والكبرى قد ظهرت بالفعل، فهذا لن يغير شيئاً على الإطلاق في خطة عملنا وهي: **"الإخلاص لله، والعمل الصالح لتزكية النفس، والتمكين لدين الله في الأرض"**، ولو لم يظهر أي منها فهذا أيضاً لن يغير شيئاً من خطة عملنا، إنها هي هي في كل الأحوال.

وإنه لمن الخطورة بمكان الاهتمام بالحديث عن علامات الساعة، في اللحظات التي تواجه فيها الأمة تحديات وجودية، وتطاحن عالمي، وتدافع بين الحق والباطل؛ فيخرج البعض متأولاً بعض الأحاديث؛ ليُنزلها على واقعنا بكل تعسف، فيظن البعض أن الأمور

---

(1) وقد اقتربت الساعة ـ وهو تقارب نسبي بالنسبة لعمر الكون والحياة البشرية ـ ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر:1]، ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: 18]، ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: 63]

(2) [صحيح البخاري/ 3688]

ستجري وحدها دون جهاد وعمل ونية وإخلاص! كما أنه عندما تجري الأمور وفق سنن الله، ولا يتحقق ما قاله الشيوخ والدعاة من مزاعم، قد يدب الشك إلى قلوب البعض، ويتشكك في أمر الدين كله!

فالأولى الحديث عن: الإخلاص، والثبات، وإعداد العدة، وحسن التوكل على الله، واستفراغ الوسع والجهد، وذكر سنن النصر والتمكين، وواجب ومسؤولية كل مسلم.

***

ـ الجبرية السياسية:

أصاب الفكر السياسي الإسلامي ـ من قديم ـ بدعة "الجبرية" السياسية"، الأمر الذي يعطل جهد الأمة، ويشل حركتها وفعاليتها، ودورها ومسؤوليتها، فقد اعتبر البعض أن تغلب الأمراء والملوك الباغين الظالمين على الحكم هو قدر إلهي لا يجوز الاعتراض عليه، ولا نقضه، فقد آتاهم الله الملك، ومن ينازع في هذا الملك فقد نازع الله في أمره وقدره! ولم يتوقف الأمر عند الأمراء والملوك من المسلمين الباغين، بل حتى عند تغلب الكافر الأصلي على بلاد المسلمين.. فقد رأى البعض أنه يجب التسليم له هو الآخر، فهو قدر إلهي!

وقديماً لما دهم العدو بلاد المسلمين، رأت بعض الحركات الصوفية أنه لا يجوز دفعهم بحجة أنهم قدر الله وأمره، وإن الأمة تستحق الذلة بما قدّمت يداها! ثم أخذ البعض خطوة أخرى في مظاهرة وولاية هذا العدو!

وحديثاً لما دهم العدو بلاد المسلمين، وأعمل فيها قتلاً وتشريداً واستعباداً واغتصاباً، رأت بعض الحركات السلفية أن تغلب العدو على الحكم جعل له ولاية شرعية لا يجوز الخروج عليه ولا مقاومته! وتخذيل وإرجاف وتعويق المسلمين عن أي فعل فيه عملية تحرر وجهاد لهذا العدو.

وكل ذلك باطل لا أصل له، فلا يريد العدو أكثر من ذلك الفكر ليتمكن ويستعبد الأمة.

وقد كان الترويج لـ "الجبرية"، و"الإرجاء" مما يُشجع عليه ويتبناه بعض ملوك الملك العضوض، لما فيه من الاستسلام للمظالم، وعدم مقاومة البغي، والامتناع عن الاعتراض على ظلم الملوك، بزعم أن ذلك معارضة للقدر الإلهي! وجاء "الإرجاء" ليكمل المهمة في توهين أمر الظلم والعدوان والبغي، بل وتوسيع المغفرة والجنة لمن لم يتب من هذه الكبائر، والاكتفاء من الإيمان بالقول دون العمل.. فقد كان لكل هذه البدع بعداً سياسياً، تحول ـ فيما بعد ـ لينتظم في صورة عقدية وأيديولوجية، وخلافات كبرى بين المذاهب!

وجوهر الإنسانية كلها هو "الإرادة الحرة"، والقدرة على الاختيار.. وهذه الإرادة الحرة للإنسانية تحت "المشيئة الإلهية المطلقة"؛ فالله قَدّر للإنسان أن يكون حراً مختاراً يُبتلى في هذه الحياة بهذه الحرية؛ وهي الأمانة التي حملها الإنسان.. وقد كان ظلوماً جهولاً!

وإنَّ الحديث عن "الحرية" في مقابل "الجبرية" تجعل كثيراً من عوام المسلمين يظنون أن هذا الحديث عن الحرية هو اعتراض على إرادة الله، وقدره، وسخطاً على الإيمان بالقضاء والقدر! وأن أهل الله بحق هم المستسلمون لهذه "الجبرية" المُستكينون لأوضاعهم! وهذا مما يعطل طاقات الأمة، ويشلها، ويُسلمها كالشاة لأعدائها!

فمناط التكليف كله يدور حول "الحرية والإرادة" ويُبتلى الإنسان فيها.. والإنسان على المستوى الفردي يحاول التمسك بهذه الحرية، ولكن على المستوى السياسي ـ ونظراً لتحديات الواقع السياسي والاجتماعي ـ ينظر بحالة من اليأس، والهول.. فيهرب من المواجهة ويُحيل الأمر إلى البعد القدري والجبري!

والصواب: تفعيل هذه الإرادة، وتنظيم هذه الحرية في عملية الإصلاح، والإيمان بالقدرة الإنسانية على الفعل، وليس الاستسلام للنوازل التي هي الاستسلام للعدو، الذي يريد أن يسلخ الأمة من دينها كله، والعمل على محاربة الفكر البدعي الذي يريد تعطيل طاقات الأمة، ويشل قدرتها وفعاليتها.

وإنْ كان قد وقع القدر الإلهي بمداهمة العدو لبلاد المسلمين ـ مثلاً ـ فليس معنى ذلك الاستسلام، بل إن القدر الإلهي والوعد الإلهي الأبدي هو "التمكين" للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ ومن ثم يجب المضي بكل قوة، وثبات، وعزيمة في طريق تحقيق هذا الوعد بالتمكين، كما قال تعالى:﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55] ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40] وتحقيق شروطه من الإيمان والعمل الصالح، والإخلاص لله وحده.

وإنْ كان قد وقع القدر الإلهي بتسلط الظالمين على بلاد المسلمين ـ مثلاً ـ فليس معنى ذلك الاستسلام، بل إن القدر الإلهي، والوعد الإلهي أن لا ينال عهد الله الظالمين: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124] ، ومن ثم يجب المضي في إنكار المنكر، ومدافعة الظلم، وتحقيق العدل.

ومداهمة العدو لبلاد المسلمين، وتسلط الظالمين... إلخ نجد من أسبابه ما كسبت أيدي المسلمين من بلايا وأخطاء، فجرى القدر الإلهي العادل عليهم، مثلما جرى على المسلمين في غزوة أحد بعدما خالفوا أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرضى بهذا القدر الإلهي هو رضى بالحكم والعدل والقضاء الإلهي الذي يعصم المسلم من الشك في عدل الله سبحانه أو السخط والأسى والغم! ويجعله يعود إلى تنفيذ الأمر الشرعي الذي فيه: {يا

أيها الذين آمنوا...}، وللقدر الإلهي اتساع لا يحيطه العقل البشري، اتساع في الزمان والمكان.. فمثلاً: قد يتسلط العدو على بلاد المسلمين، فيتخذ الله الشهداء، وتستيقظ الأمة، وتنهار الأباطيل، وتتكشف أستار النفاق والخيانة، وقد يتشكل وعي أو يخرج من وراء الأنقاض طفل صغير يغير الله به وجه التاريخ... إلخ مما لا يعلمه إلا الله، ولا يحيط بلطفه وتدبيره وعلمه وحكمته إلا هو سبحانه وتعالى.

وإنْ كان قد وقع القدر الإلهي بدفع الأمة لتضحيات كثيرة، واتخذ الله من عباده الشهداء، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 166] فليس معنى ذلك الانهزام والانكسار، فقد قال الله ـ تعالى ـ عن المنافقين في "غزوة أحد"، وهم يُبكتون المسلمين على تضحياتهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 168] بل معنى ذلك الإيمان بأن كل تضحية ـ إذا كانت خالصة لله ـ فإنَّ صاحبها قد فاز الفوز العظيم، فجاء في الآية التالية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 169-171]

وإنَّ واجب الأحياء هو العمل على التدافع بكل قوة مع العدو دون وهن أو ضعف أو استكانة، مع العمل على تقليل التضحيات، وحقن دماء المسلمين قدر الوسع والطاقة. ولذا جاء في الآية التالية: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ. الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ

لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ. إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 172-175]

فسبحان الله! على هذا النظم العجيب لهذا القرآن العظيم.

***

ـ انتظار المهدي، ونزول عيسى عليه السلام:

من الآفات التي أصابت الفكر السياسي الإسلامي قضية "ظهور المهدي" وقد كان لها آثار خطيرة على المسلمين عبر التاريخ[1]، وهي على نفس نمط "علامات الساعة" و"الجبرية السياسية".. والتعويل في صلاح وحل مشكلات وقضايا الأمة المصيرية على ظهور المهدي، وعلامات الساعة الكبرى! وهذه الأفكار مما تصيب الفكر السياسي الإسلامي في مقتل، وتقعد بالأمة عن أي مواجهة!

فكما أسلفنا أياً كانت الأحداث القدرية القادمة.. فنهج الإسلام، هو منهج "**العمل الآن**"، منهج "**استفراغ الوسع**"، منهج "**المسؤولية والفعل**"، فمهما كانت الأحداث والأقدار القادمة، فإنها لا تعفي الفرد المسلم من واجبه ومسؤولياته، ولا تعفي الأمة المسلمة من واجبها ومسؤوليتها، كما لا تغير في نطاق عملها شيئاً.[2]

وإنَّ كل الأمور تجري وفق سنن الله في أرضه، ولا يحدث التمكين للأمة بطريقة سحرية غامضة الأسباب.

***

(1) انظر ـ إن شئت ـ كتاب: "لا مهدي يُنتظر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم". وبحث: "فتح القسطنطينية.. والملاحم".

(2) انظر بحث: "مشكلات في تناول الفقه الإسلامي".

ـ العدمية السياسية، والعصبية الجاهلية:

يَهرب البعض من "الحزبية" ـ بمعنى الانتساب لجماعة أو حزب سياسي إسلامي ـ إلى "العدمية السياسية" بحجة أنه ينتسب لعموم المسلمين.(1)

ويهرب البعض من "العدمية السياسية" ـ التي تعني الاستقالة من الاهتمام بشأن المسلمين والتدافع مع الباطل ـ إلى "العصبية الجاهلية" بحجة أنه يجب العمل من خلال مؤسسة تنظم العمل.(2)

وكل منهما مخطئ، والصواب هو التوازن:

ـ فلا يمكن أن ندعو الناس إلى "العدمية السياسية" واستقالة المسلم من أي فعل وعمل بحجة أنه ليس بحزبي، وأنه يكره الأحزاب، وينتسب للإسلام فقط، ثم نجد فعله ودوره في الأمة يساوي صفراً، ويهتم فقط بقضية "التدين الفردي" والنجاة الذاتية!(3)

وقد يحاول البعض فلسفة "العدمية السياسية" من خلال الزعم بالطهارة والقدسية والترفع عن هذا الواقع النجس؛ فيهرب إلى منطقة آمنة ـ يرضى عنها الطغاة والبغاة ـ ويروح يُنكر على كل من يحاول جهده في التصدي للباطل ويتهمه بأنه "حزبي" صاحب بدعة! وهذا من تلبيس الشياطين.

ـ ولا يمكن أن ندعو الناس إلى "العصبية الجاهلية" حيث يتحول العمل المؤسسي من خلال "الجماعات والهيئات والأحزاب" التي تدعي عملها على "التمكين للإسلام والمسلمين" إلى عصبيات جاهلية، وتعصب أعمى، ويتحول الولاء العام للإسلام والمسلمين إلى الولاء للحزب والجماعة على حساب الأمة.

(1) انظر: درس "الأحزاب السياسية"، ص767 من هذا الكتاب.
(2) انظر مقال: العمل المؤسسي.
(3) انظر: درس "أزمة المتدينين"، ص 43 من هذا الكتاب.

فأساس الفقه السياسي الإسلامي: **هو عمل المسلم على التمكين لدين الله في الأرض، والتدافع مع الباطل بكل صوره وأشكاله.**

وأساس العمل الراشد والصائب هو أن يكون مؤسساً ومنظماً ودقيقاً، وتجمعه عصبة الإيمان - "حبل الله" - فلا يمكن مواجهة أمم الكفر - وهم يُقاتلوننا كافة - بمجموعة من الأفراد هنا وهناك؛ بل يجب أن يكون هناك مؤسسات تنظم العمل، وتوظف الطاقات، ويشد بعضها بعضاً..

وإنَّ تحول هذه المؤسسات إلى تحقيق مصالحها الذاتية، أو جعل الولاء لها على حساب الدين والأمة، لا يعني رفض مبدأ العمل المنظم بالكلية؛ والوصول إلى "العدمية السياسية"، بل يعني تصحيح الخطأ، وتقويم الباطل، وإنكار المنكر، والاستفادة من تجارب وأخطاء الماضي.

***

عَلمنة الفكر السياسي الإسلامي:

لما حاولت بعض الأحزاب الإسلامية المعاصرة العمل على الوصول للحكم من خلال الآليات المتاحة لديها - والتي تختلف سياقاتها من بلد لآخر - اصطدمت بالواقع العلماني، والطغيان في مراكز القوى الحاكمة.. ودخلت في صراع فكري مع العلمانية.. ويبدو أنها لم تكن مُتسلحة فيه بالإيمان الكافي، أو المعرفة الإسلامية الكافية أو غرها متاع الحياة الدنيا من منصب أو جاه؛ فبدت كأنها مرتعشة مهزوزة مترددة تخاف الاتهام: بالأصولية والراديكالية، والتطرف والإرهاب! فراحت تتصدق من الدين وأحكام الإسلام عسى أن تنال الرضى، ولم ترجع بشيء سوى طلب المزيد من الانسلاخ من الدين!

إنه لن ينتصر بحق لهذا الدين إلا من أحاطه من جميع جوانبه، لن ينصره إلا الذين آمنوا بكل مبادئه وأحكامه، وأخذوا الكتاب بقوة، ومضوا في نور هذا الكتاب، يدورون

معه حيث دار بكل إخلاص وتجرد. يكسبون للإسلام كل يوم نفوساً جديدة، وأرضاً جديدة.

ويواجهون العلمانية بكل استعلاء بإيمانهم، وبكل عزة بإسلامهم، وبكل يقين في كتاب ربهم، وبكل عزم في مواجهة الباطل، ولا يرون مصلحة إلا مصلحة الإسلام، ولا يرون غاية إلا هداية الناس لدين الحق، تَمَلّك الإسلام روحهم وفكرهم وقلوبهم فلا يفكرون إلا به ولا يبصرون إلا به، ولا يرغبون عنه لغيره.(1)

وإنَّ الذين يحاولون علمنة الفكر الإسلامي ينتهي بهم الحال إلى أن يصبحوا جزءاً من العلمانية، وجزءاً من الواقع الذي قاموا من أجل تغييره، وفي النهاية تكون "المكاسب الإسلامية" ـ إن صح التعبير أو تحققت مكاسب بالفعل ـ مكاسب هشة في مهب الريح، لا تلبس العلمانية ـ وأئمة النفاق ـ أن تحاول القضاء عليها بكل عنف ووحشية.(2)

والحقيقة التي يجب أن تكون واضحة أمام الشباب المسلم.. إنه لا يمكن التعايش بين الفكر السياسي الإسلامي، والفكر السياسي العلماني، ولا يمكن تقسيم السلطة بين المنافقين والمسلمين..

والإسلام لا يتسول مقعداً في البرلمان، والأمة المسلمة لا تَمن على الله بإسلامها له، بل الإسلام هو الحق المطلق المبين الذي يعلو فوق الجميع، ولا يُعلى عليه، والمسلمون والأمة المسلمة واجب عليهم العمل على التمكين لدين الله في الأرض.(3)

***

(1) انظر مقال: "التحولات في الحركة الإسلامية". وكتاب: "العلمنة من الداخل".

(2) انظر ملف: "مجزرة رابعة".

(3) انظر مقال: "أوجه الفشل في التجربة التركية".

الهرب من المواجهة:

يحاول البعض إيثار السلامة، وتجنب الصدام، والاستكانة للأوضاع.. معتبراً تلك هي الحكمة البالغة، والوعي الصحيح! وما هو إلا العجز والفشل، والضعف وقلة الحيلة، والعيش في هواجس التجارب الفاشلة، وخداع النفس بإصلاح الذات، وتنقية العقيدة من الشوائب، والاهتمام بالتوحيد... إلخ من المبررات.

والعمل على التمكين لدين الله في الأرض ـ وهو أساس العمل السياسي ـ ليس فضيلة ولا نافلة، بل هو أساس وجودنا الإسلامي، بمعنى: إذ لم نعمل على التمكين لدين الله في الأرض، سيعمل الباطل ـ وبكل وحشية وقوة ـ على التمكين لدين الشيطان في الأرض، فهي معركة حتمية لا مفر منها، وتدافع أبدي لا محيص عنه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: 31]

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 39-40]

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: 217]

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109]

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60-61]

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76]

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36]

وفي قصة شعيب ـ عليه السلام ـ إذ يقول لقومه: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: 87، 88]

فليس هناك من خيار يمكن لأهل الحق أن يؤثروا فيه السلامة، ويتركهم الباطل دون هجوم، واحتواء، بل سيهجم عليهم الباطل ـ عاجلاً أو آجلاً ـ في حرب لا هوادة فيها، هدفها استعباد الأمة، وسلخها عن دينها، وسرقة مقدراتها وثرواتها وأرضها، ولا يمكن الهرب من السنن الإلهية، ولا يمكن معاندتها، ولِمَ نهرب ابتداء، وقد وعدنا الله النصر والتمكين؟!

قال عز وجل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18]

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 160]

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14]

وإذا استقر في أذهاننا حتمية هذا التدافع، وحتمية هذه المعركة، انتقلنا بالتبع إلى إعداد العدة، والتهيؤ للمواجهة، وإيقاظ الأمة لحقيقة الصراع، ومواجهة الواقع بالوسائل المناسبة له..

ويبقى التحدي الأكبر في "كيفية المواجهة" حيث هذه المسألة تدع الحليم حيران من شدة الفتن، جاء في الأثر: "يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَبِي يَغْتَرُّونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ، فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا"(1)

ولكن البصيرة ونور الله وتقواه في قلوب عباده الصالحين هي العاصم بإذن الله.

هذا هو التحدي الأكبر: **كيف نواجه أعداء الداخل من "أئمة النفاق، وكيف نواجه أعداء الخارج من "أئمة الكفر"؟!**

وجواب هذا السؤال ليس بالأمر الهين، ويتأتى جوابه عند اللحظة التي ندرك فيها ـ أو يدرك فيها قطاع مؤثر في الأمة ـ بحتمية هذه المواجهة، ثم يمضي في إعداد العدة، والتهيؤ لهذه المواجهة.. والإخلاص لله، عندها ـ فيما أرى ـ سيفتح الله لهم فرصة، وطريقاً للخلاص بإذن الله.(2)

***

(1) [جامع الترمذي/ 2404، وفي السند مقال، ولعله موقوف وليس مرفوعاً.. والعبرة هنا بوصف الأحوال الاجتماعية]

(2) انظر بحث: "الفئة الباغية".

ـ استحالة الإصلاح:

أمام ضخامة وانتفاش الباطل، وبروزه في الأرض، يظن البعض أن الإصلاح وهزيمة الباطل مسألة مستحيلة، غير ممكنة على الإطلاق، وقد كان المنافقون على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقولون بذلك، ويرجفون ويربكون المسلمين ويحاولون تخويفهم وإثناءهم عن أي مواجهة مع العدو واتهامهم بالغرور، مثلما حصل في أول مواجهة للمسلمين مع الكفار في غزوة بدر، وقالوا عن المسلمين: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 49]

وهذا ديدنهم، وعلامة بارزة من علامات النفاق، ففي غزوة الأحزاب تكرر الأمر، إذ بلغت القلوب الحناجر من هول المعركة، قال المنافقون: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12] و«قالوا يومئذ: إن محمداً يَعِدنا أن نفتَح مدائن كسرى وقيصر وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله! هذا واللهِ الغرور»(1)

وهذا من فعل المنافقين والشيطان من ورائهم، وهو العمل بكل قوة على تخويف المسلمين من كل مواجهة، وبث الرعب في قلوبهم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ. إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 173-175]

---

(1) [«زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي» (3/ 451)]

والبعض اليوم ـ ونحسبهم من المحبين وليسوا من المنافقين ـ إشفاقاً على الأمة، يحاولون التفكير بطريقة غير إسلامية، فيظنون أن الأمة تحتاج إلى أجيال طويلة بعيدة للوصول إلى العدة اللازمة لمواجهة العدو، ويذهبون للمقارنة بين العتاد العسكري للأعداء، وبين عتاد الأمة فيستهولون الفرق الكبير! ومهما انتظرت الأمة من أجيال فلن تصل إلى عتاد العدو، ذلك لأن العدو يمكر بالليل والنهار، لتظل الأمة ضعيفة ذليلة تابعة له في كل شيء، وتعيش إما في حالة ترف مُطغي أو فقر مُنسي!

وبالفعل الفرق في العتاد يكون كبيراً، وكبيراً جداً.. ولكن الأمة لديها سلاح هو أقوى الأسلحة، سلاح الإيمان، وحب الموت في سبيل الله، هذا السلاح يُعوض الفارق في العتاد العسكري بل ويتفوق عليه.. والله دفع الأمة للمواجهة مع عدوها، حتى ولو تفوق عليها مادياً، قال تعالى:﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(1) [الأنفال: 66]، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 249]

وعندما تُعد الأمة عدتها، ستجد أن الله يفتح عليها من فضله، ويهديها إلى سبل وطرق وأسلحة نوعية تستطيع أن تتغلب بها ـ بفضل الله ـ على جحافل الكفر، فمثلاً: حاملة طائرات تحمل جيوشاً وأسلحة فتاكة مهولة.. يمكن لسلاح صغير مبتكر وفعال، وفدائية في العمل، يستطيع أن يسقطها كلها في البحر.. ولا يأتي ذلك إلا عند حسن التوكل على

(1) لعل في ذلك إشارة إلى أنه عندما تُجاهد العناصر الممتازة المُعدة إعداداً خاصاً.. خالصة الإيمان شديدة البأس قوية العزيمة، فيجب عليها أن تصل إلى 10% من قوة العدو {عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ}، وفي حالة "التخفيف والضعف" فيجب أن تصل إلى 50% من قوة العدو {مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ}، وبشكل عام فإن الفئة القليلة المؤمنة الصابرة المخلصة لله، تَغلب ـ بإذن الله ـ الفئة الكثيرة الكافرة الباغية المغترة المتجبرة في الأرض، والله تعالى أعلم.

الله، والثقة في وعده، واستفراغ الوسع، والإخلاص لله جل جلاله، عندها يكون المقاتل المسلم بأمة من الناس، ويُلقي الله ـ سبحانه ـ في قلوب الذين كفروا الرعب، فهم يعبدون الحياة الدنيا، وعند مظنة الموت يرتعبون: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]

والعدو الخارجي من أئمة الكفر، والعدو الداخلي من أئمة النفاق.. يعملون بكل قوتهم على تخويف المسلمين، وتَيئسِهم من أي قدرة لهم على مواجهة العدو الخارجي الذي يُصوره في صورة أسطورية لا تُقهر، ولا تُهزم أبداً، ويتحدثون عن قدرته على التجسس الخارق، والتدمير الشامل، والعتاد الذي ليس مثله على وجه الأرض! ثم نجد ـ بعد كل هذا العتاد ـ عند الالتحام على الأرض أمام ثلة من المجاهدين المؤمنين فإنها تذل هذا العدو الخارق! وتكسر جبروته، وتهزمه شر هزيمة، ويفر من أمامها مرعوباً مذعوراً.(1) ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120]

ويُبرر العدو الداخلي من أئمة النفاق.. انكساره، وانحساره، وتمكين العدو الخارجي من بلاد المسلمين ومقدراتهم وثرواتهم بأنهم لا يستطيعون مواجهة هذا العدو، ومن ثم يجب الاستسلام المخزي له، والدوران في فلكه، والاستجابة لأمره! ويُحوّلون جيوش البلاد الإسلامية إلى مجرد خدم له، ويُفسدونها بجعلها وسيلة للجاه والمنصب والامتيازات لأصحاب الرتب العالية، ومكان لسحق الكرامة، وامتهان الإنسان في التجنيد الإجباري لصغار الجند.. ومثل هذه الجيوش حقاً لا تستطيع أن تواجه العدو؛ لأنها عارية من كل قوة، عارية من الإيمان وحب الموت في سبيل الله، وعارية من العزة والكرامة، وتنظر

(1) [انظر بحث: "ما بعد طوفان الأقصى"]

إلى عدوها نظرة الانبهار والتقديس والتسليم والاعتماد؛ فتكون أمامه كالفأر المذعور، وكالكلب المسعور أمام شعوبها المسالمة! فلا تستطع أن تنصر الدين ولا أن تحمي الأرض!

***

والعمل السياسي الراشد هو الذي لا ييأس من الإصلاح، ولا يُحيله على الأجيال القادمة.. بل يُفكر في تحقيق هذا الإصلاح خلال جيله الحالي.. وهو الذي يضع المحددات الدقيقة التي يعرف عندها من أن يبدأ الانطلاق والتدافع، ويرى فيها مظنة النصر.

وهناك دوماً أمل، وهناك دوماً فرصة ومنحة، جاء في الحديث الشريف: "عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى اللهُ عَليه وَسَلمِ: "**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**"(1)

وهذا الحديث يوضح أمرين:

الأول: لا يخلو زمان من قائلين بالحق، فلا يغيب وجه الحق عن هذه الحياة مهما اشتدت المحن والابتلاءات.

والثاني: ظهور هذا الحق، ووجود الفرصة للإصلاح، ولا يُقفل باباً في مكان، إلا ويُفتح غيره في مكان آخر، فلا يأس، ولا قنوط، ولا عجز، وفي الحديث الشريف: "**اسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ**" فيجب البحث عن هذه الفرصة والمحاولة دائماً وأبداً، وبذلك يكسب الحق أرضاً جديدة وأنصاراً جدداً.

ولطالما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو أصحابه إلى تبشير الناس بالخير، دون تنفيرهم، ولا تصعيب الأمور عليهم، وإنَّ الواقع الاجتماعي السياسي الذي تقوم جماعات

(1) [صحيح مسلم/ 1923]

التغيير من أجل تقويمه يكون في الحضيض على جميع المستويات، ومن مهام جماعات التغيير هو بث "البشرى والتفاؤل"، وإمكانية التغيير، والقضاء على روح الإحباط واليأس والقنوط، وضرب النماذج الصالحة من تاريخنا ومن تجارب البشر في إمكانية التغيير والإصلاح مهما وصل بنا الواقع من قاع.

وحتى مع لحظات انكسار حركات التغيير ذاتها تحت وطأة الضربات الخارجية، وتحت فشلها الذاتي.. لا بد من إعلاء روح البشرى والأمل، وإمكانية التغيير، وإعلاء قيم الحق، وإنَّ تهافت الباطل مهما بدا علوه فهو زاهق، ومهزوم.. هذه الروح مهمة خاصة للأجيال الجديدة التي لم تعش تجربة الفشل، ولم تصبها روح الانهزام، فهم لها أن تمضي بالبشرى مستفيدة من أخطاء الماضي، ومتطلعة إلى تجربة جديدة، ومحاولة جديدة، ولا تعيش حتمية الانهزام، فمن يَعِش بروح الانهزام سينهزم، ومن يَستعن بالله ولا يعجز، ويَمضي في سنن الله، فإنه منتصر بإذن الله.. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل (89)]

***

ويجب عند **التربية الفقهية السياسية** لأبنائنا وشباب أمتنا أن ننتبه ونحذر من هذه التصورات الخاطئة، والآفات والأمراض الفكرية.. وأن نعمل على تربية أبناء الأمة تربية فقهية سياسية راشدة، راسخة، متينة، أصيلة الروح الإسلامية، مبصرة بواقعها تمام الإبصار:

ـ فلا نتركهم للتميع والترهل، والارتعاش، والتردد، ونجيب على كل أسئلتهم، وما يشغل بالهم بمنتهى الاهتمام والحرص.

ـ ونحذر من أن يكونوا سذجاً أو يستخف بهم أحد، أو يكونوا دراويشاً يسهل خداعهم أو استغلالهم.

ـ ونحذر من أن يتلوثوا بلوثة العلمانية ـ التي تحيط بهم من كل جانب ـ ونحصنهم ضد أفكارها، وسلوكها.

ـ وأن نربهم تربية القادة القادرين ـ بفضل الله ـ على تولي زمام الأمور، كما نربيهم على أن يكونوا أفضل الجند إذ لم يكونوا في مراكز القيادة.. بحيث يمتلكون القدرة على القيادة، وعلى الطاعة في الانقياد في المعروف.

ـ وأن نربهم على حرية إنكار المنكر بأدب، والاستماع إليهم، والوفاء بأمانة الدفع بالأفضل في كل مكان.

ـ وأن ندربهم على قراءة التاريخ قراءة سُننية تستطيع استخلاص العبر والدروس بوعي ودقة، بحيث يتجنبون تكرار الأخطاء، ويُعظمون الاستفادة من الفرص والموارد، والانشغال بمعالي الأمور.

ـ وأن ندربهم على القدرة على رسم "خريطة العدو" بمنتهى الدقة والتجرد، ومعرفة الأولى فالأولى بالمواجهة، وأدوات المواجهة، ونطاق عملها، والموارد المتاحة.. بحيث تكون حركتهم مدروسة، وعملهم يسير على خطة محكمة، وقبل ذلك يحذرون من إعطاء الولاء للعدو، أو الغفلة عن سُبل المجرمين.

ـ وأن نربهم على نور القرآن، وفهم القرآن، وطريقة القرآن، بحيث يجعلونه الحكم والميزان في كل حياتهم.

ـ وأن نربهم على أن عملهم وحركتهم ومسؤوليتهم ليست تفضلاً منهم ولا تكرماً، بل هو مسؤولية **كل** مسلم.. وأنهم لا يمارسون "السياسة" كما يمارسها أهل العلمانية، بل إنهم يعملون على التمكين لدين الله في الأرض، والتدافع مع الباطل، وإعلاء كلمة الله.

ـ وأن نعرّفهم "حتمية" هذا التدافع وأنه سنة من سنن الله في الأرض، وأنه لو رغب أهل الصلاح في الانعزال وإيثار السلامة لحتماً سيدهمهم الباطل ـ ولو بعد حين ـ فلا بد إذن من الاستعداد، والتحفز للمواجهة والإعداد لها.

ـ وأن نربهم على الإخلاص الكلي، والتجرد الكامل لله ـ جل جلاله ـ بحيث لا ينتظرون عوضاً ولا جزاءً في هذه الحياة الدنيا، وفي نفس الوقت لا يفقدون الحماسة والقوة والاندفاع في تغيير الواقع، فلا يكون الإخلاص دافعاً للتراخي والانسحاب، ولا يكون التغيير دافعاً للطمع في متاع الحياة الدنيا من منصب أو جاه أو سلطة أو مال.

وإنَّ تصوراً أو فكرة واحدة خاطئة قد تؤدي في النهاية إلى الفشل الكلي ـ والعياذ بالله ـ فلا يستقلن أحد هذه التربية، ولا يظنن أنها مجرد مواعظ عامة تلقى في غفلة من المتلقي، بل يجب تأمين كل فكرة، والاطمئنان إلى تموضعها الصحيح في الروح والقلب والعقل، والاطمئنان إلى المعرفة الصحيحة لكيفية تطبيقها في الواقع، والاطمئنان إلى تحصينها من الاختراق من العدو، أو محاولة إماتتها، أو إبطال فعاليتها، أو استغلالها لصالح العدو.

ولقد رأينا في واقعنا هذا فكرة واحدة خاطئة مثل "**الغلو في التكفير والهوس به**" أتت على "حركات جهادية" ـ كانت قاب قوسين أو أدنى من النجاح ـ ودمرتها تماماً.

وفكرة خاطئة مثل "**إحسان الظن بالعدو، والغفلة عنه، والسذاجة في مواجهته**" أتت على "حركات إصلاحية" ـ كانت قاب قوسين أو أدنى من التمكين ـ ودمرتها تماماً مع بحور من الدماء، والتضحيات، والخسارة على كل صعيد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وتعمل أجهزة الاستخبارات الفكرية على تحييد واختراق الأفكار الصحيحة لإفسادها، والترويج للأفكار الانهزامية أو الملوثة بالعلمانية أو المغالية في التطرف بحيث إما تحبط عمل أصحابها في النهاية أو تنفجر فيهم، وتحاول أن تضرب الجميع ببعضهم البعض.[1]

والتربية السياسية الراشدة والفقه السياسي هدفه النهائي هو حماية التصورات والأفكار الصحيحة وترسيخها في قلب المسلم، وتحصين العقل المسلم من الأفكار الباطلة والفاسدة؛ حتى يمضي في طريق الرشد، ويصل إليه - في النهاية - بفضل الله.

***

(1) انظر بحث: "أجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المدني"، و"أجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المسلح".

12- الفراغ السياسي

الفراغ النفسي: ينشأ من استقالة النفس من اهتمامات الحياة الكبرى، وتجد النفس مساحة من الطاقة الداخلية المُعطلة التي تحتاج إلى تنفيس وإلى مجال.. هذا المجال يضع "شياطين الإنس" أمامه خياران:

الأول: هو صرف الطاقة وتبديدها فيما لا ينفع، كالاهتمامات التفاهة، والمنحطة، والسافلة.. مثل جنون مباريات الكرة(1)، وجنون سابق السيارات، والمسابقات.. ونحو ذلك من أمور، وشغله بالجنس ومقدماته(2)، والموضة والتقاليع، والفنون المجانة، والأغاني الهابطة، وهؤلاء الأوفر حظاً، أما الأقل نصيباً فهم أولئك الذين ينفقون كل حياتهم من أجل تحصيل لقمة العيش، ثم لا تكفيهم في النهاية! نظراً لأحوال الظلم والإفساد في الأرض.

الثاني: هو الاكتئاب، والانضواء، والغم، والهشاشة النفسية، وتضعضع النفس من داخلها.. فتكون عرضة للأمراض، والهواجس، والاضطرابات الفكرية والسلوكية، مع الشعور بالوحشة، والغربة، والتيه، وفقدان الشغف والرغبة، والتكاسل عن التطلع لعمل

(1) هناك بعض القنوات الإعلامية التي تزعم أنها تمثل المشروع الإسلامي تهتم بسخافات الأحداث الرياضية كمرض "جنون كرة القدم ومسابقاتها".. بزعم أن ذلك يُقربها من الناس! وهذا زعم باطل وغير متحقق، إنما يُفقدها تميزها وأصالتها وشرعية اجتماعها الذي من المفترض أنه من أجل تغيير الواقع لا المشاركة في سخافاته وأباطيله وأمراضه وجنونه.. وإنَّ عليها الاستعلاء على الباطل بعزة الحق، والتميز على السخافة برشد العقل، وتقديم الدواء بنور الوحي، وطلب رضى الله قبل رضى الناس.. ومن يفقد هذه المعالم فأولى له أن يفض اجتماعه الذي يصبح عبئاً ومشكلة لا علاجاً وسبيلاً.

(2) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "التعري.. وعبادة الشيطان".

شيء نافع صالح في الحياة، والاستسلام للعقاقير والأدوية المؤثرة على سلامة العقل، واستقامة النفس.[1]

والفراغ النفسي الذاتي، هو نفسه في حالة **الفراغ الاجتماعي** إذا اعتبرنا أن الجسد الاجتماعي ما هو إلا نفسٌ كبيرة، تُكوّن أشكالاً متعددة ومتطابقة من النفس الإنسانية.. والفراغ الاجتماعي يُشكل ويُعبر عن الخط العريض للاجتماع البشري في بلد ما.. فالنظر في إحصائيات الإنفاق على التفاهات والسخافات، مثل: مباريات الكرة[2]، والمسابقات، وصناعة الأفلام الرخيصة، والحفلات الماجنة، والتفاخر والتكاثر بين الأقران... إلخ، وإحصائيات حالات الاكتئاب والانتحار والطلاق، والجرائم، والمخدرات، والإدمان، والدعارة... إلخ، وسلم الاهتمامات والأولويات والإنفاق في حياة المجتمع؛ فإنه يكشف بالضبط عن طبيعة حالة الفراغ الاجتماعي.

والفراغ النفسي الذاتي، والفراغ الاجتماعي العام ليس بعيداً عن موضوع كتابنا، بل هو من صميمه؛ حيث الفراغ النفسي والاجتماعي ينطبع على الحالة السياسية ويؤثر فيها، والتحليل النفسي والاجتماعي ضرورة للمضي في سياسة راشدة، وإن كان التحليل النفسي والاجتماعي يُستغل دوماً - من الأنظمة الجاهلية - في السيطرة على الجماهير، وهندسة انفعالاتها، وخداعها، وصرفها عن المطالبة بحقوقها، ومراقبة حُكامها!

(1) انظر: "الموسوعة الإنسانية"، للأستاذ محمد قطب (رحمه الله).

(2) على سبيل المثال: بلغت ميزانية "وكالة داربا لمشاريع أبحاث الدفاع المتقدمة" التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية 4 مليار دولار سنوياً لتمويل 250 برنامجاً بحثياً؛ لتخترع الأسلحة المتطورة ذات التقنيات الفنية العالية التي تهيمن بها أمريكا على البشرية وتستعبدها بها، وتضمن التفوق التكنولوجي الأمريكي في جميع المجالات، وقد كان لها الدور الأساسي في تطوير الإنترنت، وأنظمة الملاحة، والطائرات دون طيار، والذكاء الاصطناعي... إلخ، بينما بلغت ميزانية استضافة كأس العالم لكرة القدم في قطر عام 2022، أكثر من (200 مليار دولار)!! ولم تستفد منها الأمة شيئاً بل على العكس كانت ضراء مضرة، وكان يجب صرف هذه الأموال فيما يعزز من قوة الأمة، واستقلاليتها، وعزتها. انظر مقال: "كأس العالم.. وصناعة التفاهة العميقة". و"مونديال قطر".

والطاقة النفسية، والطاقة الاجتماعية إذ لم تُصرف في مسالكها الصحيحة الفطرية الراشدة فإنها تتحول إلى طاقة تدميرية للإنسان والمجتمع.. وتُستغل في تطويق الإنسان والمجتمع وتضع عليه الأغلال والآصار والقيود، وتأسره من حيث لا يشعر، ومن حيث لا يرى!

وهذه الطاقة الفطرية ـ في النفس والمجتمع ـ تدفع الإنسان إلى الحركة دوماً، وإلى البحث عن نشاط يشغل فيه باله، ويصرف فيه طاقاته؛ فإذ لم تكن في سُبل راشدة، فحتماً ستكون في سُبل ضالة مُضلة.

فما هي الاهتمامات الكبرى الذي يجب أن تشغل بال الإنسان؟

يبدأ الوعي بالاهتمامات الكبرى من إدراك الغاية من الوجود الإنساني، وهي عبادة الله وحده لا شريك له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، ومن ثم يتسع الأفق الإنساني للإيمان بالغيب، واليوم الآخر، والتطلع إلى ما عند الله، وابتغاء رضوانه، وبناء القاعدة الأخلاقية والسلوكية على تقوى من الله ورضوان، ويتشكل له وعي جديد، وحركة جديدة، وتحديات كبرى، وقضايا عالمية.. عندما يسمع نداء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...**﴾.

ويقوم بأمانة حمل الرسالة، وبلاغها.. وما يتطلب ذلك من جهاد النفس، وجهاد الباطل، والانشغال بحال الإنسانية، والمعركة المستمرة الأبدية بين الإنسانية وشياطين الإنس والجن (الذين يُزينون ويوحون إلى شياطين الإنس الذين هم الأخطر على الإنسانية في الفتك بها وتدميرها وإضلالها)..

وبعد الإيمان والبلاغ، يأتي التدافع وإصلاح الإنسانية، والاجتماع على البر والتقوى.. ومحاربة الإثم والعدوان، وصرف الطاقات الإنسانية والاجتماعية في تزكية النفس والمجتمع، وتدعيم مكارم الأخلاق، ومحاربة الفواحش، والتراحم الإنساني "باسم الله".

وإذا أخذنا مثالاً قريباً في ذلك، وهو "**الاستقرار في الحياة الزوجية**" كمقدمة للاستقرار الاجتماعي، فنجد أن الاستقرار والهناء في الحياة الزوجية يأتي ـ بعد نعمة الله وتوفيقه ـ من خلال "الاهتمامات الربانية الكبرى" فنجد الأسرة التي تضع رضى الله كمقدمة لكل نية وعمل، وتضع أمامها قضايا الأمة المصيرية والتفكر فيها، والعمل على المشاركة ولو بأقل القليل في معالجتها، والنظر في عملية الإصلاح النفسي والاجتماعي والتربوي والثقافي والفكري لها ولمن حولها، وتظل مشغولة دوماً بمثل هذه المجالات.. مثل هذه الأسرة لا تجد وقتاً ولا روحاً ولا عقلاً للاهتمامات التافهة، ولا للموضوعات السخيفة، ولا لعبودية الذات على حساب كيان الأسرة، وتترفع عن أن تكون اهتماماتها كلها نوعية من الطعام أو الملابس، أو سفر، أو زيادة في الإنفاق، أو الخلاف على الصغائر، فنجد التسامح والتراحم والمودة والرحمة والسعة والفضل، وكلها خصائص من يتسع عقله للقضايا الكبرى والانشغال بها..

وفي الحديث الشريف: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْد السَّاعِدِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم: "**إِنَّ اللَّهَ عَز وَجل يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**"(1)

ونجد حالات الاضطراب الأسري والنكد الزوجي والطلاق تنشأ من موضوعات تافهة، ومن انشغالات سخيفة، ومن ضيق النفوس عن التطلع لرؤية الحياة الإنسانية ـ كما يستعرضها كتاب الله ـ ومن ينشغل بذكر الله.. سواء ذكره في القلب، أو في السلوك النفسي، أو في إعلاء ذكره الاجتماعي والسياسي تكون حياته طيبة، فهو يصرف الطاقة النفسية في نشاطات مباركة لها عظيم وجزيل الثواب في الدنيا والآخرة، ومن يُعرض عن هذا الذكر، فإن حياته تكون ضنكاً وشقاءً وضيقاً، لا يدري سببه رغم ما قد يتوفر له من وسائل الراحة والرفاهية، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا

(1) [المعجم الأوسط للطبراني/ 2943]

وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 124] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]

هذا المثال عن الأسرة يمكن تطبيقه كما هو على المجتمع ككل.. فالمجتمع الذي ينشغل بذكر الله، بذكر القضايا الكبرى الربانية، فستكون اهتماماته على قدر تفكيره وانشغاله وروحه، وعلى قدر الإبداع في إيجاد النشاط الاجتماعي الذي يناسب هذه القضايا الربانية الكبرى ـ وتنصرف الطاقة الاجتماعية في هذا النشاط ـ على قدر ما يكون استقراره وتماسكه، وأخلاقه، وقوته.. سنجد هذا المجتمع ينتقل من حالة الفراغ القاتل المقيت إلى حالة الامتلاء والحيوية والنشاط، بل وضيق الوقت عن الاتساع لمزيد من العمل، فالعمل يُولد العمل، والصلاح يُولد المزيد من الصلاح؛ فالحياة في حالة تكاثر دائم، ونمو مستمر!

فمثل هذا المجتمع لن يجد وقتاً للسخافات ولا التفاهات ولا الفواحش؛ سيكون شعلة من النشاط، ومن الحركة.. سنجده متطلعاً دوماً، في حيوية مستمرة.. ويتولد النشاط من إيمان النفس الاجتماعية، وإذا نظرنا في نشاط واهتمامات المجتمع المسلم الأول، ونواة الأمة الإسلامية.. سنجده نشاطه كان يدور حول الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، وكل ما يساعد في هذا الطريق من وسائل وأدوات؛ فممارسته ـ مثلاً ـ للأنشطة الرياضية كانت ممارسة جهادية؛ كالسباحة، والرماية، وركوب الخيل، وجاء في الحديث الشريف: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم: "**إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى**"(1)

وكان نشاطه التعليمي المستمر كان من أجل تزكية الإنسان، وتهذيب سلوكه، وإعلاء كلمة الله، وكان نشاطه المالي محصوراً في التجارة والعمل والإنتاج لا الربا والقمار

(1) [سنن أبي داود/ 2486]

والميسر، وكان نشاطه الفني والترفيهي تحدياً واستعلاء على الجاهلية من حوله، وكان نشاطه الجنسي محصوراً في الحياة الزوجية..

وكما أسلفنا.. لا بد من نشاط للنفس والمجتمع، فإن استقال من الاهتمام بالقضايا الإيمانية الكبرى، فسنجده يتجه بهذا النشاط إلى كل ما هو تافه، مُضر، يتسافل بالنفس، ويُغري بالعداوة والبغضاء، ويأمر بالإثم والعدوان..

سنجد نشاطه يحسر في الخمر والميسر والقمار والفواحش والتسوق الفارغ ـ الذي يتحول إلى حالة من الإدمان السلوكي ـ ومضيعة الوقت.. حيث الخمر والمخدرات تحاول تبديد وتجميد الفكر الإنساني عن التدبر والتأمل فتكون الخمر مهرباً، والميسر والقمار ـ وما في حكمهما من أنشطة كالمسابقات، والبرامج السخيفة...إلخ ـ غرضها البحث عن الانشغال بمتعة تحمل الأمل في الربح السهل السريع، أو الشعور بنشوة الانتصار! أو التماهي مع الأبطال الموهومين!

وأما الفواحش والإباحية فهي اللذة القريبة التي تُعوض حالة الاضطراب الزوجي.. حيث يصبح الزواج ـ في ظل الاهتمامات التافهة، والضنك، والإعراض عن ذكر الله ـ مشروعاً فاشلاً![1]

ويصبح الابتزاز الجنسي السياسي (والسيطرة على الساسة بالجنس) سلوكاً طبيعياً متعارفاً عليه ويُعمل به عند جميع الأنظمة الجاهلية[2]، وإحدى أدوات السيطرة الشهيرة عند أجهزة الاستخبارات.

---

(1) انظر مقال: "مشكلة التحرش الجنسي".

(2) ولذلك نجد كثيراً من زوجات الرؤساء والسياسيين ـ في الأنظمة الفاسدة الجاهلية ـ من أتعس النساء على وجه الأرض، ويُجبرهم وضعهم في المجتمع على السكوت المر المكبوت! فيعوضن ذلك الحرمان بالتسوق السفيه ونحوه.

وشغل الناس طوال العام بالمسابقات الرياضية[1]، ومسابقات الجمال[2]، والألعاب، والأفلام الجديدة، والحفلات المستمرة فلا تدع للناس فرصة للتأمل أو التفكر أو تزكية النفس. وكل ذلك يؤدي إلى مضيعة الوقت والأصح أن نقول "قتل الوقت" لأنه عدو للنفس.. الفراغ عدو للنفس؛ فهي تبحث عن أي وسيلة لقتله، ويتفنن شياطين الأنس في اختراع كل الوسائل المُضرة لقتله، ومع استمرار قتله على المدى الطويل.. فإن النفس تموت هي أيضاً وتعود لا تصلح لشيء نافع، ولا لتؤدي عملاً صالحاً.

***

(1) مثل: مسابقات "دورة الألعاب الأولمبية" وهي ذات أصل وثني يوناني، مرتبط باحتفالات وطقوس وثنية دينية يونانية قديمة.. والشعلة الأولمبية ـ التي تعلن بدأ الدورة الأولمبية ـ تعني: "انتقال مبادئ وقيم الأولمبياد من اليونانيين القدماء إلى العالم الحديث، وترمز النار إلى قيام بروميثيوس (خالق البشر) بسرقة النار من زيوس (أب الآلهة) وإعطاءها للبشر!" ومن ثم فمن أشد المحرمات مشاركة المسلمين فيها، فلا يجوز على مستوى الدولة أو الأفراد المشاركة في هذا الكفر والإثم والعدوان، هذا فقط من حيث المبدأ، أما من حيث الممارسات الحالية: فإن العري، والفجور، والإلحاد، والترويج للفواحش والمنكرات وتطبيعها، والسرف والمخيلة، والشحناء والبغضاء، وتبديد الأموال والطاقات والأعمار، وتذويب الهوية والشخصية المسلمة... إلخ، كبائر عظمى، وكفر بواح، ومُوبقات مُهلكة، واجب على الأمة أن تنكرها، وتتبرأ منها.

وإنَّ اللهو البريء مما هو مباح في الإسلام، إذا سَلم من الفواحش والعري والاختلاط المحرّم، وسلم من الإسراف والمخيلة، والإثم والعدوان، والشحناء والبغضاء.. وقد كان لهو الإسلام في أمور مثل: السباحة والرماية وركوب وسائل العصر ونحو ذلك؛ لتعد العدة للمسلم ليكون مؤهلاً للجهاد في سبيل الله. فحتى اللهو في الإسلام، باسم الله، وإعلاء لذكر الله.. وهو لهو لا يشغل المسلم عن قضايا دينه، وقضايا أمته المصيرية.

(2) وهي مسابقات يسعون فيها إلى "تطبيع التعري عالمياً" تحت اسم "الجمال" ويتعمدون نشر ذلك في المجتمعات المسلمة، ومثال ذلك: في عام 1932 اشتركت تركيا في مسابقة لاختيار ملكة جمال العالم، وفازت فيها فتاة تركية، وأعلن رئيس اللجنة بفوزها بكلمة جاء فيها: "أيها السادة أعضاء اللجنة إن كل أوروبا تحتفل اليوم بانتصار النصرانية، لقد انتهى الإسلام الذي ظل يسيطر على العالم منذ 1400 سنة، إن "كريمان خالص" ملكة جمال تركيا تُمثل أمامنا المرأة المسلمة التي لم تخرج إلى الشارع ولا ترى الناس إلا من وراء المشربيات، ها هي تخرج الآن أمامنا "بالمايوه" ولا بد من الاعتراف أن هذه الفتاة هي تاج انتصارنا، ها هي حفيدة السلطان العثماني المسلم تقف بيننا وتطلب منا أن نعجب بها ونحن نعلن لها بالتالي إننا أعجبنا بها. مع كل تمنياتنا بأن يكون مستقبل الفتيات المسلمات يسير حسب ما نريد، فلترفع الأقداح تكريماً لانتصار أوروبا" [كتاب: "حقيقة يهود الدونمة في تركيا"، ص 55، د. هدى درويش]

والحديث عن النفس والمجتمع من صميم النظرية السياسية، فإذا كانت النفس لا تعرف الفراغ، والمجتمع لا بد له من نشاط وحركة.. فالسياسة كذلك وأشد لأن بها (شهوة السلطة والمال)..

وأما **الفراغ السياسي**: فعند التأمل والنظر في بنية الدول الضعيفة بشكل عام، وبشكل خاص في عالمنا العربي الإسلامي.. نجد أن هذه البنية تحتوي على كافة المؤسسات المطلوبة لبناء الدولة القوية الحديثة؛ فنجد الوزرات والهيئات والقوات الأمنية المتنوعة والجيش والثروات والتميز الجغرافي، والأنظمة والتشريعات والقوانين والدساتير والعلاقات الدولية... إلخ، ونجد أن هذه المؤسسات تمارس أقصى سلطة ممكنة على "المواطن المسكين المستكين" وتتوحش عليه بجميع الوسائل الناعمة والخشنة، لدرجة تبدو معها كأنها في منتهى القوة!

ولكن عند البلاء الحقيقي لهذه القوة، نجد أن هذه المؤسسات فارغة، هشة، كأنها بناء كارتوني.. تظهر هشاشتها عندما يحصل غزو خارجي ـ والعياذ بالله ـ أو أي تفاعل سياسي خارج حدودها، إذ إن وحشيتها وسلطتها مصممة بشكل دقيق ضد الشعب المحلي فقط! وللسيطرة عليه، والتحكم فيه، ولا تستطيع أن تمارس هذا الدور خارج حدودها؛ لأنها في الحقيقة لا تملك قوة ذاتية أصيلة. ويمكن أن تستأجرها الدول القوية لتؤدي خدمة خارجية، وهذا دليل الضعف والهشاشة، والخيانة أيضاً.

عندما يحصل غزو خارجي نجد الانهيار السريع لهذه المؤسسات، فالجيش الضخم القوي العظيم إذا به بطل من ورق، وأنظمة الدولة والقوى الأمنية التي كانت تتسلط على المواطن هي أول من يسقط ويستسلم! حتى المؤسسات الدينية لا تؤدي شيئاً ذا بال! نجد حالة من الفراغ التام كأن لم يكن هناك دولة ولا نظام، ويجد المواطن نفسه عارياً من كل شيء، والمجتمع كغثاء السيل. فالجميع فارغ وعاجز!

وقد صَممت الدول العظمى نظم الحكم في بلادنا على هذا النحو، بحيث يُحكم الداخل بقبضة من حديد، ويكون كالريشة في مهب الريح أمام الدول الكبرى والاحتلالية، بل وأمام أي تهديدات خارجية مهما كانت.[1]

ولذا فهم يعملون على تفريغ الوطن وتجريفه من كل عناصر القوة الحقيقية؛ فيدمرون الروابط الاجتماعية، ويطردون الكفاءات الوطنية، ويمجدون كل وغد مخادع.. ويحاربون كل يقظة ونهضة، ويقدسون الرزيلة ويدنسون الفضيلة؛ ويصبح المجتمع كبيت العنكبوت.. يدب فيه الوهن في كل أوصاله ويتفتت عضده.. فلا تجمعه أي روابط ويكون معلقاً دائماً على شفا الانهيار والتفسخ في أي لحظة!

وهذا يُحتم على حركات التغيير العمل على البناء من جديد، والحذر من حالة الهشاشة الداخلية، وفي حال انهيار المؤسسات ـ لأي سبب كان ـ تكون جاهزة بالبدائل وقادرة على الإدارة، والإمساك بزمام الأمور، والاستعداد لرحلة طويلة من البناء والعمل الجاد، وأولها بناء الإنسان الذي سُحقت كرامته وإنسانيته تحت هذا "الحكم الجبري".

***

والحديث عن الوضع السياسي يمكن النظر إليه من منظورين:

الأول: الوضع السياسي الناجم عن صرف مقومات الدولة من (سلطة ومال) في إفساد المجتمع، وتضييع حقوقه ومقدراته.. والسياسة إذ لم تكن في سبيل الرشد، فحتماً ستكون في سبيل الغي، إذ لم تكن في سبيل الله، فحتماً ستكون في سبيل الطاغوت.

---

(1) فمثلاً: كانت الاستراتيجية البريطانية بمصر ـ إبان فترة الاحتلال ـ وحسب كلام اللوردين دوفرين وكرومر (المندوب السامي) هي قولهم: "نحن لا نحكم مصر إنما نحكم من يحكم مصر". و "من يسيطر على الجيش والشرطة والمالية يسيطر على مصر".

الثاني: التنافس على (السلطة والمال) حيث السياسة لا تعرف الفراغ، وحتماً سنجد دوماً من يطمح إلى السلطة، ومستعد لأن يدوس على الدين والوطن والأخلاق والإنسان ويغوص في دماء المسلمين والأبرياء ويعبر في بحور أشلائهم من أجل الوصول إلى السلطة مهما كلف الأمر! ولن يعدم تبريراً في ذلك.. ونقول ذلك حتى يعرف المصلحون أنه حتى بعد صلاح أنفسهم، وإصلاح ما يمكن إصلاحه من المجتمع، والوصول إلى حالة "التشبع الاجتماعي"[1] لن يحصل أبداً أن يقوم المجتمع ـ من تلقاء نفسه ـ بحمل رواده إلى كرسي الحكم والسلطة، ولن يحصل أبداً حالة فراغ لهذا الكرسي تجعل الطريق مفتوحاً ومعبداً لمن يريد أن يتقلد هذا الكرسي! فهذا ضد السنن الاجتماعية، وضد قوانين الاجتماع البشري..

ومن ثم فالوصول إلى كرسي الحكم والسلطة لا يكون إلا من خلال القوة والتدافع (حتى بعد صلاح النفس والمجتمع)[2]، فالباطل إن أراد ـ وهو يريد دوماً ـ الوصول لمراكز الحكم والسلطة لا بد له من أن يتدافع مع قوى الحق والعدل، والحق إذا أراد ـ ولا بد من أن يريد؛ حتى يستطيع التغيير الشامل ـ الوصول لمراكز الحكم والسلطة فلا بد له من أن يتدافع مع قوى الباطل والظلم، ولا مفر من هذا التدافع، ولا محيص عن هذه المعركة.

والوصول إلى مراكز الحكم والسلطة، بالنسبة للمسلمين المؤمنين، ليس غرضه "التنافس على الدنيا" ومتاعها، وليس تحقيقاً وإشباعاً لشهوة السلطة والمال.. فإن كانوا كذلك فليسوا بمؤمنين ولا مسلمين؛ ولهذا جاء التحذير النبوي من التنافس على السلطة أو الطمع فيها (بين المسلمين) فهذه مهلكة عظيمة.

---

(1) انظر مقال: "التشبع الاجتماعي".

(2) انظر درس: "السلمية والعنف" ص 725 من هذا الكتاب.

إنما غرضه: إعلاء كلمة الله، وإتمام عملية الإصلاح الاجتماعي، ومحاربة الظلم والعدوان، وحمل رسالة الله إلى العالمين. ومن ثم فمن تقوى الله عدم الزهد في الوصول إلى مراكز الحكم والسلطة التي تحكمها قوى فاسدة باطلة باغية طاغية، بل هو **غاية كبرى** من غايات المؤمنين، وبلاء مبين، وجهاد عظيم؛ لأن به صلاح الدين والدنيا.. طالما هذا الوصول ليس من أجل الذات أو الحزب بل من أجل الله ورسالته.

***

وعودة إلى "**القضايا الكبرى**" وطريقة تناولها:

في الغرب ينتشر نوع من البرامج الإعلامية السياسية التي يتسم بنوع من الكوميديا السياسية، والسخرية من رجال السياسة، وتحويل الانحرافات السياسية والمعالجات الفاشلة لبعض القضايا إلى مادة للضحك والسخرية، وتلقى هذه البرامج قبولاً جماهيرياً واسعاً، ونسب مشاهدة عالية.

وانتقل هذا النوع من البرامج إلى بلادنا الإسلامية، وصُرفت عليه أموالاً طائلة.. وحظي أيضاً بنسب مشاهدة عالية! ورغم إن هذا النوع من البرامج الخفيفة قد يفضح بعض ممارسات الفسدة والطغاة، إلا إنه ينتهي إلى لا شيء!

فتتحول "مأساتنا" إلى "مادة للضحك"، وتتحول "القضايا المصيرية" إلى "مادة إعلامية خفيفة"، ويتحول "الواجب والعمل" إلى "التسلية والمتعة"! ولا شك في أن هذا عبث لا يليق بجدية الحياة، وجدية الإسلام، واستهلاك فارغ للطاقات والأعمار.

والأمر ذاته يتحول إلى تجارة وإنتاج وورقة ضغط على أنظمة بعينها! وتخضع ـ ولا شك ـ لتوجيه المُمول والمستضيف، كما أن المغالاة في السخرية (والكوميديا السوداء) يجعل الأمر كأنه (تَسمّع للكذب) وإقبال عليه، وانشغال به، وجمع له، والتسلية به.. وطلبه،

ولولا شهرة برامج السخرية السياسية وانتشارها، ما كان لأحد أن يعرف ما يقول به شُذاذ الأفاق ومحترفي الدجل والكذب.

إنَّ للكوميديا سحرها، وخفتها، وسهولة تأثيرها في الجماهير.. ولكن المغالاة فيها، وتحويلها إلى "صناعة" تُدر المال، وتصنع قاعدة جماهيرية اجتمعت على "التسلية والترفيه" بمآسينا ومشكلاتنا وقضايانا لهو عملية تخدير، يساعد الطغاة في إكمال طغيانهم، وإتمام عدوانهم طالما الأمر ينتهي عند الضحك على مظالمنا، والسخرية من أحوالنا، فيتحول ما كان يُفترض أنه أداة للوعي إلى "مخدر سياسي"، ومحرقة للوقت والعمل الجاد.

إضافة إلى ذلك، تطغى المعالجة العلمانية لأحوالنا السياسية، وتمرير بعض الأفكار بعينها.. دون ذكر لله، وكتابه، وشرعه؛ الأمر الذي يُفسد وعي الجماهير، ويمرر له بسهولة بعض الأفكار المسمومة أثناء عملية السخرية السياسية.

إنَّ محاولة الاقتراب من الجماهير، وجذبهم، والتأثير الطيب فيهم، والابتكار في تمرير الأفكار إليهم، والإبداع في الوسائل.. لا يمكن أن يأتي على حساب المادة الإعلامية، ولا على حساب جدية وخطورة أوضاعنا السياسية. وفي الحديث الشريف: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم: "**إِنَّ اللَّهَ جَل جَلاله يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**"[1]

وإنَّ كل علم لا بد من أن ينتهي إلى شعور ونية وعمل.. ولا يمكن أن ينتهي العلم عند الضحك! ولا بد من أن يكون العلم والشعور والنية والعلم "باسم الله" طالما نحن مسلمون له جل جلاله، ومخلصون له الدين.

***

(1) [المعجم الأوسط للطبراني/ 2943]

وهناك من العلمانيين ـ خاصة اليسار ـ من يهتم بالقضايا الكبرى من منظور إنساني خالص؛ يهتم بها، ويُخلص لها، ويخدمها، ويعمل من أجلها، وللأسف يجذبون كثيراً من الشباب المسلم إليهم بحسن عرضهم لهذه القضايا، وعدالتها، وملامستها لواقع الناس وحياتهم.. لكن العلمانية ـ أو اليسار ـ تعرضها مجردة عن ذكر الله دوماً، جاعلة الإنسان هو مركز كل شيء! مُتنكرة لله والغيب والدار الآخرة!

ونحن نشفق عليهم، ونتحسر على الشباب المسلم الذي يظن في طرحهم ونشاطهم صلاحاً للحياة والإنسانية! نشفق عليهم لأنهم يشغلون أنفسهم بقضايا كبرى، وينفعلون بها، ويضحون من أجلها، ويصيبهم من الحزن، والغم، والانشغال، والجهد، والتعب، والنصب، والضنك، والأذى.. دون أن يكون لهم عوض عن ذلك الألم لا في الدنيا (لأنه يكون نشاطاً ضد رغبة الأنظمة الفاسدة في الغالب)، ولا في الآخرة (لأنه ليس "باسم الله").

ف "القضايا الكبرى" في التصور الإسلامي لا بد لها من أمرين:

الأول: أن تكون قضايا كبرى ربانية.

الثاني: أن تكون باسم الله، ابتغاء مرضاة الله.

وفي هذه الحالة عندما ينفق الإنسان نفسه وماله وجهده وعمله ونشاطه ووقته وكل حياته.. فإن له العوض عند الله في الدنيا (بالحياة الطيبة، بالمودة والرحمة، بالسكينة والطمأنينة، بالرضى والتحمل والثبات)، والعوض عند الله في الآخرة (بجنة عرضها السموات والأرض، في حياة سعيدة خالدين فيها أبداً).. ولا يكون هذا الجزاء إلا لمن آمن حقاً بالله واليوم الآخر.

فأي الفريقين أهدى سبيلا، وأقوم قيلا؟

وإنَّ هذا التدافع والمقاومة والجهاد - في معالجة القضايا الكبرى - لهو عبادة مثل الصلاة لا ينفعنا فيها بحق إلا من استقبل قبلتنا، ورفع رايتنا.. باسم الله، الله أكبر. ومن ثم فإن الذين يتفقون معنا في دفع بعض المظالم ويقاومون الاستبداد بينما هم - في ذات الوقت - يسخرون من ديننا، ويعتبرونه رجعية وتخلف، أو في أحسن أحواله ليس له علاقة بحياتنا السياسية والاجتماعية، وهم أصحاب التقدمية والعلمية.. فهؤلاء أبداً لا ولن يكونوا أولياء، مهما بدا للناظرين أنهم "شركاء" في الكفاح.. وذلك بنص الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: 55]

وأن نبذل جهدنا في توسيع قاعدة المؤمنين خير لنا من البحث عن شركاء لا يستقبلون قبلتنا، ولا يرفعون رايتنا.. فهؤلاء مصدر الخبال، والإيقاع، والفتنة، وإفساد التصورات، والنيات بين المؤمنين، وهناك مِن بيننا مَن يجهل حالهم فيستمع لهم، ويتحول إليهم.. قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47]

فاللهم إنا نخلع ونترك من يكْفُرك ويَفجرك ، فلا يستوي المتقين والفجار: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّار. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 28-29]

***

13- فرضيات خاطئة

يقول القائل: مشكلات عالمنا العربي (الفقر، المرض، الجهل، التخلف، الاستبداد، المحسوبية، الفساد... إلخ) ويفترض أنه إذا ـ مثلاً ـ : دعمنا ميزانية البحث العلمي بنسبة كذا من الميزانية، أو خصصنا مبلغاً للمستشفيات الحكومية، أو دعمنا بعض البرامج الاجتماعية للفقراء، أو محو الأمية... إلخ؛ فإن مشكلات عالمنا العربي سيتم حلها، وسننطلق نحو أفاق حضارية جديدة.

وهذه الفرضية خاطئة ـ بل كارثية ـ لأنها قائمة على افتراض غير موجود بالأساس.. فقد افترض المؤمن بهذا التصور، أن هناك "حكومة وطنية" تقوم على شعبها، وتحل مشكلاته، وتواجه تحدياته.. ولكنها (جاهلة أو بها بعض الفساد أو عاجزة أو متكاسلة) عن هذه المشكلات.. فيقوم البعض (فرداً أو حزباً أو جماعة) بتقديم الحلول والمقترحات والبرامج السياسية؛ ثم تكون النتيجة النهائية "**صفراً كبيراً**"، وزيادة رهيبة في معدلات (الفقر، والبطالة، والتخلف، والفساد... إلخ) لماذا؟ لأنه ـ كما قلت ـ الفرضية خاطئة وكارثية، ومن ثم فالحلول القائمة عليها حلولاً غير واقعية، ومحض هراء.

أما **الفرضية الصحيحة**، فهي: إنه لا يوجد "حكومة وطنية" ولا نظام حكم وطني، بل يوجد "عصابات مافيا إرهابية" قائمة على أمرين تقوم بهما على أكمل وأتم وجه: **الأول**: استعباد الشعب واستلاب حريته وكرامته وإنسانيته. **والثاني**: سرقة ثروات ومقدرات الشعب، وإدمان هذه السرقة، وعشق الإفساد.. لمجرد السرقة والإفساد، وليس للحاجة وخوف الفقر، وإنما هي طبيعة خبيثة فيهم تقوم على السرقة المستمرة والإفساد الدائم، والتسلط المريض على الضعفاء، والهوس والجنون بالسلطة.. وازدراء كل من هو دونهم ـ وخاصة المتدينين من الأمة المسلمة؛ لأنهم علمانيون تابعون للمحتل الغربي في كل شيء

ووكلائه ـ والفتك بكل من "يفكر" أو "يجرب" محاولة الإصلاح الجذري، ومحاولة رد الناس لدينها رداً جميلاً.

فالمفسدون لا يُصلح الله أعمالهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 81]

وما يُغرر البعض هو "لعبة الحسابات السياسية والتوازنات" التي تفرضها الظروف السياسية العالمية، وهناك بعض الأمور الإيجابية الحسنة التي تقوم بها هذه الأنظمة، وتقوم بها ربما بسبب الغرور وشعور العظمة فتقرر من تلقاء نفسها منح الشعب مكرمة ـ مثلاً ـ وربما تقرر كذلك سرعة معالجة بعض المشكلات للتخفيف والتنفيس على الشعب قبل أن يتذمر أو يثور، فما قد يبدو صلاحاً فليس من أجل الإصلاح، إنما يكون له أغراض أخرى. وجميع الحسابات ـ في موازين الأنظمة الباغية المجرمة ـ قائمة على مبدأ "الحفاظ على السلطة والعرش" وإن كانت هذه الحسابات تتطلب ـ مثلاً ـ دعم البرامج الدينية، فليس من أجل الدين.. إنما حالة أملتها ظروف وسياقات معينة، فلا يغتر أحد ببعض التصرفات التي قد تبدو خيّرة وإيجابية، ولا يدرك البواعث من ورائها.

ومن ثم.. فمحاولة الدخول فيهم والمسارعة إليهم هو اقتحام لمستنقع آسن خبيث (في الدنيا)، واقتحام للنار (في الآخرة) عندما يتلوث بهم، ويصبح منهم! إلا أن يكون هناك عذر لمن يريد أن يأتي بخبر القوم، ويفهم الديناميكيات التي تُحركهم، وما هي أفضل وسيلة لإصلاح إفسادهم ومنع طغيانهم.

ولا ننكر أن هناك داخل هذه الأنظمة عناصر طيبة مخلصة، تريد الإصلاح ما استطاعت، وهذه يستفيد منها النظام في إثبات شرفه ووطنيته وطهره، ثم بعد ذلك يتخلص من هذه العناصر الطيبة بكل وحشية! فلا يطيق أن يتحمل وجود الشرفاء طالما لا يؤدون دوراً وظيفياً له.

والأمر أشبه بمريض يشتد مرضه كل يوم، ويوجد حوله أفضل الأطباء في العالم، وأجود أنواع الأدوية الناجعة.. لكن القَيِم عليه والمتحكم فيه يمنع عنه الطبيب والدواء! ثم يخرج في كل محفل يبكيه ويتحسر عليه ويلومه، بينما المتحكم فيه هو "الخائن المفسد العنيد"!

فهكذا هو حال هذه الأمة المريضة التي يشتد مرضها كل يوم، ولديها أفضل العقول، وأتاها الله من كل شيء، لكن الحاكمين لها يبكون ضعفها، بينما هم يحاربون العقلاء والمصلحين، ويُخرّبون ويسرقون ثرواتها ثم يلومونها في النهاية..

فهل من المعقول أن نأتي نتحدث عن المريض وآلامه ومشكلاته (بينما حوله الأطباء والدواء)، ولا ننتبه إلى المتحكم فيه "الخائن الفاسد"؟! فهذا مضيعة للوقت، واستغفال للعقول، وزيادة في المرض!

لذا، فمن العبث محاولة مقارنة الحكومات الوطنية في البلدان الغربية - مثلاً - بحكومات عالمنا العربي، ومحاولة استيراد الحلول من هناك! فحكومات البلدان الغربية، حتى ولو وقع فيها المحسوبية والفساد في بعض الجوانب، فإنها تظل "وطنية" حريصة على مصلحة الوطن، والشعب[1].. بعكس "عصابات المافيا" التي تُفسد بمنتهى الغل، والبغض للوطن، ولشعب الوطن.. ولهذا تبدو "المحاولة الإصلاحية" ها هنا ضرباً من العبث، ومحاولة تنتهي إلى استباحة الدماء، والقتل العشوائي لكل مُعترض - ولو بالكلمة - والإرهاب الممنهج للشعب حتى لا يفكر - مجرد تفكير - في إعلاء صوته والمطالبة بحقوقه.

"وقد يسمح الغربيون بدولة ماركسية، وقد يسمح الشيوعيون بدولة ليبرالية، ولكن لا هؤلاء، ولا أولئك يسمحون بدولة إسلامية صحيحة.

(1) وهناك حالات كثيرة تتدخل فيها عصابات "يهود" لتمارس إدمانها في الإفساد في الأرض، وكذلك مصالح العائلات الكبرى، وتكون بطبيعة الحال ضد مصالح الوطن والمواطنين.

وحين تقوم حركة إسلامية ناجحة، يُخشى أن تتحول إلى دولة، سرعان ما توجه إليها قوى الكفر ـ العالمية والمحلية ـ ضرباتها المحمومة، من تشريد وتجويع وتعذيب وتقتيل، وتشويه وتمويه، ولا تكاد تفيق من ضربة حتى يُباغتوها بأخرى، لتظل دائماً في شغل بآلامها عن آمالها، وبمتاعبها عن مطالبها، وبجروحها عن طموحها"[1]

"إنَّ العالم الإسلامي يمر بفترة مشئومة من تاريخه الطويل وليست الصهيونية والصليبية أعدى أعدائه، إن أعداءه في صميم أرضه، إنهم بين ظهرانينا صنعهم الغزو الثقافي لينشئوا أمة لا خلق لها ولا إنتاج، لا عقيدة ولا شريعة، لا تراث ولا مستقبل، إنهم يلبسون ثوباً عربياً على كيان أجنبي، ويوشك مع الأيام أن يخلعوا الثوب ويكشفوا المخبوء."[2]

فالنظم الحاكمة في بلادنا ساقطة الشرعية.. سواء الشرعية الإسلامية، أو الشرعية الوطنية، فهي أنظمة خائنة لدينها ولأوطانها، وهي تابعة للمُحتل الذي أنشأ هذه الدول، وقسمها ووضع لها دستورها وأعلامها ونظم حكمها وقوانينها.. وتحولت هذه الأنظمة إلى "عصابات مافيا" ـ أو هي هكذا منذ اليوم الأول ـ تسترق الشعوب وتستعبدهم.. فتسرق حقوقهم وثرواتهم، وتُهين كرامتهم وإنسانيتهم..

فلا هي تكتسب شرعيتها (الإسلامية) من الدفاع عن الدين والأمة، ولا هي تكتسب شرعيتها (الوطنية) من الدفاع عن الوطن والحفاظ على ثرواته وتحقيق رفاهية وحقوق مواطنيه.. بلا على العكس من ذلك، فهي **"أنظمة مُعادية"** على كل الأصعدة، مُعادية للدين ـ الذي يلَعن ويُعلن الحرب على ظلمها وبغيها وعدوانها ـ ومُعادية للوطن الذي تسرق ثرواته، وتَستعبد مواطنيه.

وهذه الأنظمة جمعت كل **صفات المنافقين** المذكورة في القرآن الكريم، ومنها:

(1) [كتاب: من فقه الدولة في الإسلام، الشيخ يوسف القرضاوي، ص 20]

(2) [كتاب: الحق المر - الشيخ محمد الغزالي ج5، 171]

1- **الإفساد في الأرض:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة (11، 12)]

2- **الاستكبار والغرور:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة (13)]

3- **الدجل والرياء والكذب:** ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة (14)]

4- **التولي عن الدفاع عن الأمة ومجاهدة أعدائها:** ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران (167)]

5- **موالاة الكافرين والتماهي معهم:** ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء (138، 139)]. ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة (52)]

6- **إرادة الفتنة وإفساد صفوف المؤمنين وخيانتهم:** ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة (47)]

7- **الفرح في مُصاب المؤمنين:** ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة (50)]

8- **الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والصد عن شريعة الله:** ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة (67)] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 61]

9- **الشح والبخل على المؤمنين ونقض العهود:** ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة (76، 77)]

10- **انغلاق قلوبهم عن تدبر آيات الله والاهتداء بها:** ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة (124، 125)]

***

ورغم أن هذا الطرح ليس جديداً ـ ومكرراً ـ إلا إنه يجب أن لا نمل من تكراره؛ حتى يتأكد لنا طبيعة هذه العصابات الحاكمة، ونمط تفكيرها، ومحدداتها الفاسدة.. إنهم أسوأ من حالة "فرعون" المذكورة في القرآن الكريم، فهذا الفرعون شَيّد حضارة، وظهر في الأرض بإنجازاته! ودافع عن شعبه ضد الغزاة، ولكنه أوردهم النار بكفره بالله، ومحاربته رسل الله ـ عليهم السلام ـ أما العصابات الحاكمة في بلادنا فإنها شيدت الفقر، والذلة، وقهر الشعوب، ورحبت بالغزاة، بل هم "الكلاب المسعورة" التي تركها الغزاة؛

لذا؛ فإن الإصلاح هنا لا يمكن أن يكون من خلال البحث عن: ميزانية للبحث العلمي، أو التمثيل الديمقراطي، أو معالجة الفقر! فكل هذه مُلهيات عن مواجهة "**جذور المشكلة**" الحقيقية، وهي التخلص من هذه العصابة واقتلاعها من جذورها الخبيثة التي ثمارها رؤوس الشياطين من الإنس؛ التي تَعد الناس "الفقر والفحشاء".[1]

***

ومن ثم فالفرضيات الخاطئة أنواع ودركات:

النوع الأول: وهو الذي يبارك عصابات المافيا ويمنحها الشرعية الوطنية والإسلامية! وهؤلاء هم دجاجلة كل عصر.

النوع الثاني: وهو الذي ذكرناه أعلاه، والذي ينطلق ـ على حسن نيته ـ من فرضية خاطئة، محاولاً الإصلاح، دون إدراك لواقع هذه الأنظمة، ودون معرفة طريقة المواجهة الصحيحة معها.[2]

النوع الثالث: وهو الذي يركز على "المصلحة الوطنية" فقط، دون إعلاء لكلمة الله، وسيادة شريعته، ومن الجدير بالذكر أن عصابات المافيا الحاكمة تحارب "الوطنيين" لأنهم ضد إفسادهم وسرقاتهم، وإذا كان هؤلاء الوطنيون (يعملون من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا) فهي الحرب التي لا هوادة فيها، ولا هدنة، ولا صلح، بل "الإبادة الشاملة".

وجدير بالذكر أن التعددية السياسية والحزبية لا وجود لها في عالمنا العربي فهي إما ملكيات مطلقة، أو ديكتاتوريات عسكرية، ومن ثم فمجالس الشورى، والانتخابات هي

(1) انظر مقال: "الإسلام.. ومشكلات العلمانية".

(2) انظر مقال: "نخ المعارضة".

مجرد مسرحيات هزلية فقط! فحتى مع الرغبة في الانطلاق من فرضيات خاطئة (مع أمل الإصلاح، وحسن النية) فهو غير متاح أيضاً![1]

وعلى أي حال، هل ـ من الناحية الشرعية ـ يجوز المشاركة فيها؟

يقول الشيخ القرضاوي (رحمه الله) في سؤال: "هل يجوز للفرد المسلم الملتزم، أو للجماعة المسلمة الملتزمة المشاركة في حكم غير إسلامي؟ سواء أكان هذا الحكم مدنياً أم عسكرياً؟ ملكياً أم جمهورياً؟ ديمقراطياً أم دكتاتورياً؟ ليبرالياً أم اشتراكياً؟ علمانياً صريحاً أم متستراً برداء الدين ظاهرياً أم بين بين؟، ومعنى المشاركة في الحكم: تحمل بعض المسؤوليات السياسية، مثل منصب الوزير أو المحافظ، أو غير ذلك مما له صفة سياسية" فأجاب:

"الشروط التي لا بد منها للمشاركة:

ومن اللازم: أن تتوفر شروط لا بد من وجودها، لإجازة المشاركة شرعاً، **وإلا عاد الحكم إلى أصل المنع.**

أولها: أن تكون **ثمة مشاركة فعلاً لا قولاً ولا مجرد دعوى،** فلا يكون المشارك محض آلة في يد غيره، ينفذ به الحاكم الفعلي ما يريده هو، وليس لديه صلاحيات أو اختصاصات معقولة، تجعله قادراً على أن يقيم العدل، ويطارد الظلم، ويحق الحق، ويبطل الباطل، في دائرة اختصاصه، ولو بصورة جزئية، وإلا لم يكن لمشاركته معنى ولا أثر.

(1) يُظهر "مؤشر الحرية" التابع لمؤسسة "فريدم هاوس" ـ الذي يقيس درجة الحريات السياسية، والحريات المدنية، ومدى الحرية التي يتمتع بها الأفراد ـ أن الدول العربية التي تنعدم فيها الحرية تماماً (سوريا، السودان، السعودية، الصومال، ليبيا، اليمن، البحرين، مصر، الإمارات، فلسطين، عُمان، قطر، العراق، الجزائر، الأردن) والتي تنعم بحرية جزئية (موريتانيا، المغرب، الكويت، لبنان، تونس)!

ثانيها: **ألا يكون الحكم موسوماً بالظلم والطغيان**، معروفاً بالتعدي على حقوق الإنسان، فإن المطلوب من المسلم الملتزم بالنسبة إلى هذا الحكم: أن يقاومه ويغيره بما أمكنه من وسيلة، بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

إن المطلوب من المسلم الملتزم إزاء هذا الحكم: أن يقاومه ويغيره لا أن يدعمه ويشارك فيه.

ولو أن سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ طلب منه فرعون ـ الذي علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ـ أن يجعله لديه مكيناً أميناً، لرفض ذلك، ولم يسأله أن يجعله على خزائن الأرض، فقد كان ملك مصر في عهده غير فرعون في عهد موسى.

ومن هنا لا يجوز للمسلم الملتزم ولا للجماعة المسلمة الملتزمة: أن يشاركا في حكم دكتاتوري متسلط على رقاب الخلق، سواء كان حكم فرد مطلقاً، أم حكماً عسكرياً متعسفاً. إنما تكون المشاركة في حكم يقوم على الديمقراطية، ويحترم مقدرات البشر.[1]

ثالثها: **أن يكون له حق معارضة كل ما يخالف الإسلام مخالفة بينة**، أو على الأقل التحفظ عليه. فالوزير قد يقيم العدل الممكن في وزارته، ولكنه يطلب منه في مجلس الوزراء باعتباره واحد منهم: أن يوافق على قوانين أو اتفاقيات أو مشروعات، مخالفة لقواطع الإسلام، فهنا يجب عليه أن يعترض أو يتحفظ بقدر نوع المخالفة وحجمها.

وهناك مخالفات شديدة الخطر، بعيدة الأثر، كبيرة الحكم، عظيمة الجرم، فهذه لا يكفي فيها التحفظ ولا الاعتراض، بل يجب الانسحاب من الحكم، ولا يسجل التاريخ على المسلم أو الجماعة المسلمة: الموافقة على هذا الإثم المبين.

(1) يقصد ـ رحمه الله ـ وجود تعددية سياسية حقيقية، وانتخابات حرة نزيهة، ويقصد بالديمقراطية (الشورى، والرقابة، والمحاسبة) كما بيّن في كتابه، فهو لا يقر بفلسفتها وإنما بعض آلياتها.

وأوضح مثال على ذلك: الاتفاق مع إسرائيل، والاعتراف بما اغتصبته من فلسطين، وترك القدس لها لتعلنها في كل مكان وزمان: أنها العاصمة الأبدية الموحدة لدولتهم...

رابعها: **أن يُقوِّم المشاركون في الحكم تجربتهم بين الحين والحين.** ويخضعوها للاختبار والمراجعة، ويتبينوا: هل استفادوا من التجربة أو لا؟ هل حققوا ما ينشدون من إقامة العدل والمصلحة، وإلى أي مدى؟

وقد تؤدي هذه الدراسة إلى ترجيح الانسحاب من المشاركة أو الاستمرار فيها"[1]

***

وعندما يتمسك البعض بـ "الحل الديمقراطي وصندوق الانتخاب والحق الدستوري والقانوني" كحل أوحد لا سبيل غيره ـ وكلها أوهام وأكاذيب ودجل طالما كانت في ظل أنظمة وحشية قمعية خائنة لأوطانها ودينها ـ فإن هذا العمل يتحول إلى "**محرقة للطاقات**" حتى وإن كان أصحاب هذا الحل على الصعيد الاجتماعي والتربوي والخدمي في القمة.. ولكنهم "**محرقة سياسية**" بامتياز.. تنتهي حتماً إلى التيه والهلاك، ويصبحون مجرد "ورقة" (تلعب) بها الأنظمة الفاسدة الباغية متى شاءت، و(تمزقها) متى شاءت.

ومثال ذلك: إذا تحرك الشارع ووقعت مظاهرات واعتصامات واضطرابات ونحو ذلك، يتم نقل هذا التسخين إلى البرلمانات ليحصل التبريد المطلوب.. (فتسمح الأنظمة الفاسدة بانتخابات نزيهة، وتمتنع عن التزوير)؛ فيدخل طيف من التيار الإسلامي للبرلمان، وبذلك يبرد الشارع! وإن كان الشارع بارداً ساكناً، يتم حل البرلمان وطرد الإسلاميين، وإعادة الانتخابات المزورة، واعتقالهم، ومحاصرتهم.. ومن ثم فلا وزن سياسي لهم، ولا صلاحيات حقيقة لهم!

(1) [فصل: "المشاركة في حكم غير إسلامي" من كتاب: "من فقه الدولة في الإسلام"، الشيخ يوسف القرضاوي، ص 242]

مجرد لعبة توازنات ومواءمات تجيدها الأنظمة الفاسدة الخائنة، ويسقط في شراكها السفهاء!

ولا يوجد ـ في عالمنا العربي ـ مقاربات أمنية وأخرى سياسية، فلا يوجد ابتداء تعددية تسمح بوجود مقاربتين في نفس الوقت، إنما هو قرار واحد، وهو: القضاء على أي تهديد أو معارضة يمس جانب النظام، ومحاربة أي محاولة للإصلاح، خاصة الآتية باسم الإسلام أو التيار الإسلامي..

وما يسمى "مقاربة سياسية" ما هي إلا عملية تجسس ناعمة، حيث يمد النظام الفاسد يده إلى بعض القيادات الإسلامية! عن طريق بعض المقربين المدربين على التجسس فيحصلون على جميع المعلومات بالمجان، دون كبير مجهود! أو يُقرب هؤلاء الذين يريدون المصالحة عندما يشعر بوجود تيار قوي يطلب الحلول الجذرية الحاسمة ويرفض الدخول في هذا التيه والهلاك! بينما تظن قيادات المصالحة والتوافق أن هناك انفراجة قريبة أو أن هناك تيارات متعددة داخل النظام إحداها أمنية وأخرى سياسية! وهم يرحبون بالأخيرة، ويحكمون بالفشل على الأولى.. بينما النظام يتلاعب بهم جميعاً، ويسحبهم إلى خديعة "الحلول السياسية والوعود المكذوبة"!!

هذا غير محاولات الاختراق الفكري وتحويل التيار الإسلامي عن مساره الصحيح ليتم احتواءه والسيطرة عليه فكرياً وأمنياً. وإنها لمأساة كبرى، وإنه لتيه بعيد!

وتهدف الأنظمة الباغية ـ بجميع أجهزتها ـ إلى وضع الحركة الإسلامية ـ والتيار الإسلامي ـ في حالة دائمة من "الاستضعاف المميت" الذي تظل فيه في مرحلة "المحنة والهوان والاستجداء" حتى لتخرج أجيال تلو أجيال من أبناء الحركة الإسلامية يظنون أن هذا هو قدرها الأبدي المحتوم!

وتحاول الأنظمة الخائنة أن تلعب على ثلاثة محاور:

الأول: الاختراق الفكري للتيار الإسلامي من خلال جعل الاستضعاف والذلة والتموضع داخل هذه الأنظمة الخائنة هو: الحكمة البالغة، والرشد التام، والمنهج القويم، ونهج القيادات التاريخية، والحفاظ على مؤسسات الدولة، ومن ثم العمل على حقن التيار الإسلامي بهذا المفهوم، وتقريب وتصدير القيادات التي تؤيد وتبارك هذا النهج؛ لتعمل على طرد وتقويض أي محاولة للخروج من هذا الاستضعاف المميت، وإن خرج البعض وحاول تحصيل القوة، فيعملون على شغله وإرباكه وعزله عن قاعدته الاجتماعية بزعم الترويج للفكر التكفيري، وإثارة القضايا الخلافية لتفخيخهم من داخلهم.

الثاني: وهو الترهيب للجميع ـ بلا استثناء ـ لزرع اليأس والخوف والرعب في قلوب أبناء المسلمين، وقياداتهم وأسرهم ومحبيهم، بالاعتقال والتعذيب والاغتصاب ومصادرة الأموال ومطاردة الفارين بدينهم. واغتيال ومحاصرة القيادات الراشدة التي تستطيع أن تقود التيار الإسلامي إلى سبيل العزة والتمكين.

الثالث: وهو الترغيب، وليس بالعادة الترغيب هنا بشراء القيادات وخيانتها، وإنما ترغيبها بالعمل السياسي السلمي، والعمل البرلماني، والفكر الإصلاحي التوافقي، والإفراج عن المعتقلين، والسماح بالنشاط الدعوي والخيري في خطوط محددة؛ وإدخالها في هذه الدائرة التي تدور بهم في تيه لا نهاية له، ولا خروج منه.. سراب وراء سراب، وخديعة وراء خديعة حتى ينتهي الجيل، ويأتي جيل جديد يلعبون معه نفس اللعبة بنفس الطريقة!

ويستخدمون هذه الأساليب الثلاث بطريقة متوازنة ـ حسب الحالة التي أمامهم ـ بحيث تضمن التحكم في الجميع، والله من ورائهم محيط.

وبذلك يجعلون الحركة الإسلامية أمام خيارين لا ثالث لهما.. **الأول**: السحق والإبادة، مع العمل المتقن المُمنهج على سلبها حقها في الرد والثأر والقصاص والتدافع

الذي يكبح جماح العربدة والطغيان والاستكبار والغرور بالقوة، ويجعلون هذا الاستسلام والانسحاق المهين المذل هو قدس أقداس العمل السياسي وشرطه الأساس!! وقد كان في "القصاص" حياتها وقوتها وتقواها: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179]

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194]

ولو ثأرت الحركة الإسلامية لعشر معشار العشر مما لحق بها من أذى وضر وعذابات لكانت في منطقة أخرى تماماً غير منطقة "الاستضعاف الأبدي" والذلة والمسكنة التي ضربت كل جنباتها، وهو ثأر للرب والدين والأمة.. وليس للذات.

والثاني: جعلها "جماعة وظيفية" دورها تحمي وتشارك وتعطي الشرعية للأنظمة الباغية أو تصرف الناس عن مقاومتها، أو تشغلهم بما لا ينفع في دين ولا دنيا، وتتحول بمرور الوقت إلى "محرقة للطاقات والأجيال".

وحينها تكون الحركة الإسلامية وقيادتها أمام منعطف تاريخي، إما أن تعيد إنتاج الفشل بالتموضع داخل الأنظمة السياسية الباغية، وأما أن يكون لها رؤية تغييرية ثورية صلبة، تستهدف القضاء على الفاسدين والظالمين.. وتمسك بزمام السلطة دون بغي أو عدوان.

وعلى قدر التجرد والإخلاص، والاستمساك بكتاب الله.. تكون المنح الربانية، ويكون النصر والتمكين.

***

وحتى نسلك الطريق الصحيح، يجب أن نتحرك على أساس "**فرضية صحيحة**"، ومن أجل سعادة الدنيا والآخرة، فنمضي لتكون كلمة الله هي العليا، ولشريعته السيادة، ولأمته السلطان والحكم، فنكون **أولاً**: (مسلمين) يقيمون شريعة ربهم. **وثانياً**: (وطنيين) يحبون أوطانهم، ويبتغون لها القوة والسيادة والعزة والتمكين.. سالكون في ذلك سبيلاً رشدا، بنية خالصة لوجه الله الكريم.

***

14- الاستقرار السياسي

قال تعالى:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ. إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 1-4]

﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ. وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ. وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ. أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: 57-61]

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما طلبت قريش من عمه أن يكف عن دعوته: **«يَا عَمُّ، وَاَللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ»**[1]

كانت قريش ـ إبان بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ـ أشرف القبائل، وأعزها مكانة ورفعة، وامتن الله عليهم بالاستقرار السياسي، إذ توفر لديهم (الأمن الغذائي) ومقومات الحصول عليه من التجارة جهة اليمن شتاءً، وجهة الشام صيفاً.. وأمنت طرق تجارتهم،

(1) [«سيرة ابن هشام ت السقا» (1/ 266)]

وتوفر لديهم (الأمن الوطني السياسي) فلا يستخف بهم أحد ولا يدهمهم أحد.. وكانت الكعبة المشرفة وحرمها مركزاً لهذا الأمن.

والاستقرار السياسي نعمة عظيمة؛ يتحقق بها الاستقرار النفسي والاجتماعي، والنهضة التجارية، والرفعة بين الأمم.. وقوام أي استقرار سياسي: هو (الأمن الغذائي) حيث تأمين حاجات الناس الأساسية من الطعام والشراب. و(الحماية القتالية) حيث تأمين حياة الناس من العدوان والسلب والنهب والاغتصاب.

وضد الاستقرار السياسي هو الفوضى والتفكك. والفقر والعدوان يضربان الاستقرار السياسي في مقتل، فالفقر: يفكك التماسك الاجتماعي، ويُضعف القيم الأخلاقية، ويتحلل الناس فيه من القوانين والضوابط، ويغريهم بالعدوان بعضهم على بعض. والعدوان ـ سواء من الداخل أو الخارج ـ يُغرق الناس في الهرج والمرج والفتن، ولا يدري المقتول فيما قُتل، وقدر حذر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذه الحالة؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ، وَلَا يَدْرِي الْمَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ.**»[1]

والفقر المقصود هنا ـ الذي يضرب الاستقرار السياسي ـ ليس هو مجرد وجود بعض الفقراء المتعففين القانعين في المجتمع، بل المقصود هو انعدام الأمن الغذائي بصورة جماعية بحيث يصبح حالة عامة، ولا يستطيع المجتمع ـ بكافة مكوناته وتشريعاته ـ أن يعالج حالة الفقر.. الذي يدفع الناس إلى البحث عن الطعام بأي وسيلة، حتى ولو كانت السلب والنهب والقتل.

هذه الحالة من (الجوع والخوف) تزلزل المجتمع، ومن وراءه أي نظام سياسي، ويصبح الأمر فوضى لا ضابط لها.. وإن لم يقع العدوان من الداخل، فإن العدو المتربص

(1) [صحيح مسلم/2908]

ـ من الخارج ـ سيجدها أفضل فرصة للهجوم والفتك والعدوان والاستعباد. وهو من جانب آخر قضاء إلهي لمن يكفر نعمة الله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112]

ومازال سلاح (الجوع والخوف) يُستخدم إلى يومنا هذا في تدمير المجتمعات والدول المسلمة ـ وغير المسلمة بشكل عام ـ حيث يضمن العدو التحكم في الأمن الغذائي للدول الضعيفة، ويجعلها في حالة من العوز الدائم، والضعف المستمر حتى لا تستقل غذائياً، ولا تستقل اقتصادياً من خلال إضعاف اقتصادها وعُملتها، وتكبيلها بالديون الربوية المستمرة، ولا تستقل عسكرياً فتكون ضعيفة أمنياً من كافة الجوانب بحيث تظل تابعة خانعة للدول القوية..

والدول المركزية الكبرى ـ في عدونها على الأمة المسلمة ـ تضبط استخدام سلاحي (الجوع والخوف) بصورة دقيقة.. بحيث لا يصل الأمر إلى الفوضى السياسية، التي قد تهدد ترتيبات ومصالح وتوازنات الدول الكبرى.. فهي تستخدمه بالقدر الذي يضمن "الذلة والتبعية والهيمنة" وتحافظ به على استقرار الأنظمة السياسية العلمانية التابعة والخانعة لها. واستقرار هذه النظم الباغية في بلادنا هو بمقدار ما يسمح به العدو من "استقرار سياسي" لهم!

***

فما هي موازين "الاستقرار السياسي" في التصور الإسلامي؟

إنَّ الله ـ جل جلاله ـ إذ امتن على قريش وأهل مكة بنعمة الأمن والاستقرار والرفاهية ـ التي تأتي بأطيب الثمار ـ والرفعة السياسية بين القبائل الأخرى؛ هذه النعم الدنيوية العظيمة كان واجب شكرها اتباع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإيمان برسالته ودعوته..

وانتهاز فرصة ونعمة "الأمن والاستقرار" وما تبعها من استقرار نفسي ومجتمعي.. في نصرة الرسول والإيمان به، وتصديقه، وحمل رسالته: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.. ولكن قريش ـ وأشراف مكة ـ كفروا نعمة الله، وكفروا نعمة الرسالة، وحاربوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم!

فلماذا حاربت قريش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو من أشرف قبائلها، وعرضت عليه كل وسائل الإغراء من سلطة ومال ونساء! وودت لو يُدهن قليلاً لها: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: 9]؟!

حاربت قريش النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنها أدركت مدلول دعوته من أول كلمة قالها: "لا إله إلا الله"؟ فمعنى ذلك ـ بكل تأكيد ـ أنه لا سيادة ولا حكم ولا ربوبية ولا سلطان إلا لله.. واتباع كتابه، وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن ثم تسقط شرعية الثلاثمائة وستون صنماً الذين كانوا حول الكعبة؛ وما تفرع عن شرعية هذه الأصنام من أوضاع: سياسة واجتماعية واقتصادية وثقافية ودينية.. وتنتهي كلها هذا الشرعيات بكلمة واحدة "لا إله" نفي مطلق.. وإثبات مطلق "إلا الله"، ومن ثم فما على قريش ـ وبقية الناس ـ سوى الانخلاع التام والبراءة التامة من كل ما يمت لهذه الأصنام ـ والأوثان ـ بنظام حياة أي كان لونها ونشاطها ومجالها، والدخول في العبودية الخالصة لله الواحد القهار.. وظنت قريش من وراء هذه الدعوة أن فيها القضاء على امتيازاتها ونمط حياة وأوضاعها وشرفها لصالح هذا الدين الجديد، هكذا زَين لهم الشيطان سوء أعمالهم! فقد وعدهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن هذا الكتاب وهذا الدين فيه ذكرهم، وسيكون مصدر العزة والسلطان، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

ولكن مضت قريش في غيها وطغيانها، وفشلت محاولاتها في استقطاب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لاقتسام السيادة معهم، والقبول بهم، ومداهنة آلهتهم وأصنامهم

وأوضاعهم في مقابل العيش المشترك معاً.. ولكن هيهات! إنها دعوة إلهية ربانية عالمية، وليست تقاسم أشياء من حطام الدنيا.

ومن ثم.. (من الناحية الاجتماعية والفردية) أيهما أولى: الاستمساك بالوضع الحالي حيث الأمن والاستقرار والرفاهية المكية القرشية، وتسفيه هذا الذي يزعم أنه نبي؟!! أم التضحية بهذا الاستقرار والأمن والرفاهية في سبيل التصديق به واتباعه؟!

إنَّ هذه النعم الدنيوية ـ أياً كانت ـ لا تساوي شيئاً في ميزان الله إنْ كفر العبد بالمُنعِم بها ـ سبحانه وتعالى ـ بل تتحول إلى مُلهيات عن الالتفاف إلى الحقائق الكبرى في هذا الوجود. فبطر العيش ومتاع الحياة الدنيا ليس هو الغاية من الحياة!

وإنَّ الميزان الحقيقي للحياة هو الممتد من الدنيا إلى الآخرة، والمُعبر عنه اختصاراً وإجمالاً بـ (الإيمان بالله واليوم الآخر)[1]، حيث تهدف رسالة الله إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وليس مجرد لحظة تاريخية عابرة ينعم فيها ببعض الأمن والاستقرار والرفاهية ثم يمضي إلى غضب الله وعذابه ـ إنْ كفر به والعياذ بالله ـ ومن ثم فـ "الاستقرار السياسي" الذي يهدف إلى تحقيق السعادة الإنسانية هو في التصور الإسلامي: **الاستقرار الذي يضمن أولاً نجاة الإنسان في الآخرة، ولا تكون هذه النجاة متحققة إلا من طريق واحد: الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، واتباعه شريعة الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.**

ولذا، فإن هذه النعم الدنيوية التي كانت تتمتع بها قريش، والتي عرضتها كلها على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سبيل التخلي عن هذه الدعوة.. لم تكن شيئاً في ميزان

(1) ولهذا أخذت مشاهد الآخرة هذا الحيز الكبير والمتنوع في كتاب الله، حتى صارت كأنها اللحظة الحاضرة، والدنيا كأنها ماض فات! وهذا هو جوهر "الفلسفة السياسية" في التصور الإسلامي.

الله، وفي ميزان رسوله - عليه الصلاة والسلام - بل لو كانت هذه النعم هي أن يضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره! لأن كل ذلك زائل، وما عند الله خير وأبقى.

ولقد واجه إبراهيم - عليه السلام - قومه، وهم يحاجونه في استقرار أوضاعهم وأمنهم وحضارتهم: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ. وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 80-82]

فكان "مفهوم الأمن" في التصور الإسلامي هو للذين آمنوا، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أو شرك أو عدوان أو طغيان أو باطل أو بغي.. أولئك لهم الأمن النفسي والاجتماعي والسياسي، وهم مهتدون سائرون على نور من الله ورضوان.

ومن ثم.. فالأمن والرفاهية والاستقرار والنعم الدنيوية كلها لا تعطي وحدها "الشرعية" في الاستقرار السياسي، بل لا بد من **"استقرار الإيمان"** أولاً وتَمكنه من قلب الإنسان، وحياته، وروحه، وفكره، وشعوره.. بحيث ينبثق منه كل نشاط في الحياة.

إذن.. فهل يدعو الإسلام إلى "الفوضى السياسية" و"الفتن الاجتماعية"؟!

لطالما اتُهمت دعوة الله من قِبل الطغاة والفراعين والمفسدين بهذه التهمة التي تُنفر الناس من دعوة الله، ومن نجاة الإنسان في الدنيا والآخرة.

قالها فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ. وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 26-27] فدعوة موسى - عليه السلام - في موازين

فرعون هي ضرب لاستقرار النظام السياسي الفرعوني، ومؤسسات الدولة القائمة، وتدمير للحضارة الفرعونية.

وقالها قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما حطم أصنامهم وما ينبثق عنها من نظم سياسية واجتماعية: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 59] فكان تحطيم الآلهة المزعومة هو الظلم في موازين الكافرين!

وقالها قوم شعيب ـ عليه السلام: ﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87] فدعوة شعب ـ عليه السلام ـ في موازين قوم مدين هي ضرب للاستقرار الاقتصادي والتجاري.

وقالها قوم لوط ـ عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: 82] فدعوة لوط ـ عليه السلام ـ كانت ضربة لاستقرار الفواحش والإباحية، وأما الذين يطلبون التطهر ـ ويتمسكون بالفضيلة ـ لا مكان لهم ولها في مجتمعنا! فاستنكروا واستهزئوا بدعوته! فالطهر والفضيلة مرض بموازين قوم لوط!

وهو نفس ما يقوله الطغاة اليوم.. إنهم ينظرون إلى دعوة الله على أنها تهديد لاستقرارهم السياسي حتى ولو كان هذا الاستقرار على الضعف والذلة والهوان والتبعية الكاملة للعدو والفساد والظلم والفواحش والربا والنفاق، ويتهمون الدعاة إلى الله وكتابه وشريعته وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنهم مصدر للفتن، وينشدون الفوضى، ويحاول الطغاة والفسدة من كل طريق أن يمنعوا الناس عن الاستماع إلى دعوة الله بتخويفهم بأن الدعاة إلى الله مجرد سفهاء لا يفهمون السياسة، ولا يعرفون التوازنات الدولية، ويريدون تدمير الدولة ومؤسساتها.. وإنْ استجاب لهم الناس أو حكموا فسوف يجلبون البلايا والرزايا على البلاد والعباد، ويضربون أمثلة مُضلة لذلك؛ ليزهد الناس في

دين الله، ويستسلمون للوضع الحالي بحجة أن "الاستقرار" ـ أياً كان ـ هو خير من الفوضى، وهناك مقولة مشهورة تتردد على الألسن، وهي: «سلطان جائر سبعين سنة خير من أمة سائبة ساعة من نهار»(1)، ومثله: "أن تبيت أمتي في ظل حاكم جائر دهراً خير من أن تبيت ليلة بدون حاكم" و"ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان" و"جور ستين سنة خير من هرج ساعة"!

وكل ذلك من الدجل والباطل الذي يُرهب ويُخوف الناس عن الاستجابة لدين الله وشرعه.

وإنَّ دين الله لا يعطي الشرعية للعلمانية، ومن ثم فلا يعتبر استقرار نظامها السياسي استقراراً.. بل فتنة مُضلة.

---

(1) [ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض، 3/ 326]، ويُنسب هذا القول للإمامين الكبيرين مالك والثوري ـ رحمهما الله ـ ونَرْبَأ بهما أن يقولا مثل هذا القول بإطلاق.. فاحتمال جور السلطان (المحدود) يكون في حالات معينة كمداهمة العدو الخارجي، وجمع الكلمة أمامه.. أما الحالة الأصيلة هي حالة الحق والعدل وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والراشدين من بعده، هذه بديهية تحتاج إلى تأكيد مستمر! ويُحتمل أن يُطلق مثل هذا القول على أهمية الإمامة ووجوب تنصيب إمام يقوم بأمر المسلمين، كما قال عليّ رضي الله عنه: "لا يُصْلِحُ النَّاسَ إلا أَمِيرٌ بَرٌّ أَوْ فَاجِرٌ، قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا الْبَرُّ فَكَيْفَ بِالْفَاجِرِ؟ قَالَ: إِنَّ الْفَاجِرَ يُؤَمِّنُ اللَّهُ ـ جل جلاله ـ بِهِ السُّبُلَ، وَيُجَاهَدُ بِهِ الْعَدُوَّ، وَيَجْبِي بِهِ الْفَيْءَ، وَتُقَامُ بِهِ الْحُدُودُ، وَيُحَجُّ بِهِ الْبَيْتُ، وَيَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ الْمُسْلِمُ آمِنًا حَتَّى يَأْتِيَهُ أَجَلُهُ" وقول إِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ: "لا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: لا بُدَّ لَهُمْ مِنْ أَنْ تُؤَمَّنَ سُبُلُهُمْ، وَيُخْتَارَ لِحُكْمِهِمْ حَتَّى يَعْدِلَ الْحَكَمُ فِيهِمْ، وَأَنْ يُقَامَ لَهُمُ الثُّغُورُ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ، فَإِنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ إِذَا قَامَ بِهَا السُّلْطَانُ احْتَمَلَ النَّاسُ مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أَثَرَةِ السُّلْطَانِ، وَكُلِّ مَا يَكْرَهُونَ" [شعب الإيمان للبيهقي/ 7187، 7188]

لكن لا يجوز بأي حال من الأحوال التهاون ـ أي تهاون ـ في مسألة الظلم واستساغته أو شرعنته، كما يقول الطغاة "أنا أو الفوضى"، أو اعتبار الحالة الطارئة الاستثنائية هي الأصل والشرع والسُنة! **فالمطالبة والالتزام بالعدل والشرع هو أساس الحكم الإسلامي وأساس الشرعية الربانية.** يقول العلاّمة ابن تيمية رحمه الله: «الْعَدْلَ وَاجِبٌ لِكُلِّ أَحَدٍ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ حَالٍ. وَالظُّلْمُ مُحَرَّمٌ مُطْلَقًا، لَا يُبَاحُ قَطُّ بِحَالٍ» [مجموع الفتاوى، 30/339]

وإنَّ دين الله لا يعطي الشرعية لمؤسسات الدولة إنْ كانت قائمة على الفساد والظلم والخيانة والكبائر والتبعية والذلة للعدو، ومن ثم فلا يعتبر وجودها غاية كبرى.. بل هي "بنيان الفسوق والنفاق" يجب تطهيرها منه أو إعادة بناءها من جديد.

وإنَّ دين الله لا يعطي الشرعية للربا، ومن ثم فلا يعتبر استقرار النظم الاقتصادية عليه استقراراً.. بل فساد في الأرض.

وإنَّ دين الله لا يعطي الشرعية للفواحش والإباحية، ومن ثم فلا يعتبر استقرار النظم التربوية والثقافية والفنية عليها استقراراً.. بل تدمير لإنسانية الإنسان.

وإنَّ دين الله لا يعطي الشرعية للظلم والعدوان، ومن ثم فلا يعتبر رضى الناس وسكوتهم واستضعافهم استقراراً.. بل انهزام ومتابعة للظالمين.

وإنَّ دين الله يعطي الشرعية الكاملة لرسالته ودعوته.. وبلاغها تامة كاملة للناس هو الغاية الكبرى، فإذا بلغتهم على الوجه الحق، واستجاب لها فريق من الناس، وأصبحوا لهم قوة وشوكة ومنعة.. فقد أصبحوا إذن هم أساس "الاستقرار السياسي" الذي انبثق من "استقرار الإيمان" وأصبحوا هم وحدهم أصحاب الشرعية الحقة في الحكم والسيادة والقيادة والإمامة، وعليهم إزاحة أي استقرار على باطل أو فواحش أو ظلم أو إباحية أو ربا أو فساد في الأرض.. كل ذلك بموازين الله التي جاءت في كتابه؛ فهو المرجعية العليا التي نتحاكم إليها، ونتبعها.. وهكذا كانت سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحركته (هجرته)، وجهاده.

وبهذا.. وبعد "الاستقرار الإيماني" الذي ينبثق منه "الاستقرار السياسي" ينطلق المسلم ـ بكل وسيلة مشروعة ـ ليُرسخ هذا الاستقرار من خلال: تأمين "الأمن الغذائي" بحيث

تنتج الأمة كل ما تحتاجه من غذاء، فلا يمكن لأحد حصارها بالجوع.. وتأمين "الأمن القتالي" بحيث تنتج كل ما تحتاجه من قوة قتالية وسلاح، فلا يمكن لأحد حصارها بالخوف[1]. وبهذا يتحقق لها **"الاستقلال الحقيقي، والاستقرار الرباني"**، وبذلك تكون مؤهلة لحمل رسالة الله إلى العالمين.

وإنَّ أهل الدعوة إلى الله هم أحرص الناس على سعادة الناس في الدنيا والآخرة، ويفعلون ذلك لا يسألون الناس أجراً ولا شكوراً: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: 104] وهم يأخذون الناس بالرفق واللين والقرب والسهولة في المعاملة، وبالحزم والقطع واليقين في بيان الحق: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 42]

وإنَّ أهل الدعوة إلى الله ليسوا هم معصومين.. بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ولهم السمع والطاعة (الشرعية السياسية) بقدر ما يتمسكون بكتاب الله، ويدورن معه حيث دار، ويشهدون لله ويقومون بالقسط.

وإنَّ أهل الدعوة إلى الله إن دعوا إلى أنفسهم أو مصالحهم الذاتية فهم إلى ما دعوا إليه ـ ولم يصبحوا بعد من أهل الدعوة إلى الله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108]

---

(1) ووحدة الصف المؤمن بطبيعة حاله وإيمانه يكون بنياناً يشده بعضه بعضاً، ومن وحدة الصف تكون وحدة الكلمة، وحرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشورى والرضى، والحق والعدل، والسمع والطاعة في المعروف، ومقاومة نزعة النفاق وجهاد قياداته، وإعداد كل قوة ممكنة، وما ينطبق على "الأمن الغذائي" ينطبق على كل ما يصبح ضرورياً في العرف الحضاري السائد، كالاستقلال في إنتاج الدواء، وصناعة التقنية... إلخ.

ولقد وعد الله (القوم) الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وسعوا للعمل على تمكين دين الله في الأرض، بالنصر والفلاح والعزة والتمكين.. طالما اتبعوا النور الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55]

***

15- مَدنية الدولة

مَرّ النظام السياسي الأوروبي بمرحلة "الدولة الثيوقراطية" التي يحكم فيها رجال الدين باسم التفويض والحق الإلهي المقدس، فلا راد لحكمهم، ولا معقب لقضائهم، متشاركين مع الإمبراطور في الحكم، وفي إعطائه الشرعية اللازمة.. وهذا النموذج من الحكم يعتبر في نظر كثير من الأوربيين "العصور المظلمة"، ولما وقعت الثروات الإلحادية العلمانية الإباحية نبذت هذا النموذج، حتى كان أحد شعارات الثورة الفرنسية "اشنقوا آخر إمبراطور بأمعاء آخر قسيس" وتم تطوير نموذج "الدولة المدنية" أي: الدولة التي يحكمها المدنيون العلمانيون، ولا دخل لرجال الدين بها.

يقول الشيخ الأستاذ حسن البنا (رحمه الله): "من أهم الظواهر التي لازمت المدنية الأوروبية:

(1) **الإلحاد والشك** في الله، وإنكار الروح ونسيان الجزاء الأخروي والوقوف عند حدود الكون المادي المحسوس: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7]

(2) **الإباحية والتهافت على اللذة** والتفنن في الاستمتاع وإطلاق الغرائز الدنيا من عقالها... والإغراق في الموبقات إغراقاً يحطم الجسوم والعقول ويقضي على نظام الأسر ويهدم سعادة البيوت: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: 12]

(3) **الأثرة في الأفراد**، فكل إنسان لا يريد إلا خير نفسه. **وفي الطبقات**، فكل طبقة تتعالى عمن سواها وتود أن تحظى بالمغانم دونها. **وفي الشعوب**، فكل أمة تتعصب لجنسها وتنتقص غيرها وتحاول أن تلتهم من هي أضعف منها.

(4) **الربا والاعتراف بشرعيته** واعتباره قاعدة التعامل، والتفنن في صوره وضروبه وتعميمه بين الدول والأفراد...

وقد عمل الأوربيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية، بمظاهرها الفاسدة وجرائمها القتالة، جميع البلاد الإسلامية التي امتدت إليها أيديهم وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم، مع حرصهم الشديد أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة، وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعي إحكاماً شديداً واستعانوا بدهائهم السياسي وسلطانهم العسكري حتى تم لهم ما أرادوا... وجلبوا إلى هذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات وخمورهم ومسارحهم ومراقصهم وملاهيهم وقصصهم وجرائدهم ورواياتهم وخيالاتهم وعبثهم ومجونهم، وأباحوا فيها من الجرائم ما لم يبيحوه في ديارهم.

وزينوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة، التي تعج بالإثم وتطفح بالفجور، في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين الأغنياء وذوي الرأي فيهم وأهل المكانة والسلطان، ولم يكفهم هذا حتى أنشأوا المدارس والمعاهد العلمية والثقافية في عقر ديار الإسلام تقذف في نفوس أبنائه الشك والإلحاد وتعلمهم كيف ينتقصون أنفسهم ويحتقرون دينهم ووطنهم وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم ويقدسون كل ما هو غربي، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوربيين وحده هو المثل الأعلى في هذه الحياة. واحتوت هذه المدارس على أبناء الطبقة العليا وحدها وصارت وقفاً عليها، وأبناء هذه الطبقة هم العظماء والحكام ومن سيكون بيدهم بعد قليل مقاليد الأمور في هذه الأمم والشعوب.

ومن لم يتم نضجه في هذه المعاهد الوضعية فإن في البعثات المتلاحقة ما يكفل لهم التمام. ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم العنيف أعظم نجاح، فهو غزو محبب إلى

النفوس لاصق بالقلوب طويل العمر قوي الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف"[1]

ولما وضع المحتل البغيض نبتة العلمانية الخبيثة في بلادنا، وراح يروج لها من كل طريق؛ ليسلخ المسلمين عن دينهم، وشريعتهم، وهويتهم، وتاريخهم، وجغرافيتهم.. وليربطهم بالغرب فكراً وهوية وشريعة، تصدى لهذه العلمانية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأوضحوا أن العلمانية تعتبر محاربة لدين الله، ورسالته، وشريعته..

فتم استخدام مصطلح "المدنية" بديلاً عن "العلمانية" ـ في بعض بلادنا الإسلامية ـ فهو مصطلح مُخادع، ويحمل أكثر من معنى:

إذ قد تعني المدنية: عدم الانتساب للهيئات العسكرية، أو عدم الانتساب لهيئات دينية.

وتعني: الدولة التي يحكمها الدستور والقانون، وترعى حقوق وحريات المواطنين.

وتعني: المجتمع العلماني الذي تحكمه حكومة علمانية، وهو ضد التوجه الديني والروحي بشكل عام. (دولة دنيوية لا علاقة لها بالغيب واليوم الآخر، ولا يقوم نظامها الاجتماعي والسياسي على أي أساس ميتافيزيقي، أي: مادية خالصة).

والمجتمع المدني: مصطلح دارج سياسياً يشير إلى المكونات الاجتماعية من: جامعات وجمعيات ونقابات ومنظمات وهيئات، وتنشط في المجتمع وتؤدي خدمات وأنشطة توعوية وخدمية، دون الانتساب لهيئة حكومية.

***

(1) [كتاب: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ص 150، دار الدعوة]

ونظم الحكم في بلادنا إما عسكرية جاءت إلى الحكم من خلال الانقلابات، أو ملكية ورثت الحكم كما تُورث الماشية.. والأولى: يكون لها مسحة جمهورية، والثانية: يكون لها مسحة دينية!

في محاولات الإصلاح يتم الحديث عن "مدنية" الدولة، كأحد الأسس التي يجب أن يقوم عليها "نظام الحكم" ويتم المناداة بها في كل محفل؛ فيزداد التعقيد والالتباس، فالحديث عن مدنية الدولة في النظم العسكرية قد يعني أنه ضد النظم العسكرية الحاكمة، وتسلطها بالقوة على الحكم، والحديث عن مدنية الدولة في النظم الوراثية، قد يعني أنه ضد الحكم الوراثي القائم على شرعية دينية منحها رجال الدين وهيئاتهم! ونشاط "المجتمع المدني" ـ في أي دولة ـ دليل على حيوية هذا المجتمع وفعاليته.

وفي الأمة المسلمة: كل محاولات الإصلاح التي لا تكون "**باسم الله**" ـ حقاً وصدقاً ـ لا بد وأن تُفضي إلى العدم، والتيه، والضياع.

وعندما يبدأ الإصلاح "باسم الله" يتم تصوير هؤلاء الدعاة بأنهم "دعاة الدولة الدينية الثيوقراطية" ـ على الطريقة الأوروبية! ـ ويتم اتهامهم بـ: (الفاشية الدينية، والإسلاموية، والإسلام السياسي، والإرهاب، وتغيير مدنية الدولة، والتجارة بالدين واستغلاله سياسياً، والدولة الفاشلة والمستحيلة... إلخ من قائمة الاتهام)، والصواب والصحيح بزعمهم: هو "الدولة المدنية الديمقراطية الحديثة"، **وهذا الهجوم سببه عدة أمور:**

الأول: قطع الطريق على أي إصلاح يكون "باسم الله"، فأئمة النفاق وأهل الكتاب والمشركين يحاربون ذلك أشد المحاربة.

الثاني: إن كان ثمة إصلاح، أو تغيير، أو ثورة.. فلا بد من أن يقوم على أساس "مركزية وفردانية" الإنسان، دون إقحام الدين أو الله فيه! (مادية دنيوية دهرية خالصة)

الثالث: منع إعادة اجتماع الأمة على أساس "راية الإسلام" من جديد، والإبقاء على تفرقتها على أسس عرقية، وقبلية، ومذهبية، ولغوية، وجغرافية... إلخ.

فأي اجتماع للأمة ـ في أي صورة ـ يُشكل تهديداً حضارياً ووجودياً على الحضارة الغربية وهيمنتها على العالم فكرياً وثقافياً وسياسياً وعسكرياً.. هكذا ينظر الغرب لهذا الاجتماع، وهكذا يعد له العدة، وهكذا يحدد سياسته ضد العالم الإسلامي، رغم أن الإسلام ورسالته رحمة للعالمين.

الرابع: إبقاء التبعية الفكرية والحضارية والثقافية والسياسية للغرب، باعتباره "النموذج الحضاري" الناجح والمتفوق والمنتصر والمُهيمن، وهو نموذج "مدني ـ علماني" خالص[1].

الخامس: التنافس السياسي، والطمع في السلطة، والمال.. يجعل استخدام كل الوسائل القذرة واحتراف الدجل والكذب من أجل تشويه السمعة؛ لينتصر الحزب العلماني ويفوز بنصيب من مقاعد البرلمان أو ليقتطع نصيبه الحرام من ثروات الأمة، حتى ولو حساب محاربة الدين والانسلاخ منه (من الناحية السياسية الاجتماعية)، ويُوظفون دجاجلة في وسائل الإعلام يجعلون رزقهم الكذب! وهؤلاء العلمانيون يحرصون وهم يُحادون الله ورسوله في شريعته ودعوته أن يقوموا بحملات خيرية، وإفطار للصائمين، وحملات للحج والعمرة، وتبرعات للأحزاب الدينية الوظيفية؛ حتى لا يظهروا بمظهر المحارب للدين! فيزداد الأمر غربة عند كثير من أبناء الأمة.

***

(1) الأحزاب اليمينية في الغرب: تعتبر أيضاً أحزاباً علمانية، فهي تستخدم الدين والميل الفطري له في الحشد والتعبئة فقط.. لكنها لا تريد أن تحكم بشريعة أو تنتصر لدين، أو تغير نمط حياتها المادي، وإن كانت أجندتها السياسية تحتوي بعض ما يميل إليه المتدينين (المحافظين) مثل: الحفاظ على الأسرة، ومنع الإجهاض، وتحجيم فاحشة قوم لوط، بعكس اليسار الذي يشجع ويبارك ذلك. انظر ـ إن شئت ـ مقال: "المبدأ العلماني".

ومن جانب آخر: إنَّ الدعاة إلى الإصلاح "باسم الله" في النهاية بشر، يصيبون ويخطئون، ولكن تأثير خطئهم وهم يحاولون الإصلاح باسم الله ـ وتخليص الأمة من الفساد، والبغي، والظلم، والعدوان، ومحاولة تصحيح المفاهيم الإسلامية السياسية والاجتماعية ـ يكون له بالغ الأثر السلبي! وكثير منهم قد يكون غير مؤهل لهذه المهمة، وغير مستعد لها، وما أن يدخلوا في هذه المحاولة.. إلا وينسحبون شيئاً فشيء إلى مستنقع الفساد، حتى يقعوا فيه.. ويحاول شياطين الأنس أن تضع على رقابهم نير العبودية للأمر الواقع، ويتسللون إلى المبادئ والأهداف والغايات، ليشطبوا منها كل يوم أحد البنود، ويتُأولون آخر، حتى قد تجدهم ينافسون العلمانيين في فسادهم وإفسادهم.. حتى تتحلل في النهاية دعوتهم![1]

وقد لا يستطيعون التموضع في النظام الاجتماعي السياسي بصورة لا تسمح باستئصالهم، فيتم استباحتهم وإبادتهم، وقتلهم، واعتقالهم!

وكل ذلك لا يُغني من الحق شيئاً.. لا هجوم المنافقين ـ ومن يدعمهم ـ ولا فشل المصلحين وخيبتهم! فالإصلاح باسم الله، وإقامة الاجتماع السياسي تحت راية الله ليس نافلة، ولا فضل من المسلمين.. بل هو أصل توحيدهم وعبادتهم لله سبحانه وتعالى.

ونظام الدولة في الإسلام لا يهتم بتسميته "دولة دينية" أو "دولة مدنية".. أو يُنشأ لنفسه اسماً آخر. إنما يهتم بأساس الاجتماع، ونظام السياسة، وإنفاق المال.. وكل ذلك يجب أن يخضع لأمر الله. ومن ثم:

ـ فلا يوجد في الإسلام رجال تحكم باسم التفويض والحق الإلهي المقدس ـ كما في النظم الدينية الأوروبية القديمة ـ فلا راد لحكمهم، ولا معقب لقضائهم، بل هم بشر يحكمون نعم "باسم الله"، ولكن الأحقية بالحكم لم تنشأ من تفويض إلهي.. بل من

(1) انظر مقال: "فصل الدين عن العمل السياسي".

تفويض الأمة، ولها حق الرقابة، والمحاسبة، والاختيار، والتولية، والعزل. ولو شئنا الحديث بالمصطلحات والمفاهيم الغربية، فنستطيع أن نقول: إنه ديني من جانب، ودنيوي - مدني من جانب آخر. ولا حاجة لهذا التقسيم، ففي دين الله لا فرق ولا انفصال بين الديني والدنيوي.. فكل نشاط الحياة يجب أن يستسلم فيه المسلم لله رب العالمين.

- إن الرضى والاستسلام والمتابعة على نظم حكم علمانية - أو مدنية بمعنى المادية الدنيوية - تعني في الإسلام مضاهاة أفعال الذين كفروا، وتعني مناقضة الإسلام في حقيقته ومعناه.

- والدولة في الإسلام تُمثل دين الله.. الذي لا يهتم بأمر الآخرة فحسب؛ بل يعتبر الدنيا طريقاً للآخرة، وعمارتها وخلافتها الخلافة الراشدة يُوصل إلى النجاة في الآخرة. وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يدعو ربه فيقول: "**اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**"[1]

- والأخلاق والمبادئ الإسلامية ترفض أن يتسلط على الأمة أحد بالسيف والبغي والعدوان، وترفض أن يحكمها بعد ذلك بالقهر والظلم والكفران، ولا يعطي الإسلام لهم أي شرعية؛ جاء في الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم - أَنَّهُ قَالَ: "**مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**[2]، **وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ،**

(1) [صحيح مسلم/ 2723]

(2) يقول الشيخ القرضاوي رحمه الله: "ويُحمّل الإسلام كل مسلم مسئولية سياسية: أن يعيش في دولة يقودها إمام مسلم يحكم بكتاب الله، ويبايعه الناس على ذلك، وإلا التحق بأهل الجاهلية، ففي الحديث الصحيح: "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية" [من فقه الدولة في الإسلام، الشيخ يوسف القرضاوي، ص 122]

وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ"(1)

و"عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَ: **"مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ"**(2)

ـ والأخلاق والمبادئ الإسلامية ترفض الملك العضوض، والحكم الملكي الوراثي، وما يترتب عليه من آثار مدمرة للأمة في كرامتها، وحريتها، ورسالتها، ووحدتها، وأخلاقها، بل يأمر أن يكون الحكم على منهاج النبوة، جاء في الحديث الشريف: **"تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ"**(3)

ـ والأخلاق والمبادئ الإسلامية ترفض أن يتلاعب أحد بالدين، أو يستغله لتحريف الحق، وإظهار الباطل ـ والعياذ بالله ـ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39]

---

(1) [صحيح مسلم/ 1849]

(2) [صحيح مسلم/ 52]

(3) [مسند الإمام أحمد/ 17939]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54]

جاء في الأثر «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا بَلَغَ بَنُو أَبِي الْعَاصِ أَرْبَعِينَ رَجُلًا **اتَّخَذُوا دِينَ اللهِ دَغَلًا، وَعِبَادَ اللهِ خَوَلًا، وَمَالَ اللهِ دُوَلًا**»[1]

وهذا القول إنما يُشرّح التكوين الاجتماعي السياسي للاستبداد أو البغي، ففيه:

بعد سيطرة "فئات باغية" على مقاليد الحكم والسلطة بقوة السيف، لا عن رضى الأمة وشورها، ولا عن اتباع السنة النبوية السياسية الراشدة، فإن هذه الفئات تعمل على:

ـ **"السيطرة الروحية الدينية على الجماهير"**، من خلال: "اتخاذ دين الله ـ وفي رواية: "كتاب الله" ـ دغلاً" والدغل معناه: إفساد الأمر، وإدخال فيه ما يخالفه ويفسده، وفي رواية: "اتخذوا دين الله دخلا": أي: دغلاً، ومكراً، وخديعة، وكل شيء دخله عيب، فهو مدخول، وفيه دَخَلٌ. أي: يخدعون الناس باسم الدين، والتلاعب به لإقرار الباطل، ويفسدون عليهم الفهم الصحيح لدين الله، وكتابه.

ـ **"السيطرة الاجتماعية على الجماهير"**، من خلال: "اتخاذ عباد الله خولاً" أي: خدماً وعبيداً للملوك، وهو استبعاد الجماهير، واستلاب حقوقهم وحرياتهم وكرامتهم، وجعلهم مجرد حاشية للملوك، ومنع الأمة من القيام بوظيفتها الحضارية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسياسة أمورها بالرشد والشورى والرحمة والعدل.

(1) [«دلائل النبوة للبيهقي» (6/ 507)، وجاء من طريق أبي سعيد الخدري، وأبي ذر، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ويحتمل أن يكون موقوفاً]

ـ **"السيطرة المالية الاقتصادية على الجماهير"**، من خلال "اتخاذ مال الله دُولا"، أي: احتكار الثروات والموارد لصالح القلة الباغية الحاكمة المتسلطة على الناس، فيُتداول المال والثروة بين فئة قليلة جداً، تجعل الغالبية العظمى من الناس في حالة من الاحتياج الدائم لهم، لتدور في فلكهم وتأتمر بأمرهم.

وبذلك تتم السيطرة الكلية الشاملة: سيطرة عسكرية، وروحية دينية، واجتماعية، ومالية! وهذا هو حكم "الفساد والباطل" في كل جيل وقبيل!

ولا بد من تحرير الناس من هذه السيطرة الشاملة، وإرشادهم إلى سبيل الرشد، وهذه هي مهمة المصلحين والخلفاء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حمل رسالته، وبيان سنته الشريفة في سياسة الحكم والمال.

ـ إنَّ الأخلاق والمبادئ والمقاصد الإسلامية هي التي تحكم على تاريخ المسلمين، وبقدر التزامهم بها وبالشريعة الإلهية يكون إسلامهم، حيث يستغل العلمانيون ـ وقد تقع شبهات للصادقين ـ الأخطاء التاريخية في فترة الملوك العضوض، وممارسات بعض الأحزاب التي تزعم المرجعية الإسلامية في تشويه الإسلام ذاته، وفي توهين أمر شريعة الله، والاستدلال بذلك على صحة مسلكهم العلماني!

ـ إنَّ كتاب الله وسنة ـ رسوله صلى الله عليه وسلم ـ يستطيع أن يُجيب على كل "شبهة" تقع لكل باحث عن الحق، كل متحير ضائع بين الأفكار والتيارات والرايات والمذاهب والأسماء، شرط أن يكون يبحث عن الحق بصدق وتجرد، وأن يكون مستعداً ومُفسحاً عقله وقلبه وشعوره لقبول الحق.

ـ إنَّ هجوم المنافقين والعلمانيين وأهل الكتاب والمشركين، لن ينقطع لمجرد بيان الحقائق، وتوضيح مفهوم الدولة في الإسلام، والتبرؤ من الممارسات الباطلة والفاسدة، أو التأكيد على حقوق الجميع، وصيانة الحريات... إلخ من هذا الدفاع عن الدولة في الإسلام.

فالهجوم ليس سببه الإرث البغيض للدولة الدينية الأوروبية ـ والمسلمون ابتداء ليس لهم علاقة بها ـ أو الانحراف التاريخي لبعض الحُكام المسلمين أو الأحزاب الإسلامية.. الهجوم سببه بالأساس **إبقاء الأمة معزولة سياسيا واجتماعياً عن دينها.** إذ يمثل هذا الدين تحدياً للحضارة العلمانية، وعودته ـ في نظر الغرب ـ تعني عودة الإمبراطورية ـ الخلافة الإسلامية من جديد، وإيقاظ للعالم الإسلامي الغارق في الفوضى والتخلف والفساد والحروب الداخلية.

والمنافقون والعلمانيون يرتبطون عضوياً وروحياً بالغرب، ومصالحهم وامتيازاتهم وثقافتهم وفكرهم ونمط حياتهم مرتبط به، ومن ثم فهم يدورون معه حيث دار. قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140]

فالهجوم مستمر مهما حاولنا الدفاع.. على أننا لا ندافع عن تهمة! إنما نوضح بعض الحقائق ـ بفضل الله ـ لأبناء هذه الأمة؛ حتى لا يُغبش عليهم أحد مفاهيم دينهم أو يصور لهم الدين أنه مجرد شعائر وطقوس واحتفالات ومراسم على الطريقة الغربية في فهم وممارسة الدين!

وإذا كان الغرب قد اختار طريق "الحياة الدنيا وزينتها" واختار "المتاع القليل والعاجلة" واستفرغ وسعه وجهده في "**سبيل الغي**"، وأمدهم الله ـ بما شاء أن يُمتعهم به من متاع ـ فقد خسر آخرته، وذلك هو الخسران المبين.

أما الأمة المسلمة فليس لها ـ لتنهض ولتحيا من جديد ـ إلا طريق واحد، وهو "**سبيل الرشد**" سبيل الله واتباع نور كتابه، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. وهو مسؤولية **كل** مسلم قدر وسعه وطاقته.

ومهما جربت الأمة من سبل أخرى متفرقة فلن تُفلح أبداً، ولن يتركها عدوها حتى تنسلخ كلياً من دينها وشريعتها وهويتها، وبعد أن تنسلخ ـ لا قدر الله ـ لن يتركها بل سيستعبدها ويسترقها ويسرق ثرواتها، فلا هي تأخذ نصيبها من الدنيا، وليس لها حظ في الآخرة، وذلك هو الخزي العظيم!

قال تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109]

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217]

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 175-178]

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ. وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ. وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: 46-52]

***

16- مُعضلة الدولة القومية

تُواجه جماعات التغيير في بلادنا معضلة "الأنظمة الحاكمة" التي سلّطتها الاحتلال الغربي على بلادنا، وأنشأ لها عَلَماً ونشيداً وخط له الحدود، لا تاريخ لها إلا تاريخ الأسرة الحاكمة أو الطغمة العسكرية، ولا غاية لها إلا الحفاظ على حالة الاسترقاق والتراجع والتفرقة بين الأمة المسلمة، وقد جمعت من المفاسد والظلم والعدوان والإفساد في الأرض ما يُخط فيه المجلدات، وهذا الواقع يبصره كل من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، ولكن هذه ليست المعضلة فحسب..

المعضلة أن هذه الأنظمة والملأ حولها بعد ما يُفسدون، ويسرقون، ويغتصبون، ويحادون الله ورسوله، ويحطمون أحلام وحقوق وحياة ملايين الناس باعتبارهم مجرد عبيد أو أرقام في السجلات.. فإنهم يجعلون لكل تصرفاتهم وبغيهم وعدوانهم "شرعية قانونية ودستورية" فالسرقة والقتل والإفساد كلها تتم باسم القانون، ففاقوا عصابات المافيا ـ الجريمة المنظمة ـ التي لا ترتكب جريمة "شرعنة أفعالها"..

وتُصر قيادات هذه الأنظمة على أن تظهر بمظهر الطهر والعفاف ربما لتخدع نفسها أو تخدع الناس.. فيعتقد رجال هذه الأنظمة في أنفسهم ـ تَهوكاً وتخرصاً ـ أنهم:

1- (أسياد) هذا الوطن، ولا يحق لأحد أن ينازعهم هذه السيادة، وطبقة خاصة دون الناس؛ فيخلعون على أنفسهم صفات الربوبية.

2- وأنهم (حماة) الوطن ورجاله الأقوياء ضد الأخطار، ودونهم يضيع الوطن ويضيع كل شيء؛ وتكون الفوضى.

3- وأنهم (وطنيون) أشد الناس حرصاً على مصلحة الوطن، وأكثر الناس تغزلاً في حبه وعشقه والتغني به!

4- وأنهم (شرفاء) يأخذون المال العام والخاص ويبيعون كل شيء فيه لحسابهم ومع ذلك فهم شرفاء جداً، بل ويقومون ببعض المساعدات الخيرية!

5- وأنهم (متدينون) لا يُزايد عليهم أحد في إيمانهم، وتقواهم، ودعاة إلى الله إن تطلب الموقف السياسي ذلك!!

هذا الخليط الذي يخدعون به أنفسهم، ويخدعون به الناس من أشد المعضلات التي تواجه جماعات التغيير، ويجعل جهدها مضاعفاً في حماية وعي الأمة، وفي تحريك الأمة نحو الخلاص من هذا الأَسر والاسترقاق، وإبقاء الرابطة الجامعة لها، دون أن تتفتت تحت خطاب الضلالة، ودعاة الضلالة.

***

والدول القومية هي نِتاج انهيار الإمبراطوريات السابقة، وهي تأسست على أساس القومية العرقية والجنسية، واللغة، وحدود الأرض.. وأساس هذا الاجتماع هو "**العلمانية المادية**"، ومحور الحياة هو "الإنتاج، والاستهلاك".. وتم تصدير هذا النموذج لنا بعد سقوط الدولة العثمانية، وتم فرضه بقوة الاحتلال العسكري، وبالحديد والنار..

يقول السناتور الأمريكي بول كينيدي: "لقد استطاع الغرب بما لديه من أساطيل تجوب الشواطئ العربية، ومن خلال إسهامه بإنهاء الإمبراطورية المغولية [التركية]، واختراقه نقاطاً استراتيجية، بفضل سككه الحديدية وأقنيته ومرافئه، وتمركزه التدريجي في شمال أفريقيا ووادي النيل والخليج العربي في الشرق، ثم في شبه الجزيرة العربية نفسها، وتقسيمه للشرق الأوسط بإقامة حدود مصطنعة في إطار الاتفاقيات الدبلوماسية التي عقدت إثر نهاية الحرب العالمية الأولى، وبفضل تعاظم القوة الأمريكية التي دعمت الدول الأوروبية ثم حلت محلها، وبفعل زرع إسرائيل في قلب العالم العربي، والتحريض على الانقلابات العسكرية ضد القادة الشعبيين المحليين، وإجمالاً، انطلاقاً من الرأي السائد

بعدم أهمية هذه النقطة من العالم، إلا لما لديها من نفط، لقد استطاع الغرب إذن تغيير العالم الإسلامي وتحويله إلى ما هو عليه اليوم"[1]

معضلة الدولة القومية (ونظامها السياسي والاقتصادي) أنها تضع نفسها بديلاً عن "الإله"، فهي واجبة العبادة، وعليها ينعقد الولاء والبراء[2].. وهي صورة شبيهة بالتعبير القرآني "دين المَلك"! ويتم تضخيم الذات القومية، والامتياز القومي، على حساب كل شيء من دين وأخلاق وحق وعدل.. وتطويع كل شيء من أجل القومية!

هذه الدولة تسترق الإنسان حرفياً، وتجعل نسله هو "ابن الدولة".. وهي المتحكمة فيه من لحظة الميلاد إلى الوفاة.. هذه الدولة تعيش على التفنن في سرقة كد الإنسان وعرقه وجهده من خلال منظومة ضرائب، لا تترك حركة ولا سكنة له ـ حتى نسمة الهواء ـ إلا وتضع عليها ضرائب! هي عين السحت، وفحش الربا! مقابل توفير "الأمن" له الذي يتحول إلى "تسلط وقهر"!

الإنسان في هذه الدولة ـ باستثناء طبقة الحكام والملأ من أصحاب المال والسلطة ـ يعيش حياته ينظم في طريقة دفع "الفواتير" التي تلاحقه في كل مكان، حتى إنه عندما يفقد هذا التنظيم، ويعجز عن سداد الفواتير.. فإنه يذهب ـ بكل طواعية وسهولة ـ إلى الانتحار أو الانحراف أو الإدمان.. الإنسان المثالي لهذه الدولة هو الذي ينجح في سداد الفواتير والضرائب، وغيره فهو إنسان غير مرغوب فيه.. عدو للدولة، ومواطن غير صالح فيها، تلاحقه الدولة بالعقوبات الوحشية!

ومما يلفت النظر في طبيعة هذه الدولة هشاشة النظام السياسي ـ على وحشيته! ـ فما أن تقع حرب مع دول كبرى ـ بعيداً عن أسبابها ـ فتجد كثيراً من سكان هذه الدولة.. يتركونها للبحث عن دولة أخرى يدفعون لها الضرائب مقابل الأمن والحياة! وقد لا يتحرك

(1) [الإعداد للقرن الواحد والعشرين، الجزء الثاني، بول كينيدي، 1995م، ص 37]

(2) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "الدولة الإله".

فيهم شيء للدفاع عنها.. فقد كانوا مجرد "دافعي ضرائب وفواتير"، فلا يهم أن يحتلها محتل، فخيرها لا يذهب إليهم، بل ربما تتعالى أصوات تبارك المحتل لعله يكون أرحم.. والرحمة تتمثل في كم سيدفع للمحتل من ضرائب وفواتير! كما أنها بالأساس غير مؤهلة للدفاع، ولم تترب على ذلك.. خوف أن ينقلب الشعب المدرب عليهم، أو الغرق في الترف والذاتية الفردية، أو الخوف من وحشية المحتل الذي لا يتورع عن الإبادة الجماعية بالأسلحة الفتاكة..

وللمواجهة ضد الأعداء يحتاجون إلى سلاح "العمليات المعنوية" لرفع الروح القومية، والقتال من أجل الأرض، أو السيطرة على الموارد باسم الأيديولوجيا أو السيادة القومية... إلخ.

هذا النموذج من الاجتماع والسياسة والحكم ومن تفسير الحياة والوجود يسلب الإنسان من إنسانيته، وأخلاقه، وقيمه.. ويحوله حرفياً إلى آلة لتضاعف الإنتاج، وحيوان يستمتع كما يتمتع الحيوان بشرط أن يدفع أيضاً، ويتفكك بنيانه وتماسكه تحت وطأة القهر والذل والمسكنة، وقسوة الحياة المادية!

وتصبح الدولة المثالية هي التي تعطف على شعبها بالاهتمام بالتعليم والصحة ومشروعات البنية التحتية.. ولا يكون هذا العطف مجاناً، بل هو أيضاً من ضرائب الشعب.. والفرق بين الدولة المثالية، والمنحطة.. هو أن الأولى لا تسرق كل أموال الضرائب إنما تصرف جزءاً منها على الصحة والتعليم والبنى التحتية وبعض الرعاية الاجتماعية، وأما المنحطة فهي التي تسرق كل الأموال، وتعاير شعبها بفقره، وتسلبه كرامته، وتُقدم له الخدمات الأساسية ـ بتكاليف باهظة، وفاسد إداري ـ مغموسة بالإهانة والإرهاب والتهديد!

والدولة المثالية هنا تتمثل في النموذج الغربي الأوروبي والأمريكي.. ولكن هذا النموذج يواجه معضلة كبرى في "انهيار الأسرة" بالمعنى الحرفي، وأوشك الأمر على انتهاء وجودها

الاجتماعي لدرجة جعلت بعض مفكري الغرب يطلق صيحة نذير بـ "موت الغرب" نظراً للعزوف الشديد عن الزواج وتكوين الأسرة، وإنجاب الأبناء! وهو رد فعل طبيعي إذ تحولت كل حركة وسكنة إلى ضرائب وفواتير وتكاليف.. ومن جانب آخر: لا يوجد أي رادع أخلاقي أو ديني، بل العكس هو الذي يتم الترويج له على أنه الحرية، والإباحية هي الأصل! فلأي سبب يتكلف الرجل بناء أسرة؟ ولأي سبب ترتبط المرأة بمسؤولية بيت؟! بل وجد اليسار أن الترويج والدفاع عن فاحشة قوم لوط هو أساس وجوهر الحرية الإنسانية، ومن أصول حقوقها المشروعة!

والدولة المنحطة تمثل ـ وللأسف ـ في عالمنا العربي والإسلامي.. فأما الغني منه ـ الذي تحكمه عائلات نفطية ـ فقد أفسده الترف، وذهبت الأموال في الباطل والسفه، وأما فقيره فهو يعاني من مشكلة توفير الموارد اللازمة لبقائه على قيد الحياة، فهو يعيش كل يوم خطة الحفاظ على الحياة، وضبط التكاليف حتى لا ينهار..

وبفضل الله وحده ـ واحترام شريعته ـ ما زال محافظاً على "نموذج الأسرة" رغم كل المحاولات لهدمها ـ بشتى الطرق ـ وهو يستخدم كل حيلة للحفاظ على مقومات الحياة الأساسية، ويذهب جهده كله ـ ومثله مضاعفاً ـ من أجل هذا الهدف.

وهذه الدولة المنحطة ـ بطبيعة حالها ـ لا تستطيع الدفاع عن نفسها أمام الدول القومية الكبرى، وأمام فرض العولمة الاقتصادية والثقافية والسياسية والعسكرية، وأمام إنشاء نظام دولي تجاري يتخطى الدول القومية الضعيفة لصالح الشركات الكبرى متعددة الجنسيات.

جماعات التغيير أمام هذا الواقع يجب أن تدرك أن أمامها خطة عمل طويلة، قد تستغرق عمرها، وما يليها من أعمار.. إذ هناك جملة من التغييرات يجب أن تقوم بها على مستوى الفكر، والتربية، والاجتماع، والسياسة.. حيث هذه الدولة القومية دولة بحكم

طبيعتها متحدية للإسلام، ولله سبحانه وتعالى، وضد مقاصد الشريعة في (الرحمة والعدل وسيادة الإسلام وبلاغ رسالته)..

فالدولة في الإسلام منبثقة من الاجتماع الإسلامي الإنساني لتنظيم حياة المجتمع وفق مراد الله، ووفق سيادة وحاكمية كتابه.. والإسلام هو الذي يَعلو، ولا يُعلى عليه، وعلى الله ورسوله ينعقد الولاء والبراء، والسمع والطاعة فيها لـ (عموم المؤمنين المتقين فهم جماعة "أولي الأمر" فلا أمر إلا بشرعية الكتاب وبطاعة الله ورسوله)..

والحفاظ على كيان هذه الدولة الربانية يكون تحت راية "في سبيل الله".. ولذا عندما يقع اعتداء على هذه الدولة يهب كل مسلم للدفاع عنها؛ لأنها تمثله، ولأنه يؤمن إيماناً جازماً بأن له عوضاً وجزاء عند الله هو جنة عرضها السموات والأرض، طالما كان "في سبيل الله".. فهي ليس دولة "**مادية علمانية**" إنما هي "**ربانية رسالية**" الإيمان فيها بالله واليوم الآخر ركنها الركين، وحصنها الأمين.

والوصول إلى هذه المرحلة رحلة طويلة، تطول وتقصر حسب الجهد في عملية "التغيير الاجتماعي" حسب سنن الله في خلقه.

ولذا يجب على جماعات التغيير أن تتخلص من الآثار الفكرية والواقعية للدولة القومية.. وأن تبتكر نموذجها الرباني النابع من إيمانها ورسالتها ونور كتابها. وأن يسددوا ويقاربوا ولا يعجزوا.. وهم على بصيرة بالهدف الأصيل (في سبيل الله)، ولا يُتعبهم المسير المستمر إليه.[1]

***

(1) راجع مقال: "مرض القومية".

17- دين العلمانية

العلمانية بمعنى (اللادينية) هي أنواع: منها المحارب للإسلام خاصة ـ دون غيره من أديان البشر ـ والعلمانية المعتدلة المتعايشة مع شعائر الإسلام دون شرائعه، والعلمانية المحلية التي ربما تعتبر الإسلام جزءاً من تراثها وثقافتها وعاداتها، وربما تشارك في بعض احتفالاته، دون أن يكون له المرجعية العليا والحاكمية والسيادة.

والعلمانية الرأسمالية: قائمة على مبدأ الربا والفوائد، وسيطرة القلة على رؤوس الأموال، وجعله دُولة بينهم.. والسيطرة الاجتماعية من خلال تعظيم الفردانية والاستهلاك النهم الغير مبرر، والسيطرة داخلياً على العملية السياسية لـ "الديمقراطية الليبرالية" من خلال تمويل الحملات الانتخابية، والتحكم في وسائل الإعلام والتوجيه، ومراكز الأبحاث والجامعات من خلال التمويل، وخارجياً السيطرة على الموارد والأسواق من خلال تنصيب الخونة والعملاء، واستعباد الشعوب، وبعد هذا التكدس لرؤوس الأموال يصبح نشاطهم الاجتماعي هو: (الجنس، المخدرات، القمار، التسوق الفارغ... إلخ)، وجعله صناعة أيضاً تدر مليارات الدولارات! واللوبي الصهيوني ـ مثلاً ـ في أمريكا يُهيمن على الحياة السياسية ـ في وجود بيئة مسيحية دعامة ومؤيدة لهم! ـ من خلال جماعات الضغط والمنظمات اليهودية، ويهيمن على الحياة الاقتصادية ـ في جزء منها ـ من خلال امتلاكه لرؤوس الأموال الضخمة والعديد من البنوك، وشركات التمويل.

وقد أقر مفكرو الغرب بأن هذه الديمقراطية تحولت إلى "ديكتاتورية رأس المال" ـ وإن كانت كذلك من يومها الأول! ـ والرأسمالية قريبة من أصحاب المصالح المادية والمالية ويكوّنون شبكة علاقات عالمية، تستنزف موارد أهل الأرض كلهم! وقد قدّمت الرأسمالية

للبشرية إنجازات مادية عظيمة بحكم تراكم الأموال والخبرات، لكنها في المقابل سلبت منهم الإنسانية والعدالة والطمأنينة والإيمان.

والعلمانية اليسارية: تعيش أزمة وجودية، فهي اليوم متصالحة مع الرأسمالية، وتهتم بالترويج لبعض البرامج الاجتماعية، والتركيز على اليسار الاجتماعي والثقافي من خلال الترويج للنسوية والشذوذ والإلحاد وحقوق الأقليات والبيئة، وهناك بعض دول شمال أوروبا تهتم بـ "الديمقراطية الاشتراكية" كحل وسط بين الرأسمالية المتوحشة والشيوعية المتوهمة من خلال حزمة المساعدات الأسرية، وإعانات البطالة، وهناك اليسار الفكري الذي مازال يتلو مصطلحات ماركس ولينين وأنبياء اليسار صباح مساء، ويلعن الرأسمالية ويتخذ من سوآتها وسيلة للترويج لليسار. ولليسار محاولات جادة على المستوى الإعلامي والصحافي لبيان خطر الرأسمالية، وعلى المستوى السياسي أيضاً قد تقف مع متطلبات وتطلعات الشعوب، فهي قريبة من الجماهير.

وأياً ما كانت العلمانية فهي فكر مادي، لا يؤمن بالغيب، ولا يعبأ بالله، ولا يعبد إلا هواه والحياة الدنيا.[1]

"إن الرأسمالية لا يمكن إلا أن تكون دكتاتورية.. والشيوعية لا يمكن إلا أن تكون دكتاتورية! وكل حكم غير حكم الله لا بد أن يكون طاغوتاً.. ليس هناك وسيلة ـ ما ـ لمزج الحرية والديمقراطية بأيٍّ منها بحيث تُبقى على "فضائلها" وتقضي على مفاسدها!

الفساد في بنية النظام ذاته.. في أعماقه.. لا في الأداة المنفذة له ولا في وسائل التنفيذ.

والعلاج "الأوحد" ليس في مزجه بالحرية والديمقراطية ـ وهو أمر في ذاته غير ممكن ـ وإنما هو تغييره من أساسه وبالرجوع إلى منهج الله دون سواه، والحكم بما أنزل الله".[2]

(1) للمزيد انظر: فصل "العلمانية" من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة". للأستاذ محمد قطب رحمه الله.
(2) [كتاب: جاهلية القرن العشرين، محمد قطب]

والعلمانية "دين" من حيث:

ـ **الهوية والثقافة والفكر**: حيث تفرض العلمانية فكرها وتصوراتها السياسية والاقتصادية والتاريخية والإنسانية والأخلاقية على المجتمع الذي تحكمه.

ـ **نمط الحياة**: حيث تفرض وتدعو العلمانية إلى نمط الحياة المادية، ومحاربة الاتجاه الروحي الرباني، باعتبار الإسلام رجعية وتخلفاً وظلامية، واتجاهاً إسلاموياً متطرفاً أصولياً، يهدف إلى تقسيم المجتمعات.

ـ **نظم الحكم والقضاء**: حيث تفرض العلمانية قوانينها المادية الوضعية، دون الرجوع إلى شريعة الله ـ جل جلاله ـ وتفرض القوانين من خلال مرجعية المشرعين الغربيين.

ـ **القومية المحلية المادية**: فتجمع الناس على هذه القومية، والتعصب محلياً لها، واحترام دستورها وقوانينها ونمط حياتها، والذوبان في العلمانية باعتبارها الهوية العامة الجامعة للمواطن العالمي.

ومواثيق حقوق الإنسان العلمانية تدعو إلى: عدم التمييز والاضطهاد العنصري للإنسان على أساس: لونه أو جنسه أو ثقافته أو عرقه أو قومه أو جغرافيته أو نسبه أو **دينه**.

وهذه الدعوى إلى احترام حقوق الإنسان تبدو عظيمة وخطوة نحو احترام الإنسانية، على أن هناك ملاحظات مهمة عليها يجب أن ينتبه إليها كل مسلم، وخاصة حركات التغيير والإصلاح:

ـ إنَّ مواثيق حقوق الإنسان هذه التي يتغنى بها الغرب، ويعتبرها إنجازاً حضارياً له، هو أول منتهك لها، وأول محارب للضعفاء.. فالغرب يتغذى على استعباد الشعوب الضعيفة، وسرقة ثرواتها، واحتلالها فكرياً وثقافياً، واقتصادياً وسياسياً وأمنياً.. وعسكرياً إن لزم الأمر.

ـ إنَّ أي دعوة لأي حقوق ـ في نظر المسلم ـ لا يمكن أن تكون هكذا مجرد هوى عَنَّ للإنسان أن يفعله أو يتماشى مع ذوقه أو مع التوجه الحضاري والثقافي في عصره، فالدعوة للحقوق ـ والأخلاق بشكل عام ـ يجب أن تكون منطلقة من قاعدة أصيلة ربانية، تكون "باسم الله" ولا تتغير بتغير الزمان والمكان، ولا بتغير المزاج ولا الذوق، ولا الثقافة.(1)

ـ إنَّ الإسلام هو الحاكم على أي تصور وأي دعوة، وينظر ما يوافق فيها الإسلام فيؤديه ـ ولكن باسم الله دوماً ـ وما يخالف فإنه يرده ـ بكل إيمان وقوة ويقين ـ يرده أيضاً "باسم الله".

ـ إنَّ الإسلام يدعو إلى تحرير الإنسان، وصيانة كرامته ـ التي كرّمه الله بها ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70] وينظر إلى الإنسانية جمعاء نظرة الحريص المشفق على هذه الإنسانية، ويريد لها الخير والفلاح والسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة. ويُقر لها كل حقوقها، ولا يُميز بين أحد على أساس: قومه أو لونه أو جنسه أو ثقافته أو لغته أو عرقه أو نسبه... إلخ. وهو يدعو إلى ذلك منذ أكثر من ألف وأربعمئة عام، ولكنه يُميز ويُفرق بينهم على أساس "الدين"، لماذا؟

أليس في هذا انتهاك صريح لحقوق الإنسان؟!

الحقيقة لا.. بل إن هذا التمييز والتفرقة هو من أسمى حقوق الإنسانية.. كيف؟

---

(1) في الفلسفة المادية عند ملاحدة الغرب أمثال "كانط" تعتبر الأخلاق "تنبع من العقل وحده لا عن ابتغاء مرضاة أحد، أو تحصيل منفعة، فإذا قرر العقل ذلك وجب اتجاه الإرادة نحوه، ومن ثم يصبح القانون الخلقي ضرورة ويستحيل أمرًا يقيد الإرادة ويلزمها، ومن ثم يصبح أمرًا كلياً مطلقًا، ويرى أنه لا ارتباط بين الأخلاق والإيمان بالله تعالى" [انظر: الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، ج3، ص1975 د. سعيد الغامدي]

ـ لأن الله ـ جل جلاله ـ يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85] فالإسلام هو رسالة الله الأخيرة للبشرية. ويجب بلاغ هذه الرسالة باعتبارها الدين الحق الذي لن يقبل الله سواه، وهذه رسالة المسلم في الحياة، ورسالة الخلفاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ـ وهذا الدين العظيم، أثقل من ملء الأرض ذهباً، ولا يمكن بأي حال اعتباره ديناً كغيره من الأديان، أو مساواته مع غيره من الأديان.

ـ إنَّ الإسلام لا يُكره أحداً على الدخول فيه، فمن أصوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256] فهو يحمي حرية العقيدة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40] ويريد للإنسان أن يدخل في الدين الحق عن إيمان قلبي، وسلوك عملي، بكل إرادته.. ولا ينال الأجر والمثوبة إلا بصدق الإيمان، وتصديق العمل.

ـ إنَّ الإسلام يحرر الإنسانية من كل ما ليس فيه اختيارها، فلا يختار الإنسان جنسه، ولا قومه، ولا لونه، ولا لغته.. فهو يريد المساواة هاهنا، ولكنه يمكن أن يختار "دينه ونظام حياته" ومن ثم وعلى أساس اختياره يكون التميز والتفرقة.

ـ إنَّ التميز والتفرقة ـ والدعوة إلى دين الله الحق ـ تجعل الإنسان ينظر في هذه الدعوة بجدية، بينما إزالة الفوارق، والذوبان بين الأديان باعتبارها كلها على درجة واحدة من المساواة هو تدمير وتشويه للدعوة إلى الله، وإلى الدين الذي لن يقبل الله سواه، وفيه سعادة الدنيا والآخرة.. ومن ثم فأي محاولة للتوهين من أمر هذا الدين، أو مساواته بغيره هي أكبر عدوان على الإنسانية.. فمن أهم حقوق الإنسانية أن يختار الإنسان لنفسه على بيِّنة وعلم ويقين، ويجب أن يظهر تميز هذا الدين، وعظمته، ومقاصده.. ويقول للإنسان

ـ كل الإنسان ـ بكل وضوح: إن هذا الدين هو دين الله الحق الذي لن يقبل الله سواه، وإن من لم يدخل فيه فلن يُتقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين.

ـ وإنَّ هذا التميز والتفرقة ـ من أجل حماية الحق ومن أجل نجاة الإنسانية ـ لا يقوم على الاضطهاد، والقهر، ومحاكم التفتيش، وإدخال الناس قهراً في الدين، ومحو ثقافتها، وتاريخها، ولغتها ـ كما حصل مع الأديان الباطلة المحرفة والمخترعة ـ كلا! بل هو يحمي حرية العقيدة، ويُطَمِئن أهلها، ويضمن لهم حقوقهم المادية، والمعاملة الحسنة الطيبة، طالما هم مسالمون للإسلام والمسلمين. والواقع التاريخي للمسلمين يشهد بذلك.

بينما تأتي العلمانية اليوم بدينها لتفرضه على الناس فرضاً ـ ولا تسميه ديناً ـ تأتي لتُعلمنا "حقوق الإنسان" وترى في هذا التميز والتفرقة أنه اضطهاد للإنسانية وعنصرية! بينما يديها تقطر دماً ـ من قهر واستعباد المستضعفين خاصة المسلمين ـ مذ نشأت وحتى يومنا هذا!

وإنَّ هذا البيان ضروري لكل مسلم ولكل حركات التغيير التي ربما يخجل البعض فيها من إسلامه! أو يحاول أن يُكيف خطابه مع "الخطاب العلماني".

فهناك اختلاف بين "رسالة الإسلام" و"رسالة العلمانية" فيما يخص التمييز على أساس الدين.. فالإسلام يقوم بالأساس على قاعدة:﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ويقوم على تبليغ هذه الرسالة لكل إنسان، مع ضمان حرية العقيدة لمن لا يريد الدخول فيه..

بينما العلمانية: تقوم بالأساس على رفض كل ما هو ديني، ورفض كل ما هو غيبي، وتفرض نمط حياتها ـ دينها على الناس فرضاً، وتريد أن تَعلو هي، ويكون لها الحكم، والمرجعية، ومن ثم تتساوى بعد ذلك الأديان في نظرها، ولا تُفرق بينهم على أساس ديني، ثم تجد نفسها أنها في صدام دائم مع الإسلام ـ الذي لا يستسلم والذي ينطلق نور كتابه أبداً ـ فتقوم على محاربته على وجه الخصوص، حيث الصدام واقع لا محالة!

ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد، فالعلمانية قررت ـ فيما بعد ـ أن من جوهر الحقوق الإنسانية، عدم التمييز على أساس النوع (الجندر) الاجتماعي، وأقرت ـ ودعت البشرية كلها ـ إلى الإقرار بحقوق "أحفاد قوم لوط" وتحاول أن تفرض ذلك عليهم من كل طريق!

فهي تحكم لا معقب لحكمها، ولا راد له، ومن يرده فهو يخالف الشرعية الدولية، ومواثيق حقوق الإنسان العالمية [1]، ويجب أن يُعاقب؛ فهي تفرض مقرراتها ومحدداتها بكل قوة على البشرية، ولا ترى في ذلك أدنى غضاضة أو عدوان على حقوق الإنسان الذي يرفض دينياً أو أخلاقياً هذه الفواحش، ولا عجب في ذلك فقد استباحت كل شيء وسحقت كل شيء وهي تستعبد وتسترق الشعوب الضعيفة![2]

بل قررت هذه العلمانية أن تجمع الأديان الثلاث (اليهودية، والمسيحية، والإسلام) في بيت واحد (البيت الإبراهيمي) لأغراض سياسية، أهمها: هيمنة بني إسرائيل على قلب العالم الإسلامي، وتوهين أمر الرسالة الإسلامية، ومحاولة إنشاء أجيال من المسلمين تنظر إلى الإسلام نظرة محلية ثقافية وراثية لا يقوم عليها اجتماع ولا سياسة ولا حكم ولا تشريع، ولا حضارة ولا نمط حياة؛ وذلك من أعمال الكفر الصريح.

وهكذا تتحرك العلمانية في واقع الحياة، وتريد أن تعلو، وتتسوّد، وتحكم هي وحدها، ويبقى كل غيرها يدور في فلكها، ويخدمها، ويؤيدها، ويباركها، وفي أضعف حالات الإيمان إن لم يخدمها، فلا يقاومها، ولا يُعاديها، ولا يرد كلمتها! وإلا فهي له بكل أنواع وأشكال الحروب.

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ كتاب: "المثلية الجنسية بين الإسلام والعلمانية".

(2) انظر ـ على سبيل المثال: "الإسلام وحقوق الإنسان، د. محمد عمارة]

كما حكمت العلمانية من قبل في شؤون الحكم والسياسة والاقتصاد والفكر والثقافة[1]، وأقرت ما هو الحق والصواب، وما هو الباطل والخطأ.. بينما ذلك من أخص خصائص الإسلام.

***

"قالت مجلة "شؤون دولية: إن أوربيين كثيرين يتساءلون عما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام في المجال السياسي والاجتماعي يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحي ـ الغربي، الذي يميز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها في ديمقراطية علمانية؟

إنَّ النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول: "إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوّض الإيمان الديني، صالحة على العموم.. فلقد تناقص التأثير السياسي والسيكولوجي للدين عملياً، في كل المجتمعات وبدرجات متفاوتة، وأشكال مختلفة.. لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جداً من هذا !.. فلم تتم أي علمنة في عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية، وهي بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت. **إن الإسلام مقاوم للعلمنة**، والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحاً في ظل مختلف النظم السياسية ـ راديكالية.. وتقليدية.. وبين النوعين ـ.

إنَّ وجود تقاليد محلية للإسلام[2].. قد مكّن العالم الإسلامي من أن يفلت من المعضلة التي أرّقت مجتمعات أخرى "غير متطورة" أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال.. معضلة إضفاء الطابع المثالي على الغرب ومحاكاته.. **لقد امتلك الإسلام**

(1) انظر مقال: "اليسار الناعم".

(2) تقاليد وتعاليم الإسلام عالمية، وتوجهها عالمي، يستهدف الإنسانية جمعاء.. باعتباره الدين الخاتم الذي جاء به الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم. والطابع المثالي الرباني بحق هو للإسلام دين الله الذي لا يقبل غيره.

مقومات الإصلاح الذاتي، باسم الإيمان المحلي، وذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة..

إنَّ الإسلام ـ من بين الثقافات الموجودة في الجنوب ـ هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه **الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي للثقافة العلمانية الغربية**"[1]

"ولما كان الدين الحقيقي يشمل الدنيا والآخرة، ويضم الإنسان والمجتمع بروحه ومادته، ويحيط بكل شيء فإن العلمانية تجاهه لا توصف إلا بأنها (غير دينية) أي ضد الدين وهادمة للدين، ولذلك فإنه استناداً إلى المفهوم العلمي الخالص فإن العلمانية لا تعني بالنسبة للإسلام إلا هدماً له وتقويضاً لأركانه، وأن من المستحيل إمكان إيجاد الوفاق بين العلمانية والإسلام"[2]

فالإسلام ـ كما جاء في كتاب الله ـ ليس مجرد عقيدة روحية، بل هو "نظام حياة شامل"، وهو في نظر الغرب يتحدى حضارتهم وفكرهم ونظام حياتهم.. فالنظام العلماني العالمي يحارب الإسلام على وجه الخصوص، يحاربه لأسباب دينية محضة، ولأسباب احتلالية، ولأسباب نفسية، ولأسباب تاريخية، ولأسباب اقتصادية.. ويحارب من أجل استعباد البشرية، وجعلها تدور في فلك الملذات الحسية، وخلق المجتمع الاستهلاكي، والإيمان الأوحد بالمادية الخالية من أي بعد غيبي؛ وكل ذلك يصنع سياسة الغرب العلماني السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والسلوكية..

---

(1) [الإسلام في عيون غربية، د. محمد عمارة، ص 55، نقلاً عن مجلة شؤون دولية سنة 1991م]

(2) [كتاب: "الرجل الصنم" مترجم عن التركية، ص 229، لضابط تركي سابق مجهول الهوية ـ نظراً للقانون الساري حتى الآن الذي يحمي "كمال أتاتورك" من أي نقد! ـ وهو مثال للضابط المسلم العارف بدينه، البصير بواقعه، اخترتُ أن أنقل عنه هذه الكلمات لنُبين أن معرفة الإسلام ليست حكراً على المثقفين الإسلاميين، بل يجب أن تكون هذه المعرفة روح عامة تسري في كل مكونات المجتمع وقطاعاته]

فهو يعتبر الإسلام عدوه الأول ، ويجب أن يُحرّف الإسلام ـ باسم التجديد ـ ليتلاءم ويتوافق مع المبادئ العلمانية العولمية، ومقررات النظام العالمي، فالإسلام الذي ينظم الحياة الدنيا، ويَعد بالحياة الآخرة ويدعو للعمل لها وإلى تقوى الله، يعتبر ـ في نظرهم ـ المُعادي والمنافس لفكر العولمة العلماني المادي والغربي عموماً، فهم يعتقدون أنه لا يمكن إقامة النظام العلماني العالمي في ظل وجود الإسلام كنظام حياة ودولة تتجاوز الغرائز المادية البسيطة!

وصحيح إنَّ الإسلام يرفض ويحارب استعباد البشرية باسم المادة وباسم العلمانية، ويرفض ويحارب عدوان الكافرين على الضمير الإنساني، والحرية الإنسانية، والحقوق الإنسانية، وقبل كل ذلك عدوانهم على دين الله الحق، ولذا فهم يحاربون هذا الدين بكل وسيلة، ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

***

إنَّ الله ـ جل جلاله ـ لا يَقبل أن يكون المسلم يُسلم وجهه لله في العبادة، ولا يُسلم وجهه لله في الشعائر والنظم الاجتماعية والسياسية والتشريعية والثقافية والفكرية والأخلاقية والحقوقية... إلخ، فيكون مُسلما في العبادة (الشعيرة)، وعلمانياً في شؤون الحياة، فهو بذلك لم يُسلم وجهه لله على الحقيقة.

كما أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يَقبل من المسلم مجرد الانتساب والاسم.. بينما لا يؤدي شعيرة، ولا يعبأ بشريعة، ولا يَقضي بما قَضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 22]

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112]

فحركات التغيير ـ والمسلمون بشكل عام ـ ينظرون إلى كل هذه الدعاوى إلى "حقوق الإنسان" وغيرها من الدعوات والمواثيق، نظرة المدقق الفاحص المميز، وليس نظرة المنهزم المستسلم الأعمى.. فما يوافق فيها الإسلام يقبله "باسم الله" ويتعاون فيه، وما يخالفه يرده من فوره "باسم الله" مع بيان دين الحق فيما يقبله ويخالفه، ويقاوم الإثم والعدوان..

ومن ثم يقوم المسلمون بالدعوة إلى هذه الحقوق، وإقامتها في واقع الحياة "باسم الله" مخلصين له الدين.

وإنَّ المسلمين حين يسعون إلى الدعوة إلى دين الله، وإلى التمكين لدين الله في الأرض، فإنهم لا يُلبسون الإسلام زِياً غير زِيه ليوافق أهواء الجماهير "إن الإسلام هو الإسلام. والاشتراكية هي الاشتراكية. والديمقراطية هي الديمقراطية.. ذلك منهج الله ولا عنوان له ولا صفة إلا العنوان الذي جعله الله له، والصفة التي وصفه بها.. وهذه وتلك من مناهج البشر. ومن تجارب البشر.. وإذا اختاروها فليختاروها على هذا الأساس.. ولا ينبغي لصاحب الدعوة إلى دين الله، أن يستجيب لإغراء الزي الرائج من أزياء الهوى البشري المتقلب. وهو يحسب أنه يحسن إلى دين الله!

على أننا نسأل هؤلاء الذين هان عليهم دينهم، ولم يقدروا الله حق قدره.. إذا كنتم تقدمون الإسلام اليوم للناس باسم الاشتراكية، وباسم الديمقراطية، لأن هذين زيان من أزياء الاتجاهات المعاصرة.. فلقد كانت الرأسمالية في فترة من الفترات هي الزي المحبوب عند الناس وهم يخرجون بها من النظام الإقطاعي! كما كان الحكم المطلق في فترة من الفترات هو الزي المطلوب في فترة التجميع القومي للولايات المتناثرة كما في ألمانيا وإيطاليا أيام بسمرك وماتزيني مثلا! وغداً من يدري ماذا يكون الزي الشائع من الأنظمة

الاجتماعية الأرضية وأنظمة الحكم التي يضعها العبيد للعبيد، فكيف يا ترى ستقولون غداً عن الإسلام؟ لتقدموه للناس في الثوب الذي يحبه الناس؟!

إن التوجيه القرآني... يريد أن يستعلي صاحب الدعوة بدينه، فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين، ولا يحاول تزيين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه، ولا مخاطبة الناس به بغير منهجه ووسيلته.. إن الله غني عن العالمين. ومن لم يستجب لدينه عبودية له، وانسلاخاً من العبودية لسواه، فلا حاجة لهذا الدين به، كما أنه لا حاجة لله ـ سبحانه ـ بأحد من الطائعين أو العصاة.[1]

ثم إنه إذا كان لهذا الدين أصالته من ناحية مقوماته وخصائصه، التي يريد الله أن تسود البشرية. فإن له كذلك أصالته في منهجه في العمل، وفي أسلوبه في خطاب الفطرة البشرية.. إن الذي نزل هذا الدين بمقوماته وخصائصه، وبمنهجه الحركي وأسلوبه، هو ـ سبحانه ـ الذي خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه"[2]

ويقول الزعيم المصري مصطفى كامل (رحمه الله): "بأي كتاب نقتدي وبأي دستور نهتدي.. نقتدي بكتاب مجيد، ودستور فريد، شرعه لنا فاطر السموات والأرض، وما فرط فيه من شيء. كتاب شريف وقرآن منيف. الحق يقدُمه والنور يحيط به من كل جانب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. كتاب يكفل لنا السعادة الدنيوية والأخروية، ويحقق لنا إن اتبعناه رضاء الخالق والناس والسريرة الإنسانية علينا.

كتاب آياته بينات وبالحق ناطقات. تنشرح لقراءتها الصدور وينتقل بتلاوتها مَن في الظلمات إلى النور، كتاب أنواره ساطعة وأحكامه باهرة. تأخذ بلب من رآها حتى أن

(1) انظر مقال: "المُتدين العلماني".
(2) [في ظلال القرآن، سيد قطب، ص1083]

أعداءه الكافرين وحساده الخاسرين أقروا بأنفسهم أنه الدستور الجدير بأن يُتبع والقانون الكافل للمعاش والمعاد. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين.

ألا ترى ـ أيها القارئ النبيل ـ كيف أن فئة قليلة من العرب تحت قدوة الطاهر الشريف سيدنا ونبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ غلبت فئات قوية وأدخلتها في ذلك الدين الحنيف القويم؟

ألا ترى كيف أن المسلمين في صدر الإسلام ملكوا الأرض من مشارقها إلى مغاربها وتفردوا بالكلمة وتوحدوا بالسلطة حتى علا مجدهم الفرقدين، وغدت أنوار الشمس لا تغيب عن أملاكهم تلك الأملاك الشاسعة، والأراضي الواسعة، والقصور الشاهقة، والمباني العالية، والحصون القوية، والقلاع الحصينة، مما لم تستطع أية دولة من أعظم الدول قوة واقتداراً أن تجاري دولة الإسلام فيه.

كل ذلك باتباع القرآن الشريف الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فما بالنا معشر المسلمين لا نتبعه وقد علمنا أنه عنوان سعادتنا وقائدنا إلى طريق مجدنا؟

فلنجعله نبراساً في أعمالنا وسراجاً وهاجاً في حركاتنا وسكناتنا **ولا نكن كمن غره السراب فهو يغتر بأقوال الخسرة المموهين، والكفرة الخاسرين الذين يقولون: إن القرآن أُنزل لعصر لا لكل الأعصار، ولقوم لا لكل الأقوام!**

بل لنعلم حق العلم أن في اتباع القرآن الوصول إلى أعلى منائر الحضارة والمدنية"[1]

***

وقال تعالى لنبيه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94]

(1) [كتاب: "مصطفى كامل باشا في 34 ربيعاً"، ص 252، مقال: "بأي كتاب نقتدي؟" بتاريخ: يونيو 1893م] وللمزيد انظر كتاب: "ما أخفاه العلمانيون من تاريخ مصر الحديث"، معتز زاهر]

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39]

وقال جل جلاله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15]

***

18- السُنة النبوية السياسية

أقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دولته بالمدينة المنورة على أساس: الدعوة إلى الله، وحفظ الأمة المسلمة من شر أعدائها، وبلاغ رسالة الله إلى العالمين، وبالجملة: الاستخلاف الراشد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41] وتحقق وعد الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: 55-56]

وكان من معالم سنته ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي تُحدد معالم الفقه السياسي الإسلامي:

1- التواضع:

ـ "عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: "**هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ**(1)، **إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**" [سنن ابن ماجه/ 3312]

ـ "عَنْ عُمر بن الخطاب، قال: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "النظام الملكي في الإسلام".

مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قَالَ: "مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ "قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ، وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ، فَقَالَ: "يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا" [صحيح مسلم/ 1479]

ـ "عَنِ الْأَسْوَدِ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، مَا كَانَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: **"كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ"** [صحيح البخاري/ 676]

ـ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا سُئِلَتْ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: **"كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ"** [مسند الإمام أحمد/ 24381]

ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: **إِنْ كَانَتِ الْأَمَةُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهَا حَتَّى تَذْهَبَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ مِنْ الْمَدِينَةِ فِي حَاجَتِهَا"** [سنن ابن ماجه/ 4177]

ـ عَنِ ابْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **"مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوْ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ"** [مسند الإمام أحمد/ 5959]

ـ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ"** [سنن أبي داود/ 4895]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ"** [صحيح مسلم/ 2590]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعَلِ الَّذِي يُدَهْدِهُ الْخِرَاءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ"** [جامع الترمذي/ 3955] الجُعَل: دُوَيبّة سَوْدَاء تُدِير الخِرَاء بِأَنْفِهَا. (عُبِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ): فَخْرِهَا وتكبّرها ونَخْوتها.

ـ عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، قَالَ: قَامَ رَجُلٌ يُثْنِي عَلَى أَمِيرٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ، فَجَعَلَ الْمِقْدَادُ يَحْثِي عَلَيْهِ التُّرَابَ، وَقَالَ: **"أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَحْثِيَ فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ"** [صحيح مسلم/ 3002]، أي: لا تعطوا المداحين شيئاً من المال أو المكانة.

وفي رواية: عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: **سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي الْمِدْحَةِ، فَقَالَ: "لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ"** [صحيح مسلم/ 3003]

ـ عَنْ أَبِي ذَرٍّ: **"كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَيْ أَصْحَابِهِ، فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ، فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ،** فَطَلَبْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَجْعَلَ لَهُ مَجْلِسًا يَعْرِفُهُ الْغَرِيبُ إِذَا أَتَاهُ، قَالَ: فَبَنَيْنَا لَهُ دُكَّانًا مِنْ طِينٍ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ وَكُنَّا نَجْلِسُ بِجَنْبَتَيْهِ" [سنن أبي داود/ 4698]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ: **" أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَرَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ،** فَقُلْنَا لَهُ: هَذَا الْأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ أَجَبْتُكَ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي سَائِلُكَ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشْتَدٌّ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، قَالَ: **"سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ..."** [سنن أبي داود/ 486، سنن النسائي الصغرى/ 2077]

ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك، قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَقْبَلَهُ الرَّجُلُ فَصَافَحَهُ لَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ يَنْزِعُ، وَلَا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَصْرِفُهُ، وَلَمْ يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ" [جامع الترمذي/ 2490]

ـ عَن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى يَقُولُ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ الذِّكْرَ وَيُقِلُّ اللَّغْوَ وَيُطِيلُ الصَّلَاةَ وَيُقَصِّرُ الْخُطْبَةَ، وَلَا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ فَيَقْضِيَ لَهُ الْحَاجَةَ" [سنن النسائي/ 1414]

ـ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُ الْمَرِيضَ، وَيَتْبَعُ الْجَنَازَةَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَكَانَ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَيَوْمَ قُرَيْظَةَ، وَالنَّضِيرِ، عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِنْ لِيفٍ، تَحْتَهُ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ" [أخلاق النبي لأبي الشيخ الأصبهاني/ 36]

ـ عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَوْمَ الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

"لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا فَأَنْزِلِ السَّكِينَةَ عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا" [صحيح البخاري/ 2837]

ـ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: "لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ" [جامع الترمذي/ 2754]

ـ عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ"، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ" [صحيح البخاري/ 6467]

***

2- الصبر على البلاء:

ـ "عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا: لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا، قَالَ: **"كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"** [صحيح البخاري/ 3612]

ـ "عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ، عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ نَعُودُهُ فِي نِسَاءٍ، فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ، يَقْطُرُ مَاؤُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنْ حَرِّ الْحُمَّى، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ"**(1) [مسند الإمام أحمد/ 26538]

ـ عن أبي بكر الصديق، مرفوعاً "ثُمَّ يُقَالُ: **ادْعُوا الْأَنْبِيَاءَ، قَالَ: فَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعِصَابَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْخَمْسَةُ وَالسِّتَّةُ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ"** [مسند الإمام أحمد/ 16]

ـ "عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، قَالَ: "أَقْبَلْتُ وَرَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ آخِذٌ بِيَدَيَّ وَنَحْنُ نَتَمَاشَى بِالْبَطْحَاءِ، إِذْ أَتَيْنَا عَلَى أَبِي عَمَّارٍ، وَعَمَّارٍ، وَأُمِّهِ، وَهُمْ يُعَذَّبُونَ. فَقَالَ يَاسِرٌ: أَهَكَذَا يَكُونُ الدَّهْرُ كُلُّهُ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ـ

---

(1) ولا حرج في الدعاء بالشفاء والتبشير به، فهذا من سنته عليه السلام، ولكنه يعلم أصحابه أن كونه رسولاً من عند الله لا يعني أنه لا يُبتلى أو لا يمرض كبقية البشر، بل الأنبياء من أشد الناس بلاءً.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **اصْبِرْ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لآلِ يَاسِرٍ، وَقَدْ فَعَلْتَ"** [أنساب الأشراف/ (1: 183)، والطبقات الكبرى]، وفي رواية المستدرك: **"صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ"**

ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ: **"عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ"** [سنن ابن ماجه/ 4031]

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"** [صحيح البخاري/ 5642]

وفي رواية: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا، أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا"** [صحيح مسلم/ 2577]

ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ في حديث نزول الوحي: قال وَرَقَةُ بنُ نوفل للنبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ"** [صحيح البخاري/ 4]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: **قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَسْمًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّهَا لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَسَارَرْتُهُ، فَغَضِبَ مِنْ ذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ، حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَذْكُرْهُ لَهُ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: "قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ"** [صحيح مسلم/ 1064]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ، خَرَجَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِلَى الطَّائِفِ، مَاشِيًا عَلَى قَدَمَيْهِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُجِيبُوهُ، فَانْصَرَفَ، فَأَتَى ظِلَّ

شَجَرَةٍ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: "**اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ، فَلا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُقْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِكَ**" [الدعاء للطبراني/ 1036]

ـ عَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**" [صحيح البخاري/ 6498] "المعنى: لا تجد في مائة إبل راحلة تصلح للركوب، لأن الذي يصلح للركوب ينبغي أن يكون وطيئًا سهل الانقياد...

وقال الخطابي: العرب تقول للمائة من الإبل إبلٌ يقولون لفلان إبل أي مائة بعير، ولفلان إبلان أي مائتان. والمقصد: "يأتي زمان يكون الناس فيه كثيرين، ولكن المرضي منهم والذي يلتزم شرع الله عز وجل قليل، شأن الإبل الكثيرة التي تبلغ المائة، ولا تكاد توجد منها واحدة تصلح للركوب والانتفاع بها"(1)

***

3- قيام الليل:

ـ "عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: **كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِذَا صَلَّى، قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، فَقَالَ يَا عَائِشَةُ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**" [صحيح مسلم/ 2820]

(1) [«فتح الباري لابن حجر» (11/ 335)]، وتعليق المحقق د. مصطفى البغا]

ـ وسأل ثَوبان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عمل يُدخله الجنة، فقال: "**عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**" [صحيح مسلم/ 488]، وفي رواية:

سأل رَبِيعَةَ بْنَ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيَّ مرافقة رسول الله في الجنة، فقال له: "**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ، بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**" [صحيح مسلم/ 489]

ـ عَن سالِمِ بنِ عبدِاللَّهِ بنِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ، عَن أَبِيهِ: أَنَّ رسولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**نِعْمَ الرَّجلُ عبدُ اللَّهِ لَو كانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**" **قالَ سالِمٌ: فكَانَ عَبْدُاللَّهِ بعْدَ ذلكَ لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيلِ إِلاَّ قَلِيلًا**" [صحيح البخاري/ 3739]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**" [سنن ابن ماجه/ 3815]

ـ عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي قَوْلِهِ: "﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾"، قَالَ: "**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**" [جامع الترمذي/ 2969]

***

4- بناء الأخلاق الربانية[1]:

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**" [مسند الإمام أحمد/ 8729]

ـ عَن عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى**

(1) وبذكر هذه الأخلاق الربانية فإننا بذلك لم نبعد أبداً عن موضوعنا في "العقيدة السياسية"، بل هو أصله وصميمه، وبغياب الأخلاق الربانية يتحول الإنسان إلى دجال مفسد، لا مسلماً لله حنيفاً.

اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ" [صحيح البخاري/ 6953]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ"** [صحيح مسلم/ 2988]

ـ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنْ **"لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُطِّعْتَ وَحُرِّقْتَ، وَلَا تَتْرُكْ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا، فَمَنْ تَرَكَهَا مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ، وَلَا تَشْرَبْ الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ"** [سنن ابن ماجه/ 4034]

ـ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: **قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ...** قَالَ: **"قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ"** [صحيح مسلم/ 41]

ـ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي"** [جامع الترمذي/ 2411]

ـ عن أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا، أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ".** [صحيح مسلم/ 5]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ، إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"** [صحيح مسلم/ 1635]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ"** [صحيح مسلم/ 1468]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**" [صحيح البخاري/ 5090]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟** قَالَ: "**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ** "، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ، قَالَ: "**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**" [سنن ابن ماجه/ 4216]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا**" [جامع الترمذي/ 1162]

ـ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**" [جامع الترمذي/ 1987]

ـ عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: "سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟ فَقَالَ: **الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**" [صحيح مسلم/ 2555]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ**" [صحيح البخاري/ 6069]

ـ عَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ: "**لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ، بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ جَلَ جَلَالَه هَبَاءً مَنْثُورًا**"، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: "**أَمَا**

إِنَّهُم إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا[1]" [سنن ابن ماجه/ 4245]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: **"إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"** [صحيح مسلم/ 2584]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **"الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِطُ"**، وفي رواية: **"مَنْ يُخَالِلُ"** [مسند الإمام أحمد/ 7968]

ـ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: **"أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ"** [جامع الترمذي/ 2406]

ـ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ"** [جامع الترمذي/ 2002]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ"** [صحيح مسلم/ 47]

---

(1) لعل قيام الليل كان سمعة ورياء، وانتهاك محارم الله سواء على المستوى الأخلاقي الذي يتسافل بالنفس، أو ظلم الناس ـ مع مراعاة الحفاظ على شكل الورع والتقوى للناس ـ فلم تمنعهم تقوى الله من انتهاك الكبائر عندما كانت لهم القدرة على ارتكابها وتمادوا فيها، ولم يتوبوا منها.. فالنهك المبالغة في كل شيء، فتذهب حسناتهم وتحبط أعمالهم إما لنية السوء والرياء، وإما لوجود مظالم كثيرة تأخذ هذه الحسنات، كما جاء في الحديث التالي.

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ" [صحيح مسلم/ 2702]

ـ عَنْ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، قال رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "الْيَسِيرُ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَمَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَبْرَارَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ، الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ" [المستدرك على الصحيحين/ (1 : 4)]

ـ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ" [صحيح مسلم/ 2629]

ـ عَنْ عبد الله بن قيس الأشعري، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ" قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: "فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ" قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: "فَيُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ" قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: "فَيَأْمُرُ بِالْخَيْرِ أَوْ قَالَ بِالْمَعْرُوفِ" قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: "فَيُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ" [صحيح البخاري/ 6022]

ـ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ

وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ" [جامع الترمذي/ 1956]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسعود، قال: قال رسول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ" [صحيح مسلم/ 2187]

ـ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: "كَانَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِذَا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ الشَّيْءُ، لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ، وَلَكِنْ يَقُولُ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا" [سنن أبي داود/ 4788]

ـ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ النَّارَ فَأَعْرَضَ وَأَشَاحَ، ثُمَّ قَالَ: "اتَّقُوا النَّارَ"، ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ كَأَنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ" [صحيح مسلم/ (7 : 101)]

ـ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ" [سنن ابن ماجه/ 2144]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ" [صحيح البخاري/ 10]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ" [جامع الترمذي/ 2627]

ـ عَن حُذَيْفَةُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا

دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ" [صحيح مسلم/ 147]

- عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ، كَانَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا" [صحيح مسلم/ 2723]

- عَنْ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: "الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" [صحيح البخاري/ 52]

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟، قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟، قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟، قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ

فَعلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ" [صحيح مسلم/ 1907]

ـ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ"** [جامع الترمذي/ 2417]

ـ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: **"الْعَامِلُ فِي الصَّدَقَةِ بِالْحَقِّ لِوَجْهِ اللَّهِ كَالْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ـ جَل جَلاله ـ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ"** [مسند الإمام أحمد/ 15399]

ـ عَنْ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ، قال رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"** [صحيح البخاري/ 7151]

ـ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهِ عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ"** [صحيح ابن حبان/ 276]

ـ "عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ"** [مسند الإمام أحمد/ 3928]

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْلَفُ، وَلا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ"** [المستدرك على الصحيحين/ (1: 23)]، وفي رواية: **"المؤمنُ يألَفُ ويُؤْلَفُ، ولا خيرَ فيمَنْ لا يألَفُ ولا يؤلَفُ، وخيرُ الناسِ أنفعُهم للناسِ."** [السلسلة الصحيحة للألباني/ 426]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: **"إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ"** [صحيح البخاري/ 7179]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: **"مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ"** [صحيح مسلم/ 2359]

ـ عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ اللَّهَ حَدَّ حُدُودًا، فَلا تَعْتَدُوهَا، وَفَرَضَ لَكُمْ فَرَائِضَ، فَلا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ، فَلا تَنْتَهِكُوهَا، وَتَرَكَ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْهُ لَكُمْ، فَاقْبَلُوهَا وَلا تَبْحَثُوا فِيهَا"** [المستدرك على الصحيحين/ (4 : 111)]

ـ "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ أَحَدَ شِقَّيْ ثَوْبِي يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "إِنَّكَ لَسْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ خُيَلاَءَ"** [صحيح البخاري/ 3665]

ـ "عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْجَدَلِيِّ يَقُولُ: "سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَتْ: **"لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَلَا صَخَّابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ"** [جامع الترمذي/ 2016]

ـ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ، وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ"** [جامع الترمذي/ 1974]

وفي رواية: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ"** [جامع الترمذي/ 2009]

عَنْ مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: **"مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ"** [جامع الترمذي/ 2380]

ـ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ،**

قَالَ: "أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ، إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ" [صحيح مسلم/ 1009]

ـ "عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَتْ: **"كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾" [مسند الإمام أحمد/ 24079]

ـ "عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا"** [جامع الترمذي/ 2007]

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"كَافِلُ الْيَتِيمِ ـ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ ـ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، إِذَا اتَّقَى اللَّهَ"** [مسند الإمام أحمد/ 8664]

ـ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا عَمْرُو، **نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ"** [صحيح ابن حبان/ 3210]

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"** [السنن الكبرى للنسائي/ 2367]

ـ "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**" [صحيح البخاري/ 2409]

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**" ثَلَاثَ مِرَارٍ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَنْ؟ قَالَ: "**لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ**" [جامع الترمذي/ 1926]

ـ عَنْ عمرو بن أمية، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : "أُرْسِلُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: "**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**" [صحيح ابن حبان/ 731]

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ**" [جامع الترمذي/ 1954]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ**" [صحيح البخاري/ 2387]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، [وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ] وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**" [صحيح مسلم/ 1715، وموطأ الإمام مالك/ 20]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: "**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ**

ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُه فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُم، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُه هَرْوَلَةً" [صحيح البخاري/ 7405]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاسِ، لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا"** [سنن أبي داود/ 5006]

ـ عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: "الْمُتَكَبِّرُونَ".** وَالثَّرْثَارُ، هُوَ الْكَثِيرُ الْكَلَامِ، وَالْمُتَشَدِّقُ الَّذِي يَتَطَاوَلُ عَلَى النَّاسِ فِي الْكَلَامِ وَيَبْذُو عَلَيْهِمْ. [جامع الترمذي/ 2018]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ اللَّهَ عَز وَجل قَالَ: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا زَالَ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي عَبْدِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ".** [السنن الكبرى للبيهقي (3 : 345)، وصحيح البخاري]

ـ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، يَقُولُ: **"لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَز وَجل"** [صحيح مسلم/ 2880]

ـ "عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : **"عَجِبْتُ لِلْمُؤْمِنِ، إِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ اللَّهَ وَشَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ اللَّهَ وَصَبَرَ، فَالْمُؤْمِنُ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ أَمْرِهِ، حَتَّى يُؤْجَرَ فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِهِ"** [مسند الإمام أحمد/ 1495]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**" [صحيح مسلم/ 2667]

ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ**" [مسند الإمام أحمد/ 12569]

***

5- الاقتصاد في العيش، والتحرر من التكالب على الدنيا:

ـ "عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ ابْنَ أُخْتِهَا: "**إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ نَارٌ، فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ جِيرَانٌ مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا**" [صحيح البخاري/ 2567]

ـ "عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: "**لَمَّا حَفَرَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَأَصْحَابُهُ الْخَنْدَقَ أَصَابَهُمْ جَهْدٌ شَدِيدٌ، حَتَّى رَبَطَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَلَى بَطْنِهِ حَجَرًا مِنَ الْجُوعِ**" [مسند الإمام أحمد/ 13808]

ـ "عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: "**مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ الْبُرِّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ**" [صحيح البخاري/ 5416]

ـ "عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: "**مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا أَمَةً إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ الَّتِي كَانَ يَرْكَبُهَا، وَسِلَاحَهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا لِابْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً**" [صحيح البخاري/ 4461]

ـ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**» [سنن الترمذي/ 2346]

ـ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**" [سنن ابن ماجه/ 4105]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ**"(1) [الزهد لابن أبي عاصم/ 130]

ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**" [صحيح مسلم/ 2824]

ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ، وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: "**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا، إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**" [مسند الإمام أحمد/ 2739]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**" [جامع الترمذي/ 2513، وصحيح مسلم]

ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ: هَلْ رَأَيْتَ**

---

(1) والمقصد: إنَّ زينة الدنيا كلها لا تساوي شيئاً أمام الحياة الآخرة، وإن الله في هذه الدنيا يمد الجميع، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20]، فكل نعيم الدنيا لا يساوي غمسة في نار الآخرة، وكل شقاء الدنيا لا يوفي غمسة في نعيم الآخرة.

خيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟، فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟، فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ" [صحيح مسلم/ 2809]

ـ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ"** [سنن ابن ماجه/ 2144]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾" [جامع الترمذي/ 3013]

***

6- إقامة كتاب الله:

ـ "عَنْ يَحْيَي بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَدَّتِي تُحَدِّثُ: أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ، يَقُولُ: **"وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا"** [صحيح مسلم/ 1840]

ـ "عَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ الْأَحْمَسِيَّةِ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ قَدِ الْتَفَعَ بِهِ مِنْ تَحْتِ إِبْطِهِ، قَالَتْ: فَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى عَضَلَةِ عَضُدِهِ تَرْتَجُّ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ، فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ"** [جامع الترمذي/ 1706]

ـ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: وَإِنَّهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ خَطَبَنَا، فَقَالَ: **"إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى الضَّلالَةِ"** [صحيح ابن حبان/ 123]

ـ عَنْ بن عمر، قال: قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"**... وَمَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، إِلا أَلْقَى اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**" [المستدرك على الصحيحين/ (4 : 528)]

ـ عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ، قَالَ: سُئِلَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ:﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أَكَانُوا يُصَلُّونَ لَهُمْ؟ قَالَ "لا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ، فَيَسْتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ، فَيُحَرِّمُونَهُ، فَصَارُوا بِذَلِكَ أَرْبَابًا" [السنن الكبرى للبيهقي/ (10 : 116)]، وفي رواية مرفوعة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وفي سندها مقال): عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: **أَتَيْتُ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: "**﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، **قَالَ: قُلْتَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، قَالَ: "أَجَلْ، وَلَكِنْ يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيَسْتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، فَيُحَرِّمُونَهُ، فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ"** [جامع الترمذي، والسنن الكبرى للبيهقي، وحسنه الألباني]

***

7- الطاعة في المعروف:

ـ "عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: **"بَعَثَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ سَرِيَّةً، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنْ تُطِيعُونِي، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا، فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا، فَبَيْنَمَا**

هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ" [صحيح البخاري/ 7145]

ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"مَنْ أَمَرَكُمْ مِنْهُمْ** [أي من الأمراء] **بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلَا تُطِيعُوهُ"** [سنن ابن ماجه/ 2863]

ـ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **"عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"** [صحيح مسلم/ 1839]

***

8- الدعوة إلى الله:

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً... وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"** [صحيح البخاري/ 3461]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُحَرِّمْ حُرْمَةً إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَطَّلِعُهَا مِنْكُمْ مُطَّلِعٌ، أَلَا وَإِنِّي آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ أَنْ تَهَافَتُوا فِي النَّارِ كَتَهَافُتِ الْفَرَاشِ، أَوْ الذُّبَابِ"** [مسند الإمام أحمد/ 3696، وصحيح البخاري بنفس المعنى]

ـ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: **"لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّهُ رُبَّ مُبَلَّغٍ يُبَلِّغُهُ أَوْعَى لَهُ مِنْ سَامِعٍ"** [سنن ابن ماجه/ 233]

ـ عَنْ عُرْوَةَ: أَنَّ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَى إِكَافٍ عَلَى قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ وَرَاءَهُ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَسَارَ حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ اللَّهِ، وَفِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، وَالْيَهُودِ وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ

بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا، **فَسَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَقَفَ، وَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ**، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ: يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ، إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا، وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ، وَالْمُشْرِكُونَ، وَالْيَهُودُ حَتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى سَكَتُوا، فَرَكِبَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ: أَيْ سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ يُرِيدُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ، قَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ، فَلَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ مَا أَعْطَاكَ، وَلَقَدِ اجْتَمَعَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُوهُ، فَلَمَّا رَدَّ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ شَرِقَ بِذَلِكَ فَذَلِكَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ" [صحيح البخاري/ 5663]

- "عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: **"لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟، فَقَالُوا: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَ بَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا، فَقَالَ: " انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ"** [صحيح البخاري/ 3701]

- "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: **"مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى**

ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا" [صحيح مسلم/ 2676]

- وأرسل - عليه الصلاة والسلام - رسالة إلى إمبراطور الروم، جاء فيها: "**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ، تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ** وَ﴿يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾" [صحيح البخاري/ 2941]

- "عَنْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: "لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ... فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ بَلَغَكُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ أَلا هُوَ ذَا، فَقَالَ مَفْرُوقٌ: بَلَغَنَا أَنَّهُ يَذْكُرُ ذَاكَ، فَإِلَى مَا تَدْعُو يَا أَخَا قُرَيْشٍ؟ فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَجَلَسَ، وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُظِلُّهُ بِثَوْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِلَى أَنْ تُؤْوُنِي وَتَنْصُرُونِي، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ ظَاهَرَتْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، وَكَذَّبَتْ رُسُلَهُ، وَاسْتَغْنَتْ بِالْبَاطِلِ عَنِ الْحَقِّ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**، فَقَالَ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو: وَإِلامَ تَدْعُونَا يَا أَخَا قُرَيْشٍ، فَوَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ كَلامًا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، فَتَلا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إِلَى ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾،

فَقَالَ مَفْرُوقٌ: وَإِلامَ تَدْعُونَا يَا أَخَا قُرَيْشٍ، زَادَ فِيهِ غَيْرُهُ فَوَاللَّهِ مَا هَذَا مِنْ كَلامِ أَهْلِ الأَرْضِ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى رِوَايَتِنَا، قَالَ: فَتَلا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فَقَالَ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو: دَعَوْتَ وَاللَّهِ يَا أَخَا قُرَيْشٍ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَلَقَدْ أَفِكَ قَوْمٌ كَذَّبُوكَ وَظَاهَرُوا عَلَيْكَ،

وَكَأَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَشْرَكَهُ فِي الْكَلامِ هَانِئُ بْنُ قَبِيصَةَ، فَقَالَ: وَهَذَا هَانِئٌ شَيْخُنَا وَصَاحِبُ دِينِنَا، فَقَالَ هَانِئٌ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ يَا أَخَا قُرَيْشٍ، إِنِّي أَرَى إِنْ تَرْكَنَا دِينَنَا وَاتَّبَعْنَاكَ عَلَى دِينِكَ لِمَجْلِسٍ جَلَسْتَهُ إِلَيْنَا لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلا آخِرٌ أَنَّهُ زَلَلٌ فِي الرَّأْيِ، وَقِلَّةُ نَظَرٍ فِي الْعَاقِبَةِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الزَّلَّةُ مَعَ الْعَجَلَةِ، وَمِنْ وَرَائِنَا قَوْمٌ نَكْرَهُ أَنْ يُعْقَدَ عَلَيْهِمْ عَقْدٌ، وَلَكِنْ نَرْجِعُ وَتَرْجِعُ وَنَنْظُرُ وَتَنْظُرُ، وَكَأَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَشْرَكَهُ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ، فَقَالَ: وَهَذَا الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ شَيْخُنَا، وَصَاحِبُ حَرْبِنَا، فَقَالَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ: سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ يَا أَخَا قُرَيْشٍ، وَالْجَوَابُ فِيهِ جَوَابُ هَانِئِ بْنِ قَبِيصَةَ فِي تَرْكِنَا دِينَنَا وَمُتَابَعَتُكَ عَلَى دِينِكَ، وَإِنَّا إِنَّمَا نَزَلْنَا بَيْنَ صَرَيَيْنِ الْيَمَامَةِ، وَالسَّمَامَةِ،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: مَا هَذَانِ الصَّرَيَّانِ؟ فَقَالَ: أَنْهَارُ كِسْرَى وَمِيَاهُ الْعَرَبِ، فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَنْهَارِ كِسْرَى، فَذَنْبُ صَاحِبِهِ غَيْرُ مَغْفُورٍ وَعُذْرُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَأَمَّا مَا كَانَ مِمَّا يَلِي مِيَاهَ الْعَرَبِ، فَذَنْبُ صَاحِبِهِ مَغْفُورٌ وَعُذْرُهُ مَقْبُولٌ، وَإِنَّا إِنَّمَا نَزَلْنَا عَلَى عَهْدٍ أَخَذَهُ عَلَيْنَا أَنْ لا نُحْدِثَ حَدَثًا وَلا نُؤْوِي مُحْدِثًا وَإِنِّي أَرَى أَنَّ هَذَا الأَمْرَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ يَا قُرَشِيُّ، مِمَّا يَكْرَهُ الْمُلُوكُ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ نُؤْوِيَكَ وَنَنْصُرَكَ مِمَّا يَلِي مِيَاهَ الْعَرَبِ فَعَلْنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ دِينَ اللَّهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ"** [دلائل النبوة للبيهقي/ 2 : 422، البداية والنهاية لابن كثير]

ـ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ"** [صحيح مسلم/ 1895]

ـ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ السُّوَائِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: "**لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ ظَاهِرًا عَلَى كُلِّ مَنْ نَاوَأَهُ، وَلَا يَضُرُّهُ مَنْ خَالَفَهُ أَوْ فَارَقَهُ**" [مسند الإمام أحمد/ 20430]

***

9- تحقيق العزة لدين الله بالجهاد في سبيله:

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**" [صحيح البخاري/ 3123]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ سُئِلَ، **أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ**" [صحيح البخاري/ 26]

ـ "عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ**" [صحيح البخاري/ 2518]

ـ "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**" [جامع الترمذي/ 2174]

ـ "عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**" [سنن أبي داود/ 3462]

ـ "عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**إِذَا يَعْنِي ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَتَبَايَعُوا بِالْعَيْنِ، وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَلَاءً، فَلَمْ يَرْفَعْهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ**" [مسند الإمام أحمد/ 4810]

ـ "عَنْ يَزِيدَ بْنَ أَبِي حَبِيبٍ، يَقُولُ: حَدَّثَنِي أَسْلَمُ أَبُو عِمْرَانَ مَوْلًى لِكِنْدَةَ، قَالَ: كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا، مِنَ الرُّومِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِثْلُهُ، أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ بِهِ النَّاسُ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، تُلْقِي بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: "**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّا لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَكَثَّرَ نَاصِرِيهِ، قُلْنَا بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا، مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَكَثَّرَ نَاصِرِيهِ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنَّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا:** ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، **فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةَ فِي أَمْوَالِنَا، وَإِصْلَاحَهَا، وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ"، قَالَ: وَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ**" [صحيح ابن حبان/ 4711]

ـ وفي غزوة بدر، قال رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لأصحابه: "**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**"، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟"، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: "فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا"، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ" [صحيح مسلم/ 1903]

ـ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: **أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ وَاسْتَخْلَفَ عَلِيًّا، فَقَالَ: أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ، قَالَ: "أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي"** [صحيح البخاري/ 4416] والشاهد هاهنا في الحديث أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نَدب الناس كلهم للخروج في سبيل الله، فلم يتبق إلا الصبيان والنساء والعجزة، ومن يقوم على أمرهم؛ حتى لكان تخلّف ثلاثة من الصحابة حدث جلل نزلت فيه آيات من سورة التوبة، وأطلقت حملة شديدة على المُتخلّفين من المنافقين.

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ"** [صحيح مسلم/ 1912]

وفي أخلاق الجهاد:

ـ "عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: **جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"** [صحيح البخاري/ 2810]

ـ "عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ: **الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟، قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"** [صحيح البخاري/ 7458]

ـ "عَن هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: **"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ"** [صحيح البخاري/ 2797]

ـ "عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ " قَالُوا: بَلَى، قَالَ: "صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ "**، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ: **"هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ"** [جامع الترمذي/ 2509]

وفي قتال المعتدين منهم:

ـ "عَن أَنَسِ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا وَلَا طِفْلًا وَلَا صَغِيرًا وَلَا امْرَأَةً وَلَا تَغُلُّوا وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"** [سنن أبي داود/ 2614]

ـ "عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: **وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ " فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ، وَالصِّبْيَانِ"** [صحيح البخاري/ 3015]

ـ "عَن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، قال: **"اغْزُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، لا تَغُلُّوا وَلا تَغْدِرُوا وَلا تُمَثِّلُوا وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، فَهَذَا عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَسُنَّتُهُ فِيكُمْ"** [البحر الزخار/ 6175]

***

10- دفع الظلم ومحاربته:

ـ "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَتَقَاضَاهُ دَيْنًا كَانَ عَلَيْهِ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى قَالَ لَهُ: أُحَرِّجُ عَلَيْكَ إِلَّا قَضَيْتَنِي. فَانْتَهَرَهُ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا: وَيْحَكَ! تَدْرِي مَنْ تُكَلِّمُ؟ قَالَ: إِنِّي أَطْلُبُ حَقِّي. فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"هَلَّا**

مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ"، ثُمَّ أَرسَلَ إِلَى خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ، فَقَالَ لَهَا: "إِنْ كَانَ عِنْدَكِ تَمْرٌ فَأَقْرِضِينَا حَتَّى يَأْتِيَنَا تَمْرُنَا فَنَقْضِيَكِ"، فَقَالَتْ: نَعَمْ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَقْرَضَتْهُ، فَقَضَى الْأَعْرَابِيَّ وَأَطْعَمَهُ، فَقَالَ: أَوْفَيْتَ أَوْفَى اللَّهُ لَكَ، فَقَالَ: "أُولَئِكَ خِيَارُ النَّاسِ، إِنَّهُ لَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ" [سنن ابن ماجه/ 2426]

- "عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا رَوَى، عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: "يَا عِبَادِي: إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي: كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ..." [صحيح مسلم/ 2580]

- "عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، أَنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ" [جامع الترمذي/ 2168]، وفي رواية: "مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ" [سنن أبي داود/ 4338]

- "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ،

ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِلَى قَوْلِهِ فَاسِقُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا" [سنن أبي داود/ 4336]

ـ "عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**"، **قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَصَرْتُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: "تَكُفُّهُ عَنِ الظُّلْمِ فَذَاكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ**" [جامع الترمذي/ 2255، وصحيح البخاري]

***

11- إنكار المنكر، والنهي عن تأييد الطغاة والظالمين والفاسدين (المسؤولية الاجتماعية السياسية):

ـ "عَن أَبِي سعيد الخدري، قال "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**". [صحيح مسلم/ 49]

ـ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**سَيَكُونُ مِنْ بَعْدِي خُلَفَاءُ يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَسَيَكُونُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلَفَاءُ يَعْمَلُونَ مَا لا يَعْلَمُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ أَنْكَرَ بَرِئَ، وَمَنْ أَمْسَكَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**" [صحيح ابن حبان/ 6658]

ـ "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَن رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ**" [صحيح مسلم/ 50]

ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**تَكُونُ أُمَرَاءُ تَغْشَاهُمْ غَوَاشٍ، أَوْ حَوَاشٍ مِنَ النَّاسِ، يَظْلِمُونَ، وَيَكْذِبُونَ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ، فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ،**

وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَيُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَيُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ" [مسند الإمام أحمد/ 10808]

ـ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَتْ: **يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ "إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"** [موطأ الإمام مالك/ 1864]

وجاء في الأثر: عَنِ ابْنِ عُمَرَ، [مرفوعاً] قَالَ: **"لَنْ تَهْلِكَ الرَّعِيَّةُ ـ وَإِنْ كَانَتْ ظَالِمَةً سَيِّئَةً ـ إِذَا كَانَتِ الْوُلاةُ هَادِيَةً مَهْدِيَّةً، وَلَكِنْ تَهْلِكُ الرَّعِيَّةُ ـ وَإِنْ كَانَتْ هَادِيَةً مَهْدِيَّةً ـ إِذَا كَانَتِ الْوُلاةُ ظَالِمَةً سَيِّئَةً"** [فضيلة العادلين لأبي نعيم/ 38، والموقوف أصح فيما أرى]

ـ عَنْ طَارِقِ بن شهاب البجلي، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **"كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ".** [مسند الإمام أحمد / 18447]

ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **"لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا مِنْكُمْ مَخَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا رَآهُ أَوْ عَلِمَهُ"** [مسند الإمام أحمد/ 11010]

ـ عَنِ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا"** [صحيح البخاري/ 2493]

وفي رواية: "مَثَلُ المُدهِنِ في حدودِ اللَّهِ والواقِعِ فيها.." والمُدهِن: هو المصانِعُ والغاشُّ، وهو المداهِنُ، والإدّهانُ: المصانعةُ واللّينُ في الحَقِّ، وقيل: هو المحابي، والمرادُ به مَن يرائي

ويُضَيِّـعُ الحقوقَ ولا يُغَيِّرُ المُنكَرَ، والمداهِنُ: هو المضَيِّـعُ لحدودِ اللهِ الذي لا يُغَيِّرُ المعاصيَ ولا يَعمَلُها، فهو مُستحَقٌّ بالعقوبةِ على سُكوتِه ومداهنتِه"(1)

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَا يَحْقِرْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ"**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَحْقِرُ أَحَدُنَا نَفْسَهُ؟ قَالَ: **"يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لَا يَقُولُ فِيهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ جل جلاله لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى"** [سنن ابن ماجه/ 4008]

***

12- حفظ أموال المسلمين وحقوقهم:

- عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: **"مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ "، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ".** [صحيح مسلم/ 139]

- "عَنْ خَوْلَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: **"إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"** [صحيح البخاري/ 3118]

- عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: **"مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ [لَا حَاجَةَ لِي فِي عَمَلِكَ]، قَالَ: وَمَا لَكَ، قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى"** [صحيح مسلم/ 1835]

(1) [شرح صحيح البخاري، لابن بطال، وانظر موسوعة الأخلاق والسلوك، موقع الدرر السنية]

ـ "عَنْ خَوْلَةَ بِنْتَ قَيْسٍ، تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ مَنْ أَصَابَهُ بِحَقِّهِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِيمَا شَاءَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا النَّارُ**" [جامع الترمذي/ 2374]

ـ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**هَدَايَا الْعُمَّالِ غُلُولٌ**"(1) [مسند الإمام أحمد/ 23089]

ـ "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ، قَالَ: **إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَ: "لَا حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ**" [صحيح البخاري/ 2370]

ـ "عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَ: "**مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً، فَهِيَ لَهُ، وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ". قَالَ مَالِك: وَالْعِرْقُ الظَّالِمُ: كُلُّ مَا احْتُفِرَ أَوْ أُخِذَ أَوْ غُرِسَ بِغَيْرِ حَقٍّ**" [موطأ مالك رواية يحيى الليثي/ 1456، من مراسيل الإمام مالك]

وفيه النهي عن احتكار أراضي وأملاك المسلمين، والمضاربة بها.

ـ "عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ**" [صحيح البخاري/ 3195]

ـ عَنْ سَمُرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**عَلَى الْيَدِ مَا أَخَذَتْ حَتَّى تُؤَدِّيَ**". [جامع الترمذي/ 1266]

ـ "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زُرَيْرٍ، أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ حَسَنٌ: يَوْمَ الْأَضْحَى، فَقَرَّبَ إِلَيْنَا خَزِيرَةً، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، لَوْ قَرَّبْتَ إِلَيْنَا مِنْ هَذَا الْبَطِّ، يَعْنِي: الْوَزَّ، فَإِنَّ اللَّهَ عَز وَجل قَدْ أَكْثَرَ الْخَيْرَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ زُرَيْرٍ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ

---

(1) قال العلاّمة ابن الموصلي: «وَكَذَا مُحَابَاة الْوُلَاة فِي الْمُعَامَلَة من نوع الْهَدِيَّة، وَلِهَذَا شاطر سيدنَا عمر بن الْخطاب رَضِي الله عَنهُ من عماله من كَانَ لَهُ فضل ودين لَا يتهم بخيانة وَإِنَّمَا شاطرهم لما خصوا بِهِ لأجل الْوَلَايَة من الْمُحَابَاة وَغَيرهَا» [«حسن السلوك الحافظ دولة الملوك ـ شمس الدين ابن الموصلي» (ص137)]

اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**لَا يَحِلُّ لِلْخَلِيفَةِ مِنْ مَالِ اللَّهِ إِلَّا قَصْعَتَانِ: قَصْعَةٌ يَأْكُلُهَا هُوَ وَأَهْلُهُ، وَقَصْعَةٌ يَضَعُهَا بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ**" [مسند الإمام أحمد/ 579]

ـ "عَنْ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**مَنْ كَانَ لَنَا عَامِلًا فَلْيَكْتَسِبْ زَوْجَةً، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَكْتَسِبْ خَادِمًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَكْتَسِبْ مَسْكَنًا، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أُخْبِرْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: مَنِ اتَّخَذَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ أَوْ سَارِقٌ**" [سنن أبي داود/ 2945]

ـ "عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، **أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ اسْتَعْمَلَ ابْنَ الْأُتَبِيَّةِ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَحَاسَبَهُ، قَالَ: هَذَا الَّذِي لَكُمْ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَبَيْتِ أُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا؟، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَخَطَبَ النَّاسَ، وَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ رِجَالًا مِنْكُمْ عَلَى أُمُورٍ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ، فَيَأْتِي أَحَدُكُمْ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَبَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا، فَوَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا، قَالَ هِشَامٌ: بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا جَاءَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا فَلَأَعْرِفَنَّ مَا جَاءَ اللَّهَ رَجُلٌ بِبَعِيرٍ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بِبَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةٍ تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ**" [صحيح البخاري/ 7197]

ـ عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ**" [صحيح مسلم/ 998] وفي رواية: "**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ**" [السنن الكبرى للنسائي/ 9126]

ـ "عَنْ أبو الأسود القرشي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**مِنْ أَخْوَنِ الْخِيَانَةِ تِجَارَةُ الْوَالِي فِي رَعِيَّتِهِ**" [الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم/ 871]

- "عَنْ عبد الله بن عمرو السهمي، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَتَى بَعِيرًا، فَأَخَذَ مِنْ سَنَامِهِ وَبَرَةً بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنَ الْفَيْءِ شَيْءٌ، وَلَا هَذِهِ إِلَّا الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ" [سنن النسائي الصغرى/ 4139] وفي رواية: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنْ هَذَا الْفَيْءِ شَيْءٌ وَلَا هَذَا، وَرَفَعَ أُصْبُعَيْهِ إِلَّا الْخُمُسَ وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ فَأَدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمَخِيطَ. فَقَامَ رَجُلٌ فِي يَدِهِ كُبَّةٌ مِنْ شَعْرٍ فَقَالَ: أَخَذْتُ هَذِهِ لِأُصْلِحَ بِهَا بَرْذَعَةً لِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكَ، فَقَالَ: أَمَّا إِذْ بَلَغَتْ مَا أَرَى فَلَا أَرَبَ لِي فِيهَا وَنَبَذَهَا" [سنن أبي داود/ 2694]

- "عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: مَرَّتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِبِلُ الصَّدَقَةِ فَأَخَذَ وَبَرَةً مِنْ ظَهْرِ بَعِيرٍ، فَقَالَ: "مَا أَنَا بِأَحَقَّ بِهَذِهِ الْوَبَرَةِ مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" [الأحاديث المختارة للضياء المقدسي/ 636]

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: "مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ "، قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: " أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ، فَلَيْسَ مِنِّي" [صحيح مسلم/ 102]

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ". [مشكل الآثار للطحاوي/ 3014]

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُهْدِيَتْ لَهُ أَقْبِيَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ مُزَرَّرَةٌ بِالذَّهَبِ فَقَسَمَهَا فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ" [صحيح البخاري/ 3127]

- عَنْ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا، فَاحْتَجَبَ دُونَ خَلَّتِهِمْ، وَحَاجَتِهِمْ، وَفَقْرِهِمْ، وَفَاقَتِهِمْ، احْتَجَبَ اللَّهُ جَلَّ جلاله يَوْمَ الْقِيَامَةِ دُونَ خَلَّتِهِ، وَفَاقَتِهِ، وَحَاجَتِهِ، وَفَقْرِهِ". [المستدرك على الصحيحين/ 4 : 89]

ـ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ هَذَا الْمِنْبَرَ، فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ وَقَالَ: **"يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلا تَطْلُبُوا عَثَرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْ عَوْرَةَ الْمُسْلِمِ يَطْلُبِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَطْلُبِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ، وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ"**، وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ، فَقَالَ: **مَا أَعْظَمَكَ، وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ، وَلَلْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكَ"** [صحيح ابن حبان/ (13 : 75)]

***

13- تحريم الضرائب الجائرة، والممارسات الظالمة(1):

ـ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ صَاحِبُ مَكْسٍ"** [سنن أبي داود/ 2937] والمَكْس : دراهم كانت تؤخذ من بائع السِّلَع في الأَسواق في الجاهلية.

ـ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنَ سُحْتٍ"** [سنن الدارمي/ 2776، وابن حبان]

ـ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ، وَبَرِئَ اللَّهُ مِنْهُ، أَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ ظَلَّ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ"** [مصنف ابن أبي شيبة/ 20651]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يُخْدَعُ فِي الْبُيُوعِ، فَقَالَ: **"إِذَا بَايَعْتَ، فَقُلْ: لَا خِلَابَةَ"** [صحيح البخاري/ 2117] "الخِلابَةُ: الخديعة باللسان.

(1) سنعود ببعض التفصيل في هذا الموضوع ـ إن شاء الله ـ في درس "النظرية الاقتصادية" ص 591 من هذا الكتاب.

ـ "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ يَهُودِيًّا قَدِمَ زَمَنَ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِثَلاثِينَ حِمْلِ شَعِيرٍ وَتَمْرٍ، فَسَعَّرَ مُدًّا بِمُدِّ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَلَيْسَ فِي النَّاسِ يَوْمَئِذٍ طَعَامٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ قَدْ أَصَابَ النَّاسَ قَبْلَ ذَلِكَ جُوعٌ لا يَجِدُونَ فِيهِ طَعَامًا، فَأَتَى النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ النَّاسُ يَشْكُونَ إِلَيْهِ غَلاءَ السِّعْرِ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

"لا أَلْقَيَنَّ اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُعْطِيَ أَحَدًا مِنْ مَالِ أَحَدٍ مِنْ غَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ، وَلَكِنَّ فِي بُيُوعِكُمْ خِصَالا أَذْكُرُهَا لَكُمْ، لا تُضَاغِنُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا يَسُومُ الرَّجُلُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ، وَلا يَبِيعَنَّ حَاضِرٌ لِبَادٍ، وَالْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا" [صحيح ابن حبان/ 4967]

ـ "عَنْ أَبو بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"لَا تَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إِلَّا سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَالْفِضَّةَ بِالْفِضَّةِ إِلَّا سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالْفِضَّةِ وَالْفِضَّةَ بِالذَّهَبِ كَيْفَ شِئْتُمْ"**[1] [صحيح البخاري/ 2175]

ـ "عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا، بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا، مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا"** [صحيح البخاري/ 2082]

ـ "نَهَى النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَنْ بَيْعِ الْمُضْطَرِّ، وَبَيْعِ الْغَرَرِ، وَبَيْعِ الثَّمَرَةِ، قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَ" [سنن أبي داود/ 3382]

***

---

(1) والمقصد: التقدير الصحيح والدقيق للعُملة والأشياء، والامتناع عن بيع الغرر؛ بحيث لا يُخدع المشتري، ولا يخسر البائع، ويتحقق الصدق والأمانة والبركة للجميع.

14- التكافل والتراحم:

ـ "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيَرُدُّ عَلَى أَقْصَاهُمْ**" [سنن ابن ماجه/ 2683] وفي رواية: "**يَدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ، وَيَرُدُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَقْصَاهُمْ**"، وفي رواية: "**يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ وَمُتَسَرِّعُهُمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ**".

ـ عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا** [أرمَلَ القَومُ: نَفِد زادُهم] **فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ**" [صحيح البخاري/ 2486]

ـ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**مَا بَقِيَ مِنْهَا؟" قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: "بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا**" [جامع الترمذي/ 2470]

ـ "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي سَفَرٍ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَجَعَلَ يُصَرِّفُهَا يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي الْفَضْلِ**" [سنن أبي داود/ 1663]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ **أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: "تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**" [صحيح البخاري/ 12]

- "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ**" [شرح معاني الآثار للطحاوي/ 74]

- "عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**" [صحيح البخاري/ 13]

- عَن أَبَي أُمَامَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تَبْذُلِ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**" [جامع الترمذي/ 2343، وصحيح مسلم]

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: " سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "**تُدْخِلُ عَلَى أَخِيكَ الْمُؤْمِنِ سُرُورًا، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تُطْعِمُهُ خُبْزًا**" [الترغيب في فضائل الأعمال لابن شاهين/ 374]

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "**خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ**" [جامع الترمذي/ 2263]

- عَنْ عبد الله بن عمرو السهمي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا**" وفي رواية: "**وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا**" [جامع الترمذي/ 1920]

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ**" [صحيح البخاري/ 7376]

***

15- حرية العمل والتنظيم، مع التزام شريعة الله:

ـ "عَنْ أَنَسٍ، "أَنّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقَالَ: **لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ، قَالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بِهِمْ، فَقَالَ: مَا لِنَخْلِكُمْ، قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**" [صحيح مسلم/ 2365]، وفي رواية:

ـ "عَنْ عَائِشَةَ: أَنّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ سَمِعَ أَصْوَاتًا، فَقَالَ: "مَا هَذِهِ الْأَصْوَاتُ؟" قَالُوا: النَّخْلُ يُؤَبِّرُونَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: "**لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَصَلُحَ". فَلَمْ يُؤَبِّرُوا عَامَئِذٍ، فَصَارَ شِيصًا**، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ: "**إِذَا كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنَكُمْ بِهِ، وَإِذَا كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ**" [مسند الإمام أحمد/ 24398]

وقد طار العلمانيون بهذا الحديث، واتخذوه وسيلة لترسيخ قضية فصل الدين عن الدولة والنظام والتشريع والمجتمع، وليس في ذلك أدنى دلالة.. إنما دلالة الحديث تشير إلى حرية العمل والتنظيم والخوض التجريبي في أعمال الحياة مثل: الزراعة والصناعة والتجارة والتقنية... إلخ، واكتشاف سننها وقوانينها بكل حرية وانطلاقة، ولكن هذه الانطلاقة ليس انطلاقة الطغيان وعبادة الدنيا، بل الانطلاقة التي تكون باسم الله، وتحت راية الله، مُتحاكمة إلى شريعة الله، ففي مثالنا هذا "تلقيح النخيل"، وتثميره، وتحسينه، فأهل الصنعة أعلم به، ولكن عندما يثمر هذا النخيل، فالله تعالى قد أمر: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141]، فالبحث في الأسباب، والاستخلاف وعمارة الأرض.. يجب أن يمضي على صراط الله المستقيم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: 61] فهي عمارة مع العبودية الخالصة لله، والاستغفار والتوبة والإنابة إليه.

"فأما ما كان يستشير فيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويمضيه حسب المشورة لا حسب رأيه، فقد كان في الأمور التي لا تتعلق بالتشريع في أية صورة من صوره، ومنه كل ما ينظم أحوال الجماعة، إنما كان يجئ في الأمور العملية المتعلقة بالخبرة كتأبير النخل واختيار مواضع القتال وخطط ما يتعلق بعلم تجريبي، لا بتشريع ولا بتنظيم اجتماعي يتعلق بالأصول، وفي هذه الدائرة قوله صلى الله عليه وسلم: "أنتم أعلم بأمور دنياكم" لا في المبادئ والأصول المتعلقة بالإنسان في عقيدته أو في نظامه الاجتماعي، فليكن هذا المعنى واضحاً تمام الوضوح لأن بعض الممارين يلبسه على الناس."[1]

ـ وفي غزوة الأحزاب: «**لَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَسِيرِهِمْ إِلَيْهِ اسْتَشَارَ الصَّحَابَةَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ بِحَفْرِ خَنْدَقٍ يَحُولُ بَيْنَ الْعَدُوِّ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَادَرَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، وَعَمِلَ بِنَفْسِهِ فِيهِ، وَبَادَرُوا هُجُومَ الْكُفَّارِ عَلَيْهِمْ**» [«زاد المعاد في هدي خير العباد - ط الرسالة» (3/ 242)]

ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ**" [سنن أبي داود/ 2608]

***

16- الرأفة والعفو والتيسير والاعتدال:

ـ "عَن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "**سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: فِي بَيْتِي هَذَا اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ**" [صحيح مسلم/ (12: 211)]

---

(1) [نحو مجتمع إسلامي، سيد قطب (رحمه الله)]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ..."** [جامع الترمذي/1924]

ـ عَن أَبِي مَرْيَمَ الأَزْدِيَّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى مُعَاوِيَةَ... فَقُلْتُ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: **"مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ ـ جل جلاله ـ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمُ احْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ، قَالَ: فَجَعَلَ رَجُلًا عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ"** [سنن أبي داود/ 2948]

ـ "عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا، قَالَتْ: **"مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا"** [صحيح البخاري/ 3560]

ـ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: **"لَا يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرِ جَلَدَاتٍ، إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ"** [صحيح البخاري/ 6848]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"تَعَافُّوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ"** [سنن أبي داود/ 4376]

ـ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، **أَنَّ وَلِيدَةً فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ حَمَلَتْ مِنَ الزِّنَا، فَسُئِلَتْ مَنْ أَحْبَلَكِ؟، قَالَتْ: أَحْبَلَنِي الْمُقْعَدُ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَاعْتَرَفَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ لَضَعِيفٌ عَنِ الْجَلْدِ، فَأَمَرَ بِمِائَةِ عُثْكُولٍ فَضَرَبَهُ بِهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً"** [سنن الدارقطني/ 3131، وسنن النسائي]

ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **"ادْرَءُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنْ وَجَدْتُمْ لِمُسْلِمٍ مَخْرَجًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَإِنَّ الإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ بِالْعُقُوبَةِ"** [المستدرك على الصحيحين/ (4 : 379)]

- "عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**" [صحيح البخاري/ 69]

- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: "**يَا غُلَامُ أَوْ يَا غُلَيِّمُ أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟ "، فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: "احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعرف إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**" [مسند الإمام أحمد/ 2800]

- "عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: "**مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَز وَجل**". [صحيح مسلم/ 2330]

- عَنْ سَلْمَانَ، أُرَاهُ رَفَعَهُ [إلى النبي صلى الله عليه وسلم]، قَالَ: "**إِنَّ اللَّهَ جَل جَلاله أَحَلَّ حَلالا وَحَرَّمَ حَرَامًا، فَمَا أَحَلَّ فَهُوَ حَلالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ**" [السنن الصغير للبيهقي/ 4340، وسنن أبي داود]

- "عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمَدِينَةَ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَأَخَذَ أَبُو طَلْحَةَ بِيَدِي، فَانْطَلَقَ بِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَنَسًا غُلَامٌ كَيِّسٌ فَلْيَخْدُمْكَ، قَالَ: **فَخَدَمْتُهُ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، مَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا، وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَصْنَعْهُ لِمَ، لَمْ تَصْنَعْ هَذَا هَكَذَا**" [صحيح البخاري/ 2768] وفي رواية: "**خَدَمْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ وَلَا لِمَ صَنَعْتَ وَلَا أَلَّا صَنَعْتَ**" [صحيح البخاري/ 6038]

ـ "عَنْ حَنْظَلَةَ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَعَظَنَا فَذَكَرَ النَّارَ قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ، وَلَاعَبْتُ الْمَرْأَةَ قَالَ: فَخَرَجْتُ، فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ، فَلَقِينَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَافَقَ حَنْظَلَةُ فَقَالَ: مَهْ فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فَقَالَ: يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ، حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُقِ.» [صحيح مسلم/ 2750] وفي رواية: "لَأَظَلَّتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا".

ـ "عَنْ أَنَسَ بْنَ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا ، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا ، فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: "أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" [صحيح البخاري/ 5063]

ـ عَنْ وَهب بْن وَهب، قَالَ: " آخَى النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ: فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُك؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ، ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا،

وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ"، فَأَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ سَلْمَانُ" [صحيح البخاري/ 1967]

- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ: "الْقُطْ لِي حَصًى"، فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ، هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ، وَيَقُولُ: "أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا"، ثُمَّ قَالَ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ"** [سنن ابن ماجه/ 3029]

- "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: **"إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**"(1) [صحيح البخاري/ 39]

---

(1) "وقوله "واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة" يعني أن هذه الأوقات الثلاثة أوقات العمل والسير إلى الله، وهي أول النهار وآخره، وآخر الليل. فالغدوة: أول النهار، والروحة آخره، والدلجة: سير آخر الليل... وخرج البخاري هذا الحديث في أواخر كتابه، وزاد فيه: "**والقصد القصد تبلغوا**"، يعني أن من دام على سيره إلى الله في «هذه الأوقات الثلاثة مع الاقتصاد بلغ، ومن لم يقتصد، بل بالغ واجتهد فربما انقطع في الطريق ولم يبلغ. وقد جاء في رواية عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا: "**إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا سفرا قطع ولا ظهرا أبقى**". والمنبت: هو المنقطع في سفره قبل وصوله، فلا سفر قطع ولا ظهره الذي يسير عليه أبقى حتى يمكنه السير عليه بعد ذلك، بل هو كالمنقطع في المفاوز، فهو إلى الهلاك أقرب، ولو أنه رفق براحلته واقتصد في سيره عليها لقطعت به سفره وبلغ إلى المنزل»" [«فتح الباري لابن رجب» (1/ 153)]

«وفيه: استعارة الغدوة والروحة وشيء من الدلجة لأوقات النشاط، وفراغ القلب للطاعة، وكأنه، عليه السلام، خاطب مسافراً يقطع طريقه إلى مقصده فنبهه على أوقات نشاطه التي ترك فيها عمله، لأن هذه الأوقات أفضل أوقات المسافر، والمسافر إذا سار الليل والنهار جميعاً عجز وانقطع، وإذا تحرى السير في هذه الأوقات المنشطة أمكنته المداومة من غير مشقة. وقال الخطابي: معناه: الأمر بالاقتصاد في العبادة، أي: لا تستوعبوا الأيام ولا الليالي كلها بها، بل أخلطوا طرف الليل بطرف النهار، وأجمعوا أنفسكم فيما بينهما لئلا ينقطع بكم. ومن فوائده: الحض على الرفق في العمل لقوله، عليه الصلاة والسلام: (**اكلفوا من العمل ما تطيقون**) وقال الخطابي: هذا أمر بالاقتصاد وترك الحمل على النفس، لأن الله تعالى إنما أوجب عليهم وظائف من الطاعات في وقت دون وقت تيسيراً ورحمة» [«عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني» (1/ 239)]

- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَحْتَجِرُ حَصِيرًا بِاللَّيْلِ فَيُصَلِّي عَلَيْهِ وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَثُوبُونَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَيُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ حَتَّى كَثُرُوا، فَأَقْبَلَ، فَقَالَ: **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ"** [صحيح البخاري/ 5862]

- عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ، قَالَ: أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا مَعَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، قَالَ: **وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَحِيمًا رَفِيقًا**، فَظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، فَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: **"ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ"** [مسند الإمام أحمد/ 15171، وصحيح البخاري]

- عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: **"... وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ: مُقْسِطٌ، مُتَصَدِّقٌ، مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ..."** [صحيح مسلم/ 2867]

***

17- الوفاء بالعهود، وأداء الأمانات:

- "عَنْ عَائِشَةَ فِي هِجْرَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَتْ: **"وَأَمَرَ تَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهُ بِمَكَّةَ، حَتَّى يُؤَدِّيَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْوَدَائِعَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ لِلنَّاسِ"** [السنن الكبرى للبيهقي/ (6 :288)، وسيرة ابن هشام، والبداية والنهاية]

- "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا قَالَ: **"لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ"** [مسند الإمام أحمد/ 11975]

ـ "عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ**" [جامع الترمذي/ 1959]

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**". [جامع الترمذي/ 1264]

ـ دخل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في جوار المُطعم بن عدي، وهو على شركه، بعدما طرده أهل الطائف ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأرسل مَن يطلب اللجوء عنده فدخل في جوار المُطعم، والمُطعم هذا ليس مجرد فرد بل قبيلة، أي بالمعنى المعاصر مُكوِن أو حزب سياسي لا يمكن الافتئات عليه، أو إيذاء من يدخل في حمايته، فأبقى النبي له هذه الفعلة ـ على شركه وجاهليته، وقد مات كافراً! وقال ـ عليه السلام ـ في أُسارى بدر: "**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**" [صحيح البخاري/ 4024] فتذكره النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتذكر عمله الكريم في حمايته، وفي نقض صحيفة قريش في مقاطعة بني هاشم والمسلمين حين حصروهم في الشعب ـ رغم مرور السنوات عليه ـ وأراد لو استطاع أن يرد له صنيعه، وهذا من شيم الكرام، ومَن أكرم ـ مِن البشر ـ منه عليه السلام؟!

ـ عَن حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، قَالَ: "مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ، قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ، لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: **انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ**" [صحيح مسلم/ 1790]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ**" [جامع الترمذي/ 2822]

ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ"** [صحيح مسلم/ 1741]

ـ عَنْ ابن أبي ربيعة، ، أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ اسْتَسْلَفَ مِنْهُ حِينَ غَزَا حُنَيْنًا ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَضَاهَا إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ: **"بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْوَفَاءُ وَالْحَمْدُ"** [مسند الإمام أحمد/ 15975]

***

18- العدل المطلق من الشنآن والهوى:

ـ "عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالَ: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ، قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"** [صحيح البخاري/ 3475]

ـ عَن مَعْقِلِ بْنِ يَسار قَال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: **"مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ، رَعِيَّةً يَمُوتُ، يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"** [صحيح مسلم/ 143]

ـ "عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ حِينَ بَعَثَنِي إِلَى الشَّامِ: يَا يَزِيدُ، إِنَّ لَكَ قَرَابَةً عَسَيْتَ أَنْ تُؤْثِرَهُمْ بِالْإِمَارَةِ، وَذَلِكَ أَكْبَرُ مَا أَخَافُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ، وَمَنْ أَعْطَى أَحَدًا حِمَى**

اللَّهِ، فَقَدْ انْتَهَكَ فِي حِمَى اللَّهِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، أَوْ قَالَ: تَبَرَّأَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ عز وجل" [مسند الإمام أحمد/ 22]

ـ "عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: **كَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ رَجُلا صَالِحًا ضَاحِكًا مَلِيحًا، فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَيُضْحِكُهُمْ، فَطَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي خَاصِرَتِهِ، فَقَالَ: أَوْجَعْتَنِي، قَالَ: "اقْتَصَّ"، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصًا، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيَّ قَمِيصٌ، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَمِيصَهُ، فَاحْتَضَنَهُ، ثُمَّ جَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدْتُ هَذَا"** [المستدرك على الصحيحين/ (3 : 285)]

ـ «عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَيَخْرُصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودَ[1]، قَالَ: فَجَمَعُوا لَهُ حُلِيًّا مِنْ حُلِيِّ نِسَائِهِمْ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ وَخَفِّفْ عَنَّا وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسْمِ،**

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، وَاللهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللهِ إِلَيَّ وَمَا ذَلِكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، فَأَمَّا الَّذِي عَرَّضْتُمْ مِنَ الرِّشْوَةِ فَإِنَّهَا سُحْتٌ وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا، قَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» [«السنن الكبرى - البيهقي» (4/ 206 ط العلمية)، وموطأ مالك]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَن النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ، إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا، لَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ، أَوْ يُوبِقُهُ الْجَوْرُ"** [مسند الإمام أحمد/ 9290]

(1) "كَانَ النَّبِيُّ ـ صلى اللهُ عليه وَسَلم ـ يَبْعَثُ ابْنَ رَوَاحَةَ إِلَى الْيَهُودِ، فَيَخْرُصُ عَلَيْهِمْ النَّخْلَ حِينَ يَطِيبُ قَبْلَ أَنْ يُؤْكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ يُخَيِّرُونَ يَهُودَ أَنْ يَأْخُذُوهُ بِذَلِكَ الْخَرْصِ، أَمْ يَدْفَعُونَهُ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ؟ وَإِنَّمَا كَانَ أَمْرُ النَّبِيِّ ـ صلى اللهُ عليه وَسَلم ـ "بِالْخَرْصِ، لِكَيْ يُحْصِيَ الزَّكَاةَ، قَبْلَ أَنْ تُؤْكَلَ الثَّمَرَةُ وَيُفَرَّقَ" [مسند الإمام أحمد/ 24776]

ـ عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ: أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ زِيَادٍ دَخَلَ عَلَى مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ، فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ: "إِنِّي مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ لَوْلَا أَنِّي فِي الْمَوْتِ لَمْ أُحَدِّثْكَ بِهِ[1]، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: **مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ**" [صحيح مسلم/ 1832]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ جل جلاله وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**" [صحيح مسلم/ (12 : 211)]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ، وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْهُ، وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ، حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ**" [سنن أبي داود/ 3597]

***

19- حفظ كرامة وشأن كل فرد في الأمة:

ـ "عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَقَالَ: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟** "، **قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ**" [مسند الإمام أحمد/ 22977]

---

(1) لأنه كان من الظالمين الباغين.

ـ "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **"النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِالْعَافِيَةِ، وَالْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ يَقُولُ: يَكْسُوهُ، يَحْمِلُهُ، يَرْفِدُهُ، وَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مِثْلَ مَا تَرَى لَهُ"** [الأمالي للشجري/ 2102]

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، **فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ"** [صحيح البخاري/ 2399] وفي رواية: **"أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، وَلَمْ يَتْرُكْ وَفَاءً، فَعَلَيْنَا قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا، فَلِوَرَثَتِهِ"**

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ، وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَعْمَالِكُمْ"** [صحيح مسلم/ 2565]

ـ "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ"** [صحيح مسلم/ 391]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسعود، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"سِبابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ"** [صحيح البخاري/ 6044]

ـ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ"** [سنن ابن ماجه/ 2619]

ـ "عَنْ أَبِي النَّضْرِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، أَنَّ أَبَا مُرَّةَ مَوْلَى أُمِّ هَانِئٍ ابْنَةِ أَبِي طَالِبٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أُمَّ هَانِئٍ ابْنَةَ أَبِي طَالِبٍ، تَقُولُ: ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَامَ الْفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: "مَنْ هَذِهِ؟

فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَقُلْتُ: **يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي عَلِيٌّ أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ فُلَانُ بْنُ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ**، قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ: وَذَلِكَ ضُحًى" [صحيح البخاري/ 3171]

- "عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "**فُكُّوا الْعَانِيَ يَعْنِي الْأَسِيرَ**(1) **وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ**" [صحيح البخاري/ 3046]

***

20- الإخاء والوحدة:

- "عَن ابن عمر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**" [صحيح البخاري/ 2442]

- "عَن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "**تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**" [صحيح البخاري/ 6011]

- "عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ**" [صحيح البخاري/ 481]

- عَنِ عُمَر بن الخطاب، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "**... عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ**" [جامع الترمذي/ 2165]

(1) "وسئل الإمام مالك، أواجب على المسلمين افتداء من أُسر منهم؟ قال: نعم، أليس واجب عليهم أن يقاتلوا حتى يستنقذوهم؟ فقيل: بلى. فقال: فكيف لا يفتدونهم بأموالهم؟ وقال ابن رشد: فواجب على الإمام أن يفك أسارى المسلمين من بيت مالهم، فما قصر عنه بيت المال، تعين على جميع المسلمين في أموالهم على مقاديرها" [«البيان والتحصيل، لابن رشد الجد» (2/ 560)]

ـ عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"** [صحيح البخاري/ 7054]، والجماعة تعني: الأمة المسلمة القائمة بالكتاب، ولا يُقال للفئات الباغية الظالمة "جماعة"، فالبغي والظلم والإفساد هو "حكم الجاهلية".

ـ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ: الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ"** [صحيح مسلم/ 2735]

ـ "عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى رَبِّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى رَبِّهِ"، ثُمَّ تَلا:** ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ **حَتَّى قَرَأَ الآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: "أَقُولُ هَذَا وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ"** [صحيح ابن حبان/ 3828] "عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ" أي: فخرها وتكبرها.

ـ "عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"** [صحيح البخاري/ 16]

ـ "عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا، إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى"** [صحيح البخاري/ 2076]

ـ "عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: **كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاجْتَمَعَ قَوْمُ ذَا وَقَوْمُ ذَا، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ! وَقَالَ: هَؤُلَاءِ يَا لَلْأَنْصَارِ ! فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ: "دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"، ثُمَّ قَالَ: "أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟!"** [مسند أحمد/ 14221]

ـ عَن حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِدْئًا لِلإِسْلامِ، غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ** "، قَالَ: **قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشِّرْكِ، الْمَرْمِيُّ أَمِ الرَّامِي؟ قَالَ: "بَلِ الرَّامِي"**(1) [صحيح ابن حبان/ 81]

ـ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: **سَمِعْتُ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً، وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقْرَأُ خِلَافَهَا فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَأَخْبَرْتُهُ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ**، وَقَالَ: "**كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ وَلَا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا**" [صحيح البخاري/ 3476]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**" [صحيح البخاري/ 2449]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**" [صحيح البخاري/ 6064]

***

21- حفظ حقوق الأقليات غير المسلمة المُسالمة:

ـ "عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**" [سنن أبي داود/ 3052]

---

(1) عَنْ عَلِيٍّ رَضِي اللَّهُ عنه، قَالَ: "أَنْصَحُ النَّاسِ وَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ أَشَدُّ النَّاسِ حُبًّا وَتَعْظِيمًا لِحُرْمَةِ أَهْلِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ" [حلية الأولياء لأبي نعيم/ (1 / 74)]

ـ "قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكتب رَسُول اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَوَادَعَ فِيهِ يَهُودَ، وَعَاهَدَهُمْ وَأَقَرَّهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ، وَشَرَطَ لَهُمْ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ: "**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِمْ، وَجَاهَدَ مَعَهُمْ، أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ... وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوِ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ، أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ، وَلا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ، وَلا يَنْصُرُ كَافِرٌ عَلَى مُؤْمِنٍ، وَأَنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ، يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ، دُونَ النَّاسِ، وَأَنَّ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالأُسْوَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ، وَلا مُتَنَاصِرٍ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ لا يُسَالِمُ مُؤْمِنٌ مِنْ دُونِ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ أَوْ عَدْلٍ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعْقِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُبِيءُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هَدْيٍ وَأَقْوَمِهِ، وَأَنَّهُ لا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالا لِقُرَيْشٍ، وَلا نَفْسًا، وَلا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ، وَأَنَّهُ مَنِ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتْلا عَنْ بَيِّنَةٍ، فَإِنَّهُ قَوَدُ يَدٍ إِلَّا أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةً، وَلا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامٌ عَلَيْهِ، وَأَنْ لا يَحِلَّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَآمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا، وَلا يُؤْوِيَهُ، وَإِنَّ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ، وَأَنَّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ، وَإِنَّ الْيَهُودَ يَتَّفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ، وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ، فَإِنَّهُ لا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ.**" [عيون الأثر، لابن سيد الناس اليعمري/ 162]

ـ عَنِ سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَيْ مِنْ

أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالَا: "**إِنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا**" [صحيح البخاري/ 1313]

ـ عَنْ مُجَاهِد، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: **أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟** أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**" [جامع الترمذي/ 1943][(1)]

***

22- الشورى:

ـ "عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: "**لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِلَى بَدْرٍ خَرَجَ فَاسْتَشَارَ النَّاسَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِنَّمَا يُرِيدُكُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَا نَكُونُ كَمَا قَالَتْ: بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَوْ ضَرَبْتَ أَكْبَادَ الْإِبِلِ حَتَّى تَبْلُغَ بَرْكَ الْغِمَادِ، لَكُنَّا مَعَكَ**" [مسند الإمام أحمد/ 11611]

ـ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مُشَاوَرَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**" [مسند الإمام الشافعي/ 1682]

ـ "عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ الْحَارِثُ الْغَطَفَانِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَعْنِي فِي وَقْعَةِ الْأَحْزَابِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، شَاطِرْنَا تَمْرَ الْمَدِينَةِ، قَالَ: "**حَتَّى أَسْتَأْمِرَ السُّعُودَ**"، فَبَعَثَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، وَسَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ، وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، وَسَعْدِ بْنِ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: "**إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عن قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّ الْحَارِثَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ**

(1) انظر: درس "بطانة الخيانة" ص 709 من هذا الكتاب.

تُشَاطِرُوهُ ثَمَرَ الْمَدِينَةِ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوهُ إِلَيْهِ حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ"، قَالُوا: يا رَسُول اللَّهِ، أَوَحْيٌ مِنَ السَّمَاءِ فَالتَّسْلِيمُ لأَمْرِ اللَّهِ؟ أَوْ عن رَأْيِكَ وَهَوَاكَ فَرَأْيُنَا تَبعٌ لِرَأْيِكَ؟ وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ الإِبْقَاءَ عَلَيْنَا، فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَنَا وَإِنَّا وَإِيَّاهُمْ عَلَى سَوَاءٍ، مَا يَنَالُونَ مِنَّا تَمْرَةً إِلا بِشِرَاءٍ أَوْ قِرَاءٍ، فَقَالَ رَسُول اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "هُوَ ذَا، تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُونَ"، قَالُوا: عذرت يا مُحَمَّد، فصرفهم" [أسد الغابة/ (2 : 312)/ المعجم الكبير للطبراني]

ـ في غزوة بدر لما "سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يُبَادِرُهُمْ إِلَى الْمَاءِ حَتَّى نَزَلَ بَدْرًا فَسَبَقَ قُرَيْشًا إِلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ بَدْرٍ نَزَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَعَدَّاهُ وَلا نُقَصِّرُ عَنْهُ [وفي رواية: فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ أَوْ نَتَأَخَّرَ عنه] أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ"، فَقَالَ الْحُبَابُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، وَلَكِنِ انْهَضْ حَتَّى تَجْعَلَ الْقُلُبَ كُلَّهَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ، ثُمَّ غَوِّرْ كُلَّ قَلِيبٍ بِهَا إِلا قَلِيبًا وَاحِدًا، ثُمَّ احْفِرْ عَلَيْهِ حَوْضًا، فَنُقَاتِلُ الْقَوْمَ فَنَشْرَبُ وَلا يَشْرَبُونَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ: "قَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ"، فَفَعَلَ ذَلِكَ" [دلائل النبوة للبيهقي/ (3 : 31)، وزاد المعاد، وتاريخ الإسلام للذهبي]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ"، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ، يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ" [صحيح مسلم/ 92]، وفي رواية المسند: "الْبَغْيَ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ أَوْ بَطِرَ الْحَقَّ، وَغَمَطَ النَّاسَ".

بطر الحق: رده، والإعراض عن قبوله أنفة أو هوى؛ فيرى الحقَّ سَفَهاً وجَهلاً. وغمط الناس: ازدرائهم واحتقارهم والاستهانة بهم.

- عَنِ ابْنِ غَنْمٍ، أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **"لَوِ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا"** [مسند الإمام أحمد/ 17533]، وذلك فيما لا يختص بمجال التبليغ والتشريع عن الله سبحانه وتعالى.

- عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَوْ كُنْتُ مُسْتَخْلِفًا أَحَدًا عَلَى أُمَّتِي مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ لَاسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ"**(1) [السنن الكبرى للنسائي/ 8210]

***

23- إسناد الأمر إلى أهله، وإتقان العمل:

- "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: "بَيْنَمَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ، قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ"** [صحيح البخاري/ 59]

- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ بَعْثًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَطَعَنَ النَّاسُ فِي إِمَارَتِهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعَنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ**» [صحيح البخاري/ 4469] وفي رواية: فَأُوصِيكُمْ بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ صَالِحِيكُمْ".

(1) انظر بحث: "الشورى وآلياتها".

وأسامة هو حِبُّ رَسُوْلِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَمَوْلَاه، وَابْنُ مَوْلَاه. و"استعمله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جيش لغزو الشام، وفي الجيش عمر والكبار؛ ولم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة؛ فلم يسر حتى توفي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ فبادر الصديق ببعثهم. وكان أسامة شديد السواد، خفيف الروح، شجاعاً" [«سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (2/ 497)]

ـ عَنْ أَبِي أَيُّوب، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: **"لَا تَبْكُوا عَلَى الدِّينِ إِذَا وَلِيَهُ أَهْلُهُ، وَلَكِنْ ابكُوا عَلَيْهِ إِذَا وَلِيَهُ غَيْرُ أَهْلِهِ"** [مسند الإمام أحمد/ 23073]

ـ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: **"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ"** [مسند أبي يعلى/ 4386]

***

24- تحذير الأمة من التنافس على الدنيا والجاه والولوغ في الفتن:

ـ "عَن عَمْرو بْنَ عَوْفٍ الْأَنْصَارِيَّ "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنْ الْبَحْرَيْنِ فَسَمِعَتْ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَافَتْ صَلَاةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَلَمَّا صَلَّى بِهِمْ الْفَجْرَ انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ حِينَ رَآهُمْ، وَقَالَ: "أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ، قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ،

قَالَ: **فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ"** [صحيح البخاري/ 3158]

ـ عَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: "أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ"، قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟ قَالَ: **"أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَالصَّلَاةُ قُرْبَانٌ، أَوْ قَالَ: بُرْهَانٌ يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ، يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيَانِ فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا"** [مسند الإمام أحمد/ 14032]

ـ "عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: "دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللَّهُ ـ جل جلاله ـ وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ: فَقَالَ: **إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ"** [صحيح مسلم/ 1826]

ـ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا"** [صحيح البخاري/ 7146]

ـ عَنْ هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، يَأْتُونَكُمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ، بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ، وَلَا آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ، لَا يُضِلُّونَكُمْ، وَلَا يَفْتِنُونَكُمْ"** [صحيح مسلم/ 10]

ـ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ: **"إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟**، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ نَقُولُ: كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ تَتَنَافَسُونَ ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ"** [صحيح مسلم/ 2964]

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: **"يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ، أَمِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ؟"** [صحيح البخاري/ 2059]

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: **"لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ، وَالنَّصَارَى، قَالَ: فَمَنْ"** [صحيح البخاري/ 7320]

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ سِنِينَ خَوَادِعَةً، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَتَكَلَّمُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: "الْفُوَيْسِقُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ"** [مسند أبي يعلى/ 3715]

- عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُحَدِّثُنَا: **"أَنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ الْهَرْجَ"، قِيلَ: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: "الْكَذِبُ وَالْقَتْلُ"، قَالُوا: أَكْثَرُ مِمَّا نَقْتُلُ الْآنَ؟ قَالَ: "إِنَّهُ لَيْسَ بِقَتْلِكُمُ الْكُفَّارَ، وَلَكِنَّهُ قَتْلُ بَعْضِكُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ، وَيَقْتُلَ أَخَاهُ، وَيَقْتُلَ عَمَّهُ، وَيَقْتُلَ ابْنَ عَمِّهِ"، قَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ! وَمَعَنَا عُقُولُنَا؟ قَالَ: "لَا، إِلَّا أَنَّهُ يَنْزِعُ عُقُولَ أَهْلِ ذَاكُمُ الزَّمَانِ حَتَّى يَحْسَبَ أَحَدُكُمْ أَنَّهُ عَلَى شَيْءٍ، وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ".** وفي رواية: **"وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ لَا عُقُولَ لَهُمْ".** [مسند الإمام أحمد/ 19138، وسنن ابن ماجه]

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: **"لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ"** [صحيح البخاري/ 6446]

- عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ**

النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِـعٌ نَفْسَهُ فَمُعتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا" [صحيح مسلم/ 226]، وفي رواية: **"النَّاسُ غَادِيَانِ: فَمُشْتَرٍ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُهْلِكُهَا"** [المعجم الكبير للطبراني/ 318]

ـ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ** ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾" [صحيح البخاري/ 4686]

ـ عَنِ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: **"لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مَلْئًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلَا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ، إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"** [صحيح البخاري/ 6438]

ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **"إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ"** [صحيح مسلم/ 2742]

ـ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **"نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، ثَلَاثٌ لَا يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأُمُورِ، وَالِاعْتِصَامُ بِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ دُعَاءَهُمْ يُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الْآخِرَةَ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ وَجَعَلَ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الدُّنْيَا فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا كُتِبَ لَهُ"**

[الآداب للبيهقي/ 1188، ومسند الإمام أحمد، وجامع الترمذي]

ـ عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ**

كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ" [سنن أبي داود/ 4297]

***

25- إنزال الناس منازلها، ومراعاة أحوالهم:

ـ "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: **كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: "مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ"** [صحيح البخاري/ 3149]

ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ، إِلا حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ"** [سنن الدارقطني/ 3437، سنن أبي داود/ 4375]

ـ «عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: **"أنزِلُوا النَّاسَ منازِلَهُم"»** [«سنن أبي داود» (7/ 210 ت الأرنؤوط)]

ـ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»** [سنن أبي داود/ 4843]

ـ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: فَمَا زَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْتَذِرُ إِلَى صَفِيَّةَ، وَيَقُولُ: **"يَا صَفِيَّةُ إِنَّ أَبَاكِ أَلَّبَ عَلَيَّ الْعَرَبَ، وَفَعَلَ، حَتَّى ذَهَبَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهَا"** [أخلاق النبي لأبي الشيخ الأصبهاني/ 160] وصفية هي بِنْتِ حُيَيٍّ سيد بني النضير من يهود، وحزّب الأحزاب على رسول الله، وقد قُتل في غزوة بني قريظة.

ـ "عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي، قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ، قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ: **إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا"** [صحيح مسلم/ 1828]

ـ "عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، أَخْبَرَهُ أَنَّ **أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "دَعُوهُ وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ"** [صحيح البخاري/ 6128]

ـ "عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ. فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ! فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ. فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ. **فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي. قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ"** [صحيح مسلم/ 537]

ـ "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: "**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ، قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ، فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ، قَالَ: فَأُدْخِلْنَا الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةً عَلَى دَابَّةٍ"** [صحيح مسلم/ 2430]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالْكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ"** [صحيح البخاري/ 703]

ـ "عَن أَنَسَ بْنَ مَالك، يَقُولُ: "مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ إِمَامٍ قَطُّ أَخَفَّ صَلاَةً وَلا أَتَمَّ مِنَ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَإِنْ كَانَ لَيَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَيُخَفِّفُ مَخَافَةَ أَنْ تُفْتَنَ أُمُّهُ" [صحيح البخاري/ 708]

ـ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النِّسَاءَ أَتَيْنَ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ الرِّجَالُ بِالْفَضْلِ، يُجَاهِدُونَ وَلا نُجَاهِدُ. فَقَالَ: "مِهْنَةُ إِحْدَاكُنَّ فِي بَيْتِهَا تُدْرِكُ جِهَادَ الْمُجَاهِدِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" [مسند أبي يعلى/ 3415]

***

26- مراعاة الرأي العام، والحفاظ على صورة الدعوة:

ـ "عَن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، قَالَ سُفْيَانُ: مَرَّةً فِي جَيْشٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ: "مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: "دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"، فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَامَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ" [صحيح البخاري/ 4905]

ـ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ غَنَائِمَ هَوَازِنَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْجِعْرَانَةِ، قَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: "وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟! لَقَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ"، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَقُومُ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ؟، قَالَ: "مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَتَسَامَعَ الأُمَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"،

ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابًا لَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ الْمِرْمَاةُ مِنَ الرَّمِيَّةِ" [مسند الإمام أحمد/ 14820]

- فِي قِصَّةِ تَبُوكَ: "وَمَا كَانَ عَلَى الثَّنِيَّةِ مِنْ هَمِّ الْمُنَافِقِينَ أَنْ يَرْجُمُوا فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا كَانَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَإِطْلَاعِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى أَسْرَارِهِمْ، قَالَ: فَانْحَدَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الثَّنِيَّةِ، وَقَالَ لِصَاحِبَيْهِ، يَعْنِي حُذَيْفَةَ وَعَمَّارًا: هَلْ تَدْرُونَ مَا أَرَادَ الْقَوْمُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أَرَادُوا أَنْ يَرْجُمُونِي فِي الثَّنِيَّةِ، فَيَطْرَحُونِي مِنْهَا، فَقَالَا: **أَفَلَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْكَ النَّاسُ؟** فَقَالَ: **أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَضَعَ يَدَهُ فِي أَصْحَابِهِ يَقْتُلُهُمْ**"[1] [السنن الكبرى للبيهقي/ (8: 197)، تخريج زاد المعاد، لشعيب الأرناؤوط/ 3 :478]

***

27- العفو والصفح:

- "عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **"ادْرَءُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَإِنَّ الْإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ"**. [جامع الترمذي/ 1424]

- "قَالَ أَبُو يُوسُفَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَفَا عَنْ مَكَّةَ وَأَهْلِهَا وَقَالَ: **«مَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»** وَنَهَى عَنِ الْقَتْلِ إِلَّا نَفَرًا قَدْ سَمَّاهُمْ، **إِلَّا أَنْ يُقَاتِلَ أَحَدٌ فَيُقَاتَلُ**، وَقَالَ لَهُمْ حِينَ

---

(1) عَن عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قَال: "أَيُّهَا النَّاسُ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ" [المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي، 610، والبخاري في صحيحه]

اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ» [«معرفة السنن والآثار للبيهقي» (13/ 293)]

ـ عَنْ عَائِشَةَ زَوجِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: يَا عَائِشَةُ: **"إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"** [صحيح مسلم/ 2596]

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: **جَاءَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ: إِنَّ دَوْسًا قَدْ هَلَكَتْ عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ"** [صحيح البخاري/ 4392]

***

28- الرحمة بالضعفاء والمساكين:

ـ "عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: **"هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ"** [صحيح البخاري/ 2896]

ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ"** [جامع الترمذي/ 3854]

ـ "عَن حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الْخُزَاعِيَّ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: **"أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ**(1) **لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ**

(1) والضعيف هنا الفقير إلى الله ورحمته المتواضع له ـ سبحانه ـ وللناس من حوله، وهو عكس العُتل المُستكبر، وليس مقصد الحديث أن يتعمد المسلم أن يكون ضعيفاً درويشاً، فالله يحب "المؤمن القوي" كما جاء في الحديث أيضاً.

النَّارِ؟ كُلُّ عتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ" [صحيح البخاري/ 4918] (العُتل: الغليظ القاسي شديد الخصومة، والجواظ: الجافي الخلُق اللئيم الفاجر الغليظ المُخْتَالُ في مِشْيَتِه)

- "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **"الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ"** [صحيح مسلم/ 2667]

- "عَنْ الْمَعْرُورِ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، **فَقَالَ لِي النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: يَا أَبَا ذَرٍّ، "أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"** [صحيح البخاري/ 30]

***

29- الحذر واليقظة، وضبط النفس:

- "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: **"لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ"** [صحيح البخاري/ 6133]

- عَن الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنهما أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: **"دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك؛ فإنَّ الصِّدقَ طُمَأنينةٌ، والكَذِبَ رِيبةٌ"** [جامع الترمذي/ 2518]

- عَن كَعْبَ بْنَ مَالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا** حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ، فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، وَمَفَازًا وَاسْتَقْبَلَ غَزْوَ عَدُوٍّ كَثِيرٍ، **فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ عَدُوِّهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ**" [صحيح البخاري/ 2948]

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**" [صحيح مسلم/ 6114]

ـ عَن نُفَيْعُ بنِ مَسْرُوحٍ الثَّقَفِي، قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**لَا يَحْكُمْ أَحَدٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**" [صحيح مسلم/ 1719]

ـ "عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ جِدَالُ الْمُنَافِقِ عَلِيمِ اللِّسَانِ**" [صحيح ابن حبان/ 80][1]

ـ "عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**" [جامع الترمذي/ (2: 573)]

***

30- إبطال سنن الجاهلية:

ـ "عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قال في حجة الوادع: "**أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ**" [صحيح مسلم/ 1219]

ـ "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ: "**مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا**

---

(1) و"عَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ ثَلاثَةٌ: جِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْقُرْآنِ لا يُخْطِئُ وَاوًا وَلا أَلِفًا يُجَادِلُ النَّاسَ أَنَّهُ أَجْدَلُ مِنْهُمْ لِيُضِلَّهُمْ عَنِ الْهُدَى، وَزَلَّةُ عَالِمٍ، وَأَئِمَّةُ الْمُضِلِّينَ، ثَلاثٌ بِهِنَّ يُهْدَمُ الزَّمَنُ" [الإبانة الكبرى لابن بطة/ 130]

وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ" [صحيح مسلم/ 1849]

وبعض الدجاجلة يسوق هذا الحديث لتأييد أئمة النفاق والطغيان، وإضفاء الشرعية على إفسادهم وطغيانهم وخروجهم على الأمة المسلمة وموالاتهم للكفار المحاربين المحادين، والمقصود بالطاعة: هي طاعة الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجماعة: هي الأمة المسلمة القائمة بالكتاب، ويبين بقية الحديث أحوال الجاهلية الأخرى؛ مثل القتال تحت راية عصبية تدعو إلى عصبية وليس من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ـ كما في حديث "ما القتال في سبيل الله" ـ والحالة الأخرى: استباحة الأمة والخروج عليها ومفارقة كتابها وسنة نبيها، كما يفعل أئمة النفاق الذين خرجوا عليها.

ومن رأى من الأمير الشرعي (القائم بكتاب الله) شيئاً يكرهه؛ فليصبر على ذلك.. إذا كان هذا المكروه الذي أصابه شيء شخصي يُحتمل، فلا يعترض لأدنى أذى، ويتحمل أمرائه وإخوانه ويعفو ويصفح ويتصدق لأجل وحدة الكلمة والصف ورفع البأس بين المسلمين، أما إذا كان الضرر عاماً، والمنكر شنيعاً فيجب تغيير هذا المنكر كما في حديث "من رأى منكم منكراً"، وحديث "الأمراء الذين يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ".(1)

ـ "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**" [صحيح البخاري/ 6882]

ـ "عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: **مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**" [صحيح مسلم/ 1721]، وفي رواية:

(1) للمزيد راجع: آلية شرعنة الاستبداد من كتاب: "أمراض الاستبداد ـ الجزء الثالث".

ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ".** [صحيح البخاري/ 2697]

ـ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ"** [صحيح مسلم/ 1020]

وغيرها الكثير والكثير...

وهذه المعالم وهذه السنن ليست لمجرد الإعجاب بأعظم رسل الله فحسب، بل هي واجبة الاتباع، فأساس دعوة كل رسول هو "بشريته" وأنه من جنس البشر، وحياته وسننه وطريقته ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي الميزان، والمحدد، والطريق الذي نسير فيه، ولذا مضى الخلفاء الراشدون على سنته من بعده، ومن أراد الفلاح والنجاة.. عليه أن يمضي على نفس هذا الطريق.

ففي خلافة الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ قال:

ـ "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ، وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ ضَعُفْتُ فَقَوِّمُونِي، وَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، الضَّعِيفُ فِيكُمُ الْقَوِيُّ عِنْدِي، حَتَّى أُزِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمُ الضَّعِيفُ عِنْدِي، حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالْفَقْرِ، وَلا ظَهَرَتْ، أَوْ قَالَ: شَاعَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلا عَمَّهُمُ الْبَلاءُ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ، قُومُوا إِلَى صَلاتِكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ" [الجامع لمعمر بن راشد، ج2: ص 337]

ـ «لَمَّا وَلِيَ أَبُو بَكْرٍ خَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ وَلِيتُ أَمْرَكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ وَلَكِنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَسَنَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - السُّنَنَ فَعَلَّمَنَا فَعَلِمْنَا. اعْلَمُوا أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التَّقْوَى وَأَنَّ أَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورُ. وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِيَ الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ. أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ. فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي وَإِنْ زُغْتُ فَقَوِّمُونِي» [«الطبقات الكبرى - ط العلمية» (3/ 136)]

ـ «لَمَّا اسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ أَصْبَحَ غَادِيًا إِلَى السُّوقِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ أَثْوَابٌ يَتَّجِرُ بِهَا فَلَقِيَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَقَالا لَهُ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: السُّوقَ. قَالا: تَصْنَعُ مَاذَا وَقَدْ وُلِّيتَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ أُطْعِمُ عِيَالِي؟ قَالا لَهُ: انْطَلِقْ حَتَّى نَفْرِضَ لَكَ شَيْئًا. فَانْطَلَقَ مَعَهُمَا فَفَرَضُوا لَهُ كُلَّ يَوْمٍ شَطْرَ شَاةٍ وما كسوه فِي الرَّأْسِ وَالْبَطْنِ. فَقَالَ عُمَرُ: إِلَيَّ الْقَضَاءُ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَإِلَيَّ الْفَيْءُ. قَالَ عُمَرُ: فَلَقَدْ كَانَ يَأْتِي عَلَيَّ الشَّهْرُ مَا يَخْتَصِمُ إِلَيَّ فِيهِ اثْنَانِ» [«الطبقات الكبرى - ط العلمية» (3/ 137)]

ـ «قال أبو بكر لما احتضر لعائشة رضي الله عنها: يا بنية! إنا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لنا دينارًا ولا درهمًا، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وإنه لم يبق عندنا من فَيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر» [«تاريخ الخلفاء للسيوطي» (ص63)]

وهذا الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ يعتبر نفسه (بمنصبه في الخلافة) عبداً للمسلمين:

ـ "عن «الفضل بن عَميرة: أنَّ الأحنفَ بن قيس قَدِمَ على عمرَ بن الخطاب في وفدٍ من العراقِ، قَدِموا عليه في يومٍ صائفٍ، شديدِ الحرِّ، وهو مُحتَجِزٌ بعَبَاءةٍ يَهنأُ (يعالج جَرَب الإبل بطلائه بالقَطِران) بعيرًا من إبلِ الصدقةِ، فقال: يا أحنفُ، ضَعْ ثيابَكَ، وهلُمَّ، فأَعِنْ أميرَ المؤمنينَ على هذا البعيرِ، فإنه لمن إبلِ الصدقةِ، في حقِّ اليتيمِ، والأَرملةِ،

والمسكينِ. فقال رجلٌ من القوم: يَغفِرُ اللهُ لكَ يا أميرَ المؤمنينَ! فهلاّ تأمُرُ عبدًا من عبيد الصدقةِ فيكفيك هذا؟! **قال عمرُ: وأيُّ عبدٍ هو أَعبَدُ منِّي**، ومن الأحنفِ؟ **إنَّه مَن وَلِيَ أمرَ المسلمينَ فهو عبد للمسلمين يجبُ عليه لهم ما يجبُ على العبدِ لسيدِهِ من النصيحةِ وأداءِ الأمانةِ**» [«مسند الفاروق لابن كثير ت إمام» (1/ 370)، جامع الأحاديث للسيوطي]

ـ وقال: «إِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مَالِ اللَّهِ مَنْزِلَةَ مَالِ الْيَتِيمِ. إِنِ اسْتَغْنَيْتُ اسْتَعْفَفْتُ وَإِنِ افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ» [«الطبقات الكبرى - ط العلمية» (3/ 209)]

ـ «عَنْ أَيُّوبَ بْنِ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَكَثَ عُمَرُ زَمَانًا لا يَأْكُلُ مِنَ الْمَالِ شَيْئًا حَتَّى دَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ خَصَاصَةٌ. وَأَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَاسْتَشَارَهُمْ فَقَالَ: قَدْ شَغَلْتُ نَفْسِي فِي هَذَا الأَمْرِ. فَمَا يَصْلُحُ لِي مِنْهُ؟ فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ: كُلْ وَأَطْعِمْ. قَالَ وَقَالَ ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ. وَقَالَ لِعَلِيٍّ: مَا تَقُولُ أَنْتَ فِي ذَلِكَ؟ قَالَ: غَدَاءٌ وَعَشَاءٌ. قَالَ فَأَخَذَ عُمَرُ بِذَلِكَ» [«الطبقات الكبرى لابن سعد - ط العلمية» (3/ 233)]

ـ و«كَانَ عُمَرُ يَحْلِفُ عَلَى أَيْمَانٍ ثَلاثٍ، يَقُولُ: وَاللهِ مَا أَحَدٌ أَحَقَّ بِهَذَا الْمَالِ مِنْ أَحَدٍ، وَمَا أَنَا بِأَحَقَّ بِهِ مِنْ أَحَدٍ، وَاللهِ مَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ فِي هَذَا الْمَالِ نَصِيبٌ إِلَّا عَبْدًا مَمْلُوكًا، وَلَكِنَّا عَلَى مَنَازِلِنَا مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَقَسْمِنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَالرَّجُلُ وَبَلاؤُهُ فِي الْإِسْلامِ، وَالرَّجُلُ وَقَدَمُهُ فِي الْإِسْلامِ، وَالرَّجُلُ وَغَنَاؤُهُ فِي الْإِسْلامِ، وَالرَّجُلُ وَحَاجَتُهُ، وَوَاللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ، لَيَأْتِيَنَّ الرَّاعِيَ بِجَبَلِ صَنْعَاءَ حَظُّهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَهُوَ يَرْعَى مَكَانَهُ» [«مسند أحمد» (1/ 389 ط الرسالة)]

ـ "عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، أَنَّ أَبَاهُ، أَخْبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ، قَالَ يَوْمًا فِي مَجْلِسٍ، وَحَوْلَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ تَرَخَّصْتُ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، مَا

كُنْتُمْ فَاعِلِينَ؟، فَسَكَتُوا، فَعَادَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، قَالَ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ: **لَوْ فَعَلْتَ قَوَّمْنَاكَ تَقْوِيمَ الْقَدْحِ**، قَالَ عُمَرُ: أَنْتُمْ إِذًا أَنْتُمْ" [«التاريخ الكبير» للبخاري (2/ 488)]

وغيرها الكثير...

***

ولقد كان لتبديل هذه السنة النبوية الأثر الخطير والسيء في وقوع الأمة في الاستبداد وأمراضه(1)، وأول ما نُقض من هذه السنة النبوية هو "سياسة الحكم، والمال" فوقع الاستبداد بالحكم، والظلم فيه، والمحاباة والأثرة في المال والعض على الملك والتنافس في الحياة الدنيا، والحكم الجبري وموالاة الأعداء، جاء في الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ، عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ، تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ**"(2)

فعروة (رابطة) الحُكم من أوثق عرى هذا الدين، لأنه دين جاء ليحكم الحياة الدنيا، وليس هو مجرد علاقة روحية فردية ذاتية، بل جاء ليُصلح هذه الحياة بمنهج الله، ويبلغ رسالة الله.. ودون عروة الحكم يضيع سلطان المسلمين، وقوتهم، ووحدتهم، وشريعة ربهم، وسنة نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستقبلون من بعدها فتناً كقطع الليل المظلم ـ والعياذ بالله ـ جاء في الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**"(3) ويتداعى عليهم الأعداء من كل حدب وصوب.(4)

---

(1) انظر: كتاب "أمراض الاستبداد ـ الجزء الثاني".

(2) [مسند الإمام أحمد/ 21655]

(3) [صحيح مسلم/ 120]

(4) انظر مقال: "غثاء السيل".

وقد وقع الافتراق بين "كتاب الله" وسلطة المسلمين السياسية، "فَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: "**خُذُوا الْعَطَاءَ مَا دَامَ عَطَاءً، فَإِذَا صَارَ رِشْوَةً فِي الدِّينِ فَلا تَأْخُذُوهُ، وَلَسْتُمْ بِتَارِكِيهِ، يَمْنَعُكُمُ الْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ، أَلا إِنَّ رَحَى الإِسْلامِ دَائِرَةٌ، فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ، فَلا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ، أَلا إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لأَنْفُسِهِمْ مَا لا يَقْضُونَ لَكُمْ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَضَلُّوكُمْ**"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: "**كَمَا صَنَعَ أَصْحَابُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ، وَحُمِلُوا عَلَى الْخَشَبِ، مَوْتٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ**"[1]

فيجب على الأمة التمسك بكتاب ربها، ولا تفارقه أبداً، وتتمسك به بكل قوة، مهما توحش السلطان المادي عليها، ومهما حاول إبعادها عن كتاب ربها.. ومتى تمسكت به الأمة أبصرت الطريق، ومتى اجتمعت عليه، وجاهدت به الجهاد الكبير إلا عادت السلطة الربانية العادلة إليها.

فوجب على الأمة المسلمة أن تُعيد عروة الحكم إلى الإسلام، وأن تُعيد لكتاب الله سلطانه في الحاكمية والسيادة.. حتى ينصرها الله، وهذا **شرط النصر**: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: 51-52]، ثم هو قبل ذلك **شرط الإيمان**: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]

***

(1) [المعجم الكبير للطبراني/ 172]

19- الدولة الإسلامية القديمة

لطالما يُشغب العلمانيون ـ والمنافقون ـ على المسلمين الذين يحاولون الإصلاح من منظور إسلامي، الأمر الواجب على **كل** مسلم يؤمن بمرجعية كتاب الله، وبعلو الإسلام العلو الذي لا يعلو عليه، ولا يكون المسلم مسلماً إلا بطاعة الله ورسوله.. وإذ لم يكن كتاب الله هو المرجعية، فما ثم إذن سوى الجاهلية والباطل؟!

يُشغبون عليهم بأمرين حول الدولة الإسلامية:

الأول: اتهامهم برغبتهم بعودة نموذج "الدولة الدينية"، أو مُعايرتهم ببعض انحرافات فترة الملك العضوض!

والثاني: شكل الدولة، وطريقة الحكم، واتهامهم بالعجز عن أي تصور سياسي صحيح.[1]

وهؤلاء هم المهذبون منهم، أما الفجار.. فيعمدون مباشرة إلى الحديد والنار، والإرهاب والتقتيل، دون الدخول في الصراعات الفكرية، وإنما الصراعات الفكرية من أجل سحب البساط الاجتماعي مِن تحت مَن يحاول دعوة الأمة إلى كتابها. فحرب العقول وحرب الميدان من طرف العلمانيين والمنافقين لا تنفك أبداً، وترى المعركة صفرية وعلو العلمانية ومرجعيتها يجب أن ينتصر في النهاية.

يقول العلمانيون: إننا واقعيون، ونملك الحل الذي ينتشل الأمة من سقوطها ألا وهو نموذج: "الدولة المدنية الديمقراطية الحديثة المتطورة" على الطريقة الغربية؛ ويُفسرون المدنية: بأنها ضد عودة الحكم الديني، وضد الحكم العسكري ـ الذي يقوده جنرالات الجيش غالباً بعد الانقلابات العسكرية ـ وهم يَقبلون ويُرحبون ويدعمون الثانية، بينما

(1) انظر ـ إن شئت ـ كتاب: "حول تطبيق الشريعة".

موقفهم من الأولى "الحكم الديني" موقف مبدئي لا يُساومون عليه.. فهم يكرهون كل ما يمت للدين بأي صلة، وتشمئز قلوبهم إذا ذُكر الله! لدرجة أن تجد بعضهم ـ وبلاده تغرق في الفساد والمشكلات الكبرى ـ يجادل عن قول "بسم الله الرحمن الرحيم" أو "السلام عليكم ورحمة الله" إذا قيلت في محفل سياسي أو مناسبة، ويتهمون أصحابها بـ "الأسلمة" حيث هي "تُهمة" بموازينهم! كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: 45] ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: 22]

والمعتدلون منهم ـ أو البراجماتيون ـ يحترمون الدين كشعائر، فتراهم يُصلون الجمعة أحياناً أو يحضرون جنازة أو حفل إفطار! دون أن يكون لهذا الدين أي دور سياسي أو حاكمية في حياة الناس.. ويَدّعون بأن ذلك ضرورة للحفاظ على "الدولة المدنية"! وحقوق الأقليات![1] ولا يُساومون على ذلك، أقصى ما يمكن المساومة عليه هو المجاملات الدينية في الاحتفالات والمناسبات أو مشاركة المسلمين بعض شعائرهم! وفي أحيان يعتقد العلمانيون أنفسهم متدينين! ولكن على طريقتهم الخاصة، فترى بعضهم في نهاية رحلة محاداة الله ورسوله يذهب للعمرة أو الحج! كما تدخل هذه الشعائر من حج وعمرة ضمن نطاق الرشوة السياسية في بعض الدول!

وأما المدنية بمعنى "ضد الحكم العسكري" فتراهم يرفضونها على استحياء، وإذا كان لهم رصيد شعبي، أو لم يحصلوا على نصيبهم من المال الحرام السياسي، والامتيازات، نشطوا في الحديث عن خطورة الحكم العسكري! وإذ لم يكن لهم رصيد شعبي ويخسرون في

(1) وهم يَهشون لكل دين، وكل طائفة.. ويباركون عقائدهم وشعائرهم وشرائعهم، ويدافعون عنها.. إلا الإسلام؛ لأنه هو الدين الحق الذي يتحداهم فكرياً وحضارياً وواقعياً، هذا من الناحية الفكرية، ومن الناحية الواقعية فبعض العلمانيين هم مجرد موظفين يؤدون دورهم خدمة لمن يستخدمهم.

الانتخابات، دعموا الانقلابات العسكرية التي تحقق لهم المبدأ الأول وهو: "رفض الحكم الديني"!

وبطبيعة الحال نحن نتكلم عن العلمانيين والمنافقين في بلادنا، حيث العلمانيون في الغرب قد انتهوا من جدلية الدولة المدنية بعد الثورة على الكنيسة، واعتناق العلمانية طريقاً وديناً، وشغلهم الشاغل هناك ـ لأنهم وطنيون ـ بالمدنية بمعنى رفض التوغل العسكري في الحكم، والحفاظ على الحقوق المدنية من منظورهم العلماني الإلحادي. وهم يتصورون الدين مجرد علاقة وممارسة روحية، ومسألة ثقافية تاريخية، ولا يعتبرون منهج الحياة ونظامها هي الدين.. فلا يعتبرون العلمانية ديناً، وإنما منهج حياة، بينما في دين الله منهج الحياة هو الدين.

وأما الديمقراطية: فإذا جاءت بالعلمانيين إلى الحكم فَنِعِمَّا هِيَ، وإذا فشلوا ـ كالعادة ـ فبسبب الشعوب المتخلّفة التي لا تستحق الديمقراطية، والتي يستغل الإسلامويون عاطفتها الدينية في السيطرة عليها، ولا يفهمون معنى المدنية، ومن ثم يدعمون الانقلابات العسكرية التي تسحق صناديق الانتخابات وتلقي بنتائجها في صناديق القمامة، وتتسلط على الناس بالحديد والنار. ولا يقدم هؤلاء ـ في النهاية ـ لأوطانهم سوى "الفقر والفحشاء".

والحداثة والتطور: في نظر العلمانيين هي ضرب الثوابت الدينية والأخلاقية، والتحرر من كل الضوابط بزعم الحداثة، والحقوق المدنية، والمواثيق العلمانية الإلحادية، وتجهد غاية جهدها في العمل على: انحلال المرأة باسم "تحريرها"[1]، وإطلاق الإباحية الجنسية، وتفكيك المنظومة الإسلامية للأسرة باعتبارها منظومة "قديمة رجعية"، ودعم حقوق أصحاب فاحشة قوم لوط، وحرية الإلحاد.. فينحرفون انحرافاً شديداً مستغلين الضعف

---

(1) وإنزالها قصراً لسوق العمل، من أجل جمع الضرائب، والحصول على عمالة رخيصة، وجعل المرأة ذاتها سلعة رخيصة، وترك تربية الأطفال للمؤسسات العلمانية ـ التي تجعل من كل شيء سلعة وتجارة وتتحكم في كل شيء ـ هذه المؤسسات التي تُشكل وعيهم وفكرهم منذ نعومة أظفارهم فتضمن عملية استعبادهم لحفنة قليلة من المرابين!

الإنساني، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا. يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 27-28]

أما الحداثة والتطور بمعنى تحصيل القوة التي تحقق للدولة السيادة والمنعة والتحرر من التبعية، والتي تتطلب إصلاح "**منظومة الحكم**" التي توفر المناخ السياسي النظيف والصحي الذي يدفع بأصحاب الأمانة والقوة إلى مناصب القيادة، وإصلاح "**منظومة الاقتصاد**" التي توفر الموارد اللازمة للبحث العلمي والتقني والصناعي، وإصلاح "**منظومة التعليم**" التي تُخرّج الكوادر التي تتولى مهمة تحصيل القوة... إلخ، فهذه ليست بأهمية محاربة "الرجعية والإسلاموية" فهذه بالنسبة للعلمانيين مبدأ من أجله يعيشون ويموتون.. أما التخلف ـ بزعمهم ـ عن الحداثة والتطور (بمعنى تحصيل القوة الحقيقية) فهو بسبب تخلف الشعب الذي ما زال يتمسك بالقيم البالية، وهو ـ في النهاية ـ شعب منافق، وتكون مشكلة العجز عن الحداثة والتطور ـ في نظر العلمانيين ـ هي (مثلاً) حجاب المرأة المسلمة! هكذا هي أطروحات العلمانيين.

***

وبمجرد تفكيك هذه الأطروحات، والنظر فيها.. فالمسلمون يردونها من فورها، فالمسلمون ـ بالجملة وعلى الغيب ـ يؤمنون بكتاب الله، وبطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويؤمنون أن هذا الدين جاء ليحكم الحياة ـ بكل نشاطها ـ وليسوا هم في حِل أن يلجئوا إلى غير كتاب الله ليستفتوه في كل شؤون حياتهم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:59] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ

وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]

يردونها حتى قبل أن يعرفوا البديل، يردونها بكل استعلاء بإيمانهم؛ لأن في قلوبهم الوجل والخشية والتقوى والحب لله جل جلاله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:2]

فالمسلم ـ إذن ـ ليس في حالة دفاع مرتعش، ولا خوف وتردد حيال هذه الأطروحات العلمانية وواقعها المُفسد في الأرض، بل في حالة هجوم وهدم لهذه الأباطيل العلمانية التي يروجها أئمة النفاق وأذنابهم، وفي حالة بناء فكري وواقعي للنموذج الإسلامي الصحيح[1]، وليس في حالة مداهنة العلمانية، ولا التودد لها، فضلاً عن التنازل عن الثوابت من أجل عيون من لا يرضى حتى تنسلخ الأمة من دينها بالكلية، ثم بعد ذلك ينظر إليها أهل العلمانية نظرة شك أن يكون انسلاخها فيه نفاق أو رياء أو طلب مصلحة!!

"وقد يقال إن الجهر بالعودة إلى نظام الإسلام مما يخيف الدول الأجنبية والأمم الغربية، فتتألب علينا وتتجمع ضدنا، ولا طاقة لنا بها، ولا قدرة لنا عليها. وهذا منتهى الوهن، وغاية الفساد في التقدير وقصر النظر. وها نحن أولاء نرى هذه الدول وقد سايرناها في نظمها، وأخذنا بألوان حياتها واتبعناها في تقاليدها، فهل أغنى ذلك عنا شيئاً؟! وهل دفع عنا من كيدها؟ وهل منعها من أن تحتل أرضنا، وتسلب استقلالنا، وتستأثر بخيرات بلادنا، ثم تتجمع في كل مؤتمر أو مجتمع دولي ضد حقوقنا، وتثير المشكلات والصعاب والعقبات في وجوهنا، ولا نتأثر إلا بشيء واحد هو ظروفها ومصالحها فقط...

(1) انظر مقال: "البناء في الدولة المسلمة".

إذن فلن يجدينا شيئاً عندهم أن نتنصل من الإسلام، ولن يزيدهم فينا بغضاً أن نعلن التمسك به والاهتداء بهديه... ولكن خطر التنصل من الإسلام والتنكر له عظيم على كياننا نحن، فما دمنا بعيدين عن تشرب روحه وتحقيق تعاليمه، فسنظل حائرين فتتحطم معنوياتنا، متفرقين فتضعف قوتنا.

ولو أخذنا بالحزم وأعلناها صريحة واضحة: إننا معشر أمم الإسلام لا شيوعيون ولا ديمقراطيون ولا شيء من هذا الذي يزعمون، ولكننا بحمد الله مسلمون، لارتسمت أمامنا تواً طريق الهداية والنور، وجمعتنا كلمة الإسلام، ووحدت بيننا وبين إخواننا جميعاً في أقطار الأرض.. وفي ذلك وحده - ولا شيء غيره - القوة والمنقذ أمام هذا العدوان الغربي الاستعماري الجارف الذي يهددنا في كل مكان"[1]

فلا يتحرك بدين الله إلا من يشعر عزة هذا الدين، وقوته، وهيمنته، وشموليته، وتفوقه على كل المناهج البشرية، وقدرته على إصلاح الحياة البشرية كلها في الماضي والحاضر والمستقبل، وقبل كل هذا.. إيمانه بأن الخروج من دين الله - في الشأن السياسي الاجتماعي، وغيره من الشؤون - هو خروج من الإسلام إلى الجاهلية، ومن الإيمان إلى الكفر.

بينما يكون التودد والتقرب واللين والتدرج مع عموم المسلمين - أصحاب القلوب الطاهرة من النفاق - ودعوتهم بالأسلوب المتواضع الكريم الحليم، وتحبيبهم في دين الله، ورد الشبهات بمنتهى الحرص، والحب، والحسنى.

***

إذن، فما هو شكل الدولة الإسلامية؟ وما هي طريقة الحكم؟

---

(1) [كتاب: "مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا"، ص 215، دار الدعوة]

بداية.. هناك فرق بين التصور النظري، والتدافع الواقعي، بمعنى: يستطيع أي مسلم يقرأ في مراجع دينه أن يضع تصوراً لشكل الدولة، وطريقة الحكم بمنتهى السهولة، وهناك بالفعل من العلماء الأفاضل من اجتهد في ذلك في عشرات الكتب والأبحاث المنشورة[1]، بينما التدافع الواقعي هو الذي يفرض علينا محدداته، فالوصول للحكم والتمكن منه ـ في بلادنا ـ لا يأتي عن طريق الانتخابات الديمقراطية وصناديق الانتخاب ـ المجردة عن القوة والمنعة ـ فهذه (في أحسن أحوالها) قد تنجح في الحصول على حقيبة وزارية خدمية، أو مقعد في البرلمان، وليس لها من كبير تأثير؛ بل تتحول إلى محاصصة سياسية، ورشاوي، ومشاركة المجرمين أفعالهم.

والانقلابات العسكرية إنما تأتي بالعلمانيين العسكريين، وإن كان ليس لهم أيديولوجيا علمانية خالصة يَدعون إليها، ويُوالون ويُعادون عليها، إنما هم عبيد المال والسلطة.. وقَل أنْ تجد في الانقلابات العسكرية من يأتي وهو على دين وخلق؛ وذلك لحرص هذه الجيوش على محاربة أي توجه ديني لمُنتسبيها!

وأقرب النماذج الممكنة للوصول إلى السلطة هو: الثورة الإسلامية الشعبية المُسلحة، وهو نموذج يواجه كثيراً من التحديات والعقبات[2]، لكنه ليس مستحيلاً. وكل طريق للوصول إلى الحكم يفرض طبيعته، وسياقاته، وإمكانياته وقدراته على الإصلاح والتغيير.

إنَّ الوصول إلى المجتمع المثالي والمدينة الفاضلة أمر يسير.. حيث إصلاح الناس والمجتمع يأتي بمجرد إشاعة "العدل والحق والخير والجمال والرحمة" فيما بينها، ومقاومة

---

(1) راجع ـ على سبيل المثال ـ كتاب: "الحكومة الإسلامية"، للشيخ عبد المجيد الشاذلي. و"نظرية الإسلام السياسية" للشيخ أبي الأعلى المودودي. و"الإسلام وأوضاعنا السياسية" د. عبد القادر عودة، وكتاب: "من فقه الدولة في الإسلام"، للشيخ يوسف القرضاوي، وغيرها الكثير.

(2) انظر بحث: "أجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المسلح".

الفسق والفساد والطغيان، وحفظ الكرامة والحرية.[1] أما التحدي الأكبر الذي يواجه البشرية والإنسانية منذ فجر التاريخ هو: **إصلاح منظومة الحكم، والسيطرة على الفساد والإجرام، ومنع تسلط "شياطين الإنس" على حكم الناس، والاستكبار في الأرض بغير الحق**[2].. هذه هي المعضلة الكبرى. وقد كانت هذه المنظومة هي التي تتصدى لدعوة الأنبياء عبر التاريخ الإنساني كله، مُتخذة من الجماهير الفاسقة وقوداً لمعركة الباطل، وقد عبّر عنها القرآن الكريم بـ (أولي النعمة، المترفين، أولي الطول، المجرمين، المستكبرين، الملأ)، قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ **أُولِي النَّعْمَةِ** وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا. إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: 11-12]

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا **مُتْرَفِيهَا** فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 16-17]

﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ **أُولُو الطَّوْلِ** مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: 86]

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ **بِالْمُجْرِمِينَ**. إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: 33-35]

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ **الْمُجْرِمُونَ**﴾ [الأنفال: 8]

---

(1) ولا يستهولن أحد انتفاش الباطل، فمجرد مسجد في مدينة يقوم بدوره الرباني والرسالي بحق.. فإنه يدمغ ويمحق الباطل في وقت قصير جداً، لأنه دين الحق، دين الفطرة السوية، دين اليسر والاعتدال.

(2) جاء في الأثر: عَنِ ابْنِ عُمَرَ، [مرفوعاً] قَالَ: **"لَنْ تَهْلِكَ الرَّعِيَّةُ - وَإِنْ كَانَتْ ظَالِمَةً سَيِّئَةً - إِذَا كَانَتِ الْوُلاةُ هَادِيَةً مَهْدِيَّةً، وَلَكِنْ تَهْلِكُ الرَّعِيَّةُ - وَإِنْ كَانَتْ هَادِيَةً مَهْدِيَّةً - إِذَا كَانَتِ الْوُلاةُ ظَالِمَةً سَيِّئَةً"** [فضيلة العادلين لأبي نعيم/ 38، ومسند الشهاب، والموقوف أصح فيما أرى]

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا. **اسْتِكْبَارًا** فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 42-43]

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالَ **الْمَلَأُ** مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: 59-60]

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ. قَالَ **الْمَلَأُ** الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 65-67]

﴿قَالَ **الْمَلَأُ** الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: 75-76]

﴿قَالَ **الْمَلَأُ** مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: 109-110]

﴿وَقَالَ **الْمَلَأُ** مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا **الْمَلَأُ** مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَاسْتَكْبَرَ هُوَ

وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 38-40]

﴿وَانْطَلَقَ **الْمَلَأُ** مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ. مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: 6-7]

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ. فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ. وَقَالَ **الْمَلَأُ** مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ **وَأَتْرَفْنَاهُمْ** فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ. أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ. هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ. إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: 31-37]

هذا "**الملأ**" المترف صاحب الطَول والثروة والسيادة والسلطة والنفوذ والمكانة الاجتماعية يرى في دعوة الرسل تهديداً وجودياً عليه، فدعوة الرسل تهدف إلى تحرير الإنسان، وإلى الحق والعدل والرحمة، إلى العبودية الخالصة لله جل جلاله، بينما "الملأ" يريد استعباد الإنسان، وسرقة ثرواته، ومن ثم يُعلن هذا "الملأ" الحرب منذ اللحظة الأولى للدعوة إلى الله ويستخدم كل وسيلة خسيسة في سبيل القضاء عليها، بما فيها محاولة قتل رسل الله! وإبادة أولياء الله المستضعفين في الأرض؛ ويجب على كل من يدعو بدعوة الرسل، كل من يدعو إلى الله.. أن يعلم أنه في مواجهة حتمية مع هذا "الملأ": ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: 31]

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112]

"ولو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان!

إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء.

إنَّ توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة..

إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود، وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان.. لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه. فالله سبحانه غني عن العالمين. ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح لائقة بالإنسان، إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء"[1]

ولقد كانت حياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة، ومع بداية تكوّن الدولة الإسلامية.. كانت كلها حياة جهادية؛ فمن بدر الفرقان، إلى أُحد، فالأحزاب، فمواجهة

---

(1) [في ظلال القرآن، سورة هود، ص 1938]

يهود، فمؤتة الروم، ففتح مكة، فحنين، فتبوك[1]، فالحياة تدافع بين الحق والباطل، ولا تعرف حالة السكون، وذلك من حكمة الله؛ ليبتلي الجميع، ويصطفي الشهداء، ويهلك من هلك عن بَينة، ويحيا وينجو من ينجو عن بَينة.

***

لقد **انبثقت** الدولة الإسلامية القديمة من حركة المسلمين (هجرتهم إلى المدينة حينها)، لقد كانت الدولة تعبيراً عن إيمانهم، وثمرة إيمانية لحركتهم.. ونموذج هذه الدولة هو الجدير بالنظر عند المسلمين؛ لأنه حقاً النموذج المثالي الحق، وليس نموذج الدولة المدنية الغربية الحديثة الذي يطرحه العلمانيون، والذي يريد الغرب عولمة أفكاره العلمانية الإلحادية في الأرض كلها..

فالدولة الإسلامية:

ليست **"دولة مَدنية"**: تَحكمها "العلمانية" والمذاهب الوضعية، كالنظام الليبرالي الديمقراطي. وليست كذلك أي مما يطرأ على الناس في زمان من الأزمان من مناهج وأفكار - أياً كانت - لا تؤمن بشريعة الله.

(1) «وَكَانَ جَمِيعُ مَا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ سَبْعًا وَعِشْرِينَ غَزْوَةً، مِنْهَا غَزْوَةُ وَدَّانَ، وَهِيَ غَزْوَةُ الْأَبْوَاءِ، ثُمَّ غَزْوَةُ بُوَاطَ، مِنْ نَاحِيَةِ رَضْوَى، ثُمَّ غَزْوَةُ الْعَشِيرَةِ، مِنْ بَطْنِ يَنْبُعَ، ثُمَّ غَزْوَةُ بَدْرٍ الْأُولَى، يَطْلُبُ كُرْزَ بْنَ جَابِرٍ، ثُمَّ غَزْوَةُ بَدْرٍ الْكُبْرَى، الَّتِي قَتَلَ اللَّهُ فِيهَا صَنَادِيدَ قُرَيْشٍ، ثُمَّ غَزْوَةُ بَنِي سُلَيْمٍ، حَتَّى بَلَغَ الْكُدْرَ، ثُمَّ غَزْوَةُ السَّوِيقِ، يَطْلُبُ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، ثُمَّ غَزْوَةُ غَطَفَانَ، وَهِيَ غَزْوَةُ ذِي أَمَرٍ، ثُمَّ غَزْوَةُ بَحْرَانَ، مَعْدِنٌ بِالْحِجَازِ، ثُمَّ غَزْوَةُ أُحُدٍ، ثُمَّ غَزْوَةُ حَمْرَاءَ الْأَسَدِ، ثُمَّ غَزْوَةُ بَنِي النَّضِيرِ، ثُمَّ غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ مِنْ نَخْلٍ، ثُمَّ غَزْوَةُ بَدْرٍ الْآخِرَةِ، ثُمَّ غَزْوَةُ دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، ثُمَّ غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ، ثُمَّ غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ، ثُمَّ غَزْوَةُ بَنِي لِحْيَانَ، مِنْ هُذَيْلٍ، ثُمَّ غَزْوَةُ ذِي قَرَدٍ، ثُمَّ غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ، ثُمَّ غَزْوَةُ الْحُدَيْبِيَةِ لَا يُرِيدُ قِتَالًا، فَصَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ، ثُمَّ غَزْوَةُ خَيْبَرَ، ثُمَّ عُمْرَةُ الْقَضَاءِ، ثُمَّ غَزْوَةُ الْفَتْحِ، ثُمَّ غَزْوَةُ حُنَيْنٍ، ثُمَّ غَزْوَةُ الطَّائِفِ، ثُمَّ غَزْوَةُ تَبُوكَ. قَاتَلَ مِنْهَا فِي تِسْعِ غَزَوَاتٍ: بَدْرٍ، وَأُحُدٍ، وَالْخَنْدَقِ، وَقُرَيْظَةَ، وَالْمُصْطَلِقِ، وَخَيْبَرَ، وَالْفَتْحِ، وَحُنَيْنٍ، وَالطَّائِفِ.» [«سيرة ابن هشام ت السقا» (2/608)]

وليست "**دولة عسكرية**": تحكمها قيادات عسكرية استبدادية، أو حزب عسكري ذي وجه ديمقراطي. كالنظام الشيوعي الاشتراكي.

وليست "**دولة ثيوقراطية**": تحكمها طبقة الكهنوت التي تُقدس الإمبراطور (الحاكم) وتبارك أو تدنس حكمه، ولا يحكم فيها أحد بتفويض إلهي، أو بحكم إلهي مقدس. كالنظام الروماني في العصور الوسطى.

وليست "**ملكاً عضوضاً ولا حكماً وراثياً**": فهذه بدعة مُضلة على سنة "فارس والروم"، وليست على سنة نبينا صلى الله عليه وسلم.

وليست "**دولة قومية عرقية**": كالتي أرادها أصحاب القومية العلمانية (والاجتماع على أساس قومي علماني لا إسلامي)؛ فأحلوا قومهم دار البوار.

الدولة الإسلامية ليست هذا كله.. إنما الدولة وصفها في الإسلام أنها "إسلامية" فحسب، بمعنى: إنها تستمد تصورها وتعريفها، مبادئها وأهدافها، أنظمتها وتشريعاتها، دستورها وقوانينها، شرعيتها واجتماعها، تستمد هذا كله من "كتاب الله".. وتمضي على صراط الله المستقيم.

فلا تُقدم بين يدي الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئاً؛

فلا هي تعبد الحياة الدنيا، ولا هي تمضي في سُبل الغي وهي تُأله الإنسان، بل تُعد الإنسان للدار الآخرة، وتعمر الحياة الدنيا في خلافة راشدة بهدي الله جل جلاله.

كما أنها لا تستعبد الإنسان، وتستذله، وتقهره، وتستبد به.. بل لكل إنسان الحرية والكرامة، ولا يجوز لأحد ـ كائناً من كان ـ أن يمسه في ماله، ودمه، وعرضه، وحريته.. بغير هدى من الله، وتشريع منه.

فالسيادة فيها ليست للأغلبية ولا الأقلية، ولا للفقراء ولا الأغنياء، ولا للأقوياء ولا الضعفاء، ولا للمدنيين ولا العسكريين. السيادة هنا لله، وكتابه.. والسلطة: للأمة المسلمة، ومن تُنصبهم ممن ينوب عنها من ولاة الأمور الطائعين لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، القائمين بكتابه.

كما أن رجال الحكم فيها، إنما أتوا بتفويض المسلمين، أو بتصدر الدفاع عنهم، ولا يحكمون بتفويض إلهي، ولا بحكم مقدس.. بل هو حكم المسلمين الذين يقومون بالوظيفة المقدسة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى رأسهم حُكام المسلمين.

وضمان السيادة الحقة يكون بتحقيق "**السيادة الداخلية**" بضمان تحقيق الحق والعدل (بمنع الفساد والاستبداد)، ونشر الوعي الإسلامي، وتحريم قمع المسلمين بالقوة الغاشمة، ومنع تحول رجال الدولة وجنرالات القوى العسكرية للدولة أو النظام السياسي إلى عصابات مرتزقة تسرق أموال الشعب، وثرواته، وتستبد بها. ومنع الفساد الذي ينشر الابتذال والتهتك والإباحية والتفاهات وإشغال الناس بما هو سافل، واستلاب عقولهم، وتحقيق "**السيادة الخارجية**" (بمنع التدخل الأجنبي من الدول أو المؤسسات الدولية الكبرى التي تريد الهيمنة على مقدرات الدولة وقراراتها السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية. ولا يكون كل ذلك إلا بسيادة كتاب الله، وجعله له الحكم والمرجعية العليا، وعليه الاجتماع السياسي والحركي والأخلاقي والسلوكي للأمة المسلمة.

فالدولة في المجتمع المسلم، انبثاق من حركة المسلمين - بإيمانهم وكتاب ربهم - مصبوغة في كل جنباتها واتجاهاتها وأشكالها بصبغة الإسلام، ومن أحسن من الله صبغة.

والنموذج هنا ليس معناه "شكل الدولة" فالأشكال تتغير بتغير الزمان والمكان والأدوات الحضارية المتاحة في كل عصر. إنما النموذج والقدوة هنا: هو تكوّن الدولة طبقاً لحركة المسلمين بدينهم، أي أن الدولة كانت ثمرة من ثمار الكلمة الطيبة (لا إله إلا

الله محمد رسول الله): ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:24، 25]

ومن ثم.. هذا هو الذي يعطي الدولة الصبغة الإسلامية الحقة.

وأما الدولة المدَنية الحديثة بالمفهوم العلماني، **فهي الكلمة الشيطانية الخبيثة**: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: 26]

وإذا مضينا في الجانب النظري من شكل الدولة، فقلم المسلم ينطلق من خلال تصوره الإسلامي إلى كل ما هو: **رباني، مثالي، نافع، متوازن، عادل**.. إلى كل ما هو: **حق وعدل، ورحمة وسماحة وتيسير، وبر وتقوى.**

ويحقق **مقاصد الشريعة** من: **حفظ الدين، والعقل، والمال، والعرض، والنسل، والحقوق، والحرية، والقوة، والجهاد، والسيادة.**

على أساس: الإخلاص لله، وعمل الصالحات.. ابتغاء مرضاة الله، وبهذا تتحقق سعادة الدنيا، والفوز بالجنة في الآخرة.

وبما يتسع إليه مقام المقال هنا، نقول وبالله التوفيق:

إنَّ مقاصد الشريعة من:

حفظ الدين: تعني أن دين الله ـ الإسلام ـ هو الأساس، وأصل الأصول كلها الذي منه تنطلق حركة المسلم، وحفظه بإقامة شعائره وشرائعه وحدوده وأحكامه هو قاعدة البناء الذي من خلاله يتم تحقيق باقي مقاصد الشريعة. وحفظه من خلال نشر تعاليمه وآدابه وسلوكه، وجعل جميع نظم التعليم ـ في كل مراحله ـ قائمة على أساس الدين لا

العلمانية. وهو مرجعية القضاء والتشريع، والقيم والموازين، والأخلاق والسلوك، وتفسير الحياة والكون والإنسان والوجود.

وحفظ العقل: وحمايته من الأفكار الهدامة التي يروجها أهل الإلحاد والنفاق، وحمايته من المفاسد الإباحية، وحمايته من المواد المُسكرة، هو مُقوم من مقومات حفظ الدين.. فالعقل عندما يتم الهجوم عليه بالأفكار الشيطانية، والإباحية، والفساد الأخلاقي.. يتحلل، وينهار، ويُصبح عرضة أن يقبل كل باطل؛ وينتكس فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، بل يكون عنده المعروف منكراً، والمنكر معروفاً!

وجهاد كل ما يؤدي إلى فساد العقل لهو جهاد كبير، فهناك اقتصادات لدول كبرى عظمى يقوم على تجارة الخمور والمخدرات والدعارة والجنس... إلخ.

وحفظ المال: وحماية موارد الأمة، وثرواتها الطبيعية، والتي في باطن الأرض، وحماية عُملتها ونقدها[1]، وحماية كد وعرق وجهد الناس، وتحصين المال ضد مفاسد ومضار: السحت، والربا، والاحتكار، والغرر، والغش، والاحتيال، والاستغلال، والسلب والقهر، والممارسات التجارية المحرمة في الإسلام، لهو جهاد عظيم، وتحرير للأمة كبير، حيث موارد الأمة وثرواتها هو شريان حياة، وهو ثروة مشتركة بين الناس جميعاً، تقوم الأمة من خلال حكومتها الشرعية، ومن خلال أجهزة الرقابة الاجتماعية على حمايتها، وصيانتها، وتوظيفها التوظيف العادل والأمثل، وحماية العُملة الشرعية يحتاج إلى جهاد اقتصادي كبير من أجل الانتصار في الحرب الاقتصادية التي تشنها الدول العظمى الكبرى على الدول الضعيفة من أجل تركيعها سياسياً وأخلاقياً وحضارياً. ومنع تداول المال والثروة بين الأغنياء فقط؛ لتتمتع فئة قليلة من الناس بالثروة والنفوذ على حساب سائر الأمة.

(1) راجع مقال: "العُملة الشرعية، والربا".

وحفظ العِرض: بحماية منظومة الأخلاق من خلال التربية والثقافة والفن، ومن خلال إشاعة مظاهر الفضيلة والعفة والحجاب، ومحاربة كل أشكال الإباحية والفجور والتهتك والانحلال، والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وتحريم وتجريم الزنا ـ الذي هو مباح في كثير من دساتير عالمنا الإسلامي! أو الذي ينتسب إلى الإسلام ـ وحفظ العرض هو حماية للأسرة، التي هي نواة المجتمع الصالح، ولا يصلح المجتمع إلا بصلاح الأسرة، التي يحاول العلمانيون والمنافقون هدمها من خلال إشاعة الفواحش، والشذوذ، وإطلاق الإباحية للمرأة خاصة، وللناس عامة، وسلخها عن كل قانون إسلامي بحجة التوافق مع المواثيق والمعاهدات الدولية لحقوق المرأة.

وحفظ النسل: بحسن تربيته التربية القومية الإسلامية الصحيحة، ووضع المناهج المناسبة لكل مرحلة عمرية، وحفظ الخصوبة عند المسلمين، وصحة أبدانهم وقوتها، ورعايتهم الرعاية الصحية الكريمة[1]، وحمايتهم من المواد والأغذية الضارة التي تؤثر في صحتهم؛ حتى يظل نسلهم ممتداً صحيحاً قوياً، وتربية الأجيال تربية إيمانية تكون هي الأساس للتربية العلمية الخاصة بالعلوم التجريبية التي تحتاجها الأمة لتحصيل القوة والتصنيع والتقنية التي انتهى إليها عصرهم وجيلهم. وتسهيل وتيسير سبل الزواج، والحفاظ على الأسرة.[2]

وحفظ الحقوق: وهو أساس التماسك الاجتماعي، وحفظ الكرامة الإنسانية.. فالشريعة جاءت بإحقاق الحق، والعدل، والإحسان.. وإعطاء كل ذي حق حقه بمنتهى الأمانة والصدق والعدل، دون محاباة أو ظلم أو ميل، فتحقيق العدل الرباني هو

(1) الشريعة تدعم منظومة التأمين الصحي التعاوني الذي يُغطي الجميع ـ بلا استثناء، فلا تمييز في الألم والمرض ـ وليس "تأمين السحت" الذي يتحول إلى تجارة فاسدة، وغبن، وظلم.

(2) وهذه هي مقاصد وكليات الشريعة الخمس عند السادة الأصوليين، والأدلة مستفيضة فيها، وأظهر من أن تُبين، ونكمل بقية المقاصد استناداً لمرجعية الكتاب وصحيح السنة.

الذي يجعل المجتمع المسلم يستمر وينمو ـ ولا ينقسم على نفسه ـ ويكون مؤهلاً للعالمية، بل هو أهم الوسائل لدخول الناس في دين الله أفواجا، وهذه الوسيلة ـ وكل الوسائل ـ هي بالأساس عبادة لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 108]

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 90-91]

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ (1) [النساء: 135]

وحفظ الحرية: هذا الدين يدعو إلى تحرير الإنسان من الآصار والأغلال، ويدفع الظلم عن كل إنسان، ويضمن حرية العقيدة للجميع، ويحارب مظاهر الاستعباد والرق، والقائمة بكل صورها اليوم من خلال: تجارة الجنس والدعارة وتجارة الأعضاء، وبيع الأطفال، ومن خلال استعباد الشعوب وسرقة مقدراتها وثرواتها، وتركها نهباً للفقر

---

(1) جدير بالانتباه إلى أن العلمانية تروج لمصطلحات "الحقوق والحريات" من المنظور المادي الإلحادي، وتحاول محاولة خبيثة تفسير واختزال الشريعة الإسلامية في مسألة "العدل والحقوق والحريات" بصورة مجردة عن ذكر الله، وعن منهج الله، وعن شريعة الله.. وخداع الناس بهذا التلبيس والمراوغة. وفي أحيان يقطعون كلام العلاّمة ابن القيم عن سياقه، في قوله: «فَإِذَا ظَهَرَتْ أَمَارَاتُ الْحَقِّ، وَقَامَتْ أَدِلَّةُ الْعَقْلِ، وَأَسْفَرَ صُبْحُهُ بِأَيِّ طَرِيقٍ كَانَ، فَثَمَّ شَرْعُ اللَّهِ وَدِينُهُ وَرِضَاهُ وَأَمْرُهُ» [«إعلام الموقعين عن رب العالمين» (4/ 284)] بينما كان ابن القيم ـ رحمه الله ـ يُعقب على طائفتين.. الأولى: قصرت في فهم الشريعة وجمدت وجعلتها عاجزة عن تلبية حاجات الناس وما يستجد من أحوال، والثانية: سوغت لنفسها من السياسة ما يناقض حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

والمرض والجهل والجاهلية، والإسلام يتعاون على البر والتقوى فيما يحرر الإنسان من كل مظاهر الاستعباد، ولا يتعاون على الإثم والعدوان سواء بالتأييد والدعوة أو المشاركة والعدوان. وتتحدد سياسته الدولية وفق هذه الضوابط الأخلاقية المنبثقة من أساس متين لا يتحول ولا يتغير هو "الإيمان بالله".

كما تحفظ الشريعة حرية "إنكار المنكر" وحرية "الرقابة" وممارسة العمل السياسي بشرط أن يكون مرجعيته إسلامية، حيث الإسلام لا يُعطي الشرعية السياسية ـ ولا غيرها من الشرعيات ـ للعلمانية بل يحاربها من جذورها. ويسمح للأقليات الدينية أن تمارس نشاطها الاجتماعي السياسي وهي تمثل طائفتها الدينية، وتُعبر عن حقوقهم ومطالبهم التي تكفلها لهم الشريعة.

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256]

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 75]

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116]

وحفظ القوة: لا يمكن أن يقوم لأي مجتمع، ولا لأي دولة قائمة إلا بالقوة، وأمر الله تعالى المسلمين بإعداد ما استطاعوا من قوة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60] وأن يبذلوا غاية جهدهم، وأن يستفرغوا كل وسعهم من أجل إعداد القوة الكافية لإرهاب أعداء الله ورسوله والأمة المسلمة، وتحصيل كل المقومات التي

تؤدي إلى تصنيع وترسيخ هذه القوة في بلاد المسلمين، من توفير الموارد اللازمة، وتوفير القاعدة العلمية القوية، وتوفير القوة السياسية التي تنظم وتهيأ المناخ المناسب للقدرة على تصنيع القوة القتالية الكافية لحماية الأمة. والأمة دون هذه القوة يتداعى عليها الأكلة والسباع كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها.

وحفظ الجهاد: والجهاد في سبيل الله، هو الضمانة الوحيدة لكل مقاصد الشريعة، وهو وسيلة الأمن والضمانة الوحيدة لحفظ كيان الأمة المسلمة، وحمايتها من اختراقات العدو. فلا ضمانات من الأمم المتحدة، ولا مجلس الأمن، ولا أي غيرها من التكوينات السياسية عبر العصور، الجهاد في سبيل الله وما يستلزمه من مقومات هو الذي يحفظ الدين والأمة والدولة[1]..

وهو يستلزم: عباداً أخلصوا دينهم لله، وتربوا التربية الإسلامية الربانية الصحيحة، ويستلزم النظام السياسي الشرعي العادل المرضي من عموم المسلمين، ويستلزم إعداد القوة، ويستلزم تحصيل العلوم، والترابط بين أبناء الأمة الواحدة... إلخ؛ وكل ذلك لمواجهة عدو متربص تاريخي لا يكف لحظة عن التخطيط في العدوان على الأمة المسلمة التي تحمل رسالة الله إلى العالمين، وما أن يجد أدنى فرصة إلا وأجهز عليها يفتك بها، يريد إبادتها وسلخها من دينها بالكلية.

قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41]

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76]

(1) انظر بحث: "عقيدتنا الجهادية".

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29]

وحفظ السيادة والعزة: الإسلام رسالة الله إلى العالمين، ولا يمكن لمجتمع يحمل هذه الرسالة أن يكون ذليلاً ضعيفاً متسولاً بين الأمم الكبرى القوية التي تهمين على كل الضعفاء في العالم سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً وأمنياً وحضارياً، وتحيط بهم من كل جانب.. الإسلام يطلب من الأمة أن تكون ذات سيادة وعلو، لتكون مؤهلة لأمانة حمل رسالة الله إلى العالمين، وأن تنتج وتُصنع كل ما تحتاجه من مقومات الحياة من: غذاء ودواء وتسليح وتقنية وفضاء وعلوم تجريبية... إلخ، حتى لا تذل لأحد، ولا يُهيمن عليها أحد، ولا يخترقها أحد، ولا يستذلها ويتسود عليها أعدائها.

قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ **هُوَ اجْتَبَاكُمْ** وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ **وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78]

﴿كُنْتُمْ **خَيْرَ أُمَّةٍ** أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54]

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: 29]

وجاء في الأثر: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، [مرفوعاً] قَالَ: «الْإِسْلَامُ وَالسُّلْطَانُ أَخَوَانِ تَوْأَمٌ، لَا يَصْلُحُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ، فَالْإِسْلَامُ أُسٌّ وَالسُّلْطَانِ حَارِسٌ، وَمَا لَا أُسَّ لَهُ مُنْهَدِمٌ، وَمَا لَا حَارِسَ لَهُ ضَائِعٌ»(1)

"ويوم كانت ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ عبادة لم يجرؤ أحد على احتلال أرض المسلمين واستلاب خيراتهم!

ويوم كان "طلب العلم فريضة" لم يكن هناك تخلف علمي، بل كانت الأمة المسلمة هي أمة العلم، التي تعلمت أوربا في مدارسها وجامعاتها!

ويوم كانت ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ عبادة، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض!

ويوم كانت "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" عبادة، وكان ولي الأمر يستشعر أنه راع ومسئول عن رعيته، لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضية، لأن العلاج الرباني لمشكلة الفقر كان يطبق في المجتمع الإسلامي عبادة لله!

ويوم كانت ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ عبادة، لم تكن للمرأة المسلمة قضية! لأن كل الحقوق والضمانات التي أمر الله لها بها كانت تؤدى إليها، طاعة لله، وعبادة لله!

(1) [«فضيلة العادلين من الولاة لأبي نعيم» (ص153)، والأصح أنه موقوف فيما أرى]

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"[1]

وكل هذه المقاصد إنما هي "**رحمة للعالمين**" وبها سعادة الجنس البشري، وسعادة الدنيا والآخرة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: 107-108]

وكما أسلفنا خلق المجتمع المثالي أمر يسير، بشرط صلاح منظومة الحكم وهذا هو الذي جد عسير، حيث فتنة "**السلطة**" و"**المال**" تُفسد كل شيء![2] وقد مرّ بنا كيف أن منظومة الحكم في الإسلام ـ ونموذج الدولة الإسلامية القديمة ـ يعتبر نموذجاً فريداً في حياة البشرية، حيث تمثلت فيه الأخلاق السياسية الربانية بصورة واقعية، كما كان نموذج "دولة الراشدين" المتمثل في الخلفاء الأربعة امتداداً لنموذج الدولة النبوية..

جاء في الحديث الشريف: "عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللَّهُ عَلَيه وَسَلم ـ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعيونُ ووَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: "أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فعلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ"[3]

---

(1) [مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، ص 249]

(2) راجع: درس "الذئبان الجائعان"، ص 449 من هذا الكتاب.

(3) [جامع الترمذي/ 2676]، وفي رواية: : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ، فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا مَا **أَقَامَ لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ**" [جامع الترمذي/ 1706، وصحيح مسلم/1299]

وهذه النماذج لم تقم على التخطيط السياسي المسبق، بل قامت على **التجرد الإيماني لله رب العالمين،** وبعدها جاء ميلاد النموذج بصورة ربانية طبيعية.. وقد كان ما يميز هذا النموذج (على سبيل المثال):

ـ تجرده التام لله رب العالمين، وإخلاص الدين كله لله.

ـ حاكمية الكتاب، الذي يَعلو ولا يُعلى عليه، والاجتماع على الإسلام، والانتساب إليه.

ـ تحقيق كل مقاصد الشريعة بصورة تلقائية تُعبر أو هي تعبيراً عن الإيمان الذي في القلوب.

ـ اعتبار الحكم هو خدمة لدين الله ليس فيها جزاء ولا شكورا، بل مهمة شاقة، وجهاد كبير.

ـ الحق والعدل الرباني هو أساس الحكم، والناس كلهم سواسية أمام كتاب الله. ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى. وأخذ الناس بالرفق لا الشدة، وبالتيسير لا التعسير. جاء في الحديث الشريف: عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال: "**اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ**"(1)

ـ الأخذ على يد الظالمين أخذ شديداً والوقوف مع صاحب الحق مهما كان ضعيفاً، والنهي عن الفساد في الأرض، وحرية إنكار المنكر.

ـ عدم المحاباة في دين الله، أو إيثار ذوي القربى بالمناصب والأموال، باعتبار أن فاعل ذلك إنما يأكل في بطنه ناراً.

---

(1) [صحيح مسلم/ج 12 : ص 213]

ـ الانشغال بالدعوة إلى الله، وبالجهاد في سبيل الله، وحمل رسالة الله إلى العالمين.

ـ حفظ الحقوق والحرية والكرامة الذي يؤدي إلى تماسك الأمة، وجعلها على قلب رجل واحد، وبنيان واحد، وجسد واحد.

ـ كراهية الظلم والتسلط على الناس والتعالي عليهم، والزهد في التمتع الزائد بمتع الحياة الدنيا.

ـ نظافة الحس وربانية الشعور وطهارة السلوك، والتواضع لله ـ جل جلاله ـ وللناس.

وبالعمل على تحقيق "مقاصد الشريعة" واستلهام "نموذج الدولة الإسلامية القديمة" (الدولة النبوية ودولة الراشدين) حيث هي "**السُنة النبوية السياسية**"[1] الواجبة الاتباع.. يسهل على المسلمين الانطلاق من هذا الأساس لرسم "شكل" الدولة بأدوات العصر، وإنَّ محاولة رسم شكل الدولة، ومحاولة التطبيق تظل مرهونة بجهدهم البشري، وإخلاصهم، ومقدار فهمهم لمقاصد الشريعة، وهي محاولة تخضع للتقييم والمحاسبة والنقد.. ولكنه ليس النقد العلماني الملحد، إنما النقد الإسلامي الذي يصحح ويُقوم[2]؛ حتى نصل إلى النموذج النبوي الراشد..

فالعلمانيون يَعيبون على كل من يحاول جهده من أجل دعوة المسلمين إلى بناء دولتهم، ويولولون ويركضون كالحُمر المستنفرة.. انظروا: إنهم يريدونها "دولة دينية" فيرتعد بعض ضعفاء الإيمان، المرتعشة أيديهم وقلوبهم؛ فيدفعون عن أنفسهم التهمة!! ويقولون: كلا.. بل "مدنية ديمقراطية"! ويتصدّقون من دينهم وعقيدتهم على العلمانية، ويحاولون أسلمة الديمقراطية والعلمانية! ثم لا يرضى عنهم أحد في النهاية.

---

(1) انظر: درس "السنة النبوية السياسية" ص 254 من هذا الكتاب.

(2) انظر مقال: "النقد وأنواعه". ومقال: "صور المعارضة السياسية.. وآفاتها".

إننا لو افترضنا محاسن في النظم المدنية الديمقراطية ـ ولا يخلو نظام من محاسن ومميزات ـ فإن محاولة تطبيقها عند المسلمين لا بد من أن يكون "**باسم الله**" ابتغاء مرضاة الله.. يجب ونحن "نختار" من الوسائل والأدوات المعاصرة أن يكون اختيار الحر المؤمن الذي يختار لدين الله وكتابه وأمته المسلمة.. وليس اختيار المُقلد التابع الذليل الذي ينفذ ما يأمره به أسياده العلمانيون في الغرب والشرق، وهذا ابتداء ليس اختياراً إنما تبعية ذليلة، وانسحاقاً أمام العدو المتفوق حضارياً ومادياً، وهذا يخالف مقاصد الشريعة من: **حفظ الدين، والمال، والحرية، والقوة، والجهاد، والسيادة.**

وبالعمل على تحقيق "مقاصد الشريعة" واستلهام "نموذج الدولة الإسلامية القديمة" (الدولة النبوية ودولة الراشدين) حيث هي "**السُنة النبوية السياسية**" الواجبة الاتباع ـ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وصدق رسول الله، وكذب العلمانيون والمنافقون.. يجب أن نحاول تأمين الأمة من خطر **فتنة السلطة، وفتنة المال.**

أما "**فتنة السلطة**"، فأرى من الأفضل تفتيت السلطة، وتوزيعها، وتعظيم "**السلطة الاجتماعية**"[1] بحيث لا تتركز كل القوى في يد جهة واحدة، ثم تتعاظم هذه السلطة مع مرور الوقت؛ مما يخلق الاستبداد المطلق، وتوريث الحكم، وفساد منظومته، وانفصالها عن الأمة روحياً واجتماعياً وفكرياً، وسهولة اختراق منظومة الحكم من خلال العدو الخارجي الذي يسهل عليه السيطرة عليها، ومن ثم السيطرة على الأمة كلها.

السلطة الاجتماعية: تتمثل في مجالس الشورى، ونواب الأمة، والجهات الرقابية، وجهات المحاسبة، والمنظمات العامة العاملة في المجتمع، تتمثل في وسائل الإعلام، والجامعات، ومراكز الأبحاث، والجمعيات، والنقابات... إلخ، شرط أن **تجمعها هوية**

(1) انظر درس: "السلطة الاجتماعية"، ص 491 من هذا الكتاب.

إسلامية واحدة ذات صبغة خالصة لله.. تستطيع أن تمارس سلطتها، وتستطيع أن تُصحح مسار منظومة الحكم إن انحرفت.

والسلطة القضائية: يجب أن تكون قائمة على حاكمية كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن تكون مستقلة استقلالاً تاماً، يتم انتخابها انتخاباً عاماً من الأمة أو انتخاباً خاصاً من أهل الاختصاص.. وأن لا تكون تابعة لمنظومة الحكم (السلطة التنفيذية)؛ حتى تؤدي عملها بتفان وإخلاص وتجرد وعدالة.

والسلطة السياسية: تكون مُمثلة للأمة، وتعبيراً عن رضاها وشورها، ومحققة لمقتضى الرحمة والعدل (قوام الرسالة الإسلامية)، وتنفذ **برنامج "مقاصد الشريعة"** حسب وسعها وطاقتها والموارد المتاحة بين يديها.. **ويكون لها حق السمع والطاعة، وللأمة حق الرقابة والمحاسبة**؛ حتى لا تفسد منظومة الحكم من خلال ضغوط السلطة وشهواتها. وعلى قدر تحقيق البرنامج السياسي لـ "مقاصد الشريعة" تستمر في الحكم، إلى أن يأتي من هو أفضل وأحكم وأعلم.. فيأخذ مكانه.

وهكذا تتوزع السلطة بين "**سلطة المجتمع**" - الذي هو أساس - والذي مطلوب منه أن يستفرغ وسعه وجهده في إقامة دين الله، ومقاصد الشريعة، - فهي ليست مسؤولية السلطة السياسية وحدها - و"**السلطة القضائية**" التي تفصل بين المتنازعين، و"**السلطة السياسية**" التنفيذية التي تقوم على تنفيذ وتحقيق **البرامج السياسية لمقاصد الشريعة.**

والسلطة الأمنية: وهي خاضعة للسلطة السياسية، وفي حال وجود فساد بَيِّن في السلطة السياسية - أو كفر بواح - يتحول خضوعها للسلطة القضائية، وإن حصل تآمر على السلطة القضائية.. يتحول خضوعها إلى السلطة الاجتماعية متمثلة في مجالس الشورى ونواب الأمة. وإن حصل فساد في السلطة الاجتماعية، فقد انتهت الدورة الحضارية لهذه الجماعة

من الناس، ويعود الأمر من جديد: دعوة وتربية، ومقاومة وجهاد وإصلاح، ثم حكم وسيادة.(1)

والسلطة الأمنية هي التي ترفع راية الجهاد في سبيل الله، ويتم تربيتها تربية إيمانية قويمة راشدة منذ نعومة أظفارها.. وتنقسم إلى قسمين: القوة الأمنية الخارجية المسؤولة عن دفع الأخطار عن الأمة المسلمة، وحفظ مقاصد الشريعة في الحرية والجهاد. والقوة الأمنية الداخلية: المسؤولة عن إشاعة الأمن والطمأنينة بين الناس، وتنفيذ أحكام السلطة القضائية، وهذه محرم عليها توجيه سلاحها للأمة أو قتال أبنائها تحريماً شديداً، أو القفز على السلطة بحد السيف، والافتئات على حقوق الجميع، فإرهاب الأمة واستباحتها هو الفتنة الكبرى، والجرم العظيم. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93]

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: 10]

وفي الحديث الشريف: "أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيِّ - صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم - فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ معه، فَأَخَذَهُ فَفَزِعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم -: "**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا**"(2)

(1) يقول د. ماجد الكيلاني: "حين تفشل جميع محاولات الإصلاح، وتتحول الجهود المبذولة إلى سلسلة من الإحباطات والانتكاسات المتلاحقة، فإن المطلوب هو القيام بمراجعة تربوية شاملة جريئة وصريحة وفاعلة، يكون من نتائجها إعادة النظر في كل الموروثات الثقافية التي تلي نصوص القرآن والحديث الصحيح، وإعادة النظر في كل العملية التربوية ابتداءً من فلسفة التربية ومروراً بأهدافها ومناهجها وطرائقها ومؤسساتها وإدارتها والمربين العاملين فيها حتى الانتهاء إلى تطبيقاتها السياسية والاجتماعية والإدارية" [كتاب: "هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس"، ص 341، ماجد الكيلاني]

(2) [سنن أبي داود/ 5004]

و"عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ صلى اللهُ عَلَيه وَسَلم: "**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ**، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا"(1)

وفي الحديث أيضاً: "**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عُتُوًّا: رَجُلٌ ضَرَبَ غَيْرَ ضَارِبِهِ، وَرَجُلٌ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ**"(2)

وقال عليه الصلاة والسلام: : "**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ، فَلَيْسَ مِنَّا**"(3)

و"عَنْ خَالِدِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، قَالَ: تَنَاوَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رَجُلا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ بِشَيْءٍ، فَكَلَّمَهُ فِيهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَقِيلَ لَهُ: أَغْضَبْتَ الأَمِيرَ، فَقَالَ خَالِدٌ: إِنِّي لَمْ أُرِدْ أَنْ أُغْضِبَهُ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ يَقُولُ:

"**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشَدُّهُمْ عَذَابًا لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا**"(4)

وعَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، قَالَ: مَرَّ بِالشَّامِ عَلَى أُنَاسٍ وَقَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ، وَصُبَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الزَّيْتُ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قِيلَ: يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَاجِ، فَقَالَ: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ يَقُولُ: "**إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ فِي الدُّنْيَا**"(5)

---

(1) [صحيح مسلم/ 2131]

(2) [المستدرك على الصحيحين/ ([4 : 345)، مصنف عبد الرزاق/ 18847]

(3) [صحيح مسلم/ 104]

(4) [مسند الحميدي/ 572، ومسند الإمام أحمد/ 14911، ومسند أبي داود الطيالسي]

(5) [صحيح مسلم/ 2614]

فلا تعذيب، ولا تلفيق للتهم، ولا للابتزاز الجنسي وغيره، ولا إيذاء لأقارب المتهم.. كما هي أدوات الجاهلية المعاصرة في بلادنا، ويسمون ذلك "الأمن"! فكل ذلك من أكبر الكبائر، وأظلم الظلم، وعاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة.

والقوة الاستخباراتية: هي التي تحفظ الأمة ـ بكل مكوناتها ـ من اختراقات العدو وتجسسه: الفكري، والسياسي، والاقتصادي، والعسكري. وتكشف شبكات العملاء من الداخل، وتخترق هي العدو من الخارج دون إثم أو عدوان بالباطل.

***

أما "**فتنة المال**": فالإسلام يحفظ حقوق الجميع، ويقر الملكية الفردية لكل إنسان، ويدفع الإنسان للانطلاق وعمارة الأرض، والتمتع بالكسب الحلال من جهد وعمل أو ميراث ونحو ذلك. وأما ما جُمع من حرام، وتغول، وسرقة، وفساد.. فإنه يعود إلى خزانة الأمة، ولأصحابه رؤوس أموالهم: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 279]

أما ثروات الأرض فهي ملكية عامة للأمة لتنتفع بها الانتفاع المعتدل الراشد، بلا إسراف ولا تبذير، ولا محاباة وإيثار وإفساد.(1)

وأحفظ شيء للمال العام: هو حسن رقابته، والشفافية الكاملة في معرفة مداخيل الدولة، وطرق التوزيع والإنفاق بكل تفاصيلها، وذلك مما يمنع الفساد، والتغول، والسرقة.. والمحاسبة على العظيم والحقير، جاء في الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: "اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ رَجُلًا مِنَ الْأَسْدِ، يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ، قَالَ عَمْرٌو، وَابْنُ أَبِي عُمَرَ: عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِي

(1) انظر درس: "النظرية الاقتصادية" ص 591 من هذا الكتاب.

أُهْدِيَ لِي، قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: **مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ، فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا، إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٌ تَيْعِرُ،** ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ مَرَّتَيْنِ"[1]

والانتباه إلى خدعة الانشغال بالمحاسبة على الحقير، للتعمية على المحاسبة على العظيم كما يفعل الفجار في بلادنا، وعبر التاريخ.. والدولة (السلطة السياسية) لا تملك أي شيء من المال العام، بل هو ملكية للأمة فقط. والسلطة أمينة على إدارته وتوزيعه، وتحقيق مقاصد الشريعة بموارده.

ومن ثم توزيع المال وتفتيته[2] كما حصل مع السلطة السياسية على النحو التالي:

حتى يكون للسلطة معناً وقيمة يجب أن يكون لديها الحرية المالية، فمثلاً: عندما نقول يجب أن تكون السلطة القضائية مستقلة استقلالاً تاماً عن السلطة التنفيذية السياسية، فلا يمكن تحقيق ذلك بصورة كاملة إذا كانت السلطة السياسية تتحكم في معاش ورواتب هؤلاء القضاة، ومن ثم لكي تتمتع الجهة بالاستقلالية يجب عمل **وقف** لها، بحيث يكون هذا الوقف هو الذي يتولى الصرف على معاش ورواتب العاملين في سلك القضاء..

وهذا الوقف أيضاً ـ وكل وقف ـ **خاضع للرقابة والمحاسبة الدورية كل ثلاثة أشهر مثلاً**، لمعرفة الوارد منه، والخارج منه.. وضمان عدم وجود أي شبهة.

---

(1) [صحيح مسلم/ 1834، وصحيح البخاري/ 7174].

(2) انظر مبحث "تفتيت الثروات" من كتاب "الإسلام وأوضاعنا القانونية"، د. عبد القادر عودة.

وكذلك في حفظ الدين: يجب أن يكون هناك **وقف** للدعوة ـ كما كان في السابق عبر التاريخ الإسلامي ـ لجعل المؤسسات الدينية والدعوية في تحرر من الدوران مع السلطة السياسية، والإنفاق الحر على الدعوة والتربية والتعليم.

وكذلك وقف للجامعات، ووقف للصحة، ووقف للزواج، والأيتام، والمساكين والفقراء، ووقف للبحث العلمي... إلخ. وضمان نجاح أي وقف هو الأمانة، وصيانة الأمانة لا يُترك للضمير الفردي فحسب بل بالرقابة من المؤسسات المختلفة، وبحرية الوصول للمعلومات لدى الجميع.

ثم تبقى بعد ذلك الموارد العامة للدولة، وحساب خزانة الدولة وما دخل إليها وما خرج منها، والرقابة المشددة عليه، وحرية الاطلاع على كل المعلومات، والشفافية في طرحها، مع الانتباه لعدم وجود فجوة كبيرة في الأجور والامتيازات في الوظائف الحكومية؛ فيطمع الناس في شيء، ويتنافسون في جهة معينة كسباً لمال أكثر أو سمعة.

مع إلغاء كل الضرائب الجائرة، وتحريم الربا وممارساته تحريماً شديداً، وتحرير التجارة من أي قيود ـ إلا أن تكون ضوابط شرعية إسلامية ـ وتشجيع العمل والإنتاج والإبداع وخلق فرص العمل؛ وتذليل كل العقبات المُفتعلة سواء على المستوى المحلي من محاباة وظلم ونظم إدارية فاسدة وبيروقراطية عقيمة، وضرائب السحت، وعلى المستوى الدولي الذي يَحول دون حماية الاقتصاد الوطني للأمة وتركه نهباً للعولمة الاقتصادية الظالمة التي تُحول الشعوب إلى مجرد مستهلك نهم. وحماية المرأة من الاضطرار للعمل للإنفاق على نفسها ومعاشها، فالأسرة والمجتمع والدولة لها كفيل.

وأخذ الزكاة ممن يستحق هو عبادة لله، باسم الله، وإنفاقها في مصارفها المعروفة.. وإن احتاجت الدولة لدخل إضافي للصرف على بعض مشروعات **البرنامج السياسي لمقاصد الشريعة**، ففي هذه الحالة يجب أن يكون بموافقة مجالس الشورى ونواب الأمة.. وذلك

بعد التأكد من عدم وجود أي بدائل أخرى، ففي هذه الحالة يُسمح بفرض "ضريبة عادلة مؤقتة" لغرض وتوقيت معين؛ لجمع مبلغ معين من المال، لصرفه في غرض معلوم. وأخذه من الأغنى أولاً ثم الذي يليه.

***

هذه بعض المعالم العامة، وللسادة العلماء تفاصيل واجتهادات جديرة بالنظر والإتمام. وإنَّ **النقص** في هذا الطرح يعني استكماله **بمرجعية الكتاب والسنة، وليس نبذ كتاب الله إلى العلمانية.**

وأول وأهم خطوة على هذا الطريق هي: الإيمان بأننا لا نقدم برنامجاً سياسياً لحزب أو جماعة، **بل نحقق أولاً مقتضى إسلامنا لله رب العالمين**، وأنه لا يسع أي مسلم نبذ هذا الكتاب لغيره من الكتب والمناهج والنظريات والأيديولوجيات.. بل إنما يحقق معنى "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وفي هذا السبيل فليتنافس المتنافسون، وليسابقوا بالخيرات ليقدموا أفضل ما لديهم ليحقق مقاصد الشريعة كما أمرهم الله جل جلاله:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21]

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26]

***

20- الإسلام والقومية

حب الإنسان لوطنه، وقومه هو حب فطري غير متكلف، ولا مصطنع؛ فهو يَنشأ نشأة طبيعية في قلب وعقل الإنسان، الذي يحمل ذكريات طفولته وصباه وشبابه، ويرتبط روحياً واجتماعياً بأهله، وعشيرته، وقبيلته، وقومه، يحب ويتعود ويتكيف على نمط الحياة، ومذاق الطعام، وشكل الألبسة، إنه يتحول إلى عضو اجتماعي في شجرة المجتمع الكبيرة. يشعر بالانتماء إلى الأسرة والعائلة والمجتمع، ومهما ارتحل.. يأخذه الحنين إلى أصل النشأة، وإلى جذور البداية.

وليس في هذا الحب أدنى محظور شرعي، فهو حب طبيعي، وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما أخرجه قومه من بلده الأم مُهاجراً إلى المدينة: "**مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ**"[1]

ويُفيد هذا الحب والانتماء والترابط الاجتماعي في التماسك، والوحدة، والمحبة، والتآلف، والتعاون، بين أبناء الأمة الواحدة.

ولكن إذا تعارض هذا الحب الفطري للقوم والأوطان، مع مبادئ وأهداف ورسالة الإسلام، فلا شك في أن **الإسلام يَعلو، ولا يُعلى عليه..** بل الإسلام يريد أن تكون "قومية" الإنسان، وجنسيته ووطنه هو "الإسلام" ابتداء، ثم تأتي الروابط القومية والمحلية والقبلية في مرحلة تالية كطبيعة اجتماعية لا يغفلها الإسلام، إنما يضبطها ببوصلة الكتاب الذي يجب على الأمة المسلمة العالمية أن تدور معه حيث دار..

(1) [جامع الترمذي/ 3926]

وقد اعتبر الإسلام تقديم أي قومية أو وطنية عليه إنما هو "دعوى الجاهلية"، التي تناقض الإسلام.

فجاء في الحديث الشريف: «عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاجْتَمعَ قَومٌ ذَا، وقَوْمُ ذَا، وَقَالَ هؤُلَاءِ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ وَقَالَ هؤُلَاءِ: يَا لَلْأَنْصَارِ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "**دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**" ثُمَّ قَالَ: "**أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ**"»[1]

وفيه أيضاً: عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم: "**مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**"[2]

وعنه ـ صلى الله عليه وسلم: "**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**"[3]

وقد كانت "القومية الجاهلية" ترفع شعار "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" فجاء الإسلام يرفع هذا الشعار ـ من باب المشاكلة اللفظية ـ ويُفسره بأن نصرة أخيك الظالم، هي أن تمنعه عن الظلم ـ فهو ظلمات في الدنيا والآخرة ـ جاء في الحديث الشريف: "عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا** "، **قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَصَرْتُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: "تَكُفُّهُ عَنِ الظُّلْمِ فَذَاكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ**"[4]

و"عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: اقْتَتَلَ غُلَامَانِ غُلَامٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ، وَغُلَامٌ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَنَادَى الْمُهَاجِرُ أَوْ الْمُهَاجِرُونَ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، وَنَادَى الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ

(1) [«مسند أحمد» (22/ 469 ط الرسالة)]

(2) [صحيح مسلم/ 1852]

(3) [صحيح البخاري/ 6882]

(4) [جامع الترمذي/ 2255، وصحيح البخاري/ 2444]

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **مَا هَذَا دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟** قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا أَنَّ غُلَامَيْنِ اقْتَتَلَا فَكَسَعَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، قَالَ: "**فَلَا بَأْسَ وَلْيَنْصُرِ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ، وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ**"(1)

فكانت القومية مجردة عن "علو القومية الإسلامية وهيمنتها وسيادتها" هي مجرد "حمية الجاهلية"، قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: 26]

ورسالة الإسلام رسالة عالمية تستهدف "الإنسان" في كل الأرض، وتريد أن يتعارف ويتعاون الجميع:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2]

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10]

وأن يكون المؤمنون بعضهم لبعض كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا: "عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ**"(2)

(1) [صحيح مسلم/ 2585]

(2) [صحيح البخاري/ 481]

وأن يتراحم الجميع (متجاوزين حدود الأرض، واللغة، والقوم، والأهل، والعشيرة...): "عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**"(1)

وعن النبي - صلى الله عليه وسلم، قال: "**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ، حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**" وقال - صلى الله عليه وسلم: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**" (2)

وعن النبي - صلى الله عليه وسلم، قال: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى...**"(3)

وتقديم الولاء للإسلام على الولاء للقوم والأهل والعشيرة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22]

---

(1) [صحيح البخاري/ 13]

(2) [صحيح مسلم/ 2565]

(3) [مسند الإمام أحمد/ 22977]

"فلم يحفل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سبيل الدعوة ونشر كلمتها بشيء من مصالح بلاده أو قومه أو عشيرته أو أسرته. لم يهتم منها في قليل ولا كثير، وهذا هو الذي جعل الناس يستيقنون أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما قام لسعادة المجتمع البشري قاطبة، وهذا الذي جذب إلى دعوته أناساً من كل جنس ومن كل أمة.

فإنه لو عناه وشغله أمر أسرته وارتفاع شأن بني هاشم من أهله لما كان من الميسور أن يُقبل على دعوته من غير بني هاشم من العرب، ولو كان همه أن يحمي قريشاً من غيرهم ويذود عن سيادتهم السياسية لما أمكن أن يُلبي دعوته قبائل العرب من غير قريش، ولو كان من مهمته إعلاء كلمة العرب ورفع منار القومية العربية لكان من المستحيل أن يأوي في كنفه وينضوي تحت لوائه بلال من الحبشة، وصهيب من الروم، وسلمان من الفرس.

فما لا مرية فيه أن الذي جذب الناس جميعاً إلى هذه الدعوة، أعلاهم وأدناهم، أسودهم وأحمرهم، إنما كان حبه الخالص لها، وتجرده التام من كل نوع من أنواع الأغراض الذاتية والعائلية أو القومية والوطنية."[1]

رسالة الإسلام إذن تهدف إلى بناء مجتمع عالمي مفتوح يضم المسلمين في كل مكان، وغير المسلمين فيه آمنون، مطمئنون على حقوقهم وحرياتهم كما تقررها شريعة الإسلام. ويدعو إلى الحوار والتعارف والتقارب والجدال بالحسنى لتصل دعوته إلى كل القلوب المفتوحة للحق، وإقرار حرية العقيدة لكل إنسان، وحفظ حقوقه بغض النظر على جنسه ولونه وقومه ولغته.

(1) ["منهاج الانقلاب الإسلامي"، أبو الأعلى المودودي، ص 49]

ويجعل التمثيل القومي لمكونات المجتمع الإسلامي.. إنما هو تمثيل لخدمة الإسلام، والمسارعة في الخيرات، وليس هو "استعلاء" قومية ما على حساب المجتمع الإسلامي، ولا تقديم مصالحها المادية فوق مصلحة الإسلام وعموم المسلمين.(1)

ومثال ذلك: لما انهزم الناس عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة حنين، "فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يَا عَبَّاسُ نَادِ يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ**"، قَالَ: وَكُنْتُ رَجُلًا صَيِّتًا، فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ [يُذَكِّرُهُمُ الْبَيْعَةَ الَّتِي بَايَعُوهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَالشَّجَرَةِ سَمُرَةً بَايَعُوهُ تَحْتَهَا عَلَى أَنْ لا يَفِرُّوا](2) قَالَ: فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ، وَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ فَاقْتَتَلُوا هُمْ وَالْكُفَّارُ، فَنَادَتْ الْأَنْصَارُ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، ثُمَّ قَصَّرَتْ الدَّاعُونَ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَنَادَوْا يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، قَالَ: فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ، كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ..."(3)

وأيضاً: "لَمَّا اشْتَدَّ الْقِتَالُ (في حروب الردة) وَكَانَتْ يَوْمَئِذٍ سِجَالا، إِنَّمَا تَكُونُ مَرَّةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَمَرَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ. فَقَالَ خَالِدُ بن الوليد: "أَيُّهَا النَّاسُ امْتَازُوا لِنَعْلَمَ بَلاءَ كُلِّ حَيٍّ وَلِنَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ نُؤْتَى. فَامْتَازَ أَهْلُ الْقُرَى وَالْبَوَادِي، وَامْتَازَتِ الْقَبَائِلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَأَهْلِ الْحَضَرِ، فَوَقَفَ بَنُو كُلِّ أَبٍ عَلَى رَايَتِهِمْ فَقَاتَلُوا جَمِيعًا."(4)

والرسالة الإسلامية منذ انتظامها في المجتمع المدني، وانطلاق حركته السياسية، كانت تؤكد وتحرص أن تُزيل كل الفوارق القومية الجاهلية، وتنظر إلى الإنسان نظرة مطلقة

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ مبحث "أسس النظام الاجتماعي الإسلامي" من كتاب "الإسلام وأوضاعنا القانونية"، د. عبد القادر عودة.

(2) [مستخرج أبي عوانة/ 6754] وفيه: "يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ" فكان هذا ما يُميزهم.

(3) [مسند الإمام أحمد/ 1778، صحيح مسلم/ 1776]

(4) [تاريخ الطبري/ ج 3 : ص 147]

من حدود القومية والجنسية، تنظر إلى الإنسان من حيث إنسانيته.. فرسالة الإسلام إنما تستهدف الإنسان كل الإنسان في الأرض كل الأرض، فكان هذا الدين يُؤاخي بين المهاجرين والأنصار، ويُؤاخي بين الأنصار أنفسهم، وقبل ذلك ما آخى بين المهاجرين بعضهم في بعض، ويؤاخي بين الأعراق والأجناس والبلدان، واستمر الحال على ذلك، حتى دبت نبتة الجاهلية الخبيثة، وبدأت الحركات الشعوبية في الظهور ربما بسبب إحساسها بالظلم في عدم أخذ حقوقها المشروعة، وربما بسبب تمسكها الجاهلي باستعلائها القومي على غيرهم من المسلمين.. لكن ظل التماسك الاجتماعي الإسلامي العام هو الأصل بفضل الله، ثم بجهد العلماء الربانيين والدعاة إلى الله، وكان الخطر المستمر الذي يحيط بالمجتمع الإسلامي يدفعهم إلى التوحد في لحظات الخطر..

وأدرك العدو المتربص ـ من أهل الكتاب والمشركين ـ أنه لا انتصار على المجتمع الإسلامي إلا بتفكيك اجتماعه الروحي والسياسي والجغرافي، فعملوا من كل طريق على تمزيق وتفتيت هذا الاجتماع، وخلق "الولاء القومي" ليكون بديلاً عن الولاء للإسلام، وغرسوا هذه الأفكار الجاهلية عن طريق قادة الفكر والرأي، مستغلين ظروف الضعف والتخلف ـ قُبيل انهيار الدولة العثمانية ـ ليتم تقسيم المجتمع الإسلامي حسب حدود الأرض (التي سيقررها المحتل الغربي!)، وعلى أساس القبائل والأعراق والأجناس، وعلى أساس التفوق العرقي، ثم جاءت القوة العسكرية الصليبية الصهيونية لتمزق العالم الإسلامي جغرافياً إلى قوميات شتى، وخلق لهم قاعدة عسكرية في قلب العالم الإسلامي "دولة يهود"، لتقوم بضمانة الإفساد في الأرض، ومحاربة أي محاولة للاجتماع الإسلامي الذي أمر به الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وأصبحت "القومية الوطنية العلمانية" هي أساس الاجتماع، وعليها ينعقد الولاء والبراء!

وهذه القومية العلمانية إما أن تكون معادية للإسلام خاصة، ومعادية لكل ما يمت له بصلة.. معادية للغته وتاريخه وشعائره وشرائعه ـ كالعلمانية الأتاتوركية ـ وإما أن تكون

محافظة فتجعل الإسلام مكوناً تاريخياً للقومية، ولكنه ليس حاكماً عليها، فتنظر إليه نظرة انتماء لا هوية وحكم. أو يكون الإسلام مجرد شعائر وطقوس تصبح جزءاً من القومية.. وتتقدم القومية عليه بطبيعة الشكل السياسي للدول القومية الحالية.

وكل هذه الأوضاع باطلة! **فالإسلام يجب أن يَعلو ولا يُعلى عليه..** ولا يتقدم عليه شيء، لا قوم، ولا لغة، ولا جغرافيا، ولا جنس، ولا عرق، ولا ثقافة، ولا فكر... إلخ.

ولقد سبّب الانتماء للقومية على حساب الانتماء للإسلام إلى الوقوع في أعمال الكفر، ومضاهاة أفعال الذين كفروا، ومنها:

ـ إنَّ هذا التقديم للقومية الجاهلية العلمانية على القومية الإسلامية هو بحد ذاته عملاً من أعمال الكفر.

ـ إنَّ هذا الانتماء للقومية الجاهلية يجعل هذه الدول تتحالف مع الكافرين المحاربين على أساس الانتماء القومي، وفيه ولاية للذين كفروا، ويجعل كل قومية تبحث عن حماية لها من أهل الكفر الذين لا يبحثون إلا عن مصالحهم، وأهمها: إبقاء العالم الإسلامي جغرافياً وسياسياً في حالة من الضعف، والاضطراب، والفوضى.

ـ الاقتتال البيني بين أبناء الأمة الواحدة، الأمر الذي حذر منه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حجة الوداع، فقال: "**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**"(1)

***

(1) [صحيح البخاري/ 121]

ولقد ذاقت البشرية الويلات بهذه "القومية العلمانية" التي يتأله فيها الإنسان والوطن، ويروح يدمر في الأرض، باسم الاستعلاء القومي، والعنصري، ويسترق الشعوب، ويسرق الثروات باعتباره أحق بها، وأحق بالحياة وخيراتها.. فتجعل العلمانية "القومية" ديناً يكون عليه الولاء والبراء، والسلم والحرب، وتربي الأجيال على "عبادة" القوم، والوطن هو الإله الأكبر! ويُختزل القوم والوطن في شخص الحاكم، أو الحكومة، أو الحزب، أو الملك، أو القائد أو الأيديولوجيا[1].. فيتحول الانتماء له؛ ليُعبد من دون الله أو مع الله! وتُغذي العلمانية شعور الانتماء القومي الجاهلي ليصل حد الجنون، والقتل، والازدراء بالحياة وبالإنسانية، في صورة يترفع عنها الحيوان المتوحش!

والعلمانية العالمية اليوم تريد أن تذوب كل "القوميات المحلية" ـ على جاهليتها ـ في المواطنة العلمانية العالمية الواحدة، وتوحد انتماؤها متجاوزة كل الحواجز؛ فتريد من الإنسانية أن تَدين بها ـ وفق المنظور الغربي ـ وعولمة نظام حياتها بكل صورها وأنشطتها: من حيث الفكر والثقافة، والاجتماع والسياسة، والحكم والقضاء، والقيم والموازين، والسلوك والشعور، والاهتمام والولاء، والملبس والمظهر والمأكل.. وتجعل انتماؤها للشركات الكبرى الحاكمة، وللحضارة الغربية، باعتبارها نهاية التاريخ، والصورة المثالية للإنسانية، والدين الحق! وفي نفس الوقت لا تسمح لهذه الإنسانية بالتمتع بالخيرات، بل تسمح لها فقط بالاستهلاك، وتريد أن تمارس الهيمنة الكلية عليها، وتعتبر كل خارج عن ذلك، هو خارج الأسرة الدولية، ومارق من مقررات الشرعية الدولية!

و﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: 35] ويستعلون في الأرض ظلماً وبغياً وإفساداً وعدواناً.. ومن هذا الكبر "الاستعلاء القومي" الذي لا يدخل صاحبه الجنة، جاء في الحديث الشريف: "عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**"، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ، يُحِبُّ أَنْ

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "ماهية الأيديولوجيا".

يَكُونَ ثَوْبهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: **إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**"[1] الكبر الذي يرد الحق، ويزدري الخلق ويحتقرهم.

والإسلام يحارب الاضطهاد، والظلم، والعدوان على الإنسان لجنسه أو قومه أو لغته أو انتمائه[2]، بل يدعو ويجاهد لتحرير الإنسان، وإبلاغه رسالة الله، ويترك له حرية الاعتقاد شرط أن يكون مسالماً للإسلام والمسلمين، ويحارب الذين يُحادون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويحارب الذين يُفسدون في الأرض، ويبغون فيها بغير الحق، ويمارسون صور الربوبية على البشر.. **فالإسلام إعلان عالمي لتحرير الإنسان.**

وحركات الإصلاح والتغيير يجب أن تعمل على تصحيح هذه المفاهيم من الناحية النظرية من خلال الدعوة، ومن الناحية التطبيقية من خلال الفعل السياسي، **والعمل على**:

- إعلاء الإسلام باعتباره قومية المسلم، وجنسيته.

- بيان عقيدة الولاء والبراء باعتبارها من مقومات الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

- تصحيح وبيان كيف ينظر الإسلام إلى الانتماء القومي.

- إحياء مفهوم "الأمة الواحدة" و"الأخوة الجامعة".

- تقديم المواطن المسلم العالمي، بديلاً عن المواطن العلماني العالمي.

- التخفيف والحد من غلواء النعرات القومية، وبيان جاهليتها.

---

(1) [صحيح مسلم/ 92]

(2) انظر درس: "دين العلمانية"، وموقف الإسلام من التمييز على أساس ديني، ص 240 من هذا الكتاب.

ـ توظيف مهارات ومميزات كل قومية وعرق في التآلف والتحاب والمسارعة في الخيرات، والتعاون على البر والتقوى لا الإثم والعدوان، وفي خدمة الإسلام والمسلمين جميعاً.

ـ تبني قضايا المسلمين في كل مكان، والدفاع عنها في كل أرض.

ـ محاربة كل الدعوات الجاهلية التي يغذيها المنافقون والمحتلون من أجل تفتيت الأمة، وتمزيق ولائها للإسلام.

ـ نزع كل مسببات الفرقة، والعمل على تماسك الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامي، وبناء قوته الذاتية باسم الإسلام، والمصلحة العامة للأمة المسلمة.

***

21- الشورى.. والعدوان عليها!

جوهر الفكر السياسي الإسلامي ـ بعد إخلاص الدين (نية وعملاً) لله رب العالمين، وإعلاء حاكمية شريعته ـ هو "الشورى"[1] ولقد تعرض هذا المبدأ إلى ضربات مميتة، كادت أن تقضي عليه، لولا حفظ الله لكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

الضربة الأولى: هي تحول "الخلافة على منهاج النبوة" حيث العدل والشورى المنطلق من الاجتماع على الإسلام واعتباره هو المرجعية العليا إلى "ملكٍ عضوض" على سُنة القياصرة والأباطرة، حيث الاستبداد والظلم والاستئثار بالثروة والسلطة.

الضربة الثانية: اليأس من الإصلاح بعد فشل الثورات المسلحة، والتحولات الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية.. وقد كانت الثورات مذهباً للسلف قديم ـ مثل ثورة القراء على الحجاج ـ كما قال الحافظ ابن حجر، لكن مع كثرة الفشل، تم الإعراض عنها، ولصقها حصراً بالخوارج، مع عدم وجود تفكير في الإصلاح سوى "السيف".

الضربة الثالثة: وهذه أخطرها.. تحويل العجز عن (الإصلاح، ومواجهة الاستبداد، ودفع الظلم) إلى "سُنة نبوية" وعقيدة، يجب على المرء اعتناقها حتى يكون من "أهل السنة والجماعة"! حتى إن إماماً مثل الإمام أبي حنيفة عندما كان يرى تغيير الظلم، وعدم إعطاء الشرعية للظالمين، قال بعضهم عنه: "احتملنا من أبي حنيفة كل شيء، إلا السيف أو حتى جاءنا بالسيف".

(1) انظر بحث: "الشورى وآلياتها، ومعالم الدولة المسلمة". ولا نود تكرار ما جاء في هذا البحث هاهنا؛ فليرجع إليه القارئ الكريم إن شاء.

الضربة الرابعة: تفريغ مفهوم "الشورى" من معناه وحقيقته، ليتحول إلى مجرد "دردشة" من المَلك لبعض أعوانه، ودخل بعض الفقهاء ـ غفر الله لهم ـ في جدلية هل الشورى مُعلمة أم مُلزمة؟! وانتهوا ـ بطبيعة الحال ـ إلى أنها مجرد إعلام بوجهات النظر! وتَحوّل العدل إلى مجرد ضربة حظ، حسب رغبة الحاكم أو تربيته أو تقواه.

والشورى مُلزمة من الجهات التي تُمثل الأمة، وإلا لا معنى لتمثيلها. بينما هي مُعلمة للرئيس أو الحاكم عندما يطلب المشورة، أو يكون له مجلس استشاري، ولكن في النهاية كلمته نافذة؛ لأنه مُحاسب عليها، وهذا ـ فيما أرى ـ الفرق بين الإلزام، والإعلام.

الضربة الخامسة: تحول كثير من الكتّابات في "الفكر السياسي الإسلامي" إلى مجرد نصائح للملوك في أغلبه، ومأخوذ في بعضه أو كثيره عن سنن الفرس والروم، وفيه بيان لتنظيم شؤون الدولة، وبعض شروط القضاء والحسبة ونحو ذلك، ويتصدر بإهداء للملك أو الأمير، ونتابع الأمر على ذلك.

الضربة السادسة: مع انهيار الوحدة السياسية للمسلمين متمثلة في "الدولة العثمانية" وتزامن ذلك مع النهضة الأوروبية، والثورة الصناعية، والتحرر من الإقطاع والنظام الإمبراطوري الأوروبي، وعودته إلى جذوره الوثنية الرومانية واليونانية الإغريقية فقد وجد في "النظام الديمقراطي" هوية ونظاماً وثقافة يصلح له الانتساب إليها، ومن ثم طّور نُظم الحكم على أساس يضمن ـ إلى حد ما ـ التداول السلمي للسلطة، وحد أدنى من الفساد، ورقابة ومحاسبة، وحرية تعبير ونحو ذلك، كل هذا على أساس "علماني ـ إلحادي" يرفض "الدين والإقطاع" معاً باعتباره العهد البغيض. ومع هيمنة العالم الغربي وانتصاراته المادية، تم تصدير "الديمقراطية" على أنها أمل الشعوب في الحياة والإصلاح السياسي، وصارت قيمة "مقدسة" في الفكر السياسي العالمي والمحلي.

الضربة السابعة: لما قامت حركات الإصلاح الإسلامي بشقيها المسلح والمدني لم تُؤدِ المأمول منها، فأما المسلح: فهو يعتبر السياسة الشرعية هي كتب تراث الملك العضوض، ويعتبر الديمقراطية هي الكفر الأكبر، وليس لديه أي وسائل لمنع الاستبداد، فهو كأنه يريد العودة إلى الملك العضوض بكل تجلياته وأدبياته؛ ومن ثم لم يُقدم أي جديد في إقامة الفكر السياسي الإسلامي على قواعده الصحيحة.

أما الشق المدني: فهو يُنادي بالديمقراطية صباح مساء، وهم أكثر أهل الأرض بكاءً عليها؛ لأنه يتم الانقلاب عليهم في كل مرة ينجحون فيها! ومن ثم لا يُنتظر منهم التأصيل لقواعد الشورى.

كل هذه الضربات جعلت "منهج الشورى" غريباً! وجعلت "الفكر السياسي الإسلامي" رهيناً لتراث الملك العضوض، ويدور حول موضوعاته.

وتكمن أهمية التصدي لهذه الضربات في: الدفاع عن السنة النبوية والخلافة المحمدية على منهاج النبوة، وإيجاد واقع جديد للمسلمين ـ الواقع الاجتماعي السياسي ـ القائم على مبدأ الإيمان بالله ورسوله والتحاكم إلى الكتاب، وعلى الحق والعدل، والشورى والرضى، ولا تعود الخلافة على منهاج النبوة إلا من هذا الطريق.

***

ولا يعني ذلك أن الفقهاء قديماً وحديثاً أطبقوا على إهمال الشورى، بل على العكس هناك من تصدى للبيان، فلا يغيب وجه الحق أبداً، ولا بد من قائل به في كل جيل وقبيل، ومن أمثلة ذلك:

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ في بيعة يزيد بن معاوية: « فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة»[1]

ويقول العلاّمة ابن عطية (المتوفى: 542 هـ) رحمه الله: «والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، وقال عليه السلام: المستشار مؤتمن، وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالماً ديناً، وقل ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي الحسن: ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله، وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مجرباً واداً في المستشير، والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب الخلافة ـ وهي أعظم النوازل ـ شورى، وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه، وقد قال في غزوة بدر: أشيروا عليّ أيها الناس، في اليوم الذي تكلم فيه المقداد، ثم سعد بن عبادة، ومشاورته عليه السلام إنما هي في أمور الحروب والبعوث ونحوه من أشخاص النوازل، وأما في حلال أو حرام أو حد فتلك قوانين شرع. ﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]»[2]

ويقول العلاّمة محمد رشيد رضا، رحمه الله: «القاعدة الأساسية الأولى للحكم الإسلامي هي الشورى، فالحكم في الإسلام للأمة، وشكله شورى، ورئيسه الإمام الأعظم أو (الخليفة) منفذ لشرعه، والأمة هي التي تملك نصبه وعزله، قال الله تعالى في صفات المؤمنين ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38] وقال لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم:

(1) [«تاريخ الإسلام للذهبي - ط التوفيقية» (5/ 163)]

(2) [«تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (1/ 534)]

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159] وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشُاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه في كتاب الله تعالى، وقد بينت في تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الأمة.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59] وأولو الأمر هم أهل الحل والعقد والرأي الحصيف في مصالحها، الذين تثق بهم الأمة وتتبعهم فيما يقرونه، بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من سورتها: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83] فأولو الأمر الذين كانوا مع الرسول، وكان الأمر يرد إليه وإليهم في الشئون العامة للأمة من الأمن والخوف وغيرهما، هم الذين كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستشيرهم في الأمور الدقيقة والسرية المهمة. وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة ويعمل برأي الأكثر وإن خالف رأيه، كاستشارتهم في غزوة أُحد في أحد الأمرين: الحصار في المدينة أو الخروج إلى أحد للقاء المشركين فيه. وكان رأيه ورأي بعض كبار الأمة الأول، ورأي الجمهور الثاني، فنفذ رأي الأكثر ...

وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى، ولا يصح أن يكون حكم الإسلام أدنى من حكم ملكة سبأ العربية فقد كانت مقيدة بالشورى، ووجد ذلك في أمم أخرى، وإن جهل ذلك من جهله من الفقهاء.

ولكن ملوك المسلمين زاغوا بعد ذلك عن هذا الصراط المستقيم إلا قليلاً منهم وشايعهم علماء الرُّسُوم المنافقون، وخطباء الفتنة الجاهلون، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الأساسية لحكومة دينهم»[1]

ويقول الشيخ القرضاوي، رحمه الله: "يمتاز نظام الشورى الذي تقوم عليه الدولة المسلمة، بأن للشورى حدوداً لا يتعداها، فعقائد الإسلام الإيمانية، وأركانه العملية، وأسسه الأخلاقية، وأحكامه القطعية ـ وهي المقومات الأساسية التى ارتضاها المجتمع وأقام عليها نظام حياته ـ لا مجال للشورى فيها، ولا يملك برلمان، ولا حكومة، إلغاء شيء منها، لأن ما أثبته الله لا ينفيه الإنسان، وما نفاه الله لا يثبته الإنسان.

والناخب في نظر الإسلام شاهد، فيشترط فيه ما يشترط في الشاهد من العدالة وحسن السيرة: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: 2]، ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: 282] كما يجب عليه إذا دعي للتصويت أن يدلي بشهادته، ولا يكتمها ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: 283] ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: 282].

أم المشرع فيجب أن يكون "حفيظاً عليماً" أو "قوياً أميناً"، وإلا أفسح المجال لغيره، وإهمال هذا المبدأ يُعجل بنهاية الأمة...

ومن شهد لغير صالح بأنه صالح، فقد ارتكب كبيرة شهادة الزور، وقد قرنها القرآن بالشرك بالله، إذ قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: 30]

(1) [«تفسير المنار» (11/ 217)]

ومن شهد لمرشح بالصلاحية لمجرد أنه قريبة أو ابن بلده، أو لمنفعة شخصية يرتجيها منه، **فقد خالف أمر الله** تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: 2]"[1]

***

وجدير بالبيان أن "**رجال الدولة المستبدة الفاسدة**"، وأصحاب المصالح والنفوذ.. هم: أولئك الذين عبدوا السلطة والجاه والمال، **وداروا مع العرش ـ وكرسي الحكم ـ حيث دار**، وقفزوا على الأمة بسلطة السيف، وشرعية القوى الباطلة الفاسدة، وتسلطوا على المصلحين، وأهل التقى، وأعملوا في الأمة الإرهاب والتوحش، كل همهم البقاء في السلطة حتى الموت! مهما فسدت الدولة، وتفككت! هم أكذب الخلق، وأطمع الناس، وأفسد القلوب.. وهؤلاء هم الأئمة المضلون.

وأما "**رجال الدولة العلمانية**"، وأصحاب الفكر المناهض للفكر والهوية والشريعة الإسلامية.. هم: أولئك الذين عبدوا الغرب وفكره وحضارته، ورأوا فيه طريق الخلاص والفلاح والنجاة، **ويدورون مع الغرب وثقافته حيث دار**، يحاولون سلخ الأمة عن دينها وهويتها وشريعتها، ويبشرونها بالديمقراطية الليبرالية ـ أو الاشتراكية ـ ويتلقون الدعم والتأييد من أئمتهم وسادتهم في الغرب، وهؤلاء يروجون لأنفسهم أنهم يعرفون طريق التحرر من الاستبداد والرجعية والإرهاب، وبهم ستُقام الدولة المدنية الحديثة، وهؤلاء هم رجال الدولة العلمانية المُلحدة.

وأما "**رجال الدولة في الإسلام**"، وأهل الشورى، وأهل الحلم والرأي.. هم: أولئك الذين زهدوا في المال والسلطة والمغريات، **وداروا مع الكتاب حيث دار**، وصبروا على ما لاقوه من أذى، وواجهوا ترهيب وترغيب الجاهلية من حولهم، وعبروا الأهوال والصعاب، ولم يطلبوا جاهاً ولا سلطة..

(1) [كتاب: من فقه الدولة في الإسلام، الشيخ يوسف القرضاوي، ص 41، ص 184]

بل كان كل همهم **رضى الله، ونصرة دينه، والدفاع عن أمته..** وأمثال هؤلاء الذين حنكتهم التجربة، وعركتهم المحن والآلام، هم أصدق الخلق، وأقوى العزائم، وأزهد الناس، وأخلص القلوب، وأوعى العقول.. تَأَمّروا بجهادهم وحسن بلائهم في الإسلام، وهؤلاء هم رجال الدولة المسلمة.

***

22- ثوابت الديمقراطية، وثوابت الشورى

كثيراً ما يَغفل من يُقدم لنا الديمقراطية ـ على أنها هي الحل وطريق الخلاص ـ الحديث عن ثوابت الديمقراطية، فالديمقراطية ليست مجرد: اختيار الحاكم، والفصل بين السلطات، ومحاسبة رجال الدولة... إلخ، فهذه أمور لا بأس بها، يتفق العقلاء على أهميتها، ولكن الديمقراطية ليست مجرد شكل من أشكال الحكم، إنما لها هوية وثقافة وثوابت لا يمكن أن تكون بدونها.(1)

بمعنى: لو أنك قمت باختيار الحاكم، وفصلت بين السلطات، وفعلّت الأجهزة الرقابية، ولم تقم بتنفيذ "ثوابت" الديمقراطية.. فأنت غير ديمقراطي، ولو كان نظامك السياسي من أنجح النظم، وأكثرها عدلاً وفاعلية ورفاهية.

فمن ثوابت الديمقراطية الغربية: (الليبرالية "العلمانية" الثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، واللاأخلاقية السياسية).

فأما **الليبرالية الثقافية**: فهي الحرية المطلقة للأفراد في (الإلحاد، والشذوذ، والإباحية، وحرية التعبير عما يثير الفتن والقلاقل داخل المجتمع، وتدعيم الأقليات في الدول التي تحت الاحتلال غير المباشر لتقويض الدولة بهم عند الحاجة).

وأما **الليبرالية الاقتصادية**: فهي اقتصاد السوق الحر الذي يمنع الدولة من التدخل لضبط حركة الاقتصاد، ولا بد لهذا الاقتصاد أن يدور في عجلة الاقتصاد الربوي العالمي، وتحت وصاية المؤسسات المالية الدولية، وخصخصة موارد الدولة لصالح الشركات

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "الديمقراطية والهوية".

الكبرى الخاصة، مما يضع اقتصاد الدولة ومواردها وثرواتها في يد الشركات العابرة للقارات.

وأما **الليبرالية الاجتماعية**: فهي عولمة الثقافة الغربية، وهضم جميع الأديان والأفكار والثقافات وصهرها في بوتقة الحضارة الغربية، حتى تسود وحدها العالم دون أن يقف أمامها أي حضارة منافسة أو أفكار مناقضة.(1)

هذه الليبرالية: تعني ببساطة (حرية المحتل) في نشر ثقافته وفكره وهيمنة اقتصاده على العالم أجمع، ومن جانب آخر تعني (خضوع) الضعفاء لإرادة المحتل باسم "الديمقراطية" والقيم الإنسانية العالمية، وحقوق الإنسان.. حيث يحتكر الغرب تعريف الإنسان، ويحتكر ما هو الإنسان الذي يستحق هذه الحقوق، وهو الذي يحدد ماهية هذه الحقوق، وهو الذي يحدد ما هي القيم الديمقراطية.

وأما **اللاأخلاقية "البراجماتية" السياسية**: التي تجعل من المصلحة الذاتية (المنفعة) هي معيار للحق والباطل والخير والشر، فهي الحكم الفعلي للسياسة الديمقراطية، بعيداً عن شعاراتها البارقة! فهذه البراجماتية توظف كل شيء - حتى الدين - من أجل تحقيق مصالحها، فهي مستعدة لأن تكون أطول لِحية وحافظة للدين طالما في ذلك مصلحتها، ومستعدة في نفس اللحظة أن تكون أشد الناس كفراً وإلحاداً طالما في ذلك منفعة ما!

(1) استقرار الحضارة الغربية الآن، وانبهار العالم الضعيف بها يرجع إلى أمرين.. **الأول**: تحقيق الرفاهية من خلال الثورة التقنية والصناعية، ونهب وسرقة ثروات الشعوب الضعيفة، وجعلها في حالة من الضعف الدائم، والتبعية المستمرة. **والثاني**: العولمة الثقافية وإذابة جميع الأفكار في "الفكر الغربي" باعتباره المرجعية الحضارية الوحيدة التي يجب على الجميع الإيمان بها، واتباعها. ومن ثم فلا وجود في الغرب - حتى الآن - دعوات لثورات إصلاحية، ولا لثورات أيديولوجية تشغله بنفسه؛ فهو مستقر نسبياً.. ومستقر بفضل ضعف العالم الإسلامي عن منافسته. ولكن استقرار الغرب لن يدوم - فيما أرى - فإذا اهتزت معادلة الرفاهية - لأي سبب - وحصل انقلاب ذاتي على مفاهيم فكرية وصعود أيديولوجيات قومية مثلاً أو تنازع قوى عالمية أو ترهل بنيوي اجتماعي أو أزمات اقتصادية حادة، قد تجعل الغرب يعود ليطحن في نفسه من جديد، كما حصل في السابق.

وبعد هذه الليبرالية.. تأتي الديمقراطية كنظم سياسي قابل للتداول السلمي للسلطة. وما يهم الغرب فيما يصدره لنا من ديمقراطية ليس هو نظامها السياسي المحض، وإنما هي ثوابتها وقيمها، والغرب لا يعنيه نظامنا السياسي أكان ديمقراطياً أم لا، بل بالعكس.. هو يريد لنا أفشل النظم السياسية؛ ليحافظ على مصالحه، ويسهل عليه تجنيد العملاء والفاسدين من بني جلدتنا؛ ولذلك نجده داعماً للأنظمة الديكتاتورية، وهو الراعي الرسمي للانقلابات العسكرية في العالم كله سواء العالم الإسلامي أو غيره. فهو يختار "الديمقراطية" التي ترعى مصالحه ـ السياسية والاقتصادية والثقافية ـ وتحافظ على نفوذه، وتضمن هيمنته، وتُنفذ كلمته وأجندته.

إنَّ شغل الغرب الشاغل هو ثوابت الديمقراطية من الليبرالية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهو يدعم أي نظام ديكتاتوري أو استبدادي أو أي انقلاب عسكري يؤيد هذه الثوابت، فمثلاً: لو أن النظام السياسي الديمقراطي أخذ برأي الأغلبية في ثوابت الديمقراطية؛ كأن تؤيد الأغلبية ـ مثلاً ـ نظاماً اقتصادياً غير ربوي، أو يضبط حركة السوق بما يخدم مصالح الوطن، أو يعتز بهويته الدينية والثقافية.. ويتحرر من الهيمنة والتبعية، فليذهب رأي هذه الأغلبية إلى الجحيم، لأن في ذلك اعتداء على "أصول الديمقراطية" أو كما قالوا: "لا ديمقراطية لأعداء الديمقراطية" أي لا حرية اختيار أو لا وجود لنظام سياسي لا يقوم بمبادئ وثوابت الديمقراطية.

ومثال آخر: هل يمكن في النظام الديمقراطي التصويت على رفض العلمانية مثلاً؟ كلا.. فالعلمانية هي الأم الشرعية للديمقراطية، ومجرد التصويت هو انقلاب على النظام الديمقراطي كله، ولذلك قالوا: "الديمقراطية ليست مجرد أصوات في صندوق"!

وعلى صعيد التحكم في الدولة، وضبط ديكتاتورية الأقليات، أو إصدار تشريعات تقلص من سيطرة اليد الغربية على مقاليد الدول الضعيفة، فهذا أيضاً إجراء ضد الديمقراطية..

لأن للديمقراطية المصدرة لنا ـ أو المرضي عنها لنا ـ لها وجه احتلالي حربي، يتخذ من بنية النظام الديمقراطي بعض الآليات لتقويض استقلالية الدولة وقرارها السياسي.

فشرعية الديمقراطية: ليست في اختيار الأغلبية، وإنما في الحفاظ على ثوابت الديمقراطية.

والنظام الديمقراطي الغربي ذاته يحمل عوامل تناقض فكره وتقوض بنيانه، منها سيطرة المال على مسار العملية الديمقراطية(1)، وسيطرة المال على وسائل الإعلام وتشكيل الوعي والرأي العام، ويصبح وسيلة ناعمة في السيطرة على الشعوب، بخلاف الأنظمة الديكتاتورية التي تستخدم الوسائل العنيفة، لكن في النهاية النتيجة واحدة: السيطرة على الجماهير، وهندسة وتشكيل وعيهم، وإخضاعهم للسيطرة والانقياد للنخب المالية والعسكرية والسياسية، وجعلهم مجرد عمال لهم.

"لقد هربت أوربا من الله ـ في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف! ـ وثارت على الله ـ سبحانه ـ في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة! ثم ظن الناس هناك أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم ـ ومصالحهم كذلك ـ في ظل الأنظمة الفردية (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية، والأوضاع النيابية البرلمانية، والحريات الصحفية، والضمانات القضائية والتشريعية، وحكم الأغلبية المنتخبة.. إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة.. ثم ماذا كانت العاقبة؟ كانت العاقبة هي طغيان "الرأسمالية " ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات وكل

(1) بلغت تكلفة الانتخابات الرئاسية الأمريكية في 2024 حوالي 15.9 مليار دولار. وتبرع أحد أثرياء أمريكا لمرشح رئاسي بمبلغ 259 مليون دولار لحملته الانتخابية. ولا يوجد رجل أعمال يدفع دولاراً واحداً إلا وهو مطمئن أنه سيرده أضعافاً مضاعفة، فانظر مدى تأثير المال في هذه الانتخابات، وتشكيل وعي الجماهير. راجع ـ مثلاً ـ كتاب: "أفضل ديمقراطية يستطيع المال شرائها" لـ غريغ بالاست.

تلك التشكيلات، إلى مجرد لافتات، أو إلى مجرد خيالات! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال، فتملك معه الأغلبية البرلمانية! والدساتير الوضعية! والحريات الصحفية! وسائر الضمانات التي ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم، في معزل عن الله سبحانه!!!

ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها "رأس المال" و"الطبقة! " إلى الأنظمة الجماعية! فماذا فعلوا؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة "الرأسماليين" الدينونة لطبقة "الصعاليك"! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين!

وفي كل حالة وفي كل وضع وفي كل نظام دان البشر فيه للبشر، دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة. دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حالة!

إنه لا بد من عبودية! فإن لا تكن لله وحده، تكن لغير الله.. والعبودية لله وحده تطلق الناس أحراراً كراماً شرفاء أعلياء.. والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم.. ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية!"[1]

ولا عجب في الأنظمة الديمقراطية إن فشلت الوسائل الناعمة في السيطرة، اللجوء إلى استخدام الوسائل العنيفة، مثل: الاعتقالات، والفصل التعسفي، والتعذيب، وفض المظاهرات بالقوة المفرطة.. ويتفاجأ الناس بخديعة شعارات "حرية التعبير، وحقوق الإنسان... إلخ" مثلما حصل في أمريكا مع تظاهرات الطلاب المؤيدة لوقف العدوان الأخير على قطاع غزة.

ومن ثم.. فعندما يريد الغرب نشر الديمقراطية، فهو يعني تحقيق أهداف ومصالح نظام الاحتلال الأمريكي والغربي عالمياً.. فعندما تقول أمريكا ـ على سبيل المثال ـ إنها تريد

(1) [في ظلال القرآن، سورة يونس، ص 1754، دار الشروق]

نشر الديمقراطية في بلد ما، أو إنها تدافع عن الديمقراطية في بلد ما، فهذا يعني: التدخل الاستخباراتي والاقتصادي والسياسي لتوجيه البلد كلها لخدمة الأهداف والمصالح الأمريكية، ومنع أي نهضة اقتصادية، أو استقلالية سياسية لهذا البلد، وتوجيه ثروات البلاد نحو العولمة الاقتصادية تحت السيطرة الأمريكية، فنشر الديمقراطية يعني: عولمة اقتصاد البلد، وبيع أصول الدولة ومقدراتها؛ فتصبح الدولة كلها حكومة وشعباً أسيراً لحفنة قليلة من المرابين!

والبديل ليس هو القهر والاستبداد والفساد، وتحويل الفساد العالمي إلى فساد محلي، وتحويل الاحتلال الخارجي إلى قمع داخلي.. بل هو في التحرر من الهيمنة والتبعية الخارجية، والتحرر من الفساد والتخلف والقمع الداخلي.

***

أما الشورى:

وهي إحدى مكونات النظام السياسي الإسلامي، وإنْ حصل اعتداء عليها منذ معركة صفين[1] حتى سقوط الدولة العثمانية، وتم تشويه صورتها بأقوال بعض فقهاء الملك العضوض، وتنظيرهم الضعيف عنها، فإنها تظل أحد أعمدة الفقه السياسي الإسلامي الراشد، وهي بحاجة إلى تنظير ودعوة وتطبيق.. ولها المستقبل إن شاء الله.

(1) يقول العلاّمة الجويني (المتوفى: 478 هـ) رحمه الله: «ولم يتفرغ أمير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ من مصادمة البغاة، ومكاوحة [مقاتلة] الطغاة، إلى تجهيز الغزاة، وجرت هناة على أثر هناة، ثم صار بعد مقتله رسم الخلافة مرفوضاً، وانقلب الأمر ملكا عضوضاً، وتغير الحكم والزمان» [«غياث الأمم في التياث الظلم، لأبي المعالي الجويني» (ص254)]

والشورى: هي عدم الافتئات[1] على كل صاحب حق في الأمة، أياً كان طبيعة ونوع هذا الحق، وأياً كان منزلة وحالة صاحب الحق. فكما لا يُفتئت على أهل التخصص والعلم وذوي الأحلام، فلا يُفتئت على عموم الناس من أصحاب الحقوق وحقهم في المشاركة فيما يخص مقدراتهم وحياتهم ومصالحهم وفي كل شأن عام.

فلا يُوصف الناس بـ "العامة" تنقصاً لهم ولحقوقهم، أو لوصفهم بأوصاف الجهالة والغوغائية والقطيع ونحو ذلك، فحتى مع افتراض وجود ذلك في بعض الناس، فهذا لا يلغي حقهم فيما يخص مقدرات حياتهم وثروات بلادهم، ومن جانب آخر فإن الهدف الإسلامي الرشيد هو: رفع الجهالة، وتوفير الكرامة، وصيانة الحرية، وتعليم الجهال، والرفق بالضعفاء، وإرخاء روح الأخوة، وصناعة القادة، والترابط كالجسد الواحد، والبنيان المرصوص.

ورجال الشورى: أولئك الذين برزوا بحسن بلائهم في الإسلام، وفي الدفاع عن أمته، فصاروا بذلك "الجهاد والتدافع مع الباطل وحزبه" أهلاً للحل والعقد، وأصبح نصرتهم للإسلام والمسلمين هي مؤهلهم لأن يتقلدوا أمر المسلمين ويُرشحوا للمسلمين الأفضل منهم ليختاروه عن رضى ومشورة، ليس عن مكافأة لهم على حسن بلائهم، فالمنصب - في الإسلام - إنما هو نصب وبلاء ومشقة، وإنما لما أثبتوه من جدارة وعلم وعمل وخبرة وإخلاص وتجرد لله ورسوله، فصار لهم من الفضل والمكانة والسمع والطاعة بين الناس.

وأنواع الشورى: هناك شورى تمثيلية (أي تمثيل جموع الناس فيما يخص الشأن العام، ومصالحهم ومعاشهم) وهناك شورى متخصصة (أي خاصة فقط بأهل الاختصاص)

(1) الافتئات: يعني الاستبداد بالرأي، والانفراد به.. وإمضاؤه دون مشورة، ودون مراعاة لرأي وحقوق الآخرين، فيهضم حقوق الناس في الرأي والمشورة، وما يترتب عليه من ضياع مصالح ومنافع - أو جلب الضرر - لهم.

وهناك شورى فقهية تشريعية (خاصة بأهل الفقه والعلم) وهناك شورى الحكم (أي التي تختار الحاكم... إلخ)، وجميعها منضبطة بالإطار العام لمبادئ الإسلام.

***

ويوضح **د. لؤي صافي** مسألة تمثيل مكونات الأمة، فيقول: "وعضوية مجلس الشورى لا يمكن أن تحدد بشروط نظرية محضة، مثل العدالة والعلم والحكمة، كما ظن كثير من فقهاء الساسة الأولون، بل من خلال فقه العلاقة بين القوى السياسة للأمة، التي تشكل القاعدة التي تنبثق منها سلطة أعضاء الشورى، والمجلس الشوري الذي ينوب عن الأمة في اتخاذ القرار السياسي... وانتماء الأفراد إلى الجهاز الشوري للأمة يتوقف على موقع الأفراد المحققين لشروط الشورى بالنسبة للجماعات السكانية والقوى السياسية التي يشكل مجموعها كيان الأمة، ومقدار الدعم والتأييد الشعبي الذي يتمتع به هؤلاء. فالنظر إلى العضوية في المؤسسات السياسية الهامة، كالجهاز الشوري والجهاز التنفيذي، من زاوية الشروط النظرية البحتة، أو من منطق تقديم ولاية الأفضل على ولاية المفضول ناشئ عن إغفال حقيقة هامة، هي أن قدرة المشارك في هذه المؤسسات على تحويل القرار إلى فعل يتوقف على القوى السياسية والدعم الشعبي الذي يمتلكه، وبالتالي على ثقة الشرائح والفئات السكانية التي يمثلها، والتزامها بدعم مواقفه وتأييدها. فالحل والعقد في حقيقة الأمر ليس لمن يملك الرأي وحسب، بل لمن يملك أيضاً القدرة على تحقيق الرأي، وتحويل القرار إلى فعل ناجز. فامتلاك الرأي والمعرفة يُؤهل الفرد ليكون مستشاراً يطلب رأيه اعتباراً لمرجعيته المعرفية، لا ليكون "شورياً" يحتاج لرأيه اعتباراً لمرجعيته السياسية..

ويمكننا أن نخلص إلى تحديد وظيفة الشورى وفق الأساس التالية:

أولاً: إن الشورى حق أصيل للأمة، مستمد من نصوص الوحي، ومنبثق من مهمة الأمة ومسؤوليتها في تحقيق مقاصد الخطاب الشرعي والقيام بأعباء الشهود على البشرية.

ثانياً: يمكن للأمة تفويض مهمة اتخاذ القرارات العامة إلى مجلس أو مجالس شورى تنوب عنها. وتحتفظ الأمة بحق اختيار أعضاء مجالس الشورى، واستبدالهم، أو إعادة تأكيد الثقة فيهم في فترات دورية.

ثالثاً: يتم تحديد أعضاء مجالس الشورى بحيث تعكس مختلف قطاعات الأمة، ويحقق استقرار الدولة، ويتيح المجال لقيام مناخ سياسي مناسب لتعاون فئات الأمة المختلفة.

رابعاً: يمتلك مجلس الشورى الحق في تقرير كافة القضايا المتعلقة بمصلحة الأمة وغاياتها، وتأسيس الهيئات والمؤسسات الضرورية لتنفيذ القرارات المتخذة. ويحقق للمؤسسات المتشكلة التصرف ضمن المهمة المحددة لها في قرار التأسيس. وبالتالي فإن كافة المؤسسات التنفيذية للدولة منبثقة عن مجلس الشورى.

وبالتالي فإن سلطة المجلس لا تقتصر على اختيار الرئيس، بل تشمل أيضاً تطوير السياسة العامة للدولة، واتخاذ القرارات المناسبة في القضايا المستجدة. كما تتعلق مهمة المجلس في مراقبة عمل الهيئات والمؤسسات التنفيذية، لضمان قيامها بمهامها وفق الصورة المحددة لها في القانون. واتخاذ الإجراءات اللازمة لكشف وتصحيح التجاوزات. فمهمة القيادات الشورية الممثلة لإرادة الأمة، والنائبة عنها في اتخاذ القرار السياسي، لا تقتصر على وظيفة اختيار الإمام، ثم التراجع للانكباب على اهتماماتها الخاصة، بل تمتد لتشمل متابعة كافة المتغيرات السياسية داخل الدولة وخارجها، واتخاذ مواقف مناسبة تجاهها، ومشاركة القيادة التنفيذية مسؤولية النجاح أو الإخفاق في القيام بواجباتها ومسؤولياتها...

لقد حرص العلماء الأوائل على اشتراط العلم والعدالة والرأي في نواب الأمة، أو أهل الحل والعقد، الموكولين باتخاذ القرارات الهامة، وهي شروط هامة، دون شك، لا بد من توفرها في القيادة الشورية للأمة، لكنها ليست الشروط الوحيدة. إذ يجب توفر شرط هام آخر، وبالتحديد تطابق المقاصد والمصالح والظروف العامة للنائب الشوري والجماعة

السكانية أو العقدية التي يمثلها. فتطابق المقاصد يعني أن النواب يجب أن يعكسوا مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية ضمن المجتمع الإسلامي، بينما يتطلب تطابق المصالح أن يتم تمثيل مختلف المناطق والقطاعات السكانية ضمن مجلس الشورى. ذلك أن كثيراً من القرارات السياسية المتخذة لا تنبني كلياً على معايير الخطأ والصواب، بل تعود إلى الترجيح بين الخيار الأفضل والخيار المفضول انطلاقاً من اعتبارات المصلحة العامة، وبالتالي فإن تمثيل النواب لجماعاتهم يتطلب اقتراب هؤلاء النواب من قواعدهم الشورية، ومعرفة مشاكلهم الحياتية وأهدافهم وطموحاتهم، كما يتطلب الدخول معهم في حوار لمعرفة آرائهم والتوصل إلى إجماع على الخيارات المطلوبة.

إن تحقيق ترابط في الهموم والآراء هو شرط أساسي لقيام تمثيل حقيقي للأمة في مجالسها الشورية، وذلك للأسباب التالية: (1) إن انفكاك القيادة الشورية عن قواعدها يعني انفكاكها عن الأمة وهمومها وتطلعاتها؛ (2) إن ابتعاد القيادة الشورية عن القاعدة يعني ابتعاد الفرد المسلم عن القرار السياسي، مما يؤدي إلى انعدام الشعور بالمسؤولية، وبالتالي عدم المساهمة العملية في إنجاح القرار؛ (3) ابتعاد الفرد عن القيادة يؤدي إلى غياب الرقابة الشعبية عن ممارسات القيادة، ويحرم الأمة من آليات التصحيح.

ومن هنا تظهر أهمية تقسيم عملية الشورى ضمن مستويات متعددة بحيث يعكس التمثيل الشوري والقرار السياسي الناجم عن الممارسة الشورية، في كل مستوياتها، ومقاصد ومصالح المجموعات السكانية التي يشملها القرار. فيتم اتخاذ القرارات التي تتعلق بالمشاكل المحلية ضمن مجلس الشورى المحلي، والقرارات المتعلقة بالمشاكل الإقليمية في مجالس خاصة بالأقاليم، بينما يقتصر اهتمام مجلس الأمة بالمشاكل والهموم المتعلقة بالأمة عامة"[1]

(1) [كتاب: العقيدة والسياسة، ص 207، د. لؤي صافي]، وانظر - على سبيل المثال - كتاب: "الانتخابات وأحكامها"، د. فهد العجلان.

ويوضح **الشيخ عبد المجيد الشاذلي** (رحمه الله) مفهوم أهل الحل والعقد، فيقول: "السلطة الرقابية "أهل الحل والعقد"، وتُشكل من خلال انتخابات أخرى مستقلة، سواء سُميت مجلس شعب أو مجلساً نيابياً أو مجلساً رقابياً.

شروط نوابه ثلاثة: (التمثيل لمن ينوب عنهم. الكفاءة. العدالة).

ووظائف المجلس الرقابي:

- الشورى الملزمة للإمام أو الرئيس.

- الحسبة على الإمام أو الرئيس، ومنها الرقابة المالية ومراقبة سياساته.

- الترشيح والعزل بالنسبة للإمام، فلهم حق عزله عند انحرافه واستحقاقه للعزل بالشروط الشرعية، ولهم حق ترشح الأشخاص المؤهلين لمنصب الإمامة لتُطرح أسماؤهم على الأمة لتختار من يحكمها.

والأمة تشارك الحكومة في الحكم من خلال الشورى الملزمة والحسبة والمشاركة في السياسات بالموافقة أو الرفض والتعديل.

والعمل الرئيس للسلطة التنفيذية والرقابية هو رعاية المصالح في إطار الشريعة، وسياسة أمور الأمة، وليس لهم دور في العمل التشريعي؛ منعاً لتسييس الدين، أو خضوعه للأهواء والرغبات الشخصية.

والسلطة التشريعية في الوضع الإسلامي تمثل في مجلس أهل النظر الشرعي والاجتهاد، وهو عبارة عن: (علماء مجتهدون للنظر الشرعي، وعلماء قانون "للصياغة القانونية"، وعلماء وخبراء وأمناء من الأمة لهم قبول وثقة وتفوق علمي)"[1]

(1) [كتاب: "العقائد والمقاصد"، ص 117، الشيخ عبد المجيد الشاذلي. وللمزيد انظر له، كتاب: "الحكومة الإسلامية.. رؤية تطبيقية معاصرة"]

ويقول د. **محمد ضياء الدين الريس** (رحمه الله) في الفرق بين الشورى والديمقراطية: "وإن كان يراد بالديمقراطية ما صار يقرن بها عادة، من وجود مبادئ سياسية أو اجتماعية معينة: مثل مبادئ المساواة أمام القانون، وحرية الفكر والعقيدة، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وما إلى ذلك، أو كفالة حقوق معينة كحق الحياة والحرية والعمل، وما أشبه ـ فلا شك أيضاً في أن كل تلك المبادئ متحققة، وهذه الحقوق مكفولة في الإسلام... والواقع أن الشريعة الإسلامية إنما ترمي إلى أن تحقق العدالة المطلقة في أكمل صورها، وأن توفر للإنسان أسمى وأكرم حياة يمكن أن تتوفر تليق بإنسانيته.

أما إن كان المراد من الديمقراطية ما تعورف على أن نظامها يستتبعه، وهو تحقيق مبدأ الفصل بين السلطات. فهذا أيضاً ظاهر في النظام الإسلامي. فالسلطة التشريعية هنا ـ وهي أهم السلطات في أي نظام ديمقراطي ـ مودعة في الأمة كوحدة، ومنفصلة عن سلطة الإمام أو رئيس الدولة. فالتشريع يصدر عن الكتاب والسنة، أو إجماع الأمة، أو الاجتهاد. وهو بهذا مستقل عن الإمام بل هو فوقه، والإمام ملزم ومقيد به؛ وما الإمامة في الحقيقة إلا رئاسة السلطة التنفيذية. والقضاء مستقل أيضاً، لأنه لا يحكم وفقاً لرأي الحاكم أو الرئيس وإنما يحكم وفقاً لأحكام الشريعة، أي أمر الله، ولا يمكن أن يحكم ـ إن أريد له أن يبقى قضاء إسلامياً ـ إلا هكذا...

وأما أهم الفوارق إذن بين الديمقراطية والإسلام هي الأمور الثلاثة التالية:

الأمر الأول: أن المراد بكلمة "شعب" أو "أمة" في الديمقراطية الحديثة كما هي معروفة في عالم الغرب، أنه شعب محصور في حدود جغرافية، يعيش في إقليم واحد، تجمع بين أفراده روابط من الدم والجنس واللغة والعادات المشتركة: أي أن الديمقراطية مقترنة ـ لا محالة ـ بفكرة "القومية" أو العنصرية، وتسايرها نزعة التعصب أو العصبية. ولا كذلك الإسلام.

فالأمة عنده أصلاً ليست هي التي تربط بينها وحدة المكان، أو الدم، أو اللغة. فهذه روابط صناعية أو عارضة أو ثانوية؛ ولكن الرابطة - أصلاً - هي الوحدة في العقيدة: أي في الفكر والوجدان. كل من اعتنق فكرة الإسلام - من أي جنس أو لون أو وطن - فهو عضو في دولة الإسلام.

فنظرة الإسلام نظرة إنسانية، وأفقه عالمي. وإن كان هذا لا يمنع - بل إن ذلك قد يكون ضرورياً تحقيقاً للصالح العام، ويكون إذن واجباً شرعياً - أن يوجد داخل تلك الدائرة العامة دوائر خاصة: إقليمية أو قومية، من أجل التنظيم، أو تحقيق أغراض وطنية أو محلية، لا تتعارض مع الأغراض العامة. وإذا وجدت الروابط الأخرى: وهي وحدة الوطن والأصل واللغة وغيرها، إلى جانب الرابطة الأساسية وهي وحدة العقيدة، كان هذا أقوى تأكيداً لوجود الأمة وظهور الدولة.

ودليل ما تقدم - أي عمومية الرسالة - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28] وكذلك: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

الأمر الثاني: أن أهداف الديمقراطية الحديثة - أو أي ديمقراطية كانت في الأزمة القديمة - هي أغراض دنيوية أو مادية. فهي ترمي إلى تحقيق سعادة أمة أو شعب بعينه، من حيث تحقيق مطالبه في هذه الحياة الدنيا: ترمي إلى إنماء الثروة، أو رفع الأجور مثلاً، أو كسب حربي. ولكن أغراض النظام الإسلامي أو الديمقراطية الإسلامية - إن صح التعبير[1] - بينما تشتمل هذه الأغراض في الدنيا وتعطيها ما يجب لها من أهمية، مع

(1) وهذه الفوارق التي ذكرها تُفرغ ثوابت الديمقراطية العلمانية من محتواها، وتجعلها شيئاً آخر، والصواب أن لا نقول "الديمقراطية الإسلامية"، وإنما "الشورى" فحسب؛ فهي كلمة تحمل دلالاتها ومضمونها اللغوي والشرعي والتعبدي، وتعبر عن الهوية الإسلامية وثوابتها.

إبعاد فكرة التحيز القومي ـ تجمع إلى جانبها أغراضاً روحية، بل إن الأغراض الروحية هي الأولى وهي الأساس، وهي الأسمى. قال ابن خلدون في تعريف الإمامة: "إنها لتحقيق مصالح الناس الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة".

فدولة الإسلام يجب أن تنظر في أعمالها إلى الآخرة على أنها الغاية وتقوم بكل أعمال الخير التي أمر بها الدين، والتي تؤدي إلى رضوان الله، وتحقق المطالب الروحية للإنسان؛ كما أنها تجعل الدين أو القانون الأخلاقي المقياس التي تقيس به أعمالها، وكل تصرفاتها.

الأمر الثالث: أن سلطة الأمة في الديمقراطية الغربية مطلقة. فالأمة ـ حقاً وعلى الإطلاق ـ هي صاحبة السيادة، هي ـ أو المجلس الذي تنتخبه ـ التي تضع القانون أو تلغيه. والقرارات التي يصدرها هذا المجلس تصبح قانوناً واجب النفاذ، وتجب له الطاعة، حتى وإن جاءت مخالفة للقانون الأخلاقي، أو متعارضة مع المصالح الإنسانية العامة. فالديمقراطية الحديثة ـ مثلاً ـ تعلن الحرب من أجل سيادة شعب على غيره أو الاستيلاء على سوق، أو استعمار مكان، أو احتكار منابع النفط. وفي سبيل ذلك تسفك دماء لا تنتهي، وتزهق أروح بشرية لا تعد. وتشقى الإنسانية كلها من أجل هذا!

ولكن في الإسلام ليست سلطة الأمة مطلقة هكذا. وإنما هي مقيدة بالشريعة: بدين الله، الدين الذي اعتنقه والتزم به كل فرد منها. فهي لا تستطيع أن تتصرف إلا في حدود هذا القانون. وهذا القانون هو الذي يحتويه الكتاب والسنة. وإذا كان قد اعترف بأن إرادة الأمة الكلية أحد مصادر القانون، فالمفهوم أن هذه الإرادة تعتمد على ما جاء في الكتاب والسنة أيضاً في صورة ما، وقد خولت هذا الحق نفسه بمقتضى أمر منهما، وإن كان فرض أن من خصائص إرادة هذه الأمة أنها لن تحيد عن الحق، أي لن تنحرف عن المنهج الذي رسمه هذان المصدران. فالأمة في الإسلام ـ أو إذا شئت في الديمقراطية

الإسلامية ـ ملتزمة بالقانون الأخلاقي. ومقيدة بمبادئه. وقد فرض الدين عليها واجبات وكلفها مسؤوليات.“[1]

***

كما ذكر **د. عبد القادر عودة** في موضوع الشورى مسألة لطيفة جديرة بالانتباه، يقول رحمه الله: ”«من المُسَلّم به أن البلاد الديموقراطية فشلت فشلاً ذريعاً في تطبيق مبدأ الشورى، والسبب الأساسي في هذا الفشل أنهم يسمحون للأقلية أن تناقش الرأي الذي أقرته الأغلبية بعد انتهاء دور المناقشة، وأن تشكك في قيمته وصلاحيته أثناء تنفيذه، بل أنه يظل موضع الانتقاد والسخرية حتى بعد تمام تنفيذه.

ولما كانت القاعدة أن فريق الأغلبية هو الذي يتولى الحكم فإن آراء هذا الفريق وأعماله لا تقابل بما يجب لها من الاحترام، بل تكون دائماً محل تشكيك وسخرية ويطعن عليها بتفاهتها وعدم صلاحيتها، بل قد يحدث أن تمتنع الأقلية من تنفيذ القوانين التي تسنها الغالبية، وتظل الحال هكذا حتى يصبح الفريق الحاكم أقلية، فيترك الحكم ليتولاه فريق الأكثرية الذي تقابل آراؤه وأعماله بمثل ما قوبل به فريق الأكثرية السابق، وهكذا لا يتولى الحكم فريق إلا كانت آراؤه وأعماله محل النقد والتشكيك والسخرية. وقد يكون النقد سبيلاً من سبل الإصلاح إذا أبدى الناقد رأيه وقت المناقشة أو نقد آراء لم تناقش من قبل، أما نقد الآراء التي سبقت مناقشتها والتشكيك فيها بعد أن وضعت موضع التنفيذ فذلك هو الفساد بعينه، بل إنه ليتناقض مع الأساس الذي تقوم عليه الشورى؛ فأساس الشورى هو أن يحكم الشعب طبقاً لرأي الأغلبية، ومعنى ذلك أن أغلبية الشعب إذا أجمعت على رأي كان رأيها قانوناً أو حكماً تجب له الطاعة والاحترام... ونستطيع الآن أن نقول بحق: إن النظام الإسلامي لا يعتبر فقط علاجاً ناجعاً لفشل الديموقراطية،

(1) [كتاب: النظريات السياسية الإسلامية، د. محمد ضياء الدين الريس، ص 382]

ولكنه أيضاً صمام الأمن الذي يحمي الأمم من الديكتاتورية، لأن هذا النظام يحفظ لمبدأ الشورى قيمته النظرية، ويحقق صلاحيته العملية، ويجيش كل القوى لخدمة الجماعة، ويدعو إلى الثقة بالشورى والقائمين بأمرها، ويسد الطريق على المبادئ الهدامة والديكتاتورية...

فالنظام الإسلامي يقوم على الشورى والتعاون في مرحلة الاستشارة، وعلى السمع والطاعة والثقة في مرحلة التنفيذ، ولا تسمح قواعده بتسليط فريق على فريق، وبهذا جمع النظام الإسلامي بين ما ينسب إلى الديموقراطية من فضائل، وما ينسب إلى الديكتاتورية من مزايا ومحاسن، ثم هو في الوقت نفسه برئ من العيوب التي تنسب للديموقراطية والديكتاتورية معاً»[1]

***

هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فالشعوب الحرة لم تنالَ أياً من حقوقها عبر صناديق الانتخاب فحسب، بل نالت بعضاً من حقوقها عن طريق النضال والثورات والكفاح بكل صوره وأشكاله، ثم لم يكن لها شريعة ولا منهج إلهي، فراحت تبحث عند الفلاسفة عن نظام تداول سلمي للسلطة.. فوجدوا الديمقراطية أفضل من الاستبداد.

كما أن الديمقراطية أصبحت وهماً بمرور الوقت، وأصبحت من أشد أنواع الاستبداد العالمي الناعم.. وإن "رأس المال" هو الذي يحكم، وما الأحزاب إلا شركة يرأسها رجال أعمال يعمل فيها مجموعة من المنتفعين أو المخدوعين. فالمال والثروة سلطة لا محدودة ودائمة، ما لم يتم احتواء تدخلها في العمل السياسي.

---

(1) [«التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي»، د. عبد القادر عودة» (1/ 39)]

وحتى الفكر الذي يصنع عقول السياسيين.. فالجامعات ومراكز الأبحاث تتلقى الدعم والتمويل والبرامج أيضاً من رجال الأعمال وأصحاب المال والنفوذ الذين يحددون الفلسفة السياسية المناسبة لهم!

كما أصبحت الديمقراطية تطبيقاتها مادية دموية وحشية تقتل الشعوب الضعيفة، وتقف عند حدود الأرض والجنس واللون واللغة.. فكرة شديدة العنصرية، ولقد رأينا "ديمقراطية الفسفور المشع" الذي يُذيب الأجساد في العراق وفلسطين وأفغانستان وفي كل مكان تصل إليه أيديهم المجرمة الآثمة، ووجدنا المحافل الدولية "الديمقراطية" وهي ترعى سرقة دماء وثروات الشعوب الضعيفة باسم الديمقراطية، وتؤيد وتبارك وتوافق.

ومن ثم يستحيل استحالة تامة أن تنال الشعوب العربية الإسلامية حقوقها من الحرية والكرامة والعزة والسيادة والإنسانية وقبل كل ذلك أن تمكن لدين الله في الأرض عن طريق الديمقراطية، إنما عن طريق الكفاح والنضال الطويل وتفكيك منظومة النفاق والفساد والخيانة، ثم الخروج من هيمنة النظام الدولي الذي يجعل من دولنا وشعوبنا مجرد "ذيل وعهدة" لا تخرج عن فلك المركز قيد أنملة.. حتى الدين والثقافة لا يخرج عما يريده المركز.

ثم وبعد أن تنتصر الشعوب الإسلامية في معركة الدين والحرية والكرامة، لن تحتاج إلى الديمقراطية لأن عندها كتاب ربها وشريعة إلهية وحضارة ملئت الدنيا كلها، وفاض نورها على كل الإنسانية.. لن تحتاج إلى التقليد الأعمى، فعندها نظام سياسي واقتصادي إسلامي يضمن كل الحقوق والعدالة لكل إنسان نابع من هويتها، ولا يقف عند حدود الأرض، أو الجنس، أو اللغة، أو اللون.. عندها الشورى، ومشاركة الأمة مشاركة حقيقية نافذة، وفوق أنه نظام مثالي نابع من الهوية والإسلام، فهو ببساطة يعني تحقيق إسلامها في واقع الحياة بتطبيق شرع ربها.

وإن كانت الديمقراطية تعني سيادة الشعب على الشرع، وتسمح للشعب بتحليل ما حرّم الله أو تحريم ما حلل الله فهي - لا شك - كفر وردة عن الدين.

وإذا كانت الديمقراطية - في مفهوم البعض - تعني انتخاب ممثلي الشعب، والفصل بين السلطات، ومحاسبة الحكام، والشفافية والرقابة.. دون نبذ الشرع، فهذا مبدأ إسلامي أصيل يسمى "الشورى" ولولا دخول الأمة المبكر لـ "الملك العضوض" لكانت نظم الشورى أرقى نظم الحكم في العالم.

"وإن هذه (الملكية الوراثية) بدعة في الإسلام ابتدعها سيدنا معاوية[1]، غفرها الله له، نخالف بها عن طبيعة العرب التي طبعهم الله عليها، وشريعة الإسلام التي شرعها الله لهم، وأحالها كسروية قيصرية، وقد كانت بكرية عمرية، وجعلها ملكية بغي واستبداد، وقد كانت خلافة عدل ورشاد.

بدعة جرت ذيلها على تاريخنا، فمحت كثيراً من فضائله، وخلفت فيه رزايا وبلايا، صيرته مثل تواريخ الأمم، وقد كان تاريخنا ما ولدت أم التاريخ قبله، ولن تلد بعده تاريخاً يساويه أو يدانيه. كان تاريخ خير وبر وعدل وإحسان، تاريخ قوم هم لباب البشر، وهم خلاصة الناس، وهم هداة الدنيا، وهم ملائكة الأرض.

أفسدت تاريخنا على صلاح الزمان، وأضاعت دنيانا على قوة الدين، وأذكت في النفوس غرائز البغي، وطبائع الشر على قرب العهد بالإسلام، فكيف بنا اليوم والزمان فاسد، والدين ضعيف، والعهد بعيد، والقلوب قاسية، والمنكرات فاشية؟"[2]

(1) يقول العلاّمة التفتازانى في حديث "الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تصير ملكاً عضوضاً": "فمعاوية ومن بعده ملوك وأمراء، لا أئمة ولا خلفاء" [«شرح المقاصد، سعد الدين التفتازانى، المتوفى: 793 هـ» (ج5، ص 239)]

(2) [الحكم في الإسلام، الشيخ علي الطنطاوي، مجلة الرسالة، عدد 1025]

ومن يُبشر بالديمقراطية على أنها طريق الخلاص فإنه يخدع هذه الأمة، ويُسلّمها لأعدائها.. ذلك لأن لهذه الأمة، وهذا الدين هدف خاص في هذه الحياة، فهذا الدين بمبادئه وأصوله وقيمه يصطدم اصطداماً مباشراً بالحضارة المادية العلمانية الغربية، ولا بد من أن يكون لهذا الدين السيادة والكلمة العليا، ولهذه الأمة الخيرية في إيمانها بالله، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر..

ودين هذا أمره، وأمة هذه مكانتها.. لا يمكن أن تستمد ثوابتها وقيمها وموازينها وأفكارها وثقافتها ونظم حياتها من غير كتاب ربها.[1]

***

فالشورى: تعني السيادة والحاكمية للشرع، والسلطة للأمة.. وهي قد تلتقي مع الديمقراطية في مواطن، وتختلف في مواطن أخرى، لكن المنهج الإسلامي عموماً يمضي في طريقه متفرّداً سواء التقى أو اختلف مع غيره، وما يلتقي فيه مع غيره من النظم والمناهج فإنه يحققه "**باسم الله**" وحده لا شريك له، وما يختلف فيه مع غيره ويرفضه فإنه يرده "**باسم الله**" أيضاً.

وفي ظل العلمانية الراسخة، وجهل الناس بحقيقة التصور الإسلامي، والتاريخ الاستبدادي للملك العضوض.. قد يختلط عليها الأمر، فلا تدري ما هو موافق للشرع، وما هو ضده؛ فتنادي بالديمقراطية، وقد تنادي بها ولا تقصد مخالفة شرع الله أو معاكسة مراد الله.

ومن جانب آخر: فإن العدو التاريخي للمسلمين حريص على إفشال النظم الديمقراطية التي تحمل صبغة وطنية في بلادنا أيضاً؛ حتى لا تعطي مساحة لنمو الحركة الإسلامية،

(1) انظر كتاب: "الشورى وممارستها الإيمانية"، د. عدنان النحوي.

وتحرص على وجود أنظمة استبدادية ـ ملكية أو عسكرية ـ تدين بالولاء المطلق للعدو، وتحافظ على مصالحه.

وبالنسبة للمسلمين فالنظم الديمقراطية التي تسمح بهامش من الحرية والحركة أفضل لهم من النظم الاستبدادية الإرهابية المجرمة ـ وفي كلٍ شر ـ فالصحيح هو: "**نظام الشورى المنبثق روحاً وتصوراً ونية وقصداً من الإسلام**".

ومن جانب ثالث: فلا يصح سياسياً كشف عوار الديمقراطية وزيفها، دون بيان خطر الاستبداد الذي يأكل في الأمة من قرون، فالطغاة والطواغيت حريصون على دعوة "الديمقراطية كفر".. هكذا بإطلاق، دون تفصيل وبيان، وإذا كانت الديمقراطية كفراً فالاستبداد أكفر وأضل.

***

ومن ثوابت الشورى:

المرجعية الحاكمة: وهي كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ والصحيح الثابت سنداً ومتناً من السنة النبوية، ولا نُقدّم عليهما شيئاً، فهما المرجعية العليا، ولهما السيادة فوق الأمة كلها.

الهوية: هوية الشورى هي هوية إسلامية خالصة نابعة من كتاب الله ومنضبطة بإطاره العام.

السلطة للأمة: حيث لا يتسلط على الأمة أحد بالقوة والسيف، ليحكمها رغماً عنها، فلها الشرعية والسلطة، وحسن التمثيل الحق لمكوناتها بمجموعها، أمة مسلمة لله ـ جل جلاله ـ تقوم بالحق، وتشهد بالقسط، وتدفع بالأفضل ليتولى زمام المسؤولية والسلطة، مع الرقابة والمحاسبة والرضى.

مجال عملها: هو تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية العالمية، ومقاصد الشريعة العظيمة، وحمل رسالة الإسلام إلى العالمين، ورفعة الأمة.

ضوابط الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾ [الأحزاب: 36] فالشورى: تجعل السيادة لله ولشرعه، والسلطة والأمر للأمة.

والاعتداء على ثوابت الشورى، هو اعتداء على الإسلام ذاته، بمعنى أنه لو كان النظام السياسي يتم فيه الاختيار، والرقابة والمحاسبة، ولكنه اعتدى على ثوابت الشورى، تسقط شرعية النظام السياسي الإسلامية، ويتم إصلاحه بكل الوسائل الممكنة. وهذا هو الفرق بين شرعية الديمقراطية، وشرعية الشورى.

فمثلاً: لو رضي الناس بنسبة مائة بالمائة بالاقتصاد الربوي، أو بما حرّم الله، فليذهب رأيهم هذا إلى الجحيم؛ لأن للشورى ضوابط ومحددات من يتجاوزها ـ ولو كان الإنس والجن بعضهم لبعض ظهيراً ـ تسقط شرعيته وحكمه.

***

ومن الوسائل التي يتم بها تقويض الاعتداء على ثوابت الشورى:

إنكار المنكر: وهو مبدأ إسلامي أصيل عام، وكلمة الحق عند سلطان جائر من أعظم الجهاد، والمقتول في سبيلها من أعظم الشهداء عند الله. وإنكار المنكر في المجتمع الإسلامي يمثل حيوية وحياة وفاعلية هذا المجتمع، ويجب تطوير مؤسسات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يكافئ الظروف الحضارية التي تعيشها الأمة، وليست على الصورة المشوهة التي يمارسها أو يزعمها البعض.

اعتزال الحكام والعصيان المدني: كمثل قوله صلى الله عليه وسلم "**لَوْ أَنَّ النَّاسَ اعْتَزَلُوهُمْ**"[1] وهو تقويض سلمي لشرعية الحكام حال الاعتداء والظلم والبغي بدرجة ما، لم تصل بعد إلى حد سل السيوف.

عدم الرضى والمتابعة: وهي أيضاً إحدى صور الإنكار، والبراءة من هذه الأفعال المخالفة لثوابت الإسلام أو الشورى. كما في الحديث: "**إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**"[2]

إسقاط الشرعية بالكلية: في حالة الكفر البواح[3] ـ أي استعلان (أفعال الكفر) من النظام الحاكم أو مؤسسات الدولة بغض النظر عن الحكم على الأعيان سواء الحاكم أو مؤسسات الحكم ـ والثورة على هذا النظام والانقلاب عليه. كما في الحديث: "**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**"[4].

ففي حال فشل الحفاظ على ثوابت الشورى بالطرق السلمية، وبالقضاء الشرعي، وبأجهزة الرقابة والمحاسبة.. تسقط شرعية النظام السياسي، وتبدأ الأمة في مجموعها بالقيام بمهمتها في حفظ هذه الثوابت.

الجهاد: كما في الحديث: "**ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ** [وفي رواية أخرى: أمراء]، **يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ**"[5].

---

(1) [صحيح البخاري/ 3604]

(2) [صحيح مسلم/ 1855]

(3) انظر: درس "الكفر البواح"، ص 108 من هذا الكتاب.

(4) [صحيح البخاري/ 7056]

(5) [صحيح مسلم/50]

«قال إِمام الحرمين [الجويني]: **"وإذا جَار والي الوقت فظهر ظلمه وغشمه، ولم يرعو لزاجر عن سوء صنِيعه بالقول، فلأهل الحل والعقد التواطؤ على ردعه، ولو بِشَهْر السلاح، ونصب الحروب"**»[1]

***

وإنَّ **قرار الشورى** (الخطأ) أفضل من قرار الاستبداد (الصائب) بشكل عام، وذلك لأن الشورى:

- تمثل شرعية الأمة المسلمة.

- أنها - وبشكل عام - تُعبر عن صوابية القرارات والاجتماع.

- تمثل المشاركة الفاعلة لعناصر ومكونات الأمة المسلمة.

- أن الخطأ الذي قد يقع من وراء الشورى هو خطأ مستدرك - إن شاء الله - وقد كان قرار الشورى في الخروج في غزوة أُحد - وما تبعه من مصيبة - لم يلغ فريضة الشورى، وجاء في السورة الكريمة وهي تستعرض أحداث الغزوة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]

- أنها تحمي الكرامة الإنسانية من الانسحاق والاستعباد.

- أنها تحمي فريضة الأمة في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

بينما صواب الاستبداد: لا يمثل شرعية الأمة المسلمة، ويشل فاعليتها، ويكبح قدراتها، وتنسحق الأمة أمام الفرد، ويؤصل للفرعونية، وتُستذل الكرامة الإنسانية، ويكون الصواب يمثل تمجيد الفرد لا الأمة، والدوران معه لا مع الكتّاب. ويكون الخطأ

(1) [«شرح المقاصد، سعد الدين التفتازاني، المتوفى: 793 هـ» (ج5، ص 233)]

والجرائم والظلم والعدوان هي ـ في موازين الاستبداد ـ مكارم الأخلاق، والإنجازات العظيمة، والحكمة البالغة، فلا يجرؤ أحد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فتضيع معالم الدين.

***

وإنَّ الحكم بما أنزل الله: يشمل التشريع، والقضاء، والتنفيذ، وكل ما له علاقة بتنظيم الحياة البشرية؛ فهو لا يقتصر على التشريع وحده. والمسلم حينما يتعرض لإحدى هذه الجزئيات لإصلاحها لا يُلزمه أحد بإصلاح النظام الفاسد العلماني والاستبدادي كله جملة وتفصيلاً مرة واحدة في دفعة واحدة، فلا يُكلف الله نفساً إلا وسعها، وهو مُلزم بما يقدر عليه ويستطيعه ـ سواء أكان فرداً أو جماعة ـ لكن المهم الامتناع عن إعطاء الشرعية الإسلامية لأوضاع علمانية أو باغية فاسدة أو التسليم لها. أو الظن أن الديمقراطية طريق للتمكين..

فليست الديمقراطية هي الحل، إنما الإسلام هو الحل.

***

23- شرعية الاجتماع

ما هي الشرعية الربانية في اجتماع الأمة المسلمة؟ أو بمعنى آخر: على أي أساس هذا الاجتماع؟ أو باسم من هذا الاجتماع؟ أو لأجل ماذا هذا الاجتماع؟

كل هذه الأسئلة إجاباتها هو إرجاع الأمة إلى أصلها الممتد في شعاب الزمان، وحملها للرسالة الأخيرة، وميلادها على يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصبح لها كتاب ووجود رسالي وأخلاقي وحضاري وعالمي.. ودون ذلك تصبح أمة لقيطة لا أصل ولا تاريخ ولا حضارة لها، فوجود هذه الأمة ـ وامتدادها في مشارق الأرض ومغاربها ـ سببه الإسلام والكتاب والرسول، ودونه لم تكن شيئاً، ولن تكون شيئاً.. وما كان لها من ذكر بين الأمم إلا بهذا الكتاب كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10]

وهذا ما فهمه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه، فعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ عُمَرُ الشَّامَ لَقِيَهُ الْجُنُودُ وَعَلَيْهِ إِزَارٌ وَخُفَّانِ وَعِمَامَةٌ وَهُوَ آخِذٌ بِرَأْسِ بَعِيرِهِ يَخُوضُ الْمَاءَ، فَقَالَ لَهُ: يَعْنِي قَائِلٌ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، تَلْقَاكَ الْجُنُودُ وَبَطَارِقَةُ الشَّامِ وَأَنْتَ عَلَى حَالِكَ هَذَا؟، فَقَالَ عُمَرُ: "**إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالإِسْلامِ، فَلَنْ نَبْتَغِي الْعِزَّةَ بِغَيْرِهِ**"، وفي رواية: "**إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالإِسْلامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ**"(1)

وقد ظلت الأمة هكذا حتى مزقها أعداء الله والإنسانية على أسس قومية وعرقية وجغرافية ولغوية، حتى يُحللوها من أسباب القوة، وليقطعوا عنها أسباب وجودها الرسالي

---

(1) [المستدرك على الصحيحين/ (1 :61، 62)]

والحضاري.. ويستعبدونها، ويسرقون مقدراتها وثرواتها، وينقلونها من الأمة الرسالية إلى الأمة الغثائية..

فمن أهم أسباب ضعف وتفكك المسلمين (الفكرية) هو: "الفكر القومي العلماني" الذي ضرب الأمة بعد سقوط "الدولة العثمانية" وإن كان له تجليات سابقة ـ كانت تحت السيطرة ـ ولكن لما غرس العدو هذا الفكر المادي الإلحادي في العالم الإسلامي.. تفككت وحدته: السياسية، والجغرافية، والفكرية.. بعدما كان "أمة واحدة".

وتَمزقْ الأمة ـ ومظاهرتها الأعداء، واقتتالها البيني ـ كلها كبائر فاحشة، وبالطبع كل ذلك ليس له أي شرعية ربانية، بل عقوبات إلهية..

وحتى تكتسب "جماعات التغيير" شرعية ربانية في اجتماعها، لا بد من أن يكون هذا الاجتماع من أجل **إعلاء كلمة الله، ونصرة دينه، وتحرير أمة الرسالة والكتاب**؛ لأنه دون هذه الشروط فإنها باجتماعها تزيد حالة التمزق والتشرذم والاختلاف والتحزب والتعصب والتفرقة والتصارع وخلق شرعيات متعددة متنافرة، وتبديد الولاء الجامع لله ورسوله والأمة المسلمة، وتضييع الفرص!

واهتمام بعض جماعات التغيير بسخافات وتفاهات الجاهلية.. بزعم أن ذلك يُقربها من الناس لهو زعم باطل وغير متحقق، إنما يُفقدها تميزها وأصالتها وشرعية اجتماعها الذي من المفترض أنه من أجل تغيير الواقع لا المشاركة في سخافاته وأباطيله وأمراضه وجنونه..

والصواب هو: الاستعلاء على الباطل بعزة الحق، والتميز على السخافة برشد العقل، وتقديم الدواء بنور الوحي، وطلب رضى الله قبل رضى الناس.. ومن يفقد هذه المعالم فأولى له أن يفض اجتماعه الذي يصبح عبئاً ومشكلة لا علاجاً وسبيلاً.

***

ومن ثم فالمسلم ـ كل مسلم ـ لا يرضى حكم العلمانية، ولا يقبل شرعية اجتماعها تحت أي مسميات: ليبرالية، يسارية، اشتراكية، ماركسية، ديمقراطية، شيوعية، قومية، ثورية... إلخ، طالما لم يكن اجتماعها "**باسم الله**" فاجتماعها على باطل، وهو ليس باجتماع بل هو تمزيق وتفريق الأمة تحت "رايات جاهلية" ما أنزل الله بها من سلطان، وعدوان على الأمة، ودينها ورسالتها، وإفساد لها، مهما زعمت هذه الرايات محاولة النهضة بالأمة وإصلاحها، فإن صدقت في دعواها ـ وأغلبها إن لم يكن كلها دعاوى كاذبة ـ فإنها تُضيع على الأمة آخرتها، وتسلخها من هويتها، ومن وظيفتها، ومن دينها!

يقول الشيخ الإمام حسن البنا (رحمه الله): "أيها الشباب: إن منهاج الإخوان المسلمين محدود المراحل واضح الخطوات، فنحن نعلم تماماً ماذا نريد ونعرف الوسيلة إلى تحقيق هذه الإرادة. نريد أولاً الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، فهذا هو تكويننا الفردي، ونريد بعد ذلك البيت المسلم... ونريد بعد ذلك الشعب المسلم... **ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التي تقود الشعب إلى المسجد، وتحمل به الناس على هدى الإسلام... ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يُستمد منه، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية، ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس من هذا النظام...** وقد أعددنا لذلك إيماناً لا يتزعزع، وعملاً لا يتوقف، وثقة بالله لا تضعف، وأرواحاً أسعد أيامها يوم تلقى الله شهيدة في سبيله...

وإنَّ قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف.

هذا كلام واضح لم نأت به من عند أنفسنا، ولكننا نقرر به أحكام الإسلام الحنيف. وعلى هذا فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم، فإن وجدوا من الأمة من يستعد

لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة، والحكم بمنهاج إسلامي قرآني فهم جنوده وأنصاره وأعوانه، وإن لم يجدوا فالحكم من مناهجهم، وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله."[1]

"والنظام [الإسلامي الشوروي] بخصائصه ومبادئه وقيمه الربانية وفضاءاته الشوروية، نقطة البدء فيه العقيدة ونقطة الختام فيه سعادة الدنيا والآخرة، لذلك لا يقبل إلا أن يكون وحده في مساحته، لا يُرقع بأنظمة وضعية ولا تُرقع به، فهو غني عن الترقيع، عَصي عن الترويض والتبضيع، والذين يلتمسون من أنظمة استبدادية أن تطبق الشريعة، إنما يسعون في حقيقة الأمر لتشويهها أو توظيفها واستغلالها وتحريفها. وما لم يتوفر نظام ما على شرعية الوجود منهجاً نبوياً راشداً، فلا مجال لمطالبته بما هو خارج عن طبيعته، وكما أن الصدقة لا تجوز من ثمار الأرض المغتصبة لانتفاء شرعية تملّكها، كذلك يتعذر تطبيق النظام الإسلامي من فاقد شرعية الوجود.

إن النظام الإسلامي مرتكز على أربع دعائم بدونها يفتقد التمثيل الصحيح للإسلام:

- شرعية الوجود أولاً، ومصدرها حجر الأساس الذي هو العقيدة.

- شرعية التشريع المنبثقة من شرعية الوجود.

- شرعية التسيير والتنفيذ المنبثقة من شرعية التشريع.

- شرعية الهدف المنبثقة من شرعية الوجود والتشريع والتسيير، وهي التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله في الآية 28 من سورة الفتح: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، والرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "**لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ**" [مسند الإمام أحمد]

(1) [كتاب: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ص 95، 187، دار الدعوة]

وكل هذه الدعائم مرتكزة على العقيدة وما ينبثق عنها، وعلى الشورى العامة التي هي أمر للمسلمين كافة." [1]

فالمسلم لا يرتضي حكم الرايات العلمانية ولو كانوا أغلبية، ولا يرتضي شرعية وجودهم السياسي ابتداء كمعارضة، إلا أن يكونوا ممثلين عن طوائفهم غير المسلمة. وشرط مسالمة الإسلام والمسلمين، والخضوع لنظامه.

فهذه الرايات (الأحزاب والجماعات) ـ سواء أكانت في الحكم أم في المعارضة ـ ليس لها شرعية ابتداء؛ فالاجتماع يجب أن يكون **باسم الله**، وعلى أساس الانتساب للإسلام. وليس على أساس محاربته في شعائره وشرائعه! فهو بذلك في وضع "المحاربة لله ورسوله" وليس في وضع "الحق السياسي الديمقراطي"، حسبما تقرر "قواعد الشورى" في الإسلام، والمخالفة للفكر الديمقراطي، وإن التقت معه في بعض الممارسات. [2]

هؤلاء المحاربون لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وضعهم في الأمة المسلمة "في الأذلين" وليس الحاكمين، ولا المؤثرين، ولا الموجهين، ولا قادة الفكر والمجتمع والسياسة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ. كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 20-21]

هذا من حيث المبدأ والقاعدة الأصيلة الشرعية، أما من حيث واقعنا، فالعكس هو الواقع! إذ يُمنع تكوين الأحزاب على أساس ديني! ـ بينما الحق والصواب هو أن: "**يُمنع تكوين الأحزاب على أساس علماني**" ـ ويُحاربون كل من يحاول أن يعود (اجتماعياً وسياسياً) بالأمة إلى دينها، باعتباره يمارس (الإرهاب، والأصولية، والتطرف) ويخالف مَدنية الدولة أو علمانيتها! وإن نجح هؤلاء في الانتخابات فإنه يتم الانقلاب عليهم،

(1) [كتاب: "دولة الشورى"، للشيخ عبد الكريم الحمداوي، ص 48]

(2) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "صور المعارضة السياسية".

وتفشيلهم، والسخرية منهم؛ وتضيع الأمة وتتهاون في أمر "شريعة الله"، ويزداد ضعفها، والهيمنة عليها من أعداء الداخل والخارج.

وفي هذا الواقع الذي يكون فيه المعروف منكراً، والمنكر معروفاً.. فإن أهم دور "اجتماعي سياسي" للفرد أو الحزب والجماعة هو: إعادة الموازين الصحيحة بأن يكون المعروف معروفاً، والمنكر منكراً، وعدم الانزواء السياسي، والغرق في الاستضعاف، واستسهال الاستسلام للباطل.. بل يجب المقاومة بكل ما آتانا الله من قوة، مجتمعين باسمه، مخلصين له الدين، والنية، والعمل. فإن متنا ونحن على هذه المقاومة.. فنحن شهداء في سبيل الله ـ إن شاء الله ـ وإن انتصرنا، انتصرنا ونحن نرفع راية الله، ومتبعين نور كتابه؛ فلا نتحول إلى وحوش تدمن السلطة، والمال، والفساد، وخداع الجماهير.. وتنسى رسالتها، وغايتها.

والذي يعمل مع الله ـ جل جلاله ـ لا يخسر شيئاً، بل يكسب كل شيء.

والبحث في "النجاة الفردية" دون نجاة الأمة يخالف "السنة النبوية" ويزيد من الفساد الاجتماعي السياسي، الذي يجعل حتى النجاة الفردية على المحك، ويجعل مستقبل الأجيال التالية تحيط به الظلمات، بل إن النجاة الفردية لا يصل إليها الإنسان إلا بجهد الدعاة إلى الله، والمتمسكين بالإصلاح في واقع الحياة، الذين يجاهدون ليكون المعروف معروفاً، والمنكر منكراً، ويمسكون بالكتاب، ويُبلغون رسالة الله، ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلا الله.. فلا مفر من هذا الجهاد الاجتماعي السياسي..

وعندما نقول "**الاجتماع السياسي**" نقصد أن كل اجتماع سيكون له حتماً ممارسة سياسية، والممارسات السياسية تشمل: التشريع، والقضاء، والاقتصاد، والعلاقات الداخلية والدولية، وقوة الدولة، وطريقة إدارة الثروات، والهوية، والوجه الحضاري... إلخ من صور الحياة وأنشطتها، التي يجب على كل مسلم أن يُسلم فيها لله رب العالمين.

والأمة عندما تُسلم وجهها لله في شعائر الله وتعظمها، وتُسلم وجهها لله في شرائع الله وتُقيمها في واقعها الاجتماع السياسي فإنها بذلك لا تَمُن على الله، ولا تمارس فضائل الأعمال! بل إنما تحقق "عبادتها الخالصة لله" وتقوم بلوازم ومقتضيات شهادة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" إذا كانت صادقة.

***

24- المكاسب الهشة

الحركة السياسية الناجحة هي التي تهدف إلى الحصول على "المكاسب المرنة"، وليس "المكاسب الهشة"، أو "الصلبة المجردة".

فأما **المكاسب الهشة**: فهي عضوية في برلمان، أو حقيبة وزارية خدمية بعيداً عن الوزارات السيادية، أو نشاط اقتصادي أو اجتماعي أو خيري ليس له غطاء سياسي قوي يحميه.

وتأتي هشاشة هذه المكاسب ـ على أهميتها في بعض الأحيان ـ بأنها مُعرضة للسحق، والتدمير بكل سهولة ممن يملك القوة السياسية المرنة.

وأما **المكاسب الصلبة**: فهي التنظيمات العسكرية المسلحة، وهذه رغم قوتها العسكرية.. فإنها تظل هكذا دون شرعية، ولا امتداد اجتماعي، ولا رسوخ سياسي؛ ومن ثم فهي معرضة للكسر، والانكسار في النهاية.. ما لم تتحول إلى جزء لا يتجزأ من المجتمع، وتعبيراً عنه، فتحصل على "الشرعية الاجتماعية" اللازمة للحياة.

وأما **المكاسب المرنة**: فهي التي تجمع بين القوة السياسية الناعمة، والقوة السياسية الصلبة، وتتمدد اجتماعياً، وثقافياً، وتربوياً، وإعلامياً، وفكرياً، واقتصادياً.. بحيث تتداخل في كل مكونات المجتمع، وتدخل في أعماق جذوره، فيكون لها الوجه السياسي الحاضر والفعال والمؤثر، والوجه الأمني الذي يحمي المكسب السياسي، والوجه الاستخباراتي الذي يحيد العدو قبل وقوع العدوان، والوجه الاجتماعي الذي يمثل الرداء والروافد والكوادر اللازمة للبقاء والحياة.

والتنافس على المكاسب المرنة ـ ونظراً لخطورتها وأهميتها وأثرها ـ قد تؤدي في لحظة من اللحظات إلى الحرب الأهلية أو الانقسام المجتمعي، ولكن اليقظة والوعي وتصدر أصحاب العقول وأولي النهى يَحول دون وقوع ذلك.

والأقوياء بحق، والمؤهلون للعمل السياسي الراشد هم الذي يحصلون على المكاسب المرنة، ويرسخون وجودهم، ويناورون من ينافسهم عليها، دون الوصول إلى مرحلة الحرب الأهلية والانقسام المجتمعي الذي قد يأتي على الدولة كلها.. ومن جانب آخر: ليس لديهم هواجس مرضية، ولا يمضون بأيد مرتعشة مترددة، فالسياسة لا تعرف الضعف، وتكره الضعفاء، وكذلك الناس.

هذا بشكل عام..

أما من خلال **التصور الإسلامي**:

فأول المكاسب الحقيقية ـ في نظر الإسلام ـ هو: **إعلاء كلمة الله** ـ جل جلاله ـ وجمع الناس على راية الله، باسم الله.. وجعل الإسلام هو المرجعية العليا التي تَعلو ولا يُعلى عليها.

وأول هشاشة وانكسار يطرأ على هذا المكسب هو "الخجل" من إسلامنا، و"التردد" في قول معنى الإسلام أو الجهل به.. و"**المَن**" على الله ببعض المظاهر الإسلامية! وهذه المسألة غاية في الأهمية، ويجب الانتباه إليها جيداً. والله تعالى يقول: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: 17]

وفي الحديث الشريف عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ فِيمَا رَوَى، عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: "يَا عِبَادِي: إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا

تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي: كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي: كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي: كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي: إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي: إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي، فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، **يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا،**

يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي: إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"(1)

فإنما نحن بذلك نحقق معنى إسلامنا لله، ولا نَمنّ على الله بشيء، ولا نتقرب إليه بنافلة، بل نحقق مقتضى شهادة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" وإننا إذ نتوجه إليه ونقف بين يديه في الصلاة، فإننا نتوجه إليه ونقف بين يديه في شؤون الحياة كلها.

والمكسب الثاني: هو **التمدد الاجتماعي** ـ على كل المستويات ـ بخطاب إسلامي راق ومتزن ومتوازن، جامع للكلمة، محدد الهدف، والغاية.. يمضي تربوياً، وثقافياً، وفكرياً، ودعوياً في ترسيخ التربية والمبادئ الإسلامية، وتصحيح المفاهيم، وتربية الأجيال على القيم والموازين، والأخلاق والسلوك، والفكر والشعور، والأهداف والتصورات الخاصة بهذا الدين العظيم. والتطهر من الطغيان، والفسق، وأمراض الاستبداد.

(1) [صحيح مسلم/ 2580]

وأول هشاشة وانكسار يطرأ على هذا المكسب هو فقدان الشعور بأهمية ذلك، أو استواء التربية الإسلامية والتربية العلمانية في نظر البعض! وإزالة الفوارق بينهما، أو الدعوة للتعايش بينهما! والتطبيع مع الفسق والطغيان، وكذلك إطلاق خطاب مُفرق للكلمة، مُضيع للأهداف، مثير للغط والبلبلة والشبهات، يدخل بالأمة في ظلمات التيه.

والمكسب الثالث: هو **التمدد السياسي**، من خلال تفعيل الحركة الاجتماعية، والقيام بالمسؤولية الاجتماعية السياسية، والتحرك المستمر في كل مساحة متاحة، وممكنة، وإدراك الفرص، أو الاستعداد لها، أو إيجاد البدائل المناسبة، والتمدد في الفضاء السياسي السيادي، الذي يمثل سيادة الدولة، سياسياً وأمنياً واستخباراتياً وعسكرياً، والفضاء السياسي الخدمي يأتي في مرتبة ثانية مثل الوزارات الخدمية والبلدية والصحية... إلخ، ورغم أهميتها وأثرها واتصالها بحياة الناس اليومية، إلا أنه بدون الفضاء السياسي السيادي فكل جهد فيها في مهب الريح، ما لم يكن له غطاء سيادي يحميه.

وأول هشاشة وانكسار يطرأ على هذا المكسب هو التلوث بالفساد، والعلمانية، والتكيف مع الواقع الجاهلي، والاهتمام بالذات والحزب على حساب الأمة والمثل العليا. والغفلة عن أهمية القوة السياسية السيادية التي تضبط وتحكم المشهد السياسي.

والمكسب الرابع: هو **القوة العسكرية**، من خلال القوة "الشرعية" القتالية، التي تكتسب الشرعية السياسية النظامية، وتدين بالولاء للرسالة الإسلامية، والمجتمع الذي يمثل هذه الرسالة، وهو فضاء أوسع بكثير جداً من الفضاء الحزبي أو الفردي، لا بد للقوة القتالية أن تحمي الرسالة الإسلامية، والشرعية الإسلامية، والمبادئ الإسلامية العامة ـ دون الدخول في تفصيلات فرعية ـ وعدم ولائها للإسلام، يجعلها موالية للجاهلية أو محايدة أو تدور حسب المصلحة أو مؤيدة للدولة القومية العلمانية بصورة مطلقة عمياء.. قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ

أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22]

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: **"مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ"**(1)

ولا شك في أن "الولاء والبراء" مبدأ إسلامي يدخل في نطاق "مقومات الإيمان بالله ورسوله" وفقدانه يعتبر عملاً من أعمال الكفر الصريح، الذي لا ينجو صاحبه في الآخرة، وإن انتسب للإسلام ـ اسماً ـ في الدنيا وجرت عليه أحكام المسلمين.. شأنه شأن "الحكم بما أنزل الله".

ويجب أن تكون هذه الرسالة شديدة الوضوح، **أولاً**: لبلاغ الرسالة تامة، وهو أمر يُمثل النجاة الفردية لكل إنسان. **وثانياً**: لأن فساد المفاهيم والتصورات نحو الإسلام يدمر كل المحاولات الإصلاحية، ويضيع الأعمار والفرص، ويزيد من عوامل الضعف والتحلل والتيه. **وثالثاً**: لأنه في لحظة من اللحظات سنجد هذه القوة القتالية ـ من بني جلدتنا ـ متجهة نحو الأمة المسلمة تفتك بها، وتستبيحها، وهذا من أوضح صور التدمير الذاتي!

وأول هشاشة وانكسار يتعرض له هذا المكسب، هو تحول ولائه من الإسلام والمسلمين إلى العلمانية الجاهلية أو لمن يدفع.

(1) [صحيح مسلم/ 1849]

وكذلك فقدان القوة العسكرية للشرعية السياسية النظامية، وتحولها إلى مجرد مليشيا مسلحة ـ على أهمية القوة في أي صورها! ـ تتحرك وفق مصالحها الخاصة.

والمكسب الخامس: هو **القوة الإعلامية** العصرية المتسلحة بلغة العصر، وأدواته، وأسلوبه، وتمدده.. والفضاء الإعلامي العالمي أصبح مؤثراً ومتجاوزاً الحدود والقوميات والأوطان.. وله مفعول السحر، وإذا كانت القوة العسكرية تحارب عند توقع العدوان أو بعد وقوعه، وإذا كانت القوة السياسية تتفاعل وتؤثر حسب الخطة والبرنامج السياسي، فإن القوة الإعلامية في حالة حرب مستمرة على مدار الساعة، حرب "الإقناع والبناء"، وحرب "الهجوم والهدم"، ففي الأولى: تحبيب الحق، وبيانه بالأسلوب المناسب للجيل، والدخول عليه من كل طريق، والتفنن في أساليب التأثير والإقناع، وبناء النموذج الفكري السهل القريب من خلال الفن، والأدب، والحوار، والسينما، والمسرح، والقصة، والتحليل، والرصد... إلخ، وأما الثانية: فهي رد وهدم دجل الجاهلية، وكذب العلمانية بكل موضوعية، وصدق، وعدل.. وتتبعها في كل مكان، والإجهاز عليها في كل زاوية بأسلوب وأدوات المدرك لأحوال عصره، والقادر على إقناع الناس بالحجة والمنطق والدليل، وبالأسلوب الذي يرتقي بأخلاق الناس، وآدابها، وسلوكها.

وأول هشاشة وانكسار يتعرض له هذا المكسب، هو فقدان الرؤية الإعلامية الإسلامية الربانية، وفقدان أدوات التأثير والإقناع والتخلف عن العصر، والسقوط في الأسلوب الرخيص والسطحي والظالم الذي يُعلم الناس الفواحش.

والمكسب السادس: هو **القوة الاقتصادية**، ولا يُشترط الترتيب بين هذه المكاسب ـ عدا المكسب الأول ـ والقوة الاقتصادية مسألة معضلة في واقع يهيمن عليه الربا العالمي والسحت والاحتكار والاستغلال والتلاعب، والفساد والسرقة والظلم، والأثرة والشح والبخل، إلا أنه وبالعموم يجب الاستقلال الاقتصادي، والاهتمام بالتصنيع في المجالات الحيوية والمؤثرة والتي لا يمكن الاستغناء عنها، والتي تنفع الناس، وتزيد من قوة الدولة،

مثل: الغذاء، والتسليح، والدواء، والصناعات التقنية الدقيقة... إلخ. والعمل على حماية العُملة المحلية، والدفاع عنها؛ حماية لعرق الناس وجهدها وثرواتها.

والاستقلال الاقتصادي يحمي المجتمع وجماعات التغيير من أن تكون عُرضة للبيع لمن يدفع، فالمال عصب الحياة، وشريان السياسة.

وأول هشاشة وانكسار يتعرض له هذا المبدأ هو "عبادة المال" والفتنة به، والفشل في الاستقلال الاقتصادي الحقيقي وبناء الاقتصاد المتين الذي يمكن أن يصمد في أي حرب اقتصادية أو عسكرية.

والمكسب السابع: هو **وحدة الأمة**، والامتثال للمثل العليا الإسلامية، وجعل كتاب الله دستورها الأوحد والأبدي والخالد، بعيداً عن التعصب للأيديولوجيا أو الحزب أو الجماعة أو القوم، وعدم خلق ولاءات متعددة متحاربة متنافرة متفرقة.. وتجاوز النظرة الضيقة المقيتة القومية؛ وشغل الأمة بقضاياها المصيرية[1]، ومحاولة إصلاحها وتقويتها - في كل مكان - على أساس الأخوة الإسلامية العامة الجامعة (والأمة هي التي ورد فيها أحاديث الجماعة[2]). وإصلاح النظم القضائية والدستورية على أساس أن كتاب الله هو الذي يعطي شرعية الاجتماع والوجود لهذه الأمة، ويصبغها بالصبغة الإسلامية بحق.

وأول هشاشة وانكسار يتعرض له هذا المبدأ هو تأثير "القومية العلمانية" القاتلة لوحدة المسلمين، ثم المصالح المادية البراجماتية الميكافيلية لبعض الأحزاب على حساب المجتمع المسلم، والأمة المسلمة.

---

(1) انظر - إن شئت - بحث: آلية قراءة قضايا الأمة المصيرية.

(2) جاء في الحديث الشريف: "**...عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ**" [جامع الترمذي/ 2165]، فالجماعة تعني الأمة القائمة بالكتاب، وليس الطغاة المفسدين المستبدين، فهم "فئات باغية".

وإنَّ هذه المكاسب الست ـ وغيرها من المكاسب ـ إذ لم تقم على أساس المكسب الأول، فقد تم البناء على شفا هوة سحيقة، فتضيع كل المكاسب في لحظة.. أما إذا تم البناء على أساس "المكسب ـ المبدأ الأول" فإن البناء يكون على أساس متين، فهو على تقوى من الله ورضوان.. **فالتقوى** تحمي المسلم وهو يخوض غمار هذا الجهاد، **والرضوان** هو التوفيق والبصيرة التي يحتاجها المسلم، وهو يمضي يقيم دين الله، ويُحكم شريعته، وينتصر للأمة المسلمة: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 109]

وإنَّ كل مكتسب إسلامي ـ بمقياس الإسلام ـ لا يحميه أبناء الإسلام بالقوة القتالية فهو مكتسب هش، في مهب الريح، يمكن القضاء عليه من جذوره، وإنهاء وجود أصحابه.. كل مكتسب إسلامي راسخ لا بد من أن يكون له:

- "**القوة الاجتماعية**" التي تحتضنه وتغذيه وترفده بالروافد اللازمة للحياة والنمو.

- و"**القوة القتالية والأمنية**" التي تحميه من عدوان المعتدين، وفجور الملحدين.

- و"**قوة العدل والأمانة والأخلاق الربانية**" في الحكم والإدارة.

يُمثل هذه القوى أبناء الإسلام المخلصين، المحبين لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعباده المؤمنين، ينهضون "باسم الله" في سبيل الله، وليس باسم "الحرية الشخصية" ولا "الحقوق الوطنية" حيث هذه يمكن تفسيرها بأن القضاء على الإسلام والمكتسبات الإسلامية هو جوهر الحرية الشخصية، وتحقيق للديمقراطية.[1]

***

(1) انظر مقال: "أوجه الفشل في التجربة التركية".

"وتحقق قوة المجتمعات من خلال نضج وتكامل عناصر القوة كلها في دائرة فاعلة وتناسق صحيح. وهذه العناصر هي: **المعرفة، والثروة، والقدرة القتالية.**

وتجسد "المعرفة" في العلماء المتخصصين والخبراء، و"الثروة" في الاقتصاديين ورجال الأعمال الأغنياء، بينما تجسد "القدرة القتالية" في الجند والقادة العسكريين.

والتناسق الصحيح المشار إليه يعني أن تتلاحم جهود الممثلين لعناصر القوة الثلاثة طبقاً لقاعدة معينة. خلاصتها أن تدور "القدرة القتالية والثروة" في فلك "**المعرفة**" لتكون السياسة الحكيمة والقيادة الناجحة. وحين يضطرب هذا النسق والترتيب أو يقصِّرُ أحد العناصر عن النضج تُصاب الأمم بالوهن والهزائم، والحضارات بالتخلف والانحطاط.

والواقع أن دعوات الإصلاح جميعها ـ التي قدرت لها النجاح ـ قامت على مفهوم القوة هذا بعناصره الثلاثة ونسقها وفاعليتها، وتفاوتت درجة أصالة هذه الدعوات تبعاً لتفاوت نضج وتناسق العناصر الثلاثة المشار إليها.

ولكن الخطر يبدأ في مرحلة ما بعد النجاح أو مرحلة ـ التمتع بثمار النجاح ـ فتغفل الأمة عن الدور غير المنظور لعنصر المعرفة وممثليه، ويهولها الدور المنظور لعنصري "الثروة والقدرة القتالية" وممثليهما. عند ذلك يحدث تطوران: الأول: يعمل الإحساس بـ "القوة" عمله في ممثلي "الثروة" و"القدرة القتالية" ويتعالون على ممثلي "المعرفة" ويتفلتون من توجيههم ويجنحون إلى الترف والنفوذ. والتطور الثاني: هو إذعان ممثلي العصبيات المنهارة الذين قاوموا دعوة الإصلاح والبدء في التسرب إلى صفوف قيادة المجتمع الجديد، والتحالف مع ممثلي "الثروة والقدرة القتالية" من خلال جنوح الطرفين للترف والنفوذ، ثم تكون محصلة ذلك قيام الصراع والإمعان في إيذاء من يستعصي من ممثلي "المعرفة" على التطور الجديد.

وحين يرى الناشئة ما يجلبه الفكر و"المعرفة" من ذل وإيذاء وتضييق، يقلع "الأذكياء" منهم عن الدراسات الفكرية وميدان المعرفة؛ وحين يرى "غير الأذكياء" ما يسبغه رجال "الثروة والقدرة القتالية" على مَن يذعنون لسياساتهم يسارعون إلى التطفل على ميادين "المعرفة"، ويتخذونها سلّماً للثروة والجاه والشهوات، وتظهر طبقة "فقهاء السلاطين والملوك" أو السحرة الذين يرضون بالمنزلة الدنيا وتبرير ممارسات ذوي السلطان والتملك، ويتدحرج المجتمع كله لتبني هذه القيم ومرحلة "الولاء للأشياء". وبذلك تتفكك الدائرة المنسقة لعناصر القوة وتكاملها، وتضطرب فاعلية هذه العناصر ويتحدر المجتمع في درجات الانحطاط والانهيار. ويشير القرآن الكريم إلى هذا المصير بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16] ولهذا حذر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خطورة الانشقاق بين عناصر المعرفة والقدرة القتالية والثروة حين قال: "**ألا إن الكتّاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتّاب**". فالقرآن هنا يمثل "المعرفة" الصائبة، والسلطان يرمز إلى "الثروة المادية" و"القدرة القتالية"؛"[1]

***

والحصول على هذه المكاسب رحلة شاقة طويلة، وجهاد كبير وعظيم.. إلا أن أثره في الدنيا، وأجره في الآخرة عند الله عظيم، ورجاله هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

وتتعرض هذه المكاسب إلى حرب شاملة وشديدة يجب أن يكون المسلم على وعي بها، ومدركاً لكل أبعادها، وبصيراً بخريطة عدوه بكل التفاصيل، ومن المخاطر التي تتعرض لها هذه المكاسب:

(1) [كتاب: "هكذا ظهر جيل صلاح الدين.. وهكذا عادت القدس"، ص 353، د. ماجد الكيلاني]

ـ **الانشغال بالعمل البرلماني المجرد**، وتعريف العمل السياسي بأنه الصراخ في البرلمان، أو استجواب الحكومة، أو إحراجها ببعض ملفات الفساد![1] فهذا لا يعتبر مكسباً بالأساس، إنما تضييع للأوقات والأعمار والأموال. فيجب على كل سياسي مسلم أن يتأكد من أنه يحقق فاعلية وتغييراً من عمله، وإذ لم يجد شيئاً ذا بال، فلا يكذب على نفسه ولا على المسلمين، ولا يدفع الكثير جداً في أثر قليل جداً وربما يكون معدوماً أو هشاً لا يصمد عند أول بلاء.

ـ **الانشغال بالعمل المسلح المجرد**، وتحوله إلى أيديولوجيا، وغاية في حد ذاته، وليس وسيلة لحماية مكتسبات المسلمين، والدفاع عنها، وإنَّ فقدانه الشرعية السياسية النظامية يشير إلى حتمية فشله والقضاء عليه، أو قطع المدد الاجتماعي عنه فيموت تلقائياً.

ـ **وجود قوة علمانية** تسعى إلى هذه المكاسب، وتكون مدعومة خارجياً ـ من العدو التاريخي للمسلمين ـ ولها قاعدة اجتماعية قوية. أو تكون هذه القوة العلمانية بالفعل تمتلك هذه المكاسب؛ لأن العلمانية لا تسمح للإسلام أبداً أن يتمدد اجتماعياً وسياسياً، وكذلك الإسلام لا يسمح لها بذلك، ومن ثم فنحن أمام قوتين.. والمسلم يقف مع الإسلام ـ من حيث المبدأ، وبشكل عام ـ ويقف مع كل من يسعى لأن يكسب الإسلام أرضاً جديدة..

وأهم ما يجب عمله في هذا التدافع هو سحب القوة الاجتماعية للعلمانية لصالح الإسلام، ووقف التمدد الاجتماعي لها؛ فهذه أخطر قوة يمكن أن تكسبها العلمانية أن تجد ـ من بني جلدتنا ـ من يدافع عنها، ويتبنها، ويدعمها، ويؤيدها، ويباركها، ولا يجد في ذلك أدنى حرج!!

---

(1) انظر درس: "فرضيات خاطئة"، ص 196من هذا الكتاب.

وهنا يأتي دور بيان الرسالة الإسلامية، ومحددات الإيمان والكفر، وبلاغها للناس ـ كما أسلفنا ـ بكل وضوح، دون غبش أو تردد أو خوف، أو تهوك وتخرص.. فهذا البيان، وتبليغه البلاغ الصحيح، بالأسلوب المناسب القريب من الناس، **هو أول طريق النصر، وأول طريق لوقف التمدد الاجتماعي للعلمانية، حيث اعتبار تَدين الناس بدين العلمانية لا بأس به في دين الإسلام هو تدمير كامل لقوة الإسلام، والمجتمع الإسلامي.**

فالبيان الصحيح للإسلام، يقطع الممدد الاجتماعي عن العلمانية، ويحصرها، وتقديم البديل الإسلامي الرباني الصحيح والمتكامل والشامل والإيجابي والمتوازن بكل قوة، وعزة، وتمكن.. ومن ثم تفكيك القوة العلمانية شيئاً فشيء وتحويل ولائها للإسلام والمسلمين، دون حصول الحرب الأهلية أو الانقسام المجتمعي الخطير.

والانتباه الشديد للعدو المتربص الذي عندما يجد ذلك ويسقط في يده، فإنه سيغذي الحرب الأهلية ويمد هؤلاء وهؤلاء؛ حتى تغرق البلاد في الفوضى، والانقسام، وتفقد كل مقوماتها الحضارية وكل ثرواتها.

وأنا على يقين بأن الدعوة الصحيحة والشاملة للإسلام والتربية عليها ـ وجهاد كل معوقات هذه الدعوة ـ سترد الناس إلى دينها رداً جميلاً، وتجعل العلمانية قلة قليلة غير ذات تأثير.

وأخيراً: إذا وجد شياطين الأنس أن الإسلام يكسب أرضاً جديدة على حساب العلمانية.. وانطلاق المعركة على أساس أن الإسلام دين، والعلمانية دين، ومال الناس إلى الإسلام، سارع الشياطين إلى إلباس العلمانية ثوب الإسلام، وإلى حضور صلاة الجمعة أو بناء مسجد أو حضور إفطار... إلخ؛ لينزعوا عن المسلم قوته، وغيرته على الدين،

وتحويل المسألة إلى مجرد "صراع سياسي" و"معارضة سياسية"[1] والإسلام محفوظ الجناب ليس له علاقة بهذه المعركة السياسية! وكثيراً ما يسقط المسلمون في هذا الفخ الشيطاني، ويضيع بسببه كل شيء.

والهدى والبصيرة وتقوى الله ونوره هي الدرع الواقي من وساوس الشياطين وكيدهم ومكرهم: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: 22]

والله يُفصل الآيات لتستبين الأمة "سبيل المجرمين"، وتسلك ما هو ضده "سبيل الرشد": ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 55]

***

(1) انظر مقال: "صور المعارضة السياسية.. وآفاتها". ومقال: "المعارضة الإسلامية والمعارضة العلمانية". ومقال: "فخ المعارضة".

25- أمن الدولة

تُعرف الدولة بأنها: أرض، وشعب، ونظام حكم، وسيادة.. وهذا هو التعريف المادي للدولة، أما التعريف الرباني للدولة، فهو: رسالة، وشعب مؤمن بهذه الرسالة، وأرض مُمكن فيها للرسالة، ونظام حكم يقوم على شريعة وقانون ودستور هذه الرسالة.

والرسالة: هي دين الله الذي هو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19].. وعلى هذا التعريف الرباني للدولة؛ يتحدد مفهوم "الأمن"، ومفهوم "الجهاد"، ومفهوم "العلاقات الدولية".. وغيرها من المفاهيم والأسس.

في الصور العلمانية يكون مفهوم "أمن الدولة" أو "الأمن القومي" يتحدد في حدود الأرض، أو مصالح الحزب، أو الفرد، أو أحكام الدستور العلماني، أو في مصالح جنس معين من البشر أو قومية معينة، وفيه تتحول الدولة إلى إله![1]

وفي بلادنا يتحدد مفهوم الأمن في شخص الحاكم، ومصالح الجهات الخارجية الأجنبية الداعمة له.. أما الدين، والشعب، والثروة، والأرض، والأمن الداخلي والخارجي، فليس لها من الأمن إلا ما يحقق مفهوم "أمن الدولة" وهو شخص الحاكم، الذي يُخلع عليه كل صفات الربوبية! حيث تُختزل الدولة كلها (أرضها، وشعبها، ونظمها، وتاريخها، وحاضرها، وثرواتها، وأمنها) ـ بل ودينها ـ في شخص الرئيس أو الملك أو الأمير! وسقوطه في نظرهم يعتبر سقوط الدولة كلها..

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "الدولة الإله".

وفي سبيل تحقيق هذا الأمن ـ من هذا المنظور العلماني المستكبر في الأرض ـ يُستباح الإنسان، وتُسحق الإنسانية، ويُباع الدين، والعرض، والوطن، وكل شيء، باعتبار أن شخص الحاكم ـ رئيس الدولة هو التعريف الأوحد لـ "الأمن القومي"!

***

وفي النظام الدولي الحالي، لا بد من اعترافات المؤسسات الدولية بالدولة حتى يصير لها "شرعية"؛ فحتى مع وجود أرض، وشعب، ونظام حكم.. لا يكفي للدولة أن تكون ذات سيادة أو مُعترف بها دولياً، بل لا بد من اعتراف المؤسسات الدولية بها! وهي بذلك تمارس دور الهيمنة والسيطرة بهذا الاعتراف الذي تمنحه من تشاء، وتحرمه من تشاء بموازينها الباطلة.. ومن ثم يُضاف عامل رئيس في تعريف الدولة وهو "القوة"، حيث القوة تجعل الاعتراف بالدولة مسألة أمر واقع لا مفر منه؛ ومن ثم حتى تكسب الدولة شرعية من ذاتها، وليس من رضى المؤسسات الدولية الطاغية.. لا بد من أن تُحصّل كل قوة ممكنة، على كل صعيد؛ حتى تكون مُحترمة المقام، مرهوبة الجانب.

فالدول نوعان: دول قوية ذات سيادة حقيقية، ودول ضعيفة ذات سيادة مزيفة.. تابعة للدول ذات السيادة الحقيقية، وتدور معها حيث دارت.

وهناك نوع يحاول الاستقلال، ويستمر في المحاولة وعلى حسب قدرته في الانتصار على الدول القوية تتحقق سيادته بقدر انتصاره. وبداية الاستقلال الوطني هو (التصنيع والاستقلال العسكري، والاستقلال الاقتصادي)، ولا يتحقق الاستقلال الوطني الحقيقي ـ وتمكين المكاسب الحقيقية ـ لبلادنا إلا باستقلال الإيمان والإسلام وعلوه ـ حيث لا يُعلى عليه ـ وتحرره من العلمانية فكراً ونظاماً وسلوكاً.

واعتراف المؤسسات الدولية بدولة ضعيفة ـ خالية من القوة أو ذات قوة محدودة ـ يجعلها رهينة لهذه المؤسسات والدول الكبرى التي تفرض سياساتها، وأفكارها، وحتى

قيمها اللا أخلاقية على الدول الضعيفة؛ ويجعلها تدور في فلك هذه الدول المركزية.. والذي يظن السلامة في الضعف والاستسلام لا يعرف شيئاً عن قوانين هذه الحياة، ولا يعرف شيئاً عن توحش هذه الدول وتاريخها الأسود في إبادة الإنسان، وسرقته، واحتلاله، واستعباده؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]

فالسلامة ـ كل السلامة ـ في القوة، وفي الاستقلال بهذه القوة، وعدم الاعتماد على شيء أبداً فيمن يعبد الطاغوت، وفيمن لا يرجو لله وقارا، ومن يخن الله.. فما أسهل عليه خيانة الإنسان!

***

وعودة إلى مفهوم "أمن الدولة":

من المنظور العلماني:

فأمن الدولة ـ من المنظور العلماني ـ في بلادنا يقوم على أسس عدة:

ـ اختزال الدولة كلها في شخص الحاكم.

ـ حماية العلمانية، والمصالح الغربية، وأمن دولة يهود.

ـ العمل على تدريب أفراد المنظومة الأمنية في الخارج على الأساليب الوحشية في نزع الاعترافات، وأدوات التجسس، والتعذيب الممنهج المتوحش، والاعتقال الطويل، والتهديد بالأعراض، وتدمير حياة الإنسان، وأثناء هذا التدريب يتم تجنيدهم واختراقهم، واختيار المناسب منهم ليكون لاحقاً على رأس منظومة الدولة والحكم. وهذا المناسب يكون: الأشد عبودية ورغبة في السلطة؛ فلديه "جنون السلطة"، والأشد كراهية ومحاربة للإسلام، والأشد خدمة واستسلاماً للعلمانية الغربية.

ـ تدمير كرامة العاملين في هذه الأجهزة، بحيث يعبدون "الرتب والمناصب" وتَستعبِد كل رتبة عليا التي هي أدنى؛ حتى يتسابقوا في الحصول على الرتب العليا بكل وسيلة خسيسة ومنحطة.

ـ محاربة الحركات الإسلامية التي تسعى لتمكين الإسلام.

ـ إفساد هذه الحركات ببث الفتن والرعب وخلق الجماعات الوظيفية بينها.

ـ التجسس على الجميع، وبث الرعب في حياة الناس؛ بحيث يصبح مفهوم الأمن هو الرعب وإرهاب المواطنين.

ـ استغلال المنصب والنفوذ في سرقة وتغول أموال الناس الخاصة والعامة.

ـ استخدام العاهرات والجنس في التهديد والفضائح الأخلاقية للسيطرة على السياسيين.

ـ العمل لصالح جهات خارجية من أجل المشاركة في الحرب على الإسلام.

ـ الظهور بمظهر الورع ـ في بعض الأحيان ـ حتى لا يُقال إنها حرب على الإسلام، ويقسمون ما أرادوا إلا إحساناً وتوفيقاً!

ـ جعل الناس شيعاً مستضعفة، مستذلة.. لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً، وتخاف أن تقول كلمة حق فتضيع بعدها كل حياتهم من شدة التوحش والفجور والعدوان.

وبذلك ينقلب مفهوم "الأمن والأمان" إلى "التوحش والرعب".. وهذه هي النظرية الأمنية في المفهوم العلماني.

وهذه مسألة حتمية.. إذ لم تمضِ منظومة الحكم والأمن في سبيل الله، فهي حتماً في سبيل الطاغوت، إذ لم تمضِ على هدى من الله ورضوان، فهي حتماً على ضلال وشقاء،

إذ لم تمضِ على نور الله وكتابه.. فهي حتماً تمضي في ظلمات وظلم وفسوق وطغيان: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186]

***

أما مفهوم "أمن الدولة" من المنظور الرباني:

إنَّ مفهوم الأمن في الإسلام يتحقق أول ما يتحقق من داخل الإنسان نفسه، وهو لـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82] فالأمن النفسي، والأمن الاجتماعي يتحقق بالإيمان بالله وحده لا شريك له.. يتحقق من خضوع القلب وتواضعه لله؛ فيتطهر من كل مظاهر وكوامن الطغيان والإفساد.. ومن ثم لا يلتبس ولا يتلوث هذا الإيمان بظلم، فالإيمان الدرع الحصين ضد الظلم.. ووسادة الأمان لحماية المجتمع، فلا يظلمون أنفسهم، ولا مجتمعهم، ولا الإنسانية، ويمضون في نور الله على صراط الله المستقيم.. فأولئك لهم الأمن، لهم الطمأنينة، لهم السكينة، لهم الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وأولئك هم المهتدون.

وانطلاقاً من هذا المفهوم الرباني للأمن، تتحدد معالم هذا الأمن، فيكون:

ـ قاعدة هذا الأمن للدولة، هو تأمين **الرسالة**، والدفاع عنها من أي أخطار داخلية من المنافقين، وأي أخطار خارجية من الكافرين.. حيث الرسالة هي أصل الاجتماع، وعمود الدولة، ودرع الأمان في الدنيا والآخرة.

ـ ويكون **مجتمع** هذه الرسالة ـ وهو المحتضن لها، والذي في حركته وسلوكه يتمثل هذا الإيمان واقعاً حياً ـ هو المقصود أولاً بالأمن والحماية من كل ما يحدق به من أخطار، وبكل ما يُكاد له من مكر الليل والنهار، وإحباط كل مخطط لإفساد هذا المجتمع، أو تفكيكه، أو بث الرعب فيه، أو الاعتداء على إنسانيته، وكرامته، وحقوقه.. بحيث يكون

تربة إيمانية صالحة؛ تنمو فيها براعم الإيمان؛ ويخرج فيها الإنسان الصالح السوي، القادر على حمل الرسالة.

وحماية قيمه وأخلاقه، وإرادته، وحقوقه.. بحيث لا يعتدي عليها أحد، أو يستأثر بها أحد على حساب بقية المسلمين.

ـ وتكون **أرض** هذا المجتمع، وحمايتها.. والحفاظ على مقدراتها وثرواتها وثغورها وحدودها هو أحد معالم هذا الأمن، فيُمنع كل من يحاول تغول أموال هذه الأرض، أو أن يعيث فيها فساداً أو نهباً أو عدواناً، أو من يريد أن يمكن للعدو منها من خلال الشركات الكبرى؛ فتُمتص ثروات الأمة، ويُحرم شعبها من خيراتها! أو من يحاول تهديد جغرافيتها ومميزاتها الاقتصادية.

وحماية الأرض لا تعني "عبادة حدودها فقط" على حساب بقية المسلمين في بلاد أخرى.. فحماية الأرض لمجتمع مسلم، لا يعني إلحاق أي أذى بالمسلمين ـ أو الأبرياء ـ في بلدان أخرى.. فالولاء والنصرة في الدين مبدأ من مبادئ هذه الرسالة.

ـ ويكون حماية **النظام الحاكم الشرعي**؛ والذي يستمد شرعيته من (الامتثال لشريعة هذه الرسالة، ومن اتباع السنة النبوية السياسية في الحكم، ومن رضى المسلمين وشوراهم) هو أحد أسس هذا الأمن.. حمايته من الاختراق، والانقلاب، والإفساد، والمؤامرات الداخلية والخارجية.. بما يحقق الاستقرار السياسي، والأمن السياسي لهذا النظام؛ ليقوم بدوره في خدمة الرسالة، ورعاية المجتمع، وحماية الأرض.

وما يتميز به النظام الحاكم (الرئيس وكبار رجال الدولة) عن باقي المسلمين هو "تأمينهم" بصورة خاصة من محاولات الاغتيال، والانقلاب؛ دون مظاهر من البذخ والاستعلاء على الناس.. كالمواكب التي يكون غرضها التفاخر والتباهي والتعاظم على الناس! وليس مِن تواضع الحاكم وكبار رجاله التهاون في مسألة تأمينهم وحمايتهم الحماية اللازمة، بل هذا

من السذاجة التي يجب أن يترفع عنها رجال الدولة.. ورجال الدولة في الإسلام رغم تواضعهم، واعتبار أنفسهم خدم للمسلمين لا يتهاونون أبداً في الحماية القصوى لأنفسهم.. وهي في الحقيقة ليست حماية لأنفسهم، بل حماية للمنصب والأمانة التي يتقلدونها؛ ومن ثم فليسوا هم في حلٍ من التقصير في هذه الحماية!

وتحقيق الأمن ـ بشكل عام ـ يكون قبل وقوع الجرائم؛ فيكون غرضه منع الجريمة والإفساد ابتداء.. ولا يكون ذلك إلا مع الحيطة والحذر واليقظة، والانتباه لحركة كل عدو، والمراقبة لأساليب الفسدة والطغاة في محاولة تفكيك قوة الدولة أو استغلالها لصالحهم.

***

وفي سبيل تحقيق هذا الأمن ـ وبعد الإقرار بالنظرية الأمنية الصحيحة الربانية ـ يكون التدريب الاحترافي، والأسلحة المتطورة، والمنظومة الأمنية المتكاملة، والرجال المخلصين لدينهم وأمتهم، والذين تربوا تربية إيمانية خالصة، ونشئوا على التواضع الشديد لدينهم وأمتهم، وعلى الطاعة في المعروف، وتحذيرهم أشد التحذير من الكبر والغرور والاستعلاء على الناس والبسطاء والضعفاء، وتعليمهم سبل المجرمين، وأحوال المنافقين، وحمايتهم من وسائل الفجور، ومنع تدريبهم خارج البلاد لدى منظومات فاسدة فاجرة تحاول تجنيدهم واختراقهم، وإفساد دينهم وولائهم! وحماية كرامتهم وحقوقهم، وتوفير سبل العيش الكريم لهم.. بما لا يسمح لعدو أن يستغل حاجتهم ليُحدث اختراقاً في هذه المنظومة، ولا تستخدم المنظومة الأمنية وسائل خسيسة في عملها، فلا تعتمد الاستغلال الجنسي أو الفضائح الأخلاقية، أو التعذيب الوحشي، أو سحق الكرامة، أو استغلال النفوذ... إلخ مما هو معهود في الأنظمة المجرمة الشيطانية!

ولذا فالنظام الإسلامي لا يُطلق يد الأجهزة الأمنية هكذا بلا رقيب ولا حسيب، بل يراقب عملها بشكل عام، ويستمع ويحقق في كل شكوى، حتى تبقى منظومة العدالة تحمي منظومة الأمن من الانحراف، ومنظومة الأمن تحمي منظومة العدالة من الأخطار.

كما أن تمسك المنظومة الأمنية بالأخلاق الربانية لا يجعلها ضعيفة ساذجة، بل قوة في إيمان، ويقظة في أخلاق، وانتصار في عدالة.

والمنظومة الأمنية إما أن تمضي في تصوراتها المادية العلمانية، فتنقلب توحشاً ورعباً واستعباداً للناس.. وإما أن تمضي في تصوراتها الرسالية الربانية، فتكون أمناً وسلاماً ورحمة وعدلاً.

ولا تحقق المنظومة الأمنية بمفهومها الرباني إلا بأن يتحقق الإيمان ـ بلا ظلم ـ فلا أمن بلا إيمان، ولا سلام إلا بنور الله.(1)

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15-16]

***

(1) انظر كتاب: "السلام العالمي والإسلام".

26- الاستضعاف المُقاوم، والاستضعاف المُذل

تَحدثت آيات القرآن الكريم عن حالة "الاستضعاف" التي تصيب المجتمع عندما يتسلط عليه الطغيان والظلم، وضربت مثلاً بقصة فرعون.. ورغم أن كلمة "الاستضعاف" بشكل عام تُوحي بالإشفاق والتعاطف، إلا أن القرآن الكريم - وهو يُربي الأمة المسلمة - حذر منها أشد التحذير، وساق الآيات الطوال التي تُبين حال ومصير هؤلاء الذين استسلموا ورضوا وتابعوا وباركوا الطغيان والظلم والكفر والعدوان، وجعل مصيرهم في الآخرة مع سادتهم وفراعينهم، فقال تعالى:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ. وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ **تَبَعًا** فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: 46-48]

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ **تَبَعًا** فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: 21]

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ **اتَّبَعُوا** لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 166-167]

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا **سَادَتَنَا** وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 66-68]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ **اسْتُضْعِفُوا** لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 31-33]

لقد كانت "**تبعية**" الضعفاء للمستكبرين، والمضي ورائهم كالقطيع التائه، جعلتهم "**شركاء**" في كل جرائم المستكبرين، رغم أن هؤلاء الضعفاء كثير منهم لا ينال حظه من الدنيا! بل يكونون مجرد خدم للمستكبرين ومنفذين لجرائمهم! وجزاؤهم النار لم يكن بسبب ضعفهم المجرد، بل بسبب "**تبعيتهم وطاعتهم**" للمستكبرين، والظالمين.. فقد كانوا ظهيراً ورداءً للمجرمين.

وهذا الدرس ـ وهذه الآيات ـ من أهم الدروس التي يجب على الأمة المسلمة أن تنتبه إليها، وتتيقظ لخطورتها، وتتلوها بتدبر صباح مساء، فالضعفاء المُتابِعين للمستكبرين يخسرون كل شيء.. الدنيا، والآخرة، ولا خيار أمامهم للفلاح في الدنيا والفوز في الآخرة إلا بمقاومة الاستضعاف، فضريبة الاستضعاف والذل هي أغلى ضريبة في الوجود.. ضريبة تُضيع كل شيء، ولا تُبقي للإنسان شيئاً! وضريبة الجهاد والعزة هي أقل ضريبة يمكن أن يدفعها المسلم لينال بها سعادة الدارين، فيعيش عزيزاً بدينه، ويموت شهيداً لربه.

قال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا. الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 75-76]

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا. إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: 97-99]

هذا الاستضعاف المُقاوِم: الذي يرفض الظلم والاستكبار والبغي والعدوان، ويرجو من الله النصرة والخلاص، والجهاد من أجل التخلص من حكم الطغيان.

الاستضعاف الذي يستفرغ وسعه وجهده، حتى وإن حُوصر من كل اتجاه فلا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا.. حتى وإن وصل إلى هذه المرحلة فإنه لا يُسلم أبداً للطغيان، ولا يُتابع المستكبرين، ولا يرضى بأفعالهم(1)، ويظل يجاهد ـ بقلبه ـ ومتحفز للحظة الخلاص.

فهذه التفرقة بين الاستضعاف المُذل والمقاوم غاية في الجدية والأهمية.. فالفرق فيها فرق بين عذاب الله وعفوه، بين ناره وجنته.

وحركات التغيير تتحرك في واقع من الاستضعاف ـ بكل أشكاله ـ وحتى تحافظ أي حركة على شرعيتها، يجب أن تكون في حالة من المقاومة للاستضعاف؛ حتى ينصرها الله،

(1) جاء في الأثر: "إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا، وَقَالَ: مَرَّةً أَنْكَرَهَا كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا" [سنن أبي داود/ 4345، والسنن الكبرى للبيهقي]

وخروج حركة التغيير من حالة "المقاومة" للاستضعاف، فإنها حتماً ستدخل في حالة "الاستضعاف المُذل" وبذلك تكون فقدت شرعيتها، وفقدت قيمتها ابتداء؛ لأن حالة الاستضعاف المُذل حالة مذمومة قرآنياً وحضارياً، وستصبح الحركة جزءاً من الواقع التي قامت من أجل تغييره، بل سيكون لها دور سلبي في شرعنته وتبريره، وستُخذِل الأمة عن جهاده ومقاومته.. فكل حركة تغيير تجاهد جهاداً دائماً حتى تقاوم الاستضعاف، وتكسب أدوات القوة، حتى تنتقل إلى مرحلة التدافع، ومن ثم التمكين، والانتقال من الحركة إلى الدولة ذات السيادة.[1]

وارتباط الحركة بالشعب له حدود من تضحية الشعب، وعلى قدر قوتك وعدالة قضيتك يحترمك شعبك ويهابك عدوك ولا يستخف بك، والحق الضعيف لا يتبناه أحد.

ومن معالم الاستضعاف المُقاوِم: (الاستعانة بالله، والصبر).. حيث ارتباط القلوب بالله ـ لا بالطغاة ـ وحسن التوكل عليه، وجميل الظن به، واستفراغ الوسع والطاقة، والعمل بإيجابية ربانية مهما كانت الظروف، والاستمرارية في التدافع، وشعور نعمة الله وامتنانه.. والصبر على كل بلاء، وعدم الجزع، والامتناع عن متابعة الظالمين، ولا الرضى بأفعالهم، ولا مشاركتهم إياها.

ومن معالم الاستضعاف المُذِل: الافتتان بقوة الطغاة، والخضوع إليهم، والرضى والمتابعة على أفعالهم، والاستجابة والتمادي في مكر الليل والنهار الذي يحيكه المستكبرون، وربما يتبرع بعض المستضعفين لتبرير جرائم الطغاة، والتماس الأعذار لهم مجاناً، وخدمتهم بحماسة وتطوع، وربما ذلك بسبب شعور التماهي مع المستكبرين ورؤيتهم كقدوة ومثال.. ويتحول المستضعَفون بمرور الوقت إلى فاسقين، ينافسون الطغاة في فُجورهم وجرمهم..

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "مراحل الواقع الإسلامي".

والفارق الوحيد بينهم أنهم لم يتمكنوا بعد من القوة التي تؤهلهم لأن يكونوا طغاة، وعندما تأتيهم الفرصة سيكونون في حالة تامة من الفجور والطغيان.

ولذا كان مصير الذين استُضعِفوا ـ على هذا النحو ـ والذين استكبروا مصير واحد في الآخرة.. النار والعياذ بالله.

***

كما يجب على أهل الاستضعاف المُقاوِم الانتباه لحالة "**الغرور بالقوة**" عند امتلاكها، حيث تظل القوة ـ والتمكين والاستخلاف ـ هي حلم المستضعفين الذين يتوقون للخلاص من الذل والمهانة والاستعباد والفساد وسفك الدماء، يريدون أن تشفى صدورهم بهلاك الطغاة، وانتصار الحق وأهله، وهذا شعور إنساني طبيعي، يُظهر المقاومة للاستضعاف، وهذا هو الفعل الصائب الذي ينجو بصاحبه من أن يتحول إلى صورة "الاستضعاف المُذل" الذي يستسلم ويبارك ويؤيد ويتابع الطغيان.. وحتى يأخذ "الاستضعاف المقاوم" صفته الربانية يجب أن يكون "**في سبيل الله**"..

يظل الحلم بالقوة والتمكين في نفوس الأحرار التي لا تقبل الضيم، ولا ترضى بالذل، وتظل تقاوم، وتقدم التضحيات تلو التضحيات، حتى إنه قد يستبد بها هذا الشعور، حتى تظن أن الوصول للقوة والتمكين هو "نهاية الرحلة" وانتهاء المعاناة، والوصول إلى القمة، ومنتهى الغايات!

ولكن الأمر ليس كذلك ـ والطبيعة الإنسانية تكشف عن صور أخرى ـ إنه في حالة الاستضعاف المقاوم، ومحاولة الخلاص من الطغيان.. يظن المستضعفون أنهم حينما تأتيهم الفرصة سيكونون أفضل وأعدل الناس، وسيردون الحقوق كلها إلى أصحابها، وهو شعور حقيقي في هذه المرحلة..

ولكن عند امتلاك القوة، والانتصار على الطغيان.. يدخل المستضعَفون في مرحلة جديدة هي "اختبار وفتنة" مثل اختبار "الاستضعاف" وأشد.. هي مرحلة "الاستغناء بالقوة" ثم "الطغيان بها"، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: 6-7] وقال موسى لقومه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129] ولقد رأينا كيف كان استخلاف يهود بعد الذلة والفرعونية التي كانت عليهم!

والصبر في مرحلة الاستضعاف المقاوم.. أخف من الصبر في مرحلة القوة والانتصار.. هذه طبيعة الإنسانية! وحتى تأخذ القوة صفتها الربانية لا بد من أن تكون "**في سبيل الله**"، وإلا تحولت إلى طغيان وإفساد! ففي كل مراحل الحالة السياسية الاجتماعية للأمة المسلمة - سواء أكانت الاستضعاف أو التدافع أو التمكين - هناك **جهاد وعمل وكَبد وبلاء وفتنة..** وفي كل الأحوال يجب أن يكون هناك: **إخلاص وتجرد وزهد** ليكون العمل كله - في أي صورة من صوره - "**في سبيل الله**". قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35] ، وما يُقال في الحالة السياسية الاجتماعية، هو نفسه في الحالة الفردية الإنسانية.

ومن ثم.. يجب أن تربي جماعات التغيير كوادرها - وأبناء الأمة المسلمة - على العصمة من "**الاستسلام المذل**" للطغيان، وعلى العصمة من "**الطغيان والاستغناء**" عند امتلاك القوة وحصول التمكين.. **فالأولى**: ضرورة للنجاة والحرية والكرامة. **والثانية**: ضرورة للنجاة والفلاح والراشد، ويجب عدم الغفلة عن هذه الثانية - تحديداً - حيث لا يتصور المستضعفون أنفسهم طغاة ومفسدين إذا تمكنوا! ولكن الحقيقة التاريخية والإنسانية تقول: إن الجميع مُعرض لأن يكون طاغية وجباراً ومفسداً وعنيداً، ما لم يكن هناك تربية ربانية، وهداية بنور الوحي، وإخلاص لله جل جلاله.

***

27- لا حكم دون قوة

في بيعة العقبة بايع الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حمايته بما يحمون به أنفسهم وأموالهم.. أي: توفير القوة اللازمة لحمايته من عدوان قريش، وعدوان الأحزاب، فجاء في هذه البيعة: "عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بعكَاظٍ وَمَجَنَّةَ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: "**مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ**" حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ كَذَا قَالَ: فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ، لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ، وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ، فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا، فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعًا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟

فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا، حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، حَتَّى تَوَافَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: "**تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ، لَا تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي، فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ** "،

قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ، فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ، أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه

وَسَلم ـ وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنَّ تَعَضَّكُمْ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً، فَبَيِّنُوا ذَلِكَ، فَهُوَ عُذْرٌ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، قَالُوا: أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ، فَوَاللَّهِ لَا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا، وَلَا نَسْلُبُهَا أَبَدًا، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ"(1)

فرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رغم أنه مؤيد بالوحي، وأحب خلق الله إلى الله، وخاتم رسل الله.. عليه الصلاة والسلام، كأن يأخذ بالأسباب، وأهمها ـ في حماية الدعوة إلى الله بعد الهجرة ـ هو "القوة والمنعة".. فلم يغفل ـ وحاشاه عليه السلام ـ عن رد فعل الشرك والكفر والجاهلية تجاه دعوته حتى بعد هجرته إلى المدينة..

كان يعلم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن قوى الشرك والكفر والجاهلية ستحاربه بكل ما أوتيت من قوة، ومن ثم فقبل أن يهاجر ـ عليه السلام ـ يأخذ البيعة من الأنصار على سواء، وعلى وضوح، ولم يعدهم بشيء من متاع الدنيا، بل جنة عرضها السموات والأرض.

بل إن أصغرهم سناً كان يدرك معنى البيعة، ومعنى الإسلام، وطبيعة المواجهة، وأوضحها لقومه غاية الوضوح: "وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنَّ تَعَضَّكُمْ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً، فَبَيِّنُوا ذَلِكَ، فَهُوَ عُذْرٌ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ"

وقد كان الصدام والحروب والغزوات طوال فترة الحكم النبوي، وحكم الصديق الراشد، حتى خلصت الجزيرة العربية من قوى الشرك، ثم الانطلاقة العالمية في عهد الفاروق.. رضي الله عن الجميع.

(1) [مسند الإمام أحمد/ 14047]

ورغم بداهة هذا التصور من الناحية الإسلامية، ومن الناحية العقلية المنطقية.. إلا إنه عند كثير من المفكرين المسلمين والعاملين في الحقل السياسي غير ذلك! بسبب:

- دخول بعض التصورات العلمانية، واختراقها لفكر هذه القيادات الثقافية والفكرية والسياسية.

- إيثار السلامة، والتمني والتوهم بالوصول إلى الحكم - دون قوة - عبر صناديق الاقتراع المجردة عن القوة والمنعة.

- تحوّل الوسائل إلى أيديولوجيات يكون على أساسها الانتماء، والولاء والبراء.

- الخوف الهستيري من الصدام مع الأنظمة الباغية الفاسدة.

- التجارب الفاشلة فكرياً وحركياً.

- الخوف على المصالح المادية لدى البعض، وصورتهم أمام المجتمع الدولي!

- الإيمان المطلق - الذي لا شك فيه - بقدرة الديمقراطية على حماية المكتسبات والشرعية السياسية!

- حسن الظن بالغرب والنظام الدولي أنه سيحمي الشرعية الديمقراطية!

إنهم يظنون أنهم إذا نجحوا من خلال آليات حكم الأنظمة الباغية أو من خلال ثورة سلمية مجردة[1]، فإنهم قادرون على تحقيق مشروعهم في الإصلاح، وفي تمكين الإسلام وشريعته، وفي تحقيق دولة الرفاه التي تعد بها المواطنين! ثم ما يلبثوا أن يصلوا إلى سدة الحكم أو إلى بعض الوزارات، وهم ينجحون باكتساح - نظراً لثقة الناس بهم، وحبهم لهم، ولقاعدتهم الشعبية الممتدة والقوية - وما أن يصلوا بهذه الصورة، وهذه الآليات..

(1) انظر - إن شئت - مقال: "معالم في الثورة".

وما هي إلا شهور قليلة ـ وهم مشغلون بالإصلاح والتنمية! ـ إلا وهم مُعلّقون على أعواد المشانق، أو في غياهب المعتقلات في الحبس الانفرادي لعشرات السنين تدميراً لبنيتهم النفسية والبدنية؛ لقتلهم بصورة تدريجية بطيئة! وتدمير أسرهم، وسرقة أموالهم، وتشويه سمعتهم!

لماذا؟!

ـ لأنه ـ طوال التاريخ الإنساني ـ لم يكن هناك حكماً وسيادة دون قوة تحميه، وتزود عنه، وتُأمنه من غدر الغادرين، وخيانة الظالمين، وعدوان المعتدين، وطمع الفاسدين.

ـ ولأن الأنظمة الباغية الحاكمة في بلادنا، هي في جوهرها أنظمة عسكرية ـ تابعة للمحتل الغربي أو تحت هيمنته ـ هدفها الحيلولة دون تحرير الأمة من الهيمنة الغربية، ومنعها من العودة إلى كتاب ربها لينقذها من التيه والتخلف والتبعية والاستبداد والأَسر. فهي ليست قوة سياسية سلمية مقابل قوة سياسية سلمية، بل قوة عسكرية غاشمة فاسدة عميلة مقابل قوة سياسية سلمية ضعيفة متجردة من كل مظاهر القوة القتالية!

ـ وإنَّ تحرير هذه الأمة ـ في أي مكان من عالمنا الإسلامي ـ يعني فيما يعني تغير النظام الدولي، وانقلاب في المصالح السياسية والاقتصادية للدول العظمى، ومن ثم فهي حرب كبرى.[1]

ـ وإنَّ العدو يقظ، وهو يستمر في العلو في الأرض بهذه اليقظة والحذر وتحشيد القوى المختلفة، والمسلمون أولى بهذه اليقظة، وهذه الجهوزية، وإعداد العدة لها.

ـ وإنَّ أغلبية الجيوش ـ في عالمنا الإسلامي ـ تحت الهيمنة الكاملة من العدو الغربي المحتل، من حيث العقيدة القتالية، والتسليح، والتمويل، والتدريب، وترى في أنفسها

(1) انظر مقال: "ميلاد الثورات العربية".

حامية البلاد والأسياد على العباد، وهي جاهزة للانقلاب في أي لحظة عندما تأتيها الإشارة، وهي تنظر بإزدراء لهؤلاء السياسيين الضعفاء، وتحسس سلاحها بانتظار اللحظة التي ستغتالهم فيها.

والمحتل الغربي جاهز أيضاً - في حال فشل وكيله المحلي - لتنصيب من يريد باسم حماية الديمقراطية، ومحاربة الإرهاب. فالغرب والمجتمع الدولي لا يحمي "الديمقراطية المجردة!" إنما يحمي الديمقراطية التي تُمثل: هيمنته، ومصالحه، وتحمي العلمانية.. الديمقراطية التي تأتي برجاله، وتضمن ضعف وتبعية الأمة، وسرقة مقدراتها وثرواتها، وتُبعدها عن كتاب ربها.

- ثم بعد الاغتيال يأتي دور "غسيل السمعة" وهو أمر بسيط، يتمثل في: العهر القضائي والإعلامي، وتمويل أصحاب المال.. فالقضاء سيحكم عليهم بالخيانة وقلب نظام الحكم، والإعلام سيتولى تشويه سمعتهم ورميهم بكل رذيلة ونقيصة، والتمويل في ذلك مفتوح على مصراعيه. وأما رجال عصابات المافيا، فهم حماة الأوطان، ورجاله الأوفياء الأمناء، بل هم كذلك حماة الدين والشهداء في سبيل الوطن!

وإنَّ الغفلة لحظة عن هذا الواقع السياسي، ثم محاولة إصلاحه (بهذه الغفلة) يساوي **الانتحار** بلا هدف، ولا غاية. وتخسر الأمة من خيرة أبنائها ورجالها، ويضيع من أعمارها وأموالها وفرصها الكثير والكثير ثم لا تستفيد شيئاً، فلا هي تخلصت من الأَسر والاستبداد وحكم عصابات المافيا، ولا هي حققت التنمية والرفاه، ولا هي حتى تمكنت من حماية أنفسها وأعراضها وأموالها.

***

إذن.. هناك مواجهة حتمية - لا مفر منها أبداً - مع القوى الباغية الظالمة المفسدة في الأرض، هذه حقيقة بديهية يجب أن تكون **أول سطر في وعي السياسي المسلم**، ودوره يأتي ليس في الهرب منها، ولا تخيل أماني وأوهام لا وجود لها، بل دوره في كيفية

مواجهة هذه القوى، ورسم خريطتها بدقة، وإعداد العدة لها، وكيفية تحييد المغلوب على أمرهم فيها، وكيفية تحويلها من قوة مفسدة في الأرض محاربة لله ورسوله ودينه وأمته إلى قوى مصلحة تكون درعاً للأمة، وذلك بعد التخلص من أئمة النفاق والخيانة فيها.(1)

هذا هو **أول هدف** للسياسي المسلم، قبل الحديث عن الإصلاح، والتنمية، والاستقرار، والاقتصاد، والبطالة، والصحة، والتعليم، والبنى التحتية... إلخ، حيث لا يمكن إنجاز هدف واحد منها مهما كان صغيراً تافهاً دون منظومة أمنية تحمي "رجال الحكم" وتأتمر بأمرهم، وتفديهم بدمائها وأرواحها..

ويكون قادة منظومة القوة الأمنية هذه من أخلص الرجال، ومن الذي تربوا في محاضن الإسلام، والرجال الخُلص لرسالته وشريعته؛ حتى يكونوا القيادة الراشدة لرجال الأمن والحماية..

وغياب هذا الوعي يجعلنا أمام مجموعة من الجهلاء السفهاء المنتحرين (مهما كانوا طيبين) الذين يفجرون أنفسهم ـ بفكرهم المنحرف ـ في الأمة، دون غاية ولا هدف، ويذهبون ضحايا من أجل لا شيء، وتذهب الأمة معهم إلى الهاوية.

ومن جانب آخر: إنَّ الوصول إلى هذا الهدف لا يكون بالجلوس بانتظار من يأتينا بـ "القوة والمنعة" ـ أو الطمع في دعم أئمة النفاق! ـ حيث هذا أيضاً ضد السنن الإلهية، وقتل للفعالية السياسية، وانتظار للسراب والوهم.. إنما الوصول للأهداف يكون:

بالمحاولة الواقعية، واستفراغ الوسع، وحسن التوكل على الله، والأخذ بالأسباب المتاحة، دون تواكل أو توهم أو تأجيل.

(1) انظر بحث: "الفئة الباغية".

إنَّ الإبصار بنور كتاب الله ـ جل جلاله ـ والسير على هدي السيرة العطرة لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتجرد التام لله رب العالمين، وإخلاص الدين كله لله، لكفيل ـ بإذن الله ـ أن يُبصّرنا الطريق، ويهدينا سبيل الرشاد.

***

28- السُلطة والثروة "الذئبان الجائعان"

في مثال "**السلطة**" ضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ مثلاً بفرعون، الذي قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: 38-42] وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24].

وفي مثال "**الثروة**" ضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ مثلاً بقارون، الذي قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 78-79]

هؤلاء هم المستكبرون في الأرض بغير الحق: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ. فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 39-40]

فعندما يطغى الإنسان بـ "السلطة والثروة" تتحول هذه القوة، وهذه النعمة إلى: العلو في الأرض بالسلطة، والإفساد فيها بالثروة.. وقد جعل الله الدار الآخرة للمتقين: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]

إنَّ الإنسان بغير الهدى الرباني هو "مشروع للطغيان" عندما تحين الفرصة.. بل الإنسانية كلها بغير نور الله في طغيان، وكل طغيان يؤدي إلى الإفساد في الأرض، كما قال تعالى:

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: 5-7]

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: 10-12]

فالسلطة والثروة قوى خطيرة جداً، وشهوة عارمة جامحة تتملّك الإنسان، وتأخذ بتلابيبه، وعقله، وفكره، وشعوره، وهي أصعب اختبار يواجه أي إنسان، ولا ينجح فيه إلا أولياء الله المتقين، المتبعين نوره وهديه، السارين على سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم.

إنَّ من أهم الدروس السياسية التي يجب أن يتعلمها أبناء الأمة المسلمة، هو كيفية مواجهة "**وحش شهوة السلطة**" و"**وحش شهوة الثروة**" إن العجز في مواجهة هذين الوحشين قد يفترسان دين المرء وأخلاقه، ودنياه وأخراه! ولهذا كان درس "ترويض" هذه الوحوش، والسيطرة عليها، والتجرد لله ـ سبحانه وتعالى ـ من أهم معالم الرشد السياسي الرباني.

لقد كانت سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السياسية تُمثل هذا التجرد الكلي، والرحمة التامة، والتواضع الجم، والزهد الحقيقي.. فكانت سلطة رسول الله ـ صلى الله

عليه وسلم ـ السياسية (سلطة الرحمة، والعدل، والسماحة، والتواضع، والسهولة، والقرب)، وأما الثروة فقد أنفقها كلها في سبيل الله!

وسار الراشدون من بعده على نفس سُنته ـ صلى الله عليه وسلم ـ السياسية، فلم يأخذ المنصب السياسي "السلطة" منهم شيئاً، بل سيطروا على اندفاع السلطة، ونهمها، فقد كانت أعينهم على سيرة مُعلمهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أما الثروة، فلم يعتبروا لأنفسهم أي حق فيها، سوى ما لمثل عوام المسلمين. فلم يقع منهم الطغيان ـ وحاشاهم ـ فكانوا هم "الخلفاء الراشدين".

وما أن انحرفت الأمة عن **"السُنة السياسية النبوية"** ـ وبدأت عهود الملك العضوض ـ وجدنا انطلاق وحشي السلطة والثروة؛ يفتك في الأمة، ويُحرّفها عن سيرة قائدها ومعلمها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويخالف سيرة الراشدين من بعده!

والملك العضوض يعني: إنه عندما يتعارض دين الله وشهوات الملك ورغائب السلطة.. فإن الملوك يقدمون شهوات الملك على دين الله دون أدنى تردد.

وإنهم يرحبون من الدين ما يقر شرعيتهم أو يُبرر استبدادهم أو يكون رابطة يَسكن بها المجتمع، أو يكون شأناً فردياً لا يمس جانب الحكم وسياسة المال والدولة بشكل عام. ولا يتدخل ولا يَحكم قراراتهم. ولذا؛ كان هذا الملك العضوض نقضاً لعرى الإسلام.

وقد حَذر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذين الوحشين، فَمَثَّلَهما ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالذئبين الجائعين، الذين يُفسدان دين المرء، فجاء في الحديث النبوي الشريف: **«مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ أَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ، وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»**[1] وفي رواية: **«مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ ضَارِيَانِ فِي غَنَمٍ وَقَدْ أَغْفَلَهَا رُعَاؤُهَا وَتَخَلَّفُوا عَنْهَا أَحَدُهُمَا**

(1) [«مسند أحمد» (25/ 62 ط الرسالة)]

فِي أُولَاهَا وَالْآخَرُ فِي أُخْرَاهَا بِأَسْرَعَ فَسَادًا مِنْ طَلَبِ الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي دِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ»[1]

أي: ما أسرع إفساداً لدين المرء من حرصه ـ كالذئب الجائع ـ على طلب المال والسلطة والعلو.

وهو تصوير فيه إحاطة ذئبين جائعين أحدهما في أول الغنم، والثاني في آخرها.. وقد غفل عنها صاحبها، فإذا بالذئبين يفتكان بالغنم.. وإحاطة ذئب "السلطة"، وذئب "الثروة والمال" بالإنسان، وهو في غفلة وتجبر وغرور؛ فإنهما يفترسان دينه ويُضيعان آخرته.

«قال الطيبي: "المراد من الحديث أن الحرص على المال والشرف (وهو الجاه والمنصب) أكثر إفساداً للدِّين من إفساد الذئبين للغنم، لأن ذلك الأشر والبطر يستفز صاحبه ويأخذ به إلى ما يضره، وذلك مذموم لاستدعائه العلو في الأرض والفساد المذمومين شرعاً.»[2]

ويقول الحافظ ابن رجب رحمه الله: «واعلم أن حب الشرف بالحرص على نفوذ الأمر والنهي وتدبير أمر الناس، إذا قصد بذلك مجرد علو المنزلة على الخلق والتعاظم عليهم، وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس وافتقارهم إليه وذلهم في طلب حوائجهم منه، فهذا نفسه **مزاحمة لربوبية الله وألهيته!** وربما تسبب بعض هؤلاء إلى إيقاع الناس في أمر يحتاجون فيه إليه؛ ليضطرهم بذلك إلى رفع حاجاتهم إليه، وظهور افتقارهم واحتياجهم إليه؛ ويتعاظم بذلك، ويتكبر به، وهذا لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له»[3]

(1) [«الزهد لهناد بن السري» (2/ 426)]

(2) [«مسند أحمد» (25/ 62 ط الرسالة) هامش تعليق المُحقق]

(3) [شرح حديث "ما ذئبان جائعان"، للحافظ ابن رجب الحنبلي ـ رحمه الله ـ مجموعة "الرسائل المنيرية" ج3، ص6]

ولذا؛ من يحرص على السلطة ـ حرص الذئب الجائع ـ لينتفع من المنصب (من جاه أو مال) فالأمة لا تُوليه هذا المنصب: عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: "دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ـ صلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللَّهُ ـ جَل جَلاله ـ وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ: فَقَالَ: **إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ**"(1)

ومن جانب آخر: فهذا الزهد في السلطة لا يعني ترك الساحة ليتسلط عليها أئمة الفسق والنفاق ـ والعياذ بالله ـ إنما يعني الزهد في منافع السلطة، وفي الجاه والمال.. وليس الزهد في خدمة الإسلام والمسلمين، يقول العلاّمة الجويني إمام الحرمين: «إن الذي تفرّد بالاستحقاق [يعني بمنصب الإمامة] يجب عليه أن يتعرض للدعاء إلى نفسه، والتسبب إلى تحصيل الطاعة، والانتهاض لمنصب الإمامة، فإن لم يعدم من يُطيعه، وآثَرَ التقاعد، والاستخلاء لعبادة الله عز وجل، مع علمه بأنه لا يسدُ أحد مسدّه ـ كان ذلك عندي من أكبر الكبائر، وأعظم الجرائر، وإن ظن ظان أن انصرافه وانحرافه سلامة، كان ما حسبه باطلاً قطعاً، والقيام بهذا الخطب العظيم إذا كان في الناس كفاة في حكم فرض الكفاية، فإذا استقل به واحد، سقط الفرض عن الباقين. وإذا توحّد من يصلح له صار القيام به فرض عين»(2)

***

إنَّ كل سياسة بغير نور الوحي، وهدي النبوة هي "طغيان" لا شك، و"إفساد" لا محالة..

وطريق الراشدين كانت معالمه:

---

(1) [صحيح مسلم/ 1826]

(2) [«غياث الأمم في التياث الظلم، لأبي المعالي الجويني» (ص323)]

ـ السير على ضوء الهدي النبوي في التواضع والتجرد الكلي لله رب العالمين، والزهد في التمتع ببريق السلطة، وهيبة المنصب، وتملق الحاشية.. والزهد في الانتفاع بثروة المسلمين، وبذلها لهم بالكلية.

ـ امتلاء قلوبهم بحب الله ـ جل جلاله ـ وانشغال عقولهم باليوم الآخر؛ فلا يجعل شهوة السلطة تجري في دمائهم؛ فتُفسد عليهم دنياهم وأخراهم.

ـ إطلاق حرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يخشون في الله لومة لائم، وإطلاق آليات الرقابة والمحاسبة.

ـ اعتبار السلطة والثروة أمانة ـ لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ـ تُؤدى حقوقها للأمة بمقتضى الرحمة والعدل، والإخلاص والتجرد.

ـ اعتبار أنفسهم مجرد عُمال وأجراء عند الأمة، لا يملكون شيئاً، ولا يستعبدون الأمة، ولا يُورثونها ـ برجالها ونسائها وأطفالها وثرواتها ـ لأبنائهم كما تُورث الماشية والبهائم.

ـ انشغالهم بإعلاء كلمة الله، وتبليغ رسالته، وتهيئة الأمة لحمل هذه الأمانة، وتعبيد الطريق لها.

ـ الاعتدال والاتزان النفسي الذي يُحققه الإيمان الحق بالله، فلا يجعل قلوبهم وعقولهم أسيرة لشهوة السلطة أو عبدة لشهوة المال والثروة.

ـ ورعهم الشديد من السقوط في وحل "الكِبْر" الذي لا يدخل صاحبه الجنة، فلا يردون الحق، ولا يحتقرون الناس.

ـ حفظ الأمانة، فلا يستأثرون بشيء من السلطة أو الثروة لأنفسهم أو لأبنائهم أو لجماعتهم أو لعشيرتهم دون باقي المسلمين.

ـ ومع تواضعهم، وزهدهم، وورعهم.. يحافظون على تماسك الأمة، وعلى القيام بالحق بعزيمة وجد وإصرار، وعلى مقاومة الباطل بحزم وبأس وقوة، ويحافظون على أمانة المنصب (السلطة)، وعلى ثروات المسلمين، فهم على تواضعهم ليسوا مغفلين، ولا يستخف بهم أحد، ولا يخدعهم أحد.

ـ وجود "حساسية التقوى" في قلوبهم؛ تدفعهم لمحاسبة أنفسهم، ولومها على تقصيرها.. فتظل في حالة من "الرقابة الذاتية"، وإطلاق حرية "الرقابة الخارجية"؛ ضمانة لاستمرارية حالة التقوى والرحمة والعدل.

ـ قطع الطريق على الطغاة والمفسدين، ومحاربتهم من كل طريق، حتى لا تنبت نبتة خبيثة تقفز على السلطة، وتحتكر الثروة؛ فتذل المسلمين، وتفتك بوحدتهم، وتُسلّمهم لأعدائهم.

ـ طرد المنافقين، ومنعهم من السيطرة على قرارات المسلمين السياسية أو توجيههم، وقلب المؤمن المتصل بالله، لديه حاسة قلبية في معرفة طبيعة وأحوال المنافقين.

ـ تلاوة القرآن تلاوة من يلوذ به، ويسترشد بنوره، ويتبع مقاصده، ويقيم شريعته. فهذه هي "الربانية" التي تمنع ربوبية البشر على البشر: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79]

هذا "الجهاد الكبير" هو الذي يضمن ـ بإذن الله ـ الحماية من إدمان السلطة الإدمان القاتل، وعبادة المال عبادة من جعله إلهاً من دون الله.. هو الذي يضمن ألا يفترس وحش السلطة والثروة إنسانية الإنسان، ودينه، وأخلاقه، ودنياه وأخراه..

والعصمة ـ بنور الله وفضله ـ من فتنة الملك والسلطان، إنما تأتي من خلال:

ـ التربية السياسية الراشدة، التي تهدف إلى: تحقيق الإخلاص والتجرد لله سبحانه وتعالى، وإلى تحقيق الأمانة في قلوب المؤمنين، وإلى القوة في الحق، والقيام به. وهذه من الرقابة الداخلية من الإنسان على نفسه، من داخل ضميره، ومؤهلاته للقيادة.

ـ والرقابة الخارجية، التي تهدف إلى: تحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفاعلية الأمة ومشاركتها، وحماية القادة من فتنة المنصب والجاه، ومن المتربصين الذي يحاولون الالتفاف على القيادة ويكونون لها بطانة سوء. فلا يُترك أمر الأمة لضمير الحاكم وحده، الذي قد يضعف أمام رغبات الملك، أو يغفل في لحظات عن كيد المتربصين ومكرهم.

وكل تصور إسلامي صحيح هو "الصراط المستقيم" الذي يشير في بعض معالمه إلى "الاعتدال والاتزان والتماسك والفطرة السوية" فالتربية السياسية النبوية، وسنة الراشدين تجعل المسلم ـ القائد ـ في حالة من الزهد التام، والتجرد الكلي لله رب العالمين، وقلبه معلق بالآخرة كأنه لا يملك أي شيء في هذه الدنيا، وفي نفس الوقت، وعلى الجانب الآخر من النفس الإنسانية: ليس هو بمغفل ولا أرعن ولا سفيه بل هو يقظٌ حذر قوي حكيم منطلق يصلح الحياة والخلافة فيها بمنهج الله. وكلما يزداد قوة.. يتجرد لله، وكلما يتوسع السلطان، يتسع قلبه لذكر الله، والتمهيد للدار الآخرة. مستحضراً في كل حين حال الظالمين في الآخرة: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: 28-29]

إذن فهو درس عظيم، وتربية طويلة، يجب توسيع النظر فيها، ووضع الآليات والأدوات في تعليم أبناء الأمة كيفية مواجهة هذه الشهوات، وكيفية اتباع **"السنة السياسية النبوية"**، وسنة الراشدين من بعده! ضمانة للرقابة الذاتية، التي لا تُغني عن وجود "الرقابة الخارجية" التي تحمي الإنسان من أن يَضعف، فيَطغى، ويَفسد، فيُفسد.

***

29- الحسد

لعل البعض يستغرب أن يكون موضوع "الحسد" من ضمن موضوعات الحديث عن "العقيدة السياسية"، ولكن القرآن الكريم يخبرنا بخطورة هذا "الداء" الذي يتلوى في كثير من القلوب الإنسانية.. يقول تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ لماذا يريدون للمسلمين الكفر ـ وقد عرف أهل الكتاب نور هذا الدين، وتبين لهم أنه الحق، وما منعهم عنه إلا الكبر والاستعلاء على الناس؟! والجواب: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: 109]

ويقول تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 54]

قضية كبرى تشكل على أساسها العالم كله.. وانقسم إلى العالم الإسلامي والعالم المسيحي، وكان من أسباب الامتناع عن الاستجابة لهذا الدين العظيم ـ المُصدق لما بين يديهم من الكتاب ـ الحسد.. وهو شعور البغض والنقمة على الآخر، وتمني التخلص منه، وأخذ ما عنده! يتحول هذا الشعور إلى "إرادة طاغية" تؤدي إلى استحلال ارتكاب كل الأعمال الإجرامية وتصل في آخر مراحلها إلى "القتل"! من أجل شفاء نيران الحسد! الذي يتحول إلى "حقد وبغض أعمى" يضرب في كل شيء! ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]

وقد كفر أبو جهل، وهو يعلم صدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حسداً على رسول الله وقبيلته! "قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: "إِنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ عَرَفْتُ فِيهِ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ أَنِّي كُنْتُ أَمْشِي مَعَ أَبِي جَهْلٍ بِمَكَّةَ، فَلَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم

ـ فَقَالَ لَهُ: "يَا أَبَا الْحَكَمِ، هَلُمَّ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ وَإِلَى كِتَابِهِ، أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ"، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا أَنْتَ بِمُنْتَهٍ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا، هَلْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ نَشْهَدَ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ؟ فَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ، قَالَ: فَانْصَرَفَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: **وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ مَا يَقُولُ حَقٌّ** وَلَكِنْ بَنِي قُصَيٍّ قَالُوا: فِينَا الْحِجَابَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِينَا الْقِرَى، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِينَا النَّدْوَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِينَا السِّقَايَةُ، فَقُلْنَا نَعَمْ، ثُمَّ أَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا، حَتَّى إِذَا تَحَاكَّتِ الرُّكَبُ قَالُوا: **مِنَّا نَبِيٌّ، وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ**"(1)

فانظر كيف يعمي الحسد والحقد الإنسان، ويطغى على قلبه، ويؤثر في قراراته المصيرية.. حتى يُورده المهالك!

وفي العمل السياسي ـ وغيره ـ يظهر داء الحسد والحرص والطمع، ويُستباح كل شيء من أجل إرواء نهمه المتعطش للزيادة أبداً! وفي الحديث الشريف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: "**لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مَلْئًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلَا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ، إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**"(2)

هذا والعمل السياسي مليء بالفتن، والمُغريات، والبهرجة، والزينة، والسلطة، والنفوذ، والمال، والعلاقات، وطواعية الجماهير، وكل ذلك مما يعمي الإنسان عن رسالته وأمانته، ويغلب عليه الظلم والجهل؛ فيتسرب إليه داء الحرص والطمع في المزيد، الذي يؤدي إلى الحسد والبغض لكل نِد أو مهدد لهذه الزينة الزائلة، والخوف المَرضي من أن ينسلخ منها بعدما أصبحت هي رداءه وكل شيء في حياته. بينما رداء المؤمن الحق هو آيات الله.

***

(1) [مصنف ابن أبي شيبة/ 36840]

(2) [صحيح البخاري/ 6438]

وعندما تتعدد جماعات التغيير، وتختلف برامجها، وأفكارها، وتتعارض مصالحها.. فقد يُحوّلها "الحسد" إلى التصارع فيما بينها ويود كثير منها لو يردون غيرهم إلى أعدائهم (للخلاص منهم والقضاء عليهم) حسداً من عندهم أنفسهم! وإذا وصلنا إلى هذه المرحلة فقد فقدت جماعات التغيير شرعيتها، وأهدافها، وانشغلت بأنفسها عن دينها وأمتها.

وربما تحالفت مع الأنظمة الباغية من أجل الخلاص من جماعات تغيير أخرى.. وهذا الفعل جريمة مركبة، وكبيرة من الكبائر.

وفي أهون الحالات يتسبب الحسد في القضاء على فريضة وأمانة "**الدفع بالأفضل**" من القيادات والكوادر.. ودفنهم، والقضاء عليهم؛ حتى لا يلتف الناس حولهم، ويحبونهم أكثر من قيادات أخرى! فيعمل الحسد على "**الدفع بالأسوأ**"! ولذا نجد لدى بعض جماعات التغيير منهجاً ربانياً عظيماً، وكوادر تشابه في تضحياتها أفعال الصحابة الكرام! ورغم هذا الخير العظيم ـ الذي يعرفه من يحتك بهذه الجماعات من الداخل ـ نجد أنه يتم تصدير الأسوأ، والأضعف، والأقل وعياً، وفهماً، وتضحية، وإخلاصاً!

ونجد البعض مستعداً للتضحية بالدين والأمة إذ لم يأتِ التغيير من خلاله هو، أو من خلاص جماعته، أو طائفته، أو حزبه! وهذا الفعل والشعور يعني أن صحابه ـ من الناحية النفسية والشعورية ـ لم يعد يعبد الله، إنما يعبد هواه!

ولهذا يجب أن تعي قيادات التغيير أهمية ترويض وحش "الحسد" في النفوس منذ نعومة الأظفار، وتأهيل الكوادر التي تسلم صدورها من الغل، والحسد والبغضاء التي تحلق الدين، كما جاء في الحديث الشريف: "**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ...**"[1]

---

(1) [جامع الترمذي/ 2510]

ومن ثم.. يدركون جيداً أن أمامهم تربية ربانية سياسية فريدة، لا نظير لها في السياسات العلمانية القائمة على الحقد الحزبي، والحسد السياسي.. وإنهم مختلفون قلباً وقالباً عن ذلك، فالإسلام عندما يجد من يحرص على الرياسة والإمارة.. يَحذر منه، ويُحذر منه، لأنها مسؤولية عظيمة ـ ليس فيها مغنم ـ وأمانة كبرى، أمانة هي التي تبحث عن أهلها، ورجال أثبتوا جدارتهم دون أجر أو جزاء، ولذا جاء في الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: "دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللَّهُ ـ جَل جَلاله ـ وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ: فَقَالَ: **إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ**"[1]

وذلك حتى لا يتحول المنصب السياسي ـ أو الديني أو الجماهيري ـ إلى "**مغنم مادي**" (بالاستحواذ على المال والمصالح المادية) ولا إلى "**مغنم معنوي**" (بتحصيل رغبة التسلط والرياسة على الناس، وشهوة مُتابعة الناس له، والفخر بها)!

وعلاج الحسد ـ بكل أشكاله وأنواعه ـ هو بحب الله، وذكره في القول والفعل، والشكر على نعمائه وأفضاله، والتواضع وحب الخير لكل الناس، والاهتداء بنور الكتاب، والتعلق بالله والدار الآخرة.. وانتظار الجزاء عند الله.

***

(1) [صحيح مسلم/ 1826]

30- الائتلاف القلبي

الائتلاف القلبي بين المسلمين "**فريضة اجتماعية**" من أهم الفرائض؛ حتى لا يكون البأس بين الأمة الواحدة، وحتى لا يتحول الخلاف إلى اقتتال بيني، سواء الاقتتال الفكري، أو الاقتتال السياسي، أو الاقتتال الحربي! هذا الائتلاف القلبي قائم على "**الإيمان بالله ورسوله واتباع كتابه، والانتساب للأمة المسلمة**"، ودون ذلك لا ضرورة لإدخاله في دائرة الائتلاف حتى تتسع الدائرة لجميع المسلمين، ويكونون كالجسد الواحد، والبنيان المرصوص.. ولذا جاء في الحديث الشريف: "**مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ**"[1] بحيث تتسع الدائرة لكل أهل القبلة..

وفي الحديث الشريف أيضاً: "**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْلَفُ، وَلا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ**"[2]

وإنَّ "ضياع الائتلاف القلبي" معناه تفكك البنيان المرصوص، وترهله، وتعرضه للانهيار، ومعناه معاناة الجسد الاجتماعي للأمة من أمراض مزمنة تعزل أجزاؤه بعضها عن بعض؛ وتُفسد جهازه المناعي..

وإنَّ "ضياع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحرية إبداء الرأي" تؤصل للاستبداد ولتفشي المنكر، وعدم التناهي عنه؛ ومن ثم الانحراف عن الصراط المستقيم. كما أن تبرير الخطأ يؤصل للظلم والعدوان.

---

(1) [صحيح البخاري/ 391]

(2) [المستدرك على الصحيحين/ (1: 23)]

وعند الاختلاف الأيديولوجي بين حركات التغيير، والفشل في إدارة الاختلافات البينية.. تقع حالة "التفشيل والتخذيل" من جانب، وحالة "التقديس والمبالغة" من جانب آخر، وهذا مسلك لا يُرضي أحد إلا الأعداء الذين يفرحون باختلاف القلوب، وبضياع الائتلاف القلبي بين المسلمين، وهو العاصم ـ بعد الله ـ من أن يكون البأس بينهم..

وحالة "التفشيل والتخذيل" من أشد الحالات التي تُسعد العدو؛ لأنها ستكون حالة قائمة على تصيد الأخطاء، وتتبع الزلات، والتصلب السياسي، وإبراز الخلافات بحجة "التطهر والنقاء"، ومن ثم سيكون مُؤدى حركتها هو التفشيل والتخذيل والتعويق، وهي حالة غير صحية، وموقف غير إيماني! فالأصل الإيماني: هو التعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان.

ومن جانب آخر: حالة "التقديس والمبالغة" التي تصيب حركات التغيير نتيجة للتعصب الأيديولوجي أو الحركي.. يمنع عن الحركة حرية إنكار المنكر، وحرية الاعتراض على الزيادة في استعمال الرخص، ووسائل الاضطرار، والتوسع فيها بغير ضرورة ولا حاجة، ولا لدفع مفسدة أو جلب مصلحة، أو مقاومة ضر، ويمنع النمو الصحي (الاجتماعي والسياسي) للحركة.. والتقديس والمبالغة سيقف حائط صد أمام تصحيح الأخطاء، والتسديد والتقريب، بينما حرية إنكار المنكر تمنع الاستبداد والإصرار على الخطأ، وتخلق بيئة صحية لمناقشة المنكر، ومنع الانزلاق إلى انحرافات كبرى؛ فتكون الاعتراضات داخل المحضن الإسلامي، ودون الخروج عنه، مما يمنع العدو من توظيف الأخطاء والمنكر لينفخ فيها، ويشعل النيران حولها، حتى تحرق الجميع.. فيجب أن يكون خطاب إنكار المنكر مستقلاً، وغير قابل للتوظيف من العدو، وأدواته الإعلامية.

فكل عدو يبحث عما يُفرق الجمع، ويُشعل الفرقة، ويفسد ائتلاف القلوب.. ويستغل من طيبة وسذاجة البعض وسيلة لنفخ سمومه، حتى تَفشل حركات التغيير وتنشغل بنفسها عن مواجهته.

وإنَّ فهم خطة العدو في الإفساد تقطع الطريق على أهل الشقاق والنفاق وتمنعهم من استغلال الخطأ في تحطيم رصيد الخير والنجاح.

ومن ثم.. ونحن بصدد الحديث عن الحركة السياسية ومرونتها، فلا بد من ضمان الحد الأدنى للائتلاف القلبي بين المسلمين، وتجنب إثارة ما يُلقي بينهم الشقاق والتفرق، ويفتح للشيطان وساوسه ولأعوانه الأبواب.. ولذا وجب عند معالجة وتقييم وتقويم ونصح حركة من حركات التغيير، يجب أولاً ـ لضمان الائتلاف القلبي ـ بيان المواقف الإيجابية الحقة التي قامت وتقوم بها، ومساحة الاتفاق والحب الواسعة التي هي محل مباركة ودعم وولاء ونصرة، ومن ثم ـ وبعدها ـ بيان الموقف الخطأ ومدى الانحراف الذي ننكره؛ حتى نضمن تماسك المسلمين والائتلاف بينهم من جانب، ومن جانب آخر: حرية إنكار المنكر، أو إبداء الرأي في موقف نراه لا يصح. ومن جانب ثالث: نقطع الطريق على من يحاول استغلال الخطأ لإفساد ذات البين في الأمة الواحدة، ولإفساد رصيد الخير للحركة. ومن جانب رابع: تجنب تبرير الأخطاء، أو الدفاع عن باطل، والاتكال على رصيد الخير لتمرير الشر! ومن جانب خامس: تجنب تكرار الأخطاء، وتضييع الفرص، والموارد والأعمار.(1)

***

وقد نهى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الاختلاف، وحذر منه، وجاء ذلك في تسوية صفوف الصلاة، واختلاف تلاوة القرآن، وفي الدعوة، وفي شؤون الحرب، فجاء في الحديث الشريف، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ـ "لَا تَخْتَلِفُوا، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ"، ثُمَّ قَالَ: "انْظُرُوا أَقْرَأَكُمْ رَجُلًا، فَخُذُوا بِقِرَاءَتِهِ"(2)

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "الأسلوب القرآني.. والأسلوب التبريري".

(2) [مسند الإمام أحمد/ 3793]

ـ و"عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: "**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ يَتَخَلَّلُ الصَّفَّ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى نَاحِيَةٍ يَمْسَحُ صُدُورَنَا وَمَنَاكِبَنَا، وَيَقُولُ: لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ**"(1)

ـ و"عَنْ عبد الله بن قيس الأشعري، أَنّ النَّبِيَّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ: "**يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا**"(2)

ـ و"عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ جَيْشَ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، فَاسْتَعْمَلَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، وَاسْتَعْمَلَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى الْأَعْرَابِ، فَقَالَ لَهُمَا: **تَطَاوَعَا**، قَالَ: وَكَانُوا يُؤْمَرُونَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَى بَكْرٍ، فَانْطَلَقَ عَمْرٌو، فَأَغَارَ عَلَى قُضَاعَةَ لِأَنَّ بَكْرًا أَخْوَالُهُ، فَانْطَلَقَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ اسْتَعْمَلَكَ عَلَيْنَا، وَإِنَّ ابْنَ فُلَانٍ قَدْ ارْتَبَعَ أَمْرَ الْقَوْمِ وَلَيْسَ لَكَ مَعَهُ أَمْرٌ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ "**أَمَرَنَا، أَنْ نَتَطَاوَعَ، فَأَنَا أُطِيعُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ وَإِنْ عَصَاهُ عَمْرٌو**"(3)

ونهى عن كثرة المراء والجدال وإن كان في الحق، حتى لا يتحول إلى معارك شخصية، وحروب بينية، وكراهية بين المسلمين: فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم: **أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا**"(4)

ولما وقع الخلاف بين المهاجرين والأنصار وتنادوا بالنعرات الجاهلية، عمد النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى صرف طاقاتهم البدنية والنفسية في المشي الطويل؛ حتى جهدوا جميعاً لدرجة الإعياء! وتناسوا ما كان بينهم بعد عتاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشديد لهم؛ لأن ما همّوا بفعله كان ضد أساس الاجتماع الإسلامي.

---

(1) [سنن أبي داود/ 664]

(2) [صحيح البخاري/ 3038]

(3) [مسند الإمام أحمد/ 1700]

(4) [سنن أبي داود/ 4800]

"عن عَمْرو جابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم - فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم: **مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: **دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**، فَسَمِعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: قَدْ فَعَلُوهَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ عُمَرُ: دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"[(1)]

"... ثُمَّ مَشَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم - بِالنَّاسِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى أَمْسَى، وَلَيْلَتَهُمْ حَتَّى أَصْبَحَ، وَصَدْرَ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى آذَتْهُمُ الشَّمْسُ، ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ، فَلَمْ يَكُنْ إِلا أَنْ وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ وَقَعُوا نِيَامًا، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِيَشْغَلَ النَّاسَ عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ..."[(2)]

فكَرِه النبي - صلى الله عليه وسلم - الاختلاف والتنازع والجدال في كافة الأعمال، حتى لا تختلف القلوب، فتختلف الأعمال، وتتصارع الأمة فيما بينها! بل يجب أن تظل الأمة كالبنيان الواحد، فإن وقع الخلاف - ولا مفر منه! - فيجب أن يكون اختلاف فيه **رحمة وسماحة وتجاوز وود، لا فيه غل وحسد وتنطع وبغضاء**، ونُحسن إدارته وتوظيفه التوظيف الصحيح الذي يخدم الدين، ويحفظ الأمة.

وكذلك في كل ما هو خلاف فقهي، فالواجب فيه تقديم الائتلاف القلبي والتسامح، وتفهم موقف الآخر بكل رحابة صدر، وطيبة قلب، واتساع نظر، وسعة أفق، والامتناع أشد الامتناع عن تحويل الخلاف الفقهي إلى قضية إيمان وكفر، وإسلام وشرك، ومن ثم تكفير المسلمين عليها، فهذا من أبطل الباطل، ومن عوامل تمزيق الأمة، وإشاعة البغي

(1) [صحيح مسلم/ 2586]

(2) [جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، ج 22 : ص 667]

والتنافر بينها. جاء في الحديث الشريف: عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: "**إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِدْئًا لِلإِسْلامِ، غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهِ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ"، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشِّرْكِ، الْمَرْمِيُّ أَمِ الرَّامِي؟ قَالَ: "بَلِ الرَّامِي**"(1)

والمُخالف على إحدى ثلاث:

ـ إما معه الصواب، فنتعلم منه، ونستفيد من فتح الله عليه ـ كائناً من كان ـ ومن علامة الإيمان: قبول الحق، والتواضع للخلق، وضده الاستكبار والعياذ بالله.

ـ وإما معه الخطأ، فننبه عليه، ونسد أبوابه، ونبحث في أسبابه، ونُبينها بكل الحب والحرص، دون الرغبة في التشفي، والإهانة، والتحقير، فهذا سلوك من لا يبحث عن الحق. بل الإبقاء على روابط الألفة والأخوة.

ـ وإما يقول لغواً وجدلاً وجهالة لا قيمة لها: فالواجب الإعراض عنها، والسكوت عليها، واحتواء أصحابها، وإشاعة السلام الواقعي والنفسي بدلاً عنها. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55] ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63]

ومن هذا المنهج فنحن.. نختلف ولا نُكفر، وننصح ولا نُعادي، ونقول دعوتنا ولا نُفرق، وكلمتنا جامعة لا مُفرّقة.

مع التمسك بمحكمات الدين، وكلياته العامة، والعمل على ما يزيد إيمان المسلم وتقواه، ويدفعه لعمل الصالحات ويُسابق في الخيرات، ومن الآيات الجامعة لأمور الدين كله:

(1) [صحيح ابن حبان/ 81]

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]

﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 1-3]

وفي نفس الوقت عدم الغفلة عن مقومات الإيمان، وأركانه، وشروطه.. والتي من ينسلخ منه؛ فقد وقع في عمل من أعمال الكفر التي وإن انتسب صاحبها في الدنيا للإسلام وجرت عليه أحكام المسلمين، فهو في الآخرة من الخاسرين، ما لم يرجع ويتوب إلى الله.

وإذ نتحدث هنا عن العقيدة السياسية.. فتضعضع مقومات الإيمان يعني تفكك المجتمع الإسلامي، وضياع الدين كله، وتسلط أئمة النفاق والبغي على حكم الأمة المسلمة لسلخها بالكلية عن دينها، واستعبادها، وسرقة مقدراتها وثرواتها.

فالأمر مع عموم الأمة: أمر ائتلاف وحب وتماسك، ودعوة وبيان وتصحيح، وإحياء وتربية وتعليم، وصبر واحتمال واحتواء.

والأمر مع أئمة النفاق وأعداء الداخل والخارج: أمر مقاومة وجهاد، ومفاصلة وبراءة، وتدافع ومواجهة، وتخلص من الحكم الجبري، والعمل على عودة الحكم الراشد على منهاج النبوة.

فمنهج الإسلام المتسامح يدفع دوماً إلى مقابلة السيئة بالحسنة، والإساءة بالإحسان.. ذلك أنه يهدف إلى إصلاح النفس الإنسانية، وتهذيبها من خلال السلوك العملي لمن

يحمل رسالة الإسلام، وهذه المعاملة تكون خاصة بين أبناء الأمة المسلمة، والمسالمين من الناس.

وجعلَ المعاملة بالمثل مع الأعداء، وجزاء السيئة معهم.. سيئة مثلها، وعند القدرة عليهم يحبب الإسلام أيضاً في العفو والتسامح! ولكن بشرط القدرة والسيادة للإسلام، وليس من باب الضعف والاستسلام والانهزام؛ حتى لا يظن العدو العفو ضعفاً، والتسامح سذاجة..

ومن أهم واجبات حركات التغيير أن تعرف أين تضع العفو والتسامح، وأين تضع البأس والقوة في حركتها، وكيف تضبط حركتها السياسية بلا عنف مُنفر أو ضعف يُغري بالاعتداء.

ومما يؤُجج الخلاف، ويُشعل نيران الفتنة بين المسلمين:

- التعصب الأعمى، والجدال بالباطل، وحمية الجاهلية، والعزة بالإثم. (وفيه عبادة للذات، لا التجرد لله الحق) [1]

- التصارع والتنافس على الدنيا وشهواتها، والافتتان بالمال والسلطة. (وفيه عبادة للذات، لا التجرد لله الحق)

- غياب الشخصية الرسالية، وحضور الشخصية الحزبية التي تخصر في ذاتها لا أمتها.[2]

وأما سبيل الغي: فهو محاولة إعطاء الشرعية الإسلامية للباطل، وتبريره والدفاع عنه كما فعل أهل الكتاب!

***

(1) انظر مقال: "الفكر والالتصاق بالذات".

(2) انظر مقال: "الفرق بين الشخصية الحزبية والرسالية"، و"معالم الشخصية الحزبية".

ومن المفترض أن جماعات التغيير تسير إلى غاية واحدة على طريق واحد، ربما تختلف الوسائل والرؤى حول بعض الحلول والمواقف ـ كما هي طبيعة البشر ـ ويجب أولاً أن يُحترم الخلاف طالما داخل دائرة الكتاب، ويجب أن يُعرف كيف يدار هذا الخلاف ـ مهما كان ـ إدارة صحيحة لا تفضي إلى التنازع والاقتتال؛ حتى يبقى الحد الأدنى من الائتلاف القلبي، والوحدة الشعورية بين المسلمين جميعاً، وجماعاتهم.[1]

ومع الاحترام (وإنزال الناس منازلهم) والوعي في إدارة الخلاف.. يمكن أن يتحقق الائتلاف القلبي الذي يؤدي إلى التعاون والاتحاد، وبناء جزر من التعاون وسط بحور من التنازع..

ذلك أن كل فشل في إدارة الاختلاف، وكل عجز عن الائتلاف يرتد على الأمة المسلمة سلباً وتناحراً.. وتسلطاً من العدو عليها!

كما يجب عدم المسارعة برمي المخالف بالخيانة والعمالة وجعل القضية شخصية، حزبية، غرضها التشفي والانتقام وإزاحة الآخر؛ فهذا مما يؤدي إلى فقدان الثقة في الجميع، والشك في كل أحد، ويصبح سوء الظن هو القاعدة، ويصبح العمل من أجل الإسلام تصارع على المصالح والامتيازات والرياسة! الأمر الذي يؤدي إلى خسارة الجميع في النهاية.

وطالما حركة التغيير تقع ضمن ثوابت الدين والأمة، فلها من نصيب المسلم الولاء والنصرة، والدعم، والحب، والدعاء، والنصيحة؛ حتى تعود الأمة جسداً واحداً يشد بعضه بعضاً؛ فيكون كالبنيان المرصوص الذي لا يقصمه عدو.

---

(1) انظر ـ على سبيل المثال ـ بحث: "ألغام في الفكر الإسلامي". ومقال: "أسئلة في العقيدة".

وإذا خرجت حركة التغيير عن ثوابت الدين، وأفشلت الأمة، وسلّمتها لعدوها، وتعاونت على الإثم والعدوان، فيجب على المسلم البراءة منها، والنجاة بالنفس من الظلم، ومن الرضى به، أو المتابعة عليه.(1)

***

والائتلاف القلبي قوة كبرى عظيمة، امتن الله بها تعالى على هذه الأمة في مرحلة تكوينها ونشأتها، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63] لقد كان تآلفاً على حب الله، وطاعة رسوله، والإيمان والرجاء بما عند الله، وهذا الائتلاف هو الذي يبقى، وهو الذي يصمد.

واستمر وجوب هذا الائتلاف لمن جاء من بعدهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]

وقد يجمع الناس الخطر المُحدق، والمصلحة المشتركة، وما أن تزول إلا وينقلب الائتلاف عداوة وبغضاء.. بينما كان الائتلاف على هذا الدين، وعلى حب الله ورسوله، هو الذي يبقى، ولا يزول، وكان حب المؤمنين من أوثق عرى الإيمان..

فعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: "**إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ**"(2).

---

(1) انظر بحث: "ويُذيق بعضكم بأس بعض".

(2) [مسند الإمام أحمد/ 18053]

وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قَالَ: "**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**"(1)

وعن عَبْدِ اللَّهِ بن مَسعود قال: كان يُعَلِّمُنَا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلمات: "**اللَّهُمَّ أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلَامِ، وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَجَنِّبْنَا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُلُوبِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ مُثْنِينَ بِهَا قَابِلِيهَا وَأَتِمَّهَا عَلَيْنَا**"(2)

***

(1) [صحيح البخاري/ 16]

(2) [سنن أبي داود/ 968]

31- الحكم بما أنزل الله

قضية "الحكم بما أنزل الله" تعتبر أصلاً من أصول الإيمان والاعتقاد، ولا يمكن لجماعة من جماعات التغيير أن تحصل على "الشرعية الإسلامية الربانية" إلا أن تكون هذه القضية محوراً من محاورها، وركيزة من ركائزها.

ولقد تعرضت قضية "الحكم بما أنزل الله" إلى ثلاث إشكاليات خطيرة:

الإشكالية الأولى: ارتباط قضية "الدعوة إلى الحكم بما أنزل الله" بتكفير الأفراد والمجتمعات المسلمة والأنظمة الباغية الفاسدة، واتهام أصحابها بـ "الخارجية والتكفير والإرهاب... إلخ".

وإنَّ الانحراف عن الحكم بما أنزل الله قد بدأ مع "الملك العضوض" في جانب سياسة الحكم والمال، والانحراف الكلي كان في حقبتنا هذه حقبة "الحكم الجبري"، وتسلط الاحتلال الغربي على بلدان المسلمين..

وإنَّ الإعراض عن التحاكم إلى ما أنزل الله، والصد عنه هو عين النفاق، ويعتبر عملاً من أعمال الكفر.. ولكن اقتضى العمل الصائب ـ إن شاء الله ـ أن تكون الدعوة إلى الحكم بما أنزل الله بعيدة عن تكفير الأفراد أو المجتمعات أو حتى الأنظمة الباغية[1].. حيث الأمر الذي يترتب على التكفير هو: استحلال الدماء والأموال، والقتال العبثي مع المجتمع وأنظمته الفاسدة، وهذا الطريق نهايته مأساوية على جميع الأصعدة..

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ بحث: "الفئة الباغية".

مع التأكيد على أن هذا الفعل ـ نبذ التحاكم إلى كتاب الله ـ من أفعال الكفر، ومضاهاة لأفعال الذين كفروا من أهل الكتاب، ومثله: ولاية الكافرين المحاربين ومظاهرتهم على أهل الإسلام، وهي أفعال تُدخل مُرتكبها النار والعياذ بالله.

يقول الإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الأزهر ـ فترة (1958 : 1963م) ـ في القاضي الذي يقضي بغير حكم الإسلام: "الحكم القطعي المنصوص عليه في كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة، التي لم يظهر فيها خصوصية الوقت أو الحال، فإن الحكم بغيره وإن كان مبنياً على اعتقاد أن غيره أفضل منه، وأنه لا يحقق العدل ولا المصلحة، **كان ولا شك ردة يخرج بها القاضي عن الإسلام.**

أما إذا كان القاضي الذي حكم بغيره مؤمناً بحكم الله، وأنه هو العدل والمصلحة دون سواه، ولكنه في بلد غير إسلامي، أو بلد إسلامي مغلوب على أمره في الحكم والتشريع، واضطر أن يحكم بغير حكم الله لمعنى آخر وراء الجحود والإنكار، فإن الحكم في تلك الحالة لا يكون كفراً إنما يكون معصية، وهو نظير من يتناول الخمر وهو يعتقد حرمتها"[1]

ويقول الشيخ القرضاوي ـ رحمه الله ـ في شأن هذه الآيات ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44] ﴿الظَّالِمُونَ﴾ ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: "وهذه الآيات ـ وإن نزلت في شأن أهل الكتاب ـ جاءت بلفظ عام يشملهم ويشمل المسلمين معهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو معلوم.

ولا يتصور أن يحكم الله بالكفر أو الظلم أو السفق على من لم يحكم بما أنزله من اليهود والنصارى، ويعفي من ذلك المسلمين، فعدل الله واحد...

(1) [كتاب: الفتاوى، الشيخ محمود شلتوت، رحمه الله، ص 43]

وإنَّ اتصاف الإنسان بالظلم والفسوق ليس شيئاً هينا، بحيث يستخف به ويستهان بأمره، فليس الكفر المخرج من الملة هو المخوف وحده، بل الظلم والفسق من أشد ما يحذره المسلم الحريص على دينه، الخائف على نفسه، الراجي لقاء ربه، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 18]...

وإن الحكم بغير ما أنزل الله ـ وإن لم يكن كفراً مخرجاً من الملة، لعدم جحود الحاكمين وإنكارهم لشرع الله ـ هو بالقطع حكم مخالف للإسلام، وحسب صاحبه أنه رضي لنفسه أن يكون ظالماً وفاسقاً. وهو ليس ظلم ساعة، ولا فسق يوم، بل هو ظلم مستمر، وفسق دائم بدوام الحكم بغير ما أنزل الله. ولهذا كان بقاء هذا الحكم منكراً بيقين وبالإجماع، وكان السكوت عليه منكراً بيقين وبالإجماع، وكانت **معارضته ومجاهدته** واجبين بيقين، وبالإجماع، فيتعين على أهل الحل والعقد "مثل المجالس النيابية" تغييره **بالوسائل الدستورية، وإلا فبالقوة العسكرية، أو الشعبية، ولكن بشرط الاستطاعة وألا يؤدي إلى فتنة أكبر**"[1]

***

الإشكالية الثانية: إهمال قضية "الحكم بما أنزل الله"، فعندما وجد هذا الفريق الحالة المأساوية التي انتهى إليها دعاة الحكم بما أنزل الله، والحركة السياسية والفكرية المتخبطة التي كانت تحت هذه الدعوة، انتقلوا على النقيض من ذلك إلى إهمال القضية بالكلية، والغلو في مقاصد الشريعة لإلغاء حقيقتها وحدودها، ومن أجل أن توافق "العلمانية الديمقراطية" التي تنتهي إلى العلمانية العسكرية أو العلمانية الملكية أو العلمانية الاستبدادية أو التطبيع والتوافق مع العلمانية.. الأمر الذي يؤدي إلى أسلمة العلمانية، وعلمنة الإسلام!

(1) [كتاب: من فقه الدولة في الإسلام، الشيخ يوسف القرضاوي، ص 35، وتوسع في البيان في فصل "الدولة الإسلامية، والحكم بما أنزل الله، ص 129]

وكما ذكرنا أن شرعية حركة التغيير إنما تستمدها من إعلاء كتاب الله ومنهج الله، وجعله ـ كما هي حقيقة الإسلام، ومعناه ـ له السيادة والمرجعية العليا.[1]

***

الإشكالية الثالثة: اختزال وتشويه معنى "الحكم بما أنزل الله"، وينشأ هذا الاختزال من القراءة الفقهية الضيقة والمذهبية للأحكام الفقهية، وإهمال الكليات العظيمة التي جاءت بها الشريعة لحفظ الدين، وحفظ الأمة، وإبقائها في حالة الخلافة الراشدة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ **فجوهر الشريعة** (الاجتماعي السياسي) هو الرحمة والعدل[2]، وعالمية الرسالة الإسلامية، وشهادة الأمة المسلمة على البشرية وبلاغها؛ الأمر الذي يقتضي أن تعد القوة، وتحصل العلوم؛ ويتم توحيدها من جديد على أساس ولادتها الأولى التي خرجت من رحم هذا الكتاب، أما حالها اليوم فهي في غثاء القومية العلمانية العمياء تتخبط، ولا قيمة لها إلا بعودتها للأصل الذي جاءت منه.. **وجوهر الشريعة** (الإنساني) هو رسم طريق النجاة للإنسان في الدنيا والآخرة، وتحقيق سعادته، ومن أجل ذلك الهدف كانت أحكام الشريعة وحدودها ومقاصدها.

اختزال الشريعة في صورة بعض عقوبات، وتقديمها بصورة مشوهة.. هو صد عن سبيل الله، في وقت أحوج ما يكون المسلمون ـ والبشرية جمعاء ـ إلى صراط الله المستقيم، ونوره، وهدايته.[3]

***

ولذا فإن جماعات التغيير عليها أن تعالج هذه القضية دون إفراط أو تفريط بـ:

---

(1) انظر كتاب: "حول تطبيق الشريعة". ومقال: "التحولات في الحركة الإسلامية".

(2) انظر كتاب: "العدالة الاجتماعية في الإسلام".

(3) انظر كتاب: "نحو مجتمع إسلامي".

ـ بيان الدين الحق الذي يقبله الله ـ يوم الدين ـ وتحقيق التوحيد الخالص لله، الذي له الخلق والأمر والحكم والطاعة والانقياد والمحبة والعرفان والامتنان، هي دعوة لله.. وحق لكل مسلم، ولكل إنسان، ويندرج تحت الهدف الأسمى المقدس: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله".

ـ بدلاً عن تكفير الأنظمة الباغية ـ العميلة للعدوان الغربي على بلاد الإسلام أو المتبعة منهجه وطريقته ـ العمل على إسقاط شرعيتها في (الاجتماع والحكم)، فهي ساقطة الشرعية بعدم حكمها بما أنزل الله، وعدم التزام كتابه، وساقطة الشرعية ببغيها وفسادها وعدوانها، وتبعيتها للغرب، وسرقتها للثروات، واستعباد المسلمين، ومحاربتها لدعوة الله.

ـ مواجهة هذه الأنظمة بحقيقتها، وإعداد العدة لإسقاطها بكل وسيلة، بعدما تكتسب حركة التغيير الشرعية الشعبية الاجتماعية، وتملك القدرة على تحريك الجماهير، وامتلاكها القواعد الاجتماعية التي تساعدها في إسقاط هذه الأنظمة عندما تجتمع أسباب القوة اللازمة لذلك دون تهور أرعن، أو قعود مُخذل.

ـ تقديم الشريعة بصورة قريبة من أذهان الناس، ودرجة فهمها، ووعيها، وإنَّ رواد التغيير أمامهم مهمة كبرى في كيفية مواجهة معضلات الفساد، وكيفية الإصلاح.. بصورة تحقق الإصلاح والعدل والرحمة بصورتها الربانية الحقة، وتعرف مكانها من خريطتها المحلية والعالمية.. وتقدم الحق الذي تحمله بصورة تأخذ قلوب وعقول الجماهير المسلمة، وتحبط كل محاولة للالتفاف على الشريعة أو تشويه صورتها، وتتعالى على الخلافات المذهبية والفقهية والحزبية الضيقة؛ لتكون الدعوة خالصة لله، وناصرة للأمة المسلمة.(1)

***

(1) انظر ـ على سبيل المثال: "خريطة تحكيم الشريعة".

32- ماذا يعني تحكيم الشريعة؟

"إنَّ مدلول " الشريعة " في الإسلام لا ينحصر في التشريعات القانونية، ولا حتى في أصول الحكم ونظامه وأوضاعه. إن هذا المدلول الضيق لا يمثل مدلول "الشريعة" والتصور الإسلامي!

إنَّ "شريعة الله" تعني **كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية..** وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول الأخلاق، وأصول السلوك، وأصول المعرفة أيضاً.

يتمثل في الاعتقاد والتصور ـ بكل مقومات هذا التصور ـ تصور حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، غيبه وشهوده، وحقيقة الحياة، غيبها وشهودها، وحقيقة الإنسان، والارتباطات بين هذه الحقائق كلها، وتعامل الإنسان معها.

ويتمثل في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والأصول التي تقوم عليها، لتتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده.

ويتمثل في التشريعات القانونية، التي تنظم هذه الأوضاع. وهو ما يطلق عليه اسم "الشريعة" غالباً بمعناها الضيق الذي لا يمثل حقيقة مدلولها في التصور الإسلامي.

ويتمثل في قواعد الأخلاق والسلوك، في القيم والموازين التي تسود المجتمع، ويقوم بها الأشخاص والأشياء والأحداث في الحياة الاجتماعية.

ثم.. يتمثل في "المعرفة" بكل جوانبها، وفي أصول النشاط الفكري والفني جملة.

وفي هذا كله لا بد من التلقي عن الله، كالتلقي في الأحكام الشرعية ـ بمدلولها الضيق المتداول ـ سواء بسواء"[1]

فيحسب البعض أن المطالبة بتحكيم الشريعة يعني مجرد "أسلمة بعض القوانين" أو تغيير بعض المظاهر الشكلية! والحقيقة هذا التصور السطحي سببه أن قضية الشرع والتحاكم إليه، هانت في نفوس بعض الدعاة قبل عموم المسلمين! وتتضاءل حجمها في حسهم.. حتى ظنوا أنها مجرد تغيير في نصوص بعض القوانين أو مادة في الدستور، ثم هانت أكثر فاعتبروها مجرد "مرجعية" يستأنس بها المُشرع الوضعي إن شاء، ثم هانت أكثر وأكثر فنبذوا الشرع بالكلية.. ثم يحسبون أنهم مسلمون!

"فقضية الألوهية والتشريع هي قضية لا تقتصر على الحلال والحرام في المآكل والمشارب والمناكح . إنما هو أمر حق التشريع لأي شأن من شئون الحياة..

ونحن نكرر هذا المعنى ونؤكده؛ لأن طول عزلة الإسلام عن أن يحكم الحياة ـ كما هو شأنه وحقيقته ـ قد جعل معاني العبارة تتقلص ظلالها عن مدى الحقيقة التي تعنيها في القرآن الكريم وفي هذا الدين. ولقد جعلت كلمة "الحلال" وكلمة "الحرام" يتقلص ظلهما في حس الناس، حتى عاد لا يتجاوز ذبيحة تذبح، أو طعاماً يؤكل، أو شراباً يشرب، أو لباساً يلبس، أو نكاحاً يعقد.. فهذه هي الشئون التي عاد الناس يستفتون فيها الإسلام ليروا: حلال هي أم حرام! فأما الأمور العامة والشئون الكبيرة فهم يستفتون في شأنها النظريات والدساتير والقوانين التي استبدلت بشريعة الله! فالنظام الاجتماعي بجملته، والنظام السياسي بجملته، والنظام الدولي بجملته؛ وكافة اختصاصات الله في الأرض وفي حياة الناس، لم تعد مما يستفتى فيه الإسلام!"[2]

---

(1) [معالم في الطريق، سيد قطب، رحمه الله]، وانظر ـ إن شئت ـ مقال: "خطوط عريضة".

(2) [تفسير "في ظلال القرآن" ـ سورة المائدة، دار الشروق، ص 972]

فالمقصود بالاحتكام إلى الشرع الإلهي.. ليس هو مجرد أسلمة بعض القوانين بل هو:

ـ شرع الله: يَعلو، ولا يُعلى عليه.

ـ شرع الله ودينه: يرد إليه الأمر "كله"، وليس "بعضه".

ـ شرع الله: لا شريك له من قوانين وضعية علمانية.

ـ شرع الله: يرفض أي شرعية للعلمانية، ويسمح بحرية المعتقد أيضاً بما يأذن به الشرع.

ـ شرع الله: هو النظام ومنهج الحياة.. وليس هو مجرد رغبة بعض المتدينين، والمسلم لا يكون مسلماً لله إلا عندما يخضع ويُسلم لشرع الله ونظامه.

ـ شرع الله: شريعة عالمية يجب أن تسود في الأرض.. فهي أرض الله، وهذا شرعه.

ـ شرع الله: لا يقف على مسافة متساوية من كل الأديان.. فهو الحق وحده يَعلو ولا يُعلى عليه، فالإسلام دين الله الذي هو وحده الحق المطلق.. ولا دين سواه، ولن يقبل الله ـ سبحانه ـ سواه، ويضمن حرية الاعتقاد والعدل والرحمة لكل إنسان.

ـ شرع الله: يفرق بين البشر (بالحق والعدل والرحمة والإحسان) على أساس الدين.. يفرق بين الأب والابن على أساس الإسلام، لا على أساس القوم، أو اللغة، أو الجنس، أو تخوم الأرض.

ـ دين الله: هو أساس انتساب المسلم، وأساس الاجتماع.

ـ دين الله: يسود من طريق التدافع المستمر مع الباطل، والجهاد في سبيل الله لإقامة دين الله.. وتحرير الإنسان.. "كل" الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ودعونا نفترض ـ جدلاً ـ أن هناك حاكماً مسلماً سيأتي إلى الحكم عبر "آليات الديمقراطية، وصندوق الانتخاب" ونجح بالفعل في كبح جماح العلمانية، ومضى في

إصلاحات اقتصادية... إلخ، بل ونجح في أسلمة بعض القوانين العلمانية من خلال البرلمان، ثم انتهت فترة ولايته، وأثناء مدة حكمه عمل الحزب المعارض له ولفكره الإسلامي على تشويه وتقليل نجاحات الرئيس الإسلامي وتسخر منه ومنها؛ حيث الديمقراطية لا من بد أن تفرض حرية العلمانية، وعمل الحزب العلماني المعارض على نشر قنوات فضائية متعددة تحبب الناس في العلمانية، وتمسح الآثار التربوية الإسلامية التي غرسها الرئيس الإسلامي.. وتم تكثيف انتشار العلمانية والإباحية عبر البرامج والحوارات، والأفلام والمسلسلات، والفن والمسرح، والسينما والأدب... إلخ..

وكوّن تحالفات عدة، لكن ينجح الحزب العلماني في دورة الانتخابات القادمة، ثم نجح الحزب العلماني بدعم من أئمة النفاق في الداخل، وأئمة الكفر في الخارج.. ومحا كل ما فعله الرئيس الإسلامي بنفس طريقة "آليات الديمقراطية" فجعل القوانين أشد علمانية مما سبق، وأعمل الإباحية في كل شيء، وعمل إصلاحات اقتصادية أفضل من الرئيس الإسلامي، والناس سعيدة بالرئيس العلماني! ـ هذا بالطبع مع غض النظر عن "هيمنة الغرب والنظام الدولي" على بلاد المسلمين، ومحاولة تحكمه في كل صغيرة وكبيرة، ومحاربته لبناء قوة الدولة والتمكن الحقيقي من شيء! - فأين هو الدين؟ وأين هو الشرع الذي يَعلو ولا يُعلى عليه؟ وهل هذا طريق التغيير الذي يطمح إليه المسلم.. وهل هذا هو الطريق الذي يُعيد مجد الإسلام، والخلافة الراشدة التي على منهاج النبوة؟!

ولذا نقول ابتداء لا شرعية للحكم العلماني، ولا شرعية لآليات الديمقراطية التي تفرض على المسلمين شريعة غير شريعة الله، وقانون غير مستمد من هذه الشريعة، ونمط حياة يخالف صبغة الله، وغاية في الحياة غير غاية العبودية الخالصة لله، والتسابق إلى الدار الآخرة، وطريقة في الحكم ليست على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول الشيخ يوسف القرضاوي: "**وهذه الالتزام من الدولة بقانون الشريعة هو الذي يعطيها الشرعية**، ويجعل لها حق المعاونة والطاعة من الشعب في اليسر والعسر، والمنشط

والمكره، فأما إذا حادت عن هذا المنهج أو النظام، **فهذا يسلبها حق الشرعية ويسقط عن الناس واجب الالتزام بطاعتها**، فإنما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لبشر في معصية الله... فإذا كانت بعض الدول الحديثة تعتز بأنها تلتزم بسيادة القانون والتمسك بالدستور، **فإن الدولة الإسلامية تلتزم بالشرع، ولا تخرج عنه، وهو قانونها الذي يلزمها العمل به والرجوع إليه، حتى تستحق رضوان الله، وقبول الناس**"[1]

و قال عَلِيٌّ رضي الله عنه: "حَقٌّ عَلَى الإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَيُؤَدِّيَ الأَمَانَةَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَحَقٌّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ، وَيُطِيعُوا، وَيُجِيبُوا إِذَا دُعُوا"[2]

***

"وإنَّ بعض من يتحدثون عن النظام الإسلامي - سواء النظام الاجتماعي أم نظام الحكم وشكل الحكم - يجتهدون في أن يعقدوا الصلات والمشابه بينه وبين أنواع النظم التي عرفتها البشرية قديماً وحديثاً، قبل الإسلام وبعده، ويعتقد بعضهم أنه يجد للإسلام سنداً قوياً حين يعقد الصلة بينه وبين نظام آخر من النظم العالمية القديمة أو الحديثة.

إنَّ هذه المحاولة إن هي إلا إحساس داخلي بالهزيمة أمام النظم البشرية التي صاغها البشر لأنفسهم في معزل عن الله. فما يعتز الإسلام بأن يكون بينه وبين هذه النظم مشابه، وما يضيره ألا تكون. فالإسلام يقدم للبشرية نموذجاً من النظام المتكامل لا تجد مثله في أي نظام عرفته الأرض، من قبل الإسلام ومن بعده سواء. والإسلام لا يحاول ولم يحاول أن يقلد نظاماً من النظم، أو أن يعقد بينه وبينها صلة أو مشابهة، بل اختار طريقه متفرداً فذاً، وقدم للإنسانية علاجاً كاملاً لمشكلاتها جميعاً...

---

(1) [كتاب: "من فقه الدولة في الإسلام"، الشيخ يوسف القرضاوي، رحمه الله، ص 36]

(2) [الاستذكار لابن عبد البر/1635]

إنَّ القاعدة التي يقوم عليها النظام الإسلامي تختلف عن القواعد التي تقوم عليها الأنظمة البشرية جميعاً.. إنه يقوم على أساس أن الحاكمية لله[1] وحده ـ فهو الذي يشرع وحده ـ وسائر الأنظمة تقوم على أساس أن الحاكمية للإنسان، فهو الذي يشرع لنفسه.. وهما قاعدتان لا تلتقيان. ومن ثم فالنظام الإسلامي لا يلتقي مع أي نظام. ولا يجوز وصفه بغير صفة الإسلام...

فلم أستسغ حديث من يتحدثون عن "اشتراكية الإسلام" و"ديمقراطية الإسلام".. وما إلى ذلك من الخلط بين نظام من صنع الله ـ سبحانه ـ وأنظمة من صنع البشر، تحمل طابع البشر وخصائص البشر من النقص والكمال، والخطأ والصواب، والضعف والقوة، والهوى والحق.. بينما نظام الإسلام الرباني بريء من هذه الخصائص، كامل شامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إنَّ الإسلام يُقدم حلولاً مستقلة لمشكلات الإنسانية، يستمدها من تصوره الخاص، ومن منهجه الذاتي، ومن أسسه الأصيلة، ومن وسائله المتميزة؛ وعلينا حين نناقشه ألا نكله إلى مذاهب ونظريات أخرى تفسره، أو تضيف إليه؛ فهو منهج متكامل، ووحدة متجانسة؛ وإدخال أي عنصر غريب فيه كفيل بأن يفسده، كالجهاز الدقيق الكامل، أية قطعة غريبة عنه تعطل الجهاز كله، وتظهر كأنها رقعة فيه!...

يقوم النظام الإسلامي على فكرتين أساسيتين مستمدتين من تصوره الكلي للألوهية والكون والحياة والإنسان: فكرة وحدة الإنسانية في الجنس، والطبيعة، والنشأة. وفكرة أن الإسلام هو النظام العالمي العام، الذي لا يقبل الله من أحد نظاماً غيره. لأنه لا يقبل من أحد ديناً إلا الإسلام. والدين ـ في المفهوم الإسلامي ـ **هو النظام العام الذي يحكم الحياة.**

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "مفهوم الحاكمية".

فأما فكرة وحدة الإنسانية جنساً وطبيعة ونشأة، فقد تحدثنا عنها من قبل بالتفصيل عند الكلام على "أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام".[1]

وأما فكرة أن الإسلام هو النظام العالمي العام، الذي لا يقبل الله من أحد نظاماً غيره فهي مستمدة من أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو رسول الله إلى الناس كافة، وأنه خاتم النبيين، وأن دينه أقوم دين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: 28] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] ﴿رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40] ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]

و"الدين" في المفهوم الإسلامي هو المرادف لكلمة "النظام" في الاصطلاحات الحديثة! مع شمول المدلول للعقيدة في الضمير، والخلق في السلوك، والشريعة في المجتمع فكلها داخلة في مفهوم "الدين" في الإسلام. ومن ثم لا يمكن أن يكون هناك نظام يقبله الله ويقره الإسلام، ما لم يكن هذا النظام مستمداً من التصور الإسلامي الاعتقادي، ومتمثلاً في تنظيمات وتشريعات مستمدة من الشريعة الإسلامية دون سواها.. وأهم من هذا كله أن يذعن أصحاب هذا النظام لألوهية الله وربوبيته، فلا يدعون لأنفسهم حق إصدار الشرائع والأنظمة لأن هذا الحق لله وحده في الإسلام. وهنا يفترق النظام الإسلامي عن كل الأنظمة البشرية الافتراق الأساسي.

ولكن الإسلام مع هذا لا يقسر الآخرين على اعتناقه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256] بل يدع لهم أقصى الحرية والحماية في مزاولة شعائرهم الدينية...

(1) [انظر فصل "أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام" ص 31، من كتاب: "العدالة الاجتماعية"]

وقيام النظام الإسلامي على هاتين الفكرتين كان ذا أثر في كيانه واتجاهه، جعله يلحظ في التشريعات والتوجيهات، وفي سياسة الحكم، وسياسة المال، وسائر النظم التي تضمنها، أنه لا يشرع لجنس، ولا لجيل؛ إنما للأجناس جميعاً، وللأجيال جميعاً؛ فاتبع الأسس الإنسانية الشاملة في كل تشريعاته ونظمه؛ ووضع القواعد العامة، والمبادئ الواسعة، وترك الكثير من التطبيقات لتطور الزمان وبروز الحاجات."(1)

***

وإنَّ التحاكم إلى شرع الله يَعني فيما يعني:

من ناحية الفرد:

- تفسير الحياة والوجود والنشأة والمصير تفسيراً قرآنياً خالصاً، والمضي في الحياة على أساس التصور الصحيح عن الله والكون والإنسان والحياة.

- تحقيق العبودية الخالصة لله - جل جلاله - والرضى به رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد - صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً.

- إخلاص الشعائر والنسك والشرائع لله رب العالمين.

- العمل على تزكية النفس، والعمل للدار الآخرة.

- ذكر الله وحمده وشكره بالعمل الصالح، وولاية الله ورسوله والذين آمنوا، وبغض أعداء الله ورسوله.

---

(1) [كتاب: "العدالة الاجتماعية في الإسلام"، فصل سياسة الحكم في الإسلام، ص 75، سيد قطب]

من ناحية الاجتماع:

ـ المجتمع المسلم هو الذي يشهد "أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله" ومن ثم فلا يتخذ غير الله إلها، ولا رباً، ولا حكماً.. فإليه ـ سبحانه وتعالى ـ يُرجع الأمر كله، ويتخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القدوة والمثال، ويتبع سنته وطريقته، ويمضي في صراط الله المستقيم، ومثل هذا المجتمع لا يقبل أن يتحاكم إلى غير شريعة الله، ولا يقبل أن يعطي الشرعية لفكر أو نظام أو طريقة حكم "علمانية" تخالف شهادة التوحيد، فيجتمع على هذه الشهادة، ويوالي ويعادي على أساسها أيضاً.

ـ المجتمع المسلم يؤدي الشعائر والنسك لله وحده لا شريك له، ويخلص له الدين كله.

ـ المجتمع المسلم إنما وليه الله ورسوله والذين آمنوا، وهو مجتمع يشد بعضه بعضاً، ويوالي بعضه بعضاً، فهو كالبنيان المرصوص، حركته وسكونه ابتغاء مرضاة الله.

ـ المجتمع المسلم يحفظ الكرامة الإنسانية لكل إنسان، ولا يمتهن هذه الكرامة تحت أي دعاوى جاهلية أو أهواء علمانية.

ـ المجتمع المسلم يؤدي أمانة بلاغ رسالة الله إلى العالمين، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

من ناحية الحكم والسلطة:

ـ الخلافة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحق والعدل والرضى والشورى.

ـ إشاعة المعروف بين الناس، وعدم الاستئثار بالمال والسلطة والجاه والثروة. فلا يستبد أحد بالسلطة أو بالثروة.. فلا فرعون، ولا قارون.

ـ بناء قوة الدولة، وإعداد كل قوة ممكنة، وتمكين كل مقومات الدولة وحفظ أمنها وثرواتها وحقوقها وحدودها وثغورها.

ـ التدافع مع قوى الباطل، والجهاد في سبيل الله، والتحفز والاستعداد الدائم لمواجهة الأعداء.

ـ اتخاذ بطانة من المؤمنين، والامتناع من موالاة الكافرين المحاربين.

ـ إشاعة الأمن والطمأنينة والحرية والكرامة والرحمة والعدل بين الناس جميعاً.

ـ القضاء على كل فرعون، ومحاربة كل طاغوت.

ـ البلاد لا تخضع لإرادة مُحتل، أو عدو.. ولا يُهيمن عليها ـ بأي صورة من الصور ـ أي دولة مُحتلة مهما كانت، كما أن سلطة البلاد والأمة لا تُوالي أعداء الإسلام، ولا تتآمر على المسلمين.

ـ البلاد لها السيادة الكاملة، والإرادة الحرة، والتصرف الكامل على أرضها.. فهي تتحرر من كل أشكال وصور الخضوع، والاحتلال، والاستغلال من غيرها.[1]

من ناحية التحاكم والتقاضي:

ـ الاحتكام إلى شريعة الله وحدها، وبناء منظومة القوانين على أساسها وما هو محمول عليها.[2]

ـ العدالة المطلقة من الهوى والشنآن، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

ـ سرعة التقاضي، ورد الحقوق إلى أهلها. وتيسير عملية التقاضي، ورد المظالم إلى أهلها في أسرع وقت، فلا يبيت مظلوم إلا وهو مطمئن إلى أن حقه محفوظ.

---

(1) انظر بحث: "إقامة الدين، وتحكيم الشريعة". وكتاب: "خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم" د. فتحي الدريني.

(2) انظر فصل: كيف نستوحي الإسلام؟ من كتاب "نحو مجتمع إسلامي".

ـ إلغاء عقوبة السجن الطويل التي تدمر صحة الإنسان النفسية، وتدمر حياة أسرة من ورائه، والبديل عنها العقوبات البدنية والمالية والسجن لمدة قصيرة (تعزيراً) والخدمة المجانية (تعزيراً) وإنما النفي من الأرض لمن يقع في حد الحرابة.

ـ إصلاح هيكلة القضاء والتحقيق والتحري والضبط بما يحفظ كرامة الإنسان، ولا يُستخدم المنصب في التطاول والتعالي على الناس، وجعله مغنماً، وطبقة محتكرة بين مجموعة من الناس.

من ناحية المال والاقتصاد:

ـ التزام جميع أحكام الشريعة الإسلامية فيما جاء فيها من أحكام مالية.

ـ بناء اقتصاد قوي متين، وعُملة تحفظ قيمة الجهد والثروة.

ـ القضاء على كل أشكال الربا، والسحت، والاحتكار، والرشوة، والفساد، والغبن، والظلم، والغرر... إلخ.

ـ الاستخدام الأمثل للموارد والثروات وحفظها للجيل الحالي، والأجيال التالية.

ـ القضاء على كل مظاهر الفقر والعوز، وتحقيق الرعاية والكفالة والعدالة الاجتماعية، وهي عدالة إنسانية شاملة لكل جوانب الحياة الإنسانية ومقوماتها.

ـ تشجيع العمل، وإزالة أي معوقات أمام حركة العمل وحرية التجارة.

ـ الحفاظ على الاقتصاد الوطني من تحكم الشركات العالمية، والمؤسسات الدولية التي تسعى إلى تقويض اقتصاد الدولة والسيطرة عليه والتحكم فيه.

ـ رد كل الأموال المنهوبة التي أخذت بغير وجه حق إلى الخزانة العامة للدولة.

ـ تحقيق كافة احتياجات الإنسان المشروعة بكل كرامة، وعزة.. تُحقق إنسانيته: فهو إنسان حر، كريم، لا فرق بينه وبين غيره إلا بالتقوى. وتُحقق وجوده: بتوفير فرص العمل والحياة الكريمة لكل إنسان، وتُطلق طاقاته ليعمل ويُبدع. وتُحقق رُقيه: في صورة الخدمات العامة من (تعليم ـ صحة ـ مواصلات ـ بيئة نظيفة ـ بنية تحتية قوية... إلخ) حقوق كاملة تؤديها الدولة، وتُحاسب على التقصير في أي جزء منها، خدمات وحقوق وليست تجارة بالإنسان، وليست شعارات، وليست "شكل خدمة" ومُسمى فارغ المضمون. وتُحقق احتياجاته: بتوفير الحد الأدنى من الاحتياجات المادية لكل إنسان القادر وغير القادر، وترعى بشكل خاص (الطفل واليتيم والمطلقة والأرملة وكبار السن) بل لكل رضيع في الإسلام راتب وكسوة وطعام. وفي نفس الوقت ـ وحتى يتحقق تنوع الحياة ورقيها ـ تُوفر البيئة الآمنة والعادلة والمنافسة الشريفة في التجارة والاستثمار والربح النظيف.

من ناحية الأسرة:

ـ تيسير سبل الزواج، والحفاظ على كيان الأسرة والعائلة، ومحاربة الفواحش.

ـ رعاية المرأة وكفالتها ـ وحفظ حقوقها كاملة ـ وعدم دفعها لإعالة نفسها، وجعلها مضطرة للنزول إلى العمل![1]

ـ الحفاظ على كيان الأسرة، واستقراره النفسي والعاطفي والمادي.

ـ رعاية الآباء والأطفال وصلة الأرحام بما يحقق السلام الأسري والعائلي والاجتماعي.

(1) وعدم جعلها رقماً في نسبة البطالة! وإنْ احتاج المجتمع لجهدها فليكن بصورة تحفظ كرامتها وأنوثتها وحقوقها ودينها وخُلقها، ولا يكون نزولها للعمل لمجرد زيادة الإنتاج كما تفعل الأنظمة الجاهلية الحديثة.

من ناحية الفكر والتربية والثقافة والفن:

- الفكر الإسلامي لا يقبل ولا يرحب بالفكر العلماني المادي الملحد، وكل مخرجاته الفكرية والسياسية والاقتصادية والتربوية والفنية والثقافية، ويحاربها في مهدها بأفكارها وتطبيقاتها.. ويقدم البديل الحضاري الرباني الذي يليق بالإنسان، ويُخرجه من الظلمات إلى النور.

- الفكر الإسلامي يُطهر المناهج التعليمية والدراسية من آثار الفكر المادي الملحد، ويحارب دعاة الإلحاد والفجور والرذيلة في كل مكان.

- التربية الإسلامية تُنشأ الإنسان المسلم السوي، الرباني، المعتدل، الحريص على الفضيلة والعفة ومكارم الأخلاق وتحقق: الحكمة، والعدل، والربانية، والإيجابية، والواقعية، والمثالية، والشمول، والتوازن، والرحمة، والخير، والفلاح، والبركة، والنماء، والرشد، والاطمئنان، والسعي في الدنيا، والعمل للآخرة.[1]

من ناحية التعليم:

- تحرير الأمة المسلمة من المناهج العلمانية الغربية الملحدة في الفكر والفلسفة والتربية.

- توحيد سياسة التعليم بحيث يكون ولاؤها للإسلام والمسلمين، وقائمة على تنشئة جيل متعلق بكتاب الله، ويعمل للتمكين للإسلام والمسلمين.

- تعليم القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية في جميع مراحل التعليم كلها؛ حتى يخرج "الجيل المؤمن" قوي الإيمان صادق العزيمة مخلص متجرد لله سبحانه وتعالى، ومتسلح - في نفس الوقت - بعلوم عصره التجريبية.

(1) انظر كتاب: "منهج التربية الإسلامية" من "الموسوعة الإنسانية".

- التمكن من العلوم التجريبية تمكناً يسمح بالاستقلال عن الغرب، وبناء القاعدة الصناعية التقنية والحربية.

- تحرير المناهج من الحشو والكلام الفارغ الذي لا يترتب عليه تطبيق عملي.

- تطبيق طرائق تعليمية متطورة وحديثة تناسب العصر واحتياجاته.

- اختيار المناهج المناسبة لتعليم البنات في جميع مراحل التعليم بما يتناسب مع فطرتهن ودورهن.(1)

- العمل على جعل التعليم مجانياً ـ وذات جودة عالمية ـ في جميع مراحله، وكفالة المحتاجين من الطلاب، وتخصيص الأوقاف اللازمة لذلك.

- جعل العلوم التجريبية مرتبط بالتقنية والصناعة والزراعة والإنتاج وسوق العمل النظيف، وليس مجرد مسميات فارغة.(2)

***

ولذا قال تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 21]

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ. هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: 18-20]

***

(1) انظر مقال: "حركة طالبان.. وتعليم المرأة".

(2) وهذه ـ بفضل الله ـ إضاءات ومعالم عامة، ولأهل العلم والاختصاص تفاصيل في ذلك.

33- السلطة الاجتماعية

كانت البداية نزول القرآن العظيم على قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكون من المُنذرين، ومن ثم كان ميلاد الأمة المسلمة وتكوينها، وتركها رسول الله على أتم دين، وأكمل صورة.. وأتم الخلفاء الراشدون من بعده مسيرته، والراشدون لم يكونوا فقط الخلفاء.. بل **المجتمع الراشد** الذي كان يؤيد الرشد، ويبارك الحق، ويلتف حول الكتاب.. ثم حصل الانحراف عن "حكم الرشد" و"مجتمع الرشد".. حتى وصل إلى "الحالة الغثائية"[1] التي حذر منها رسول الله ـ عليه السلام ـ أمته..

وعند التخطيط للعودة إلى حكم الرشد (كسلطة سياسية) ومجتمع الرشد (كحاضنة اجتماعية) فعلى جماعات التغيير أن تدرك أن أمر "البداية والتكوين"، مختلف عن أمر "الإعادة والإحياء".. ولا نتحدث هنا عن الأسبقية: هل الحكم الرشد أم المجتمع الراشد؟ إذ البداية تكون مع الرواد الذين يحملون هم أمتهم.. ثم تستجيب لهم الأمة، حتى يصلوا جميعاً إلى امتلاك القوة اللازمة للتغيير..

وهناك من الأحكام والتصورات يتركها الحكم الرشيد لـ "السلطة الاجتماعية"، خاصة في بداية إعادته إلى صورة المجتمع الرباني.. حيث سرعة إقرار بعض الأحكام الشرعية، والعجلة في تنفيذها قد تخلق ردة فعل اجتماعية غير نافعة، وغير مثمرة للمجتمع، ولا نتحدث هنا عن التدرج في تنفيذ الأحكام، إنما نتحدث عن وضع بعض السلطة في يد المجتمع، وجعل المجتمع له السلطان عليها، وعلى القيام بها، وهذا الأمر يؤدي إلى:

ـ توزيع وتفتيت السلطة من جانب حتى لا تتحول إلى وحش وطغيان.

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "غثاء السيل".

ـ وحتى يكون أمر الرشد والدين ليس تحت الهيمنة الكلية للسلطة السياسية.

ـ وحتى يكون المجتمع هو القيّم على رشده وتصوراته.. فيتحول المجتمع من خلال الدعوة والتربية والتوجيه والقدوة الحسنة إلى مسار الرشد باختياره، وبدعم من السلطة السياسية التي تشجع وتبارك وتوظف الموارد من أجل ذلك، وذلك أفضل من الدفع القسري لمجتمع غير ناضج، وغير مستعد، وغير مستوعب ـ ونقول كذلك غير مؤمن ـ بالعمل الراشد، ولا بمسار الهداية الربانية!

فهناك إذن من الأحكام والقرارات التي تقوم عليها السلطة السياسية بحكم السلطة وبشرعية الحق، وهناك من الأحكام والقرارات التي تُخوّل سلطتها إلى المجتمع ليتحول هو إليها، وليكون هو المسؤول عنها، ويقلل كذلك تكلفة التحول، ويكون عن إيمان لا نفاق، وعن اقتناع لا قهر.. ومن ثم يتماسك المجتمع، ويتمتع بالحيوية اللازمة لاستمراريته.

ونضرب لذلك مثالاً ـ للتوضيح ـ وأرجو ألا يختزل أو يُخل بالمعنى أعلاه، وهو: "التزام الحجاب والاحتشام للنساء".. مفترض ـ فيما أرى ـ ألا تتدخل السلطة السياسية في إقرار "قوانين" للباس، وتُلبس النساء الملابس الشرعية بقوة القانون، وإنما هذا الأمر متروك لـ "السلطة الاجتماعية" المتمثلة في:

ـ الدعوة والتربية على التزام أحكام الدين وعدم إشاعة الفتنة بالملابس الفاضحة البعيدة عن الاحتشام.

ـ والقدوة الحسنة، ومباركة السلطة السياسية للقدوات الحسنة، باعتبارهم المثال الاجتماعي الذي تتجه النفس لتقليده والقياس عليه.

ـ والتشجيع الإعلامي عليها، من خلال الفن والأدب والصورة الإعلامية العامة... إلخ.

ـ والصناعة التجارية المتخصصة في الملابس ذات التسويق الجيد.

ـ ومنع ومحاصرة الاتجاه الفكري العلماني المضاد للحجاب والاحتشام، وتجفيف منابعه.

حتى يتحول الحجاب والاحتشام إلى "**قوة اجتماعية**" ذاتية، وهي لا شك أقوى من قوة القوانين.. وتأتي "**التربية**" لتجعل من هذا الفعل، وهذه السلطة ليس مجرد الوصول إلى هدف الاحتشام والحجاب فحسب، وإنما جعله "**عبادة ربانية**"، حتى يكون لها ميزان عند الله في الآخرة؛ لأنه دون الإخلاص لله.. لا قيمة له، ولا لغيره من الأعمال.

وكل ذلك يندرج تحت الأمر بالمعروف من الخير، والنهي عن المنكر مما يخالف الكتاب، بالحكمة والموعظة الحسنة..

مع الملاحظة ـ في مثالنا هذا ـ أن المرأة عنصر غير مقاوم، ولا عنيد.. ولا مُتَحدِية للسلطة الاجتماعية، إنها ببساطة عنصر سهل التوجيه، ومُستجيب، ويُتابع القدوة الاجتماعية النسائية السائدة في مجتمعه.

وهذا ما حصل بالفعل في مصر.. ففي فترة الستينيات من القرن العشرين كانت نساء مصر ـ إلا من رحم ربي ـ يلبسن ملابس فاضحة جداً تكشف أكثر مما تستر، ولم يكن غرضها الستر بل الإثارة! ثم لما فُتح المجال للدعوة الإسلامية ـ بفضل الله ـ رغم أن السلطة السياسية العلمانية كانت تُوظف هذا الانفتاح لصالحها! إلا أن الشاهد هاهنا أن الدعوة الإسلامية المجردة من وسائل إعلام الدولة، والمجردة من مباركة وأدوات الدولة استطاعت ـ بفضل الله ـ على قلة مواردها أن تُحدث نقلة اجتماعية هائلة حتى صار الحجاب والاحتشام هو الوجه العام للمجتمع في هذه الفترة.

والأمثلة على ذلك كثيرة في الموازنة بين السلطة السياسية والسلطة الاجتماعية، وكل ما تستطيع السلطة الاجتماعية عمله يجب على السلطة السياسية ترك المجال كاملاً ـ وتوفير الموارد اللازمة ـ للسلطة الاجتماعية التي تستخدم التربية والوعظ والإقناع والقدوات الحسنة، والكيانات الاقتصادية والصناعية، والمنابر الدعوية والإعلامية، ومراكز الثقافة والأبحاث والجامعات، والثقافة الراسخة، والحراك الاجتماعي المستمر نحو خلق مجتمع الرشد بالاختيار والحرية، لا بالاصطناع والقهر.

***

34- العدالة السياسية

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]

فجوهر الفكر السياسي وحركته ـ بعد الإيمان بالله ـ هو تحقيق "القسط والعدل"، وهذا القسط والعدل ليس مجرد رغبة أو شعور أو يقظة للضمير الإنساني أو لحظة عطف وشفقة، بل هو أساس ينطلق من قاعدة الإيمان بالله، ولهذا فتحقيق هذا القسط يقوم على:

ـ القيام لله، وهو أساس كل حركة، وإخلاص الدين كله لله، فحركة الأمة المسلمة كلها هي "قيام لله" وإنفاذاً لأمره.

ـ الشهادة بالقسط، والحكم بالعدل المجرد عن المحاباة ولو للنفس أو الوالدين أو الأقربين أو ذوي السلطة والنفوذ. وبالجملة الحذر من اتباع الهوى في تحقيق العدل.

ـ القيام لله، والشهادة بالقسط، والحكم بالعدل مجرداً عن بغض وكراهية وعدوان الآخرين؛ فتحقيق العدل هو أمر مطلق عن كل الأهواء (سواء أكانت إيجابية كالحب والموالاة أو سلبية كالمعاداة والبغض)، وهذا هو الذي يحقق التقوى، ودونه الفسق.

ـ انضباط وتفسير هذا العدل بشريعة الله ـ جل جلاله ـ وأمره ونهيه.

وهكذا نرى كيف يُربي هذا القرآن هذه الأمة، إنه ـ وقبل كل شيء ـ يربطها بالله، الذي إليه تُسلم، وبه تؤمن، وإليه المرجع والمصير، والحساب والجزاء، ثم بعد ذلك يجردها عن الهوى وهي تقوم بتحقيق العدالة الربانية المتطهرة من عوالق وجواذب الهوى والشنآن. إنها ميزة هذه الأمة.. ولقد كان لتحقيق هذه العدالة الربانية دوره البارز في حياة البشرية، فما أن رأى الناس هذه العدالة في صورتها التطبيقية الواقعية إلا ودخلت في دين الله أفواجا؛ لأنها ترى قلوباً ترجو ما عند الله، وتقدر على أن تظلم، وتعتدي.. فتمتنع ابتغاء مرضاة الله، وتحكم على نفسها والأقربين وذوي النفوذ منها، بالعدل المطلق المجرد. وترى الحق لأهل البغض والشنآن ـ ولو كانوا من الكافرين ـ فتحكم بالعدل المجرد؛ فيدرك الناس أن هؤلاء يرجون شيئاً أكبر من هذه الحياة الدنيا، ويؤمنون حق الإيمان بالله واليوم الآخر. فأَمَرنا هذا الدين بالشهادة بالحق ـ ولو كانت لعدو، ولو كانت لغير المسلم ـ ذلك أن هذا الدين لا يعرف إلا الحق المطلق من الهوى والشنآن، وإن فعل غير المسلم معنا خيراً قَبلناه منه، وشكرناه عليه، ورددناه بمثله أو خير منه، وأبقينا على حذرنا ويقظتنا الدائمة من كل الأعداء.

والتجرد من الهوى والمحاباة، والتجرد من الاندفاع للانتقام من الخصوم هو **جهاد كبير**، فالنفس الإنسانية تندفع لتميل مع الهوى؛ ولتُخفف من الضغط النفسي عليها بتفريغ شحنتها بأي صورة، ولكن ارتباط هذه المشاعر بالله ـ جل جلاله ـ هو الذي يضبط سلوكها، واندفاعها، إن ذكرها الدائم لله، وإخلاصها لله يخفف ـ بل يزيل ـ كل الشحن العاطفي؛ ليحل مكانه السكينة والطمأنينة والرضى.

وضمان تحقيق أي عدالة هو ارتباطها برب السموات والأرض ـ سبحانه ـ فهو الذي يضمن بحق تحقيق هذا العدل بمنتهى الصدق، فكل ملة، وكل قوم يزعمون العدل فإذا هو أظلم الظلم، ويزعمون الصدق فإذا هو الدجل والكذب، ويزعمون إحقاق الحقوق فإذا

هو الإفساد في الأرض، ويزعمون الدعوة إلى الإنسانية والحريات فإذا هو الاستعباد وعبادة الشيطان! ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 114-116]

وقد يحققون شيئاً من العدالة داخل أوطانهم ليس من أجل العدالة، وإنما من أجل ضمان الاستقرار السياسي، وما أن يخرجوا من حدود أوطانهم إلا ويفتكون بالإنسانية يسترقونها ويسرقونها، ويعتبرون هذا الفعل منتهى "العدالة" في موازينهم وقيمهم باعتباره الدفاع عن الأمن القومي للوطن الأم!! وهذه هي الجاهلية العمياء التي تخبط فيها البشرية الضالة عن كتاب الله، ونوره، وهدايته: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 29-30]

بينما الله ـ جل جلاله ـ يريد العدل للعالمين، ويأمر الذين آمنوا بتحقيقه لكل الناس، والجزاء عند الله في الآخرة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 108]

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188]

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58]

وهذا الكتاب إذ يدعو إلى العدل، فإنه يحذر تحذيراً رعيباً مخيفاً من الظلم الذي يدمر الحياة والإنسانية، ويقضي على الخلافة الراشدة في الأرض:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 13-14]

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ. إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 165-167]

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ. وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ. وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ [الشورى: 39-45]

وغيرها الكثير..

وأما الأحاديث الشريفة:

- "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ - صلى اللهُ عليه وَسَلم - يَتَقَاضَاهُ دَيْنًا كَانَ عَلَيْهِ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى قَالَ لَهُ: أُحَرِّجُ عَلَيْكَ إِلَّا قَضَيْتَنِي. فَانْتَهَرَهُ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا: وَيْحَكَ! تَدْرِي مَنْ تُكَلِّمُ؟ قَالَ: إِنِّي أَطْلُبُ حَقِّي. فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلى اللهُ عليه وَسَلم -: **"هَلَّا مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ"**، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ، فَقَالَ لَهَا: "إِنْ كَانَ عِنْدَكِ تَمْرٌ فَأَقْرِضِينَا حَتَّى يَأْتِيَنَا تَمْرُنَا فَنَقْضِيَكِ "، فَقَالَتْ: نَعَمْ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَقْرَضَتْهُ، فَقَضَى الْأَعْرَابِيَّ وَأَطْعَمَهُ، فَقَالَ: أَوْفَيْتَ أَوْفَى اللَّهُ لَكَ، فَقَالَ: **"أُولَئِكَ خِيَارُ النَّاسِ، إِنَّهُ لَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ"**(1)

- "عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم - الْمَدِينَةَ أَقْطَعَ الدُّورَ، وَأَقْطَعَ ابْنَ مَسْعُودٍ فِيمَنْ أَقْطَعَ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكِّبْهُ عَنَّا، قَالَ: **"فَلِمَ بَعَثَنِي اللَّهُ إِذًا؟ إِنَّ اللَّهَ لا يُقَدِّسُ أُمَّةً لا يُعْطُونَ الضَّعِيفَ مِنْهُمْ حَقَّهُ"**.(2)

- "عن رسول الله - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم - قال: **"إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ"**(3)

وقوله - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم -: **"وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم - بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ السَّفِيهِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ"**(4)

---

(1) [سنن ابن ماجه/ 2426]

(2) [المعجم الأوسط للطبراني/ 4949]

(3) [جامع الترمذي/2168]

(4) [مشكل الآثار للطحاوي/1163]

- وعنه - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم -: "**إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ إِنَّكَ أَنْتَ ظَالِمٌ، فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ**"(1) أي: فقدوا أهلية الحياة.

- "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم - قَالَ: "**تَكُونُ أُمَرَاءُ تَغْشَاهُمْ غَوَاشٍ، أَوْ حَوَاشٍ مِنَ النَّاسِ، يَظْلِمُونَ، وَيَكْذِبُونَ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ، فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَيُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَيُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ**"(2)

- "عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ أُسَامَةَ كَلَّمَ النَّبِيَّ - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم - فِي امْرَأَةٍ، فَقَالَ: "**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الْحَدَّ عَلَى الْوَضِيعِ، وَيَتْرُكُونَ الشَّرِيفَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ فَعَلَتْ ذَلِكَ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا**"(3)

كما كان الانتصار للمظلومين والمقهورين والمستضعفين له شأنه العظيم في رسالة الإسلام:

فعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم، قال: "**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(4)

وعنه صلى الله عليه وسلم، قال: "**مَا مِنَ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنَ**

(1) [مسند أحمد/ 6485]

(2) [مسند أحمد/ 10808]

(3) [صحيح البخاري/ 6787]

(4) [صحيح البخاري/ 2442]

امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ"[1]

وعنه صلى الله عليه وسلم، قال: "**اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ**"[2]

وغيرها الكثير...

هذه هي الأصول العامة في "العدالة السياسية" ـ التي هي موضوع مقالتنا ـ وإلا فهي عدالة في كل حركة، ونشاط، وسلوك، ونحن ـ وبشكل عام ـ نفسر السياسة بمعنى: **تنظيم الحركة الاجتماعية وسلوكها في الحكم، والقضاء، والاقتصاد، والتعليم والثقافة، والعلاقات الداخلية والدولية، والبناء الحضاري...** إلخ.

يقول العلاّمة ابن المبرد الحنبلي: «ويشترط للعدل [في الرئيس والأمير وولاة الأمور] عشرون شرطاً:

الأول: الحكمُ بالحق، والوقوف عنده، كما قال -عزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47]، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45]، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]

وقال: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص: 26]. وكان عمر وقّافاً عند كتاب الله.

---

(1) [سنن أبي داود/ 4884]

(2) [مسند الإمام أحمد/ 12140]، وفي رواية: وإن "كُفْرُهُ عَلَى نَفْسِهِ".

الثاني: أن يستوي عنده في الحق والحكمِ به له وعليه، نفسُه وغيرُه، وولدُه ووالده، وصديقُه وقريبُه وعدوُّه، فلا يميل مع أحد، ولا عليه، حتى ولا يكلِّمُه، ولا ينظرُ إلا بإصغاء.

الثالث: أن لا يأخذ لأحدٍ وزنَ ذَرَّةٍ ظلمًا بغير حَقٍّ، لا من مالٍ، ولا عِرْضٍ، ولا دمٍ، ولا غيرِ ذلك.

الرابع: أن يكون ناظرًا في أمر رعيته من غير إهمالٍ لهم، يمرج بعضهم على بعض، ويعدو بعضُهم على بعض، ويظلم بعضُهم بعضًا. قال البخاري: مرجَ الأميرُ رعيتَه: إذا خَلاّهم يعدو بعضُهم على بعض.

الخامس: أن لا يُغلق بابه عن أحد، ولا يحجُبَ عنه أحدًا من ذوي الضرورات والحاجات من الأغنياء والفقراء والمساكين، وجميع رعيته.

السادس: النظر في جميع البلاد التي تحت يده، القاصي والداني؛ كنظره في بلده؛ فإن عمر كان يقول: لو ذهبَتْ شاةٌ بالفراتِ، لخشيَ عمرُ أن يُطالَب بها.

السابع: منع جميع أعوانه وعمّاله ومَنْ عنده من الظلم، وكَفُهم عن الناس؛ فإنَّ فعلَهم فعلُه، وكل أحدٍ منهم منتسبٌ فعلُه إليه.

الثامن: الذبُّ عن المسلمين وأهلِ ولايته؛ من المسلمين، وأهل الذمة، ودفعُ الأعداء عنهم، وحمايتُهم جهدَه، وحمايةُ البيضة، ودفعُ المخاوف عنهم.

التاسع: إقامة الحدود على فاعِلها من قريبٍ وبعيد، عدوٍّ وحبيبٍ، من غير رأفة ولا رحمة؛ لقوله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: 2]. وقوله -عَلَيْهِ السَّلَامْ: **"لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا"**.

العاشر: اجتنابُ المعاصي والمفسِدات؛ من الزنا والسُّكر والربا، وغير ذلك من الأمور المدنسة في نفسِه وأعوانه.

الحادي عشر: الظهورُ للناس بالمخالطة، وتفقدُ الأحوال ليلًا ونهارًا، كما ورد عن عمرَ: أنه كان يدور في الأسواق بنفسِه، وكان يَعُسُّ بالليل ينظرُ أحوالَ الناس.

الثاني عشر: قَسْمُ مالِ المسلمين بينهم بالعدل، من غير حَيْفٍ ولا طمع في شيء منه من الإقطاع، وأموال بيت المال التي هي للمسلمين، كما كان عمرُ وغيرُه من الخلفاء يَقْسمون ذلك على مُستحقيها، ولا يختصُّ بشيء من أموال المسلمين التي ببيت مالهم، ولا من بلادهم التي هي إقطاعُهم، لا لنفسه، ولا لأحد من له ذلك من قريب وبعيد وأعوان، وغيرهم.

الثالث عشر: إنصافُ المظلومين من ظالميهم بمقتضى ذلك، فإن كان بأخذِ مالٍ، فبأَخذِه وردِّه، وإن كان بما يوجب الحدَّ من قذفٍ ونحوه، فبإقامة الحدِّ فيه، وإن كان بعِرْضٍ، أقام ما في ذلك.

الرابع عشر: إن الأمور المتعلقة بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يُقيمها، ولا يراعي فيها أحدًا، ويقيم ما فيها من حَدٍّ، أو كفّارة، أو غير ذلك.

الخامس عشر: إزالةُ الضرورات العامة عن المسلمين.

السادس عشر: إقامةُ المصالح العامةِ، والنظر فيها؛ من الطرقات والمساجد والجوامع والمنارة وغير ذلك.

السابع عشر: قمْعُ المفسدين من قُطّاع الطريق واللصوص والمؤذية بالضرب والحبس وأنواع العقوبات.

الثامن عشر: إقامةُ المعروفُ وردعَ المناكر، وإزالتُها حيث كانت؛ من الخمّارات، وشرب الحشيش، والزناة والزواني، وإزالة الأماكن المعدّة للمنكرات حيث كانت.

التاسع عشر: إقامةُ العبادات على وجهها؛ من الصلوات، والزكاة، والصوم، والحج، وعدم تعطيل شيء من ذلك.

العشرون: إزالةُ البِدَع عن الدين، وقمْعُ المبتدعين، وإزالةُ رسومِهم وأشكالهم؛ بحيث يصير الدينُ خالصًا من ذلك.»[1]

***

ولما دخلت الأمة مرحلة "الملك العضوض" وتبدلت "السنة النبوية" في الحكم، اهتزت بعض ـ أو كثير ـ من هذه الأصول في حس بعض المسلمين؛ حتى سوغت الظلم والبغي والعدوان، ولا شك في أن هذا باطل، أدى إلى تسلط الظالمون على حكم المسلمين.[2]

كما أن "محاولة إصلاح الحكم عندنا، تأثرت بعقدة صفين أولاً.. وتأثرت ثانياً: بما شاع من أحاديث وأحكام كثيرة تُسوغ الظلم، وتجعل الخروج على الحاكم كأنه الكفر أو دونه الكفر.. وهذه مسألة خطيرة في تاريخنا... أنا لا أدعو للقتل، إنما عندما تكون الشعوب في سجن وضعها فيه الحاكم، فمن حقها أن تكسر السجن، وتقتل السجّان.

عندنا أحاديث كثيرة، أكثرها ضعيف أو موضوع ـ للأسف ـ جعلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدخل في نطاق ضيق محدود؛ حتى لا يتجاوز هذا النطاق للمساس بالحاكم أو الحكم.. فالمسألة: لابد من أن نقول: هذا خطأ."[3]

---

(1) [كتاب: "إيضاح طرق الاستقامة في بيان أحكام الولاية والإمامة"، ابن المِبْرَد الحنبلي (المتوفى: 909 هـ) (ص146)]

(2) انظر ـ إن شئت ـ كتاب: "أمراض الاستبداد ـ الجزء الثالث"، الباب الثالث "آلية شرعنة الاستبداد".

(3) [كتاب: "كيف نتعامل مع القرآن" للشيخ محمد الغزالي، ص96]

والعودة إلى الرشد، وإلى السنة النبوية يقتضي العودة إلى الكتاب والدوران معه حيث دار، والتمسك بالأصول الربانية الصحيحة، وهذا شرط الخلافة الراشدة في هذه الأرض: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 123-124]

وقد يتلاعب الشيطان بالبعض، ويُزين له الخروج عن هذه "العدالة الربانية" باسم مصلحة الأمة أو مصلحة الإسلام أو مصلحة الأسرة أو الحزب الحاكم... إلخ من وساوس الشيطان؛ فيروح يظلم ويبغي في الأرض بغير الحق، ثم هو بعد ذلك يحسب نفسه ولياً لله، ومقيماً لدينه وشرعه، وهذا من التهوك والتخرص الذي يُهلك الإنسان، ويُفسد المفاهيم والتصورات، ويحطم القيم والموازين الصحيحة[1]..

إن **المصلحة العليا** الجديرة بالجهد والعمل والاهتمام والحركة هي: **الامتثال للعدالة الربانية، وتحقيقها في واقع الحياة عن يقين تام في ثمرتها، وخيرها، وبركتها، ورشدها، وفلاحها في الحياة.**

وإنَّ الإبصار بنور هذا الكتاب ليكشف مواطن الظلم ويعالجه، ويقيم بناء التقوى والرحمة والعدل، وتشرق الروح بنور الله جل جلاله..

إنَّ الذين آمنوا حقاً يُبصرون بنور الله ـ في هذه الحياة ـ ومهما تعقدت ومهما كانت تحدياتها، ومهما استجد من أحوالها، فإن أهل الإيمان الحق يكونون من أهل التوفيق والسداد لا الخزي والخذلان، ويكونون من اليقظة والحذر بحيث لا يستخف بهم ولا يخدعهم أحد، فالقلوب والعقول القائمة لله تكون ـ بفضل الله ـ خبيرة ومتخصصة في شؤون الحياة، وتجتمع الفطر السوية، والعقول الراشدة على تحقيق العدل كما أمر الله..

(1) انظر مقال: "المتهوكون والمتخرصون".

العدل المطلق المجرد، المتبع شريعة الله، والذي يتواضع لله، ويرجو مع عند الله سبحانه وتعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 52-53]

***

35- المصلحة العليا

في الدول الديمقراطية: المصلحة العليا مفترض فيها أن تكون للوطن (كنظام سياسي، وكيان اجتماعي) وإعلاء شأن هذا الوطن، والانتصار لأيديولوجيته، وتحقيق مصالحه المادية، والوطن هنا ـ بالمعنى الفلسفي ـ كلٌّ مطلق، وغاية في حد ذاته.. ومن ثم فمن حق هذا الوطن الاحتلال، وقهر الشعوب الأخرى.. حيث تحقيق المصالح المادية لا يعرف المبادئ الأخلاقية (فالغاية تبرر الوسيلة)، ورغم أنها دول ديمقراطية.. فهذه الديمقراطية هي داخل حدود الوطن، فهي ـ بنظرهم ـ تُحقق منفعة الاستقرار السياسي والاجتماعي، وتعمل على التداول السلمي للسلطة، ولكن خارج حدود هذا الوطن فالمنفعة تتحقق بالاحتلال، وسرقة الثروات، واستعباد الشعوب الضعيفة..

والترويج للديمقراطية بين الشعوب المحتلة والضعيفة، هو ترويج لأيديولوجيا غربية في مقابل أيديولوجيات أخرى؛ لتحقيق منفعة الهيمنة الثقافية والاقتصادية والسياسية، وليس إرادة الخير بالشعوب الضعيفة، بل الديمقراطية الغربية هي أقوى وأكبر داعم للديكتاتوريات العربية ـ مثلاً ـ وهي أكبر صانع للانقلابات العسكرية في العالم.. وهذا هو المتوقع عندما نفهم الأمور بالعقلية الغربية، لا بالعقلية الترويجية التي تستهدف الخداع والسيطرة على عقول الشعوب الضعيفة.

والمصلحة العليا ـ عندما يكون النظام السياسي أميناً على شعبه ـ تتمثل في مصلحة الوطن ككل، وهذا الوطن لا بد من أن يكون تكوينه "علماني قومي"، ونادراً ما تحصل المصلحة للوطن ككل بتجرد وإخلاص.. إذ تتحول المصلحة العليا في الدول الديمقراطية إلى "مصلحة الحزب" ومصلحة قواعده الانتخابية، ومصلحة الأسر والعائلات النافذة مادياً وإعلامياً وسياسياً، ومصلحة جماعات الضغط، والتمويل، والشركات الكبرى التي تُمول الحملات

الانتخابية وتُكلّف مئات الملايين من أجل الحشد والترويج والتوجيه ـ حتى ولو تعارضت مصالحهم مع مصالح الوطن، بل وغالباً مما تتعارض وتكون ضد مصالح الوطن ـ ولا يخفى دور "يهود" في ذلك من حيث القدرة المالية والإعلامية والنفوذ... إلخ.

حيث التداول السلمي للسلطة يجعل الحزب يستغل فترة حكمه المحددة السنوات في تحقيق مصالحه، وفي محاولة الحفاظ واستقطاب أكبر قدر ممكن من الجماهير.. وبحكم وجود الرقابة، والأدوات المؤسسية الأخرى، وتوزيع السلطة فلا يبلغ الأمر مداه! فيعمل الحزب على تحقيق مصالح الوطن ومصالحه بصورة فيها نوع من التوازن والقبول والعرف السياسي.. ولذا تكون أفضل حالاً بمستويات كثيرة من الدولة الاستبدادية، ويجعلها النموذج المنشود لدى الكثير!

***

في الدول الاستبدادية الباغية: المصلحة العليا هي في شخص الحاكم وعائلته، أو في القائد العسكري وجيشه، وكل ما بعد ذلك توابع، وهوامش لا قيمة لها.. فالحاكم (ملكاً أو عسكرياً) هو الوطن، وهو الهوية، وهو المصلحة العليا، وهو الشعب.. هو "الرب الأعلى" ـ والعياذ بالله ـ وهذا هو "**دين الفرعونية**" ـ "**دين المَلك**"، في هذه الدول يدور كل شيء حول "شخص الحاكم" حتى إنه في بعض حالات الجنون.. يُضحي (الملك والعسكري) بأسرته وعائلته، وبجيشه من أجل البقاء أطول فترة ممكنة في السلطة.. ولا يمنعه عنها سوى "الموت"!

يتحول الملك والعسكري حرفياً إلى تمثيل **صور الربوبية** ـ من الناحية النفسية ـ فهو يعيش ويحكم على أنه خالد مخلد، وهم أكفر الناس بالحساب واليوم الآخر (في حالة نسيان كلي له، وإعراض تام عنه): ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 22]

وأشد الناس تكبراً في الأرض: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 27]

وتصبح النصيحة البريئة من أي غرض جريمة كبرى فيها "اعتراض" على حكمة الفرعون ـ الملك، وفيها استدراك على قراراته، وفيها تفكير مخالف لحكمته، فلا مجال إلا **التسليم الكلي المطلق للرب المزعوم.**

في هذه الدول ـ بطبيعة حالها ـ لا يوجد رقابة أو محاسبة، فما يقرره الملك والحاكم العسكري هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن عكس قراره غداً فهو أيضاً الحق، فهم لا يُسألون عما يفعلون.. ويحكمون لا معقب لحكمهم!

ويصل بهم الأمر إلى قتل أبنائهم وأحبائهم إذا شكوا لحظة في أنهم لا أقول ينافسونهم على المنصب، بل ربما ويحتمل أن يكونوا مصدر تهديد أو اعتراض يوماً ما!

ويتخذون من القرارات ما تُفسد حياة الناس، وتذهب بمقدراتهم وثرواتهم وهم يلهون ويلعبون، أو لمجرد لحظة غضب.. وهم مستعدون لإبادة شعوبهم عن بكرة أبيها.. فهم ـ من الأساس ـ يعتبرونهم ملكية لهم، أو مجرد هوامش وديكورا!

فالسلطة ها هنا حالة مَرضية (لا شفاء منها)، وإدمانية (لا علاج لها)، وإفسادية (لا صلاح معها)؛ ولذا على مر التاريخ لم يكن هناك علاج لمرض الفرعونية ودين الملك إلا بقتل الفرعون والملك.. ولم تستطع دولة الخلاص منهم بالطرق السلمية..

كما أن المعضلة ليست من التخلص من الفرعون فحسب، بل في اجتثاث "**الشجرة الخبيثة**" التي طلعها رؤوس شياطين الإنس، ولديها من الفراعين أشكالاً وألواناً! وفي علاج "**فسق**" الناس الذي أحدثه استبداد الفرعونية..

والذين يُفضلون الطرق السلمية المجردة لا يستوعبون معنى "**السلطة**" بالنسبة لمن يَدين بدين الفرعون والملك.. إنها تمثل "الروح" من الجسد؛ لذا فهم يدافعون عنها حتى الموت، ولا يتصورن الحياة بدونها! كما أنهم لا يتصورون أن ينزلوا عن منزلة "الربوبية المزعومة" إلى منزلة أدنى، كما أنهم يعرفون أنهم ارتكبوا من الجرائم والخيانات والسرقات ما يجعل أهون حكم عليهم ـ إذا حُكِموا ـ هو القتل آلاف المرات!![1]

وفي الأنظمة والجمهوريات العسكرية ـ وأحياناً الملكية ـ يضطرون إلى عمل "أشكال ديمقراطية" مثل البرلمانات، والمجالس النيابية والشعبية... إلخ، وهي مجرد ديكور، وتوزيع للمنافع على المقربين، والجميع يعرف أنها لا تُقدم شيئاً ولا تُأخر، ولكن يخدع فيها بعض من يؤمن ويستجيب للدعاية الغربية للديمقراطية على أنها الخلاص للشعوب الضعيفة والمُستعبدة!

وهذه الدول إما يكون استبدادها ذاتياً من داخلها، وإما أن تكون حكوماتها ونظامها مجرد خدم وتوابع للمحتل الأجنبي، ويؤدون دوراً وظيفياً خدمياً في تحقيق مصالحه أي (احتلال غير مباشر)، ومنهم من يتطوع بأداء هذه الخدمة مقابل دعم سياسي ومادي.

وهناك من الدول ـ وهي في مراحل التحول ـ تكون وسطاً بين معالم الدول الديمقراطية، ومعالم الدول الاستبدادية.

***

في الدولة الإسلامية:

الدولة الإسلامية هي الدولة التي ينبثق نظامها السياسي من المجتمع المسلم لله ولشرعه.. وتُنظم حياتها وفق نور الوحي.. المصلحة العليا فيها ليست للوطن مجرداً؛ فهو مجرد وسيلة لغاية الاجتماع الإسلامي الإنساني ونظامه السياسي المنبثق عن إسلامه، وليست المصلحة

(1) انظر ـ على سبيل المثال ـ كتاب: "فوق الدولة، وتكاليف الفساد في مصر".

العليا فيها لطائفة أو حزب، وبالتأكيد ليست المصلحة العليا فيها لفرد مستبد.. **فالإسلام هو المُجاهد الأول للفرعونية، وهو المحارب الأول لـ "دين المَلك"..**

المصلحة العليا في الدولة الإسلامية هي: "**أن تكون كلمة الله هي العليا**"، وأن يُمكن لدين الله في الأرض، ويكون كل عمل "ابتغاء مرضاة الله، وفي سبيل الله" المصلحة العليا في: القيام لله إخلاصاً، وتحقيق القسط والعدل عملاً، وفي القيام بالقسط متجرداً.. والشهادة لله توجهاً وقصداً وإرادة، مهما توهم البعض أن يترتب على ذلك فقدان مصالح مادية أو مكانة أو سلطة أو نفوذ... إلخ.

هذه هي المصلحة العليا التي يعمل النظام السياسي على تحقيقها، ويدعم النظام والكيان الاجتماعي سبيلها ويبذل التضحيات من أجلها.

وهي بذلك **مناقضة للدولة الديمقراطية** التي تتحرك في إطارها العلماني المادي الدنيوي؛ الذي لا يعترف بدين ولا قيم أخلاقية.. إنما هي المصلحة سوى أكانت للأرض أو المجتمع أو الحزب.. والمصلحة هي تحصيل أكبر قدر ممكن من متاع الدنيا، من مال وسلطة ومتاع.

وهي بذلك **مناقضة للدولة الاستبدادية** الديكتاتورية المطلقة.. التي يظن فيها الحاكم أنه إله، أو نصف إله.. ويحكم من هذا المنطلق، ويكرر النموذج الفرعوني المذكور في القرآن الكريم، وهو نموذج من الضلال المبين.

والدولة الإسلامية (وتحقيق مصلحتها العليا) يكون فيها:

ـ الإسلام يَعلو ولا يُعلو عليه، وتحقيق العبودية الخالصة لله. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]

ـ تبليغ رسالة الله للناس جميعاً، فهي رسالة أثقل من ملء الأرض ذهباً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 91] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 36]

ـ أولوا الأمر من المؤمنين المتقين هم أهل الشورى، والدفع بالأفضل في كل مكان (أمانة وإتقاناً).

ـ تمثيل أكبر قدر ممكن من المكونات الاجتماعية، وإنزال الناس منازلها، كما هي السنة النبوية.

ـ لا قداسة لفرد ولا لطائفة.

ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة في الأمور السياسية والمالية والاجتماعية.. ومن ينبثق عنها من آليات الرقابة والمحاسبة، وفق ظروف العصر، وأدوات حضارته.

ـ محاربة الفرعونية، والقضاء على دين الملك، والقضاء على الظلم والعلو في الأرض بغير الحق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: 47]

ـ محاربة عبادة الدنيا، والغفلة عن الآخرة، وإعلاء القيم العليا، ومرجعية الكتاب وسيادته.

فهي تجمع بين الدنيا والآخرة..

الدنيا: في ضمان السعادة البشرية، وتحقيق المصلحة الربانية بالشورى والعدل والرضى، ومنع الفساد والاستبداد، ومحاسبة ومحاربة المفسدين.. وتوفير الآليات والضمانات التي توفر الرقابة المناعة للفساد السياسي والمالي.

وبين **الآخرة**: بإخلاص العمل لله، وإعلاء كلمته، ورسالته، وكتابه وشريعته؛ وبذلك تحقق مصلحة الإنسانية في إقامة الخلافة الراشدة في الأرض، وإخلاص الدين كله لله.

***

36- الخطاب السياسي

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2-3]

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105]

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]

وفي الحديث الشريف:

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ قَالَ: "**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**"(1)

ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم: "**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ سِنِينَ خَوَادِعَةً، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَتَكَلَّمُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: "**الْفُوَيْسِقُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**"(2)

أصبحت الخطابات السياسية اليوم صناعة يقوم عليها أدباء ومفكرون ومحترفون وخبراء في الإعلام، وما تكاد تسمع خطاباً سياسياً من أي سياسي مهما كان دجالاً مجرماً خواناً أثيماً، إلا وتجده خطاباً مقبولاً، يحمل صفات العدالة والعقلانية!

وتتنوع لغة الخطاب ما بين العاطفي الذي يدغدغ عاطفة الجماهير، وما بين الحزبي الذي يُرضي القاعدة الشعبية، وبين الوطني الذي يحرك عاطفة الجماهير نحو المصلحة العامة، وغيرها من الأنواع حسب الجهة ـ أو الجهات ـ المقصود بها التأثير والتوجيه.

---

(1) [صحيح البخاري/ 33]

(2) [مسند أبي يعلى/ 3715]

الغالبية العظمى من هذه الخطابات، لا تتجاوز "مرحلة الخطابة" أي كلام فقط، كلام بلا عمل.. وقد يكون العمل على أرض الواقع هو العكس تماماً من مضامين الخطابات السياسية.. فتكون مجرد آلية لخداع الجماهير وتشويه وعيهم!

وهذا السلوك لا تعرفه السياسة الإسلامية، ولا الخطاب الإسلامي.. إنما الخطاب الإسلامي ـ وهو في جوهره دعوة إلى الله ـ لا يمكن أن يكون وسيلة لخداع أو إلهاء الجماهير، بل وسيلة للتقرب إلى الله، ورفع الوعي، وكشف الحقائق، بمنتهى الصدق، والأمانة، والوفاء؛ لأنه خطاب يهدف إلى رضى الله ـ جل جلاله ـ والوفاء والخلافة عن رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أصدق ما قاله ربعي بن عامر لإمبراطور الفرس عندما سأله ما الذي جاء بكم؟

فقال: "اللَّهُ ابْتَعَثَنَا، وَاللَّهُ جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ مِنَّا ذَلِكَ قَبِلْنَا ذَلِكَ مِنْهُ، وَرَجَعْنَا عَنْهُ وَتَرَكْنَاهُ وَأَرْضَهُ يَلِيهَا دُونَنَا، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ. قَالَ: وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ؟ قَالَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى، وَالظَّفْرِ لِمَنْ بَقِيَ."[1]

يهدف الخطاب الإسلامي إلى المصارحة والمكاشفة والشفافية ليكون الناس على بينة من أمرهم، وفي وعي صادق لما يدور حولهم.

وإنَّ عالم السياسة الحقيقي ـ وبعيداً عن الخطابات الموجهة للجماهير ـ يدور خلف سُتر كثيفة لا يعرفها ولا يطلع عليها الجماهير.. صحيح أن هناك جانباً من "السرية والتحوط والكتمان" في بعض القرارات وأدوات التنفيذ يجب مراعاته، حفظاً للأمة من أعدائها، والمتربصين بها، إلا أنه في حالة خيانة ونفاق وغدر النظام السياسي ـ أو بعض رجاله ـ

(1) [تاريخ الطبري/ ج 3 : ص 261]

تحول هذه "السرية" إلى وسيلة لستر جرائم السياسيين، وتجهيل الأمة، واستغفالها، والتمويه عليها بالخطابات الرنانة، التي ترضي الجماهير، بينما يكون الواقع عكس مضامين تلك الخطابات..

إنَّ النظام السياسي ـ عندما يفسد ـ يتحول من حالة العداء تجاه أعداء الأمة الحقيقيين إلى معاداة الأمة نفسها، والتآمر عليها، وخداعها بالخطابات، وتجهيلها بالكذب والخداع، وما يُشجع على الفسوق! ويحاصرها بمنظومة شيطانية يُكمل بعضها بعضاً من خلال: (أجهزة الأمن والاستخبارات التي تتجسس على الشعب لمصلحة المفسدين في الأرض وترهبهم وتتوحش عليهم، وهيئات القضاء التي تسحق كل قائل بكلمة حق، وتسن القوانين التي تُجرم الصادقين وتؤمن الخائنين، وأذرع إعلامية تغتصب العقول وتشيع الفواحش، ومنظومة اقتصادية يدور مالها لمصلحة المفسدين) ويصبح الشعب بذلك أسيراً ذليلاً، مخدوعاً ـ صباح مساء ـ بخطابات الوعود البراقة التي ستجعله أعظم شعب في العالم، وهو على بعد خطوات من التنمية الاقتصادية الشاملة، والرفاهية التي يستحقها هذا الشعب العظيم... إلخ من الدجل الذي يشبع منه الناس بعد فوات الأوان.

والحال لا يختلف كثيراً ـ من حيث الدجل والنفاق ـ في الأنظمة السياسية الديمقراطية في الغرب، فهي أيضاً تحترف خداع شعوبها، وتخضع لإملاءات أصحاب المال والأعمال، وجماعات الضغط، وتتلاعب على الاستقطاب الجماهيري في فترة الانتخابات، حتى يتم لها ما تريد.. ثم بعد انتهاء فترات الاستحقاقات الانتخابية، تمضي السياسة في مجراها الذي يحدده من يمول ومن يدفع ومن يستطيع الضغط، وكلها أمور ليس لها علاقة بمصلحة الجماهير وعموم الناس.

والعجيب إنَّ بعض العلوم السياسية، والإعلامية، والعلاقات العامة تُدرس هذا الدجل، حتى تُخرّج المحترفين في هذا المجال؛ ليأخذوا مناصبهم في عالم السياسة

والدبلوماسية وليكونوا مديرين للحملات الانتخابية والعلاقات العامة وأعضاء الفريق الرئاسي والحزبي.

وكل هذه الأخلاقيات لا يعرفها الإسلام، ولا يدعو إليها.. ولا يُبررها بأي حال من الأحوال، بل يدعو إلى: الصدق، والوفاء، والأمانة، يدعو إلى مطابقة القول الصالح للعمل الصالح، وكان المقت الأكبر، والذنب الأعظم من المنظور القرآني أن يقول المسلم ما لا يفعل.. فما بالنا أن يقول المسلم الخيرات ثم يفعل الفواحش والموبقات كلها!

فالقيم الأخلاقية الربانية يجب أن تكون فوق ما يُظن بأنه مصلحة سياسية عاجلة، فالحق البيّن فوق طاغوت الباطل وبأسه.

وجدير بالذكر.. إنَّ أشد ما يصد الناس عن سبيل الله هو التزي بلباس التقوى شكلاً، ومضموناً يكون الفجور، فتكون أفعال من سمته سمت الصالحين هي الفساد والكذب ومعاونة الظالمين، عندها يدرك الناس ـ وللناس حاسة تعرف بها الصادقين ـ أن دعاة التقوى هؤلاء ما هم إلا دجاجلة يقتاتون بألسنتهم المفوهة، وسمتهم المتصنع؛ فلا يسمعون ولا يستجيبون.. وعندها يجدون لا فرق بين من يدعو إلى الدين، وبين من يدعو إلى العلمانية.

***

إنَّ "الخطاب السياسي" في التصور الإسلامي لا بد من أن يكون:

ـ خطاباً ربانياً ينطلق باسم الله، في سبيل الله، على سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، لتحقيق "الحق والعدل والرحمة" بين الناس.

ـ وأن يكون خطاباً صادقاً هدفه بيان الحقائق، وتعريف الناس حقوقها، وما عليها من واجبات.

ـ وأن يكون لكل خطاب "خطة عمل"، وليس مجرد كلمات جوفاء، لا أثر لها ولا قيمة.

ـ وأن يوضح "الرؤية العامة" و"الخطط المرحلية والزمنية" حتى لا يتوقع الناس أكثر من الحقائق العملية على أرض الواقع.

ـ وأن تكون معالم وحقائق "الخطط التنفيذية" هي عمل الشكر، والصالحات لله.. وشكر نعمه وفضله بهذا "العمل الصالح".. فمع الشكر الزيادة في كل شيء، في المال والصحة والبركة والعزة والسيادة، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7] وقال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]

ـ وأن يكون خطاباً يجمع الأمة، ولا يمزقها، ولا يفرقها، ولا يجعل بأسها بينها.

ـ وأن يراعي الأحوال النفسية والاجتماعية والثقافية والفكرية، ويظهر بصورة فيها: التمكن والإتقان والاحترافية والإقناع بحيث لا يستخف به الناس، أو ينفروا عنه.. ومن جانب آخر: يكون فيه عزة واستعلاء أمام الأعداء.

ـ وأن يكون معتدلاً متوازناً يراعي أفهام الناس وطريقة استيعابهم(1)، مع ربطهم دوماً بذكر الله، كما هي صفات المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191]

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال "فرق السرعات".

وقال عَلِيٌّ رضي الله عنه: "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ".[1]

وهذه المصداقية والأمانة ليس غرضها مجرد كسب رضى الناس، ففي زمن عز فيه الأمانة.. تتحول الأمانة نفسها إلى سلعة تسويقية، ومغنماً، إنما غرضها الأساس رضى الله ـ وإنْ سخط الناس ـ وأداء كلمة الحق لوجه الله الكريم.

***

(1) [صحيح البخاري/ (ج 1 : ص 34)]

37- حتى لا يتحدث الناس

كانت السياسية النبوية الشريفة سياسة تراعي التوازنات الاجتماعية، وتراعي أفهام الناس ودرجة وعيها، وتُغلّب الرحمة عندما لا تكون ضعفاً، وتُغلّب التسامح عندما لا يكون تنازلاً، وتُغلّب العفو عندما لا يكون عجزاً.

وهذا ما حصل مع رأس النفاق "عبد الله ابن سلول" والذي كان من كبار رجالات المدينة وأوشك أن يكون حاكمها ورئيسها لولا تشريف رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لها، فظل حاقداً على رسول الله والمسلمين.. لضياع الرياسة منه!

وجاء فيه: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون (8)]. ويقصد بنفسه أنه هو الأعز، ورسول الله ـ عليه أفضل صلاة وسلام ـ هو الأذل!

ومما ورد من الروايات في ذلك:

ـ عَن جابر بن عبد الله يَقُولُ: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا وَكَانَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ: الْأَنْصَارِيُّ يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ: الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ: "**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ**، قَالَ: مَا شَأْنُهُمْ فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا لَئِنْ رَجَعْنَا

إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْخَبِيثَ لِعَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**"[1]

- "سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، قَالَ سُفْيَانُ: مَرَّةً فِي جَيْشٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: " مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: "**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**"، فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَامَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "**دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**"، وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا بَعْدُ"[2]

- عَنْ عروة بن الزبير: أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ لَمَّا أَتَوُا الْمَنْزِلَ، وَقَدْ جَلَا أَهْلُهُ أَجْهَضُوهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ دَجَاجٌ فِي الْمَعْدِنِ، فَكَانَ بَيْنَ غِلْمَانٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَغِلْمَانٍ مِنَ الْأَنْصَارِ قِتَالٌ، فَقَالَ غِلْمَانٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ! وَقَالَ غِلْمَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا لَلْأَنْصَارِ! فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ، فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يُنْفِقُوا عَلَيْهِمُ انْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، أَمَا وَاللَّهِ ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَمَرَهُمْ بِالرَّحِيلِ مَكَانَهُ يُشْغِلُهُمْ، فَأَدْرَكَ رَكْبًا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فِي الْمَسِيرِ، فَقَالَ لَهُمْ: "أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا قَالَ الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ؟" قَالُوا: مَاذَا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قَالَ: "أَمَا

(1) [صحيح البخاري/ 3518]

(2) [صحيح البخاري/ 4905]

وَاللَّهِ لَوْ لَمْ تُنْفِقُوا عَلَيْهِمْ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ"، قَالُوا: صَدَقَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَنْتَ وَاللَّهِ الْعَزِيزُ وَهُوَ الذَّلِيلُ"(1)

ـ "قَالَ أُسَيْدٌ: فَأَنْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْرِجُهُ إِنْ شِئْتَ، هُوَ وَاللَّهِ الذَّلِيلُ وَأَنْتَ الْعَزِيزُ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ارْفُقْ بِهِ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِكَ، وَإِنَّ قَوْمَهُ لَيَنْظِمُونَ لَهُ الْخَرَزَ لِيُتَوِّجُوهُ، فَإِنَّهُ لَيَرَى أَنَّكَ قَدِ اسْتَلَبْتَهُ مُلْكًا، ثُمَّ مَشَى رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِالنَّاسِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى أَمْسَى، وَلَيْلَتَهُمْ حَتَّى أَصْبَحَ، وَصَدْرَ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى آذَتْهُمُ الشَّمْسُ، ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ، فَلَمْ يَكُنْ إِلا أَنْ وَجَدُوا مَسَّ الأَرْضِ وَقَعُوا نِيَامًا، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِيَشْغَلَ النَّاسَ عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي كَانَ بِالأَمْسِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ"(2)

ـ " عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ، قَالَ: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾، قَالَ: وَذَاكَ فِي غَزَاةِ تَبُوكَ، قَالَ: وَمَا نَزَلَ آخِرُ النَّاسِ بَعْدُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "ارْتَحِلُوا ارْتَحِلُوا"، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلا نَأْمُرُ رَجُلا مِنْ قَوْمِهِ فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ: **"إِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ يَغْضَبَ فِي ذَاكَ مَنْ لا أُحِبُّ أَنْ يَغْضَبَ"**(3)

وكان ابن سلول يتلون ويحاول أن ينجو مما يبثه من سموم وأكاذيب بالحلف الباطل والكذب، ويتفلّت من الإدانة بالحيلة.. وربما كان لابن سلول من المسلمين أحلاف وأنصار لا يعلمون حقيقته، ولا يدركون خبثه.. والذي ربما كان قتله يسبب أزمة بين الأنصار ـ الذي ينتمي إليهم ابن سلول ـ والمهاجرين.. ونور الوحي مازال يحاول أن يجلي آثار ودعاوى الجاهلية التي وقعت عندما تنادى كل فريق على قومه! ولذا أمرهم الرسول

(1) [مصنف ابن أبي شيبة/ 37834]

(2) [جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ [ج 22 : ص 669]

(3) [المراسيل مع الأسانيد لأبي داود/ 509]

ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالرحيل حتى يشغلهم، ولا تقع فتنة في صفوف الأنصار والمهاجرين، وذلك من حكمته البالغة عليه السلام!

إذ أشفق رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يُحدث قتله ما لا يُحمد عقباه، فراعى أفهام الناس، وعواقب الأمور، أو كما قال عليه السلام: "**إِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ يَغْضَبَ فِي ذَاكَ مَنْ لا أُحِبُّ أَنْ يَغْضَبَ**" ولم يحب أن يُشاع عنه: "أنه كان يقتل أصحابه" ولم يكن ابن سلول من أصحابه، ولكنه محسوب على مجتمع المدينة، ومن رجالاتها، وينتسب إليها! فراعى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا الانتساب، ودفع شر "السمعة السيئة (يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه)"، والفتنة في صفوف الأنصار والمهاجرين.. باحتمال نفاق ابن سلول، سيما وأن القرآن الكريم لا يفتأ يطلق الحملات على المنافقين، ويفضحهم، ويتتبعهم، ويحذر الأمة المسلمة منهم، حتى يكون ذلك درساً للأجيال القادمة.

ويجب أن ننتبه إلى أن هذا المثل هو في إطار تعامل القيادة الراشدة مع بعض المنافقين.. ولا يمكن ـ بأي حال من الأحوال ـ أن تنقلب الآية؛ فيتسلط المنافقون على قيادة الأمة المسلمة، ثم يكون مطلوب منها التعامل مع المنافقين بلطف أو تجاوز.. كلا! بل يجب عليها تطهير كل مراكز القيادة ـ خاصة السياسية والاجتماعية ـ من أهل النفاق؛ حتى لا يتحولوا بالأمة كلها نحو النفاق. فلا تآلف مع المنافقين، ولا يمكن تقسيم السلطة بين المنافقين والمسلمين.

كما يجب أن ننتبه إلى فرق بين نفاقين: النفاق الخفي، والنفاق الجلي.. فقد يظن البعض أن الحديث عن الأنظمة المنافقة وأئمة النفاق هو اطلاع على ما في القلوب، وتحصيل لما في الصدور.. وذلك زعم لا يدعيه بشر!

فمثلاً: "عَن أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِلَى الْحُرَقَةِ، فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ،

فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ الْأَنْصَارِيُّ فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ: **"يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟"**، قُلْتُ: كَانَ مُتَعَوِّذًا فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ"(1)، وفي رواية مسلم: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ، قَالَ: **"أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ، حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟"**(2)

ورغم الاحتمال الكبير في أن هذا الرجل قد قالها مُتعوذاً، فقد نهى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن التفتيش في النوايا والقلوب، وبناء الحكم على أساسها! فليس لنا إلا "الظاهر"، والرجل في حالة انهزام واستسلام، ويريد العصمة والنجاة، وهذا حق له كما بيّن الحديث الشريف.

بينما في حالة أخرى مثل حالة: (ابن سلول، والخوارج، والذين حاولوا قتل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في العقبة التبوكية)، قال فيها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ **"لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي"**، وفي رواية: **"مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَتَسَامَعَ الْأُمَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"..**

فهذا الظاهر من أحوال النفاق لا يُقال فيه "هل شققت عن قلبه؟" حيث هذه الأحوال ظاهرة للعيان، ولم ينه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هاهنا عن قتالهم رغم قولهم "لا إله إلا الله"، وقال القرآن الكريم عنهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: 145]

وإنما تركهم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنهم كانوا مسالمين، غير محاربين.. وكون قتالهم في هذه الحالة قد يعني الحرب الأهلية، واشتعال فتن الجاهلية، وتشويه صورة

(1) [صحيح البخاري/ 4269]
(2) [صحيح مسلم/ 98]

الدعوة والمجتمع المسلم، وأهم من ذلك سيطرة مجتمع المدينة وقيادتها الراشدة على تأثير نفاقهم وحصر مادته.

لكن عندما يتحول مثل "ابن سلول" ليتسلط على حكم الأمة المسلمة، ويتحكم في مقدراتها ودينها وثقافتها وفكرها وتربيتها، بل ويُسلّمها لأعدى أعدائها؛ فإنه سيذهب بالأمة كلها نحو النفاق الخالص الجلي الظاهر، ويجعلها مجرد غثاء كغثاء السيل، ويُفقدها دورها الإيماني والرسالي، ويجعلها مجرد متاع للطغاة والفسدة والجبابرة! كما نرى مظاهر من ذلك في واقعنا المعاصر! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

***

ومبدأ "حتى لا يتحدث الناس" مبدأ سياسي يأخذ شرعيته من الغاية التي يرنو إليها، **والمصلحة السياسية الشرعية** التي يرجوها، وليس هو نفاقاً أو تلوناً ـ كما تفعل السياسة المُلحدة ـ هو مراعاة للظرف والثقافة والسياق الواقعي، وليس هو تعمية الناس عن الحقائق.

مبدأ "حتى لا يتحدث الناس" مبدأ يحافظ على سمعة الدعوة إلى الله، ويُجنب الأمة الفتن أو إيجاد البيئة الخصبة للفتن أو للمنافقين، هو مبدأ ينظر إلى أثر القول والفعل على وعي الجماهير، فالمسلمون يحملون أمانة البلاغ لدعوة الله، وإيجاد الواقع الذي يحمي هذه الدعوة من المجرمين والمعتدين، وأهم **مصلحة سياسية** للمجتمع السياسي المسلم هو إتمام البلاغ المبين عن رب العالمين، وبالحسابات المادية فهي رسالة أثقل من ملء الأرض ذهباً، والنجاح في الدعوة يعني تضاعف رصيد هؤلاء الدعاة وهذا المجتمع إلى ما لا يحصى من الثروات الأخروية الدائمة الباقية..

حيث السياسي المسلم يرسم أهدافه على نطاق الحياة بمفهومها القرآني الواسع.. الذي يجعل الدنيا مجرد لمحة أو ساعة من نهار قياساً بالحياة الآخرة؛ ومن ثم فهو يتحرك ضمن

هذا النطاق الواسع الممتد، ويخطط على أساس الحياة القريبة والباقية؛ وشرط نجاحه في الدنيا ـ حيث الملهيات والمغريات والسلطان ـ هو تعاظم شعور الآخرة في قلبه وفكره وعقله، حتى يطغى عليه..

وهذا هو الذي يحقق التقوى، ويأتي بالطمأنينة والسكينة، ويدفع للجهاد الكبير في الحياة الدنيا.

***

38- الحُديبية.. والانتصار السياسي

كان "صلح الحديبية" ـ بعد معركة بدر وأحد والأحزاب ـ في العام السادس من الهجرة، وكان هذا الصلح فتحاً للمسلمين.. كان بعده فتح مكة العظيم..

ويمكننا أن ننظر إلى صلح الحديبية من منظورين:

الأول: منظور الرحمة الإلهية اللطيفة.

الثاني: منظور الدعوة والتفاوض السياسي، والذي كان ينطوي أيضاً على الرحمة الإلهية، والرحمة النبوية.

المنظور الأول لم يعرفه المسلمون إلا أثناء عودتهم من الحديبية، ونزول "سورة الفتح" تقول: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح (25)]

نزلت السورة تفضح الكافرين صدهم رسول الله، عن بيت الله، ومنعوا الهدي أن يبلغ محله، وتكشف عن لطف الرحمة الإلهية بأولئك المستضعفين المُستخفين بدينهم في مكة، ولولاهم لعذب الله أهل مكة بأيدي المؤمنين.. ولكن كرامة لهؤلاء المسلمين المستضعفين، حُقنت الدماء.. فكان الإسلام وأهله رحمة ـ من الله ـ لكل ما ومن خالطه.

والمنظور الثاني: وهو موضوع بحثنا منظور الدعوة والتفاوض السياسي.. فبعد هذا الصلح عمَّ الإسلام أطراف الجزيرة بالدعوة، وكانت هذه رحمة أخرى من الله سبحانه وتعالى.

وقد نقلهم هذا الصلح من "حمية القتال" إلى القدرة على "الثبات السياسي"، والقدرة على الكسب بالتفاوض، وهو من الدروس التي قدرها الله ـ تعالى ـ للأمة المسلمة أن تقع على يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى تأخذ العبرة والدروس.. وأن يكون سكونها وغضبها.. قتالها وسياستها لله وحده لا شريك له. ومن جانب آخر: حقن دماء المسلمين المستضعفين بمكة، الذين حفظهم الله بقدره.

لقد كان العادات الجاهلية المعاصرة لتلك الفترة أن "السيف" هو لغة الحوار الوحيدة، وتُقام الحروب لأتفه الأسباب! وفي هذا الدرس الصعب على المسلمين فإنهم سيتعلمون صوراً أخرى من المواجهة.. ورغم أن الله حفظ دماء جميع المسلمين في هذا الصلح، إلا أن المسلمين كان القتال أحب إليهم من ضبط انفعالاتهم! لدرجة أنه لما أمرهم رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بنحر الهدي، والحلق إيذاناً بالرحيل دون دخول مكة، كاد بعضهم يقتل بعضاً ـ وهم يحلقون ـ من شدة الغيظ!

لقد كانت عملية تربية لأمة يريد الله لها أن تشهد على الناس، وتهيمن على الكتب، وتُبصر الناس بنور الله.. وأمة بهذه المهمة يجب أن تتمتع بالمهارة السياسية، ومواجهة الخصوم في كل ميدان، وكان الميدان هذه المرة هو ميدان السياسة.

***

خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أصحابه قاصداً البيت الحرام لأداء العمرة، وعند تخوم مكة، علمت بهم قريش واستعدت لقتالهم! فقد منعتهم من دخول مكة منذ الهجرة حتى في الأشهر الحرم! مخالفين بذلك حتى تقاليد الجاهلية في عدم منع الناس من البيت، ولكن "حمية الجاهلية" والكبر والتعنت جعلتهم يدوسون على الأعراف والتقاليد، حتى لا يتحدث العرب أن محمداً وصحبه دخلوا مكة عنوة!

فلما بركت ناقته، قال: "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**"(1) فهو - عليه الصلاة والسلام - لا يريد قتالاً، وفي نفس الوقت كان جاهزاً وأصحابه لصد كل عدوان.

ولما علم - عليه الصلاة والسلام - باستعداد قريش لقتاله، قال: "**إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ... وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ**"(2)

ونتعلم من ذلك أنه **لا سلام دون قوة، ولا صلح دون قدرة واستعداد للمواجهة..** عندها يرى الخصم أن السلم والصلح مفيد له، وأحقن لدمائه.. وإذ لم يرَ القوة والاستعداد سيزهد في الصلح لأن الخصم ضعيف، والقضاء عليه قريب سهل. **فالضعف يُغري بالعدوان عند كل البشر..** إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات.. وقليل ما هم!

وبدأت المفاوضات:

من طرف قريش كان عروة بن مسعود، الذي رأى أن حديث النبي - عليه الصلاة والسلام - الذي بلغ قريشاً هو "خطة رُشد" وحبب قريشاً فيها، إلا أنه أراد مقابلة النبي - عليه الصلاة والسلام - والتفاوض معه، والتهوين من أمره؛ ليشعروا أنهم قد انتصروا عليه، وقال للنبي - عليه الصلاة والسلام - عن الصحابة إنهم: "أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ" كنوع من محاولة إضعاف جبهة المسلمين، وتصدى له أبو بكر - رضي الله عنه - وأهانه، وجلس الصحابة يُعظمون النبي تعظيماً شديداً، أظهر مدى تماسك الجبهة الداخلية للمسلمين وقياداتها في أعين العدو، فلما "رَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ

(1) [«صحيح البخاري» / 2731)]
(2) [المصدر السابق]

قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ ووَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يعظِّمهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ مُحَمَّدًا"(1)

ونتعلم من ذلك إظهار القوة والتماسك وطاعة القيادة عند التفاوض مع العدو، وعدم إظهار أي خلاف، ولا حتى تداول للرأي أمام العدو، حتى يشعر العدو أنه يواجه بنياناً مرصوصاً على قلب رجل واحد.

***

حَدث في أثناء ذلك مهاجمة بعض المشركين معسكر المسلمين في الحديبية بالنبال والسهام، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وتمكن منهم المسلمون، وعفا الرسول الكريم عن الأسرى منهم. "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ "أَنَّ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ مِنْ جَبَلِ التَّنْعِيمِ مُتَسَلِّحِينَ يُرِيدُونَ غِرَّةَ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ وَأَصْحَابِهِ، **فَأَخَذَهُمْ سِلْمًا فَاسْتَحْيَاهُمْ**"(2)

وعندما جاء المُفاوض الثاني من قريش، وما زال النبي الكريم لا يريد قتالاً، فلما رآه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: "**هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ، فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ**"(3)

---

(1) [صحيح البخاري]

(2) [صحيح مسلم/ 1811]

(3) [صحيح البخاري/ 2734]

وبهذا نجحت خطة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع كل مفاوض جاءه، وراعى الأحوال النفسية للمفاوضين.. ففي حالة عروة بن مسعود أظهروا مدى التماسك والعزة والطاعة، وفي حالة المفاوض الثاني ـ رجل من كنانة ـ أطلقوا له البُدن وهي مقلدة، فرجع يؤيد خطة النبي ـ عليه الصلاة والسلام.

"فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَأَرْسَلَهُ إِلَى قُرَيْشٍ، وَقَالَ: **"أَخْبِرْهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ، وَإِنَّمَا جِئْنَا عُمَّارًا، وَادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ رِجَالا بِمَكَّةَ مُؤْمِنِينَ، وَنِسَاءً مُؤْمِنَاتٍ، فَيَدْخُلَ عَلَيْهِمْ وَيُبَشِّرَهُمْ بِالْفَتْحِ، وَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ ـ جَل جَلاله ـ وَشِيكٌ أَنْ يُظْهِرَ دِينَهُ بِمَكَّةَ، حَتَّى لا يُسْتَخْفَى فِيهَا بِالإِيمَانِ تَثْبِيتًا يُثَبِّتُهُمْ"**[1]

فتحبسه قريش عندها، ويُشاع أنه قُتل.. فيستعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - لقتالهم؛ ويُبايعه من معه على الجهاد وعدم الفرار، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح: 18]

ولما علمت قريش ذلك، أطلقت عثمان - رضي الله عنه - وأرسلت سُهيل بن عمرو للتفاوض، وليكتب "وثيقة الصلح".

واستبشر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ به وقال: "لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ"[2] حاول سُهيل الاعتراض على طريقة الكتابة، مثل كتابة "بسم الله الرحمن الرحيم" و"محمد رسول الله" ويعترض سهيل، ورسول الله يتجاوز عن اعتراضه، وحميته الجاهلية، وتعنته، ويمضي إلى **جوهر** ما يريد تحقيقه؛ حيث الاعتراف السياسي بدولة المدينة، وقياداتها السياسية، وقدرتها على إبرام الصلح، وقدرتها على الحرب، وشجاعتها في الوصول إلى حدود مكة،

(1) [دلائل النبوة للبيهقي/ 4 : 133]

(2) [صحيح البخاري/ 2734]

وإظهار حقها في أداء شعائر البيت الحرام، فإبرام الصلح بحد ذاته يعتبر إنجازاً، أما بنود الصلح فقد ظن بعض المسلمين أنها إجحاف لحقهم، وإنهم يستطيعون أن يأخذوا بالسيف ما يريدون، ولكن هذا ما لا يريده رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا هذه خطته..

وكانت صيغة هذا الصلح: "هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ، وَيَكُفُّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ مِنْ أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَى قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً، وَأَنَّهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ وَكَانَ فِي شَرْطِهِمْ حِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ، فَتَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ، فَقَالُوا: نَحْنُ مَعَ عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرٍ، فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ، وَأَنَّكَ تَرْجِعُ عَنَّا عَامَنَا هَذَا، فَلَا تَدْخُلُ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَامُ قَابِلٍ، خَرَجْنَا عَنْكَ، فَتَدْخُلُهَا بِأَصْحَابِكَ، وَأَقَمْتَ فِيهِمْ ثَلَاثًا مَعَكَ سِلَاحُ الرَّاكِبِ لَا تَدْخُلْهَا بِغَيْرِ السُّيُوفِ فِي الْقُرُبِ"(1)

لقد اختار رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ تأخير العمرة عاماً على أن لا يقاتل، فقد نفذ خطته في تعظيم حرمات الله، ولا بأس من التأخير فقد حصل على ما يريد من الاعتراف به وبقومه، فكان ذلك في مصلحة المسلمين، وإنه ـ عليه السلام ـ لم يُستدرج لقتال وقد خرج للعمرة، وفي نفس الوقت كان جاهزاً للدفاع إن دهمه العدو.

وأما إرجاع الذين أسلموا لقريش ـ دون إذن وليهم ـ مرة ثانية.. وفي ظاهره الإجحاف، فقد تحول إلى لعنة على قريش؛ حيث استقل المسلمون الفارون من قريش نحو البحر

(1) [مسند الإمام أحمد/ 18430]

يتعرضون لقوافلها، حتى ناشدت قريش رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يأخذهم! وبذلك كانت كل بنود الصلح في صالح المسلمين.

اعترض البعض: "قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا على الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا"[1]

حيث ظن البعض أن التفاوض السياسي هو إعطاء الدنية في الدين، وأن السيف هو العزة وحده، ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان ينظر إلى أبعد من ذلك، ينظر إلى: تعظيم البيت الحرام، وكراهية القتال عنده، وسماع العرب وتحدث الناس أن محمداً قاتل قومه عند البيت الحرام..

وينظر إلى أنه **لن يُستدرج إلى قتال لا يريده، إلا أن يكون عدواناً فيدفعونه عن أنفسهم.**

وينظر إلى مسلمين مستضعفين في مكة، ويستبشر بفتح من الله لكل أهلها..

لقد كان في هذا الصلح بيعة الرضوان، وكان هذا هو الفتح العظيم.. تماسك الأمة المسلمة، ومتابعتها لأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووضع الحرب بينهم وبين قريش عشر سنوات.. ففيه تَفرغ المسلمين للدعوة، ونشر الإسلام في أطراف الجزيرة، والحديث معهم كدولة ذات سيادة، تعقد الصلح، والمعاهدات.. وتدخل في أحلاف: "عَنِ الزُّهْرِيِّ قَوْلَهُ: ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يَعْنِي: صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَا فُتِحَ فِي الإِسْلامِ فَتْحٌ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ الْتَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْهُدْنَةُ وُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَأَمِنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَالْتَقَوْا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمُنَازَعَةِ،

(1) [«صحيح البخاري» /2732]

فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالإِسْلامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلا دَخَلَ فِيهِ، فَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِكَ السَّنَتَيْنِ فِي الإِسْلامِ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الإِسْلامِ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَكْثَرُ."[1]

وبعده أيضاً كان فتح خيبر، والتخلص من الخطر اليهودي الذي كان يحيط بالمدينة ويكيد لها.

وبعد عامين نقضت قريش هذا الصلح، فيأتيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاتحاً، لقد كان هذا الصلح هو الفتح الأول، وفتح مكة وسيادة الإسلام في الجزيرة هو الفتح الثاني: "عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ"[2] وكان قبلها الفتح العظيم في القلوب والنفوس في بيعة الرضوان.. البيعة لله، والمغفرة من عنده، والوفاء بعهده، واستحقاق هذه الجماعة معية الله ونصره.

وقد انتصر المسلمون ودولة المدينة بهذا الصلح ـ الذي يحميه السيف ـ وحصلوا على كل ما يريدون ويخططون. فحصل الفتح المبارك ـ دون قتال ـ **بالقوة السياسية تحميها القوة القتالية**، فكان العفو.. وعلو الإسلام، وإتمام نعمة الله على رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ والأمة المسلمة.

***

ومن الدروس المستفادة من صلح الحديبية:

ـ تعلم القدرة على التفاوض السياسي والثبات والانضباط القتالي.

---

(1) [جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري/21 : 318]

(2) [صحيح البخاري/ 4150]

ـ تعلم القدرة على ضبط الانفعالات، دون إلغائها فالحمية للدين طاقة دافعة، ولكن يجب أن تكون منضبطة.

ـ تكوين الرؤية بعيدة المدى، وقياس النجاح بتحقيق أهدافها، مع الحفاظ على المكتسبات الحالية.

ـ التجاوز عن الشكليات، والأمور الهامشية، والتمسك بصلب الأهداف السياسية.

ـ الصبر عند التفاوض، وفهم عقلية المفاوض النفسية.

ـ عدم إلحاق الضرر بأي مسلم عند إبرام أي عقود أو الدخول في أحلاف؛ فالأصل العام: "التعاون على البر والتقوى" وليس "الإثم والعدوان" وليس أشد إثماً من إيذاء بعض المسلمين على حساب البعض وفتنتهم في دينهم وأمنهم.

ـ براءة التفاوض والصلح من أي أذى يلحق برسالة الإسلام، وجمهور المسلمين.

ـ الحذر من الاستدراج لمعركة لا استعداد لها ولا رغبة فيها، مع الحفاظ على الجهوزية القتالية.

ـ الضعف يُغري بالعدوان، ولا قوة سياسية دون قوة قتالية تحميها.

ـ ما يمكن أخذه سياسياً لا حاجة لأخذه عسكرياً.

ـ طاعة القيادة ـ التي تُمثل الإسلام والأمة المسلمة ـ مع حرية التداول وممارسة الشورى، والامتثال لها في اللحظات الحرجة خاصة؛ حفاظاً على التماسك أمام العدو، وليس استبداداً بالرأي، أو الافتئات على الحقوق السياسية.

ـ جواز الدخول في أحلاف مع غير المسلمين، إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين (وتعاون على بر وتقوى لا إثم وعدوان)، والمخول له في ذلك القيادة الشرعية التي تمثل الأمة المسلمة.[1]

ـ الوفاء بالعهود مع جميع الناس، والجدية في تنفيذ المعاهدات. فقد نُقض هذا الصلح باعتداء قبيلة بكر المشركة (الداخلة في حلف قريش) على قبيلة خزاعة المشركة (الداخلة في حلف الرسول صلى الله عليه وسلم).

ـ هناك دوماً للمستضعفين هامش يمكن أن يزعج الطغاة، ويستنزف قوتهم، ويجب استغلاله الاستغلال الأمثل.

ـ السلم والحرب، المفاوضات والصلح، الأحلاف والمعاهدات.. إنما هي "**باسم الله**" جل جلاله، وتحت ظلال رايته؛ فاجتماع المسلمين، والقيادة الممثلة لهم إنما هو اجتماع تحت راية: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". فهي الإطار الجامع لكل نشاط سياسي، أو حربي، سلمي، أو اجتماعي... إلخ.

ـ استمرارية الدعوة إلى الله في كل الأحوال؛ حتى تبقى الرسالة حية نابضة، ولا تدخل في حالة "الغربة" الاجتماعية، و"العزلة" السياسية؛ فيصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً.

***

(1) قال العلاّمة ابن القيم رحمه الله "فِي بَعْضِ مَا فِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْفِقْهِيَّةِ"، منها: "«أَنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ وَالْبُغَاةِ وَالظَّلَمَةِ إِذَا طَلَبُوا أَمْرًا يُعَظِّمُونَ فِيهِ حُرْمَةً مِنْ حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، أُجِيبُوا إِلَيْهِ وَأُعْطُوهُ وَأُعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ مَنَعُوا غَيْرَهُ. فَيُعَاوَنُونَ عَلَى مَا فِيهِ تَعْظِيمُ حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا عَلَى كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَيُمْنَعُونَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، فَكُلُّ مَنِ الْتَمَسَ الْمُعَاوَنَةَ عَلَى مَحْبُوبٍ لِلَّهِ تَعَالَى مُرْضٍ لَهُ، أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ، مَا لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَى إِعَانَتِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ مَبْغُوضٌ لِلَّهِ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ وَأَصْعَبِهَا وَأَشَقِّهَا عَلَى النُّفُوسِ» [«زاد المعاد» ت الرسالة (3/ 269)]

39- المُقاربة السياسية

المقاربة السياسية هي عملية الاقتراب من مبادئ وأهداف وخطط المشروع السياسي، وما يساعده، ويؤيده، ويكسب له أرضاً جديدة مهما كانت صغيرة.. ذلك أن هذه المقاربة ـ من معناها ـ أنها تحاول الاقتراب شيئاً فشيء من أهدافها، وهي عملياً تُطلق على "الحركة السياسية"، باعتبار أنها تتحرك في واقع سياسي مُعقد، ومتشابك، ويقوم به شبكة من العلاقات والمصالح والأهواء والتوازنات والحسابات والتناقضات والتغيرات المستمرة..

والسياسة هي: "تحقيق الإنجازات في عالم من التحديات والصعوبات" وفن تمكين الأهداف وترسيخ وجودها وجذورها عملياً في واقع الحياة، والمقاربة السياسية تتحرك بخطى ثابتة تحاول ـ كل يوم ـ الاقتراب من أهدافها، فما أن تحقق هدفاً إلا وتنتقل للذي يليه في عملية مستمرة، وطبيعة الواقع السياسي هي الحركة الديناميكية المستمرة.. ولا يفوتنا التذكير الدائم بأن المقاربة السياسية في التصور الإسلامي لا تُحلل التخلي عن المبادئ أو تدفع للأفعال الخسيسة أو الدجل والكذب كما هو الحال في السياسة العلمانية.

وفي كل واقع سياسي يوجد أعداء، ولكن طبيعة كل عدو تختلف عن الآخر، فهناك:

ـ عدو شديد العداء، شديد البغضاء لا يفتك لحظة عن عمله في الفتك بالمسلمين، ويطلق عليهم كل أنواع الحروب، بما فيها الحروب الاستباقية، التي تحاول وأد أي محاولة للمسلمين للخلاص من أسرهم. عدو ذات تاريخ أسود من العداء جرت على يديه دماء المسلمين ـ عبر التاريخ ـ أنهاراً! وحشد الحشود، وأنشأ الأحزاب من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين.

ـ وعدو متوسط العداء، غالباً ما يكون تابعاً للعدو شديد العداء، ومتحالف معه حسب مصالحه الذاتية. وهناك عدو لا مانع لديه من العدوان، لكن ليس له تاريخ في العدوان على المسلمين.. أو في حالة خلاف مع الأحزاب والأعداء الآخرين.

ـ وعدو مستعد للعداء لكنه يُؤثر السلامة، ويؤجلها، ويرى الوقت غير مناسب لها، أو يرى الأولى الانشغال بأوضاعه الداخلية وأموره الاقتصادية.

ـ وعدو يستخفي العداء طلباً للسلم، والصداقة.. أو لتدبير مكيدة وخداع، أو يرى من مصلحته ومصلحة نظامه ودولته مسالمة المسلمين.

وحسب حالة كل عدو تختلف طرق المواجهة والاستعداد، ولغة الخطاب.. فأولى الأعداء بالمواجهة هو العدو الذي يطرق بلاد المسلمين، ويخطط لردتهم عن دينهم، واستعبادهم، وسرقة ثرواتهم ومقدرات حياتهم، ويُنصّب عليهم عملاءه وكلاب حراسته، العدو صاحب التاريخ الذي لا ينقطع من الحرب المستمرة التي تحركها الأحقاد الدينية والأطماع الدنيوية.. كما هي طبيعة وحتمية تطبيقات الأديان الباطلة، وطغيان القوة والمال!

والانشغال بالعدو شديد العداء، والذي يأتي على رأس أولوية خريطة الأعداء.. لا يعني الصداقة مع الأعداء الآخرين، أو التحالف معهم.. ولكنه يعني:

ـ عدم إثارة العدو متوسط العداء ـ وما يليهم ـ وتحفيزهم للحرب علينا، بل الواجب أن نخذلهم عنا، كما حصل في غزوة الأحزاب: "جَاءَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِي أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي، فَمُرْنِي أَمْرَكَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم: "**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ**

عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّمَا الْحَرْبُ خَدْعَةٌ"[1] فالصواب: هو تفكيك وبلبلة تحالف الأعداء علينا، ومنع مظاهرتهم وتحزبهم علينا؛ حتى لا يتوحدوا ضد المسلمين؛ فيشتد الخطر عليهم.

ـ إننا لا نأمن العدو متوسط العداء الذي يمكن أن ينقلب فجأة ضدنا، ويتحالف مع العدو شديد العداء من أجل القضاء على المسلمين، طمعاً في المال والثروة أو المشاركة الدينية والعلمانية معه، وتحت تهديد العدو شديد العداء.

ـ إنَّ ولينا الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذين آمنوا، وقوتنا من داخلنا فقط، ولا نتخذ من العدو متوسط العداء ولياً مع الله، فلكم خُدع المسلمين من هذا الجانب، وظنوا أن لهم أصدقاء من الأعداء، أو يمكن أن يتحول الكفار إلى أولياء!

ـ إنَّ الإسلام يدعو إلى السلام العالمي، ولا يتطوع بإثارة الحروب وإشعال الفتن والإفساد في الأرض ـ كما حصل في الحروب العالمية ـ ولكن الإسلام لا يدعو إلى السلم الضعيفة، يدعو إلى السلم القوية، والتعارف بين الشعوب، وبلاغ رسالة الله بكل الحب والحرص والإحسان والرغبة في هداية وصلاح الإنسانية وسعادتها في الدنيا، ونجاتها في الآخرة.. والحرب تُفرض على الإسلام والمسلمين حيث الشيطان يغرر باتباعه وأوليائه لمحاربة الحق، ولإهلاك من يعبده، فحالة العداء من الباطل للحق وأهله حالة أبدية حتمية لا مفر منها، ولا سلام إلا بأن يكون الحق قوياً، وأهل الباطل في حالة ضعف وصغار.[2]

ـ إنَّ العدو شديد العداء، شديد المحاربة لا مفر من المواجهة والتدافع معه حتى ينكسر، بينما بقية قائمة الأعداء الأقل توحشاً وفتكاً.. لا مانع من محاولة تحييدهم بكل وسيلة ممكنة، والتفاوض معهم حتى لا يكوّنوا أحلافاً ضد الإسلام والمسلمين، واستغلال نقاط الضعف لديهم؛ مثل حاجتهم إلى الممرات البحرية الاقتصادية وطرق التجارة

(1) [دلائل النبوة للبيهقي/ (3 : 445)]

(2) راجع ـ إن شئت ـ كتاب: "السلام العالمي والإسلام".

العالمية، أو قلاقل واضطرابات داخلية، أو خلافات أيديولوجية، أو استحقاقات انتخابية وسياسية عندهم، أو أزمات اقتصادية، أو علاقات تجارية ومالية... إلخ، مع الحذر الشديد من غدرهم وخيانتهم ونقضهم للعهود، فنقاط الضعف في مرحلة زمنية وسياقات معينة قد تتغير مع الوقت، بل ربما تتحول لنقاط قوة، ومن ثم لن يجد العدو أي حرج في نقض عهده، وفي خيانة أمانته، فكل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا تنطلق قاعدته الأخلاقية من هذا الإيمان، فلا أخلاق له، ولا عهد..

وهذا يحتم على المسلمين اليقظة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، والتي تراقب تغير حالات نقاط الضعف والقوة لدى كل عدو، وتتحرك على أساس حالة "خريطة العدو" التي تشمل ـ فيما تشمل ـ : قائمة الأعداء، ومن هو شديد العداء، وما هي نقاط ضعفه وقوته، وما هو العدو الذي يمكن تحييده، وما هو العدو الأسرع إلى الخيانة، وما هو العدو الأقرب إلى الوفاء، وما هي أفضل الخيارات السياسية والقتالية في اللحظة الراهنة، وما هي لغة الخطاب المناسبة لهم، وما هي الفرص المتاحة للمسلمين، ونقاط ضعفهم وقوتهم... إلخ.

وما يُقال عن المقاربة السياسية في مواجهة العدو، يُقال مثله عن كل مقاربة سياسية لتحقيق أمر ما، فإذا أردنا ـ مثلاً ـ توطين القطاع التقني في بلادنا من أجل الاستقلال فيه، والتحرر من الاحتياج إلى العدو، وسد احتياج المسلمين فيه.. فإن المقاربة السياسية في ذلك، تبحث عن البلاد الأكثر سلماً للمسلمين، وليس لها تاريخ من العداء معهم، ولا تفكر بالعدوان، ربما لانشغالها بنفسها، أو لبعدها الجغرافي، أو لأن اهتماماتها اقتصادية بحتة، فالمقاربة هنا تتخير بينهم على هذه **الأسس**:

ـ الذي يُسالم الإسلام والمسلمين.

ـ الذي لا مانع لديه من بيع ونقل هذه التقنية.

ـ الذي ينقلها لنا بتمامها دون محاولة ربطنا به، وجعلنا في حالة احتياج دائم له.

ـ الذي قد يكون في حالة عداء مع عدونا التاريخي، ويريد الحط عليه.

وفي كل مقاربة:

ـ إننا لا نتخلى عن ثوابت إيماننا وديننا، ولا نصحح باطلاً لمجاملة غيرنا على حساب الإسلام.

ـ إننا لا نتعاون مع أي أحد ـ كائناً من كان ـ على إثم وعدوان على مسلمين أو أبرياء، ولا ندخل في أي أحلاف تُشعل "الحروب الجاهلية" والحروب الجاهلية هي كل حرب فيها إثم وعدوان.. يكون هدفها ليس إعلاء كلمة الله، وإنما إعلاء كلمة الباطل، والطمع والأثرة، والإفساد في الأرض، واستعباد الإنسان، وسرقة الثروات.

ـ التأكد من تحليل دوافع من يُساعدوننا أو يعرضون مساعدتهم لنا، ونطمئن إلى هذه الدوافع، ونتأكد من صحتها من خلال مصادرنا الاستخبارية والأمنية الخاصة، حتى يأمن المسلمون من حقيقة هذه الرغبة، ويستعدون لخطة بديلة في حال تغيرت هذه الدوافع.

ـ إننا لا نخون عهدنا وأماننا، ونقدم أخلاق الإسلام على أي مصلحة سياسية متوهمة.. حيث الخيانة تفسد الدعوة إلى الله، وتجعل غير المسلمين لا يرون في الإسلام ميزة أو فضيلة! ولذا قال الله تعالى، لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: 58] وبعد نبذ عهودهم على سواء وبيان، فالحرب خدعة.

ـ إننا نتأكد ـ في كل لحظة ـ من عدم غدر وخيانة من نتعاون معهم، ونطمئن على حصولنا على ما نريد، دون أن يكون هناك مكيدة أو غدر أو خيانة.. فهناك بعض الدول قامت بتسليح المسلمين بطائرات مقاتلة حربية، ثم اكتُشف بعد ذلك أن المسلمين لا

يستطيعون ولا يملكون السيطرة عليها لا من ناحية: الصيانة، ولا التسليح، ولا البرمجة، ولا التحكم... إلخ، فكانت مجرد ديكور رغم أنه دُفع فيها مليارات الدولارات؛ واكتشفوا أنها لا تصلح سوى للعروض الجوية في احتفالات يوم الاستقلال الوطني! لتطلق الأدخنة الملونة بعلم الدولة المُستقلة.. زعموا! وإذا كان هذا حصل في حالة السلم، فما بالنا بفعلهم في حالة الحرب؟!

***

وإذا أخذنا مثالاً من القرآن الكريم، فنرى في "سورة الروم" قوله تعالى: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 1-6]

ومما جاء في تفسيرها: "عَنْ نِيَارِ بْنِ مُكْرَمٍ الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ فَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَاهِرِينَ لِلرُّومِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُورَ الروم عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسَ، لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ وَلَا إِيمَانٍ بِبَعْثٍ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ قَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِأَبِي بَكْرٍ: فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ زَعَمَ صَاحِبُكُمْ أَنَّ الروم سَتَغْلِبُ فَارِسًا فِي بِضْعِ سِنِينَ، أَفَلَا نُرَاهِنُكَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ، فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ، وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ: كَمْ تَجْعَلُ الْبِضْعُ ثَلَاثُ

سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ فَسَمِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ، قَالَ: فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ، قَالَ: فَمَضَتِ السِّتُّ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا، فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الروم عَلَى فَارِسَ فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، قَالَ: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ".[1]

فقد كان المشركون يشعرون أن أي انتصار للمشركين ـ الفرس ـ في أي مكان هو انتصار لهم، وكان المسلمون يحسون كذلك أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب، فكانت رغبة المسلمين في مكة ـ وقت نزول السورة ـ انتصار الروم (وهم أهل كتاب) على الفرس (وهم أهل ديانة وثنية مادية)، وكانت رغبة المشركين العكس.. وقد كانت المقاربة السياسية هذه نابعة ووليدة الإسلام ذاته، وليست بناء على رغبة قومية أو قبلية أو ذاتية..

ورغم استضعاف المسلمين بمكة إلا أن الإسلام كان يضعهم في بؤرة الاهتمام العالمي، ويوجههم إلى دورهم المرتقب في الأحداث العالمية، ونجد الشرك يصطف على الجانب الآخر يناصر ـ روحياً ومعنوياً ـ إخوانه في العقيدة!

وقد وعد الله ـ سبحانه ـ بانتصار الروم في بضع سنين من بعد هزيمتهم، فقد كان انتصار الفرس له الأثر النفسي على مشركي الجزيرة، وفرح المسلمون بـ "نصر الله" وتحقيق وعده ـ سبحانه ـ بانتصار الروم مرة ثانية على الفرس في بضع سنين، هذه المقاربة والاصطفاف حدثت عند نقطة تلاقي الإيمان بكتاب من عند الله، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، والتقارب عند هذه النقطة، والفرح لمن انتصر ـ وهو صاحب كتاب ـ على من لا يؤمن بإله ولا كتاب ولا وحي ولا آخرة! فقد نصر الله المسلمين، وقهر الشرك وأهله في هذه "**المعركة المعنوية**" فلم يشارك مشركو مكة حرباً مع الفرس فيها، ولم يشارك

(1) [جامع الترمذي/ (2 : 815)]

المسلمون مع أهل الكتاب فيها.. وهنا يَتبين الأثر النفسي والمعنوي في الحياة الإيمانية والسياسية..

وترد الآيات الأمر كله لله، صاحب المشيئة المطلقة، والذي يُداول الأيام بين الناس وتجري حكمته ومشيئته على الخلائق كلها، وفي الكون كله بلا مُعقب سبحانه، وتُعلق الآيات المسلمين بنصر الله، وتؤهلهم لدورهم المرتقب، وإنه لا عزة للمسلمين، ولا رحمة للعالم إلا من عند الله {**العزيز الرحيم**}.

وإنَّ هؤلاء الروم عندما يقع الاختلاف والتضاد والمحاربة معهم على نفس هذا الكتاب، وعلى منع المسلمين من إبلاغ رسالة الله إلى العالمين، وعلى قتال جند الإسلام.. ستقع ـ في نهاية العهد النبوي المبارك ـ غزوة تبوك، ومن بعدها اليرموك.

فقد كان التقارب والمفارقة على أساس حالة القرب من الكتاب، وسياقها الواقعي وظروفه. وحيثما كان الحق والعدل، حيثما كانت مصلحة الإسلام، والأمة المسلمة جمعاء.. كانت تتحرك بوصلة السياسة الإسلامية.

فكان القرآن الكريم يهدف إلى تحطيم الأثر النفسي لانتصار الفرس المشركين والنشوة التي حصلت لكفار قريش، ورد الأمر كله لله.. وتوجيه المسلمين نحو التوكل على الله، وعلى القيام برسالة الله، ومواجهة الفساد في الأرض الذي ظهر بما كسبت أيدي الناس ـ كما جاء أيضاً في سورة الروم ـ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41]

وإنَّ تداول الأيام بين الناس من سنن الله في الأرض، وليس التداول بدليل على صحة المنهج، إنما صحة المنهج والطريق تُستمد ابتداء من كتاب الله، ونوره، والاستقامة على صراطه المستقيم.

***

ولكي تنجح المقاربة السياسية في واقعنا.. يجب أن لا تكون فخاً من فخاخ العدو، فيجب فيها الأصالة الإسلامية الخالصة، والاستقلال التام في المحاولة، بحيث لا يتحول التدرج في المقاربة السياسية إلى كشف خطط المسلمين، ومعرفة نقاط ضعفهم، والكيد لهم، والمكر بهم.

كما نحذر من أن نقنع ببعض خطوات المقاربة السياسية، ونحسب أننا انتصرنا، وأدينا مهمتنا على أكمل وجه! أو أن نغتر ببعض الإنجازات هنا وهناك، إنما نقيس الانتصار والإنجاز بالنسبة لخطتنا العامة وهي "**التمكين لدين الله في الأرض**"، ثم نرد الفضل كله والأمر كله والنصر كله لله جل جلاله.

***

40- جماعات التغيير.. الثابت والمتغير

تُواجه أي جماعة تنشد التغيير عقبات دونها أهوال، ولحظات ميلاد عسيرة، لأنها تكون نواة ميلاد الدولة الجديدة، ولأنها تُمثل ثورة على الواقع، ومن ثم فإنَّ أمامها تحديات كثيرة.

ويتحدد موقف المسلم من كل جماعة تغيير، طبقاً لمجموعة من الثوابت، وهي:

ـ الإيمان بالله ورسوله، ونصرة دينه وكتابه.

ـ الانتصار للأمة المسلمة.

ـ جهاد ودفع عدوان أعداء الأمة المسلمة (خاصة يهود) ومن نصرهم، وعدم موالاتهم.

ـ التحاكم إلى ما أنزل الله، وعدم تحول جماعة التغيير إلى "جماعة وظيفية" تخدم أجندات أعداء الأمة.

ـ عدم استباحة دماء المسلمين. والحفاظ على وحدة الأمة وتماسكها.

ـ الترحيب بحرية إنكار المنكر، وقبول النصح، وعدم التبرير للباطل... إلخ، فهذا دليل الإخلاص لله سبحانه.

هذه المجموعة من الثوابت ـ وهي بالأساس "الإيمان والمبادئ الأخلاقية" ـ تُعبر عن اقتضاء "جماعة التغيير" الصراط المستقيم، وغياب واحدة منها هو انحراف عن هذا الصراط، ومتى التزمت حركة بهذه الثوابت فحق على كل مسلم أن ينصرها، ويباركها، ويدعمها، ويكون ظهيراً لها، بقدر ما تمسك بهذه الثوابت، وتعمل بها.

أما مجموعة المتغيرات فهي:

- **التحالف السياسي.**

- **الدعم المادي.**

- **تقاطع المصالح.**

- **الرسالة الإعلامية.**

هذه المجموعة من المتغيرات التي تختلف من واقع إلى آخر، ومتى حظيت مجموعة التغيير بالشرعية الربانية من خلال الثوابت المذكورة أعلاه، فلا بد من النظر السياسي لهذه المتغيرات طبقاً لظروف الزمان والمكان والملابسات والأحوال والسياقات والمقامات، ولا تُعتبر هذه المتغيرات ميزاناً للحكم إلا من خلال سياقها وشروطها الخاصة؛ لأنها تختلف من حالة إلى أخرى، ومن زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، وما يكون جائزاً في مكان وزمان لا يكون جائزاً في آخر، والذي يحدد ذلك هو: شرط "الضرورة، والاضطرار"، و"دفع المفسدة" حسب الوسع والطاقة، و"دفع الخطر الأكبر، والأقرب"، وترتيب الأولويات طبقاً للحالة الواقعية..

ف "**التحالف السياسي**":

لا بد لشرعية التحالف السياسي أن تكون لجماعة التغيير "شرعية ربانية" ـ كما أسلفنا ـ بمعنى أنها تقوم بمهمة ربانية؛ ومن أجل تحقيق غاية إسلامية؛ وتدافع عن الأمة المسلمة، بشرط أن لا تضر غيرها من مكونات الأمة..

وقد دخل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حلف مع قبيلة بني قريظة من يهود، للدفاع عن الدولة من الأخطار المشتركة التي تطال الجميع، ولكنهم خانوا العهد، ونقضوا

الوثيقة، وتحالفوا مع قريش للقضاء على الإسلام في "غزوة الخندق"، ومن ثم كان عقابهم شديداً، ونهايتهم وخيمة..

ولقد تحالف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضاً مع قبيلة خُزاعة في صلح الحديبية، وهي قبيلة مُشركة، بل تم فتح مكة العظيم بسبب اعتداء حلف قريش على هذه القبيلة المشركة! ومن ثم اُعتبر هذا الاعتداء نقضاً للعهد، فكان فتح مكة..

ونلحظ في هذا التحالف: أنه كان تحالفاً على البر والتقوى، وليس على الإثم والعدوان، وإنَّ هذا التحالف لم يبارك شرك قبيلة خزاعة ـ والعياذ بالله ـ بل كان حلفاً للدفاع والمصالح المشتركة، طبقاً للظرف السياسي الحاصل، ولم يشترط النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ حينها على هذه القبيلة الدخول في الإسلام حتى يكون الحلف، ولو دخلت ما كان هناك حلف من الأساس.. بل كان هناك الطاعة والاتباع للرسول صلى الله عليه وسلم.

هذا الظرف يُقدر بقدره في وقت كانت قريش تُعد عدتها، وتحشد قوتها، وتحالفاتها في الجزيرة كلها للقضاء على الإسلام وأهله..

وهذا الظرف تغير بفتح مكة العظيم، ودخول الناس في دين الله أفواجا، ولما تمكن الإسلام، وعلت راية التوحيد، لم يعد للشِرك شرعية سياسية، ووجود اجتماعي في الجزيرة العربية ـ مهد الإسلام وقاعدة انطلاقه ـ فجاء الأمر الإلهي بالبراءة من الشرك والمشركين، وإمهالهم عهودهم إلى مدتهم كما جاء في أوائل سورة التوبة.

إذن السياسة الإسلامية كانت تراعي المكونات السياسية والاجتماعية القائمة في بيئتها، وكانت تحاول أن تكسب للإسلام أرضية، ونقاط جديدة، وتُحيد من الأعداء ما تستطيع، وتحالف ما تستطيع.. دون التنازل عن الثوابت، أو مباركة الباطل، أو مداهنة الشرك، أو جلب مضرة على مسلم، بل كانت عقيدته ناصعة، وراية الإيمان، والجهاد في

سبيل الله وحده خفاقة.. والمضي في سبيل الله بكل حرية واستقلالية دون التنازل عن مبدأ، أو دون القعود عن الحركة بحجة نجاسة الواقع! أو استحالة التغيير.

و"**الدعم المادي**":

جماعات التغيير في الواقع السياسي يكون لها أصدقاء وأعداء، بحكم التعقيدات السياسية، والتوازنات الدولية، وهذه الصداقة والعداوة في الغالب تكون قائمة على "البراجماتية ـ النفعية" السياسية، أو "الدعم الأيديولوجي" أو "الإيمان بعدالة قضية ما" فيأتيها الدعم المادي من هؤلاء الأصدقاء، كما نتلقى الضربات من الأعداء لأسباب معاكسة لأسباب الصداقة..

هذا الدعم المادي قد يكون نعمة، وقد يكون نقمة.. يكون "**نعمة**" عندما يكون دعماً غير مشروط بشروط تضرب الثوابت، وعندما لا يُفسد القلوب، ويجعلها تركن إلى الدنيا ومتاعها، وعندما يُوظف الدعم التوظيف الصحيح بلا سفه أو إسراف..

ويكون "**نقمة**" عندما يتم شراء الجماعة بهذا المال، أو تدمير ثوابتها، أو توظيفها لأغراض غير شرعية، وغير ما قامت من أجله، وعندما يخترقها الداعم ليسيطر عليها..

والأفضل لكل جماعة تغيير أن يكون تمويلها ذاتياً حراً من كل قيد أو شرط، حتى تضمن طهارة ضمائرها وقلوبها من أي إفساد، وعندما تعجز فلا من بد أن يخرق شيئاً من الثوابت.

فأي دعم مشروط بظلم أو عدوان، أو ارتهان وتبعية فهو مرفوض.. وأي دعم خالص لا يأتي على حساب الدين، والحقوق، والمبادئ، والاستقلالية، ويُساعد في دفع العدوان على الدين والأمة، فهو مشكور ومقبول.

و"**تقاطع المصالح**":

كل حركة سياسية لا بد وأن تتقاطع مصالحها ـ في الغالب ـ مع كيان سياسي آخر، وعندما يقع هذا التقاطع.. يحصل نوع من التوافق والدعم، فمثلاً: كان من مصلحة أمريكا انتصار المجاهدين في أفغانستان عند الغزو السوفيتي لها.. فكان لدحر العدو السوفيتي ـ حينها ـ هذا التقاطع والالتقاء بين أمريكا والمجاهدين، حثّ هذا التقاطع أن يدفع الطرف الأمريكي لإعانة المجاهدين على الغزو السوفيتي بصور مختلفة، ولكن هذا التقاطع في المصالح لا يعني نوعاً من الولاء بين أمريكا والمجاهدين، ولا يعني أن المجاهدين يعملون للطرف الأمريكي ـ كما صَوّر بعض المُخذِلين والمُفشلين لهم ـ بل على العكس لقد كان هذا الظرف في هذا التوقيت اقتضى هذا الدعم وهذا التقاطع في المصالح، ثم بعد اندحار العدو السوفيتي تحولت أمريكا لحرب المجاهدين في أطول حرب في تاريخها كلفتها تريليونات الدولارات، ثم انسحبت في النهاية، وقد رفعتهم أمريكا من على قوائم الإرهاب وجلست للتفاوض معهم نداً لند! لأنهم ثبتوا وانتصروا وكان لهم من القوة التي مكنتهم من البقاء..

فالسياسة تتعامل مع المعطيات التي أمامها، وتختار طبقاً لما هو متاح لديها في اللحظة الحاضرة، أما "التفكير الاستراتيجي" فهو الذي يحاول استشراف المستقبل وصنعه، والميل به نحو المصلحة المتوقعة.

فهل في مرحلة التقاطع هذه ـ مرحلة الدعم الأمريكي عن طريق باكستان والسعودية ـ يمكن أن نقول للمجاهدين: لا تأخذوا السلاح من أمريكا، فإنها العدو الأول، أو إنها قتلت في بلدان أخرى الكثير والكثير من المسلمين؟

بالطبع لا، لأن حركات التغيير ـ كطالبان في مثالنا هذا ـ تكون في ظروف مستحيلة، ولا خيار أمامها سوى الاستسلام! والمقاومة والجهاد يكاد يكون هو الخيار المستحيل،

ومع ذلك تمضي فيه ـ على بركة الله ـ ولا يأتيها أي دعم من أي مكان إلا قليلا، فالمسلمون محاصرون في بلادهم، لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلا، وهم بحاجة لمن يُحررهم أولاً، ولربما طمعوا أن تأتي حركات التغيير إليهم لتكسر قيودهم! فمن يُنتظر منه الدعم، هو الذي ينَتظر الدعم! ولا حول ولا قوة إلا بالله..

في هذه الحالة قبول السلاح، وغيره من وسائل الدعم.. ليس ترفاً، ولا اختياراً، بل هو نعمة من الله؛ ليمضي قطار التغيير في مساره لا يتوقف.. ولكن إذا تحول هذا التقاطع إلى موالاة ونصرة الكفر واعتداء على فريق بريء من الأمة المسلمة، فهذا هو الخطر الأكبر، وفي نظر الإسلام يُعتبر عملاً من أعمال الكفر.. والعياذ بالله.

فتقاطع المصالح لا يعني تنفيذ خطة العدو، ولا يعني العمل عند العدو، ولا يعني بيع الحركة للعدو.. إنه تقاطع ظرفي وقتي، يُقدر في حينه حسب المصلحة والمفسدة، **والمصلحة: نصرة الإسلام، والدفاع عن المسلمين، ودفع صائل العدو القريب الداهم. والمفسدة: خذلان الإسلام، وتسليم المسلمين لأعدائهم، ومظاهرتهم على إخوانهم.**

فهذه المرونة السياسية، ليست عبثاً، ولا هوى.. بل مرونة حركية، ضمن الإطار الذي يسمح به الإسلام، ولا يتعداه، فحركة المسلم محكومة بثوابت لا يمكن تعدي حدودها، وإلا فقدت الحركة شرعيتها، وفقدت قبل ذلك ولاية الله جل جلاله، ونصرته.

و "**الرسالة الإعلامية**":

لكل حركة تغيير شرعية خطابها الإيماني الأخلاقي الذي يجب عدم التنازل عنه؛ لأنه ثابت من الثوابت الذي لا معنى لوجود الحركة بدونه.. وأما الخطاب السياسي فإنه يتحلى باللياقة والمرونة، ومراعاة الظروف الواقعية، ومراعاة اللغة المناسبة، وليس من مصلحة أي حركة تغيير ـ وهي تتحسس طريقها وسط حقول الألغام في كل مكان ـ وتريد أن تعبر سالمة إلى أرضية جديدة.. أن يكون خطابها خطاباً معادياً للجميع، ويتوعد الجميع

بالويل والثبور، بل قد تجد نفسها مضطرة لاستخدام اللغة الدارجة في عصرها؛ حتى تتفادى الأفخاخ المنصوبة لها في كل مكان، وقد كان من سياسة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحييد الأعداء قدر المستطاع، وتَخذيلهم عن التوحد ضد المسلمين قدر الإمكان، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنعيم بن مسعود في غزوة الخندق: "**خَذِّلْ عَنَّا**"؛ لتفكيك اتحاد الأحزاب على المسلمين.

ويجب ونحن ننظر لحركات التغيير التركيز على خطابها الإيماني الأخلاقي، وثوابتها، ونتائجها العامة الواقعية، وإطارها الكلي العام، دون التوقف عند مفردات كل كلمة من خطابها السياسي الذي ربما يكون مُغلفاً ببعض المدارة أو المداهنة أو اللغة الدبلوماسية الدارجة.. فلا نختار كلمة من هنا، وموقف من هناك؛ لنتخذ من تلك المفردات وسيلة للتفشيل والتخذيل والطعن والتشكيك لحركة التغيير ذاتها، وقد ينسحب هذا الأمر على كل حركات التغيير، فنصل إلى العدمية الحركية والسياسية والعياذ بالله.

ولا تتحول حركة التغيير إلى قدوة ومثال إلا بقدر ما تتمسك بالثوابت، وبقدر ما تحقق من إنجازات وتغييرات ربانية نافعة.. ولا يمكن أن تتحول الأخطاء إلى مواطن قدوة، كما لا يمكن أن تتحول إلى معاول هدم.

فمعرفة **الثوابت والمتغيرات**(1) يضع خارطة طريق راشدة لحركات التغيير، والتمسك بالثوابت، والمرونة النظيفة مع المتغيرات يضمن ـ بإذن الله ـ بقاء الحركة ونجاحها إذا تمسكت بسنن الله، وأحسنت قراءة الواقع، ودفعت بالأفضل إخلاصاً لله، ونصرة لدينه، ودفاعاً عن أمته.

***

(1) راجع ـ إن شئت ـ بحث: "الثابت والمتغير في العمل السياسي الإسلامي".

41- البراجماتية والمرونة

يقوم الفكر السياسي الجاهلي على مبدأ "البراغماتية ـ النفعية" الذي يدور مع "المصلحة، والمنفعة" حيث دار، مُتجاوزاً أي قيم أخلاقية، أو مواثيق وعهود، أو تعاون وتراحم.. وبطبيعة الحال لا يعبأ بدين أو تقوى الله!

والمصلحة البراجماتية تتمثل في:

- مصلحة الوطن، فيُستباح ما هو خارج حدود هذا الوطن.

- مصلحة الحزب، فيُستباح ما هو خارج انتماء الحزب.

- مصلحة الحاكم، فيُستباح ما هو دونه.

وأحياناً يكون مصلحة الطائفة، والعرق، والجنس، والقومية... إلخ.

هذا المبدأ السياسي المتجرد من أي دين أو خلق هو الذي يحكم هذا الفكر السياسي الجاهلي، وهذا مقتضيات ولوازم طبيعته "المادية"، بمعنى كونه دنيوياً مادياً فحتماً ستكون حركته تدور بلا أخلاق حول المصلحة النفعية الآنية القريبة، حتى ولو حساب الوطن، والحزب.. حيث تتحول هذه البراجماتية ـ في مرحلة من المراحل ـ إلى عبادة الذات، بعد عبادة الوطن.. ومن ثم التضحية بكل شيء من أجل جمع المال والسلطة والنفوذ، حتى ولو بالخيانة والكفر، والإفساد في الأرض، وهذا هو الطريق الحتمي لهذا المبدأ الجاهلي.

فلا يوجد شيء اسمه "الأخلاق السياسية" في الفكر السياسي الجاهلي.. وحتى وإن وجد شكلاً فهو لأغراض تسويقية أو تمويهية أو تجميلية أو شيئاً من بقايا الفطرة السوية.

فبكل بساطة لا يمكن أن تكون هناك "قاعدة أخلاقية" دون أن تنبثق من "الأساس الإيماني" (الإيمان بالله واليوم الآخر).. ودون ذلك فالأخلاق مجرد دعوى هشة، مزاجية، متقلبة!

فالبراجماتية[1] تُبيح، وتُحلل:

ـ الدجل والكذب، بل وتدعو الساسة إلى إتقانه والتفنن فيه، ومعرفة أساليبه، ومهارات خداع وهندسة الجماهير، وتؤسس المؤسسات في كيفية القدرة على جذب وخداع الجمهور، والسيطرة على فكره ووعيه.

ـ خيانة العهود، ونقض المواثيق، حيث لا عهد ولا أمانة.. بل ولا يتذكر البراجماتي عهده ابتداء حتى يفكر في الوفاء به، فهي مجرد حبر على ورق. ويعتبر الخداع والتلاعب مهارة سياسية ضرورية.

ـ السرقة وتغول الأموال، تحت مسميات شتى من حفظ الأمن القومي، ومصلحة الوطن أو الحزب... إلخ.

---

(1) وتسمى أيضاً "الميكافيلية" نسبة إلى الفيلسوف الإيطالي نيكولو مكيافيلي، الذي كتب كتاب "الأمير" في القرن السادس عشر. والذي يعتبر أن الزعيم الناجح يجب أن يكون على استعداد لاستخدام أي وسيلة لتحقيق أهدافه، بغض النظر عن كونها أخلاقية أم لا. "فهو يرى أن القوة هي القيمة العليا التي تستحق الاعتبار، ولا بأس لديه بأي سبيل يزيد من قوة الدولة (الأمير)، ولو انطوى ذلك السبيل على وسائل لا إنسانية ولا أخلاقية، أو قام على أساليب وحشية ضارية، أو لو كانت الاستزادة من القوة تتم عن طريق الظلم والغدر وامتصاص طاقات الشعوب الأخرى... ويرى أنه من أجل أن يفرض الحاكم نفوذه على بلاده بشكل محكم، فإن عليه أن ينشر في أول عهده بالحكم إرهاباً فظيعاً يذوق وباله كل الناس، حتى يذهلهم عن أنفسهم... أما المنافع فيجب أن تمنح قطرة قطرة حتى يشعر الشعب بمذاقها ويتلذذ بها ويحمد أثرها للحاكم لأطول وقت ممكن، ويرى أن الأخلاق مجرد مثالية حالمة لا طائل من ورائها، ويضيف أن الأمراء الذين قاموا بجلائل الأعمال لم يكونوا كثيري الاهتمام بعهودهم والوفاء بها، وتمكنوا بالمكر والدهاء من الضحك على عقول الناس وإرباكها، وتغلبوا أخيراً على أقرانهم من الذين جعلوا الإخلاص والوفاء ردائهم" [كتاب: مدخل إلى الفلسفة السياسية، ص 135، د. محمد أحمد] وقد طبع فكر مكيافيلي على تطبيقات السياسة الغربية قديماً وحديثاً، وتأثر به طغاة بلادنا كذلك حتى صاروا أساتذة في الفجور والعدوان.

ـ القتل والاغتيال، تحت مسميات تصفية خصوم الوطن، والدفاع عن حقوقه. والتصرف بلا رحمة ولا شفقة دليل على القوة.

ـ تجارة المخدرات وإفساد الشعب، وتدمير الشعوب الأخرى، من أجل الضرورة، وجمع المال اللازم لحماية الوطن، وتوفير الموارد للدفاع عن الأمن القومي، والنفوذ العالمي.[1]

ـ تجارة الجنس، وإفساد أخلاق الشعوب، من أجل التنفيس عن الشعب المكبوت، وتلهيته عن النظر في حقوقه أو تحرير إرادته، وجمع المال والضرائب من ورائها.

ـ تدمير شعوب الأرض بكل أنواع الأسلحة، من أجل السيادة والهيمنة والاستعلاء في الأرض، وافتراس كل ضعيف، ومع هذا التدمير والإبادة الجماعية ترفع ـ دجلاً وكذباً ـ راية أخلاقية مزيفة، زيادة في الكفر والفجور والعدوان.

ـ التحالف مع العدو، باسم حماية الأمن، وتحقيق السلام، ولا يعدم البراجماتيون تبريراً لكل جريمة، ولكل إفساد، ولكل ظلم وبغي وعدوان.

ـ التلاعب الدين، والعاطفة الدينية من أجل جذب المتدينين، وكسب شريحتهم الاجتماعية، وتشجيع الإلحاد العلماني من أجل جذب عُباد الدنيا، وكسب شريحتهم الاجتماعية.

ـ فلسفة كل الشرور والآثام والإفساد في الأرض في إطار فلسفي علمي، يبرر الجريمة، ويُصحح المنكر، ويُشيعه بين الناس، باعتبار كل الحقائق نسبية، ولا يوجد شيء ثابت.

---

(1) انظر ـ على سبيل المثال ـ "حرب الأفيون البريطانية" ضد الصين في منتصف القرن التاسع عشر. وانظر تورط كبار القادة والقيادات الأمنية في حماية وتجارة المخدرات في العصر الحالي، واستخدامها في تمويل الحروب القذرة.

والسياسي الناجح، والحزب القوي، هو الذي يُتقن "فن البراجماتية" ويعرف كيف يستخدمها الاستخدام الأمثل، ويغطي على وحشيتها وعدوانها، ويُجملها بالمساحيق المزيفة، ويُلبسها ثوب الأخلاق، والحكمة، والحقوق، والحريات!

وبعض الساسة الذين لديهم شيء من ضمير أو هباءة من خلق ـ وأكثرهم فاسقون، قلوبهم ميتة، وضمائرهم خربة ـ يُبررون هذه البراجماتية بدعوى الاضطرار، والتكيف، والمرونة، ولو افترضنا صحة دعوى الاضطرار، فتجدهم بعد فترة يتحول الاضطرار إلى أصل؛ فيصبح المنكر هو الأصل، والمعروف هو حالة الاضطرار الذي يلجأ إليها في بعض الأحيان!

وهذا طبيعة الفكر الذي لا يرجو لله وقاراً، وطبيعة الإنسان الذي يريد أن يفجر أمامه، ويستغني، ويطغى.

والسياسة الجاهلية تتفوق على الأيديولوجيا الجاهلية: ففي الأحزاب السياسية العلمانية تتفوق السياسة البراجماتية على الأيديولوجيا، وتكون الأيديولوجيا فقط للاستهلاك المحلي الجماهيري، فالحزب العلماني اليساري يستخدم أيديولوجيته فقط في الحشد الجماهيري والإعلامي لتكوين قاعدته الانتخابية والحفاظ عليها، ولكنه في ذات الوقت ليس أميناً مخلصاً لأيديولوجيته.. بل أميناً مخلصاً لمصالحه المادية وذاته.. بغض النظر توافقت مع الأيديولوجيا أم لم تتوافق..

والحزب العلماني الليبرالي يستخدم أيديولوجيته أيضاً للحشد الجماهيري والإعلامي وإثبات التفوق، والإبهار بنموذجه العالمي المنتصر، وفي ذات الوقت لا يلتزم بمبادئ الليبرالية عندما تتعارض مع مصالح الحزب، ورجالاته، وكوادره، فهو قادر على الكفر التام، والجحود، والإعراض عن أيديولوجيته الليبرالية عندما تتعارض مع مصالحه..

وهذه طبيعة الفلسفة المادية والبراجماتية التي لا تؤمن إلا بنفسها وهواها.. وتعتمد على جهالة وغوغائية ومزاجية وإمعية كثير من الجماهير بعد تغفيلها وهندسة أفعالها والتلاعب باختياراتها بكل وسيلة.

وعلى جماعات التغيير المسلمة أن تحذر هذا الداء العضال، إنها ابتداء لا تؤمن بأيديولوجيا منفصلة عن رسالة الإسلام، ولا هي تختزل رسالة الإسلام فيها.. إنما تؤمن بالرسالة الإسلامية الجامعة، ولا تحشد الجماهير إلا تحت هذه الدعوة العامة البريئة من التعصب والدجل والهوى والانتفاع..

وهي دوماً تقدم مبادئ الرسالة الإسلامية على ذاتها الفردية والاجتماعية، والسياسية، فهدفها الأساس هو: **إعلاء كلمة الله فوق كل كلمة.. وتجعل هذه هي المصلحة العليا، والغاية النافعة الدائمة، ذلك أن ما عند الله ـ وما كان لله ـ هو خير وأبقى، وكل ما دون ذلك فهو هالك لا محالة.**

***

والفكر السياسي الإسلامي يُناقض الفكر السياسي الجاهلي شكلاً وموضوعاً.. إذ الفكر السياسي الإسلامي ينطلق من قاعدة أصيلة متينة عامة شاملة وهي: (الإيمان بالله واليوم الآخر)، ويتحرك على أساسها، منها ينطلق، وإليها يعود.. ويظل بها متصلاً، وإن انقطع عنها فقد شرعيته وانتماؤه.

ويحيط الفكر السياسي الإسلامي نفسه بقاعدة أخلاقية متينة، أصيلة، ثابتة، دائمة، شاملة، ليس في حِل من الخروج عنها، مهما كانت الدعاوى.. بل هدف الفكر السياسي الإسلامي الوصول إلى الحالة الإيمانية المُستسلمة لله، ولشريعته، والمُحققة للمعروف المتمثل في (الرحمة والعدل) والمجاهدة للمنكر المتمثل في (القسوة والظلم والعدوان)، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]

وأهل التمكين، وقبل تمكينهم في الأرض كانوا ـ ولا شك ـ يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن الآية تتحدث بعد تمكينهم، تتحدث عن "**البرنامج السياسي**" لهم، فلم يختلف عن حال المتقين قبل تمكينهم.. إنه هو هو: إشاعة إقامة الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة التي تحقق الشريعة، والعدالة الاجتماعية، وتمنع الممارسات المالية المحرمة مثل: الربا، والسحت، والفساد.. وتقيم "دولة المعروف"، وتجاهد كل منافذ المنكر.

بل كانت الحركة السياسية الهادفة للاستخلاف الراشد في الأرض، هي وعد الله، ولكن لمن؟

للذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، إيمان بلا شرك، وعمل بلا فسق: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: 55-57]

وعلى هذه الأصول تنطلق "الحركة السياسية" تدور مع "كتاب الله" حيث دار، ولا تنتهك حرمات الله، بدعوى "المصلحة السياسية"، وتمثل في حركتها كل الأخلاق الربانية.. ولا تعتبر حركتها إسلامية دون الامتثال لهذه الأخلاق، والعمل بها، والدعوة إليها، **قال تعالى:**

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 90-91]

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ. وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 112-117]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 135-136]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا

ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 152-153]

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: 35]

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 55-56]

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 204-209]

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ. فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ. مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ. لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الروم: 41-45]

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ. إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 32-35]

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 62-63]

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا. وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا. وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 68-74]

وغيرها الكثير...

***

يصطدم هذا الفكر السياسي الإسلامي بالفكر السياسي الجاهلي ويجده مُسلحاً بكل الأسلحة الفتاكة، لا يعرف خلقاً ولا ديناً ولا حُرمة، ويستبيح كل شيء؛ يتلاعب بالضعف الإنساني، ويسيطر عليه بالمال والجنس، والقهر والإرهاب، والتجسس والسلاح، والفتك والخيانة، والجاه والسلطة، والدجل والخداع.. يُفسد الأخلاق، ويشتري الذمم والضمائر، ويتحالف مع الفكر السياسي الجاهلي العالمي.. فيشعر بعض الحاملين للفكر السياسي الإسلامي بالضعف والانكسار أمام ضخامة هذا الباطل، وشعور الضعف هذا عندما يدب في قلب مسلم، فإنه ينتهي به إلى الهزيمة، وإلى أن يصبح جزءاً من الواقع الجاهلي السياسي!

إنَّ الحركة السياسية الإسلامية تبدأ من **منطلق مقاومة ومجاهدة الفكر السياسي الجاهلي** - وهو واجب على "**كل**" مسلم، قدر الوسع والطاقة[1] - وهو يتسلح بمعية الله، ومدد الله، وقوة الله، وترابط المجتمع المسلم.. ولا يحل له أن يستخدم الوسائل الخسيسة، من أجل الوصول إلى غاياته النبيلة، بل إنما يتحرك من أجل انتصار دين الله، والأخلاق الربانية.. وهي مجاهدة كبيرة، وابتلاء من ربكم عظيم.

والمرونة والضرورة في الحركة السياسية الإسلامية **لا تعني** أي ممارسة من ممارسات "الجاهلية البراجماتية" فإنها بذلك لا تصبح إسلامية، ولا تأخذ هذا الوصف العظيم إلا بتحقيق شروطه، وإقامة معالمه، وانتفاء موانعه..

المرونة في الحركة السياسية الإسلامية: لا تعني التخلي على المبادئ والأخلاق، بل تعني محاولة التكيف مع بقاء الأصل الإسلامي كما هو، محاولة كسب أرضية جديدة كل يوم، محاولة استمرارية الحركة الربانية النافعة، محاولة تجاوز العقبات، محاولة الإعداد

(1) انظر - إن شئت - مقال: "الإسلاميون.. إشكالية المصطلح".

والترتيب، محاولة اقتناص الفرص للإسلام والمسلمين، مع حسن الظن بالله، وعدم انقطاع الرجاء منه، وعدم اليأس من رحمته، ومن منحه وفضله.

والضرورة في الحركة السياسية الإسلامية: لا تعني تحويل حالة الاضطرار إلى الأصل، بل تعني انعدام وجود الوسيلة المناسبة في اللحظة الراهنة، ومن ثم الاضطرار والإكراه للجوء إلى وسائل أخرى[1] (والقلب مطمئن بالإيمان).. ودون أن تسبب (البغي) والعدوان على مسلم أو مسالم، ويستخدمها بالقدر اللازم في وقتها فقط، ودون أن يستمرئها المسلم ويستسهلها ويستسيغها ويُعاود استخدامها بصورة متكررة.[2]

لماذا كل هذه الشروط، ولماذا هذا التحفظ الشديد؟

خوفاً على الأخلاق الإسلامية من التلف، ومن الاختراق، ومن التلوث، ومن فقدان البوصلة، ومن التيه في الطريق، خوفاً على دين المرء.. إنه يخوض غمار واقع مرير، منتفش فيه الباطل، متبجح بكل رزيلة، متسلح بكل قوة.. وإن أول انتصار على هذا الواقع الجاهلي هو "**انتصار الأخلاق**" وليس منافسة الباطل في باطله، ولا الجاهلية في تسافلها.. ولضمان استمرار انتصار الأخلاق، وفي نفس الوقت مواجهة هذا الواقع الجاهلي ومجاهدته..

ولا يمكن أن ندعي "انتصار الأخلاق" ونحن لا نقوم بحركتنا السياسية، فهي بذلك لم تنزل ساحة المعركة، ولم تُبتل البلاء الحقيقي.. فلا يزعم النصر من لم ينزل ساحة الوغى!

(1) يُذكر في بعض الغزوات، ولفك الحصار عن المسلمين، رفعت بعض سفن المسلمين الصليب لتمر من المضيق الذي يمر على معسكر الكافرين. وفي فتح مكة، هَمّ علي بن أبي طالب ومن معه - رضي الله عنهم - تجريد امرأة من ثيابها للحصول على خطاب مُوجه للمشركين يُعلمهم بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة، وقالوا: «أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لِتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ، أَوْ لَنُجَرِدَنَّ الثِّيَابَ، قَالَ: فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا»[«أسد الغابة في معرفة الصحابة ط العلمية» (1/ 659)]

(2) انظر مقال: "درس في المواجهة"، ومقال: "بين المبدأ والفعل".

لذا فالمرونة السياسية، والثبات على المبادئ الإيمانية هي التي تضمن الفاعلية الحركية، وعدم الغثائية من جانب، ومن جانب آخر تضمن أن لا تتحول الفعالية إلى أداة وظيفية للعدو.. فالإسلام لا يريد مسلماً بلا فاعلية، ولا يريد مسلماً بلا رسالة.

وهذا هو التوازن الذي ينشده الإسلام.

والإسلام يدعو إلى الجهاد في سبيل الله.. يدعو إلى الحركة والانطلاق من جانب، ويدعو إلى "في سبيل الله" دوماً وأبداً، إن الأخلاق الربانية هي سلاح المؤمن، الذي وُلد من رحم "كتاب الله"، وإنَّ الذي ينسلخ منه فلا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 175-178]

***

42- الأخلاق والسياسة

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 90-91]

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58]

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 113-116]

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: 111-112]

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ

اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (1) [الحديد: 27]

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: 58]

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64]

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**"(2)

فالأخلاق الربانية المنبثقة من الإيمان بالله ورسوله، هي جوهر السلوك للإنسان المسلم في كل نشاط الحياة، وهي أساس الدعوة وركنها الركين، وهي أيسر سبل الدعوة إلى الله، وغاية التمكين لدين الله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41] فالسلوك السياسي للفرد أو الجماعة أو الدولة، يجب أن يتسم بالأخلاق الربانية، وهذه البديهية الإسلامية نجدها محل شك عند التطبيق العملي!

فعالم السياسة (وما يحمله من مطامع في السلطة والمال والجاه والطمع والحسد والتنافس) تجعل من "التعامل الأخلاقي" مزحة سخيفة! ودروشة لا معنى لها.. فكأن عالم السياسة هو بالأساس معاول هدم لكل قيمة أخلاقية! ويقوم على النفعية والبراغماتية، واستحلال كل وسيلة مهما كانت خسيسة مجرمة في سبيل تحقيق ما يُتوهم أنه مصالح باسم (الفرد، أو الحزب، أو الدولة)!

---

(1) وجه الاستدلال بالآية أنه كان من أهم أسباب الإلحاد في أوروبا هو انهيار النظام الأخلاقي، وانتشار الفسق بين رجال الدين، والنظر إليهم على أنهم مجرد منافقين منتفعين، واعتبار الدين مجرد دعوى كاذبة أو مصالح لرجال الكهنوت وحسب!

(2) [مسند الإمام أحمد/ 8729]

ويجد المسلمون أنفسهم أمام عالم من التوحش والجرائم التي تحمل الصفة (القانونية والدستورية والعرف الدولي) فتهتز موازين الأخلاق لديهم.. ويصبحون أمام خيارين:

- إما الانكفاء والعزلة، وترك الأمور تزداد سوءاً يوماً بعد يوم.

- وإما الانغماس في بحر لجي من المظالم والمفاسد والبغي والظلم والعدوان.

فالتمسك بالأخلاق يساوي العزلة والانقطاع. والتمسك بمبادئ السياسة (اللا أخلاقية، أو التي لا ترفع رأساً للأخلاق ابتداء) يساوي ضياع الأخلاق، وضياع الدين.

فهل يمكن أن يكون عالم السياسة متحلياً بالأخلاق الربانية؟ وكيف يمكن الموازنة بينهما؟

لا شك أن هذا التلوث السياسي جعل كثير من الفقهاء والعلماء - قديماً وحديثاً - ينأى بنفسه عن هذا العالم، وقد خلقت عزلتهم هذه الترسيخ لفصل الدين والأخلاق عن عالم السياسة، ولما جاءت الدولة الحديثة بنظمها الشمولي الذي يسيطر سيطرة تامة على الإنسان.. توحش عالم السياسة اللا أخلاقية وازداد العلماء عزلة عن واقعهم، إما للترفع عن المشاركة في هذا التلوث، وإما إيثاراً للسلامة، ومنهم من باع دينه وذهب يؤصل للتلوث والفساد والإفساد! وبذلك جاءت العلمانية بالواقعية السياسية، وظُن أن الدين جاء بمُثل خيالية حالمة لا وجود لها في عالم الواقع.

بداية.. يجب معرفة أن دين الله، وكتابه، وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - إنما جاء لإصلاح الدنيا، والقضاء على البغي والظلم والعدوان، والنهي عن الفساد في الأرض، وإقامة الحق والعدل والخير، وإعلاء كلمة الله في الأرض.. ومن ثم فهو جاء ليواجه هذا الواقع الفاسد، ويُنشأ الواقع الطاهر النظيف، فليس مفاجأة - إذن - أن نجد هذا الظلم والفساد، بل هو المرض الذي جاء الإسلام لعلاجه؛ ولذا قال تعالى لنبيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ

إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] فدون الرسالة فالإنسانية كلها في شقاء، فلا يصح أن يُقال سأنعزل عن هذا العالم الشقي الفاسد، خشية أن أتعرض للفساد، فدون مقاومته سيتوحش أكثر فأكثر، ولا بد من مواجهته وإصلاحه ومقاومته وجهاده، وإعداد العدة والقوة اللازمة لدفعه.

ومن جانب آخر: لا يصح أن يستسلم المسلم لواقعه وينجرف مع تياره الفاسد، وإنما يظل في حالة من المقاومة والمدافعة لهذا الباطل بكل وسيلة؛ باليد واللسان.. فإن عجز فلا بد أن يظل القلب في حالة من الإنكار والمقاومة للباطل؛ حتى لا يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً.

فالسياسة بلا أخلاق كمن يصلي دون أن يتوضأ، والأخلاق بلا سياسة كمن يتوضأ ولا يصلي الفريضة!

فمهمة المسلم ـ سواء أكان فرداً أو جماعة أو دولة ـ أن يقيم هذا العالم الأخلاقي الرباني في عالم السياسة، وفي كل نشاط الحياة.. قدر وسعه وطاقته وما أتاه الله، ولا يحقرن من المعروف شيئاً، ويستفرغ وسعه في تحقيق الخلافة الراشدة في الأرض، ولا يخش أحداً إلا الله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39] والتبليغ هنا ليس مجرد "الدعوة اللفظية" وحسب، إنما العمل الدؤوب على التمكين لهذه الدعوة في الأرض، وتحصيل القوة اللازمة لدفع عدوان المعتدين عليها، والجهاد في سبيلها.

فالمسلم الرباني:

ـ لا يستسلم لمن يريد أن ينزع عنه دوره في الحياة ـ وإصلاحها على منهج الله، ونور كتابه، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ـ ويعزله عن مجال عمله، ويعطل طاقاته ودوره ورسالته.

ـ ولا يستسلم لمن يريد أن يُغرقه في المفاسد والتلوث والبغي والعدوان بدعوى "الواقعية السياسية".

ـ ولا يستسلم للأطماع الدنيوية والأهواء التي تتلألأ أمامه عندما يرى بريق السلطة والقوة والنفوذ.. فلا تأخذ الدنيا من دينه شيئاً عندما يصل إلى شيء من التمكين والقوة. فعلامة الإيمان: كلما ازداد المسلم قوة ازداد تواضعاً وخشية لله، وعلامة الكفر: كلما ازداد قوة ازداد طغياناً في الأرض.

***

الواقعية السياسية والأخلاق

يجد المسلم نفسه في الواقع السياسي أمام صنوف شتى من الانحرافات والظلم والأباطيل والتحالفات والتوازنات والسياقات المختلفة والمتضادة والمتغيرة والعدو المتربص من داخل الأمة ومن خارجها، فماذا يفعل؟

عليه:

ـ الإيمان بأن ما يقوم به هو أعظم جهاد في سبيل الله، وهو الدفاع عن الدين والأمة، وإحياء الأمة من جديد. وليس في حل أن يترك هذه المعركة بزعم التطهر أو اليأس.

ـ القراءة الدقيقة لهذا الواقع، ومعرفة خريطة الأعداء جيداً.

ـ تحليل قوة الأمة، وقوة العدو من داخلها وخارجها.

ـ الاستفادة من الإمكانيات المتاحة في تحقيق مكسب للدين والأمة، ولكل بصورة ربانية أخلاقية، والاطمئنان إلى الثمرة المرجوة.. وهي معضلة كبرى!

ـ ألا يصب أي عمل في مصلحة أعداء الأمة التاريخيين من يهود وصليبيين ومشركين معتدين.

إنَّ الإمكانيات المتاحة غالباً ما تكون في يد بعض الظالمين، والمفسدين، ولكنهم ـ لأي سبب ـ يريدون أن يوفروا بعض هذه الإمكانيات والهوامش للمسلمين، ربما نكاية في عدو، أو خلق حالة من التوازن، أو التجسس على المسلمين، أو وضعهم تحت الرقابة والاحتواء، أو لغسيل سمعتهم القذرة الملوثة بالظلم والبغي والعدوان، أو دعمهم على حساب إخوان لهم... إلخ!

فهل في هذه الحال يجوز التعامل مع هؤلاء الظالمين والمفسدين؟ ألا يكون هذا ركوناً للظالمين؟

أولاً: تحديد النطاق.

إذا كنا نتحدث عن "الفرد المسلم" فلا يحل له ذلك بأي حال من الأحوال، فهو مأمور بالتمسك بالأخلاق الربانية دائماً وأبداً، ولا يشارك في أي إثم أو عدوان، ولا حتى يقترب من حمى الظالمين هذا فيضيع. فالمسلم مشغول دائماً وأبداً بصلاح قلبه، وتزكية نفسه، وشغله الشاغل عمل الصالحات، وترك المنكرات.

وهل هناك فرق في "الأخلاق" بين الفرد المسلم، والجماعة أو الحركة أو الحزب؟

لا، ونعم! لا يوجد فرق في القيم الأخلاقية في مجموعها، فالله تعالى خاطب المؤمنين جميعاً في أي صورة كانوا عليها.. أفراداً أم جماعات أم دول.

ولكن الفرق هنا: أن "الجماعة أو الحركة أو الحزب" سيكون لديها "مشروع عملي جهادي حركي" ومن ثم فهي لها "شرعية" ليست للفرد المسلم المجرد، كما أنه تجري عليها حالة الاستضعاف، وأحكامه، وبناء عليه.. فهي تتحرك في الهامش الموجود، وتستفيد من

كل التناقضات، وتستجلب عناصر القوة قدر ما تستطيع، ولكن لهذا الأمر شروط دقيقة هامة، **وهي**:

ـ شرعية الوجود والتمثيل لبعض مكونات الأمة.

ـ وأن لا تكون هذه الشرعية ضد مكونات الأمة الأخرى، فلا تحارب هذه الشرعيات بل تتآلف.

ـ الشرعية تعني: تمثيل المبادئ الإسلامية، وتمثيل قطاع من الأمة، وحاضنة للجماعة أو الحركة.

ـ الامتناع من التلاعب بالأدلة الشرعية عندما تتغير موازين القوة السياسية الواقعية، بمعنى لا يجوز أن تحالف اليوم مع كيان ثم تسوق الأدلة الشرعية عليه، ثم تحالف مع ضده وتسوق الأدلة الشرعية.. فلا تجعل الدليل الشرعي يدور مع قراءتك حيث رأيت، بل العكس هو الصحيح.

ـ انضباط الخطاب السياسي بالأخلاق الربانية، والصدق، والشفافية، والأمانة، والإخلاص.. فهذا سر تميز المسلم، ومعنى استعلاءه بالإيمان.

ـ الإجماع على ظنية تحقيق مصلحة ـ معتبرة شرعاً ـ ودفع مفسدة أو تقليلها، يقول العلاّمة العز بن عبد السلام: «وقد تجوز المعاونة على الإثم والعدوان والفسوق والعصيان[1] لا من جهة كونه معصية، بل من جهة كونه وسيلة إلى مصلحة وله **أمثلة** منها ما يبذل في افتكاك الأسارى فإنه **حرام على آخذيه مباح لباذليه** ومنها أن يريد الظالم قتل إنسان مصادرة على ماله ويغلب على ظنه أنه يقتله إن لم يدفع إليه ماله، فإنه يجب

(1) لعل الصياغة غير مناسبة، فلا يصح أن يظهر كأننا نعاند الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، والشيخ ـ رحمه الله، الملقب بسلطان العلماء ـ بالتأكيد لا يقصد ذلك، ومقصود كلامه صحيح، فهو يقصد بالإثم والعدوان هنا ما ضربه من أمثلة كدفع المال لفكاك الأسرى.

عليه بذل ماله فكاكاً لنفسه، ومنها أن يكره امرأة على الزنا ولا يتركها إلا بافتداء بمالها أو بمال غيرها فيلزمها ذلك عند إمكانه. وليس هذا على التحقيق معاونة على الإثم والعدوان والفسوق والعصيان **وإنما هو إعانة على درء المفاسد** فكانت المعاونة على الإثم والعدوان والفسوق والعصيان فيها تبعاً لا مقصوداً.»[1] فلا يمكن أن تكون المصلحة السياسية هي ـ مثلاً ـ دفع المال، ولا يحصل فكاك للأسارى ولا حفظ للنفس، ولا للعرض.. بل لا بد من ترجيح حصول المصلحة والحرص على تحقيق أقصى درجة قصوى تخدم الدين والأمة.

ـ الاطمئنان إلى أن المصلحة الشرعية للدين والأمة لم تتحول إلى مصالح ذاتية.

ـ القراءة السريعة والدقيقة للمستجدات ـ التي تتغير بشكل سريع في عالم السياسة ـ والتمتع بالمرونة الكافية في فهمها وتوظيفها لصالح المشروع الإسلامي، والحرص على بيان وإيضاح كل خطوة للحاضنة الشعبية، وتثقيفها بالثقافة التي تحميها من الشك أو الاختراق الفكري.

ـ الحفاظ على العزة والكرامة والشجاعة، وعدم الخضوع والتذلل والتزلف كالمتسول للداعم، واستعمال لغة دبلوماسية متوازنة وحذرة ودقيقة تنتقي كل كلمة بدقة.

ـ البراءة العامة والمطلقة من كل ظلم وإفساد، والنأي بالنفس عنه.. فمثلاً: إذا طلبت من أخيك نصرة ـ بينما العدوان يقع عليك من كل شكل ولون ـ فامتنع منك! وربما تحالف مع العدو من أجل القضاء عليك! ثم وجدت "زانية" تعرض عليك المساعدة، فيجب الحذر من أن تكون هذه المساعدة غسيلاً لسمعتها أو شرعنة لأفعالها أو تخدعك وتأخذك من يدك فتدعوك إلى فراشها والعياذ بالله! ويأتيك "شيطان التبرير" ليخلق لك

(1) [«قواعد الأحكام في مصالح الأنام لعز الدين بن عبد السلام» (1/ 129)]

من الأدلة "الشرعية" ما تريده! وهذه النقطة من أصعب ما يواجهه المسلم العامل لدينه، ولا منجي منها إلا رحمة الله، وذكره.

ـ ذكر الله الدائم هو العاصم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45] فإن كان الفساد والظلم صار حالة إدمانية في عالم السياسة، أو صار الفساد نفسه هو عالم السياسة، فلا بد أن يقابله ذكر الله ويكون ـ إن صح التعبير ـ حالة إدمانية تملأ على المسلم قلبه وفكره وشعوره وسلوكه، ويتربى المسلم أن يكون خالصاً تاماً لوجه الله الكريم، فهي فتنة لا عاصم فيها إلا الله جل جلاله.

ـ لا يوجد عمل سياسي إسلامي شرعي يُجيز الاعتداء على مسلم أو مسالم أو بريء، أو إعانة على ظلم أو إثم أو عدوان.

ـ التحول من الجماعة ـ أو الحزب ـ إلى الدولة هو جهاد كبير ورحلة شاقة، يجب تحديث الثوابت فيها، والمتغيرات.. حتى نضمن القاعدة الأخلاقية التي تقوم عليها الحركة، فلا تتحول ـ والعياذ بالله ـ إلى مجرد مادة استهلاكية أو دعاية فارغة أو مضامين سائلة يمكن تشكيلها حسب الأهواء.

وأما في حالة الدولة (سواء أكانت ضعيفة أو متدافعة أو قوية) فالشرعية هنا واضحة لأنها تمثل مجموع الأمة، وتستثمر كل طاقاتها، وصيانة الأخلاق الربانية فيها أيسر بكثير مما هو عليه الحال في حالة الجماعة أو الحزب.. والتحالفات فيها قائمة على نفس المبادئ الإسلامية من التعاون على البر والتقوى لا الإثم والعدوان، ونحو ذلك مما هو مذكور أعلاه.

***

ثانياً: طبيعة الدعم

ـ الدعم المشروط بإثم أو بغي أو عدوان أو شراء أو توظيف فهو دعم مرفوض، ولا حاجة للإسلام والمسلمين به، وهنا يظهر "الضابط الأخلاقي" وتميز حركة المسلمين عن غيرهم بهذه الأخلاق الربانية.

ـ لا تكون وسيلة الدعم محرّمة في ذاتها، مثل تجارة المخدرات والمحرمات ونحو ذلك.. لما يقع فيه من ضرر على الناس.

ـ الاطمئنان إلى أسباب الدعم، مثل: اتحاد مشترك مع عدو، أو حماية أرض، أو دفع عدو أشرس وأخبث، والحذر من استخدام الدعم كوسيلة لاحتواء الحركة أو الحزب والسيطرة عليه. وقد طُلب من المنافقين الدفاع عن بلادهم إذ لم يكن لهم نصيب من الجهاد في سبيل الله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران: 167]

ـ وقوع الدعم في يد القيادة الشرعية المرضية، والحذر من انقسام القيادات على نفسها بسبب هذا الدعم.

***

ثالثاً: توظيف الدعم

ـ يجب توظيف الدعم التوظيف الذي يحقق مصلحة الإسلام والمسلمين بشكل عام، ولا يُعبر فقط عن مصالح فئات بعينها على حساب بقية المسلمين.

ـ البدء بالأهم فالمهم. والبيان التفصيلي للمصلحة المرجوة ـ حتى لا تكون مصلحة متوهمة أو مبهمة ـ وكذلك المفاسد المجتنبة، ووزن كل منها بميزان دقيق، حتى يخضع العمل للتحسين والتقويم والتصويب.

ـ وضع خطة لضمان سلاسل الإمداد، وعدم الاطمئنان إلى ديمومة الدعم، فقد تتغير الظروف وينقلب الداعم، ويتحول الصديق إلى عدو. فلا يصح الرهان أو الشعور بالراحة لوجود داعم ما.

***

رابعاً: الحالة الحركية

يمر كل حزب أو جماعة شرعية بحالات متعددة من الضعف والقوة والفرص والوضع الإقليمي والدولي، ولا يصح أن تكون حالة الإلجاء والإكراه والاضطرار سواء في جميعها.. فحالة الضعف الشديد ليس كحالة القوة والنفوذ والشعبية، وحالات السلم ليست كحالة العدوان المباشر الهادف لإبادة المسلمين، وكل حالة تقدر بقدرها، وظروفها، وسياقاتها، وإمكانياتها، فالاستباحة التامة والاستهداف المباشر قد يبيح صوراً من التحالفات أو العلاقات السياسية (مع ظالمين وفاسدين)، ولكن ـ في ذات الوقت ـ لا يمكن تحطيم القيم الأخلاقية الربانية مهم بلغ بنا الضعف، فإباحة التحالف أو العلاقات وقبول الدعم.. هو سياق ظرفي ـ لا مبدأي ـ ومع قبوله أيضاً لا يُبيح بأي شكل من الأشكال أي إثم أو عدوان.. فإن وقع التشابه السلوكي بين الجماعة أو الحركة الشرعية وبين الطغاة والمفسدين، فقد فقدت الحركة أو الجماعة شرعيتها الإسلامية وقيمتها وأصالتها ووجودها.

وفي حالة القوة الذاتية أو الفرص.. فالأولى هو العمل على الاستقلال الذاتي والاستغناء عن أي تحالفات أو علاقات تحوم حولها الشبهات أو اللغط أو ريبة المؤمنين.. بحيث يكون العمل على النقاء الأخلاقي، والحفاظ على المبادئ الربانية السلوكية هو هدف أساس ـ وليس نافلة ـ تعمل الحركة على الحفاظ عليه، والتمسك بها أبداً، حتى لا تفقد شرعية وجودها.

مع التأكيد على حرية إنكار المنكر، واعتباره فضيلة مرحب بها، وفريضة ربانية.. دون أن يكون هذا الإنكار يصب في صالح العدو، أو يهدم الاجتماع ويثير الفرقة، وما يسع أن يقال ـ من نقد ـ في وقت معين، قد لا يسع في وقت آخر. مع احترام مقام القيادة وهيبته وشرعيته، حتى يكون النقد بناءً وهادفاً للإصلاح ولمزيد من الاستقامة والورع.

أما في حالة الخلو من مشروع الدولة ومشروع البناء الحضاري الإسلامي.. فلا أدري ـ هاهنا ـ لماذا نبحث عن الدعم ابتداء؟ فهذه حالة من التكلس والعجز والفشل، لا تحتاج إلى داعم ـ أياً كان حاله ـ إنما بحالة إلى إصلاح فكري وقلبي وروحي، والتمحور حول التعريف الصحيح للحركة الإسلامية..

كذلك عندما تنحرف بوصلة القيادة، وتضيع بين الضغوطات والمؤامرات والضعف، وتنتقل من فشل إلى فشل، فهذه الحالة تحتاج إلى قيادة راشدة جديدة، وإلى خطة رشد صالحة للحالة الزمانية والمكانية.

وإنَّ الوصية التي لا نمل من تكرارها، والتأكيد عليها في كل مناسبة هي: الإخلاص لله، والتجرد له، وتقواه، وسلامة القلب من النفاق والشقاق والسمعة والرياء والطمع والحسد والغل.. حتى يضمن المسلم ـ في هذا الجهاد العصيب ـ نصيبه في الآخرة بفضل الله ومنته.

***

43- الأخطاء والنقد

قيل لي عن حركة سياسية مُجاهدة: إن بها بعض الظلم، والأثرة والمحاباة، فسألت: هل خانت الله ورسوله، وباعت نفسها للعدو؟ قيل: اللهم لا. قلت: إذن ننصرها على ما معها من الحق، ونتوقع الأثرة والظلم من أفعال البشر، ونُنكره عليهم بلا تبرير، ولا متابعة، ولا رضى.

ففي فتح مكة العظيم، كادت أن تقع حادثة خطيرة، وهي تسريب أمر الفتح إلى قريش عن طريق حاطب بن أبي بلتعة، وجاء في قصته الآتي: "عَن عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلى اللهُ عَّليه وَسَلم - أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ، قَالَ: "انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً [امرأة] وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ - صَلى اللهُ عَّليه وَسَلم - فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلى اللهُ عَّليه وَسَلم - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلى اللهُ عَّليه وَسَلم: يَا حَاطِبُ مَا هَذَا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلى اللهُ عَّليه وَسَلم: لَقَدْ صَدَقَكُمْ، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ

شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ".[1]

فهذا حاطب ـ رضي الله عنه ـ يقع في سقطة كبيرة ويراسل العدو يُعلمهم بقدوم النبي ـ عليه الصلاة والسلام![2] ولكن النبي الكريم يُقيل عثرته، ولا يسمح لأحد أن يُعين الشيطان عليه، ويُبقي له مكانته البدرية، وقال حاطب: "يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيه السَلام: لَقَدْ صَدَقَكُمْ"[3] ورغم صدقه في أن ما فعله ليس كفراً، ولا ارتداداً، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فإن تبريره هذا كان مرفوضاً، ولا يصح.. وإن ما حصل كانت رغائب نفس أو وساوس شيطان.. ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعجل عليه، وأقال عثرته، وقَبِل عذره؛ لأنه أظهر في موطن أخرى من الشجاعة والإيمان والثبات والجهاد، وأما الشعور بالخوف على الأهل والأبناء، والضعف الإنساني الفطري أمامهم قد يدفع الإنسان لمثل هذه الأخطاء، والنبي الكريم لم ينظر إلى الخطأ المفرد المجرد، بل إلى الإنسان بمجمل أفعاله، وبرسوخ إيمانه.

كما نلحظ من القصة الآتي:

ـ إصرار المكلفون بالحصول على الخطاب، باستخراجه من المرأة مهما كلّف الأمر ذلك، فالأمر خطير.. ولا بد من استدراكه.

(1) [صحيح البخاري/ 3007]

(2) وقد كان استدراك هذا الخطأ من رحمة الله بأهل مكة، والتعظيم للبيت الحرام، فلو قد علمت قريش بذلك لكانت حرباً عند البيت الحرام، فيا لرحمة الله، وفضله، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

(3) [صحيح البخاري/ 3007]

ـ الإقرار بخطأ حاطب، واعترافه بالذنب، مع رفض تبريره الذي ساقه.. وهذه من لحظات الضعف الإنساني.

ـ التفرقة بين لحظات الضعف الإنساني مع الإيمان وحب المؤمنين، وبين الضعف الذي يؤدي إلى الخيانة والنفاق.

ـ عدم نسيان الخير، والمعدن الطيب.. وإقالة عثرات المتقين والمؤمنين.

ـ ما جاء في نص خطاب حاطب إلى قريش: "قِيلَ إِنَّهُ كَانَ فِي الْكِتَابِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْكُمْ بِجَيْشٍ كَاللَّيْلِ يَسِيرُ كَالسَّيْلِ وَأُقْسِمُ بِاَللَّهِ لَوْ سَارَ إِلَيْكُمْ وَحْدَهُ لَنَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَإِنَّهُ مُنْجِزٌ لَهُ مَا وَعَدَهُ".[1] فهو وإن كان يُخبرهم بقدوم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لفتح مكة، فإنه يُهددهم ويُخوفهم ويُرجف عليهم، ويُلقي في قلوبهم الرعب، فهذه لمسة الإيمان في قلب المؤمن، ولهذا نزلت آيات سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: 1]

ـ إنَّ الخطأ لم يكن في القيادة ـ وحاشاه عليه السلام ـ أو في كبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فالخطأ في مستويات القيادة العليا مهلكة عظيمة، وخطورة بالغة على الأمة، فالخطأ هنا كان من بعض الأفراد، وتم استدراكه بفضل الله. فليس كل الأخطاء سواء.. فهناك أخطاء مميتة مهلكة، وأخطاء مُحتملة، وأخطاء يصعب استدراكها، وأخرى يسهل استدراكها. ولذا يجب على الأمة حماية القيادة بدفع الخيرة الأبرار الأتقياء الأذكياء الأمناء، وحمايتهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعمهم ببنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً.

***

(1) [«الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، لأبي القاسم السهيلي» (7/ 203)، والبداية والنهاية لابن كثير]

وقد تبرأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فعل خالد بن الوليد مع بني جذيمة، فعن عبد الله بن عمر " قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ، يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ صَبَأْنَا صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ، حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَدَهُ، فَقَالَ: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ مَرَّتَيْنِ**"[1]

فالتبرأ من الخطأ لا يعني التبرأ من المسلم، وتصحيح الخطأ لا يعني تحطيم وتدمير واغتيال شخصية المسلم.

ويَعترض عمر بن الخطاب كذلك على سلوك وأخطاء خالد بن الوليد في حرب المرتدين ومانعي الزكاة، ومع ذلك يُبقيه أبو بكر قائداً للجيش لما يرى من بأسه على الأعداء.. رضي الله عن الجميع.

***

وفي التربية السياسية، يجب مراعاة الآتي:

ـ الاعتراف بوجود الضعف الإنساني، ومحاولة تحييد خطره من خلال التوازن الاجتماعي، واحترام الحاجيات الفطرية الإنسانية.

ـ توقع حصول ثغرات، والعمل على سرعة احتوائها، والقضاء على خطرها، أو تقليل أثرها.

(1) [صحيح البخاري/ 4339]

ـ التربية على كتمان الأسرار، وعدم الحديث فيما لا ضرورة له، خاصة عندما يتعلق الأمر بأسرار كيان ما، أو بخطط سياسية، والحديث بمقدار عند الحاجة، وعدم جعل الفعل السياسي والشأن العام وما يتبعه مادة للتسلية، والإفضاء به لإظهار مكانة وأهمية المتحدث، أو للتهوين من قيمة السر والحديث فيه؛ فهذا مما يُسبب كوارث غير مقصودة! وعدم الإفصاح لأي أحد بأي أسرار كائناً من كان، حتى ولو كان محل ثقة، فقد ينقل الأخبار لمن هو غير ثقة.

وقد يتحدث الرجل مع زوجه متجاذباً أطراف الحديث ـ أو لإظهار أهميته! ـ في قضايا خطيرة، فتُحدث المرأة بهذا الحديث أخريات دون قصد، فتصل الأخبار إلى أطراف معادية!

ـ التعرض للابتزاز الجنسي والمادي من أشهر الطرق في إفشاء الأسرار.. ويجب تحذير الكوادر السياسية منه، وتعليمهم أساليبه وطرق العدو فيه، وكيفية تجنبه.. والمسارعة في التوبة، وتأمين الأخطار عند وقوعه.

ـ التجسس الإلكتروني بالأساليب التقنية الحديثة من أهم طرق التجسس الحالية، ومن ثم يجب معرفة الاستخدام الأمثل لهذه التقنيات دون أن يكون فيها تهديداً لجماعات التغيير.

***

وهذه الصور من الأخطاء ليست لتمجيد الخطأ ـ والعياذ بالله ـ أو الاقتداء به، إنما لوضعه في موضعه الصحيح، ومعالجة الأخطاء المعالجة الصحيحة، حتى تبقى حركة المسلمين إيجابية صالحة مستمرة دوماً، ولا تُستغل الأخطاء في هدم العمل الإسلامي الصحيح، أو تشويه الخير الموجود.

وإنَّ أعوان الظالمين يستغلون كل خطأ لتدمير حركات التغيير، ويزعمون أنهم أنصار للحق المهضوم، والعدل المفقود.. بينما هم أبواق الظلم، وأنصار للأنظمة الباغية الفاسدة.

وإنَّ النقد الذاتي وإنكار المنكر يقطع الطريق على هؤلاء الذين يستغلون الأخطاء في التشويه المتعمد، والمبالغة في تهويل الأمور على غير حقيقتها؛ الأمر الذي يجعل الجماهير تتشكك في شرف ودين وجدية حركات التغيير.

والنقد الذاتي (للأفراد والجماعات) في البيئات الظالمة المُستبدة ـ كما هو الحال في بلادنا ـ يحتاج إلى جهاد، وتربية، حيث بيئة الاستبداد تخلع صفات الربوبية على بعض أفرادها ـ وينتقل هذا المرض لينتشر بين كافة أفراد المجتمع! عدا أهل الإيمان والتواضع ـ فيكون النقد الذاتي والنصح مسألة ثقيلة جداً على الأسماع والأفهام، وغير مرحب بها!

ومن أهم ما يجب أن تتميز به حركة التغيير هو الترحيب بالنقد، واتساع الصدر للنصح، بل والسعي لتقويم أنفسها من خارجها وداخلها، فهذه علامة الإخلاص لله سبحانه وتعالى.[1]

***

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "النقد وأنواعه".

44- الجماعات والأنظمة الوظيفية

الجماعات الوظيفية: هي الجماعات التي تؤدي دوراً وظيفياً وخدمة واضحة للأنظمة الباغية في عالمنا الإسلامي، سواء أُنشأت خصيصاً من أجل هذه الوظيفة وهذا الدور من أجل مقابل معلوم ومصالح مشتركة، أو تم اختراقها والالتفاف عليها لتؤدي هذه الوظيفة مجاناً حتى دون مقابل!

وعندما تتحرك جماعات التغيير لتؤدي رسالتها وأمانتها ومسؤوليتها، ويتحول التغيير ـ في نظر عموم الناس ـ إلى ضرورة اجتماعية وسياسية نتيجة شيخوخة النظام القائم، أو حدوث متغيرات عالمية، أو ضجر الناس وانفجارها، فإن العدو يعمل على تحويل جماعات التغيير إلى جماعات وظيفية.. أي يتم توظيفها لخدمة أغراضه وأجندته دون أن تشعر الجماعة أو كل أعضاءها، أو يقوم العدو بإنشاء جماعة تزعم التغيير والإصلاح، لتقطع الطريق على أهل الصدق، ويكون مَن أنشائها هو الذي ينظم دورها الوظيفي بكل دقة.. وأهم هدف لها هو: **تفتيت اجتماع أهل الصدق وسحب الرداء الاجتماعي منهم، وإفساد ذات البين، والتخذيل والتفشيل لكل محاولة تغيير صادقة، وفي النهاية إعطاء الشرعية للباطل والظلم والفساد.**

وخطورة الجماعات الوظيفية ـ سواء التي تم اختراقها أو التي تم إنشائها ـ يتمثل أيضاً في **استهلاكها لخطاب "التغيير"**، ومقوماته، ومسوغاته.. مثل خطاب العودة إلى الدين، أو تحقيق العدالة، أو محاربة الفساد.. فتكون مفردات هذا الخطاب ـ الذي تحول إلى مطلب جماهيري ـ هو الذي تلوكه الجماعات الوظيفية، وتتغنى به وتدعو إليه! فتدخل في دائرة "الأئمة المضلين".

ويكون الاختراق والتوظيف على عدة محاور:

ـ العمل على تمرير عمل يُشغل ولا يفيد، ويضر ولا ينفع، ويستهلك ولا يُنتج، رغم أهميته وخطورته الظاهرة.

ـ خلق أجندة تافهة فارغة والترويج لها لشغل واستهلاك طاقة الجماهير، وصرفهم عن المشكلات المصيرية.

ـ اختلاق معارك وهمية يقودها أصحاب السيوف الخشبية، ويُدخلون الجماهير حلبة الصراع الوهمي من أجل تبديد الطاقات، وتضييع الفرص، وتأكيد حتمية الفشل.

ـ إنشاء جماعات معارضة داعية للتغيير هدفها استقطاب الجماهير للوهم، والخداع، وتمزيق الاجتماع العام على التغيير.

ـ في الحالة الإسلامية يحاولون صناعة شيوخ ـ وقد يكونوا على ديانات غير الإسلام(1) ـ يحفظون القرآن، ويحافظون على السمت الإسلامي، وهم تابعون للأجهزة الأمنية للعدو؛ وذلك للتقرب من قيادات التغيير والتجسس عليهم، ومحاولة اختراقهم أو توريطهم،

---

(1) يقول الباحث اليهودي "جوزيف براودي" في مقابلة تلفزيونية له: "اهتممتُ قبل بضعة سنوات بموضوع تدريب الأئمة [المسلمين] على الإسلام المعتدل الأصيل، فذهبت إلى الأردن وبالتنسيق مع وزارة الأوقاف الأردنية، كان لدي الفرصة أن أُشرف على نشاطات وزارة الأوقاف"!! [برنامج إضاءات، دقيقة 41، 2011م] وفي سنة 2017 قال وزير الخارجية الأمريكي في جلسة استماع بالكونجرس: "أحد نتائج قمة الرئيس بالرياض كانت إنشاء مركز لمكافحة الخطاب الإسلامي المتطرف بالسعودية، المركز قائم الآن، وقد افتتح ونحن هناك، والمركز له عدد من العناصر لمهاجمة الفكر المتطرف حول العالم، وأحد العناصر التي تفقدناها معهم، وقد أخذوا خطوات بشأنها ـ أعني السعوديين ـ هي أن ينشروا كتباً دراسية جديدة تدرس في المدارس الموجودة في المساجد حول العالم، هذه الكتب ستحل محل الكتب الدراسية الموجودة هناك اليوم، والتي تروج للفكر الوهابي المتطرف، والذي يبرر العنف، وقد طالبناهم ليس فقط بنشر الكتب المدرسية الجديدة، لكن بسحب الكتب القديمة حتى نستعيدها، هذا مجرد مثال واحد فقط، وهذا المركز سوف يغطي نطاقاً واسعاً جداً من وسائل التواصل الاجتماعي إلى الإعلام، وكذلك كيفية تدريب الأئمة الشباب بمراكز التعليم الإسلامية، ونحن نعمل معهم اليوم على تأسيس هذا المركز الجديد بما في ذلك المعايير التي سنُحاسبهم عليها، وهذه أحد المهام التي تعمل فيها وزارة الخارجية الأمريكية مع السعودية وآخرين" وموازين الاعتدال في حسابات اليهود والنصارى هي الإسلام بلا شريعة ولا دولة ولا قوة، ويُستخدم من أجل ترسيخ الأنظمة الباغية ومصالح الدول الغربية.

واستخدام غفلة وطيبة وسذاجة وحسن النية والقصد لدى بعض من يتعامل بهذه الأخلاق الإسلامية الإنسانية مع شياطين الإنس، ولا يضع الأخلاق الإسلامية في موضعها الصحيح والذي يقتضي التعامل مع هؤلاء الشياطين بالحيطة والحذر واليقظة وإعداد العدة، والمواجهة عند مظنة النصر، وعدم الثقة في أعداء الله وأعداء الإنسانية.

ـ توظيف الأخطاء في ضرب مصداقية الجماعة، فقد تتشابه الأخطاء بين الجماعة الحقيقية والجماعة الوظيفية، ولكن خطأ في محاولة حقيقية للتغيير والإصلاح، ليس كخطأ من يسعى في الباطل والضلال، وعندما تفشل وظيفة إنكار المنكر، وتقديم خطاب صادق ومؤثر في الجماهير.. تؤثر الأخطاء في مصداقية الجماعة الحقيقية، ويتم تشويهها، وتفريغها من قيمها وأصالتها ومشروعها.

ـ محاولة احتواء جماعة التغيير، وتقزيم أهدافها، وخطة عملها، وإخراجها عن مضمون رسالتها.. وجذبها رويداً رويداً إلى مستنقعات الفساد والبغي؛ حتى يكونوا جزءاً منه، معتمداً عليه.. من أجل الارتباط العضوي به، فيما يسمى بعملية "الاحتواء السياسي لجماعة التغيير والمساومة معها، وإدماجها في النظام الفاسد القائم"؛ فتكون جماعة التغيير ـ التي قامت من أجل تغيير الواقع ـ هي أول المدافعين عنه؛ لأنها تدافع عن وجودها وارتباط مصالحها به؛ وهذه أشد انتكاسة وانهزام وضياع تصاب به جماعة تغيير.

فالجماعات الوظيفية أحد أهم الأسلحة التي تستخدمها "الأنظمة الفاسدة الباغية" من أجل مواجهة جماعات التغيير، وهي أشد وطأة من الحرب المباشرة بالاعتقالات والتعذيب؛ لأن هدفها استقطاب الشباب والرجال إليها، وصنع أهداف وهمية بديلة عن الأهداف الحقيقية.

***

ومن المحددات التي تطلبها الأنظمة الباغية في هذه الجماعات الوظيفية:

ـ التماهي مع النظام السياسي القائم مهما كان فاسداً، خائناً، دجالاً، عميلاً، والاعتذار له (الاعتذار الشرعي عند الجماعات الدينية، والاعتذار السياسي أو الفكري عند الجماعات العلمانية)؛ فتكون وسادة الأمان له.

ـ تزهيد الناس في العمل السياسي الفعال، ولا تنشط هذه الجماعات إلا لتقديم الدعم للنظام القائم فقط؛ فتراهم عند رغبة الناس في التغيير والإصلاح، ونشاطهم في إنكار المنكر السياسي والاجتماعي تراهم للناس مثبطين مرجفين.. زاعمين ـ كذباً ودجلاً ـ أن هذا منهج "السلف الصالح".

ـ في الحالة الدينية: شغل الناس بمعارك فقهية تافهة، وفي الحالة العلمانية: شغل الناس بتفاصيل سياسية تفاهة، وتضييع محاولة فهم المشكلات، وطرق علاجها العلاج الحقيقي.

ـ التشغيب والمعارضة المستمرة لجماعات التغيير العاملة، وتشويه سمعتها، ومحاولة سحب البساط الاجتماعي من تحتها.

ـ في الحالة الدينية: قبول الخطاب الديني للجماعات الوظيفية ودعمه براجماتياً.. أي: كلما يؤدي دوره الوظيفي كلما يأتي دعمه، وإذا انتفت الحاجة إليه يتم حصاره أيضاً لصالح المؤسسات الدينية التابعة للنظام، والتي لا تخرج عن دائرة النظام طرفة عين.

والجماعات الوظيفية تتنوع وظائفها حسب التخصص، فإن كان التخصص دعوياً.. شغلت الناس بما يُفسد ذات بينهم، ويفرق كلمتهم، ويشتت شملهم، وإن كان التخصص سياسياً، زهدت الناس في العمل السياسي، وعزلت الناس عن واقعهم لصالح المُوظِف لها، وأنشأت الأحزاب المزيفة لتفسد على الناس محاولتهم، وإن كان التخصص جهادياً أنشأت جماعات مسلحة لتواجه الحالة الجهادية نيابة عن النظام.

ومن علامة الجماعات الوظيفية أنها تنتهي ـ أو تنطفأ ـ عندما تنتهي وظيفتها، وتُحال إلى التقاعد.. عندما يُقرر من يُوظفها إنهاء خدمتها.

والفرق بين الجماعات الحقيقية، والوظيفية هو أن الأولى هدفها الرئيس هو: **"عودة الإسلام إلى الحياة مرة أخرى؛ ليتولى شرعه دفة الحكم والتوجيه والقيادة والتربية والفكر والثقافة" و" تحرير الأمة من الأنظمة الباغية الفاسدة المفسدة، وتحريرها من المحتل الأجنبي ومن هيمنته"** بينما تقف الجماعات الوظيفية بالمرصاد أمام هذين الهدفين مستغلة "الدين" ذاته لتشتيت الجهود، وإفساد الأهداف، وإرباك الصفوف، ونشر الفتنة!!

لذا لا بد من أن تكون قيادات جماعات التغيير وكوادرها وصفوفها الأولى على وعي شديد، وعلى معرفة دقيقة بخريطة العدو، وطريقة عمله، والصبر والثبات والإخلاص في مواجهة الجماعات الوظيفية، وتربية الشباب على أن تكون وظيفتهم لله وحده لا شريك له، ورفع وعيهم حتى لا يكونوا مجرد أداة في أيدي أعدائهم..

ووضع وسادة الأمان والحماية ضد أي محاولة لتوظيف الجماعة، وأعظم وسادة أمان هي: "**الإخلاص لله**" فهو طوق نجاة، وحرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدفع بالأفضل ـ دون حظوظ للنفس أو اتباع للهوى ـ ولا تنفع النية الطيبة، ولا شيبة قيادة، ولا حسن الطوية فحسب.. لأن العدو إنما يستهدف من هو حسن النية ـ الذي لا يستطيع تصور مكر العدو وأساليبه ـ فيمكرون به وبمن معه وهو لا يدري.[1]

***

أما "**الأنظمة الوظيفية**" فيكون دورها الوظيفي حسب ما تقرره وتفرضه دول الغرب المركزية المحتلة! فبقاء هذه الأنظمة يكون على قدر ولائها للمحتل، وعلى قدر خدمتها

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "الجماعات الإسلامية الوظيفية".

وتفانيها وإخلاصها، ويتسابق الطغاة لإثبات ولائهم.. يتسابقون في بيع الدين، والوطن، والعرض، والثروة.. في سبيل بقائهم في الحكم، وتأمين عروشهم!

" فبعد الإطاحة بالخلافة اتفق العالم كله على:

ـ اجتثاث أي تجمع يدعو للحكم بالإسلام من الجذور.

ـ سحق طلائع البعث الإسلامي أينما وجدت.

ـ تمييع عبادة الجهاد ومصطلحاتها، وشن حملة رهيبة على هذه العبادة باعتبارها وحشية همجية لا تصلح إلا لشرائع الغاب.

ـ إغراق الجيل في مستنقع جنسي آسن، يتحول المجتمع فيه إلى مجموعات من الحيوانات الشبقة، لا هم لها سوى إرواء النزوات وإشباع الشهوات.

ـ تصفية الأجهزة من ذوي الالتزام الإسلامي المتميز، وخاصة أجهزة الأمن والجيوش والإعلام والخارجية والجامعات."[1]

وخطر هذه الأنظمة هو تدمير الشخصية المسلمة وسلب قدرتها على الفاعلية والمقاومة فتتركها ـ بعد إفسادها ـ هملاً غثاءً زبداً لا إرادة له، ولا قوة فيه.. يقول الشيخ محمد عبده (رحمه الله) عن الشخصية المصرية في عهد محمد عليّ: "ما الذي صنع محمد علي؟ لم يستطع أن يحيي ولكن استطاع أن يميت. كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه، وهكذا حتى إذا سُحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء

(1) [مقال: "إن الحكم إلا لله" للشيخ عبد الله عزام، رحمه الله]

البيوت الرفيعة فلم يدَع منها رأسًا يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين وتكرر ذلك منه مرارًا حتى فسد بأس الأهالي، وزالت ملكة الشجاعة منهم وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفُس بعض أفرادها، فلم يُبقِ في البلاد رأسًا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه، أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى كأنه كان يحنّ لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم، حتى انحط الكرام، وساد اللئام ولم يُبقِ في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال، وجمع العساكر بأية طريقة، وعلى أي وجه، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطبيعية من رأي وعزيمة واستقلال نفس، ليصيّر البلاد المصرية جميعها إقطاعًا واحدًا له ولأولاده، على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة.

ماذا صنع بعد ذلك؟ اشرأبت نفسه لأنْ يكون ملكًا غير تابع للسلطان العثماني، فجعل من العُدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين، فأوسع لهم في المجاملة، وزاد لهم في الامتياز خارجًا عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية، صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكًا من الملوك في بلادنا يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل. وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حُرم منها وانقلب الوطني غريبًا في داره، غير مطمئن في قراره، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان: ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة، وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة...

ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنكليز لإخماد ثورة عرابي. دخل الإنكليز مصر بأسهل ما يدخل به دامرٌ على قوم ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة في رأس تثبت لهم أن

في البلاد من يحامي عن استقلالها، وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين إلى مصر، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير"[1]

وهذا مثال ينطبق على كثير من بلادنا قديماً وحديثاً، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

***

وجماعات التغيير واجب عليها إعادة بناء الشخصية المسلمة[2]، وبناءها بنور القرآن العظيم، على أساس أخلاقي متين، وعلى وعي رباني رشيد.. وإعادة بناء المجتمع المسلم، الذي يكون النواة الصلبة للتغيير.. وليس بناء الشخصية التي تكون ترساً من تروس الجماعات والأنظمة الوظيفية.

وإنَّ اكتشاف الجماعات الوظيفية، ودورها، وطريقة عملها، واكتشاف وسائل وأدوات الأنظمة الوظيفية، ومقاومتها أثناء عملية بناء الشخصية المسلمة، وحمايتها من كل عدوان يستهدف القضاء عليها.. كل ذلك مما يؤمن عملية التغيير في الاتجاه الصحيح، الذي ينتج الثمرة الطيبة الصالحة القادرة على حمل الرسالة والدفاع عنها، ومقاومة أعدائها.

***

(1) [تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده، تأليف محمد رشيد رضا، ج2، ص 385]

(2) انظر بحث: "الشخصية المسلمة".

45- النظرية الاقتصادية

لا يمكن الحديث عن "العقيدة السياسية" دون الحديث عن "العقيدة الاقتصادية ونظريتها" فالاقتصاد هو الوجه الآخر للسياسة، والاقتصاد ـ والمجال المالي ـ هو عصب السياسة، وشريان الحياة.

والنشاط المالي والاقتصادي هو عبادة في الإسلام، مثله مثل غيره من العبادات، يجب اتباع المنهجية والتصور الإسلامي فيه، وهو:

ـ أن يكون كتاب الله ـ جل جلاله ـ والصحيح الثابت من سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المرجعية العليا التي تَعلو ولا يُعلى عليها.

ـ أن يكون كل عمل ونشاط ابتغاء مرضاة الله، ويحقق مراد الله من الحق والعدل، والرحمة والتكريم، والأمانة والصدق.

ـ سقوط شرعية الأفكار والنظم المخالفة والمضادة والمحاربة للمنهج والتصور الإسلامي بشكل عام. وفي موضوعنا "الاقتصادي المالي" بشكل خاص.

بهذه القاعدة التأسيسية نستطيع أن نقول: إننا نقف على أول طريق الإصلاح الاقتصادي والمالي لأي أمة تؤمن حقاً بالله ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتُسلم وجهها لله في نشاطها الحياتي كما تُسلم وجهها لله في الصلاة.

وكل نظرية صحيحة في الإسلام نابعة من التصور الإسلامي، كل نظرية أياً كان مجال عملها ونشاطها لا بد من أن تكون: **ربانية، مثالية، واقعية، متوازنة، عادلة، رحيمة، شاملة، ثابتة المبادئ، مرنة متجددة الوسائل** (فيما يخص المعاملات).

والتصور الإسلامي يعمل في الأمة المسلمة كمنظومة متكاملة يشد بعضها بعضاً، والاقتصاد إحدى دعائم وقوام حياة أي أمة، ولكنه لا يعمل منعزلاً عن بقية التصورات الإسلامية.. وحتى يتحقق الصلاح والفلاح الإنساني ـ وبالأساس صحة وصدق إيمان العبد ـ لا بد من هيمنة الكتاب، ومرجعيته في كل شؤون الحياة.

وإنَّ النقص البشري في طرح التصور الإسلامي لا يعني نبذه إلى غيره من الكتب والمناهج والنظريات والأيديولوجيات.. بل يعني التصحيح والتقويم بالعودة إلى نفس المرجعية الإسلامية العليا وهي "كتاب الله" وليس لمسلم أن يترك كتاب الله لغيره، بحجة أخطاء البشر في الفهم أو التطبيق.

وبالجملة.. إنَّ كل خلل في حياتنا ـ وفي حياة البشرية ـ هو بسبب الضلال عن اتباع هدى الله، كل فشل هو من عند أنفسنا، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41] ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165]

والخلل يكون إما في:

ـ الجهل بمراد الله جل جلاله.

ـ أو النقص في الالتزام بسبيل الرشد كاملاً، والانحراف عنه في بعض الجوانب.

ـ أو نبذ الكتاب بالكلية، وانتفاء الإيمان بمرجعيته في حياة البشر: السياسية والاقتصادية والتشريعية والفكرية... إلخ.

والأولى والثانية ذنوب يقع فيها المسلم الجاهل والمفرط في بعض الجوانب، وطريق الإصلاح والفلاح والسعادة يكون باستكمال جوانب الجهل والنقص.

أما الثالثة ـ وهي نبذ كتاب الله بالكلية ـ فهذه (وبكل وضوح) شرك، وكفر، وجاهلية، ونفاق.. أوضحها كتاب الله غاية الوضوح في عشرات المواطن والمناسبات، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 60-61]

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50]

وهذه الحالة لا تحتاج إلى شرح نظرية أو تصور إسلامي، بل تحتاج أولاً إلى البراءة من الشرك، والكفر، والجاهلية، والنفاق.. وأن تُسلم الأمة وجهها لله بالكلية، ثم بعد ذلك نتحدث عن: الإصلاح، والفلاح، والنجاة. فتحديد المرجعية الإسلامية بإعلاء كتاب الله هو **أصل الأصول، وبداية الطريق..** وبه يتحدد أي طريق نسلك.. هل طريق الرشد، أم تتفرق بنا السبل عن سبيل الله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3]

وهذا التمهيد، وهذه المقدمة.. أساس عند الحديث عن أي نظرية إسلامية أو تطبيق إسلامي؛ حيث دون هذا التمهيد يقع الخلل في النظرية والتطبيق معاً.

وعودة إلى "**العقيدة الاقتصادية**"، فنقول وبالله التوفيق، إنَّ من مبادئها:

1ـ المُلك كله لله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 107]

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 120]

﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33]

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 16-17]

وفي الحديث الشريف: "عَنْ خَوْلَةَ بِنْتَ قَيْسٍ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، مَنْ أَصَابَهُ بِحَقِّهِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِيمَا شَاءَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا النَّارُ**"[1]

هذه قاعدة تأسيسية في التصور الاقتصادي الإسلامي، فليس هو نظرية مادية مُلحدة لا تؤمن بالغيب والعياذ بالله، بل قاعدة أي تصور إسلامي ـ وقاعدة الإيمان بالجملة ـ هو: **الإيمان بالله واليوم الآخر**، ورد الملك كله لله، ومن هذه القاعدة يكون استخلاف الإنسان في الأرض: "عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ قَالَ: "إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، **وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**"[2] وإن ما يملكه الإنسان ليس مُلكاً على

(1) [جامع الترمذي/ 2374]
(2) [صحيح مسلم/ 17 : 55]

الحقيقة إنما هو عارية واستخلاف وابتلاء يُختبر به الإنسان، والملك كله لله. ومن هذه القاعدة ـ وهذه الحقيقة ـ ينطلق الإنسان يتعامل مع فتنة المال وفتنة الدنيا الفاتنة بحذر، وباتباع لمنهج الله جل جلاله.

2ـ تسخير السماوات والأرض للإنسان، وتكريمه:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 32، 34]

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13]

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان: 20]

﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ. وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَأَلْقَى فِى

الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ. أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 10-18]

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32]

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]

هذا الكون ـ وهذه السموات والأرض ـ مُسخرة لهذا الإنسان المُكرم من قِبل خالقه ـ جل جلاله ـ فهناك إرادة حرة، ومشيئة مطلقة، هناك تدبير وتقدير لكل شيء، هناك قدرة مطلقة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرادت لهذا الإنسان هذا التسخير، فليس الإنسان إذن نتطور بمحض الصدفة، ولم يُوجد في هذه الحياة عبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 115-116] كما أنه لم "ينتصر" على الطبيعة، وليست هي في صراع معه، بل هي "مُسخرة ومهيئة" له، فالكون يتجاوب مع هذا الإنسان، وهذا الإيمان يخالف النظرة المادية العلمانية الإلحادية التي تتصور الحياة والإنسان بأنه مجرد تطور عشوائي ليس له خالق، واكتشافه للسنن وتسخيرها كان مجرد صراع مع الطبيعة وانتصار عليها! وما رزقه الله من علم وبيان إنما آتاه الإنسان على علم عنده.. كما يتصور الكافرون في كل جيل وقبيل!

وهذا التكريم لبني آدم ـ بالعموم ـ يعني فيما يعني ألا تُهدر كرامته من أجل المادة، فهو أغلى قيمة، وأعلى منزلة.. والنظرية الاقتصادية الإسلامية، تحرص على هذا التكريم الإلهي لبني آدم، ولا تكون نظرتها مادية جافة قاسية، فلا تهدر الكرامة الإنسانية من أجل المال وجمعه.

3ـ وفرة الموارد والأقوات:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:10]

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: 61]

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: 6]

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ. فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: 22-23]

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56-58]

فليس هناك من ذعر من نقص الموارد مهما بلغ عدد البشر، إنما القلق والخوف من إفساد البشر في الأرض، والنظرية الاقتصادية الغربية قائمة على "ندرة الموارد" ومن ثم تسمح لهم هذه النظرية باستعباد الشعوب الضعيفة، وسرقة مواردها، وربما التفكير في إبادتها لتقليل عدد البشر.

ويوجد اليوم ملايين الفقراء، والملايين المعرضة للموت جوعاً، وحالات من الجفاف والتغير المناخي ونقص الموارد في بعض المناطق.. ولكن كل هذه الآثار ليس سببها "ندرة الموارد ولا كثرة عدد السكان" إنما سببها إفساد المستكبرين والمسرفين في الأرض.. والإسلام يحارب الفساد والاستكبار والاستعلاء في الأرض بغير الحق.

4ـ الاعتدال والتوازن:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77]

وتدور الحياة المادية العلمانية اليوم حول محورين: "**نهم الاستهلاك.. ودوام الاستدانة**" فيعيش الإنسان مُستعبَداً لشهواته.. مقيداً بديونه حتى يموت، وتدور ثروات الأرض كلها في يد حفنة قليلة من المرابين والطغاة.. يزدادون غنى كل يوم ويزداد الفقراء فقراً.. ولا علاج لهذا الإفساد في الأرض إلا بالمنهج الرباني، وغيره هو الضلال المُبين: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 123] وفي هذه الحياة يَشقى ويَضل الجميع.. يشقى الأغنياء كما الفقراء!

قرأت في سيرة رجل من أغنى أغنياء العالم (تُقدر ثروته بحوالي 200 مليار دولار) فإذا هو يعاني من الاكتئاب، ويتعاطى الأدوية من أجله، ويعمل جميع أيام الأسبوع لأكثر من 120 ساعة أسبوعياً، وينام ست ساعات وأحيانا ينام في مكتبه من شدة الإرهاق!

والمنفلت منهم لا تتجاوز حياته (الخمور والنساء والقمار وحفلات المجون).. وهؤلاء وإن لم تَستعبدهم الديون ـ مثل الفقراء ـ فقد استعبدهم الجشع والطمع والأثرة والفراغ.. جاء في الحديث الشريف: "**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنَّ لَهُ وَادِيًا آخَرَ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَاللَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ**"(1)

(1) [صحيح مسلم/ 1051]

إنه الحرمان من الاعتدال والتوازن الذي جاء به الإسلام.

فالإسلام يهدف إلى **الاعتدال والتوازن في كل شيء**، فلا هو يدفع إلى الإسراف، ولا إلى التقتير - والبخل - بل الإنفاق باعتدال تقوم به النفس الإنسانية بمهمتها في الخلافة الراشدة في الأرض محققة عبوديتها الخالصة لله - جل جلاله - بلا ظلم أو جهل.. ولا يمكن أن تكون النفس متزنة معتدلة وهي في حالة من الإسراف أو التقتير..

ومنهج الحياة قائم على:

ابتغاء الدار الآخرة، وتوظيف المال والثروة من أجل الوصول إلى هذه الدار التي تُساوي أثقل من ملء الأرض ذهباً، فالمستثمر الناجح - في نظر الإسلام، وبالنظرة المادية المجردة - هو الإنسان الذي يشتري القصور الدائمة الخالدة الأبدية، والنعيم الذي لا يحول ولا يزول، والحياة التي لا تفنى. هذا هو أنجح استثمار في الحياة، وصاحب المال عليه توظيف هذا المال في هذا الطريق، ويشتري الأسهم والأصول الموصلة لهذا الطريق؛ وينفق فيها بسخاء.. فالربح فيها مضمون، بل لا مثيل ولا نظير له، وهو بحق "الملاذ الآمن" للاستثمار. ثم إنه ليس ربحاً مؤجلاً بعيداً، بل فيه ربح عاجل قريب، من مال يحصل فيه على هامش ربح، ويحصل فيه على طمأنينة في القلب، وراحة في الضمير، وسكينة في النفس.

ولا تنس نصيبك من الدنيا، فتمتع بها التمتع الطيب - بلا سفه ولا إسراف ولا علو ولا استكبار في الأرض، ولا إفساد لحياة الناس والضعفاء: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 31-33]

فعندما تصرف الأموال والثروات فيما ينفع الناس ـ كل الناس ـ دون البحث عن الربح من طرق مفسدة ومحرمة وجشعة، وتوظيف هذه الأموال في النشاطات المنتجة، والميسرة لحياة الناس.. سيسعد الجميع، ويهنئون.

5ـ محاربة السفه والإسراف والميسر والقمار والمفاسد والفواحش:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: 5]

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90]

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32]

فالمال قوام الحياة، وشريانها، وأمر تعالى بمحاربة السفه في التعاطي مع المال والثروة، حفاظاً عليها، وحرّم الإسراف في الإنفاق، فالإسلام لا يُشجع الاستهلاك لمجرد الاستهلاك ـ كما هي النظرية الاقتصادية الغربية التي تدفع الناس إلى الاستهلاك النهم المفرط بشدة، تطبيقاً لقاعدة "المتعة، اللذة، الاستهلاك" وتُقيم اقتصادها على هذه المبادئ كأحد لوازم العلمانية المادية الإلحادية، وأحد معالم الحضارة الحديثة، ونمط الحياة المادية، فتعمل الأنظمة الاقتصادية الجاهلية على إغراق الناس في الديون والقروض الاستهلاكية، ودفعهم إلى إدمان الاستهلاك والاستدانة، والدخول بهم في دوامة لا مخرج منها، إلا الانهيار أو الانتحار. من أجل إرواء النهم الربوي الفاحش من وراء هذه القروض التي تستعبد الناس في كل مكان، بل وتحاول عولمة هذا النموذج وتعميمه على البشرية كلها،

وتقيم النشاط الاقتصادي كله على هذه المبادئ. والصواب هو الحكمة والرشد في الإنفاق.

وحرّم كتاب الله الخمور والمسكرات والمخدرات، والميسر والقمار، والبغاء، والدعارة، ونحو ذلك، وما يُشجع عليهم من فن هابط وإباحية وتهتك وانحلال، وما في حكمهم من مفاسد للعقل، والنفس، والضمير، والمجتمع، وإذا نظرنا إلى سلوك أغنى الأغنياء إسرافاً نراه لا يتجاوز (الخمر، والنساء، والقمار، والتسوق الفارغ!) وهناك اقتصاد لدول يقوم على هذه المفاسد! وكل ذلك صد عن سبيل الله، وإفساد في الأرض: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: 36]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: 19]

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64]

6ـ تحريم السحت والضرائب الجائرة:

قال تعالى في يهود: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 62-63]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188]

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: **"لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ صَاحِبُ مَكْسٍ"**(1)

والمكس ـ كما في لسان العرب ـ "دراهم كانت تؤخذ من بائع السِّلَع في الأَسواق في الجاهلية، وأيضاً: الضريبة التي يأْخذها الماكِسُ وأَصله الجباية".

والسحت هو المال الذي جُمع من الحرام، والأباطيل، والغش، والخداع، والاحتيال، والمكر، والغبن، وقهر الناس، وفرض ضرائب زائدة عليهم.. فكل ذلك مما هو مُحرم في الإسلام، ومعطل للتنمية، والاستثمار، ومشجع على الإفساد في الأرض؛ الإفساد الاقتصادي، والإفساد الأخلاقي، وإثقال كاهل الناس، واستضعافها.

7ـ إيتاء الزكاة، بجمعها باسم الله، وإنفاقها باسم الله:

قال تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: 141]

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: 24-25]

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 110]

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 11]

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]

(1) [سنن أبي داود/ 2937]

وهذه الزكاة كفيلة ـ بإذن الله ـ بتحقيق العدالة الاجتماعية الربانية[1]، وتوسيع مظلة الأمان الاجتماعي للجميع، وحماية الناس من العوز والفقر.. وهي عبادة مثل الصلاة، ويمكن تخصيص جزء منها (العاملين عليها) لموارد الدولة، والدولة بالأساس لا تحتاج إلى موارد كبرى بحيث يصب كل شيء في خزائنها، بل يجب أن تُقلل نفقات الدولة للحد الأدنى، فلا حاجة لأنظمة بيروقراطية متضخمة تكون بيئة خصبة للفساد والترهل والتعقيد، بل من مبادئ الإسلام: **التيسير والبساطة والسهولة..**

ولا حاجة لجيوش من الموظفين ـ الأغلبية منهم لا تعمل، إنما تُعقد حياة الناس ـ بل يجب الإنفاق المباشر على المحتاجين، وعلى ما ينفع الناس دون هدر للأموال ولا الأوقات ولا الأعمار، وتوزيع المال التوزيع العادل، للفقراء والمساكين أولاً، ثم ما يُصلح الأمة من تعليم وصحة وبنى تحتية، ثم ما يُحقق للأمة قوتها وأمنها، ثم دعوة الناس إلى الله في الأرض كلها..

وإن كانت الدعوة إلى الله مستمرة في كل الأحوال، وأبسط المسلمين وأفقرهم يمكن أن يؤدي رسالته بكل صدق وأمانة وإخلاص.

8ـ الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ كتاب: "العدالة الاجتماعية في الإسلام".

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92]

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 272]

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: 38]

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245]

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 261-264]

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: 31]

والإنفاق دعوة إلهية مفتوحة لكل مسلم أن ينفق في سبيل الله، وهي دعوة اختيارية ـ ليست كفريضة الزكاة ـ دعوة من رب العالمين ـ مالك كل شيء والقادر على كل شيء ـ أن ينفق عبده من مال الله الذي خوله إليه؛ ليكون هذا الإنفاق محاولة للقضاء على كل مظاهر الفقر، والحاجة، ولا يدفع الأمة للاستدانة، أو الذلة لغيرها، وليساعدها في جهادها وبناء قوتها.

وفي الحديث الشريف: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: **"مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ"**[1]

وعنه ـ عليه الصلاة والسلام: **"الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**[2]

وعلى مستوى الأمة: الإنفاق على المشروعات الكبرى التي تحقق للأمة الرفعة والسيادة والقوة.

وفي حال لم توفِ فريضة الزكاة، ولا التطوع بالإنفاق في سبيل الله حاجات الأمة لوجود ظروف قاهرة طارئة، يمكن فرض ضرائب زائدة مؤقتة على الأغنياء أولاً ثم الذي يليهم، من أجل معالجة حالة الطوارئ، بما يحقق المصلحة للجميع.

---

(1) [صحيح مسلم/ 2702]

(2) [صحيح البخاري/ 2442]

9ـ تحريم كنز الأموال:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: 34-35]

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ. نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ. إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: 1-9]

والإسلام لا يُحرم الملكية الفردية ـ ولم يكن هذا منهجه يوماً ما، بل يعطي كل ذي حق حقه، ويشجع على العمل والإنتاج، والانطلاق في الأرض: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: 10، 11]

ولكنه من جانب آخر ـ تحقيقاً للتوازن ـ لا يحب أن يكون الإنسان همه الدرهم والدينار، جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: "**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَالْقَطِيفَةِ، وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ، لَمْ يَرْضَ**"[1]

إنه يريد للكنوز والثروات أن تدور دورتها الطبيعية في المجتمعات وأن يستفيد منها الجميع صاحب المال، وبقية الناس.. من خلال التجارة والتصنيع والإنتاج والزراعة وعمارة الأرض.. بحيث لا تُعطل الثروة، وتبقى بلا فائدة، ولا قيمة، أو تستخدم في

(1) [صحيح البخاري/ 2887]

الربا، وإنما تشغيلها بما يعود بالنفع والربح على صاحبها، ويعود بالعمل ومحاربة البطالة على بقية الناس. كما يسد مصارف الربا، ويشجع على العمل والإنتاج.

10ـ نظام المواريث، وحفظ أموال اليتامى والضعفاء:

قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا. وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا. وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا. يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 7-11]

وهو نظام رباني عادل يضمن توزيع الثروة الموروثة عبر الأجيال بصورة دقيقة وعادلة، ليس فيها ظلم، ولا سفه، ولا جور، وضمانة إلهية للحقوق.. ويحاول العلمانيون محاربة هذه المنظومة بشتى الطرق لا لشيء إلا كراهية لأن يكون للإسلام حكم وشريعة، ونجد مهازل المواريث في الغرب الذي يعطي البعض كل شيء ويحرم الآخرين، أو يضيع الثروة كلها في المفاسد، أو يهبها للحيوانات! أو السطو عليها بقوانين باطلة إلى غير ذلك من السفه والتخبط والظلم.

ونظام المواريث ليس مجرد تحديد لفرائض المستحقين للتركة، بل هو بالأساس عبادة لله ـ كغيرها من العبادات ـ ثم بعد ذلك هو التوزيع العادل على أساس القربى والمسؤوليات، ثم هو تماسك وامتداد للأسرة والعائلة وذوي القربى، ثم هو تراحم لليتامى والمساكين، وترابط المجتمع كله، وحفظ الذرية، والتشجيع على الاجتهاد والعمل وترك ثروة للذرية التي هي امتداد جسدي وروحي للفرد، وبهم قرة العين.. وليس قرة العين في الفردانية والفواحش كما هو حال الغرب اليوم.

11ـ الحفاظ على المال العام، وتحريم الرشوة، والتغول:

جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْكَلَإِ، وَالْمَاءِ، وَالنَّار**"(1)

وهو أمانة كبرى على الجميع الحفاظ عليها، وتوظيفها واستثمارها الاستثمار الأمثل، وتشمل أيضاً: الثروات في باطن الأرض كلها، وما هو ملكية عامة للجميع.. ويخضع للرقابة والشفافية والمحاسبة؛ حتى لا يتعرض للفساد والسرقة والنهب، جاء في الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: "اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللَّهُ عَلَيه وَسَلم ـ رَجُلًا مِنَ الْأَسْدِ، يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ، قَالَ عَمْرٌو، وَابْنُ أَبِي عُمَرَ: عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِي أُهْدِيَ لِي، قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللَّهُ عَلَيه وَسَلم ـ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ:

مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ، فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا

(1) [سنن أبي داود/ 3477]

شَيْئًا، إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٌ تَيْعِرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ مَرَّتَيْنِ"(1)

و"عَنْ خَوْلَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلى اللّٰهُ عَلَيه وَسَلم - يَقُولُ: "**إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(2)

وتحريم السحت والرشوة، قال تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 62-63]

ومن السحت "الرشوة"، وفي الحديث: «عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَيَخْرُصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودَ [أي: تقدير المحاصيل]، قَالَ: فَجَمَعُوا لَهُ حُلِيًّا مِنْ حُلِيِّ نِسَائِهِمْ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ وَخَفِّفْ عَنَّا وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسْمِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، وَاللهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللهِ إِلَيَّ وَمَا ذَلِكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، **فَأَمَّا الَّذِي عَرَّضْتُمْ مِنَ الرِّشْوَةِ فَإِنَّهَا سُحْتٌ وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا.** قَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»(3)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: "**لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ**"(4)

ومن الإصلاح: رد كل الأموال المنهوبة، والتي أُخِذت بغير وجه حق للملكية العامة للأمة، ولأصحابها رؤوس أموالهم: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 279]

---

(1) [صحيح مسلم/ 1834] وصحيح البخاري/ 7174]
(2) [صحيح البخاري/ 3118]
(3) [«السنن الكبرى - البيهقي» (4/ 206 ط العلمية)، وموطأ مالك]
(4) [جامع الترمذي/ 1337]

وفي حالة الشبهة والانتفاع ـ بغير وجه حق ـ كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يُشاطر عماله أموالهم، فجاءته شكوى ضد عمال الأهواز وغيرهم "فَقَاسَمَ عُمَرُ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ، فَأَخَذَ شَطْرَ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى أَخَذَ نَعْلا وَتَرَكَ نَعْلا، وكَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرَةَ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي لَمْ أَلِ لَكَ شَيْئًا. فَقَالَ: أَخُوكَ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ وَعُشُورِ الأُبُلَّةِ فَهُوَ يُعْطِيكَ الْمَالَ تَتَّجِرُ فِيهِ، فَأَخَذَ مِنْهُ عَشَرَةَ آلافٍ، وَيُقَالُ: قَاسَمَهُ فَأَخَذَ شَطْرَ مَالِهِ"(1)

وفي الحديث المرفوع: "أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: "فِي كُلِّ سَائِمَةِ إِبِلٍ فِي أَرْبَعِينَ بِنْتُ لَبُونٍ، وَلا يُفَرَّقُ إِبِلٌ عَنْ حِسَابِهَا مَنْ أَعْطَاهَا مُؤْتَجِرًا، قَالَ ابْنُ الْعَلَاءِ: مُؤْتَجِرًا بِهَا فَلَهُ أَجْرُهَا، وَمَنْ مَنَعَهَا **فَإِنَّا آخِذُوهَا، وَشَطْرَ مَالِهِ** عَزْمَةً مِنْ عَزَمَاتِ رَبِّنَا ـ جَل جَلاله ـ لَيْسَ لِآلِ مُحَمَّدٍ مِنْهَا شَيْءٌ"(2)

ومحاربة الفساد: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]

ومحاربة الاحتكار، والممارسات الباطلة الفاسدة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: 1-7]

وجعل من بعض العقوبات المالية وسيلة لرعاية المساكين: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ

(1) [أنساب الأشراف للبلاذري/ (10 : 385)]

(2) [سنن أبي داود/ 1575]

أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 89]

12ـ لا يُتداول المال بين الأغنياء فقط، ووجوب رعاية الضعفاء والمساكين:

قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ **كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ** وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:7]

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ. مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ. فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ. فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: 38-49]

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: 11-18]

يهدف الإسلام إلى تحقيق العدالة الاقتصادية في توزيع المال، دون أن يحرم الناس حقها في التملك، وشغفها في النجاح والتطلع والربح؛ الأمر الذي يدفعهم إلى الانطلاق وعمارة الأرض، ويحقق لهم لذة النجاح والاكتشاف والترقي.. ولكن في سبيل هذه المتعة المباحة والنافعة، لا يدوس في طريقه على الضعفاء والمساكين، فإنه إن فعل ذلك دار المال بين قلة قليلة جداً من البشر، وأصبحت الثروة تُتداول بينهم فقط، ويمارسون صور التسلط والربوبية على غيرهم، كما هو حال البشرية اليوم.(1)

(1) بلغت ثروات أغنى 500 ملياردير في العالم 9.6 تريليون دولار، وفق بيانات مؤشر بلومبرغ للمليارديرات.

يقول العلاّمة الجويني إمام الحرمين (المتوفى: 478 هـ): «وإن قُدِرت آفة وأزم وقحط وجدب، عارضه تقدير رخاء في الأسعار تزيد معه أقدار الزكوات على مبالغ الحاجات[1]، فالوجه استحثاث الخلق بالموعظة الحسنة على أداء ما افترض الله عليهم، في السُنة، فإن اتفق مع بذل المجهود في ذلك فقراء محتاجون لم تفِ الزكوات بحاجاتهم، فحقٌ على الإمام أن يجعل الاعتناء بهم من أهم أمر في باله، فالدنيا بحذافيرها لا تعدل تضرر فقير من فقراء المسلمين في ضُر... فإن لم يبلغهم نظر الإمام، وجب على ذوي اليسار والاقتدار البدار إلى دفع الضرار عنهم، وإن ضاع فقير بين ظهراني موسرين، حَرِجوا من عند آخرهم، وباءوا بأعظم المآثم، وكان الله طليبَهم وحَسيبهم... وأجمع المسلمون أجمعون على أنه إذا اتفق في الزمان مضيّعُون فقراء مُملِقُون تعين على الأغنياء أن يَسعوا في كفايتهم.

وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يبيتن ليلة شبعان وجاره طاو**»[2]، وفي رواية: "**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَبِيتُ وَجَارُهُ إِلَى جَنْبِهِ جَائِعٌ**"[3]

وقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، لأَخَذْتُ فُضُولَ أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ، فَقَسَمْتُهَا عَلَى فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ."[4]

والإسلام دائماً وأبداً يدعو إلى **التوازن والاعتدال**، فلا يقضي على شغف ولذة النجاح وآثارها الطيبة في حياة البشر، ولا هو يقضي على حق الضعفاء والفقراء.

(1) أي: حدث جدب وقحط وآفة واختلال في التوزيع الاقتصادي للموارد، ولم يكن معه رخاء ورخص وتكافل، يجعل الزكاة تفي بالحاجات.

(2) [«غياث الأمم في التياث الظلم، لأبي المعالي الجويني» (ص233، 259)]

(3) [المستدرك على الصحيحين/ 4 : 162]

(4) [تاريخ الطبري/ ([4 : 423])]

والوسائل في ذلك كثيرة، منها: إنشاء الشركات المساهمة التي يتملّك العاملون فيها أسهماً، يكون لهم فيها نصيب من الربح، والأمان الوظيفي، وحمايتهم بمظلة أمان اجتماعي واسعة، تجعلهم لا يشعرون بالخوف من الفقر، ولا من المستقبل.. وفي نفس الوقت لا تجعلهم في حالة من الخمول والتراخي والبطالة والتسول.

ومنها: تشجيع الاستقلالية في العمل وإنشاء الشركات الصغيرة، وعدم التعرض لها أبداً، بضرائب أو تعقيدات اللهم إلا الحفاظ على الجودة والإتقان، وما يخص صحة الناس، وحمايتها من الشركات الكبرى التي تمارس الاحتكار أو الهيمنة على الأسواق... إلخ.

ويمكن أن نفهم من هذه الآية الكريمة ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ مسألة "الحرية الاقتصادية" ولكنها ليست لصالح رأس المال ـ كما في الليبرالية الغربية ـ الذي يحكم لا مُعقب لحكمه ويسحق في طريقه كل شيء من دين وأخلاق وإنسانية باسم "حرية السوق"، بل "الحرية الاقتصادية" لصالح **الأمة**.. بحيث ينحصر دور الحكومة والجهات الرقابية في الرقابة والإشراف والتدقيق والمتابعة، ووضع الخطط وتنفيذها، وفقاً للمبادئ الإسلامية، ومنع التلاعب والغش والنهم بمقدرات الناس ومعاشهم، والحفاظ على الأمن الغذائي خاصة، والسلع الاستراتيجية عامة، ثم بعدها إغناء الأمة واستقلال أفرادها اقتصادياً، دون الاعتماد الكلي على الحكومة، ومن ثم تفتيت السلطة والثروة، وتوزيعها على مكونات الأمة، مع ضمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتزام الجميع بالمرجعية والمبادئ الإسلامية.

ولا يعدم عقل المسلم أن يجد عشرات الوسائل التي تحقق هذه العدالة طالما أخلص نيته لله، ورجع إلى كتابه.

13ـ التشجيع على العمل والإنتاج:

والإسلام إذ يدعو إلى رعاية الضعفاء، والحنو على المساكين وانتشالهم من العوز والفقر.. فإنه لا يدعو ـ في سبيل ذلك ـ إلى الخمول والكسل والتراخي، والبطالة، بل شجع على العمل والإنتاج، والحركة والإبداع، وإطلاق الطاقات الإنسانية في كل مجال مشروع، وتوظيف الطاقة الإنسانية فيما ينفع الناس، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]

وقال سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]

وفي الحديث الشريف: عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ قَالَ: "**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ**"(1)، وفي رواية: "**فَيَحْتَطِبَ فَيَبِيعَ فَيَأْكُلَ وَيَتَصَدَّقَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ**".

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ قَالَ: "**لَا يَفْتَحُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ، إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ**"(2)

وعَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ قَالَ: "**الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ**"(3)

فهذا هو التوازن الذي لا يغفل مجالاً، ولا يهمل فكرة، ولا يغلو في اتجاه.

(1) [صحيح البخاري/ 1471]

(2) [مسند الإمام أحمد/ 9140]

(3) [صحيح البخاري/ 1428]

14ـ الوفاء بالحقوق، وأداء الدين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ يَتَقَاضَاهُ بَعِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ: أَعْطُوهُ، فَقَالُوا: مَا نَجِدُ إِلَّا سِنًّا أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَوْفَيْتَنِي أَوْفَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ: "**أَعْطُوهُ، فَإِنَّ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ أَحْسَنَهُمْ قَضَاءً**"(1)

وفي رواية: عَنْ أَبِي رَافِعٍ "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ اسْتَسْلَفَ مِنْ رَجُلٍ بَكْرًا، فَقَدِمَتْ عَلَيْهِ إِبِلٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ، فَأَمَرَ أَبَا رَافِعٍ أَنْ يَقْضِيَ الرَّجُلَ بَكْرَهُ فَرَجَعَ إِلَيْهِ أَبُو رَافِعٍ، فَقَالَ: لَمْ أَجِدْ فِيهَا إِلَّا خِيَارًا رَبَاعِيًا، فَقَالَ: **أَعْطِهِ إِيَّاهُ إِنَّ خِيَارَ النَّاسِ أَحْسَنُهُمْ قَضَاءً**"(2)

فهذا التسامح في قضاء الدين، والوفاء به على أحسن ما يكون هو من خلق الإسلام، وإن كان في الوفاء إحسان وزيادة ـ من غير شرط ـ فليس هو من جنس الربا، بل هو من حسن الوفاء والشكر، والحرص على حسن الأداء طالما في نطاق القدرة والعفو..

ومن جانب آخر: حَبب في التصدق بالدَين إن كان هناك من عسر وشدة: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 280]

وفي نفس الوقت "**مَطْلُ** [أي: تسويف وتأخير تسديد الدين] **الْغَنِيِّ ظُلْمٌ**"(3) كما جاء في الحديث الشريف.. فسبحان الله على هذا التوازن العجيب! وهذا الخلق الرباني الفريد.

(1) [صحيح البخاري/ 2392]

(2) [صحيح مسلم/ 160]

(3) [صحيح البخاري/ 2400]

15 ـ الأمانة المطلقة والعدل والإتقان:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 152]

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85]

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: 35]

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: 1-4]

وقد اعترض العلمانيون الماديون على نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ وهو ينهاهم عن الغش والخداع والاحتيال والإفساد في الأمور المالية: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ. قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 85-88]

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: **"مَنْ غَشَّنَا، فَلَيْسَ مِنَّا"**[1]

وعنه عليه الصلاة والسلام: **"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ"**[2]

وعنه عليه الصلاة والسلام: **"الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا، بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا، مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا"**[3]

فكتاب الله يهدف إلى تحقيق العدل للناس جميعاً، وإشاعته في كل معاملة، والامتناع من غش الناس، فإشاعة العدل، ومنع مظاهر الفساد في التعاملات المالية والتجارية مما يُشيع روح الود والتراحم والتماسك بين الناس، كما يدفعهم إلى الإتقان والتميز في أعمالهم، والاطمئنان على أموالهم، وعلى جهدكم، وكدهم وعرقهم.

16ـ التسامح والتراحم:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 280]

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: **"رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا، إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى"**[4]

وعنه ـ عليه الصلاة والسلام: **"لَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَلَا تَلَقَّوْا السِّلَعَ حَتَّى يُهْبَطَ بِهَا إِلَى السُّوقِ"**[5]

---

(1) [صحيح مسلم/ 104]

(2) [مسند أبي يعلى/ 4386]

(3) [صحيح البخاري/ 2079]

(4) [صحيح البخاري/ 2076]

(5) [صحيح البخاري/ 2165]، وفي رواية: "لَا تَلَقَّوْا الرُّكْبَانَ، وَلَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ" (البخاري/ 2158).

فالتعاملات المالية والتجارية ـ بلا هدى من الله ـ تجعل قلوب الناس قاسية، صلدة، لا ترحم، وتدور مع المال حيث دار، ومع الربح أينما كان، لا تبالي بآلام الآخرين، ولا ظروفهم.. بينما في هدي الله وكتابه: نجد الدعوة ـ وإن كان صاحب حق ـ إلى التيسير والسماحة، ومقاومة الشح والحرص والطمع؛ حتى تظل القلوب ندية رحيمة. والاقتصاد العلماني يسخر من هذه المعاني ولا يقيم لها وزناً! نظراً لطبيعته المادية الجافة، ويعتبر اللين في التعامل، وابتسامة البائعة.. هي مجرد "أدوات تسويقية" للترويج للمنتجات فحسب، وليست عن أخلاق حقيقية!

17ـ الحفاظ على قيمة العُملة، وجهد الناس ومدخراتهم:

قال تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ. وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: 181-183]

وفي الحديث الشريف: عن "عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ فَقَامَ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم: **يَنْهَى عَنْ بَيْعِ الذَّهَبِ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةِ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرِّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرِ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرِ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحِ بِالْمِلْحِ إِلَّا سَوَاءً بِسَوَاءٍ، عَيْنًا بِعَيْنٍ، فَمَنْ زَادَ أَوِ ازْدَادَ، فَقَدْ أَرْبَى، فَرَدَّ النَّاسُ مَا أَخَذُوا**"(1) وفيه منع أي محاولة للغبن والظلم والغش والاحتيال والخداع. وحماية عملة النقد، وحماية السلع الاستراتيجية التي هي قوام حياة الناس، ومنع الاحتكار والممارسات المؤدية للربا الجلي.

والعُملة هي مخزن القيمة والثروة والجهد، ويجب الحفاظ عليها من الانهيار والتضخم (أي: فقدان قيمتها الشرائية)، ومواجهة الحروب الاقتصادية التي تُشن اليوم على اقتصادات الدول الضعيفة، وهيمنة عملات بعينها على حساب بقية العالم.(2)

(1) [صحيح مسلم/ 1588]

(2) انظر مقال: "العُملة الشرعية.. والربا".

وهذا الأمر هو "جهاد كبير" لحماية حياة الناس ومستقبل الأجيال، وقد رأينا الدول الضعيفة وهي تنهار اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وأخلاقياً بسبب انهيار عُملتها، وهذا الأمر يتطلب التحرر من: الهيمنة الاقتصادية العالمية، ومن اقتصاد السوق الحر الذي تستفيد منه الدول العظمى فقط، والتحرر من العقلية العلمانية الاقتصادية، والتحرر من عصابات المافيا التي تتحكم في الأسواق، وتتلاعب بالعملات وتضارب بها، وتُكوّن التكتلات الاقتصادية التي تضمن مصالحها فقط على حساب بقية الأمة، ومنع كل الممارسات المحرمة في الإسلام، وضبط أسواق الأسهم والبورصات بما يتفق مع قواعد العدل الإسلامي، وقواعد الاقتصاد الإسلامي والقضاء على أي مظاهر احتيالية أو مخادعة أو مفسدة، والحذر الشديد من مفاسد يهود في المال والاقتصاد... إلخ..

وتشجيع العمل والإنتاج والاستقلال في الزراعة والتصنيع والتقنية بما يسد أي فجوة، والتعاون على البر والتقوى مع الدول الأخرى لسد العجز، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، والحذر من القروض الربوية، ومن محاولة المؤسسات البنكية والمالية الدولية الهيمنة والسيطرة على اقتصاد الدولة، ومن ثم سياستها. وإصدار النقود المبنية على الأصول الحقيقية والثروة المتوفرة وليست النقود المبنية على الاقتراض.

وإنَّ قوة الدولار الأمريكي ـ مثلاً ـ وتحكم البنك الفيدرالي الأمريكي في سعر الفائدة الخاصة به.. يسبب رعباً لاقتصاديات العالم (خاصة النامية)، وهو بحد ذاته يعتبر سلاحاً قبل أن يكون عملة عالمية.. وذلك بسبب اعتماد الاقتصاد العالمي على الدولار، والتعاملات الدولية، وسوق الاقتراض.. حيث رفع الفائدة الأمريكية يسحب الأموال الساخنة من الأسواق الناشئة والنامية، ويزيد الضغط على العملات المحلية، التي تضعف أمام الدولار، وتقل قوتها الشرائية، وتنزلق إلى التضخم، وتتزايد وتتضاعف فاتورة ديونها.

ويجب أن يقوم الاقتصاد على أسس متينة ليس لها علاقة بـ (الأموال الساخنة، ولا الاستثمارات الربوية وتدوير الفوائد والقروض وإصدار السندات، ولا المضاربات المُحرمة)، والتحرر من هيمنة الدولار تدريجياً.

كما يجب تعظيم القوة الحربية، وتنظيم ثروات الأرض ظاهرها وباطنها مما يضبط ويحافظ على استقرار العملة؛ حتى يتماسك الاقتصاد، ويطمئن الناس على معاشهم ومدخراتهم ومستقبل أبنائهم.

18ـ تحريم الربا تحريماً شديداً:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 275-279]

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حجة الوداع:

"**وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ**"(1)

(1) [صحيح مسلم/ 1219]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسعود، قَالَ: "لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ"(1)

والاقتصاد العالمي ـ بما فيه اقتصاد عالمنا الإسلامي ـ يدور في فلك الربا، ويُطبق عليه! وتعاني البلاد والعباد من ويلات هذا الربا الفاحش الضارب في الأرض كلها، واخترعوا له مسميات و"منتجات مالية" عديدة أساسها الربا(2)، وتدوير القروض الربوية من خلال ما يُسمى "Carry Trade" حيث الاقتراض ـ غالباً في الأسواق المالية والبورصات العالمية ـ بفائدة منخفضة من مكان، ثم إعادة إقراضها في مكان آخر يُعطي فائدة أعلى، والتربح من الفرق بين أسعار الفائدة الربوية، وهو "ربا" يُقدر سوقه بآلاف المليارات من الدولارات، ويُشجع حركة الأموال الساخنة الباحثة عن تجارة الديون وفوائدها الربوية خاصة في البلدان الضعيفة وتحكم الفيدرالي الأمريكي في مصير وفوائد هذه الديون عندما يرفع ويخفض الفائدة الخاصة به! مما يؤدي إلى التلاعب بالعملات المحلية وما يتبعها من تضخم ومُقامرة وتخبط؛ ومن ثم فالمال يُولد المال ـ دون عمل وجهد وإنتاج ـ وهذا هو جوهر وعين الربا، وهو أفحش من ربا الجاهلية الأولى.

ومواجهة هذا الربا والتخلص منه، يحتاج إلى "حرب" كبيرة، وجهاد عظيم، وحكمة بالغة كي تتحرر منه الأمة دون حدوث انهيارات خطيرة..

لكن يجب على عالِم الاقتصاد المسلم أن يعرف أن الغاية الإسلامية هي التطهر من هذا الربا.. **أولاً: عبادة وطاعة لله. وثانياً:** لأن صلاح الاقتصاد لا يمكن أن يكون في وجود هذا الربا الفاحش والخطير. وإذ هم يضعون بعض الحلول المرحلية والتدريجية فعينهم على الغاية الكبرى بتخليص وتطهير الأمة من الربا والقروض الربوية. ومن ثم

(1) [صحيح مسلم/ 1597]

(2) انظر ـ على سبيل المثال ـ حلقة: "كيف تعمل بطاقات الائتمان؟" لأشراف إبراهيم.

فالحلول الترقيعية والتجميلية ومحاولة خداع الناس "بشباك المعاملات الإسلامية" في البنوك الربوية.. فضلاً عن أنها محاولة هزلية، فهي جريمة وخداع وتضليل للناس.(1)

***

مشكلة التضخم:

مِن أكثر ما يشغل بال الناس اليوم ـ والساسة ـ هو "**التضخم**" وكيفية القضاء عليه، وكما أسلفنا في المقدمة، حتى تأتي الحلول أُكلها لا بد من النظرة الشاملة.. أولاً: للتصور الاقتصادي الإسلامي بكل مبادئه، وثانياً: التصور الإسلامي العام بكل شموليته.

فلا يمكن أن نأخذ ـ مثلاً ـ بمبدأ اقتصادي إسلامي واحد، وندع البقية، بل لا يمكن أن نأخذ المبادئ الاقتصادية الإسلامية كلها وندع واحداً.. فمنه يأتي الخلل والنقص والمشكلات. ثم إلى أين نذهب؟ إذ لم يكن كتاب الله هو المرجعية، فما ثم إذن غير الباطل والجاهلية؟! ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 161-162]

كما إننا لا يمكن أن نأخذ مبادئ الاقتصاد الإسلامي كله، ثم ندع بقية المبادئ والمقاصد الإسلامية الأخرى، فالإسلام وحدة متكاملة يشد بعضها بعضاً، وتعمل جميعها متداخلة، كما هي النفس الإنسانية وجسد الإنسان.

وجدير بالذكر:

ـ إنَّ كل خطوة على الطريق، وكل نور من الله يكون له أثره الطيب في الحياة، حتى وإن ترك الناس ـ جهالة منهم أو نبذاً ـ بقية الأنوار الأخرى!

(1) انظر كتاب: "تحريم الربا"، للشيخ محمد أبو زهرة، رحمه الله.

ـ وإنَّ بعض الاتجاهات العلمانية تتهم المسلمين بـ "الشمولية" وتكره أن يكون للإسلام هذه الشمولية التامة والكاملة، وتريد أن يَقبل المسلمون بقية التوجهات والاتجاهات العلمانية الإلحادية الأخرى، بحيث يكون الإسلام على قدم المساواة مع غيره من المناهج[1]، وإلا فيكون اتجاهه "إقصائياً عدائياً" وأهله "فاشيين متطرفين"..

ثم وبعد أن يفشل بعض المسلمين في الإصلاح، يفشل الإسلام معهم أيضاً بزعمهم! ومن ثم تتفوق العلمانية على الإسلام، ويكون الإسلام هو سبب الفشل، وسبب المشكلات، والمسلمون هم سبب كل المصائب، ومن ثم يجب إبعادهم عن الحياة السياسية والاقتصادية، ومنع إدخال الدين في السياسة!

وكما أسلفنا.. لا شرعية ابتداء للعلمانية، لا شرعية سياسية في الحكم، ولا شرعية اقتصادية في المال.. والإسلام بالفعل دين شامل لكل حياة الإنسان، ولا يقف أبداً على قدم المساواة مع غيره من الأديان، **بل هو وحده الحق المطلق المبين:** ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19]

﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: 9]

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]

(1) فقط في الحالة التي يشتبك فيها الإسلام سياسياً واجتماعياً وحضارياً مع العلمانية، فتطلب العلمانية المشاركة والتنافس على قدم المساواة، وهذه حالة تكرهها العلمانية، بينما الأصل الجاهلي العلماني هو: إبعاد الإسلام جملة وتفصيلاً عن كل نشاط اجتماعي وسياسي واقتصادي وحضاري، وتمارس حرباً شرسة ضده بكل عدوانية وبغضاء، ليكون للعلمانية وحدها السيادة والحاكمية.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162-163]

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]

وهو يحارب العلمانية الإلحادية في كل صورها، ويعتبرها امتداداً لقول الكافرين عبر التاريخ الإنساني: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 23-24]

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 15-16]

***

إنَّ مشكلة التضخم، وانهيار العملة، وفقدان القدرة الشرائية لها.. هي مشكلة من مشكلات الاقتصاد العلماني، والأثر المباشر للاقتصاد الربوي والعُملات التي لا تحفظ الجهد والقيمة. والإسلام ليس مطلوباً منه أن يحل مشكلات العلمانية[1]، فهو يعتبرها بيت الداء، والشجرة الخبيثة لكل المشكلات، ومن ثم حتى يستطيع أن يقدم حلاً، ويضمن نجاحه، لا بد من أن يحكم ويسود أولاً، ولا بد أن يستسلم الناس له، ويؤمنون بمرجعية كتاب الله وحدها، وينبذون كل غيره من المرجعيات والأفكار والنظريات

(1) انظر مقال: "الإسلام، ومشكلات العلمانية".

والأيديولوجيات، فيُخصلون دينهم كله لله.. ثم هو ليس حلاً لمشكلة فحسب، بل هو ابتداء **تحقيق معنى: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"..**

عندها يبدأ الإسلام بالإصلاح وبتقديم الحلول على هدى من الله ورضوان، وعندها سنجد أن هناك مشكلات يتم حلها تلقائياً دون حاجة للتدخل؛ لأنها كانت أعراضاً لمرض الجاهلية العلمانية الخبيث! وبمجرد القضاء على المرض تنتهي أعراضه..

وهناك مشكلات يقدم لها حلولاً مرحلية تدريجية أخذاً للناس باليسر واللين والتدرج، ولمنع حدوث انهيارات تضطرب بحياة الناس ومعاشهم، وهناك مشكلات لا يصلح لها إلا الحلول الجذرية السريعة؛ حتى لا يستفحل خطرها أكثر؛ فيجب استئصالها من جذورها السرطانية الخبيثة.

والتضخم أحد آثار الربا الفاحش الذي يضرب في الأرض كلها اليوم. ويعالجه الاقتصاديون برفع الفائدة، والفائدة: هي نسبة الربا على المال، بالإضافة إلى نسبة التضخم في العملة (أي نسبة انخفاض قيمتها الشرائية).

يقولون: لوقف التضخم يجب رفع الفائدة التي تقدمها البنوك؛ وذلك لتقليل النقد المتداول في أيدي الناس، وتقليل نهمهم الاستهلاكي، ومن ثم تقليل النشاط الاقتصادي، ودفع الناس لإيداع أموالهم في البنوك طمعاً في "نسبة الفائدة" ويسمون ذلك بالحل الاقتصادي التقليدي والكلاسيكي، والتشديد النقدي.

وهذه النظرية ـ وإن كانت تقدم حلاً مؤقتاً في الدول العظمى الكبرى، فيعتريها كثير من الاضطراب والنقص، مثل:

ـ تَحَكم الدولار الأمريكي في الاقتصاد العالمي[1]، وضعف العملات المحلية، يجعل البنك الفيدرالي الأمريكي ـ المسؤول عن تحديد نسبة الفائدة ـ قادر على إفلاس دول، وإدخال الشعوب الضعيفة تحت خط الفقر! فبرفعه للفائدة تهرب إليه رؤوس الأموال الباحثة عن الفائدة العالية، كما تزيد ما يسمى "خدمة الدَين ـ أي فحش الربا" على المقترضين وغالبيتهم من الدول الضعيفة.

ـ دفع الناس ـ بشكل عام ـ أياً كانت الظروف للنهم في الاستهلاك هو مبدأ مرفوض شرعاً، ولو كان من أغنى الأغنياء، بل يهدف الإسلام إلى القصد والاعتدال في الإنفاق.

ـ هناك حاجات للناس لا غنى عنها، مثل: الطعام والشراب والملبس والمسكن. وهناك حاجات جدّت في حياة الناس أصبحت من ضمن الضروريات، مثل: الكهرباء، والطاقة، وأجهزة الاتصالات والإنترنت... إلخ. ومن ثم مهما رُفعت الفائدة، فسيظل الناس تطلب هذه الضروريات.

ـ إنَّ سحب الأموال إلى البنوك طمعاً في الفائدة، يؤدي ـ من جانب آخر ـ إلى "الركود"، وتوقف الأيدي العاملة، وقلة النشاط والنمو الاقتصادي الإنتاجي الزراعي والصناعي والتقني لصالح اقتصاد النقد والتداول، والملاذات الآمنة.

ـ تكلفة الفائدة على الشركات التي تحتاج إلى الاقتراض لتسيير أعمالها، سيرفع الكلفة التشغيلية لها مما يجعلها: تقلل نشاطها الاقتصادي، بتقليل العمالة، والامتناع عن التوسع..

---

(1) ورغم ذلك بلغ الدين العام الأمريكي في عام 2024م حوالي 34 تريليون دولار! ويمثل حوالي 130٪ من الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي، وفي مارس 2024 فقط، دفعت وزارة الخزانة الأمريكية حوالي 89 مليار دولار كمدفوعات فوائد على ديونها المستحقة، أو ما يعادل مليوني دولار في الدقيقة تقريبًا، حسبما ذكر تقرير "بلومبرج". ولكن السيادة والهيمنة والقوة العسكرية والإنتاج الاقتصادي ما زالت تحمي سمعة الدولار الأمريكي، وهو يعتبر سلاحاً قبل أن يكون عملة عالمية. والدولار نفسه يمكن أن يفقد قيمته ويُضيع الجهد والثروة، إذا حصل انهيار اقتصادي في أمريكا، أو ارتفع التضخم لمستويات قياسية، أو تحول الناس عنه وفقد سمعته.

مما يزيد البطالة من جانب، ومن جانب آخر تُحمل الشركات المستهلك نسبة "الفائدة التي رفعها البنك" برفع سعر المنتجات أو التقليل من جودتها أو وزنها!

ـ من أين يدفع البنك الفائدة على هذه "الودائع"؟ البنك لا يُنتج شيئاً، ولا يُتاجر في شيء، ولا يتحمل المخاطرة في شيء، فمبدأ كل البنوك الربوية **"النقد يُولد النقد"** فالنقد هو السلعة التي يملكها البنك ويُقرضها بالربا، ويربح من وراء الإقراض المليارات دون أن يُنتج شيئاً أو يُتاجر في شيء[1].. ومن ثم فهو يدفع من أموال الشركات والأفراد التي تقترض، وكما أسلفنا هناك ضرورات لا يمكن الاستغناء عنها مهما بلغ سعر الفائدة، كما يصحب رفع الفائدة من جانب رفع للضرائب من جانب آخر! ومن ثم إذا عالج المشكلة من جانب، ستنفجر من الجانب الآخر!

والأسوأ أن يحصل "الركود التضخمي" وهي ضربة مزدوجة للاقتصاد.. أن يحصل ركوداً اقتصادياً، فترتفع البطالة، ويقل الإنتاج، ويختل الميزان التجاري.. وفي نفس الوقت يستمر التضخم، وانهيار العملة وفقدان قيمتها. والدول العظمى تحاول العمل على ما يسمى "الهبوط الناعم" للتضخم خوفاً من حصول الركود.

ـ العامل النفسي للشعوب والمستهلك: ولا يحسب حسابه كثير من الاقتصاديين، حيث ليس بالضرورة عند رفع الفائدة أن يتوقف الناس عن الاستهلاك والشراء، فالتغير السريع في المزاج الشعبي، والعامل الثقافي، والانفتاح العالمي على المعلومات، ونمط الحياة المادي.. يجعل الناس تغير نظرتها بصورة سريعة، وانقلابية، وعشوائية، كما يجعلهم أيضاً

(1) وصل صافي ربح البنوك العاملة في إحدى بلدان العالم الإسلامي في شهر واحد حوالي 1.7 مليار دولار، دون أن تصنع شيئاً ولا تتاجر في شيء، ولا تفعل شيئاً سوى أن تؤدي وظيفتها في الإقراض، وتحصيل "الفوائد الربوية" من ورائها! وتخترع ما يسمى بـ "المنتجات المالية" وما هي إلا تدوير للربا، ومضاربات باطلة، وسحت، وغبن! ومع ذلك تزعم ـ وبكل وقاحة ـ أن معاملاتها إسلامية! وهذا الربح يُقابله ديون ربوية بالمليارات يغرق بها القطاع التجاري والصناعي والزراعي... إلخ، وكذلك الأفراد.

يساهمون في إضعاف العملة المحلية بالهروب إلى الملاذات الآمنة، مثل: الذهب والدولار والعقار... إلخ، مما يُفجر المشكلة أكثر فأكثر.

ـ الاستهلاك التضخمي: حيث ييأس الناس من جدوى الادخار ويرتفع نهم الاستهلاك رغم انفجار التضخم.. والمسارعة في الشراء قبل زيادة وتضخم الأسعار مرة أخرى.. مما يزيد الطلب ولا يقلله. وفقدان الثقة في قدرة النظام السياسي على السيطرة على التضخم أو الحفاظ على قيمة العملة وشيوع الفساد والخيانة والفشل في علاج المشكلات الاقتصادية يُشعر الناس بعدم الأمان المادي مما قد يدفعهم إلى الهوس في الإنفاق.. وعدم الجدوى والقدرة على بناء المستقبل بعد انهيار العملة.

ـ الوضع الجيو اقتصادي للدولة: فمثلاً لو اقتصاد الدولة يقوم بشكل كبير على السياحة أو على تحويلات العاملين في الخارج، فمعنى ذلك أنه مهما رفعت الفائدة سيظل هناك وفرة في النقد المتداول، ووفرة في النهم الاستهلاكي مما يمنع من (قلة الطلب وكثرة العرض)؛ فتظل الأسعار مرتفعة، والعملة ضعيفة، كما أن زيادة تصدير المنتجات ـ وإن كان سيوفر سيولة نقدية للمصدرين ـ فهو أيضاً سيضمن أن تظل الأسعار مرتفعة! وطالما كان هناك فئة مؤثرة قادرة على شراء أي شيء في أي وقت، فكيف ستنخفض الأسعار؟

ـ الوضع السياسي للدولة: فانتشار الفساد الإداري، والسياسي، وتغول الأموال العامة، وسيطرة حفنة من الأفاقين والدجالين على مقاليد الحكم، وتحوله إلى عصابة مافيا، والتلاعب بالقوانين.. مما يجعل الناس تفقد "الثقة والأمن" على أموالها، فيُحجم أهلها عن الاستثمار فيها، ويهرب غير أهلها خوفاً على أموالهم، وهذا مما يُضعف الاقتصاد، ويُضعف العُملة، ويزيد التضخم مهما رفع من فائدة، لأنها ليست المشكلة، بل المشكلة الفساد السياسي.

ـ تكتلات رأس المال: وهي عامل حاسم في حركة السوق، وهذه التكتلات تُمثل مصالح لعدد قليل من الأسر والعائلات الكبرى، وهي تضمن مصالحها أولاً وقبل كل شيء، وتتحكم في التشريعات المحلية، وتحتمي بمنظومة الاقتصاد الدولية واقتصاد السوق الحر، الذي فيه رأس المال يحكم لا مُعقب لحكمه، ويعلو ولا يُعلى عليه، والانفتاح العالمي يجعل المنافسة عالمية، وحركة وسرعة انتقال الأموال بين البنوك العالمية، والمضاربة في بورصاتها، يجعل المال يبحث عن الفائدة الأعلى أينما كانت، وبضغطة زر.

ـ الانكماش الاقتصادي: حيث رفع الفائدة يمكن أن يؤدي إلى تحسين مؤقت وملحوظ في نسبة التضخم، ثم لا يلبس أن تأتي آثاره السلبية، ويعود للارتفاع مرة أخرى. مما يؤدي إلى انكماش اقتصادي، واستمرار ارتفاع الأسعار، وفقدان العملة لقيمتها أكثر.

ـ العولمة الاقتصادية: تجعل العالم سوقاً مفتوحاً للجميع، سوق يضيع فيه الضعيف، ويذهب جهده تحت أقدام الأقوياء والدول العظمى، مما يعني أن العلاج وفق النظريات الغربية بالضرورة لا يتفق مع اقتصادات الدول الضعيفة.

وأما **الاتجاه الآخر**: الاتجاه لتقليل الفائدة، وهذا هو الاتجاه العام للدول العظمى الكبرى، نجد فيه:

ـ النهم الاستهلاكي العالي، حيث هذا ثابت من ثوابت الاقتصاد الاستهلاكي القائم على اللذة والمتعة وليس القائم على **التوازن والاعتدال وابتغاء الدار الآخرة** كما هو الاقتصاد الإسلامي. ويزيد النهم.. حيث لا فائدة من وضع المال في البنوك، طالما الفائدة صفر أو حول الصفر.

ـ زيادة الإنتاج، وتقليل نسب البطالة: حيث تكلفة القروض تكاد تكون معدومة؛ فيؤدي إلى زيادة الطلب على الائتمان، وضخ مزيد من الأموال في الاقتصاد مما يشجع الشركات على التوسع، والتمدد، والابتكار.

ـ زيادة الفائض في الميزان التجاري: مما يوفر نقداً زائداً في الاقتصاد.

ـ ارتفاع الأسعار مع زيادة الطلب والاستهلاك؛ مما قد يؤدي إلى التضخم.

ـ فرض الضرائب الكثيرة، ثم رفع الأجور بما لا يتناسب مع حجم الضرائب، والاعتماد على مواد خام معينة، مما قد يؤدي أيضاً إلى التضخم.

ومن ثم.. فالمشكلات تحاصر الاقتصاد العلماني من كلا الجانبين، وإن كان جانب رفع الفائدة الربوبية أكثر خطورة.

***

والعلاج في الإسلام يبدأ باعتباره مرجعية حاكمة، له السيادة والحاكمية، والهيمنة.. ثم يبدأ في العلاج، أولاً:

ـ بتحقيق المبادئ الاقتصادية الإسلامية المذكورة أعلاه جميعها بلا استثناء ـ والمبادئ الإسلامية عامة ـ مع التأكيد على:

ـ منع التعامل بالربا منعاً باتاً، ومراقبة "التضخم"، وقياس قيمة العملة قياساً صحيحاً. وحساب نسبة التضخم التي تحق للمُقرض ـ إذ لم يكن شريكاً في الربح والخسارة والتجارة ـ بناء على القيمة الشرائية للعملة وقت الإقراض، ويمكن قياسها بالذهب، حيث لا ضرر ولا ضرار، ولا حاجة إليها إذا كانت العملة ثابتة وتحفظ قيمتها، وهذا هو الأصل، والتضخم هو الاستثناء. وبمعنى آخر: إذا كان الإقراض بالذهب ـ مثلاً ـ فلا يجوز الزيادة عليه شيئاً، حيث هذا هو صريح الربا الذي لا جدال فيه، ودور الحكومة الشرعية حماية السوق من التلاعب والمضاربة المضللة، والحماية كذلك من التدخلات والحروب الاقتصادية الخارجية.

ـ تقوية العملة المحلية، والإنتاج الذي يحقق الفوائض، دون الحاجة للاستيراد إلا عند الضرورة القصوى، ومكافحة الإغراق، وكل ما يدمر الصناعات المحلية، وتوطين كافة الصناعات والتقنيات.

ـ تقليل الاعتماد على الاستيراد بالعملات الأجنبية لحده الأدنى، والتعامل بين الدول بالعملات المحلية.

ـ العمل على تعزيز "الثقة" بالعملة المحلية، فالمسألة في بعض أبعادها تكون مجرد "ثقة" في العملة وسُمعة لها. ومن ثم يجب تعزيز الثقة في العملة، وخلق الطلب العالمي عليها، مع الحفاظ على القدرة على المنافسة التصديرية.

ـ الاستغناء قدر الإمكان عن العملات الأجنبية وتقليل الطلب عليها بالامتناع عن الاقتراض والاكتفاء الذاتي والتعامل بالعملة المحلية، دون نهم الطلب على العملات الأجنبية؛ الأمر الذي يرفع سعرها ويحولها إلى سلعة فريدة في يد الدولة التي تطبعها.

ـ الحفاظ على احتياطي كبير من الذهب وما في حكمه من ملاذات آمنة[1]؛ لتكون غطاء للعملة المحلية، والامتناع عن طباعتها بصورة عشوائية فاسدة.

ـ عدم المضاربة على الذهب كسلعة، والذي من المفترض أن يحدد سعره كمية المعروض، وليس المضاربة؛ حماية لقيمة الأصل الثابت. والتعامل داخل الدولة بالعملة المحلية فقط.

(1) حسب الإحصائيات الاقتصادية، فإن أكبر الأصول من حيث القيمة السوقية ـ خلال عام 2024 ـ هي على التوالي: (الذهب، إنفيديا، آبل، مايكروسوفت، ألفابت، أمازون، أرامكو السعودية، البيتكوين، الفضة، ميتا بلاتفورمز) فشركات التقنية الأمريكية تعادل أصولها قيمة أصول الذهب ـ وهذا يضع المسلمين أمام تحديات كبرى ـ ولكن يبقى ثبات الذهب أقوى؛ لأن هذه الشركات قد تُسعر بقيم غير حقيقية تتلاعب فيها البورصات العالمية صعوداً وهبوطاً، وهي سريعة الانهيار عند أي طارئ بعكس الذهب.

ـ إشاعة روح الأمانة والصدق والثقة والإتقان والوفاء التام، وحفظ حقوق كل إنسان.

ـ سداد الديون السيادية على الدولة، ومنع الاقتراض بالربا مرة أخرى لتحقيق التحرر الاقتصادي، والانعتاق من الهيمنة الاقتصادية الدولية، والخروج من شروطها وإملاءاتها. والحفاظ على أصول الأمة، ومواردها، وثرواتها، ومنع تمكين أي عدو منها.[1]

ـ منع الاستثمار في القروض الربوية، أو شراء سندات ربوية، أو تقوية اقتصادات دول معادية ومحاربة للإسلام والمسلمين.

ـ الاستقلال الاقتصادي والاكتفاء الذاتي من كل ما تستطيع الدولة الاكتفاء منه، ومنع وجود تكتلات تتلاعب بالاقتصاد، ومنع أن يكون المال دولة بين الأغنياء فقط. ورد الأموال المنهوبة والمسروقة والفاسدة إلى الملكية العامة للأمة، ولأصحابها رؤوس أموالهم.

ـ الثروة ملكية عامة للأمة، وتقوم على رقابتها بكل يقظة، وتُنشأ الصناديق المتخصصة المُستقلة: للرعاية الاجتماعية، والتعليم، والصحة، والجهاد، والبنية التحتية، والأمن الغذائي... إلخ، وتخصيص الموارد ـ من الثروة ـ لها، والرقابة المشددة داخلياً وخارجياً عليها، لضمان حمايتها من النهب، وضمان الرشد في الإنفاق.

ـ تقليل الإنفاق الإداري الحكومي، وترشيد الاستهلاك.

ـ رفع الضرائب عن الناس والشركات، وتيسير سبل العمل والإنتاج، ومحاربة البطالة.

(1) يقول المسؤولون عن تركيع الدول الضعيفة بالديون: "نحن نغري الحُكام الفاسدين بأخذ القروض الضخمة، ونعلم أنهم يسرقونها، أو يضعونها في مشاريع فاشلة، ثم تكبر القروض وفوائدها، فلا يستطيعون سدادها، ولا يستطيع غيرهم الإصلاح مهما فعلوا، وبذلك تصبح تلك الدول رهناً لنا". انظر كتاب: "الاغتيال الاقتصادي للأمم".

ـ محاربة كل مظاهر الفساد والإفساد، والسفه في الإنفاق.

ـ التحرر من جعل الاقتصاد رهينة لضخ رؤوس الأموال الغربية الباحثة عن الربا السريع، أو قاصدة الهيمنة والتحكم في الاقتصاد.

ـ عدم خداع الناس برفع رواتبهم من جانب، ثم أخذ هذه الزيادة أضعافاً مضاعفة بضرائب السحت.

ـ تفعيل الحلول المرحلية سريعاً، لحين العمل على الحلول الجذرية التي تقيم الاقتصاد على دعائم قوية متينة.

ومن جانب آخر:

ـ الاستقرار السياسي، وبناء القوة القتالية.

ـ تشجيع البحث العلمي والتقنيات العميقة والابتكار والإبداع، وتقديم النافع المفيد للبشرية.

ـ التربية على المبادئ الإسلامية الأخلاقية في الاعتدال والتوازن، والعمل للدار الآخرة، والتمتع بالطيبات من الرزق، والعمل بإتقان، وإشاعة العدل والأمانة والصدق.

***

وخاتماً: يجب على علماء المسلمين الحديث عن المنكر الاقتصادي، والمنكر السياسي، وبيان سقوط شرعية الاقتصاد العلماني، والحكم العلماني.. وعدم الغفلة عن ذلك، فكثير من المسلمين اليوم لا يعرفون هذه المنكرات، ويحسبون أن الإسلام ليس له علاقة بواقعهم الاقتصادي والسياسي! ويظنون ـ بجهالة ـ أن المنكرات هي النظرة الحرام، وعقوق الوالدين، والغيبة والنميمة ونحو ذلك فحسب! أو يحسبون أن البنوك الربوية إذا وضعة لافتة

"شباك المعاملات الإسلامية" أو حصلت على فتوى من دعاة الضلالة فقد قام بذلك الاقتصاد الإسلامي والشريعة الإسلامية!!

ويجب أن يكون من دروس علماء المسلمين الحديث في هذه القضايا المصيرية بالنسبة لدين الله، وبالنسبة للأمة المسلمة، وزيادة الوعي بها، وتربية أبناء الأمة على التصورات الاقتصادية والسياسية الصحيحة، حتى يخرج الجيل الجديد بحمل رسالة الله إلى العالمين.

***

46- الجغرافيا السياسية

تعني الجغرافيا السياسية: تأثير جغرافيا المكان على الممارسات السياسية، والعلاقات الداخلية والخارجية، والجغرافيا تمثل "قوة" سياسية وأمنية واقتصادية للمكان؛ من حيث: مساحة الجغرافيا وامتدادها وعمقها، وثرواتها الطبيعية، والمائية، وخصائصها، وأمنها المحيط، وعلاقتها بالأراضي المجاورة، وكذلك طبيعة وتركيبة شعبها... إلخ.

ولا يمكن القراءة السياسية الصحيحة للواقع دون فهم جغرافيا المكان، وما تفرضه من فرص، وتحديات، وسياقات، وملابسات، ورؤية استراتيجية، وحركية تُحدد معالم العلاقات الدولية ومفهوم الأمن.

ونجد في القرآن الكريم أمثلة لذلك:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: 1-5]

أراد الله ـ جل جلاله ـ والأمة المسلمة مستضعفة في مكة، أن يضعها على خريطة الأحداث العالمية حينها، والصراع الدائر بين الفرس والروم، وانتصار الفرس على الروم كان يعني حينها تقوية جانب الوثنية العربية، بينما كانت الروم تُمثل (أهل كتاب سماوي).. ومن ثم فالعمق الفارسي مؤثر بقوة في المجتمع العربي حينها، وكذلك العمق الرومي.. ولم يكن في صالح المسلمين انتصار القوة الفارسية لما فيه من تعضيد الوثنية العربية، وإنْ تحالف أهل الكتاب والمشركين ـ أخيراً ـ عندما قويت شوكة الإسلام، وأعلنوا جميعاً الحرب عليه.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 123] فجاء الأمر الإلهي بقتال العدو المتاخم للأراضي الإسلامية، وطرده دوماً عن الوصول لقلب المركز الإسلامي؛ بحيث تظل القاعدة الجغرافية الإسلامية آمنة دوماً، ومنطلقة أبداً، كما يسهل تأمين خطوط الإمداد لهذه الجيوش، وجعلها متصلة، غير منقطعة، وهذا ما تفرضه الجغرافيا السياسية، والجغرافيا العسكرية للمحافظة على أمن الإسلام والمسلمين.

وقد شاءت إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تكون رسالته الأخيرة في نسل إبراهيم (الفرع الإسماعيلي) وليس (الفرع الإسحاقي) الأمر الذي جعل يهود تحنق على هذه الرسالة، فقد ظنت أن البشرى بالمخلص والرسول الأخير ستكون فيهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ. بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 89-91] كفروا به بغياً وحسداً وحقداً من عند أنفسهم.

فجاءت الرسالة عربية:

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ. إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: 12-13]

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7]

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: 37]

وجاء التعبير عن الرسالة هنا بـ "الحكم" بمعنى الوحدة السياسية والجغرافية والتشريعية في هذه الأرض العربية التي ستكون مهد الإسلام، ورفعة هذه الأمة المؤمنة، وقلبها النابض بين العالمين: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10] وهذه الآيات نزلت بمكة تخاطب الأمة المسلمة الوليدة وهي بعد مستضعفة، خائفة على دينها، وأنفسها، ولكنها كانت ترسخ هذه المبادئ والموازين العظيمة.

وكون الرسالة عربية:

- لا يعني أنها حصراً للعرب. فهذه الرسالة رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28]

- ولا يعني تمجيد القومية العربية لمجرد عروبتها، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]

إنما يعني أن الرسالة الإسلامية، وقوتها، وقاعدة انطلاقها، سيكون من "الجزيرة العربية" وما حولها من عواصم الإسلام مثل (دمشق، القاهرة، بغداد)، ويعني انتقال الرسالة من الفرع الإسحاقي إلى الفرع الإسماعيلي متمثلاً في النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ثم مسؤولية هذه الأمة في حمل رسالة الله إلى العالمين.

هذا الأمر فرض طبيعة "الجغرافيا السياسية" للمسلمين، وللرسالة الإسلامية، فكان من واجبهم حماية الجزيرة العربية، وتأمينها من كل المخاطر، وتطهيرها من الشرك والوثنية؛ وجعلها انطلاقة للإسلام والمسلمين، وفي العصر الذهبي للإسلام، انطلقت الجيوش الإسلامية نحو العراق وفارس لدك الوثنية الفارسية، وانطلقت نحو الشام لدك حصون الروم، وانطلقت نحو مصر ثم إفريقيا، وآسيا الوسطى وصولاً لحدود الصين، واختراق أوروبا حتى الأندلس. وبهذا تمدد العالم الإسلامي في سرعة لا مثيل لها في التاريخ، ودخلت الناس في دين الله أفواجا.

ثم دبت عوامل الضعف الإيماني، وتبدلت السنة النبوية في الحكم، والانشغال بالدنيا، والصراع على السلطة، وبقدر مقاومة وجهاد المسلمين، وتمسكهم بكتاب ربهم تكون لهم الدولة..

ووصلت الأمة إلى محطة ـ ربما تكون هي الأخيرة ـ من الملك العضوض، متمثلاً في "الدولة العثمانية" التي كانت تمثل الوحدة السياسية والجغرافية للمسلمين، وكانت حائط الصد أمام الاجتياح الأوروبي الرومي الصليبي للعالم الإسلامي، والدرع الحصين للأمة الإسلامية، ودوخت أوروبا طيلة قرون طويلة، حتى عمل المكر اليهودي والصليبي على هزيمتها عندما وصلت لمرحلة من الضعف الداخلي، والذي تم استغلاله للقضاء على "الجغرافيا السياسية" للعالم الإسلامي كله، مستخدمين كل الوسائل من الحروب العسكرية الشاملة، والاجتياح الكلي، والتجسس، والمكر، واختراق القصور، وتنصيب العملاء والخونة، ونحو ذلك مما هو مذكور في كتب التاريخ.

فكان الهدف الأساس هو تدمير كل مميزات ومقومات هذه الجغرافيا المتماسكة، وتفتيت وحدتها، وتبديد قوتها، والهيمنة الكلية عليها سواء بشكل مباشر أو من خلال العملاء الذين يُصنعون على أيدي العدو، وكلابه الأوفياء.. وبعد تدمير هذه الجغرافيا

عسكرياً، تأتي الهيمنة الثقافية والفكرية بتشجيع النعرات القومية، والعرقية، والإثنية، والجاهلية، والعلمانية.

هذه الجغرافيا التي كانت تحكم العالم، وكانت في قلب العالم.. وتسيطر على البحار، والأنهار، وخطوط التجارة العالمية، وتمتلك ثروات هائلة من كل شكل ولون، وتملك نموذجها الأخلاقي والحضاري الخاص بها، والتي تعتز به، وتمدد في كل مكان برسالتها، وبأمة خصبة تحافظ على الآداب الدينية والأخلاقية والأُسرية.. كانت الحرب عليها شديدة عنيفة، وخسر العالم كله والبشرية كلها بانكسار وهزيمة المسلمين.[1]

وبعد التمزيق الجغرافي وتدمير الجغرافيا السياسية للعالم الإسلام برعاية بريطانية فرنسية، وضعوا في قلب العالم العربي "دولة بني إسرائيل"؛ لتشرف على ضمان عدم توحيد هذه الجغرافيا، أو الاستفادة من مميزاتها.. إضافة إلى العمالة والخيانة في أنظمة الحكم العربية؛ حتى تظل جغرافيتها بلا قيمة، وبلا أثر.

ولم يكتفوا بتقسيم العالم الإسلامي والعربي ـ بعد سقوط الدولة العثمانية ـ بل ظلوا يضعون الخطط والمكائد لتفتيت ما هو مفتت، وتقسيم ما هو مُقسم[2].. حتى يظل العالم العربي خاصة يدور في دائرة لا تنتهي من الصراعات؛ لضمان أمن دولة يهود، ولعدم توحيد الجغرافيا الإسلامية مرة ثانية، ونهب ثرواتها، والقضاء على كل مقومات قوتها، وإضعاف شعوبها، والسيطرة عليهم!

(1) راجع ـ إن شئت ـ كتاب: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، أبو الحسن الندوي.

(2) هناك خطط تدور حالياً لتقسيم كل ما يمكن تقسيمه من العالم العربي، مثل ما يحصل الآن في: العراق، وسوريا، واليمن، وليبيا، والسودان، ويقولون ذلك علناً؛ فقد نشرت صحيفة "نيويورك تايمز" ـ 28 / 09 / 2013 م ـ مقالاً يُبين تقسيم جديد للشرق الأوسط تحت عنوان: (الشرق الأوسط الحديث ـ How 5 Countries could become 14) للكاتبة "Robin Wright" المحللة بـ "وزارة الخارجية الأمريكية"، ليكون التقسيم على أسس طائفية وعرقية ومذهبية، وغيرها من الخطط الصهيونية التي تهدف إلى صناعة إسرائيل الكبرى!

وأما في تركيا ـ التي يعتبرونها الخنجر الممتد في قلب أوروبا ـ فقد عملوا على سلخ الشعب من كل ما له علاقة بالعرب.. سواء أكان الإسلام ذاته، أم العربية كلغة، محاولة للسلخ التام من الإسلام ومن العروبة عن طريق أتاتورك وأتباعه[1]، ومحاربة أي مظهر من مظاهر الإسلام (شعيرة أو شريعة) وقد نجحوا ـ وللأسف ـ إلى حد بعيد في ذلك، حتى جاءت الصحوة الإسلامية هناك تحاول إعادة بعض الأمور إلى نصابها..

ولكن النفوذ اليهودي والأوروبي والقاعدة الاجتماعية الراسخة المؤيدة لهم، والنشاط السياسي والاقتصادي المحموم يجعل المكاسب الإسلامية هناك هشة، ويسهل الانقلاب عليها في أي لحظة ضعف أو غفلة والعياذ بالله!

ولم يتم الاكتفاء بذلك فحسب فالجغرافيا السياسية لتركيا ـ على سبيل المثال ـ جغرافيا محاطة بالأعداء، وليس لها امتداد مع قلب العالم الإسلامي إلا عن طريق الشام والعراق، فصنعوا لها "المشكلة الكردية" ـ الصداع المزمن لتركيا ـ لتظل تركيا محاطة بالأعداء من جميع الجهات، وتقديم المشكلة الكردية على أساس قومي يساري علماني يهدف لإنشاء دولة قومية علمانية؛ ليقطع الطريق على الارتباط الطبيعي والتاريخي بالعالم الإسلامي، والأكراد منا ونحن منهم وهم جزء من الأمة المسلمة مثل الترك.

يقول صامويل هنتجتون: "إنَّ نهاية الإمبراطورية العثمانية تركت الإسلام دون دولة مركز. وتم تقسيم أراضيها بين قوى غربية، وعندما انسحبت تلك القوى خلّفت وراءها دولاً مؤسسة على نموذج غربي، بعيد كل البعد عن تقاليد وتراث الإسلام. وهكذا فإنه على مدى معظم القرن العشرين، لم يكن أية دولة إسلامية قوة كافية ولا ثقافة كافية ولا شرعية دينية للاضطلاع بهذا الدور لكي تصبح مقبولة من الدول الإسلامية والمجتمعات غير الإسلامية، كزعيم للحضارة الإسلامية.

---

(1) راجع مقال: "أسلمة أتاتورك"، وكتاب: "الرجل الصنم".

إنَّ غياب دولة مركز إسلامية عامل مساعد وأساسي على الصراعات الخارجية والداخلية المستمرة التي تميز الإسلام، وعلى الوعي دون تماسك، كما أنه مصدر ضعف بالنسبة للإسلام ومصدر تهديد للحضارات الأخرى.

فهل هناك احتمال أن تستمر الحال هكذا؟ **إنَّ دولة مركز إسلامية يجب أن يكون لديها موارد اقتصادية وقوة عسكرية وكفاءة تنظيمية وهوية إسلامية والتزام بأن تكون قيادة سياسية ودينية للأمة...** وتركيا من الدول التي يمكن أن تكون زعيمة للحضارة الإسلامية، فلديها التاريخ وعدد السكان والمستوى المتوسط من النمو الاقتصادي والتماسك الوطني والتقاليد العسكرية والكفاءة.. لكي تكون دولة مركز [بدلاً أن تكون ممزقة] ولكن "أتاتورك" حرم الجمهورية التركية من أن تخلف الإمبراطورية في هذا الدور، وذلك بسبب تحديدها بكل وضوح كمجتمع علماني. إنها لم تتمكن حتى من أن تكون عضو ميثاق في منظمة المؤتمر الإسلامي بسبب التزامها بالعلمانية في دستورها، وطالما أن تركيا سوف تستمر في تعريف نفسها كدولة علمانية، فلن تكون لها زعامة الإسلام.

ولكن.. ماذا لو أعادت تركيا تعريف نفسها؟ عند نقطة ما، يمكن أن تكون تركيا مستعدة للتخلي عن دورها المحبط والمهين كمتسول يستجدي عضوية نادي الغرب، واستئناف دورها التاريخي الأكثر تأثيراً ورقياً كمحاور رئيسي باسم الإسلام، وخصم للغرب.

الأصولية في صعود في تركيا. في عهد "أوزال" بذلت الدولة جهوداً ضخمة لتوحيد نفسها بالعالم العربي وأفادت من العلاقات العرقية واللغوية لتلعب دوراً متواضعاً في آسيا الوسطى وقدمت الدعم والتأييد لمسلمي البوسنة. وتنفرد تركيا بين الدول الإسلامية بصلاتها التاريخية الواسعة بمسلمي البلقان والشرق الأوسط وشمال أفريقيا وآسيا الوسطى. ومن المتصور فعلاً أن "تقلد تركيا جنوب أفريقيا": كأن تتخلى عن العلمانية كشيء غريب

عن وجودها كما تخلت جنوب إفريقيا عن الاضطهاد، وبالتالي تحول نفسها من دولة منبوذة في حضارتها، إلى دولة زعيمة لها... فتركيا يمكن أن تكون مؤهلة لزعامة الإسلام بعد أن خبرت الجيد والسيء في الغرب بالنسبة للعلمانية والديمقراطية.

ولكنها لكي تفعل ذلك، لا بد لها من أن تتخلى عن تراث "أتاتورك" وعلى نحو أشمل مما تخلت به روسيا عن تراث "لينين"، كما عليها أيضاً أن تجد زعيماً بحجم "أتاتورك" يجمع بين الدين والشرعية السياسية ليعيد بناء تركيا وتحويلها من دولة ممزقة إلى دولة مركز"."[1]

وكذلك كان لتقسيم شبه القارة الهندية أثره البالغ في إضعاف الوجود الإسلامي هناك، ولولا فضل الله - ثم السلاح النووي الباكستاني - لكن مصير المسلمين هناك في مهب الريح.

وإمعاناً في الإضعاف والتدمير لم يكتفِ العدو التاريخي للمسلمين بهذه التقسيمات بل جاء بمزيد من خطط التقسيم؛ لتدمير كل مقومات القوة الجغرافية الإسلامية، فهو يعمل الآن - ونجح وللأسف لحد بعيد - على تقسيم: سوريا، واليمن، وليبيا، والعراق، ونجح من قبل في فصل السودان عن مصر، ثم تقسيم السودان نفسها، وربما يُقسم فيها أكثر على أساس عرقي مستغلاً حالة الفوضى التي تقع عندما تثور الشعوب العربية على جلاديها، وتفشل في التماسك والوحدة أمام الهجوم عليها، وتضيع البوصلة، فتدخل في التيه! هذا غير استباحة قارة أفريقيا ونهب كافة ثرواتها، ومواردها، وتركها للفوضى والضعف، والتخلف، والمرض، والفقر!

هذا غير إغراق الجغرافيا الإسلامية في الفوضى، والضعف، والتشرد، والفقر، والتخلف، والتبعية.

(1) [كتاب: صدام الحضارات، صامويل هنتجتون ص 289]

كما تحاول "دولة بني إسرائيل" التمدد اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً في قلب الجزيرة العربية عن طريق التطبيع مع الدول الخليجية.. التطبيع السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي[1]؛ لتحقق خطتها **المُعلنة** في تمدد إسرائيل من "البحر إلى النهر" حسب تفسيراتهم لكتابهم المقدس؛ وهذه يستلزم إضعاف الجغرافيا العربية، والهيمنة الكلية عليها سياسياً واقتصادياً، والسيطرة على منابع النيل في مصر، وتأمين الجغرافيا السياسية لدولة بني إسرائيل على حساب الجغرافيا السياسية للعالم العربي، ومن ثم فيبدو حل الدولتين ضرباً من الخيال في موازين يهود![2]

ومن المهم لأي جماعة تغيير ـ في الأمة المسلمة ـ أن تدرك على وجه الخصوص خطورة هذا الكيان الصهيوني، ودولته الجاثمة على صدر الأمة المسلمة؛ تحاربها، وتجسس عليها، وتخترق قلبها وأطرافها، وتحول بينها وبين كل خير من خلال عملائها، وأذرعها، وشبكاتها.. ويجب أن تعرف جماعات التغيير كيف يعمل هذا الكيان المجرم، وكيف يفكر، وكيف يُفسد في الأرض!

والغرب يعتبر "دولة يهود" هي خط الدفاع الأول عنه في الشرق الأوسط، ويدعم دورها في منع ظهور الإسلام في صورته الاجتماعية السياسية[3]، ويعتبر انهيار إسرائيل يعني انهيار الغرب.. على حد تعبيرهم.

---

(1) انظر مقال: "فتاوى التطبيع".

(2) انظر بحث: "ما بعد طوفان الأقصى".

(3) الغرب ـ وبشكل عام ـ يعتبر أي نشاط اجتماعي سياسي للإسلام، هو راديكالية، وتطرف، وإرهاب، وأصولية، وإسلاموية خطيرة يجب محاربتها بكل الوسائل، واستبدالها ـ عند الضرورة ـ بإسلام بلا شريعة ولا حركة، إنما مجرد احتفالات، وطقوس، وممارسات فردية، وعندما تنتفي هذه الضرورة فإنه يحارب أيضاً هذه الممارسات، ولا عجب في ذلك ـ فهكذا يفكر ويعمل الغرب من قديم ـ إنما العجب فيمن لا يرى ذلك من المسلمين.

هكذا تفرض الجغرافيا محددات السياسة، بل وتفرض شكل التسليح والحروب، وتضع إطار التفكير الحركي والاستراتيجي.

والذي يغفل عن فهم الجغرافيا السياسية، فإنه يجد نفسه في مهب الريح، وربما لا يدرك واقعه إلا عندما يحيط به العدو ـ جغرافياً وعسكرياً ـ من كل جانب.

***

"الجغرافيا الفضائية" الجغرافيا العابرة للحدود

بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وخروج أمريكا منها مُهيمنة على العالم باعتبارها أكبر قوة عسكرية واقتصادية، كان لجغرافيتها ميزة قوية، فالمياه تحميها من الغزو البري، ولهذا فهي تحاول أن تكون القوة البحرية الأولى في العالم من خلال أساطيلها وحاملات طائراتها المنطلقة في كل المياه الدولية، وقواعدها العسكرية في الدول الضعيفة.. كما أن حدودها البرية غير محاطة بالأعداء، وربما تتمثل مشكلتها في الهجرة غير الشرعية، وتهريب المخدرات، ولما حاولت روسيا اختراقها عن طريق كوبا، كانت الحرب البرية والعقوبات لطرد النفوذ الروسي من هناك..

ومع الثورة التقنية والفضائية، حاولت أمريكا الهيمنة من خلال التجسس العميق والدقيق من خلال الأقمار الصناعية العسكرية وغيرها، والأسلحة المتطورة الموجهة عن بعد.. في تجاوز حدود الجغرافيا البرية؛ لتصل إلى الهيمنة العالمية بأقل تكلفة، وقد تطلب الوصول إلى ذلك الاستثمار ـ بلا حدود ـ في التقنية العميقة، والتعليم المتطور، وتحقيق الأنظمة الإدارية والتنفيذية الفعالة.. ولكن رغم كل مظاهر القوة هذه، تظل الجغرافيا البرية وقوتها السياسية أقوى وأرسخ وأعمق، فالتدمير من الجو، والتجسس من الفضاء على رغم خطورته الشديدة إلا أنه لا يحسم المعركة، ولا يلغي قوة الجغرافيا ومحدداتها..

ودخل على الخط الوثنية الصينية من خلال التمدد الاقتصادي، والقواعد العسكرية البحرية والقروض الربوية للسيطرة على السياسة والاقتصاد في الدول الضعيفة، وكذلك روسيا من خلال شركاتها العسكرية الخاصة التي تمدد في أفريقيا والشام!

***

ومن ثم فعودة القوة الجغرافية السياسية للعالم الإسلامي لا يمكن أن تتم في ظل وجود "دولة بني إسرائيل" فهذه الدولة لم تنشأ ابتداء لحل "المشكلة اليهودية" بل لإنشاء "المشكلة العربية" وتدمير الجغرافيا الإسلامية، فدولة يهود تهدف للتمدد في كل الجغرافيا العربية بكل الوسائل الممكنة، وتدعمها أمريكا والغرب كله دعماً غير محدود..

والجغرافيا السياسية للعالم التركي ـ بكل دوله ـ وهو محاط بالأعداء من كل جانب لا يمكن أن يتصل بعمقه الإسلامي الاتصال الفعال في ظل وجود النفوذ اليهودي العلماني الملحد في الداخل التركي[1]، وقوته السياسية والاقتصادية، وأثره في تكوين قاعدة اجتماعية مؤيدة له.

كما كان لوجود النظام الإيراني الحالي ـ ومشروعه الطائفي ـ في بلاد فارس أثره القبيح والسيئ في إضعاف جبهة الشام وتركيا معاً، ودول آسيا الوسطى كذلك، فلم يكن إيجابياً، ولم يكن محايداً، بل للأسف مُفسداً ـ وما فعله بالشعب السوري ليس منا ببعيد ـ ولعل الله يهدي الشعب الإيراني سواء السبيل، ويتخفف من غلواء العداء الطائفي، والشحن البغيض والمقيت ضد العالم السني، فإذ لم يكن التعاون على البر والتقوى، فليس أقل من

---

(1) وبعدما ما يزيد عن عشرين عاماً من جهود حزب العدالة والتنمية نحو الإصلاح والهوية الإسلامية (مع تحفظي الشديد على كثير من أفعاله) فإنني ما زلت أرى أن مكاسبه "هشة" في ظل وجود الخطر العلماني الإلحادي، الذي إن عاد وتمكن من مقاليد الحكم ـ والعياذ بالله ـ فإنه سيقضي ويدمر بكل وحشية كافة مكتسبات حزب العدالة في سنوات قليلة، ولن يتردد في ذلك طرفة عين، ولن يأخذهم بالتدريج ولا الحوار.. بل بالحديد والنار! ونسأل الله السلامة للمسلمين في كل مكان. راجع مقال: "أوجه الفشل في التجربة التركية".

الوقوف على الحياد، والامتناع عن التحالف مع العدو التاريخي للمسلمين، أو تهديد وحدتهم.[1]

وقد حاولت في هذه السطور وضع المسلم أمام صورة متكاملة الأبعاد لفهم الواقع السياسي من خلال الجغرافيا؛ حتى تكون حركته على بصيرة، وذات خطوات مدروسة، وليس مجرد حركة عفوية، ولا رؤية محدودة قاصرة عن رؤية خريطة العدو بصورة تامة.

ورؤية وقراءة خريطة العدو بصورة تامة وصحيحة يعتبر خطوة من خطوات الوقوف على الطريق الصحيح، والعمل الناجح إن شاء الله.

***

(1) للإنصاف، هناك دور إيجابي لإيران في دعم المقاومة في فلسطين، في حين تخلى عنها العالم السني كله! ولا يهمنا سبب هذا الدعم، هل هو وحدة العدو؟ أم لغسيل السمعة والدعاية؟ أم عن نية صادقة؟

47- العداء السياسي

يقول الله تعالى:

- ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: 82]

- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64]

- ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: 105]

- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: 109]

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 100]

- ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 4]

وجاء في كتب اليهود المقدسة: "«**قُومِي وَدُوسِي يَا بِنْتَ صِهْيَوْنَ، لأَنِّي أَجْعَلُ قَرْنَكِ حَدِيدًا، وَأَظْلاَفَكِ أَجْعَلُهَا نُحَاسًا، فَتَسْحَقِينَ شُعُوبًا كَثِيرِينَ، وَأُحَرِّمُ غَنِيمَتَهُمْ لِلرَّبِّ، وَثَرْوَتَهُمْ لِسَيِّدِ كُلِّ الأَرْضِ**»." (مي 4: 13)

وفي سفر إشيعاء: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: «**هَا إِنِّي أَرْفَعُ إِلَى الأُمَمِ يَدِي وَإِلَى الشُّعُوبِ أُقِيمُ رَايَتِي، فَيَأْتُونَ بِأَوْلاَدِكِ فِي الأَحْضَانِ، وَبَنَاتُكِ عَلَى الأَكْتَافِ يُحْمَلْنَ. وَيَكُونُ الْمُلُوكُ حَاضِنِيكِ وَسَيِّدَاتُهُمْ مُرْضِعَاتِكِ. بِالْوُجُوهِ إِلَى الأَرْضِ يَسْجُدُونَ لَكِ، وَيَلْحَسُونَ غُبَارَ رِجْلَيْكِ، فَتَعْلَمِينَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي لاَ يَخْزَى مُنْتَظِرُوهُ**».

هذه الأمة اليهودية ـ التي لُعن الذين كفروا منها على لسان داود وعيسى ابن مريم ـ ستُناصب الأمة المسلمة العداء، عداء بغيضاً لا ينقطع، وحقداً شديداً لا ينفتر.. منذ بعثة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قيام الساعة!

هذا "الابتلاء الإلهي" للأمة المسلمة ـ وللإنسانية جمعاء ـ يجب الحذر منه، والاستعداد له، ومواجهته، وفي عصرنا هذا صار لليهود دولة[1]، بمساعدة الصليبية العالمية مُتمثلة في إنجلترا، وفرنسا حينها.. ثم التبني الأمريكي الكامل لهذه الدولة!

وتَستميت أمريكا (وأوروبا من ورائها) في الدفاع عن دولة بني إسرائيل، وتدعمها بكل ما أوتيت من قوة، باعتبارها:

(**من المنظور الديني**): قِبلة المسيحية الصهيونية.. التي تعتبر دولة يهود هي وعد الكتاب المقدس، وبها أرض الميعاد، ومقدمة لعودة المسيح! وهي المسيحية الإنجيلية الأصولية والبروتستانتية وشهود يهوه، وتصدق أكاذيب كتبهم المقدسة، وتتطرف في تفسيرها، بعد التحرر من التفسير الكاثوليكي الذي كان ـ في الماضي ـ يعتبر اليهود قتلة المسيح. (لاحقاً

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "دولة يهود.. والملك داود".

أعلن الفاتيكان تبرئة اليهود من دم المسيح عليه السلام، في خطوة نحو "تهويد الكاثوليكية"!)

(**من المنظور السياسي**): باعتبار اللوبي اليهودي الصهيوني في أمريكا، يتحكم في مسار الانتخابات ـ بصورة كبيرة ـ لما له من نفوذ إعلامي ومالي وسياسي في أمريكا، فالولاء ودعم دولة يهود ثابت من ثوابت السياسة الأمريكية بشقيها الديمقراطي والجمهوري.

(**من المنظور الاحتلالي المُستكبر في الأرض**): باعتبار دولة يهود قاعدة عسكرية غربية متقدمة في بلاد المسلمين، ومركز رئيس لإفساد وإضعاف وتفتيت العالم الإسلامي؛ فتؤدي خدمة تقويض الأمة المسلمة.[1]

لهذا يكون دعمها والدفاع عنها عقيدة غربية ثابتة راسخة سواء من خلال البعد الديني أو البعد العلماني.

فهذه الدولة اليهودية تُعتبر مركزاً للإفساد في الأرض، يقع في قلب الأمة المسلمة، وتمثل مركزاً للتجسس عليها، وهي بالجملة قاعدة عسكرية متطورة هدفها: تهديد الأمن العالمي للأمة المسلمة، وإفسادها، وتدنيس مقدساتها، وسرقة ثرواتها، وسلخها عن دينها، والمساعدة في تنصيب العملاء والخونة من بني جلدتنا ليصلوا إلى مراكز القيادة والتوجيه، وليتملّكوا مقاليد الثروة والمال؛ وتفريغ الأمة من كل مقوماتها الروحية والفكرية والحضارية والجغرافية والسيادية والقتالية؛ لتكون خادمة لبني إسرائيل.

---

(1) جاء في كتاب "الخيار العسكري العربي" الصادر 1984م، للفريق سعد الدين الشاذلي: "صرّح الجنرال شارون وزير الدفاع الإسرائيلي أمام مؤتمر الدراسات الاستراتيجية الذي عُقد في تل أبيب في ديسمبر 1981 قائلاً: "إن المصالح الاستراتيجية الإسرائيلية لا تقتصر فقط على العالم العربي بل ينبغي توسيعها في الثمانينات ـ بسبب الأمن ـ لتشمل تركيا وإيران وباكستان"" يقصد أنه بعد الهيمنة على العالم العربي الإسلامي، يجب الهيمنة على العالم غير العربي الإسلامي.. باعتباره يُشكل خطراً أمنياً على إسرائيل.

ولا يمكن لأي نظام سياسي ينبثق من كتاب الله، ويصطبغ بصبغة الله، بل ولا يمكن حتى لأي نظام يحمل صفة الوطنية المجردة الخالية من روح الإسلام! وإلا وسيصطدم بعداء وفجور وطغيان يهود! فالمواجهة معهم حتمية لا مفر منها..

ولا شك أن التعاون والتحالف والتناصر مع "دولة يهود" ـ وهي في حالة عدوان دائم مستمر لا ينقطع على بيت المقدس، وعلى المسلمين في هذه البلاد، وفي غيرها ـ يعتبر من أوضح "أعمال الكفر البواح"، الواجب بيانه والصدع به مهما كلف الثمن، ذلك أن بيان الحق والشرع في هذا الفعل، بداية طريق لمواجهة "دولة يهود" مركز الإفساد في الأرض، ودرة تاج القوى الاحتلالية التي غرست هذا الخنجر المسموم في قلب الأمة المسلمة، وجعلت ليهود هذا التأثير العالمي المفسد..

ولا يهم من يستغل من، ومن يركب من؟ هل القوى الاحتلالية الصليبية هي التي تستغل يهود، وتجعلهم رأس الحربة في عدوانهم الدائم على الأمة المسلمة؟ أم يهود بنفوذها المالي والسياسي والإعلامي وجماعات الضغط التابعة لها، وتأثيرها في العملية الانتخابية في بلدان الغرب هي التي تحرك السياسة الغربية كيفما تشاء؟

ولا يهم كذلك ما الذي يحرك يهود، هل هو حقدها الديني البغيض، أم إلحادها العلماني المقيت؟! فالأمر خليط من كل ذلك، والعداء والعدوان والبغي واقع على هذه الأمة المكلومة، والمواجهة لا مفر منها.

ولليهود نفوذ خطير في "الاقتصاد العالمي"، ولهم قاعدة تقنية وعسكرية وقتالية متطورة، كما لهم نفوذ في بلدان الغرب الكبرى يجعل الغرب الداعم الرئيس والمتبني لهم، وكأنه هو الذي يُقاتل عن يهود.

والنظام السياسي الذي يهدف إلى تحرير الأمة المسلمة من أعداء الداخل، وأعداء الخارج.. وتحرير بيت المقدس، وطرد النفوذ الغربي من بلاد المسلمين يجب أن يكون

مستعداً لهذه المعركة مع "دولة يهود" ومع "القوى الغربية التي تهب لنجدتها وإنقاذها إذا سقطت هذه الدولة المزعومة.

وإنَّ اجتماع اليهود في دولة لها هذا التأثير العالمي في (الاقتصاد، والإعلام، والسياسة، والقوة العسكرية) واحتلال بيت المقدس.. من أكبر الكوارث والمصائب التي حلت بالأمة المسلمة، بل والبشرية جمعاء!

إنَّ أي اجتماع ليهود هو اجتماع للإفساد في الأرض، ولذا؛ فواجب المسلمين، وواجب البشرية كلها أن تقاوم هذا الاجتماع.. يجب على الأمة المسلمة أن تحارب الاجتماع "السياسي والعسكري" ليهود في بلاد المسلمين أينما كان، وإنه لا تحرير ولا وجود حقيقي للأمة المسلمة طالما ليهود دولة!(1)

كما يجب الحذر كذلك من وجودهم **"الاقتصادي"**، فهم عبدة الطاغوت، وأكلي الربا والسحت، فإذا كان من حقهم التجارة والعمل.. فليس من حقهم إفساد حياة البشرية بالربا والسحت والاحتكار وإشعال الحروب وإفساد أخلاق الإنسانية بالفواحش والإباحية والمخدرات لتدمير الإنسانية(2)..

---

(1) يقول الشيخ محمد الغزالي: "إنَّ بني إسرائيل هؤلاء ما تجمع لديهم مال إلا سخّروه في الفتنة، ولا وقع بأيديهم سلاح إلا استعملوه في الأذى، ولا التأمت لهم جماعة إلا تعاونت على الإثم والعدوان، ولا أسديت لهم نعمة إلا جحدوا صاحبها وكفروا حقه" [كتاب: "الاستعمار أحقاد وأطماع، ص 155]، وانظر كذلك: كتاب: "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر"، محمد قطب.

(2) ومن الأسباب التي جعلت يهود يتمادون في الإفساد في الأرض: اعتقادهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم ليس عليهم في الأميين (غير اليهود) سبيل، وأنهم في علاقة خاصة مع الله، وأنهم مهما فعلوا فسيعاقبهم الله عقاباً خفيفاً في أيام معدودات، وكل هذا من التخرص والتهوك والأماني الكاذبة، إضافة إلى سعيهم لبناء الهيكل المزعوم فوق أنقاض المسجد الأقصى (والتقسيم الزماني والمكاني له)، ليظهر مسيحهم الموعود الذي سيُخضع لهم أمم الأرض جميعاً، ويجعل لهم السيادة والملك على العالم أجمع! ولن يأتي إلا عندما تُملأ الأرض حروباً وجوراً وفساداً، فقاموا هم بملئها بالحروب والجور والفساد! فقد استهوتهم الشياطين، وأخذتهم في ضلال بعيد. نسأل الله العفو والعافية.

كما يجب الحذر كذلك من وجودهم **"الفلسفي والفكري"** المنتشر في الكتب تحت مسميات "العلم والتنوير" فماركس، وفرويد، وداروِن، من رؤوس الإلحاد، وكلهم يهود! فكَمْ أفسدوا وضلوا وأضلوا، فيجب محاربة هذه الفلسفة الملحدة في كل صورها، وتطبيقاتها..

وإنَّ الإسلام لا يدعو إلى إبادة يهود إبادة جماعية، بل على العكس لقد كانت بلدان المسلمين ـ عبر التاريخ ـ هي الحاضنة لهم وقت الاضطهاد الكاثوليكي لهم.. بل جعل الإسلام لكل المسالمين من أهل الكتاب معاملة البر والقسط. ويجب أن يظل الوضع هكذا في نطاق الحاضنة الاجتماعية، **والوجود الاجتماعي** لهم (دون نشر للمفاسد والإباحية والشذوذ ونحو ذلك) **ووجودهم الاقتصادي** طاهر من (الربا والسحت والاحتكار والهيمنة).. أما الوجود **"السياسي والعسكري"** (كما هو الحال الآن فيما يسمى "دولة إسرائيل") فهو من أخطر ما يكون على الأمة المسلمة، وعلى البشرية كلها، وهذه هي الصورة التي يجب أن نتعامل بها الأمة المسلمة مع يهود بشكل عام.

إذن فالحديث عن "دولة فلسطينية" عاصمتها القدس الشرقية، على حدود 1967م، وقرارات الأمم المتحدة هي محض هراء، وعبث، وتضييع للأوقات، وجهالة ودجل سياسي! فاليهود لا تفكر هكذا.. بل تفكر في إسرائيل الكبرى من النيل للفرات[1]، ولا

(1) جاء في سفر التكوين من العهد القديم: "18فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلاً: «**لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ**» فيعتقد يهود أن تحرير هذه المساحة الجغرافية هو واجب ديني مقدس، وواجب علماني كذلك تسعى إليه أمريكا وأوروبا. ويُعبر عن هذ المساحة الجغرافية بـ "أرض الميعاد" و"إسرائيل الكبرى" و"إسرائيل التاريخية" و"أرض الوطن القومي لليهود" و"أرض إسرائيل المقدسة" وهي عقيدة راسخة لدى جميع الساسة اليهود، ويتم قضم الأراضي بالتدريج عبر بناء المستوطنات، ثم حق الدفاع عنها، بالحرب الاستباقية، وشرعية الدفاع عن النفس، وفرض الأمر الواقع، ومن ثم فلم يعد هناك من أرض ابتداء لإقامة ما يسمى بـ "حل الدولتين" فقد كانت خديعة تقوم بها الأنظمة الخائنة العربية واليهودية معاً لتحقيق حلم إسرائيل، وبعد أن تُكتشف الحقيقة يكون قد فات الأوان، أو ضعفت الهمم والفرص عن عمل شيء! [انظر: الفيلم الوثائقي: "الخلاص المقدس"]

تتورع عن الإبادة الجماعية، وارتكاب كل الجرائم والفواحش بكل فجور وعدوانية وطغيان في سبيل ذلك، والغرب الصليبي أول داعم ومؤيد ومبارك وعلى رأسه الولايات المتحدة!

ومن جانب آخر: فلو رحبت يهود بهذه الدولة المزعومة المنزوعة السلاح والسيادة ـ وهذا مجرد افتراض جدلي ـ فالمسلمون لا يرحبون بذلك، بل يريدون التحرير الكامل لبيت المقدس، وتدمير الوجود السياسي والعسكري ليهود؛ حتى تتمكن الأمة المسلمة من النهوض والحياة من جديد، وحتى نستأصل هذا الورم السرطاني الخبيث الذي لا يكف ولا يهدأ عن العدوان والإفساد، فقد أصبح جبلة في يهود!

ومن جانب ثالث: فإن أئمة النفاق المتسلطة على حكم الأمة المسلمة، تحنو ـ بشكل يثير الدهشة! ـ على إخوانهم من يهود، ويدافعون عنها بكل ما أوتوا من قوة (خاصة الدول المحيطة بدولة يهود!)، فوجودهم مرتبط بوجود يهود، وترابطهم ودفاعهم هو ترابط عضوي وتشاركي، وعدوهم واحد هو: الإسلام والأمة المسلمة.[1]

فمثلاً: قال رئيس وزراء يهود الحالي عن معركة طوفان الأقصى: "نحن نخوض حرب الإنسانية ضد البربرية، **وأصدقاؤنا في الدول العربية والعالم يعرفون أننا إن لم ننتصر سيأتي دورهم**".

وبعد أيام من وقوع معركة "طوفان الأقصى" زار وزير خارجية أمريكا (اليهودي الصهيوني) "بلينكن ـ Blinken" إسرائيل ودول المنطقة لترتيب حماية دولة يهود، ويقول مؤلف كتاب "الحرب" بوب وودورد التالي:

(1) فسياسة المنطقة العربية وأنظمتها تقوم بالأساس على ضمان أمن إسرائيل والمصالح الغربية. "**فمصير العالم العربي متوقف على مصير الصراع مع إسرائيل**" بحسب تعبير د. جمال حمدان.

ـ "في صباح 13 أكتوبر – 2023، التقى بلينكن **بالملك عبد الله الثاني ملك الأردن**، وقال: "**يجب هزيمة حماس. لا نريد أن نقول ذلك علناً، ولكن نحن ندعم هزيمة حماس، ويجب على إسرائيل أن تهزم حماس، حماس هي جماعة الإخوان المسلمين**" واستنكر الملك موافقة إسرائيل سابقاً على تدفق المساعدات المالية لقطاع غزة واعتبره دعماً لحماس!

ـ وقال **أمير قطر تميم بن حمد** لبلينكن: "**أوضحنا لحماس أن لا أحد يقبل ذلك. لا أحد يقبل ما فعلوه. لم يعد لديكم أصدقاء! ماذا تتوقعون أن نقول للأمريكيين والإسرائيليين؟**

قال بلينكن للأمير: "هناك أمران باسم الرئيس: **الآن أنتم تتعاملون مع حماس بخصوص الرهائن. نحن نُقدر أهمية وجود قناة للتفاوض على إطلاق سراح الرهائن، وأضاف: ولكن عندما ينتهي هذا، لا يمكن أن يستمر الوضع كالمعتاد مع حماس. هذا غير مقبول**". فرد الأمير: "**أفهم ولن يحدث ذلك. لا أحتاج إلى حماس بعد الآن. لا أريد عقبات مع أمريكا. سنبقي القناة مفتوحة الآن لأنكم تجدونها مفيدة. علاقتنا مع أمريكا مهمة جداً**". تفاجأ بلينكن! كان يعتقد أن التخلص من الملاذ الآمن لقيادة حماس سيكون مجالاً سيعملون عليه مع مرور الوقت وربما حتى سيواجهون بعض الصعوبات. لكن الأمير بدا وكأنه يشير ضمنياً ـ دون أن يصرح بذلك بشكل مباشر ـ أنه إذا طلبت أمريكا في نهاية الأمر التخلص من حماس، فسيتم ذلك.

وأضاف الكاتب: "**استضاف أمير قطر القيادة السياسية لحماس في الدوحة لسنوات وقدم مئات الملايين من الدولارات كمساعدات لحماس في غزة.**"(1)

ـ وقال **محمد بن زايد، رئيس دولة الإمارات** لبلينكن: "**يجب القضاء على حماس. يمكننا أن نعطي إسرائيل المجال لتدمير حماس، لكن يجب على إسرائيل أن تعطينا مساحة.**

---

(1) [War, Photographs, P.337، هذا النص غير متوفر في الترجمة العربية حيث لم يتم ترجمة فصل "Photographs" برمته، وقد نقلته هنا للإنصاف]

دعوا المساعدات الإنسانية تدخل. أنشئوا مناطق آمنة للتأكد من أنهم لا يقتلون المدنيين. سيطروا على عنف المستوطنين في الضفة الغربية".

ـ وقال **محمد بن سلمان، ولي العهد السعودي** لبلينكن: "**أريد فقط أن تختفي المشاكل التي أوجدها السابع من أكتوبر**" وأضاف الكاتب، كانت السعودية وإسرائيل تسعيان إلى التطبيع قبل هجوم حماس في 7 أكتوبر 2023، كان ذلك جزءاً من خطته الطموحة "رؤية السعودية 2030"، قال بن سلمان: "**أود العودة إلى تلك الرؤية لكن غزة يجب أن تهدأ. التطبيع لم يتم. لا يمكننا بالطبع السعي إليه الآن. هم على وشك شن حرب.**" وقال ابن سلمان أيضاً: "**ليس فقط أنني أريد المضي في التطبيع، بل أريد القيام بذلك بشكل عاجل**". ولإتمام التطبيع يحتاج بن سلمان إلى أمرين: "الهدوء في غزة، ومسار سياسي واضح للفلسطينيين نحو دولة" قال بلينكن: "صاحب السمو الملكي، هناك كلمة في إسرائيل تقول: إنه عندما يتعلق الأمر بالدولة الفلسطينية فإنك لا تعني ذلك فعلياً، وأنك لا تريده حقاً. أنت تتحدث عنه فقط، لذا قل لي، ما هو الجواب".

قال بن سلمان: "هل أريده؟ لا يهم ذلك كثيراً. هل احتاجه؟ بالتأكيد"، وتابع: "واحتاجه لسببين: الأول: 70% من سكان بلدي أصغر مني، قبل 7 أكتوبر لم يكن لديهم أي اهتمام بفلسطين أو بالصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. لكن منذ 7 أكتوبر، هذا ما يركزون عليه، ولدي دول أخرى في العالم العربي، وفي العالم الإسلامي تهتم بشدة، ولن أخون شعبي" كان بلينكن يعلم أن بن سلمان يرى نفسه قائداً للعالم الإسلامي والعربي بأسره.

ـ وفي مصر، **قال السيسي** لبلينكن: "**لدي هدف واحد، الحفاظ على السلام مع إسرائيل**".. وذهب باقي فريق وزير الخارجية الأمريكي للقاء رئيس المخابرات عباس كامل الذي قدم للأمريكيين **تقييمات حول مدى عمق واتساع أنفاق حماس تحت غزة. وقال إن حماس متجذرة في غزة، وأن القضاء عليهم سيكون صعباً للغاية.**

قال كامل: "**يجب ألا تدخل إسرائيل مرة واحدة. انتظروا حتى يظهروا ثم اقطعوا رؤوسهم**" لم يكن يمزح، أدرك ذلك الأمريكيون.

ورجع وزير الخارجية الأمريكي لرئيس وزراء يهود وأخبره: "منذ آخر لقاء لنا، سافرنا في المنطقة. التقينا بأصدقائكم وأشخاص ليسوا أصدقاء، لكنهم ليسوا أعداء لكم والشيء الوحيد الذي سمعناه مراراً وتكراراً هو أنهم **يدعمون ما تقومون به. يدعمون هزيمة حماس.** قد لا يستطيعون قول ذلك علناً الآن. لكنهم يدعمونكم في ذلك. يريدون الاستقرار".

وأضاف الكاتب: في إبريل 2024، أسقطت القوات الأمريكية صواريخ بالستية وطائرات مسيرة أطلقتها إيران على إسرائيل. دافعت أمريكا عن إسرائيل بنجاح **بمساعدة قوات من المملكة المتحدة وفرنسا والسعودية والأردن.**"[1]

وفيما يبدو قد نجحت أجهزة الاستخبارات اليهودية في تنصيب جواسيس لها من أصول يهودية وصلوا إلى أعلى مرتبة في الهرم السياسي في بلادنا الإسلامية، وبعضهم تم تجنيده، وصار أكثر إخلاصاً للصهيونية من اليهود أنفسهم![2]

---

(1) [كتاب: "الحرب ـ WAR" ص 189 - النسخة الإنجليزية Chapter 46،وصفحة 256 من الترجمة العربية، وما تلها باختصار]

(2) يوجد لدى أجهزة ودوائر الاستخبارات اليهودية ـ وغيرهم ـ برنامج يسمى "تجنيد القادة ـ Head Hunting" يسعون من خلاله السيطرة على بعض السياسيين في بداية مشوارهم السياسي والعسكري، ودعمهم ـ بكل الوسائل ـ ليصلوا إلى مناصب القيادة والحكم، ومن ثم يقدمون خدماتهم لليهود ولأعاونهم. ولا يستهولن أحد أفعالهم، فثلة قليلة من المجاهدين الصادقين مرغت أنوف يهود في التراب، ومزقت هيبتهم المزعومة! فهم يحبون أن يظهروا بمظهر الذي لا يُقهر والذي يعرف كل شيء، وما أن تواجههم ثلة مؤمنة صادقة.. إلا وينهزموا هزيمة ساحقة؛ فلا تخشوهم. فهم قوم أذلاء ضُربت عليهم الذلة والمسكنة: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 112]، فلا يستطيعون شيئاً إلا بحبل من الله (ابتلاء الله وقدره)، وحبل من الناس (الذين يستخدمونهم ويتبادلون معهم المصالح الدنيوية)، فاللهم اقطع حبلك وحبل الناس عن يهود يا رب العالمين، وردهم ـ بعدلك ـ إلى الشتات.

فعلى سبيل **المثال**: قال رئيس متحف "أصدقاء صهيون ـ Friends of Zion Museum" ـ الذي يُكرم أشد الشخصيات إخلاصاً للصهيونية ولدولة إسرائيل ـ إننا نُكرم (هذا الملك العربي)، المخلص جداً لإسرائيل، والداعم لها؛ فقد عمل على تغيير المناهج التربوية الإسلامية، وحذف كل الآيات القرآنية التي فيها معاداة للسامية [بزعمهم!] بل وأضاف تفسيراً إسرائيلياً تلمودياً لبعض الآيات، ومنع الحديث عن الجهاد في المساجد والدعاء على يهود، وقد صرّح هذا الملك ـ مُتفاخراً ـ بأن والدته يهودية (يقصد مديرة القصر التي تربى على يديها). هذه تصريحات علنية على الملأ ـ وقد أمنوا غضبة الشعوب بعدما استعبدوهم ـ وما خفي كان أقبح وأفجر وأظلم.

وما يُميز أجهزة الاستخبارات اليهودية أن شتاتهم في الأرض جعلهم يذوبون في المجتمعات، ويتطبعون بطباعها ولغتها وثقافتها بل ودينها؛ فاليهودي العراقي كأي مسلم عراقي، واليهودي المصري كأي مصري... إلخ، وقد شكلوا روافد هامة لأجهزة الاستخبارات اليهودية، وكونوا شبكة عالمية من العملاء والخونة، (فكل يهودي جاسوس محتمل أو متعاون) إضافة إلى تزويد الغرب لهم بأحدث التقنيات والأسلحة ليكونوا رأس الحربة في العدوان على الأمة المسلمة.

هذا ونفوذ واختراق يهود لا يقتصر على منظومة الحكم، بل تمتد أيديهم الآثمة لتُفسد ما استطاعت لذلك سبيلا، فقد دمروا الزراعة في بعض البلدان العربية، هذا غير الاقتصاد، والمنظومة الإعلامية، والمنظومة التعليمية، ونشر الإلحاد، والإباحية، والفواحش، وهم الداعم لأجهزة الاستخبارات في بلادنا ومدها ببرامج وأجهزة التجسس والتنسيق الأمني والاستخباري معها!

فالحديث إذن ليس عن "القضية الفلسطينية" ولا عن "الصراع العربي الإسرائيلي" ولا عن "حق تقرير المصير والفصل العنصري" ولا عن "قضية إنسانية لشعب مشرد بلا

دولة".. كل هذه تعتبر تفسيرات مادية علمانية. فيجب أن يكون الحديث عن المسألة من جذورها، وحقائقها، ومآلاتها الواقعية والتاريخية والمستقبلية من منظور إسلامي خالص.

وإنَّ أعظم خدمة نقدمها ليهود مجاناً.. هو: **عَلمنة الصراع**، والذهاب به إلى مجلس الأمن، والأمم المتحدة، والمحاكم الدولية، وجعله مجرد قضية أرض، وعودة لاجئين، وفصل عنصري!!

***

وأمام هذه الحقائق التي لا مفر منها، وأمام هذا "العداء السياسي" والديني والتاريخي والحضاري، يجب على رجال السياسة المسلمين أن يستعدوا لهذه المعركة بكل ما أتوا من قوة، وأن يعدوا كل قوة لها، والحرب مع دولة يهود أحسبها ستكون على ثلاثة محاور:

الأول: القضاء على النظام السياسي والعسكري، والسيطرة على تل أبيب العاصمة، والقدس الشريف.

الثاني: مواجهة القوى الصليبية البحرية القادمة عبر البحر المتوسط.

الثالث: إعادة تعريب فلسطين، وعودة أهلها إليها.

وأحسب أن مصر هي المؤهلة لهذا الدور، بعد أن تتحرر أولاً من حكم المنافقين وعملاء يهود.

وعلى القيادات أن يحاولوا التكتم على "مرحلة الإعداد" حتى يشتد ساعدهم، فهم سيواجهون:

ـ **حرباً اقتصادية**، هدفها تدمير مقومات الدولة الاقتصادية، والقضاء على استقرارها المالي بضرب عملتها المحلية؛ لذا، يجب التحوط بالملاذات الآمنة مثل "الذهب"، وبإنتاج كل ما تحتاجه الدولة محلياً، بعد نقل الخبرات والتقنيات والأدوات اللازمة لذلك.

ـ **وعقوبات غربية**، تهدف إلى الضغط الاقتصادي الذي يشل موارد الدولة الخارجية، ووجودها في الأسواق العالمية.

ـ **وحرباً سياسية**، حيث سيحركون أذرعهم في الداخل لإثارة القلاقل، والفتن، والحروب الأهلية والطائفية.. لينشغل المسلمون بأنفسهم عن عدوهم.

ـ **وحرباً دبلوماسية**، حيث سيحركون المجالس الدولية، ويستخدمون سلاح المظلومية و"معاداة السامية" في الحصار الدبلوماسي العالمي للمسلمين، وسيتحزبون على المسلمين.

ـ **وحرباً إعلامية**، حيث يسيطرون على وسائل الإعلام التي ستصور اليهود الضحايا المظلومة تاريخياً، بهدف خلق رأي عام عالمي متعاطف مع يهود.

ـ **وحرباً عسكرية**، حيث سيمدون يهود بكل الأسلحة الفتاكة عبر جسور جوية تنقل لهم كل ما يريدون وزيادة.. بهدف الإبادة الجماعية للمسلمين، فلا يردعهم دين، ولا يُوقفهم خُلق.. بهدف القضاء على مقومات الدولة والحياة للمسلمين، وإذا فشل يهود، سيحضر الغرب بنفسه ليقود هذه المعركة. (1) كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: 73]

وإننا هنا لا نتحدث عن "نهاية العالم"، ونزول المسيح ـ عليه السلام ـ والمعركة الأخيرة... إلخ من التصورات التي ربما تشل فكر وحركة المسلمين وقدرتهم على المواجهة، فالسياسي المسلم لا يفكر هكذا.. السياسي المسلم يفكر واقعياً واستراتيجياً مخلصاً عمله لله، ولا يلتفت إلى التفسيرات الغيبية لنهاية العالم، فهذا لن يغير في طبيعة عمله شيئاً من ناحية: الإعداد والتخطيط والتنفيذ، إنه يؤدي واجبه وأجره على الله..

(1) انظر بحث: "ما بعد طوفان الأقصى".

وهو يجاهد يهود كما جاهدهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويجاهد الصليبيين كما جاهدهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يتوانى ولا يتكاسل ولا يتعلق بالأماني.. بل يمضي إلى العمل والجهاد.

وإنَّ من شروط وأسباب النصر كما جاء في سورتي الأنفال وآل عمران[1]:

الانتصار لله ـ جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7]

صلاح ذات البين، وعدم الطمع في متاع الدنيا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]

الثبات عند لقاء العدو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]

الانتهاء عن التنازع: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46]

التواضع والإخلاص لله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: 47]

التوكل على الله والحذر من المنافقين: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 49]

---

(1) تستعرض سورة الأنفال وقائع "غزوة بدر"، وتستعرض سورة آل عمران وقائع "غزوة أُحد".

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47]

الوفاء، وعدم الغدر : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: 58]

استفراغ الوسع في تحصيل القوة، وعدم الرهبة من قوة الكافرين: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ. وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 59-60]

اتخاذ بطانة من المؤمنين المتحابين: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 63-64]

الاستعداد للجهاد والقتال في سبيل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ. الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1] [الأنفال: 65-66]

---

(1) الحالة المثالية الكاملة للقاعدة الصلبة الصابرة المؤمنة هي القدرة على مواجهة (10) أضعاف قوة العدو، وفي حالة التخفيف: تكون القدرة على مواجهة ضِعف قوة العدو، وذلك يرجع إلى قوة الإيمان، والفداء، والبذل، والتضحية للمجاهد في سبيل الله، وإيمانه المطلق بأن هناك عوض وجزاء عند الله في الآخرة أعده الله للشهداء في سبيله.

ولاية المؤمنين بعضهم بعضاً: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: 73]

تغليب العفو عند التمكن، وعندما لا يكون ضعفاً: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1] [الأنفال: 61]

التوبة إلى الله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 135]

الصبر على الأذى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 140]

العزيمة والفداء والتضحية: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 146-147]

مخالفة الكافرين، والتوكل على الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 149-150]

---

(1) في فتح مكة العظيم، قال النبي الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ **"مَنْ دَخَلَ دَارًا فَهُوَ آمِنٌ [وفي رواية: "وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ] وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ"** [سنن أبي داود/ 3024، وصحيح مسلم] وقال لعموم الناس **"اذهبوا فأنتم الطلقاء".** وأما بعض المجرمين المعتدين فقد أمر بقتلهم: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ـ عَلَيه الصَلاةُ والسَلام ـ النَّاسَ إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ، وَقَالَ: **"اقْتُلُوهُمْ، وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ".** [سنن النسائي/ 4067]

الحذر من التكالب على متاع الدنيا: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152]

الشورى، ولين القلوب للمؤمنين: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ. إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 159-160]

الثبات الإيماني، والتوكل على الله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]

الحذر من وساوس الشيطان في التخذيل والإرجاف: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]

الصبر على البلاء، وتقوى الله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]

***

وإنَّ المسلمين إذ اليوم في "ابتلاء" بسبب تسلط يهود وعلوهم وإفسادهم في الأرض، فإنهم وبعد القضاء على علو يهود وإفسادهم، ووراثة المسلمين للأرض ـ إن شاء الله ـ سيكونون أيضاً في "ابتلاء" الاستخلاف في الأرض.. فالله خلق الإنسان ليبتليه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2]، فيجب أن يكون المسلم مستعداً لكل أنواع الابتلاء.. بلاء الاستضعاف، وبلاء التمكين.. بلاء الشر، وبلاء الخير: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35]

وأمام هذه الحقائق، وأمام هذه المعارك الحتمية، وهذا الصراع والتدافع التاريخي إلى قيام الساعة، يجب على المسلمين أن يعدوا لكل أمر عدته، وأن يحسنوا التوكل على الله ـ ولا يستهولوا انتفاش الباطل وقوته، فهو زاهق بإذن الله.. والله ناصر دينه وكتابه وعباده المؤمنين ـ وأن يكون فكرهم السياسي والحركي قائماً على طبيعة هذه المعركة، وهذا الصراع! وأن يكون إسلامياً قرآنياً خالصاً متطهراً من كل لوثات العلمانية والمادية.

وأول ما يجب إعداده هو المسلم المخلص دينه وحياته لله رب العالمين، يُقاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.. فهذا هو سلاح الأمة الذي لا يُقهر، ثم تحاول الأمة بكل ما تستطيع أن تُصنّع كل ما تحتاجه من أسلحة، وتحاول توطينها محلياً، وتبتكر الأسلحة النوعية التي تستطيع أن تواجه التفوق العسكري الهائل للغرب، وأن تحشد عقول أبنائها، وخيرة أموالها من أجل ذلك.. وأن تدفع بأهل القوة والأمانة في كل مجال، حتى تصل ـ بإذن الله وفضله ـ إلى النصر التام المبين.

***

48- التجسس السياسي

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12]

وفي الحديث الشريف: عَنْ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ أنه قَالَ: "**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا**[1] **وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**"[2]

فكانت أهداف الإسلام العظيمة تهدف إلى بناء مجتمع متحاب متآخٍ صحيح النية، وسليم الصدر، لا يطلع على عورات أحد، ولا يتتبع الناس ويتسور عليها حياتها الخاصة؛ حتى تشيع روح الود، والثقة، والكرامة، وحفظ خصوصية الإنسان؛ فيشعر بمسؤوليته وكرامته، وحقوقه، فنهى عن "التجسس والاغتياب والغيبة والنميمة والتحاسد والتباغض والمعاملة السيئة والخداع وسوء الظن... إلخ" مما يفسد الاجتماع الإنساني، والإخاء المجتمعي؛ وذلك لينعم المجتمع بالتراحم والستر والرحمة والتماسك..

ومنع فضيحة الناس بذنوبها، فجعل الستر فيها أولى؛ إشاعة للفضيلة، ومنعاً للمجاهرة بالذنوب.

هذه هي المبادئ الإسلامية في المجتمع الإسلامي، وبين الناس جميعاً، وهي الواجب تطبيقها وإشاعتها بين الناس.

---

(1) التحسس: "مَعناهُ لا تَبحَثُوا عَن عُيُوب النّاس ولا تَتَّبِعُوها، والمناجشة: هو أَن يَزيدَ الرجلُ ثَمنَ السِّلعة وهو لا يريد شراءها، ولكن ليسمعه غيرُه فيَزيد بزيادته، فالنَّجْشُ أَن تمدح سِلعةَ غيرِك ليبيعها أَو تَذُمَّها لئلا تَنْفُق عنه".

(2) [صحيح البخاري/ 6066]

وجهاز الأمن في الإسلام لا يتجسس على عموم المسلمين ـ ولا عموم الناس ـ ولا يفضحهم، ولا يتتبع عوراتهم، ولا يشيع الفاحشة من خلال التجسس أو التهديد بالفضائح الجنسية... إلخ، ولا يسمح له بالتجسس إلا في حالات محدودة عندما يقع الشك في احتمالية وجود قضية جنائية أو أمنية أو عدائية داخل المجتمع، فيحاول منع حصولها.. وحتى مع السماح له ـ في حالات معينة ـ لا يُسمح له أيضاً بنشر أي فضائح أخلاقية على الملأ (كما هي عادة أجهزة المخابرات الجاهلية). فسمو المبادئ الأخلاقية من أهم أهداف الرسالة الإسلامية.

***

وأما في حالة الحرب، فالتجسس على العدو مما هو من أهم أعمال الحروب؛ حيث المعلومة الاستخباراتية لا تُقدر بثمن، ويمكن أن يتحقق على أساسها النصر في معركة، ومن ثم السيادة والهيمنة.[1]

وهو غير محرم في الإسلام، بل في حروب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمل على:

ـ تخذيل العدو وتفشيله عن مواجهة المسلمين (الحرب النفسية). فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنعيم بن مسعود "يَوْمَ الْخَنْدَقِ: "**خَذِّلْ عَنَّا، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ**"[2].

ـ محاولة الإتيان بخبر القوم، من حيث العتاد والعدة وتكوين الجيش الحربي ونحو ذلك مما يكشف طبيعة العدو وخططه. قَالَ النَّبِيُّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ : "**مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ يَوْمَ الْأَحْزَابِ**، قَالَ: الزُّبَيْرُ أَنَا ثُمَّ، قَالَ: مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، قَالَ: الزُّبَيْرُ أَنَا..."[3]

(1) انظر ـ على سبيل المثال ـ كتاب: "الملاك (الجاسوس المصري الذي أنقذ إسرائيل)".
(2) [معرفة الصحابة لأبي نعيم]
(3) [صحيح البخاري/ 2846]

ـ مكافحة التجسس، كما جاء في قصة حاطب بن أبي بلتعة ـ غفر الله له ـ في فتح مكة العظيم.

***

ولقد كان تأمين المجتمع المسلم ـ والفرد المسلم ـ ضد الأعمال التجسسية المعادية، يأتي من خلال إنشاء الفرد المسلم، التقي، النقي، المؤمن.. الذي لا يخون الله ورسوله والأمة المسلمة، ويعيش لتمكين دينه، ولتبليغ رسالة الله ـ جل جلاله ـ وخلافة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان وجود مجتمع لا يسمح ابتداء بوجود "خونة" بينه، ولا أن يخترقه "العدو"، ولا يتخذ بطانة من غير المؤمنين ـ سواء من المنافقين أو من غير المسلمين المؤمنين ـ هو جدار الحماية ضد أي محاولات لاختراق المجتمع المسلم، والتجسس عليه، وتقويضه من داخله.

***

واليوم ـ وفي واقعنا المعاصر ـ من المهم للشباب المسلم أن يعرف أساليب العدو في التجسس، حتى يحذرها ويعد لها العدة ـ وهو في طريق التمكين للإسلام ـ وحتى لا يقع ضحية لأي اختراقات يمكن أن تحدث سواء أكان وجوده في "حركة تغيير" تسعى للتمكين، أو وصلت بالفعل للتمكين، حيث التجسس من العدو عملية مستمرة لا تنقطع.. ويمكن تلخيص العمل الاستخباراتي في محورين.. الأول: أدوات التجسس وآليات التنفيذ (الهجوم). والثاني: مكافحة التجسس (الدفاع).

وللأسف "علوم التجسس" اليوم مما هو محرم على المسلمين دراستها، ومما لا يهتم لها الشباب المسلم كذلك! ولا أزعم بطبيعة الحال ـ هاهنا ـ أني مؤهل لتعليمها للشباب أو

أني على اطلاع عليها يسمح بأن أُفصل فيها.. إنما فقط إشارة وتنبيه لأهمية هذا الموضوع لإعداد العدة له.[1]

والعدو له طرقه المتعددة في التجسس، وعلى عدة محاور.. ويمكننا القول: إنه لم يترك وسيلة للتجسس إلا استخدمها غير متورع عن استخدام كل الأساليب المتاحة! وكان تجسسه على عدة محاور، منها:

1ـ التجسس الفكري والمجتمعي:

كان ـ ومازال العدو ـ حريصاً على اختراق المجتمعات الإسلامية من الناحية المجتمعية والفكرية، ودراسة سلوكها دراسة وافية دقيقة شاملة ـ بصورة مدهشة وغريبة ـ وقد كان هذا التجسس يتم بصورة هادئة ناعمة ـ بل وبمشاركة المسلمين أنفسهم! ـ حيث يتم من خلال "مراكز الأبحاث، وبعض برامج الجامعات، والمبادرات... إلخ" لفهم الطبيعة الحاكمة للمجتمعات المسلمة، ونمط حياتها، وطريقة تفكيرها، والفئات المؤثرة فيها، وما هي أنجع الوسائل لإفسادها، وهو من أخطر أنواع التجسس ـ رغم نعومته ـ ورغم ما يظهر فيه من براءة أو أكاديمية علمية أو ثقافية أو بحثية، ومما أدهشني وأنا أقرأ في بعض الكتب، اهتمام بعض الباحثين الغربيين بنوع العطر، وطريقة وضع السواك في الجيب، وطريقة الاستحمام... إلخ[2]، ويبدو إن هذه المعلومات لها دلالة معينة عندهم، ربما لفهم النمط السلوكي لبعض المسلمين في حال الرغبة في تقليده، أو لتغذية "خزانات التفكير" عندهم بجميع البيانات والتفاصيل، علها تفيد لاحقاً في شيء.

(1) انظر ـ على سبيل المثال ـ بحث: "مستقبل الاستخبارات" لشاي هيرشكوفيتش، و"شذرات في الاستخبارات والدفاع والسياسة" م. أحمد مولانا.

(2) انظر ـ على سبيل المثال ـ مقال: "الجميع تحت المجهر" ـ مجلة البيان، عدد 153، 1421 هـ. مع ملاحظة قِدم هذه المقالات نسبياً، وتطور العمل الاستخباري. فهي مجرد أمثلة لتوسيع للمدارك. وانظر ـ على سبيل المثال ـ كتاب: "المعلومات وجالوت"، لـ بروس شناير.

يهدف التجسس الفكري والمجتمعي في توجيه المجتمع الوجهة التي يريدها العدو، والنشاط الذي يجب أن ينفق طاقته فيه، وإحباط أي محاولة فكرية ومجتمعية لا يريدها العدو، وتكون مضادة لتوجهاته.. كما يعمل على صناعة القادة المجتمعيين ـ من بني جلدتنا ـ الذين سيقومون بعملية التوجيه والحكم فيما بعد.

بل وصل به الأمر إلى إنشاء جيوب داخل المجتمعات المسلمة تدين بالولاء المطلق له روحاً وفكراً شعوراً وسلوكاً من حيث: نمط التفكير، وطريقة العيش، والتربية والثقافة والسلوكيات، بعدما أنشاءها على عينه منذ نعومة أظفارها! وصارت لهذه الجيوب السيادة والقيادة ولا حول ولا قوة إلا بالله![1]

هذا غير الاختراق الفكري لـ "الحركة الإسلامية" ذاتها، والعمل على تقويض مبادئها وأهدافها، وجعل البأس بينها، وضرب بعضها ببعض[2]، وإفساد ذات بينها، وخلق جماعات وظيفية، تؤدي أدوراً للعدو لا يمكن تخيلها![3]

ومن مظاهر هذا الاختراق الفكري:

ـ التحلل من كل مظاهر القوى عند بعض الجماعات؛ مما جعلها كالريشة في مهب رياح البغي والعدوان.

ـ نشر الفتاوى التكفيرية ـ التي تُكفر الأفراد والمجتمعات ـ وتشويه صورة التدين، وإفساد جهاد الحركات القتالية.

---

(1) وهذه الجيوب تجعل المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وهي ـ في عمومها ـ محل الدعوة والتوجيه إلى صحيح الدين، فكثير منها مخدوع وابن بيئته.

(2) انظر مقال: "خط الفاعلية.. وأجهزة الاستخبارات الفكرية".

(3) انظر ـ على سبيل المثال ـ مقال: "هل التيار المُدخلي صديق لدولة إسرائيل".

ـ نشر الأراء والأفكار الشاذة، وإثارة الموضوعات الخلافية والتفاهة، والطعن في العلماء؛ لإشغال الناس عن قضايا الأمة المصيرية.

ـ نشر فكر عبادة الظالمين، وطاعة الطغاة؛ حتى يظل المسلمون أسرى وأداة طيعة في يد العدو، ومن ثم يفقدون أي فاعلية لهم في التغيير ودفع ظلم الظالمين وبغي المعتدين، وفقدان أهلية حمل الرسالة الإسلامية.

ـ نشر فكر "العلماني المتدين"، الذي يجعل نفسه مفكراً إسلامياً.. أو سياسياً إسلامياً، ليروج للعلمانية السياسية والاقتصادية ـ دون الثقافية ـ باسم التعايش والواقعية ومقاصد الشريعة.

ولا شك أن كل هذه المظاهر لها آثار فكرية في بعض تراثنا، ولها أبعاد نفسية في دعاتها.. يستغلها العدو ليرتكز عليها في تعويق إحياء الأمة، وفي تفشيل وتخذيل حركات التغيير. وهذا مما يجب الانتباه إليه، ودفعه بحكمة وصبر ويقين.

***

2ـ التجسس السياسي:

يعمل العدو على اختراق النظام السياسي، وتكوين شبكة من العملاء ليس هدفها جمع المعلومات، والتجسس على القادة السياسيين فحسب، وإنما في أن يصل هؤلاء العملاء إلى أعلى هرم السلطة ـ كما حصل في بعض بلادنا الإسلامية! ـ وهذا منتهى النجاح لأي نظام مخابرات أن يصل عملائه إلى سلم القيادة في البلد المستهدف! ولهم باع طويل في ذلك بدءاً من: الدورات التدريبية والعسكرية (التي يتخيرون فيها الأنسب، ولا بد أن يكون من الذي لديه نهم وجنون للسلطة، ومن الأقل ذكاءً، ومروءة وتدين وخُلق)، ومن خلال الابتعاث في الخارج، والتزوج من الأجانب أو أن يكون البيت تحت رعاية

أجنبيات، أو من خلال الإغراء بالمال والجنس والمنصب والجاه[1]، أو من خلال التهديد بالحرمان والعقوبة.. وهدف هذا المقال ليس هو حصر أدوات التجسس، وإنما فقط إشارات سريعة للحذر منها.

وللعدو اليهودي الصهيوني، والعدو الصليبي الأمريكي قاعدة تجسس واسعة في بلادنا الإسلامية، يستخدمون فيها أحدث ما وصل إليه العقل البشري من تقنية وتطور؛ فلديهم الأقمار الصناعية التجسسية ـ وطائرات التجسس وغيرها ـ التي تتجسس على جميع اتصالات المسلمين، وتخزنها في خزانات التحليل، واستخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي في جمعها وفرزها وتحليلها وتقسيمها وفهم مخرجاتها، والمساعدة في اتخاذ القرارات والخطط![2]

كما تساعدهم شركات الاتصالات والتقنية في فتح ثغرات خلفية في أجهزة الاتصالات والجوالات... إلخ، وخلق برامج تجسس تسمح بتتبع القادة السياسيين، واختراق هواتفهم ـ دون علمهم ـ وقد ساعدت التقنية الحديثة في التجسس بشكل جعل الجميع تحت مظلة التجسس، وتحت الاستهداف المباشر.. لدرجة التجسس على الرؤساء في جميع اتصالاتهم، الأصدقاء والأعداء سواء.. والتجسس على نشاطهم على الإنترنت سواء البريد الإلكتروني أو غير من وسائل التواصل والرسائل النصية والمكالمات من خلال كابلات الإنترنت، ومزودي الخدمة... إلخ.

---

(1) تَفاخر قنصل مصر في إسرائيل عام 1981 ـ والمسؤول حينها عن ملف التطبيع ـ في لقاء علني على برنامج تلفزيوني بأن الموساد صوره أثناء انخراطه في علاقة جنسية مع سيدة ضمن علاقات متعددة أقامها مع إسرائيليات وكثير منها ما كان بترتيب المخابرات الإسرائيلية، وكان سعيداً ـ هو وقياداته ـ بأدائه الفحولي حيث رفع رأس مصر! وقد عُين مساعداً لوزير الخارجية المصري للإعلام والصحافة بعد ذلك. وهو ليس حالة فريدة، بل هذه طبيعة عامة في تلك الأنظمة الخائنة لدينها وأوطانها. فانظر إلى مستوى الفجور والانحدار والانسحاق وصل إلى أي درجة!

(2) انظر ـ على سبيل المثال ـ فيلم: "مجتمع الاستخبارات". ونتذكر دوماً أن هدف المعرفة هو: **التدافع والجهاد، وليس الانهزام والاستضعاف والاستكانة.**

وقد كشفت تقارير أن الحكومة الأمريكية تتجسس على مواطنيها وحلفائها على السواء. وكان باستطاعة الوكالة الأمريكية الاطلاع على رسائل الجوال والمكالمات الهاتفية وسجل الإنترنت بما في ذلك عمليات البحث وخدمات المحادثة.(1)

ومن أهم ما يجب على حركات التغيير ـ وأثناء طريقها للتمكين لدين الله ـ أن تنتبه لذلك، وتعد ما تستطيع له من عدة، فقد علمنا أن قصور الحكم ـ في بلاد المسلمين ـ كان تحت التجسس المباشر من خلال التقنية الحديثة والأجهزة المتطورة (هذا غير العملاء على الأرض)، ولا بد أن يكون لحركات التغيير خطة لمكافحة التجسس!

ومن الطريف أن بعض رجال السياسة في أوروبا ـ وبعضهم فاسدين ـ كان يتجنب استخدام الجوالات الذكية الحديثة، ويتعمد استخدام الجوالات القديمة التي لا تستخدم أنظمة تشغيل حديثة ـ ولا تتصل بالإنترنت ـ خشية على نفسه من تجسس مخابرات بلده، أو البلدان الأخرى!

ويقول رئيس دولة عربية في مذكراته.. وأثناء توليه المنصب، أنه كان يخشى من تجسس أجهزة مخابراته عليه ـ من خلال مراكز القوى ـ وقد أرسل ابنته لتوصل رسالة لقائد في الجيش يطلب ولائه، وتجنب استخدام الهاتف!

ونترك للمتخصصين وضع خطة تأمين (ضد التجسس) لقيادات التغيير، لحفظهم، وحفظ خططهم.. وعندما يصلوا إلى الحكم ـ إن شاء الله ـ سيتوجب عليهم إنشاء جهاز

(1) في عام 2013 كشفت وثائق مسرّبة أن وكالة الأمن القومي الأميركية تجسست على حوالي 125 مليار اتصال هاتفي ورسائل نصية خلال شهر يناير 2013، كانت غالبيتها على دول شرق أوسطية. وذكر موقع (Cryptome.org)، المتخصص في نشر الوثائق السرية، أنه جرت 7.8 مليار عملية تجسس على الاتصالات في السعودية، ومثلها في العراق. فيما وصل سقف عمليات التجسس على مصر إلى 1.9 مليار اتصال، و1.6 مليار اتصال في الأردن. وطال التجسس الأميركي العديد من الدول الغربية أيضاً وقادتها، بالإضافة إلى المواطنين الأميركيين.

مخابرات خاص بهم، يكون ولائه التام لهم.. والاستفادة من خبرات الأجهزة القديمة، ولا يصلوا ابتداء إلى الحكم إلا أن يكون قد تكوّن لديهم بالفعل نواة هذه الأجهزة التي تساعدهم في جهادهم هذا.

***

3ـ التجسس الحربي:

هدف التجسس الحربي معروف، ولا حاجة للتفصيل فيه هنا، إلا الإشارة إلى أنه يهدف بالأساس إلى إبقاء الأمة ضعيفة عسكرياً، عاجزة عن إنتاج سلاحها، أو إنتاج الأسلحة النوعية، واغتيال العلماء والقادة الذين يهدفون إلى استقلال الإنتاج الحربي، وقد نجح العدو في مصر ـ على سبيل المثال ـ في تحويل الإنتاج الحربي العسكري إلى إنتاج "الجمبري والمعكرونة" وشغل القيادات العسكرية بالعمل التجاري![1]

والتسليح القتالي خاضع لسيادة الجيش الأمريكي الذي يهيمن على صفقات ونوعية التسليح والتدريب، ويتحكم في البرمجيات التي تُشغل هذه الأسلحة! فيجعلها بلا قيمة ـ إن شاء ـ وتكون بذلك صالحة للعروض والاحتفالات العسكرية فقط! إضافة إلى تحكمه الكامل في صيانتها، وذخائرها... إلخ.

كما يملك العدو المُصدر للسلاح أن يطرد المشتري من "سلاسل التوريد والإمداد" الخاصة بصيانة وتشغيل وتحديث وتسليح الطائرات، ومن ثم تصبح ـ مهما بلغ ثمنها ـ طائرات بلا قيمة، وتخرج من الخدمة سريعاً، والعدو عندما يبيع لنا هذه الأسلحة فإنه لا يهدف ـ بكل تأكيد ـ تسليحنا بقوة عسكرية، أو أن يكون لنا حرية استخدامها كيفما نشاء، بل يهدف إلى التحكم في قرارنا السياسي والعسكري، وقطع الطريق على استقلال

(1) انظر ـ على سبيل المثال ـ كتاب: "أولياء الجمهورية" ليزيد صايغ.

التصنيع العسكري الوطني. وعدو مثل أمريكا تفعل ذلك مع الأصدقاء من حلفائها، كما تفعله مع الأعداء سواء.[1]

يقول الفريق سعد الدين الشاذلي، قائد وبطل حرب أكتوبر 1973: "إنَّ السلاح الأمريكي لا يمكن أن يُستخدم ضد مصالح أمريكا، وبالتالي فإنه لا يمكن أن يستخدم ضد إسرائيل. وإن السلاح الأمريكي الذي في أيدي العرب هو أحد الوسائل الأمريكية لنهب ثروات البلاد العربية..

أما بخصوص استخدامه.. فإن الولايات المتحدة تتخذ سلسلة من الإجراءات التي تضمن عدم استخدامه ضد إسرائيل. ويبدأ هذا الإجراء بالنص على ذلك في شروط البيع، ثم بالسيطرة على السلاح عن طريق الإشراف الفني والصيانة والإمداد بقطع الغيار، ثم بتجريد السلاح من بعض أجزائه التكميلية الهامة التي تقلل من كفاءته في الأداء فإذا فشلت كل هذه الاحتياطات وتمرد هذا السلاح ضد الرغبة الأمريكية، فإن إسرائيل تقوم بواجب تدميره فوراً وفي ساعات قليلة.

ويضيف: إنَّ الولايات المتحدة توافق، بل تشجع إسرائيل على كل خطوة تخطوها. وبالتالي فإن أي طرف ثالث إما أن يكون صديقاً للطرفين، وإما أن يكون خصماً للطرفين. أما أن يكون صديقاً لأمريكا وعدواً لإسرائيل، فإن هذه المعادلة لا يمكن أن تكون صحيحة.

وإنَّ الهدف الأمريكي الرئيسي في منطقة الشرق الأوسط هو فرض الهيمنة الأمريكية على شعوب المنطقة، ونهب ثرواتها، وإن إسرائيل هي الأداة الرئيسية لتحقيق هذا الهدف. ولذلك فإن التعاون الأمريكي الإسرائيلي، والتأييد الأمريكي المطلق لإسرائيل،

(1) [انظر حلقة: "سلاسل التوريد" لـ أشرف إبراهيم]

والدعم الأمريكي لإسرائيل في جميع المجالات، هي إجراءات طبيعية تتم في إطار خدمة الأهداف الأمريكية الاستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط"[1]

والأخطر من كل ذلك تغيير "العقيدة القتالية" للجيوش لتكون ضد شعوبها ابتداء، والنظر إلى العدو الصهيوني والصليبي نظرة ولاء وتعاضد وتعاون وتنسيق وتشارك وحماية![2] ورشوة وإفساد القيادات العليا في الجيوش من خلال صفقات التسليح المشبوهة، ومن خلال المعونات العسكرية، والحفلات الماجنة التي تُباع فيها أسرار الدولة.. بل الأوطان كلها.

***

4ـ التجسس الاقتصادي:

وهدف هذا التجسس ـ هو نفس هدف التجسس الحربي ـ منع تكوين قاعدة صناعية وتقنية تنافس الغرب أو تستقل عنه، ووضع الخطط المنهجية للهيمنة على مقدرات وثروات البلاد وسرقتها، وتقويض الاقتصاد الوطني من خلال المؤسسات المالية والتجارية الدولية، والشركات العابرة للقارات، وتكبيل البلاد بالديون الربوية المدمرة، وإضعاف عُملتها المحلية..

والاقتصاد هو شريان حياة أي دولة. وفي حال التحكم فيه فأنت قادر على تركيع هذه الدولة، وتوجيه سياستها، وإثارة القلاقل والأزمات فيها متى تشاء.

(1) [كتاب: "الخيار العسكري العربي"، ص 310، صادر في 1984م، سعد الدين الشاذلي رحمه الله. ولما كان الشاذلي قائداً وطنياً محبوباً.. اضطهده نظام السادات، وعاش في المنفى 14 عاماً، ولما عاد تم اعتقاله لمدة عام ونصف!]

(2) انظر ـ إن شئت ـ تحقيق: "العملية سيرلي".

والاقتصاد هو الميدان الواسع للفساد الذي ينزل ليلعب فيه الجميع ممن لا يساعده الحظ أن ينعم بلذة السلطة، فيجد التسلية والعوض في السرقة والنهب وبيع مقدرات الأوطان.

وفي الدول المتقدمة.. يكون التجسس من أجل سرقة برامج التصنيع، وخطط التشغيل، وبراءة الاختراعات من أجل المنافسة عالمياً.

كما يتم التجسس عبر "النظام المالي العالمي" ومراقبة جميع التحويلات المالية من خلال أنظمة سويفت، ومقاصة الدولار عن طريق بنوك المراسلة CHIPS، واطلاع وزارة الخزانة الأمريكية والاستخبارات الأمريكية على جميع العمليات المالية العالمية ـ والتي قد تصل إلى (42 مليون) عملية يومياً ـ سواء التي تتم باستخدام الدولار، أو تستخدم نظام سويفت! ويجب التحرر من هذه الهيمنة.

فكل "قوة" ـ أياً كان نوعها ـ تُستخدم كسلاح لتركيع الدول الضعيفة، وإذلالها، واستعبادها، وعلى رأسها بلادنا المسلمة! وعندما تكون هذه القوة في يد الطغاة الفجرة.. يقع الإفساد في الأرض من كل شكل ولون.

***

5- التجسس التقني:

حيث تتنافس الدول في توظيف التقنية في عمليات التجسس، وسُميت بـ "الحروب السيبرانية" حيث يمكن شل البنية التحتية الرقمية للبلد المستهدف، واختراق سلاسل التوريد والتصنيع الخاصة بأجهزة الاتصالات والشبكات والخوادم ـ Hardware ـ ووضع مكونات تقنية تجسسية فيها[1]؛ تجعل جميع الاتصالات السلكية واللاسلكية والإنترنت

(1) [انظر ملف: "اختراق الأمريكان لسلاسل التوريد"]

مفتوحة على مصراعيها أمام العدو، هذا غير التجسس بالتقنيات البرمجية Software، فعلى سبيل **المثال**:

ـ "طالبت سلطات الأمن السيبراني في الصين إخضاع منتجات صانعة الرقائق الأمريكية "إنتل" لفحص أمني "نظراً للمخاطر البالغة" التي تمثلها للأمن القومي للدولة. واتهمت الصين "إنتل" باستخدام خواص للتحكم عن بعد في الرقائق كي تتجسس على العملاء، وتصنع ثغرات في المنتجات سراً".

ـ و"لجأ الموساد الإسرائيلي، إلى الاستثمار في الشركات الخاصة بالتشفير وبيع معدات الاتصال وبرامج التواصل المجانية في محاولة لخداع المنافسين في حال استخدامها.

وتعد عملية كريبتو من أكبر عمليات التجسس في القرن العشرين بعد الحرب العالمية الثانية، وتتعلق باختراق المخابرات الألمانية والأمريكية مع دور للموساد، لشركة كريبتو السويسرية، التي كانت تبيع برامج وآلات التشفير لـ120 حكومة في العالم على مدى عقود.

ومن ضمن الدول التي استخدمت آلات كريبتو إيران وباكستان وجميع الدول العربية، واعتقدت الدول أن مراسلاتها آمنة ومشفرة، لتنفجر الفضيحة سنة 2020 بأن كريبتو كانت تعمل بتنسيق مع المخابرات الأمريكية التي كانت تطلع على مضامين الرسائل المشفرة وتزود الموساد بكل ما يتعلق بالشرق الأوسط.

ولجأ الموساد إلى إنشاء شركات في عدد من مناطق العالم أوهمت دولاً وهيئات وخبراء بأنها توفر السرية في الاتصالات.. فضلاً عن ذلك أن الاحتلال يعد من اللاعبين الرئيسيين المتلاعبين في برامج الاتصال وبرامج التشفير مثل VPN التي أصبحت ضرورية لحماية البيانات في شبكة الإنترنت، وكذلك الشركات التي تقدم خدمات البريد الإلكتروني الآمن.

ويسعى الاحتلال للسيطرة على برامج مواقع التواصل، وقام عميل لوحدة الاستخبارات العسكرية التابعة للاحتلال، بإنشاء برنامج فايبر، الذي استخدم على نطاق واسع في العالم من قبل تطبيقي واتساب وتليغرام.

وبعد تحذيرات عالمية كبيرة، من فايبر، بسبب تجسسه وارتباطه بالاحتلال، وتخلي الكثير من دول العالم عنه، فقد لجأت الاستخبارات الإسرائيلية إلى تطبيقات أكثر تطورا مثل بيغاسوس، لاختراق هواتف رؤساء دول وحكومات وصحفيين وحقوقيين وقيادات عسكرية. [وقد وصفت صحيفة "الغارديان" البريطانية برنامج "بيغاسوس" بأنه "أقوى برنامج تجسّس تمّ تطويره على الإطلاق من قبل شركة خاصّة طوّرته شركة "إن إس أو" الإسرائيلية، وسوّقت له ومنحت رخصة استخدامه لعدد من الحكومات في جميع أنحاء العالم.

وأنه بمجرد أن يتسلّل إلى هاتفك، يتحوّل إلى جهاز مراقبة يعمل على مدار 24 ساعة. يُمكنه نسخ الرسائل التي ترسلها أو تتلقّاها، وجمع صورك وتسجيل مكالماتك. كما تكمن مخاطره في أنه يستطيع تصويرك سرًا من خلال كاميرا هاتفك، أو يُشغّل الميكروفون لتسجيل محادثاتك. كما يمكنه تحديد مكانك الحالي، والمكان الذي كنت فيه، والأشخاص الذين قابلتهم. ويستطيع البرنامج اختراق مليارات الهواتف التي تعمل بأنظمة تشغيل "IOS" و"Android"]

وإلى وقت قريب كان تطبيق "تليغرام" يتمتع بتشفير عالي المستوى وآمن، حيث يعتقد أنه هو الوحيد الذي لا تستطيع المخابرات الغربية الوصول إلى مضمونه، عكس الأخرى الأمريكية مثل سينيال وواتساب، حيث توجد اتفاقيات سرية بين هذه الشركات والاستخبارات الغربية، للتعاون تحت مسميات شتى."[1]

(1) [موقع عربي 21]

وحتى تطبيق "تليغرام" ـ الذي كان يُعتبر هو الأفضل ـ أخيراً وافق على اتفاقية لإتاحة أرقام الهواتف، ومعرف الإنترنت IP في حال طلبت الحكومات ذلك، إضافة إلى تعاونه مع بعض الدول العربية لمراقبة محتوى المجموعات عليه.

ونذكر ذلك من أجل توخي الحذر، واليقظة الدائمة، وعدم الثقة المطلقة في مثل هذه الوسائل، واعتماد وسائل مبتكرة وجديدة، بحيث تضمن أكبر قدر من السلامة من التجسس. وهذا من أكبر التحديات التي لا مفر مواجهتها بتوطين وتصنيع التقنية محلياً، والاستغناء ـ قدر المستطاع ـ عن الاستيراد، ومراقبة عملية الحماية الإلكترونية وسلاسل التوريد بمنتهى الدقة والحذر، فالحرب الإلكترونية والتجسسية اليوم مع التفوق العسكري الجوي قد تحسم المعارك قبل أن تبدأ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

***

هذه إطلالة سريعة نهدف من خلالها:

ـ التنبيه على أهمية فهم أدوات التجسس الحالية.

ـ تشجيع الشباب المسلم على التوسع في دراسة علوم التجسس.

ـ الدعوة لتكوين النواة الصلبة لجهاز مخابرات حركة التغيير.

ـ حماية الشباب المسلم من الغفلة والدروشة، ودفعه لفهم واقعه.

ـ العمل وفق مبدأ "إنهم يتجسسون.. فلنعتبر ذلك ونستعد له".

وفي مكافحة التجسس لا نملك إلا أن نقول:

ـ اختيار البطانة من المؤمنين، ومن أصحاب الفضل والبيوتات الشريفة العريقة في العلم والإيمان.

ـ تجنب الطارئين والأجانب من الخدم ومدراء البيوت والعاملين، خاصة من غير المسلمين.

ـ تعليم الجند أساليب التجسس، والتجسس المضاد.. وحمايتهم بكفايتهم مادياً وتزوجيهم والاطمئنان لاستقرار زواجهم وسعادتهم به؛ حتى لا يتم ابتزازهم جنسياً، وتربيتهم تربية إيمانية خالصة على تقوى الله، وعظم الأمانة التي يحملونها.(1)

ـ تطوير شبكة اتصالات لا يمكن اختراقها، وحماية القادة من أن يقعوا ضحية للتجسس أو الاعتقال أو الاغتيال.

***

وأهم ما نختم به مقالتنا هو: إنه ورغم التطور التقني الهائل، ورغم شبكات العملاء على الأرض في كل مكان، ورغم الدعم المالي الذي لا ينضب، فلا يوجد جهاز مخابرات بلا أخطاء، وقصور، وضعف، واختلال، وفشل.

وإنه رغم الكيد الذي تزول منه الجبال، فإن الانتصار على كل هذا الباطل ممكن ـ بل هو وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ والمؤمن التقي لا يخاف منه ولا يُهمله بل يدفعه ويجاهده، ومتى شعر المسلمون بقوة إيمانهم بالله، وبقدرتهم على الفعل، والبدء في المحاولة.. سيجدون أن كل شيء بدأ بالمحاولة والتسديد والتقريب، والقيام من الفشل؛ للتعلم من التجربة، والاستفادة من الأخطاء، والتصحيح والتقويم المستمر، والكفاح الأبدي للتمكين لدين الله في الأرض.

***

(1) انظر ـ على سبيل المثال ـ كتاب: "التجنيد الاستخباري".

49- الخداع السياسي

يحترف الساسة ـ وأعوانهم ـ طرقاً متعددة للخداع السياسي، تقوم اليوم على دراسات، وتحليلات، ويقودها جيوش من المستشارين والمفكرين والأدباء والمحللين والأجهزة الأمنية ومراكز الأبحاث؛ من أجل صياغة الرسائل التي تخاطب الجماهير، والتي هدفها السيطرة على وعي الجماهير، وتوجيهها، وتحفيزها وتثبيطها عند رغبة الساسة، ومن هذه الوسائل "**التبني السياسي المخادع**".. وهي طريقة تقوم على تبني وتأييد مطالب جماهيري أو ديني أو حقوقي أو حتى ثوري! ثم صياغة الخطابات المحترفة لهذا المطلب، وخروج الساسة للحديث عنه.. ويُكتب الخطاب بصيغة دقيقة جداً، تراعي كل كلمة، وفي بعض الأحيان ـ في الخطابات الدينية ـ تظن أن الذي كتب هذه الخطابات هم صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من شدة إتقانها، وموضوعاتها، وهكذا في كل حالة "تبني"، ثم تأتي الآلة الإعلامية لتعيد وتكرر وتحلل وترسخ هذه الخطابات حتى يطمئن الجماهير لمطالبهم، وأنها أصبحت في أيدٍ أمينة!

ويصل الأمر في بعض الأحيان إلى افتتاح مشروعات وهمية من أجل إتمام عملية "التبني المُخادع" في صورة احترافية من الدجل الخالص! تجعل من الصعب على عموم الجماهير اكتشاف الدجل والخداع إلا بعد فوات الأوان.

وإذا أحببنا المضي في أغوار الخداع من بدايته نجد "الشيطان" يقف في أول الطريق يقود خطام القطعان البشرية التائهة، ولقد تعمدت ذكر "الشيطان" كبداية هنا؛ لأن الفكر السياسي العلماني ـ المادي يسخر من فكرة الغيبية، ويستنكرها أشد الإنكار، ويعتبر الحديث عنها حديث خرافة! لا تليق بالبحث العلمي! وتلك أكاذيبهم..

يحترف الشيطان ـ وهو خبير محترف بالنفس الإنسانية ـ عملية: (الإيحاء، والتزيين، والدعوة، والوسوسة)، وليس له أي سلطان على الإنسان سوى قدرته على خداع الإنسان بتزيين الأباطيل، وتحبيبه فيها، وإقناعه بها، وتهوين أمر الجريمة في نفسه، وإيجاد المسوغات لكل فعل مهما بلغ فحشه وجرمه.. وهو يوحي إلى "شياطين الإنس" من الساسة، ويساعدهم في عملية الدجل والخداع والإفساد؛ حتى لنجد "شياطين الإنس" تتفوق بمراحل على شياطين الجن، وترتكب أفظع الجرائم، والفواحش دون أن يرف لها جفن، أو حتى تشعر ـ ولو مجرد شعور عابر ـ بالذنب!

وقد خَدع الشيطان أبانا آدم ـ عليه السلام ـ وصوّر له معصية الله على أنها "الخلود، والمُلك الذي لا يَبلى": ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: 120]، وجاءه الشيطان في صورة الناصح الأمين، بينما كان هو العدو المبين: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21] فكانت بداية الإنسانية مع عدوها بداية "الخداع والدجل"!

***

ومن أهم أساليب الخداع هو تسمية الأشياء بغير مسمياتها، في حرب لاحتكار المصطلحات، بحيث تظهر الجريمة والفاحشة كأنها هي البراءة والطهر، ويظهر الإفساد في الأرض على أنه هو الإصلاح!

وإذا أخذنا أمثلة من القرآن الكريم:

* **نجد فرعون** ـ الذي زعم أنه الرب الأعلى لقومه ـ يقول عن رسول الله موسى ـ عليه السلام ـ وهو من أولي العزم من الرسول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: 26] فهنا يستخدم فرعون ـ وملؤه ـ نفس التعبيرات التي يقول بها الصالحون والأتقياء الذين يخافون على

الدين الحق، ويحاربون الإفساد في الأرض بحق؛ فيظهر الفرعون في قومه أنه الحريص على الدين، المحارب للإفساد في الأرض.. فلا يظهر لهم بصورة المفسد، وبالطبع لا يقول لهم إنني ضد الدين الحق، ومحب للإفساد في الأرض. ويكأنهم يحاولون مصادرة واحتواء وتبني مفردات "خطاب الحق" حتى يقطعون الطريق على أي استجابة من الجماهير، ويجعلون الجماهير تظن أن دعاة الحق لا يملكون شيئاً جديداً، ولا يدعون لأمرٍ مختلف! وهذا من صور "التبني السياسي المخادع".

* **ونجد أهل النفاق** ـ الذي يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ـ يظنون في أنفسهم، توهماً وخدعاً للنفس، أنهم مصلحون، وحين تأتيهم الدعوة للنهي عن هذا الفساد يقولون إنهم هم "المصلحون" كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 11-12] في محاولة لخداع الله والذين آمنوا: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 9]

وجدير بالذكر أن الشيطان يوحي إليهم بالفعل أنهم "أهل الصلاح" حتى يقطع عليهم كل طريق للتوبة، ويتمادون في الإثم والعدوان إلى نهايته ـ وليس له نهاية ـ حتى ينسون حقيقة أنفسهم، وما عليها من فساد وإفساد؛ فيكون مصيرهم بما قدّمت أيديهم: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67]

فحذر القرآن الكريم أشد التحذير من هذه الحالة من الخداع؛ فقد أقسم المنافقون أنهم ما أرادوا إلا "الإحسان والتوفيق": ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: 62] وقد أقاموا مسجداً زعموا أنه لذكر الله! ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 107] فالمنافقون والفراعنة يزعمون دوماً أنهم: أهل الإحسان والتوفيق والخير وحفظ الدين، ومنع الفساد، ومحاربة أهل الشر، والتمسك بالطريقة المُثلى، والحفاظ على الدولة والشرعية... إلخ؛ ويجب على المسلم أن يَستبين سُبل المجرمين في المكر والدجل والخداع.

* **وكشف الله ـ جل جلاله ـ عن طريقة بعض أهل الكتاب في خداع المؤمنين..** وصلت إلى ادعاء بعض أهل الكتاب الإيمان بالله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكتابه، ثم بعد هذا الإيمان أول الأمر.. يكفرون آخره، وهذه الخديعة من أجل تشكيك المسلمين في دينهم، وردتهم عنه! حتى يظن المسلمون أن أهل الكتاب ليس لديهم أي مانع من الإيمان بدين الله، ولكنهم ـ ويا للأسف! ـ اكتشفوا زيف هذا الدين فكفروا به! قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: 72-73] وما زالت هذه الخدع مستمرة لكن تحت مسميات ووسائل مختلفة!

* **وحذر الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من "السِلم المخادعة"** حيث يطلب العدو السلم بينما يُبيت العدوان، فكان الجنوح للسلم مع إعداد القوة، وشدة اليقظة، والحذر من مخادعة العدو: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ. وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:60: 62]

* **ونجد اليهود والنصارى** يزعمون أنهم ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18] وهذا الزعم هو أشد ما غر أهل الكتاب في دينهم، ودفعهم لارتكاب كل المحرمات والفواحش

بزعم أن الله يحبهم محبة خاصة، وعلى اتصال روحي وجسدي معه! وإنه إن عذبهم ببعض ذنوبهم فهم في النهاية من أهل الجنة: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: 18] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 24-25]

ومركزية إفساد يهود في الأرض ـ رغم زعمهم التدين والإيمان! ـ قائم على هذا الغرور والخداع بأنهم أبناء الرب، وشعبه المختار! وأن الله ـ تعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ يُحابيهم محاباة خاصة، ويؤدبهم تأديباً خفيفاً.. لكنهم في النهاية أبناؤه وورثة أرضه وجنته! هذا التبني المخادع والزعم الباطل جعلهم يتمادون في الإجرام والإفساد إلى غير نهاية!

***

وإذا أخذنا أمثلة من الحضارة الغربية:

نجد أن الغرب يُجيد لعبة "الحقوق والديمقراطية" مع الدول الضعيفة، ويزعم الغرب لنفسه أنه "العالم الحر" الذي يدعم حقوق الإنسان، وحقوق الشعوب في تقرير المصير.. ويروج لنفسه جيداً من خلال: الإعلام، والتغرير ببعض الشباب المنبهر بالغرب المنتصر ليكونوا صوته المعبر عنه، وصناعة الأيقونات المحلية التي تصبح مادة إعلامية، وترويج الدفاع عن مظلومية الشعوب، والترحيب بالرأي والرأي الآخر، والتحضر في التعامل والفكر وإنصاف المظلوم، وتنطلي هذه الخديعة على الشباب الصغير، وينجذب إليها بعض الكُتاب والصحفيين مخدوعين أو منتهزين! بينما الغرب هو أستاذ التوحش والإبادة الجماعية وسرقة الشعوب الضعيفة، واحتلالها واستغلالها من كل طريق، واستباحتها بكل وسيلة، ويملك قدراً لا مثيل له من الوقاحة والخسة والدناءة ليظهر ـ بعد كل هذه الجرائم ـ بأنه

العادل المتحضر الحر الديمقراطي! ويحب أن يظهر بأنه يدعو إلى الديمقراطية في مقابل الديكتاتورية، والحرية في مقابل الاستبداد، والتقدم في مقابل التخلف..

ولا يعرف الشباب الصغير ـ أو لا يريد أن يعرف ـ التاريخ والحاضر الأسود للسياسات الغربية تجاه الشعوب الضعيفة، وكيف ينظر إليها حقاً؟ ولا نقول هذا الكلام للانتصار للاستبداد والظلم ـ والعياذ بالله ـ ولكن للحذر من خديعة الغرب الذي يجيد الترويج لنفسه ـ من كل طريق ـ من خلال الأفلام والإعلام والصحافة ومراكز الأبحاث والجامعات.

كما نجد أن الحضارة والثقافة الغربية تحاول احتكار كل مصطلحات الخير لأنفسها، ولصق مصطلحات الشر بغيرها، وتهمين على تعريفاتها وتطبيقاتها ومبادئها وأهدافها.. وتقدم أنفسها على أنها الأحق بالحياة والوجود، وتستبيح كل غيرها.

فكان مصطلح "**التنوير**" وهو تعبير جميل مأخوذ من "النور" يعني في الحضارة الغربية "الإلحاد وعبادة العلم المادي".. ومن يتكلم بالدين فهو من ثم "ظلامي".

ومصطلح "**التقدمية**" وهو تعبير يوحي بالتقدم للأمام، والحركة ومخالفة النمط المألوف، ولكن يعني ـ في المنظور اليساري ـ التنكب والتنكر للدين والقيم والأخلاق المحافظة، ومن يتكلم بذلك فهو "رجعي".

ومصطلح "**الليبرالية**" وهو تعبير عن الحرية، وحرية التملك والحركة، ولكنه في الواقع يعني استعباد رأس المال والشركات الكبرى لثروات الناس ومقدراتها، وسيطرة الأمم القوية على الأمم الضعيفة.

ومصطلح "**الاشتراكية**" وهو تعبير عظيم عن التضامن والتكافل الاجتماعي، ولكنه في الواقع إن نجح في تحقيق تلك الاشتراكية، فإنه يدعو الناس من جانب آخر إلى الإلحاد والإباحية!

ومصطلح "**الديمقراطية**" وهو تعبير هام عن إرادة الشعب، ورغباته، ورضاه، ولكنه في الواقع يستخدم في إقرار الباطل، وترسيخ العلمانية والتعبير عنها، والجمع بين آليات الديمقراطية وفلسفتها العلمانية الراسخة، مع تخصيصها لبعض الأجناس والألوان دون غيرهم، وخداع الناس بالدعوة إليها.

ومصطلح "**الأرض الجديدة**" وهو تعبير عن السير في الأرض، واكتشافها، ولكنه في الواقع كان يعني إبادة السكان الأصليين، وسرقة أرضهم ومقدراتهم، واحتلال الأرض ومن عليها.

ومصطلح "**حقوق الإنسان**" وهو تعبير جميل للدفاع عن الحقوق، واحترام الإنسانية وتكريمها، ولكنه في الواقع نجده دفاعاً عن الشذوذ والإلحاد والإباحية، ودعوة تُستغل سياسياً من أجل التحارب السياسي بين الدول، ونجد الدول الغربية التي تدعو إلى حقوق الإنسان تطلق يدها بالإبادة الجماعية ـ وتباركها ـ دون أن تشعر بأي تناقض بين قولها وفعلها.

ومصطلح "**حقوق المرأة**" وهو تعبير راق عن احترام المرأة وحقوقها، ولكنه في الواقع نجده دفاعاً عن "حرية المرأة الجنسية" وخروجها من قوامة العائلة والأسرة، وتمكين المرأة ما هو إلا دعوة لها للاستقلال المادي كمقدمة للاستقلال الجنسي.

ومصطلح "**حرية التعبير**" وهو حق إنساني مطلوب، نجده في الواقع حرية الطعن في الإسلام، وإهانة كتاب الله، ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون غيره من الأديان(1)، ونجد أنه يُستخدم على وجه الخصوص ضد الإسلام.

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "كتاب الله وأمانة الأمة المسلمة".

ومصطلح "**محاربة الإرهاب**" وهو تعبير عن المضي في تحقيق الأمن، والسلام.. ولكن في الواقع نجده يعني "الحرب على الإسلام" واحتكار مصطلح "الإرهاب" ليكون حصراً للإسلام، بحيث إذا ذُكر الإرهاب، فإنه يعني الإسلام حصراً.

هذه المصطلحات تحمل حمولة كبيرة، وصورة نمطية متكاملة يرسمها الإعلام، والسينما، والمسرح، والأدب... إلخ، بحيث لا تصبح مجرد تعبيرات سياسية فلسفية مرجعيتها المعاجم وكتب السياسة، بل صورة نمطية عامة، تتشكل في وعي الجماهير من خلال أدوات التأثير، بحيث إذا ذُكرت.. جاءت بكل حمولتها، ونمطها.

وهكذا نجد المصطلحات بصورتها المجردة لا بأس بها، بل إنها جميلة ومعبرة ومطلوبة، ف (التنوير، والتقدمية، والليبرالية، والاشتراكية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وحرية التعبير، ومحاربة الإرهاب... إلخ) كلها مطالب إنسانية عامة.. ولكن عندما ننظر في صورها الواقعية وتطبيقاتها نجدها كلها حالات "إفساد في الأرض"! وعندما ننظر في فلسفتها نجدها "المادية والإلحاد". ولا بد من أن نتوقع الضلال والشقاء من ورائها؛ لأن كل فكرة وحركة وتطبيق مبتور الصلة بالله فهو محكوم عليه بالطغيان والإفساد، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ [العلق:6] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 123-124]

***

وإذا أخذنا أمثلة من بلادنا الإسلامية:

فنجد محاولة أئمة النفاق الزعم بالإصلاح، بينما هم يفسدون الدنيا والدين، فمثلاً:

* **يقول رئيس مصر ـ في فترة الخمسينيات والستينيات ـ جمال عبد الناصر:** "إنَّ الدين هو دين العدالة ودين المساواة، الدين ضد الظلم الاجتماعي، الدين ضد الاستغلال بكل معانيه، الدين الإسلامي كان أول ثورة وضعت (المبادئ الاشتراكية)، الخاصة بالعدالة والمساواة... والدين ليس فقط الصدقة، فالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يعتبر الأموال ملكاً للمسلمين جميعاً، وليست ملكاً للملك ـ مثلما يفعل ملك السعودية ـ فهذا تزييف للدين، فالدين ضد هذا؛ فالأموال ملك للشعب كله، وعوائد البترول ملك للشعب كله، وليست ملكاً للملك فقط، سرقوا الشعارات.. زيفوها، على أساس أن يخدعوا الناس، وقد هاجمونا دون داعٍ؛ لأننا أعلنا الاشتراكية والعدالة في بلدنا، وكانوا في هذا يدافعون عن أوضاعهم التي يعلمون أنها منافية للدين، ومنافية للعدل، ومنافية لشريعة الله، ومنافية لكل أماني الشعوب"[1]

ولعل البعض يتعجب من حديث عبد الناصر هذا، ولكن لا عجب فالطغاة ـ في كل جيل وقبيل ـ أفضل ما يجيدونه هو "الدجل، والخطابة، وخداع الجماهير"، وإن هذه الكلمات عندما تسمعها الجماهير فإنها تطرب لها، وتُتيم بها، وقد ظل تأثير عبد الناصر على كثير من الناس، حتى بعد هزائمه وفشله في تحقيق مشروعه، وحتى بعد وفاته!

يقول شيخ الأزهر الحالي د. أحمد الطيب: "أول نظام تضعضع فيه الأزهر هو "نظام عبد الناصر"، والمد الاشتراكي، فماذا نتوقع من نظام ارتمى في أحضان "الاتحاد السوفيتي" في ذلك الوقت؟! وكانت الكتب الاشتراكية تُباع هنا، ونظرية ماركس ـ والدين أفيون الشعوب ـ بقروش، [كتاب من القاطع الكبير بسعر زهيد لترويج الشيوعية] ونقرأ النظريات... إلخ، ماذا نتوقع من نظام مرتمٍ في حضن "منكر للدين" إلا أن هذا الأزهر لا بد من تحجيمه".[2]

(1) [الرئيس جمال عبد الناصر، حوار مرئي متلفز]

(2) [لقاء متلفز مع قناة العربية]

وحتى نحمي أنفسنا من "الدجل وتزييف الوعي" واستخدام "العاطفة الدينية" في خداعنا، يجب أن نقيس الأمور بـ (الأفعال) لا (الأقوال) فأفعال عبد الناصر من ناحية الدين؛ أنه مَكن الشيوعيين من مراكز الصحافة والإعلام والجامعات والمعاهد، والثقافة والفن والتوجيه ـ في عصره ـ حتى نشروا الفجور والفساد، وفي عهده الأسود شهدت مصر موجة فظيعة من الإلحاد والإباحية ـ لم يسبق لها مثيل ـ ومحاربة للإسلام والدعاة بصورة متوحشة؛ حتى أن جنده هم الذين حرّقوا المصاحف في السجون وقتلوا وعذبوا أولياء الله..

ومَكن أصدقاءه من ثروات مصر، فسرقوها واستأثروا بها لأنفسهم أكثر من الملوك! وعثوا في الأرض فساداً ـ وإن أعطى للفلاحين والعمال بعض الحقوق، ودمر في المقابل الاقتصاد الوطني وشرد الأسر الكريمة باسم محاربة الإقطاع! ـ فلم تتحقق العدالة الاجتماعية، ولم تُقام الشريعة الإسلامية، وبثت أجهزته العسكرية الرعب في قلوب الشعب، ودمروا الشخصية المصرية، وأفسدوا الجيش ومَكنوا ـ بفسادهم وانحرافاتهم ـ العدو اليهودي من بلادنا، وزرعوا في قلوب الشعب الخوف حتى النخاع باسم "الثورة الاشتراكية" فكانت منافية للدين، والعدل، وشريعة الله، وأماني الشعوب، وما زالت لعنته مستمرة حتى اليوم في ظل نظام عسكري مجرم مُستعبِد للشعب المصري.(1)

***

* **ورئيس مصر الحالي** ـ والذي يحب أن يستشهد ببعض الآيات القرآنية في حديثه ـ يقول عن نفسه: "﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 81] ونحن إن شاء الله من المصلحين!" بينما يشهد عصره موجه من الإفساد غير مسبوقة، وتدمير مقومات الدولة

(1) راجع تقرير: "وسائل العلمانية في محاربة الحركة الإسلامية (الناصرية نموذجاً)".

(عن عمد)، ويحارب الدعاة إلى الله بصورة متوحشة أيضاً، ويُوالي اليهود المعتدين موالاة ظاهرة لا لبس فيها.(1)

فليس كل من يُحدثنا عن الله، والدين، والشريعة.. نُصدقه، ونُسلّم له، فلعله منافق عليم اللسان، أو إمام مُضل، ولعله انتحال المبطلين، أو تأويل الجاهلين، أو تحريف الغالين، أو توظيف الدين لإبطال الحق، وإحقاق الباطل! أو محاربة أولياء الله بزعم أنهم أعداء الله!! وكم خُدعنا، وكم استُخف بنا! وكم استغل الطغاة قابلية الشعوب للغوغائية، وهي: (استراتيجية إقناع الجماهير بالعواطف والشعارات والأقوال، والمخاوف، والوعود الكاذبة، وتملق الشعوب، والأماني دون الأفعال)!

***

* **وفي الحملة الصليبية الفرنسية على مصر**، "أعلن نابليون وبعض رجاله اعتناقهم للإسلام واحترام تعاليمه وزواجهم من مسلمات كي يتخذوا من ذلك ذريعة للتقرب للعوام أملاً في الاستقرار، وقد بدا ذلك واضحاً في المنشور الأول الذي أعلنه نابليون على شعب مصر حيث ذكر: (أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت لهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمغترين إنني ما قصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله - سبحانه وتعالى - وأحترم نبيه والقرآن العظيم"(2)

بينما الحقيقة التي عاشها المصريون أن نابليون ضرب الجامع الأزهر بالمدافع، ودخلوه بخيولهم، وقتلوا العلماء والمصالحين، والأبرياء، وأبدوا قرى بأكملها، وأرادوا استعباد الشعب المصري، وسلخه من دينه وهويته، وإفساد أخلاقه، وسرقة ثرواته ومقدراته.

---

(1) [انظر مقالات: "التحليل النفسي لرئيس مصر"، و"الجاسوس الذي حكم مصر"، و"مجزرة رابعة"، وبحث: "الأمن القومي المصري من منظور نظام السيسي"، م. أحمد مولانا].

(2) [الدولة العثمانية، د. علي الصلابي، ص 328]

* **وفي خطة بريطانيا لتقسيم العالم الإسلامي** بعد الحرب العالمية الأولى، جاء في تقرير مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية بالقاهرة عام 1916م يقول: "أهدافنا الآنية هي تفتيت الكتلة الإسلامية، ودحر الإمبراطورية العثمانية وتمزيقها... إن العرب هم أقل استقراراً من الأتراك، وإذا عولج أمرهم بصورة صحيحة فإنهم يبقون في حالة من الفسيفساء السياسية، مجموعة دويلات صغيرة يغار بعضها من بعض، غير قادرة على التماسك... وبذلك سنكون قد ألغينا خطر الإسلام، بجعله منقسماً على نفسه في داخله"(1)

بينما كانت بريطانيا ـ في نفس الوقت ـ تَعِد الشريف حسين بالخلافة العربية، فجاء في رسائلها إليه: «(من نائب ملك الإنكليز بمصر إلى أمير مكة في شأن الثورة الحجازية) (في 19 شوال سنة 1333 هـ الموافق 30 أغسطس سنة 1915 م)

كتاب من السر آرثر مكماهون نائب ملك الإنكليز بمصر إلى السيد الحسيب النسيب، سلالة الأشراف، وتاج الفخار، وفرع الشجرة المحمدية، والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع، والمكانة السامية السيد ابن السيد، والشريف ابن الشريف، السيد الجليل المبجل الشريف حسين، سيد الجميع، أمير مكة المكرمة، قبلة العالمين، ومحط رحال المؤمنين الطائعين، عمت بركته الناس أجمعين! .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة، والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة - نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص وشريف الشعور والإحساسات نحو الإنكليز، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأي واحد، وأن مصالح العرب هي نفس مصالح الإنكليز، والعكس بالعكس؛ ولهذه النية، فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التي وصلت إلى سيادتكم عن يد علي

(1) [موسوعة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، ج2، ص 119]

أفندي وهي التي كان موضحًا بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها، مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها، وإننا نصرح هنا ـ مرة أخرى ـ أن جلالة ملك بريطانيا العظمى رحب باسترداد الخلافة إلى عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة.

وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تُظهر أنها سابقة لأوانها، وتصرف الأوقات سُدى في مثل هذه التفاصيل؛ في حالة أن الحرب دائرة رحاها؛ ولأن الأتراك لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالاً فعليًّا، وعلى الأخص ما علمناه ـ وهو مما يدهش ويحزن ـ أن فريقًا من العرب القاطنين بتلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها، وبدل إقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة إلى الألمان والأتراك!

نعم، مد يد المساعدة لذلك السلاب النَّهاب الجديد وهو الألمان، وذلك الظالم العَسوف وهو الأتراك، ومع ذلك فإنَّا على كمال الاستعداد لأن نرسل إلى ساحة دولة السيد الجليل ما للبلاد العربية المقدسة، والعرب الكرام ـ من الحبوب والصداقات المقررة من البلاد المصرية، وستصل بمجرد إشارة سيادتكم، وفي المكان الذي تعينونه، وقد عملنا الترتيبات اللازمة لمساعدة رسولكم في جميع سفراته إلينا، ونحن على الدوام معكم قلبًا وقالبًا، مستنشقين رائحة مودتكم الذكية، ومستوثقين بعُرى محبتكم الخالصة، سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا»[1]

فسبحان الله! على هذا المكر الشيطاني الإنجليزي، وتبييت الخداع والخيانة التي تجري في دمائهم مجرى الدم من العروق.

فماذا بعد وعد الخلافة العربية؟!

(1) [«مجلة المنار» (23/ 612) بترقيم الشاملة)]

كانت "سايكس ـ بيكو" وتفتيت العالم العربي والإسلامي وما تلاه من أهوال، وضعف، وتشتت، وتسلط الخونة والمنافقين على حكم الأمة المسلمة، وضياع فلسطين والقدس، وقيام دولة يهود، وتخلّف الأمة على كل الأصعدة، ودخلت القرن العشرين بجاهلية وتبعية مذلة.

***

* **وهذا مصطفى كمال أتاتورك** (إمام الخائنين والملحدين)[1]، يقول د. إحسان حقي عنه: "وكما أن الغربيين قد نجحوا في مخططهم وجعلوا العالم الإسلامي كله يسير نخوراً بضع سنوات وراء الثورة الكمالية، فقد استغل مصطفى كمال عواطف المسلمين وأموالهم إلى أبعد حدود الاستغلال، وكسا ثورته لباساً إسلامياً، سواء بأحاديثه وتصريحاته وخطبه أو بمعاملته لزعماء المسلمين، فمن ذلك أنه استعان بالزعيم الليبي الشهير أحمد السنوسي وجعله مستشاراً له، وكان يبرق إليه، كما قال لي صديقي الأمير شكيب أرسلان، إذا أراد شن هجوم على مكان ما قائلاً: إننا ننوي الهجوم غداً أو بعد غدٍ على مكان ما، فاقرؤوا البخاري الشريف على نية النجاح والتوفيق، واستغل أيضاً أعمال وأقوال جمعية الخلافة الهندية التي قامت برعاية الأخوين شوكت علي ومحمد علي، واستغل الشعراء فمدحوه، والأدباء فأثنوا عليه، ومشايخ الطرق فرفعوه إلى مقام الولاية.

كان مصطفى كمال يبطن غير ما يظهر وينوي أن يفعل غير ما يقول، إذ أنه ما كاد ينتصر نهائياً ويطمئن إلى مصيره، حتى ألغى الخلافة وطرد الخليفة من البلاد وطرد السيد أحمد السنوسي، وتنكر لكل القيم الإسلامية وسار بسيرة ليس فيها أي مصلحة للإسلام ولا للمسلمين، لا بل ليس فيها أية مصلحة لتركيا نفسها، فها هي تركيا بعد مضي ستين سنة

(1) انظر: كتاب "الرجل الصنم".

على هذه الثورة، ما زالت بلداً نامياً ضعيفاً، لا حول له ولا طول، فالحركة العلمية فيها ضعيفة، والأمية سائدة، والحياة الاجتماعية متأخرة والحالة الاقتصادية في الحضيض...

خرج مصطفى كمال من ثورته منصوراً يكلل هامته تاج الغز والفخار لأنه أعاد إلى تركيا حياتها واستقلالها، وقد تقبل نصف العالم الإسلامي هذا النصر بسرور عظيم لأنهم خدعوا بظاهره، وهذا النصف هو النصف الجاهل أو الغبي أو الذي لا يعرف من الأمور إلا ظاهرها، وأما النصف الآخر العاقل المفكر الذي ينظر إلى خلفيات الأمور بمنظار الحقيقة فقد أدرك مدى الكارثة التي حلت بالعالم الإسلامي كله وليس بتركيا وحدها، لقد أشغل مصطفى كمال المسلمين بأمور جانبية تافهة أرضى بها الشبان التواقين إلى الأخذ بالمظاهر وأخذ المعول وهدم الكيان التركي من جذوره، وإذا جاز لنا أن نسمي ما قام به مصطفى كمال ثورة فهي ثورة ـ ولا شك ـ على الدين وعلى الثقافة وعلى التاريخ وعلى العالم الإسلامي عامة والأمة التركية بصورة خاصة... إن ما فعله مصطفى كمال كان في مصلحة الغرب وليس في مصلحة تركيا ولا في مصلحة الشعب التركي...

لهذا دعم الغرب الثورة الكمالية، حيث رأت هذه الدول وعلى رأسها إنكلترا وفرنسا، أن بقاء تركية دولة صغيرة غير إسلامية يضمن لها مصالحها أكثر مما لو استولت عليها واستعمرتها كما فعلت بالبلاد العربية لأنها ستبقى حاجزاً بين العالم الحر وبين روسيا"(1)

ويقول هذا الدجال الكبير "أتاتورك" في الخطبة الأولى التي ألقاها في مجلس الأمة:

"لكون مقام السلطة مقام الخلافة في الوقت نفسه، فإن سلطاننا هو رئيس جمهور المسلمين. إن الغاية الأولى لجهادنا لا تستهدف الفصل بين مقام السلطة ومقام الخلافة،

---

(1) [كتاب: تاريخ الدولة العلية العثمانية للأستاذ محمد فريد بك، تحقيق الدكتور إحسان حقي، دار النفائس ص 754 وما بعدها. والنص لإحسان حقي في ملاحق الكتاب]

بل تستهدف الإعلان للأعداء بأن إرادة الأمة ضد هذا الفصل، وتستهدف تخليص هذه المقامات المقدسة من الأسر الأجنبي لإنقاذ صلاحيات أولي الأمر من ضغط أعدائنا"!

وهو القائل أيضاً: "لقد استقر الرأي على تشكيل الحزب الشيوعي التركي ـ ضمن رقابة الحكومة ـ من بعض الأصدقاء والموثوقين وذلك كتدبير طبيعي ومعقول، وبهذا يمكن إرجاع كل التيارات المتعلقة بهذه الأفكار إلى مرجع واحد. وقد رأيت من المناسب أن يدخل سراً إلى جماعة المؤسسين للحزب وإلى الهيئة المركزية بعض رفاقنا الموثوقين"[1]

كما استغلت جمعية "الاتحاد والترقي العلمانية القومية[2]" الدين من أجل الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني، والتلاعب بعاطفة الجماهير، فقالت:

"أيها العثمانيون: إن مقصدنا هو سلامة الدولة والخلافة، ولم يعد أحد يجهل هذا... أيها المسلمون: كفانا أن نقوم بدور المتفرج على سلطان جبار، عديم الإيمان، يسحق آيات القرآن تحت أقدامه، وكذلك يسحق الضمير والإيمان، استيقظوا يا أمة محمد... أيها المسلم الموحد اقرأ باسم ربك، وانهض أيها المسلم الموحد وانقذ دينك، وإيمانك من يد الظالمين.

وانقذ بذلك نفسك! فهنا شيطان جبار يحمل فوق رأسه تاجاً. وفي يده دينك وإيمانك. فانقذ دينك منه وإيمانك أيها الموحد، يا أيها المسلمون: إن السلطان عبد الحميد ـ شرعاً ـ ليس بسلطان، ولا خليفة! ومن لا يصدق قولنا هذا: فلينظر في الكتاب والسنة.

لقد أبرزت جمعيتنا بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأوامر الله وأوامر الرسول الموجهة إلى الحكومة والأهالي. لكن السلطان عبد الحميد، أشاح بوجهه بعيداً عن أوامر الله، وأوامر الرسول.

(1) [الرجل الصنم، ص 115، ص 128]

(2) وكانت على علاقة وثيقة مع اليهود والماسون، وتلقت دعماً كبيراً منهم! وكثير من أعضاءها يهود الأصل. انظر كتاب: "حقيقة يهود الدونمة في تركيا" د. هدى درويش.

وبالتالي: أثبت ظلمه ولم يخجل من الاعتراض على الله؛ لذلك ينبغي على شعبنا، أن يلجأ إلى السلاح ضده وإذا لم يفعل الشعب هذا، فليتحمل إذاً وزر ما عليه السلطان عبد الحميد من ظلم"[1]

ولم يحارب أحد الدين في تركيا مثلما حاربه الأتاتوركيون والاتحاد والترقي.[2]

ويقول السلطان عبد الحميد الثاني آخر سلاطين الدولة العثمانية: "ومن دواعي الأسف أن هؤلاء الشباب [يقصد الاتحاد والترقي] منقادون لما يُدبره بعض المتآمرين من الرجال المغرورين أنهم يُقدّمون شعارات براقة كتوعية الأمة وترقيتها بغية القضاء على النظام القائم وهدم ما بناه الأجداد طيلة قرون خلت، وفي الحقيقة إنهم يريدون الإطاحة برجال دولتي المجربين، وتولي زمام الأمور بأنفسهم؛ إنهم عصابة منافقة دنيئة تنكرت لدينها ووطنها وحالفت الصليبية العدوة في القضاء على أبناء جلدتنا وإخوتنا في الإسلام"[3]

وإننا لا ندافع ـ هكذا بإطلاق ـ عن "العثمانية" ضد "الأتاتوركية".. إنما نقول: إنَّ الملك العضوض (المتمثل في المرحلة التاريخية الممتدة من الدولة الأموية حتى الدولة العثمانية) الذي كان يحترم بالعموم الشريعة الإسلامية، ويدافع عن المسلمين ضد

---

(1) [الدولة العثمانية، د. علي الصلابي، ص 459]

(2) ومن الطريف قول أتاتورك لنساء مدينة أزمير لما رأى النساء هناك عاريات، "ووصلن بنمط ملبسهن بارتداء ملابس غير كافية، لا ترتديها النساء حتى في أكثر المراقص الأوروبية ليبرالية"، "حث النساء التركيات على عدم المغالاة في التعري، والمحافظة على احتشامهن وارتداء الملابس التي يمليها شرع الله، ويفرضها ديننا، وأن يتمسكن بكل سلوك فاضل" نقلاً عن كتاب: [نحو دارسة النوع في العلوم السياسية، ص 114] وهو كتاب قبيح يروج لدجل وخرافات وأباطيل النسوية وهوسها الجنوني! وينتقد مبحث الكتاب "البطريركية العلمانية" التي حلت محل "البطريركية الإسلامية"، وتقصير أتاتورك في إتمام علمانية النسوية على وجهها الكامل! فيبدو إن أتاتورك كان يخشى من المغالاة في العلمانية ـ في بعض الأحيان ـ خشية ردة الفعل، وهو نفسه بارك أول ملكة جمال لتركيا "كريمان خالص" بعدما ظهرت عارية في المسابقة! وأما خلفاء أتاتورك فقد أكملوا المهمة على أتم وجه، فشجعوا النساء هناك على التعري حتى صرن في تكشفهن أكثر فحشاً من نساء أوروبا! وحاربوا كل مظاهر الحجاب والاحتشام.

(3) [كتاب: مذكراتي السياسية ـ للسلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله (ص46)]

الأخطار الخارجية، ويحافظ على وحدتهم السياسية، هذا الملك العضوض أفضل ـ ولا شك ـ من الحكم الجبري والعلمانية وتفتيت وحدة المسلمين وتقسيم هويتهم وأرضهم وتسليم بلادهم لأعدى أعدائهم. مع إنكارنا لمظالم وبدع الملك العضوض.

والقدوة الحسنة الأبدية هي "سنة المصطفى" صلى الله عليه وسلم، وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعده.

والتآمر الخارجي لم يكن وحده السبب في سقوط الدولة العثمانية.. فالتآمر وحده لا يُسقط الدول، إنما السبب الرئيس في سقوطها هو أمراضها الداخلية..

إنَّ الرابطة الدينية المتينة والرابطة الأخوية الحقيقية وإشاعة الحق والعدل بين الناس جميعاً والقيام لله والشهادة بالقسط.. من شأنها أن ترفع من كرامة الناس، ومن إخلاصهم لله ورسوله.. وتُقوي بنيان الدولة والمجتمع أمام أي أخطار أو عدوان. وعندما يغيب كل ذلك يجد الناس أنفسهم أمام الغزو والتآمر الخارجي أنهم إنما يدافعون عن "مُلك السلطان" لا ملكهم.. وعن "دين الملك" لا "دين الله"، وعندها يتركون الدولة للسقوط!

***

وهذه أمثلة أخرى لمزيد من البيان:

* **بمصر في منتصف القرن العشرين** كانت أمريكا ترصد الحركات الشيوعية الاشتراكية.. وفي سبيل محاولاتها لفهم طبيعة وأنشطة وقادة هذه التنظيمات كانت تمول وتعمل على إنشاء التنظيمات الشيوعية وذلك لفهم طبيعة عملها ورصد القيادات الفاعلة فيها من أجل احتكار سوق التنظيمات السرية..

والأمر أشبه بعمل مزرعة للبكتريا للتكاثر ليتم التعرف عليها وتحديد المضاد المناسب لها. بل وكانت أمريكا تروج أيضاً للإسلام ـ في حدود معينة ـ لصد المد الشيوعي في مصر والشرق الأوسط![1]

وفي الستينيات كانت ”تركيا من مناطق النفوذ الأمريكي التي لا شك فيها. وفي وقت من الأوقات أحست أمريكا بوجود حركة إسلامية بدأت تظهر في وسط الشباب، فقامت بانقلاب عسكري لقمع الحركة الإسلامية، على عادتها في تكليف الانقلابات العسكرية هذه المهمة في المنطقة. ولكن الحرب القبرصية التي قامت سنة 1964 أشعلت الروح الإسلامية في الجيش ذاته! وذلك حين أحاطت الدبابات اليونانية بالقرى الإسلامية وحاصرتها، ومنعت عنها الطعام والماء والدواء، فانتشرت الأوبئة فيها، فتحرك الجيش التركي بروح إسلامية لصد الهجمات الصليبية!

عندئذ أسقط في يد أمريكا.. "فالعسكر" هم أداتها المفضلة لقمع الحركات الإسلامية. فإذا سرى الإسلام في الجيش ذاته فما العمل؟ عندئذ أصدرت أمريكا أوامرها للحكومة التركية بإطلاق نشاط الحزب الشيوعي التركي بعد أن كان محظور النشاط، لتستعين بالشيوعية لصد الإسلام!!“[2]

وتميز أمريكا ـ وكل قوى سائدة ـ بالرصد الدقيق للمعلومات وتحليلها وتتبعها والوصول إلى النتيجة المرجوة منها. وتحصيل كل قوة من أجل فرض إرادتها والاستفادة من كل فرصة، ومحاولة توظيف الجميع لخدمة مصالحها.

***

(1) انظر مقال: "إسلام أمريكاني".

(2) [واقعنا المعاصر، محمد قطب رحمه الله، ص 338]

* **نجح مكتب التحقيقات الفيدرالي** الأمريكي في تأسيس شركة تدعي بأنها تبيع هواتف أندرويد عالية الأمان والسرية. وهذه الشركة قد استهدفت الأشخاص والمنظمات الذين يهتمون أشد الاهتمام بالخصوصية والأمان، مثل المجرمين وعصابات المافيا.

وكانت الهواتف المباعة تتضمن تطبيقًا مثبت مسبقًا يسمى "Anom" روجت الشركة للتطبيق بأنه تطبيق مراسلة ودردشة آمن تمامًا ولا يمكن اختراقه، وبالتالي استخدمه المجرمون الذين اقتنوا هواتف الشركة.

وتمكن مكتب التحقيقات الفيدرالي من مشاهدة كل محادثة تمت عبر التطبيق. وكانت الشركة التي أسسها مكتب التحقيقات الفيدرالي تبيع الهواتف على أنها هواتف آمنة وتهتم بالخصوصية!

***

* **حَكى جاسوس يهودي** في مذكراته ـ "تحطمت الطائرات عند الفجر" ـ إبان حرب 1967 عن تسليحه لسلاح الجو المصري بأحدث الأسلحة، لمحاولة اختراق قيادات الجيش العليا ـ وبالفعل نجح في ذلك ـ وزعم أنه مسلم يريد خدمة إخوانه المسلمين!! ومع أنه قام ببيع وتسليح الجيش المصري بهذه الأسلحة، إلا أنه استطاع من جانب آخر (من خلال تجسسه وعلاقاته مع القيادات العليا) من التخطيط لضرب جميع هذه الأسلحة والطائرات وهي رابضة في أرض المطارات دون أن تُطلق قذيفة واحدة.. فكانت هزيمة 1967 التي دمرت الجيش المصري، وضيعت بلاد المسلمين.

ورغم أن هذا الجاسوس كان لديه كافة الخرائط العسكرية، ومخترق لكافة المستويات القيادية، إلا إنه لم يكن يستطيع شيئاً لو كانت القيادات أمينة مخلصة مؤمنة، ولكنها كانت على العكس تماماً في كل شيء، عارية من الصلاح، والشرف، والأمانة، والفضيلة، والدين، وحتى الوطنية.

وهذه صورة من المكر، والخديعة نضعها أمام حركات التغيير، وهي تتحرك في وسط حقول من الألغام والمكر، وإن أي غفلة ـ مهما كانت بسيطة ـ قد تُعرض الجميع لخطر الفناء والتدمير، وإن أي انحراف قد يؤدي إلى كارثة كبرى، وقد استغل هذا الجاسوس الانحراف الأخلاقي والديني وفساد هذه القيادات في تسهيل مهمته؛ فيجب الاستمساك باليقظة الدائمة والحذر الشديد من جانب، والاستقامة الأخلاقية والإخلاص لله من جانب آخر؛ حتى لا يجد العدو والشيطان منفذاً للجبهة الداخلية لحركة التغيير.

***

وبالعموم فالسياسة الجاهلية تكاد تكون عبارة عن فسيفساء من الدجل والكذب والخداع إلا قليلاً!

والسياسي المسلم ـ ومراكز صنع القرار ـ توالي أهمية كبرى للحماية من التجسس والاختراق لا سيما في عالم تتطور فيه التقنية بصورة مذهلة، الحماية من التجسس سواء التجسس التقني أو التجسس البشري أو الاختراق الفكري.. فكلها قد تفسد على المسلمين خططهم وحركتهم، وتكلفهم الكثير من التضحيات، فالوقاية خير من العلاج.

هذه الأمثلة ـ وغيرها ـ ليس الغرض منها أن يعيش المسلم في عالم من الشك، والهواجس، والإحساس الدائم بالمطاردة ـ كما يبالغ البعض! ـ كردة فعل على ما يسمعه، ولكن الغرض منها الكشف عن وسائل الخداع، والحذر المتوازن منها، بحيث لا تشل فاعلية المسلم أو حركته، فلا هو يتحرك بغفلة وسذاجة، ولا هو يعيش في هواجس أمنية.. ولكن يُقدر كل أمر بقدره، ويستعين بالله في كل أمره، ويتخذ بطانة من المؤمنين فقط، ويستشير دوماً أهل الخبرة المتخصصين في كل مجال، حتى يكون لديه المعلومات الصحيحة التي تمكنه من تجنب الوقوع في المكر والخديعة والأفخاخ..

وأحياناً كثيرة تروج بعض أجهزة المكر والإرهاب بأنها قادرة على كل شيء، وترى كل شيء، وتعرف كل شيء؛ حتى تقع الرهبة والرعب والانهزام في قلوب المستضعفين، ويشعرون بالعجز الشديد عن مواجهة كل هذه القوى، ولا تريد هذه الأجهزة أكثر من ذلك؛ لأن هذا الشعور يعني التسليم المخزي التام لها! فهناك من يروج لهذه الأمثلة من باب التعلم والاستفادة من التجارب والأخطاء، وهناك من يروج لها على أن العدو لا يمكن قهره، ولا جدوى من مقاومته.. فهناك فرق كبير بين الحذر واليقظة من العدو، وبين الخوف والرهبة منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]

***

ومن أحد أساليب الخداع "تلاعب العدو بالأخطاء، وتوظيفها":

فقد حاول المشركون ـ في عصر النبوة ـ هذا المسلك الخطير، فقد اتهموا المسلمين بقطع الأشجار، والإفساد، واتهموهم بالقتال عند المسجد الحرام عندما وقعت حادثة قتال هناك! وأقام المشركون الدنيا ولم يُقعدوها على الأخلاق المنتهكة، والحرمات الضائعة! وحاولوا إظهار أنفسهم بمظهر المدافع عن الحرم، وبمظهر المعترض على قطع الأشجار، من أجل خلخلة عقيدة المسلمين، فنزل القرآن الكريم حاسماً قاطعاً، قال تعالى:

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر (5)] لِينَةٍ: أي النخلة..

ويقول سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة (217)]

هذه اللعبة القديمة مكشوفة لأهل الحق، إن العدو يتصيد خطأ غير مقصود ـ أو وقع عمداً ـ ليجعله مدخلاً لتشويه الحق، وأهله، ومعايرتهم بذلك، وهز صورته، وتدمير عدالة قضيته، وإرباك موقفه، فيهتز أهل الحق، وينشغلوا بأنفسهم.. بينما من يبكي على الأخلاق، وعلى الحرم.. أشد منتهك للأخلاق، وللحقوق، ولكنه الخداع والدجل الذي يجيده أهل الباطل.

ولقد رأينا كثيراً من أجهزة مخابرات الأعداء، تجيد باحتراف هذا المسلك في توظيف الأخطاء، لتدمير المنظومة القيمية والأخلاقية لحركات التغيير.. وفي أحد التحقيقات الأمنية للتلاعب بعقول الشباب وتشكيكهم في عدالة قضيتهم وجهادهم، قالوا لهم: انظروا إلى من تتلقون منهم الدعم، إنهم يفعلون، ويفعلون، وهذا ثابت بالأدلة القاطعة، ثم يُلزمون من تلقى الدعم أنه يبارك هذه الأفعال القبيحة والمُشينة، ويرضى بها، ويربط ربطاً غير صحيح بين قبول الدعم، وبين جرائم الداعم التاريخية والحالية والمستقبلية!!

كأن أجهزة مخابرات العدو، تبكي ـ كما فعل المشركون ـ على الحقوق الضائعة، والأخلاق المُنتهكة، والدين الضائع، وتظهر للشباب بمظهر الرافض لهذا العدوان! والمؤيد للحقوق، وتُشكك في القيادات، وفي الأهداف، وفي شرعية وجدوى حركة التغيير.

كما يسعى العدو بطبيعة الحال إلى ضرب حركات التغيير ببعضها، وإبراز خلافاتها، وإشكالاتها العقدية والفلسفية والمذهبية والفقهية... إلخ، ولا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا نفخ فيها، ويريد أن يكون البأس بينها، لا عليه هو، وكثير من الطيبين يكونون وقوداً لهذا البأس، وينشرحوا صدراً للمعارك البينية، ويردد الطيبون البسطاء كلمات العدو، وينفذون خطته، ظناً منهم أنهم يدافعون عن الحق، بينما هم يؤدون خدمة عظيمة للعدو! ولو راجعوا وسائل إعلام العدو، وأدواته المحلية لوجدوا نفس الخطاب التشكيكي والتخذيلي! ويأتي التعصب والحسد والبغضاء والغفلة لتشعل وقود الصراع بيننا أكثر وأكثر، وإنَّ كشف هذه المسالك ذات أهمية قصوى في أي معركة مع العدو.

ولو تتبعنا أمثلة الخداع السياسي ـ وهو أمر جدير بالتتبع ـ لأخذ منا مجلدات كثيرة!

ونحن نضرب هذه الأمثلة حتى يعرف الشباب المسلم بعض تكتيكات الخداع، والسيطرة على العقول، وكيف يعمل الساسة، وكيف يفكرون؛ حتى لا ينخدعوا في الخطابات السياسية، التي تُكتب باحترافية عالية، ثم يتم تجميلها وتحسينها وترسيخها من خلال وسائل الإعلام وأدوات التأثير.

فالمسلم لا يُخدع، ولا يُستخف به، وهو كَيِّس فطن[1]، ثم ـ لا قدر الله ـ لو خُدع المسلمون فإن الضريبة تكون باهظة جداً.. تكون من دينهم وحياتهم وأمنهم، وثرواتهم؛ لذا فالحذر واليقظة والوعي ليس من نافلة القول، وليست رفاهية فكرية.

كما أن التوقيت مهم جداً، فالفهم والإدراك بعد تمكن أئمة النفاق، وسيطرتهم على مقاليد الحكم، يكون فهماً بعد فوات الأوان، وضياع الفرص، والدخول في الفتنة والعياذ بالله.

***

وللكشف بين الخداع السياسي، والصدق السياسي، أو بين الباطل والحق، يجب الانتباه لعدة أمور:

ـ **أفصح الكلام وأجمل البيان**: إنَّ المخادع السياسي يستطيع أن يقول خطابات أفصح وأجمل وأدق من أصحاب الصدق السياسي! وهذا من أشد صور الدجل.

---

(1) جاء في الأثر ـ ولا دليل على رفعه للنبي صلى الله عليه وسلم ـ والمعنى صحيح إن شاء الله: "الْمُؤْمِنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ وَقَّافٌ، مُتَثَبِّتٌ، عَالِمٌ وَرِعٌ، لا يَعْجَلُ، وَالْمُنَافِقُ هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ حُطَمَةٌ، لا يَقِفُ عِنْدَ شُبْهَةٍ، وَلا يَنْزِعُ عَنْ كُلِّ ذِي مَحْرَمٍ كَحَاطِبِ لَيْلٍ لا يُبَالِي مِنْ أَيْنَ كَسَبَ، وَفِي مَا أَنْفَقَ" [أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني/258]

ـ **صورة طبق الأصل**: إنَّ المخادع السياسي يحاول أن يكون على صورة مطابقة مزيفة من الحق، بحيث لا يستطيع أحد أن يميز الحق من الباطل، والصدق من الكذب.. لدرجة أن المخادع قد يُصدق نفسه في النهاية من شد إتقان التمثيل والخداع.

ـ **الواقع على الأرض**: إنَّ الميزان الحق في كشف الخداع هو "الواقع على الأرض"، والمخرجات الفعلية في الحياة.. وهذا يفرض على المسلم ـ إذا أراد كشف الحق من الباطل، والخداع من الصدق ـ المتابعة الواقعية الدقيقة، وتتبع الأمور إلى نهايتها.. دون التكاسل عن البحث عن الحقيقة بكل تجرد، ودون الاكتفاء بالسماع للخطابات السياسية فقد تكون مُضلة ضلالاً بعيداً، فلا يمكن تقييم الواقع على أساس هذه الخطابات فقط.

وإنَّ لكل قول حقيقة، ولا بد أن ننظر ونحكم بميزان "الوقائع والحقائق" لا ميزان "الادعاءات والمزاعم"، ولا بد بعد كل ذلك من حرية إبداء الرأي، وإنكار المنكر، والتمسك بالوعي الراشد، والتَبين والتمحيص، وتحقيق الشورى والتمثيل العادل لمكونات الأمة، ولا بد من "المحاسبة والمراقبة" حتى نضمن أننا نسير على الطريق الصحيح، ولا يخدعنا أحد أو ينحرف بنا عن الطريق.

ـ **أدوات القياس**: إنَّ أدوات القياس تطورت تطوراً كبيراً، ويجب أن يعرف المسلم كيف يستخدمها، فمثلاً: عندما يُقال لقد حققنا إنجازاً اقتصادياً كبيراً أو افتتحنا مشروعاً وطنياً عظيماً أو أتممنا برنامجاً شاملاً للتكافل اجتماعي.. فلا يُسلِّم المسلم هكذا لما يسمع، بل يطلب أولاً أن يعرف حجم الدخل، ومصارف الإنفاق، ومن أين أتت، وفيما صُرفت، ونسبة الصرف على كل بند، وبعد أن يتم كل ذلك يكون أيضاً على حذر ويقظة.

ـ **التاريخ**: لكن واقع سياسي امتداد تاريخي معين.. ومعرفة مخرجات وآثار هذا التاريخ توضح كثيراً من معالم الواقع السياسي الحالي أو على أقل تقدير تشير إلى خطوط عامة

عريضة له، فمثلاً: إذا كان الواقع السياسي الحالي هو امتداد لنظام عسكري، وكان تاريخ هذا النظام هو الإفساد والإجرام والانهزام واستعباد الشعب، فليس صعباً أن نعرف كيف سيكون امتداد الواقع السياسي الحالي وطبيعة رجاله.

ـ **التربية ومحاضنها**: فالإنسان ابن بيئته، ويتشكل وعيه وفكره وموازينه من خلال ما يتشرّبه من تربية نظرية وعملية، ومن ثم فالذي نشأ في محاضن فاسدة، أو لا ترجو لله وقاراً، أو لا تحترم دين الله وشعائره وشرائعه، أو لا تعبأ بدين أو خلق.. فليس صعباً أن نعرف كيف سيكون خريج هذه التربية، وماذا سيفعل إن تقلد مركز الحكم أو شارك في صناعة القرار.

ـ **الولاء لله ورسوله والذين آمنوا**: وهذا من أهم المعالم التي تكشف الخداع من الصدق، وتفضح الباطل.. حيث لا بد في عالم السياسة من "مجموعة من الولاءات" بعضها يكون خفياً، وبعضها يكون ظاهراً.. فالولاء للأعداء، أو التحالف معهم يكشف بعض صور الدجل السياسي، وقد يخطب السياسي خطاباً نارياً ضد العدو.. بينما هو في الواقع صديق حميم له، وعاجلاً أو آجلاً تظهر هذه الولاءات أو بعض آثارها، ومن المهم معرفة ذلك قبل فوات الأوان.

ـ **هدى الله**: إنَّ اتباع هدى الله هو سبيل الرشد، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101] قد يَضل المسلم أحياناً، ويسقط أحياناً أخرى ـ وهذه طبيعة بشرية ـ لكن المسلم سرعان ما يرجع ويندم ويتوب، ويعتذر ويستغفر ويقوم ويصحح، ويعمل صالحاً.. وهذا أيضاً صورة من اتباع الهدى.. بينما من يتبع الشيطان نجده يضل دوماً، ويُفسد أبداً، ويستكبر عن سماع الحق والخضوع له، ويتلاعب بالدين من أجل خداع الناس وتمرير الباطل، وفي كل موطن مخذول، وفي كل فعله يُضيق صدر المؤمنين، ويُشرح صدر المنافقين: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ

سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120]

***

والتربية السياسية الراشدة هي التي ـ بفضل الله ـ تعصم الشباب المسلم من الانخداع والاستغفال، وتجعله يكتشف التبني السياسي المزيف. والأجهزة والأدوات التي تكشف الخداع والكذب والدجل للمسلم هي:

ـ **تقوى الله**، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282]

ـ **الإخلاص لله**، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]

ـ **الحاسة القلبية**، التي تجعل المسلم لا يطمئن لشيء ما، حتى دون أن يعرف أبعاد خداعه بعد.

ـ **الحاسة العقلية**، وهي التي لا تُسلم لما تسمع بشكل كامل، فتجدها تطلب مزيد من الإيضاح والأدلة والبحث.

ـ **الحاسة الخبيرة والبصيرة**، وهي التي تسترجع المعلومات التاريخية، والحالية، لتحاول انتظام الصورة الصحيحة أمامها، وهي حاسة من عركته المحن والتجارب.

ـ **حاسة الميزان العادل**، وهي التي تبحث بتجرد لله، ولا تضع أي اعتبارات ذاتية أو غيرها.. فتجدها تتخلص من أوهاق تعيق النظر الصحيح.

ـ **فضيلة الصبر**، وهي التي تصبر على الاهتمام بشأن الإسلام والمسلمين، ولا تنقطع عن واقعها، فيغيب عنها كثير من الحقائق والأحوال.. فيسهل خداعها.

وهذا الخداع، وهذا الدجل ـ في عالم السياسة والواقع ـ ليس حالة فردية أو استثنائية؛ بل ظلمات بعضها فوق بعض، والعياذ بالله.. وإنَّ الاستجابة للخداع هو إحدى صور "الاستعباد الفكري" للجماهير، وإحدى أدوات السيطرة عليهم، ولا تحرر من هذا الخداع، ولا انكشاف للأباطيل إلا بنور الله:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 40]

***

50- بطانة الخيانة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118]

يَتولى الله ـ جل جلاله ـ بذاته العلية تحذير المؤمنين من بطانة الخيانة والسوء، ويأمرهم أمراً قاطعاً أن لا يتخذوا بطانة من دون المؤمنين؛ فلا يتخذوا المنافقين أو الكافرين بطانة لهم..

والبِطانة ـ بالمعنى السياسي ـ هي: دوائر الحكم، وصنع القرار، والمجلس التنفيذية والاستشارية والإدارية، وأجهزة الأمن والاستخبارات... إلخ.

فطبيعة المجتمع المؤمن الحق، وأهدافه، وخلقه، ومبادئه.. لا بد من أن تكون معاكسة لمجتمع النفاق والكفر؛ هذا المجتمع الذي يود الخبال والفتنة والانكسار والانهزام لمجتمع المؤمنين، يريد له الوقوع في الفتن والدسائس وأن يكون البأس بين المؤمنين.

فبطانة المجتمع المؤمن السياسية والأمنية والاقتصادية والثقافية ـ ودوائر صنع القرار بشكل عام ـ لا بد من أن تكون من المؤمنين؛ حتى يأمنوا الفتنة، ويحفظوا إيمانهم، ومجتمعهم، ونظامهم.

وعلى قدر الإيمان يتم طرد العناصر المنافقة من المجتمع المسلم، ولقد أطلق القرآن الكريم حملة شديدة عليهم؛ لتكشف طبائعهم، ونفوسهم، وأحوالهم؛ حتى تحذرهم الأمة المسلمة، وتظل في حالة من اليقظة الدائمة، والتحفز المستمر، ولا يكون ذلك إلا باتصالها الدائم بالله، وتعلقها الشديد بالإيمان، والعمل المستمر على إعلاء كلمة الله في الأرض.

أما بطانة الخيانة والسوء من الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين.. فقد ذاقت الأمة الويلات بسبب هذه البطانة التي كانت في أغلبها بطانة خائنة للأمة المسلمة، وتكيد لها.. وقد أدى اختراق بطانة السوء ـ من خلال السبايا والجواري والأطباء والأعوان ـ إلى تقويض الخلافة في مراحل كثيرة من التاريخ الإسلامي!

وقد كانوا سبباً من أسباب سقوط الدولة العثمانية، بعد التآمر الشديد عليها من بطانة السوء هذه، ومن أهم أسباب سقوط الدولة العثمانية أنها لم تستمع ولم تستجب لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: 118]

يقول الزعيم المصري مصطفى كامل في كتابه "المسألة الشرقية": "الدخلاء في الدولة العلية [العثمانية] داء عضال، وبلية لا تعادلها بلية؛ فإن الذين كانوا سبباً في هزيمة الدولة في حروب مختلفة هم الدخلاء، والذين ساعدوا الدسائس الأجنبية هم الدخلاء. فقد دخل في جسم الدولة العلية كثيرٌ من الأجانب نساءً ورجالاً، وغيروا أسماءهم بأسماء إسلامية، وعملوا على الارتقاء في المناصب حتى وصل بعضهم إلى أسماها، وصاروا من أقرب المقربين؛ فعرضوا بالدولة للدمار، وأطلعوا أعداءها على أسرارها، وقد انتشر الدخلاء في الزمن السالف إلى كل فروع الدولة العلية حتى في الجيش نفسه، وصارت لهم سلطة عظيمة ونفوذ كبير، وكنت تجد من وزراء الدولة العلية من يعمل لصالح روسيا مدعياً أن روسي السياسة، ومن يعمل لصالح إنكلترا مدعياً أن إنكليزي السياسة، ولكن ليس منهم من كان عثماني السياسة...

لقد رأت الدولة العثمانية ما لم تره دولة من دول الأرض القديمة والحديثة، فقد كانت تتحالف معها بعض الدول كالنمسا مثلاً، وتعمل ـ وهي متحالفة معها ـ على الاتفاق مع روسيا على تقسيمها، وقد كانت تتظاهر إنكلترا لها بالصداقة والوفاء، وتسعى ـ وهي

متظاهرة كذلك ـ على ضياع أملاكها من يدها وسقوطها في قبضتها، وقد كانت دول أوروبا كلها تجتمع وتتحد على ما تسميه بالمبدأ المقدس، مبدأ حماية استقلال الدولة العلية وسلامتها، ثم كانت هي بعينها تُجزئ الدولة العلية باسم هذا المبدأ المقدس نفسه!"[1]

إنَّ وجود بطانة الخيانة والسوء داخل دوائر الحكم لدى المسلمين، وكيد المكائد، ونصب الشباك للإيقاع بهم، كان يعني فيما يعني: الإبادة الجماعية للمسلمين، والقضاء على وحدتهم ودولتهم، واستباحة أرضهم وثرواتهم، وفتنتهم عن دينهم.. فالأمر ليس مجرد خطأ عابر، ولا ذنب مغفور.. بل كارثة كبرى تحل على الإسلام والمسلمين.

إنَّ كل لحظة ضعف، وخيانة، ومكر، وكيد تقع على المسلمين، تكون فتنة على البشرية جمعاء.. فهذا الكيد من بطانة السوء، ومن العدو الذي يحرك بطانة الخيانة ويستغلها، يؤدي إلى:

ـ المذابح والإبادة الجماعية للمسلمين.

ـ استباحة دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

ـ فتنة المسلمين عن دينهم.

ـ احتلال بلادهم وأرضهم، ونشر المفاسد والمظالم.

ـ الترويج بأن المسلمين المذبوحين هم القتلة الإرهابيين المتوحشين؛ لصد الناس عن سبيل الله.

ـ حشد الناس ـ بالدعاية الفاجرة الكاذبة ـ ضد الإسلام والمسلمين.

---

(1) [المسألة الشرقية، مصطفى كامل]

فقوة المسلمين هي رحمة للبشرية من همجية ووحشية الجاهلية العالمية والعصبية الكفرية للأديان الباطلة التي قلوب أتابعها أقسى من الحجارة، ولا تعرف رحمة ولا عدالة ولا شفقة ولا إنسانية(1)..

ومن يقرأ ويقلب في صفحات التاريخ، بل من يتصفح بتمعن حياتنا المعاصرة يعرف مدى خطورة بطانة السوء هذه، ومدى ما تتركه من أثر بالغ على مستقبل المسلمين وأمنهم وحياتهم.

وإنَّ وجود بطانة السوء في دوائر الحكم لدى المسلمين لهو من جانب آخر لدليل على خلل في إيمانهم وتقواهم وصبرهم على البلاء.. فالمؤمن كيس فطن، يعرف بروحه وقلبه وعقله وتدبره العدو من الصديق، والمؤمن من المنافق، وبطانة الخير من بطانة الشر.

وفي الحديث الشريف: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَ: **"مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ"**(2)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم: **"مَا مِنْ وَالٍ، إِلَّا وَلَهُ بِطَانَتَانِ، بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا، فَمَنْ وُقِيَ شَرَّهَا فَقَدْ وُقِيَ، وَهُوَ مِنَ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْهُمَا"**(3)

***

وهناك من المسلمين من يحمل حباً لدين الله، ورغبة في نصرته، وتعلقاً بكتابه، وحفظاً له.. إلا إنهم لا يعرفون، ولا يدركون أن هذا الكتاب يُقدم تصوراً وفكراً سياسياً واضحاً

(1) انظر ـ إن شئت ـ كتاب: "جاهلية القرن العشرين".

(2) [صحيح البخاري/ 6611]

(3) [سنن النسائي الصغرى/ 4201]

بيّناً، وإنه ليس مجرد كتاب للتلاوة، والصلوات، والخلوات.. إنه يقدم تصوراً سياسياً متكاملاً، بل وخطة عمل، ومعالم وأنوار ساطعة باهرة على الطريق، وللأسف كثير من علماء المسلمين لا يُبينون هذه المعاني، ويختزلون كتاب الله في تجويد حفظه، وتلاوته، ودراسة بعض أحكامه، والتعلق بأهداب المذاهب الفقهية في أحكام العبادات الفردية، وهذه من البلايا الفكرية والحركية على المسلمين.

إنَّ كل إعراض عن آية واحدة من كتاب الله يُفسد على المسلمين إيمانهم، واجتماعهم، وسياستهم بقدر هذا الإعراض، ويجب ونحن نتناول كتاب الله أن نكون على يقين من هذا المعنى، إن أي انحراف ـ مهما كان ـ عن صراط الله المستقيم، وسبيل كتابه القويم.. حتماً سينتهي بنا إلى التيه البعيد والبوار الأكيد، والعياذ بالله، لذا أمرنا الله ـ جل جلاله ـ أن نأخذ كتابه بقوة، وإيمان، واستمساك كاستمساك لحمنا بدمائنا، ودونه أرواحنا، وإن أعدى أعدائنا هو الذي يَحول بيننا وبين كتاب ربنا.

وهنا يَتبين أهمية "**التربية السياسية الراشدة**" خاصة لمن يتقلد مناصب الحكم، وصنع القرار في الأمة المسلمة.. حيث هذه التربية، والرشد، والربانية هي التي تعصم الأمة ـ بعد حفظ الله ـ من سقوطها في المهالك، وهي تربية ضرورية للجميع.. ضرورية للحكام، والبطانة، ودوائر صنع القرار الرئيسية والفرعية، وضرورية لعموم الأمة التي يجب أن تراقب وتتيقظ لأحوالها وأحوال حكامها ومن ينوب عنها.

***

لقد كان لبطانة الخيانة والسوء من أهل الكتاب أثرها البالغ في الكيد للإسلام والمسلمين، وقد استغل بعضهم "سماحة الإسلام" في اختراق دوائر الحكم الإسلامي والمجتمع المسلم..

إنَّ الإسلام يُقر حقوق جميع الأقليات غير المسلمة، ويضمن لها حرية عقيدتها، وعبادتها، ويحافظ على حياتها، ويحفظ لهم أموالهم وأعراضهم.. بل ويدافع عنهم، في مقابل أن يدفعوا الجزية للمسلمين نظير هذه الحماية، ودليل واضح على خضوعهم لنظام الدولة المسلمة، وهي الضامن الوحيد لحقوقهم. على شروط، أهمها:

ـ مسالمة المسلمين، وعدم العدوان عليهم أو مظاهرة العدو عليهم.

ـ حقوق الأقليات غير المسلمة الضامن الوحيد لها هو الأمة المسلمة وسلطاتها، ولا يحق لأي دولة كائنة ما كانت أن تتدخل في شؤون الأمة المسلمة (الداخلية والخارجية) بزعم الانتصار لحقوق هذه الأقليات.

ـ عدم الإساءة للإسلام والمسلمين.

ـ عدم مناهضة الحكم الإسلامي والشريعة الإسلامية.

ـ الامتناع من نشر المفاسد الأخلاقية، والتعامل بالربا.

ـ عدم حمل السلاح على المسلمين.

ـ عدم إثارة الفتن والقلاقل والدسائس والتجسس على المسلمين.

ـ لا يحق لهم تقلد المناصب الحساسة في الدولة.

ـ عدم التعرض أو إيذاء المتحولين منهم إلى الإسلام.

فبكل الحب والحرص والحق والعدل.. فالإسلام يَعلو، ولا يُعلى عليه.

ولقد كان تاريخ المسلمين عبر العصور وفي كل مرة كان لهم الحكم والسيادة؛ ضربوا أروع الأمثلة في التسامح والعفو، واللين، والرحمة بغيرهم من أهل الأديان، لدرجة أدهشت أوروبا نفسها التي كان الحقد الديني في بينها يأكلها أكلاً..

ولكن يبدو أن مسألة التسامح والعفو واللين أخذت منحاً آخر غير ما قرره الله لغير المسلمين من حقوق، وبدأت تأخذ طابعاً من الغفلة والسذاجة، يقول تعالى:

﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 119-120]

لقد استُغلت هذه الحقوق، وهذا التسامح أسوأ استغلال.. الاستغلال الذي سمح باختراق قصور الحكم، والتدخل في شؤون المسلمين، وإثارة الفتن والثورات الداخلية بينهم، والتجسس عليهم لتقويض دولتهم..

لحفظ حقوق الأقليات غير المسلمة ـ في البلدان المسلمة ـ ليس معناه أن تحالف هذه الأقليات مع الأعداء الخارجيين، أو تسمح هذه الأقليات وتستدعي العدو الخارجي "باسم دين الأقلية" ليتدخل في شؤون البلدان المسلمة، كما حصل مع الدولة العثمانية وتدخل أوروبا في شؤونها باسم "المسيحية" وكيد الدساس لها حتى تم القضاء عليها. (1)

إنَّ البر والقسط والعدالة التي أمر بها الإسلام مع المخالفين في الدين: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: 8] لم تكن تعني أبداً اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين وتقديمهم على المؤمنين! ففي لحظات الخطر والتحول التاريخي قد يميلون إلى أقوامهم ويعملون لحسابهم، كما حصل عبر التاريخ من مآسي كثيرة!

(1) انظر كتاب: "المسألة الشرقية" لمصطفى كامل.

ولقد أظهر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا التسامح مع كل غير المسلمين عند تشريفه المدينة المنورة، ولكن عندما تحول هذا التسامح إلى عدوان، وخيانة، وتجسس، وسخرية من الإسلام والمسلمين؛ كان القضاء عن رأس الكفر كعب بن الأشرف، وهذا من الدروس المهمة في المواجهة مع من يحاول الاعتداء على الإسلام، ويثير الفتن بين المسلمين.[1] وكما حصل كذلك مع بني قريظة، وإجلاء اليهود عن المدينة بعد خيانتهم المتكررة، ونقضهم العهود والمواثيق والتآمر على الإسلام والمسلمين.

وإننا لا نتهم جميع الأقليات غير المسلمة بالخيانة والسوء.. بل هناك الكثير منهم المحب لوطنه، ويعمل من أجله، وينشد السلامة والمحبة والتعايش، ولكن نتعلم من دروس التاريخ، وقبلها من كتاب الله، أن تكون البطانة الداخلية التي تقوم بالمجتمع المسلم، وتُدعّمه، وتدير شؤونه لا بد لها أن تكون بطانة من المؤمنين فقط، ومن الذين ظهرت علامات الإيمان والصلاح وحسن البلاء عليهم.. حيث إن أي لحظة ضعف أو حتى شبهة ضعف من المسلمين ستجعل أمم الكفر تنقض بكل وحشية وهمجية على المسلمين: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 8] وحالة العداء من الكفر دائمة لا تنقطع، ولا تهدأ إلا بظهور الإسلام، ودوام ظهوره: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: 217]

لقد كانت بطانة الخيانة والسوء تخترق المجتمع المسلم، والنظام السياسي الحاكم من باب الاحتياج إلى بعض الخبرات، ومن باب شهوات بعض الحكام الجنسية، والتوسع في اتخاذ الجواري والسبايا قديماً، والابتزاز الجنسي حديثاً، واعتباره أحد أهم وأشهر وسائل السيطرة والضغط والتحكم في السياسيين.. ويجب على المسلمين سد هذا الاحتياج

---

(1) انظر مقال: "درس في المواجهة.. كعب بن الأشرف".

ونقل أي خبرات إلى المسلمين حتى تكون بطانتهم من أنفسهم، والقضاء على استغلال منصب الحكم من أجل إرواء الشهوات، وأن تكون أسر وبيوت المسلمين ـ خاصة طبقة الحكم ـ من المؤمنين فقط، ومن البيوتات العريقة في الدين والعلم والفضل ومكارم الأخلاق[1].. دون غيرهم، حتى ولو كان الأمر مباحاً كالتزوج من الكتابية، فهذه الإباحة تتحول إلى حُرمة مشددة وخيانة كبرى إن كانت ستهدد وتقوض الحكم والمجتمع المسلم.

كما لا يخفى سهولة ادعاء البعض الدخول في الإسلام، والحصول على الجنسية من أجل الاقتراب من دوائر الحكم، والتجسس عليها.. بل وهناك من يحفظ القرآن كاملاً، وكتب الفقه والحديث ويزعم الصلاح من أجل بث الفتن بين المسلمين، وكل مظاهر الخداع هذه مما يجب أن ينتبه ويتيقظ لها المجتمع المسلم؛ حتى تكون بطانته ودوائر الحكم والتأثير في كل مجال: سياسي أو اقتصادي أو تربوي أو ثقافي أو فكري.. بطانة مؤمنة صادقة مخلصة.[2]

***

أمر آخر يجب الانتباه إليه.. إن الدول ـ خاصة الأوروبية الاحتلالية، وأمريكا ـ التي لها تاريخ عدائي وصراع دائم وحروب مستمرة على الإسلام والمسلمين، يجب أن يكون حذرنا منها ويقظتنا نحوها في أقصى أحوالها، فمسالمة هذه الدول لنا بعض الوقت لا يعني السلام الدائم، بل يعني مسالمة ما قبل الهجوم الوحشي علينا، فعوامل الحسد والحقد

(1) مع الاهتمام بالتثقيف الجنسي للأزواج؛ حتى يحصل الإشباع الجنسي والاكتفاء والسكينة ودوام المودة. وقد كان في وسعنا تجاوز هذا التعليق دون الإخلال بالمعنى والسياق أعلاه، ولكن ذكره ذات أهمية وضرورة؛ حيث الخلل في الإشباع قد يؤدي إلى خلل في بنيان الأسرة؛ ومن ثم ظهور نقاط ضعف يضغط عليها العدو والمتربصون بكل قوة؛ ويفتح المجال للاختراق والتجسس والسيطرة والابتزاز؛ لذا فمجتمع المؤمنين يجب أن يشد بعضه بعضاً في كل شيء.. ويتمم بعضه بعضاً في كل شيء.

(2) انظر: درس "الخداع السياسي" ص 681 من هذا الكتاب.

الديني على الإسلام والمسلمين كامنة في قلوب الذين كفروا، وعوامل الطمع والطغيان الدنيوي لا تنقطع من قلوب الذين كفروا.. وشكل وأدوات وأنواع الحروب تتغير عبر التاريخ؛ ومن ثم فاتخاذ البطانة ممن تلوثت أيديهم بدماء المسلمين، وجرت بأسلحتهم دماء المسلمين أنهاراً لهو أشد الخيانة لله ورسوله والأمة المسلمة.. وبعد الخيانة حتماً ستكون الهزيمة الساحقة، والإبادة الجماعية للمسلمين.. حيث تتكرر هذه الأحداث عبر التاريخ، بسبب الغفلة عن كتاب الله، وصراطه المستقيم: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: 9]

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109]

ويتحول اتخاذ بطانة الخيانة والشر من عصيان الله وهلاك الأمة إلى الكفر البواح[1] في حالة موالاة الأعداء ومظاهرتهم على المسلمين، وغالباً ما يكون صراعاً على العروش وكراسي السلطة؛ فتكون خيانتان.. الأولى: موالاة أعداء الله والأمة المسلمة، والثانية: الصراع على السلطة والطمع في الحكم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 57]

(1) [انظر: درس "الكفر البواح"، ص 108 من هذا الكتاب]

وإنَّ من أجهل الجهل وأضل الضلال وأشد الهلاك.. اتخاذ أعدى الأعداء أولياء، وإنه لا نصير ولا صديق ولا حليف ولا صاحب ولا ولي لهذه الأمة إلا الله ورسوله والذين آمنوا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: 55-56]

فأي حسن ظن في غير محله.. أي انحراف عن هذه الولاية.. أي محاولة للبحث عن ولاية غير هذه الولاية يعني الخسران، والانهزام، وضياع للفرص، وتأخير للنصر، وضياع الدين والدولة.

ولقد كانت الأمة تنتصر في كثير من المعارك ـ بفضل الله ـ ثم ببسالة من يقاتل في سبيل الله. وبسبب الجهالة في فهم ولاية الله، والتهاون في أمر بطانة الشر.. تضيع ثمرة هذا النصر، بل ويتحول إلى هزائم وانكسارات متتالية على المسلمين، لأنها ـ بعد النصر ـ لا تُأمن جبهاتها الداخلية والخارجية؛ وتُحسن الظن بعدوها اللدود؛ فينقض عليها يفتك بها بلا رحمة، ولا تدرك الخيانة إلا وهي تُذبح من الوريد إلى الوريد!!

وهناك **بُعد نفسي** في مسألة إلقاء المودة للعدو.. إنَّ المسلم الذي يؤمن بالله يكون في قلبه الشفقة والرحمة وهي أثر من آثار الإيمان الحق، ويكون ـ في أحيان ـ غافلاً عن أحوال القلوب التي هي أقسى من الحجارة، والمسلم يحفظ عهده، ويوفي الميثاق، ويظن أيضاً أن غيره كذلك في الوفاء والصدق!

والعدو ينظر إلى هذا القلب، وهذا الوفاء نظرة سخرية واستغلال وتبييت للخيانة.. بل ويتلاعب بعواطف المسلمين، ويسحبهم في خدر عميق؛ حتى إذا سنحت الفرصة انقض عليهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1]

فإلقاء المودة لعدو الله ورسوله والأمة المسلمة.. مسألة في غاية الخطورة على الإسلام والمسلمين، وليس لها علاقة بمسألة التسامح أو حقوق الأقليات غير المسلمة.

فرغم هذه المودة وهذا الحب! من جانب المسلمين، وتغافلهم المذموم، والتسامح الذي يصل إلى حد الضياع والتسيب والفوضى.. فإن العدو يقابل هذه المودة وهذا الحب بمنتهى الفظاظة والوحشية، يقول تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: 2]

﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 119]

ولقد كان العدو يحسن استغلال هذا التسامح الديني الذي عند المسلمين، ويستغل غفلتهم، وسذاجتهم، وتظاهر المسلمين ـ بعضهم على بعض ـ بالعدو طمعاً في كرسي الحكم.. كان يستغل كل ذلك في محاولة تقويض النظام الداخلي للأمة المسلمة من داخلها، والتحكم في قرارها السياسي، والحربي، وصور الولاء والتحالف..

ثم عندما يشعر العدو الضعف من المسلمين ـ وللعدو ميزان حساس جداً يحدد له مدى الضعف، ومستواه، وآثاره.. حتى يعرف اللحظة المناسبة لينقض على المسلمين ليفتك بهم ـ يبدأ في تحريك الأقليات غير المسلمة التي تدين له بالولاء الديني والروحي والمعنوي؛ لإثارة الثورات والمطالبة بالانفصال عن جسد الدولة الإسلامية، كما حصل مع الدولة

العثمانية - وتاريخها في فترة ما قبل سقوطها مليء بالمآسي والكوارث - ومثلها سقوط الأندلس ومآسيها.. والله المستعان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبعد سقوط الدولة العثمانية - وإرهاصات ما قبل السقوط، من الضعف الداخلي، والعدوان الخارجي المتمثل في الحملات الصليبية التي جاءت باسم التنوير تارة، وباسم المصالح الاقتصادية والديون تارة أخرى - وتفتت الوحدة السياسية للمسلمين، بدأ العدو في إثارة النعرات القومية العلمانية، وجعل القومية هي الدين الذي على أساسه تتحدد حقوق المواطنة.. وبذلك يصبح الإسلام وكتاب الله مجرد ذكرى، وتاريخ، وترانيم ليس لها أي علاقة لا من قريب ولا بعيد بنظام الدولة، ولا بشكل الولاء السياسي والحربي، ولا أثر له في طبيعة الاجتماع الإنساني.. وهذا ما كان يقصده العدو بالضبط، ويعمل عليه، حتى صرنا إلى هذا الواقع في بلاد المسلمين الذي يعز فيه أهل الكفر، ويذل فيه أهل الإسلام! وتحكم فيه الدول الكبرى كل شيء في بلادنا.. حتى مناهج تعاليم الأطفال في الروضة!

فاتخذ العدو من هذه العلمانية، ومن مسألة حقوق المواطنة سبيلاً لاختراق نظم الحكم والسياسة، والنظام الاجتماعي للأمة المسلمة.. حتى وصل جواسيسهم في أحيان إلى رأس منظومة الحكم، هذا غير باقي دوائر صنع القرار الأساسية والفرعية والتابعة!

وهناك **بُعد نفاقي** في مسألة اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَايِرَةٌ﴾ [المائدة: 52] هؤلاء الذين في قلوبهم مرض الإيمان بطغيان وقوة الذين كفروا - والذي قد يتحول وبسرعة إلى النفاق الخالص - هؤلاء يشكون في نصر الله وقوته، ويتأثرون بشدة بالقوة المادية للعدو؛ فيسرعون إليهم يطلبون ودهم وولايتهم، طالبين بذلك حمايتهم ونصرتهم.. فيتلاقهم العدو بالترحاب والود والوعود الحسنة والأماني العظيمة؛ حتى إذا أَمِنوهم فتك بهم وبالمسلمين

أو اتخذ منهم الجواسيس التي تعمل على هدم الإسلام والمسلمين كما نرى في صفحات التاريخ، ونشاهد في حياتنا الواقعية!!

***

وإنَّ بعضاً من علماء المسلمين يتأثرون بهول الواقع العلماني، وبضغط الدول الكبرى.. فيذهبون إلى التنظير السياسي الهش والمنهزم؛ ويتحدثون عن حقوق المواطنة من هذا المنظور العلماني ضاربين بعرض الحائط كتاب ربهم، وتاريخهم، وتضحيات الأجيال السابقة واللاحقة.

إنَّ دور "العالِم المسلم" أن يُبين الحق، ويُبلغ الرسالة.. ودور "السياسي المسلم" أن يبذل غاية وسعه في إقامة هذا الحق، وتحقيق تطبيقات هذه الرسالة، فإن كان غاية وسعه ـ مثلاً ـ أن يفتح حلقة لتحفيظ القرآن الكريم أو يبني مسجداً، فليس معنى ذلك أن يرضى العالِم المسلم، ويقر بأحوال الفساد والعلمانية المُستشرية في جنبات الدولة، بل يجب أن تظل قضية البلاغ المبين قضية دائمة أبدية مهما حصل..

وهذا بالأساس ضمانة أي مكاسب، فمحاولة أسلمة العلمانية، والتكيف مع الواقع العلماني سيقضي على أي مكتسبات؛ لأنها ستظل مكاسب هشة في مهب الريح، ما لم تكن محمية بقوة المسلمين، وبطانة المؤمنين.

والذي ينتهي وسعه عند فتح حلقة لتحفيظ القرآن الكريم، ولا يمضي للخطوات التالية.. فإن العلمانية المتربصة المتوحشة تحين اللحظة التي تنقض فيها على شعائر الإسلام لتسحقها سحقاً، فالضمانة الوحيدة هي: **العمل الدائم، والبلاغ المستمر التام المبين، وحفظ كل مكتسب بقوة المسلمين، وبطانة المؤمنين.**

***

وبذلك اتخذ العدو ـ قديماً ـ من مسألة حماية الأقليات وسيلة للتدخل في شؤون المسلمين ونظام حكمهم في لحظات ضعفهم، واتخذ ـ حديثاً ـ من العلمانية ونشر الديمقراطية وحقوق الإنسان ـ بزعمهم ـ وسيلة لصرف المسلمين عن دينهم بالكلية، وتهوين مركزيته في حياتهم، والقضاء على أي دور سياسي له.. ولهذا انهزمت الأمة، وتحولت إلى غثاء سيل، تتكالب عليها الأمم تكالب الوحوش على الفريسة الضعيفة.

فيجب أن تدرك الأمة المسلمة هذه الدروس جيداً، فهي تساوي حياتها ووجودها، ولا تمل من تدبرها، وفهمها، والعمل على أساسها، وتستجيب لهذا النداء الإلهي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51]

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: 55-56]

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120]

هذه الآيات وحدها قادرة ـ بإذن الله ـ على رسم السياسة الداخلية والخارجية للأمة المسلمة، وقادرة على تحديد خريطة أعدائها بدقة، وجعل الأمة في حالة من اليقظة المستمرة، والإعداد الدائم، والتمكن من النصر بإذن الله ووعده وفضله.

***

51- السلمية والعنف

هل السلمية في مواجهة الطغيان، فضيلة يجب التمسك بها، والدعوة إليها، وعدم الخروج عنها أبداً؟! وبالمقابل: هل استخدام العنف في مواجهة الطغيان هو الحل الذي لا سبيل غيره، مهما كانت النتائج المتوقعة؟ وأيهما الصواب في مواجهة الطغيان.. السلمية أم العنف؟

بداية.. إنَّ تَحوُّل وسائل مواجهة الطغيان (سواء العمل السلمي أو العمل العنيف) إلى "أيديولوجيا"، هو من أخطر ما يكون، فهذا التحول الأيديولوجي يُساهم في ترسيخ أنظمة الطغيان والفساد، ومظاهر هذا التحول.. هو تحول الوسيلة (سواء السلمية أو العنيفة) إلى فكر وعقيدة وغاية وهدف؛ يتم التعصب له، والدعوة إليه، والمفاصلة حوله، والتفرق فيه؛ ويؤدي إلى الصراع البيني بين كل من الفريقين.. فريق السلمية، وفريق العنف..

فيَتهم "فريق السلمية" أصحاب منهج العنف: بالاندفاع والتهور، وعدم الإعداد، والتبرأ منهم، وعدم دعمهم، بل وتسويق أنفسهم على حساب أصحاب العنف.

ويَتهم "فريق العنف" أصحاب السلمية: بالضعف والخوار، والجبن، ومخالفة المنطق، والواقع، والركون إلى العمل السياسي السهل.

وعندما يفشل "المنهج السلمي" ينتقل أصحاب العقيدة الحارة، والقلوب الغاضبة إلى "منهج العنف" كثورة على السلمية التي أذلتهم وأهانتهم، ويجعلون من هذا التحول "عقيدة ومنهج وراية"، ويُسخِرون قواهم في نقد المنهج السلمي الفاشل الضعيف، ويُحاولون نشر أدبيات العنف المسلح، كضرورة حياة ووجود لمواجهة الطغيان.

وعندما يفشل بالمقابل "منهج العنف" ينتقل المُنهزمون في معركة العنف، والذين أُنهكت قواهم في معارك غير متكافئة إلى "منهج السلمية" كثورة على منهج العنف الذي انهزم أمام وحشية الطغيان، ويجعلون من هذا التحول "عقيدة ومنهج وراية"، يفُاصلون عليها، ويرفضون أي حديث عن ضرورة القوة، فيتحول الأمر عند كلا الفريقين إلى "هواجس" و"أيديولوجيات" تتكون نتيجة "التجربة المريرة" وهي حصيلتها، ويظل التجاذب بين كلا المنهجين قائماً يدور بينهما على هذا النحو.

***

فأي سبيل صحيح يمكن انتهاجه في مواجهة الطغيان؟

بداية.. يجب التخلي عن التعصب الأيديولوجي لوسائل المواجهة سواء الوسائل السياسية السلمية، أو الوسائل العنيفة في المواجهة، بمعنى: إنَّ المسلم في هذه المواجهة يجب أن يكون منفتحاً على جميع الخيارات، فهي بالنسبة له مجرد وسائل لتحقيق غاية: التدافع مع الباطل والظلم، والنهي عن الفساد والعدوان، وإقرار الحق والعدل، ومواجهة أعداء الداخل من المنافقين والطغاة، وأعداء الخارج من الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين.

ولنأخذ من سيرة الأمة المسلمة الأولى نبراساً لحديثنا هذا:

لقد كانت البداية: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [سورة النساء: 77] فجاء النهي عن القتال والمواجهة ـ في العهد المكي ـ رغم القدرة النسبية على المواجهة، فقد كان بالإمكان أن يحمل كل فرد سيفه، ويقاتل، ولكن جاء النهي ـ فيما نرى ـ لأن الدعوة مازالت في مهدها، ولم تتأهل بعد للقتال في سبيل الله وحده، ولا يُراد لهذا التدافع أن يتحول القتال إلى ثارات عربية قبلية.. ولم تتكون بعد "الوحدة

السياسية والشرعية" في هذا القتال، رغم وجود القائد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورغم كونه في أشرف أنساب أشرف قبيلة.. قريش.

ولكن.. رغم هذا الكف عن القتال، كان القرآن الكريم يُربيهم تربية مبكرة ـ في العهد المكي أيضاً ـ على الانتصار من البغاة، وعدم الضعف والذلة والاستسلام، وكان يربي فيهم أيضاً الشخصية السياسية القويمة، القائمة على تحقيق الشورى والعدالة، وامتثال مكارم الأخلاق، فهذا جزء أصيل من الشخصية المسلمة، بيّنت سورة الشورى المكية جزءاً منه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ. وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّـهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَـٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الشورى: (39: 42)] فكان يوازن هذه الشخصية بميزان رباني دقيق، إنه حتى في عدم الإذن بالقتال ـ لعدم اكتمال مقوماته وشروطه ـ لا يدعهم للضعف، بل للانتصار، والإعداد، ويحفظ لهم حقهم فيه، وفي نفس الوقت القدرة على العفو.. عند التمكين، وهذا هو الصراط المستقيم، أما الذين يسلكون السبيل إلى النار، فهم الذين يَظلمون الناس، ويَبغون في الأرض بغير الحق.

ثم تكونت الوحدة الشرعية والسياسية بالهجرة إلى المدينة.. وأصبح لأفراد هذه الأمة "الوجود الشرعي السياسي" المنتظم في قيادة وأمة وأرض ومجتمع، فجاء الإذن بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [سورة الحج (39)] بل لقد دفعهم للمواجهة ـ رغم فارق القوة الهائل لصالح العدو ـ دفعهم لأن الأساس الاجتماعي السياسي، وقاعدة الانطلاق قد تكونت بالفعل؛ ومن ثم فلا بد من مواجهة العدو المعتدي المتربص.

ثم جاء الأمر بالقتال، والاستعداد الدائم للمواجهة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة (193)]

وجاء الأمر المطلق بإعداد كل قوة، لمواجهة العدو من جانب، ولبقاء الأمة في حركة إيجابية في حماية نفسها، وتسليح نفسها بالإيمان من جانب، وبالقوة من جانب آخر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: (60)]

وبعد ضمان القوة.. يأتي التحبيب في الجنوح إلى "السلم".. السلم القوي، القادر على الرد عند الخيانة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال (61، 62)]

إذن.. نستلهم من هذه السيرة الأولى للأمة المسلمة، وهي تخطو أولى خطواتها، ومراحل تكوينها:

ـ إنَّ السلمية لم تكن ديناً، ولا منهجاً.. بل كانت الاختيار المناسب لمرحلة ما.

ـ إنَّ القرآن الكريم ربَى المسلمين على الانتصار من الظالمين، كحق أصيل لهم، حتى وهم في مرحلة الاستضعاف بمكة.

ـ إنَّ استخدام القوة، والمواجهة.. كان بعد وجود الشرعية السياسية الاجتماعية، ووجود القيادة الراشدة المخلصة.

ـ إنَّ الإسلام يحب السلام، متى كان هناك جنوح من الجميع إليه، وإعداد القوة ضرورة لردع أي خيانة.

ـ إنَّ محاولة بعض الأفراد ـ الذين لا يخضعون للنظام الاجتماعي السياسي لدولة المدينة ـ تأديب الباطل، كانت محل ترحيب، كما حصل في حادثة أبي بصير ـ بعد صلح الحديبية

ـ الذي كان يعترض قوافل قريش، والذي قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام: "**مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ**"(1)، وكان لفعله نتائج إيجابية في حماية المُستَضعفين.

وقد يقول قائل: هذا الكلام صحيح لا غبار عليه، ولكن هذه الآيات نزلت في الكفار المشركين من قريش، فما علاقة ذلك بواقعنا السياسي داخل البلاد المسلمة؟ هل تُنزل الآيات التي نزلت في الكافرين على المسلمين كما فعل الخوارج؟!

وهذا السؤال هو معضلة المعضلات بالنسبة للأمة طوال تاريخها، إنها لا تجد شرعية للتدافع مع الباطل والطغيان إلا عندما يرفع راية الكفر الصريحة، وينعت نفسه بملة غير ملة الإسلام، فمثلاً: الشعب المسلم بطبيعته ينظر إلى يهود (والمحتل الكافر عموماً) نظرة استنكار وتبرأ، والتعاون معه خيانة لا تحتاج إلى دليل أو بيان، بينما عندما تأتي الحرب والخيانة من بني جلدتك ويتكلّم بلسانك.. هنا يضيع المسلمون في كيفية التعامل معهم، ويختلفون، ويتفرقون حول الصورة الصحيحة لمواجهة الخونة من بني جلدتنا، بعكس المحتل واضح العداء واضح الراية..

فمثلاً: عند عامة المسلمين.. قتال "كوهين" اليهودي المجرم المعتدي، أسهل (من ناحية الشرعية) بكثير جداً من قتال "محمود" المنافق المجرم الخائن المعتدي العميل لكوهين.. وللأسف لا نبذل كثيراً من الجهد في بيان خطورة "محمود" هذا، والموقف الشرعي والسياسي منه.

وكان هذا أخوف ما يخافه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمته، فقال ـ عليه السلام: "**لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**"(2)

---

(1) [صحيح البخاري/ 2734]

(2) [مسند الإمام أحمد/ 27593]

وعَن "حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلى اللهُ عليه وَسَلم ـ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ، قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ، قَالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ، قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ، قَالَ: **نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ، قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ، قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ"[1]

إنَّ المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا قلة غير مؤثرة، مستترة، ولم تكن على رأس القيادة والحكم والتوجيه، وقد نعتهم القرآن الكريم بأنهم إخوان الكافرين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: 11]، وأمر الله تعالى نبيه بجهادهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73] وإنْ جاهدهم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ باللسان، بل وعفى وصفح عن بعضهم، ذلك لأنهم لم يرفعوا السيوف ضد الأمة المسلمة، ورسالتها، ولم يصلوا إلى مراكز القيادة فيها، يحاولون الانحراف بالأمة كلها نحو النفاق والضلال. فلا بد ـ لنجاة الأمة في الدنيا والآخرة ـ من التخلص من حكم المنافقين، ومن تسلطهم على أمر الأمة المسلمة.

***

(1) [صحيح البخاري/ 3606]

كيفية المواجهة؟

يتركز الحديث هنا عن تحرير الأمة من أعداء الداخل من المنافقين والطغاة والفسدة والفجرة.. ومعضلتهم أنهم ينتسبون للإسلام، ويجب احترام هذا الانتساب مهما بلغ نفاقهم! فيجب ـ إن تعين وتقرر قتالهم ـ أن يكون "قتال أهل البغي"[1]، وإنَّ محاولة تكفيرهم، والدخول في جدال قضايا الإيمان والكفر، والعذر بالجهل، ونواقض الإسلام... إلخ، أفسد المحاولة كلها، ولم تأتِ بأي نتيجة لا على مستوى الدعوة، ولا على مستوى التغيير السياسي!

المنهج السلمي

عندما يكون دعاة الحق، أفراداً لا قوة لهم، ولا نظام، ولا شرعية تجمعهم، ولا قيادة تُنظمهم، فإن المنهج السلمي يكون هو "الاختيار المناسب" لهذه الحالة، ويتركز فيها "المنهج الدعوي والفكري" ببيان الحق، والشهادة بالقسط، وقول كلمة الحق عند كل سلطان جائر، والإنكار باللسان والقلب، وعدم التهور بأي اندفاع لصراع لم يتم إعداد العدة له.

فالمنهج السلمي هو منهج الحركات الفردية، ومنهج الأفراد الذين ينطلقون بدافع الغيرة على الدين والحق لبيانه والدعوة إليه.. ولكنها لا يجب أن تظل هكذا أبدا، بل لا بد أن تأخذ خطوة نحو "الشرعية السياسية الاجتماعية" وتكون لها قاعدة في الواقع السياسي، لا يمكن استئصالها، ولا إبادتها.. ولا تتخذ من السلمية منهجاً لا حياد عنه أبداً، لأنه متى تَكوّن لها قوة شعبية وسياسية، وأصبحت ذات تأثير سيفترسها الطغاة، بل إنهم يفترسون ويفتكون حتى بالضعاف والنساء والأطفال، وهذا دين الطغاة والطواغيت في كل جيل وقبيل.

---

(1) انظر بحث: "الفئة الباغية".

منهج القوة

القوة غير العنف.. العنف: هو حالة عمياء من الغضب الصادق تجاه واقع ما، حالة عاطفية مندفعة للانتقام والرد، وتريد أن تُطفأ نيران الغضب بالانتقام من الطغيان.. وهذا الشعور محمود، ومطلوب، ولكن يجب أن يتم ضبطه حتى لا ينفلت من جانب، وحتى لا يتحول إلى هوى من جانب آخر، فكل حركة يجب أن تكون خالصة لوجه الله الكريم، ولا حظ فيها للإنسان، وهذا معنى الإخلاص. وفي الحديث: "**إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ**"(1)

أما القوة: فالمقصود بها مواجهة الواقع بالوسائل المكافئة له، وليس شرطاً أن تكون "قوة السلاح" فحسب، بل يجب أن تضم شتى أنواع القوى؛ مثل: قوة المعلومات الاستخبارية، وقوة فهم الواقع السياسي، والتنبؤ بمجريات الحياة السياسية، والقوة التقنية، والقوة الشعبية، والقوة الإعلامية، والقوة النوعية، والقوة الدعوية... إلخ، وتوظيف كل هذه القوى في المواجهة مع الباطل والطغيان.

ولأنها مواجهة حتمية لا مفر منها.. فإنه يجب الاستعداد لها، وهي حتمية لأنها تدافع على "السيادة والحاكمية" لمن تكون؟ لمنهج الله وشرعه.. أم لمنهج الباطل وطاغوته؟

وإذا كان الباطل يتسلح بكل سلاح، ويحاول أن يكون على قلب رجل فاجر واحد؛ لاتحاد مصالحهم.. فيجب أن يكون الحق متسلحاً بكل قوة، وعلى قلب رجل واحد، مخلصاً لله وحده.

***

(1) [صحيح مسلم/ 2596]

لماذا يفشل المنهج السلمي؟

لأن المنهج السلمي ليس مُقدراً له أن ينتصر وحده في مواجهة الباطل والطغيان والطاغوت، بل لا بد من مواجهته بالوسائل المكافئة له، ولأن المنهج السلمي يتحول ـ بطول الأمد وقسوة القلوب ـ إلى "مصالح سياسية براجماتية"، ومصالح فئات حزبية.. تتحول بمرور الوقت إلى جزءٍ من الواقع السياسي للباطل والفساد! وتصبح عقبة في سبيل التغيير، ومهلكة لطاقات الأمة، ومواردها، كما تستهلك "رصيد دعوة الحق" دون ثمرة مرجوة.

لماذا يفشل المنهج العنيف؟

لأن العنف والغضب ليس هو المطلوب، ولأن المواجهة الفردية دون شرعية سياسية اجتماعية، وقيادة راشدة، تنتهي إلى الهزيمة، وإلى تشويه منهج القوة الضروري لمواجهة الباطل؛ ولأن العنف يتحول إلى مجرد أيديولوجيا يجب اعتناقها والإيمان بها بغض النظر عن نتائجها.. أي: يتحول إلى غاية في ذاتها، ودعوة بحد ذاتها، وللأسف لا ينجذب إليها ـ في الغالب ـ سوى البسطاء الصادقين.. الذين لا يملكون مشروعاً سياسياً، بقدر ما يملكون رغبة في الاستشهاد والموت!

متى ينجح المنهج السلمي؟

يستطيع المنهج السلمي أن ينجح منفرداً ـ أو بأقل القليل من القوة ـ إذا حصل يقظة للشعوب، واجتماع لها، فإنها تستطيع أن تهزم الأنظمة السياسية الباغية متى تحررت من الخوف، ومتى قررت المواجهة، بل بمجرد "الاعتزال" "والبراءة"، أو ما يسمى اليوم بالعصيان المدني، أو الإضرابات العامة... إلخ، ولكن لينجح ذلك لا بد أن يصل إلى "الكتلة الحرجة" التي تستطيع التأثير، وبالطبع لا بد من وجود قيادات تستطيع تحريك الشارع، وبالطبع لا بد من حماية هذه القيادات، وضمان حرية وصول كلمتها إلى الجماهير،

والقدرة على التعبئة العامة، واستغلال حالات الضعف السياسي للطغيان.. وكذلك عند عدم استخدام الطغيان للقوة المُميتة في فض فعاليات المنهج السلمي، فاستخدام القوة المميتة المفرطة ـ بتواطؤ دولي ـ يُفشل المنهج السلمي، ويزرع الخوف والرعب بين السلميين، طالما ليس هناك من يصده، ويردعه، فسيمضي في حماية نفسه من السقوط، ولو ضحى بنصف الشعب!![1]

إنَّ الطغيان ضعيف في ذاته، منهزم لا محالة.. ولكنه يعيش ويقتات على خوف الشعوب، واستكانتها، وتفرقها، هذا هو وحده سر بقاء الطغيان، وانتفاشه إلى حين، وهذا ما يفسر جزعه ورعبه.. عندما تستيقظ بعض الجماهير من ثُباتها، وتواجهه ولو مواجهة بسيطة.

كما إن الأمر لا ينتهي عند حد يقظة الشعوب وتوحدها في مواجهة الطغيان، وإسقاطه.. بل لا بد ـ بعد هذا المنهج السلمي ـ من ضمان السيادة والقوة لمنهج الحق الذي قامت من أجله الشعوب، فانتهاء المشهد عند سقوط الطغيان بلا ضمان للقوة معناه ـ بكل تأكيد ـ ولادة لطغيان جديد! أشد قسوة ووحشية وحرصاً على قمع شعبه، وقهره، ومنعه من الثورة مرة أخرى.

متى ينجح منهج القوة؟

يفشل منهج القوة عندما يكون بلا حاضنة شعبية، وعندما يكون بلا مشروع سياسي، وعندما يفشل في كسب "القلوب والعقول"، وعندما يكون كل حديثه عنيفاً لا يتحدث إلا عن القوة والعنف، وعندما لا يفهم شعبه، وعندما يريد تغيير شعبه بالقوة، أو يفرض عليهم أيديولوجيا ما، وعندما ينعزل عن الأمة، وينزوي إلى الأطراف ليضرب من بعيد، وعندما يفشل في إيصال رسالته الإعلامية والدعوية بصورة صحيحة، وعندما يُفسده

---

(1) انظر ـ على سبيل المثال ـ : "مجزرة رابعة".

ويغره السلطة والجاه والمال، وعندما يواجه الطغاة والبغاة مواجهة أهل الكفر.. فيُكثر في قتل الأبرياء، والمسالمين.. وإنَّ الذي يستخدم منهج القوة أحوج الناس لأَن يكون للناس سهلاً قريباً حبيباً ليناً هيناً..

وينجح منهج القوة عندما يكون جزءاً من المشروع السياسي الاجتماعي، وعندما يستخدم القوة الاستخدام الأمثل المحدود، وعندما يكون لديه حاضنة شعبية هو منها، وهي منه، وعندما يلتزم أفراده بطاعة القيادة، وعندما تكون هذه القيادة راشدة واعية، متجردة لله سبحانه وتعالى، وعندما يوالي اهتماماً كثيراً بمعركة كسب العقول والقلوب، وعندما يكون قريباً من الناس، ومستفيداً من خبرات الجميع، ودافعاً بالأفضل في كل مكان، كما هي "أمانة الولاية على الناس والعمل الراشد"، وعندما يعد القوة المناسبة والمكافئة للمواجهة قدر الوسع والطاقة.

وعندما يكون الواقع فقيراً من هذه المُقومات، فإن ذلك لا يعني إجازة مفتوحة.. بل يعني: إعداد العدة، والاستعداد والتهيؤ لها، والدعوة إليها.. والحشد لها الحشد المناسب، والتحرك عند مظنة النجاح، وعند سنوح الفرصة..

ويستمر النجاح - بعد أن يسقط الطغيان - بالتخلي عن الطمع في القيادة، وضمان حماية "المشروع السياسي"، والدفع بالأفضل ممن يحبه الناس، ويتألفون ويلتفون حوله، والمزج بين "السياسي" و"الجهادي" في منظومة الحكم.. حتى يتم ضمان "التوازن الحركي" فالسياسي - بحكم عمله وطبيعته - يميل إلى الحلول الوسط، والجهادي - بحكم عمله وطبيعته - يميل إلى الحلول الجذرية، وكل منهما مطلوب في "شخصية الدولة الراشدة".

***

52- توقيت التغيير

على المستوى النفسي: فتوقيت التغيير يبدأ الآن الآن، فالله ـ جل جلاله ـ ينادي على عباده فيقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر: 53-54] ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16]

فالإنسان يملك زمام نفسه، ولا سلطان على قلبه.. فينطلق ـ بلا عوائق ـ للتوبة، والصلاح، ولمزيد من التقوى، والصبر، والإحسان، والإخلاص، وتزكية النفس بالأعمال الصالحة الخالصة لله سبحانه وتعالى.

وعلى المستوى الاجتماعي: فالدعوة إلى الله، وكتابه، وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجب أن لا تتوقف لحظة، وتبدأ ـ على كل صعيد ـ وفي كل وقت؛ لرد الناس لدينها رداً جميلاً، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11] ويقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53]

فبلاغ هذه الرسالة، والصدع بها أمام الناس جميعاً، بلا تردد، ولا خوف، ولا مداهنة.. واجب على كل مسلم ـ بما يستطيع ـ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39]

ونجد محاولة المشركين وهم يحاولون صرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن دعوته من خلال **المداهنة..** ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: 9] كان يرغبون في أن لا يصدع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحق المبين، ولا يصطدم بأوضاعهم الاجتماعية، ولا يعيب آلهتهم، ويقبل بالتعايش والبحث عن القواسم المشتركة مع المشركين، ويداهنهم ويداهنونه! ويجاملهم ويجاملونه، ويلين لهم ويلينون له! فجاء في الآية التالية: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: 10-13]

وتبدأ معالم التغيير الاجتماعي نحو الإيمان الحق، والربانية الراشدة عندما يتحول السلطان الاجتماعي نحو كتاب الله، ويبدأ المجتمع في الدوران معه حيث دار، فالتغيير الاجتماعي هو "سنة اجتماعية" بمعنى أن ثمار التغيير الطيبة حتى تثمر ثمارها، وحتى يمضي الله قدره في التغيير لا بد من أن نصل إلى "الحد الأدنى الاجتماعي" من مجموع القوم؛ فيصبح لدينا القاعدة الاجتماعية، والفئة المؤثرة، التي يصبح عنوانها، ووجهتها، وحركتها، ونشاطها.. يتحرك على نور من الله ورضوان.

فالتغير للخير وظهور الصلاح الاجتماعي أو التغير للشر ـ والعياذ بالله ـ وظهور الأمراض الاجتماعية، معقود على حالة القوم العامة، وحالة النفس الاجتماعية.. هل هي على الإيمان الصادق والعمل الصالح، أم في قلوبها أمراض وأسقام، أم على النفاق الخالص!

وفي التغيير على المستوى الاجتماعي: يصبر الدعاة إلى الله على أذى الناس، وتعنتهم، وجهالتهم، وضعفهم، وإعراضهم، ولغوهم، واهتماماتهم.. محتسبين الصبر والأذى على الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويهشون للناس، ويلينون لهم، ويخفضون لهم الجناح، ويزهدون

فيما في أيدي الناس.. حتى يكونوا على سنة الأنبياء، وحتى يستمع الناس إليهم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

تكوين القوة الاجتماعية - القادرة على الفعل السياسي - يبدأ مع وصول الدعوة إلى "**مرحلة التَشبع**" بمعنى مرورها بمراحل: الصدع بالحق، والبلاغ المبين، والتربية الحسنة، والقدوة الطيبة، والبذل الكريم، والصبر على الأذى، واستجابة فئات من الناس، وتكون رأي عام، ووصل دعوة الحق إلى كافة شرائح المجتمع.. عندها يحصل نوع من التشبع الاجتماعي، بمعنى أن مزيداً من الدعوة في هذه البيئة لا يغير شيئاً كثيراً في الميزان الاجتماعي.. الذي يحدد مدى القدرة على الفعل السياسي.

وجدير بالانتباه أن حتى مع وصول الدعوة - في مجتمع ما - إلى مرحلة التشبع، لا يعني اليأس والانقطاع عن هذه الدعوة، فالدعوة يجب الصدع بها أبداً، مهما كان رد فعل الناس نحوها: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 42] وهي - في النهاية - أمانة يؤديها المسلم، مهما كانت نتائجها، والمسلم الواعي حريص على صحة النتائج والمخرجات، ويطمئن إلى جودتها، وثباتها، وتمكنها، ورسوخها، ويعمل على دفع الأخطار عنها.

فالمسلم يصدع بدعوة الحق للناس أبداً، ويقول الحق حيثما كان.. جاء في الحديث الشريف: - "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**"[1]

وأيضاً: "**... وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ**"[2]

(1) [جامع الترمذي/ 2174]

(2) [صحيح البخاري/ 7199]

ودعوة الحق هي حماية للمعروف أن لا يصير منكراً، غريباً على الناس.. فتكرار الدعوة والتذكير بها ضرورة إيمانية واجتماعية لا مفر منها.

ولكن الحديث عن "التشبع" الغرض منه النظر في مدى القدرة على الفعل السياسي، وتوقيت عملية التغيير السياسي.

وإنَّ التغيير إلى الصلاح ـ سواء على المستوى النفسي أو الاجتماعي ـ لا يمضي في طريق مفروش بالورود والرياحين.. بل هناك شيطان قاعد على صراط الله المستقيم؛ ليصد الناس عنه بكل حيلة ووسيلة، ولا يكل ولا يمل ولا ييأس من إضلال الإنسانية عن هذا الصراط، جاء في كتاب الله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16-17]

وإنْ كان هذا الشيطان لا سلطان له سوى القدرة على التزيين، والوسوسة، وإلقاء الأماني الكاذبة، والدعوة إلى الأباطيل.. فشياطين الإنس قاعدة على هذا الصراط تنفق الأموال والأنفس والرجال في سبيل إضلال الإنسانية والدخول بها في سبل متفرقة.. سبل الغي والضلالة.. ويحاولون غاية جهدهم ـ وبكل إحسان للطاغوت ـ إفساد إيمان الناس، بنشر المفاسد، والانحلال، والأباطيل، والأفكار الهادمة، وإنشاء الأوضاع الاجتماعية التي تَحول بين الناس وكتاب ربها، وبينها وبين الحق المبين، وتطلق كلابها المسعورة للفتك بالصالحين، والمصلحين، وإرهاب الناس عن المضي في سبيل الله.. ولكن الله مُتم نوره، ولكن المنافقين لا يعلمون، ولو كره الكافرون.

***

ونجد التغيير على المستوى النفسي والاجتماعي يتجلى في المرحلة المكية.. فمنذ اللحظة الأولى من الرسالة:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 1-5]

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: 20]

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: 1-3]

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: 10]

وقد بلغت الدعوة المجتمع المكي كله، بل والقبائل العربية ـ ومن حولها ـ عندما كانت تأتي لزيارة البيت الحرام:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: 92]

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: 24]

فكانت مرحلة الصبر والتجمل والتحمل.. ثم لما تم ذلك، جاءت مرحلة الانتقال للفعل السياسي، بالهجرة إلى المدينة.

وهنا نأتي إلى موضوع مقالنا ـ بعد هذا التمهيد الضروري السابق ـ وهو: "**توقيت التغيير على المستوى السياسي**"، والحق إنَّ هذا الموضوع من أصعب الموضوعات، وأدقها.. ولا

أزعم فيه الفهم الدقيق أو القول الفصل فيه، ولكن نشير - بفضل الله - إلى بعض النقاط الهامة، التي يجب أن تكون في عقل وتفكير السياسي المسلم.

إنَّ أي واقع سياسي يكون له رجاله، وقواه الأمنية، وشبكة مصالحه، ومجتمعه الداعم، وفي واقعنا السياسي المعاصر.. يكون - إضافة إلى ما سبق - دعم القوى الغربية، ورقابتها المشددة، وهيمنتها من خلال عملائها وجواسيسها، وأدوات سيطرتها على القرارات السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية... إلخ، هيمنة كلية تهدف السيطرة على كل شيء، والتحكم في كل شيء، وإجمالاً: استعباد الأمة، وسرقة ثرواتها، وإفساد دينها، وأخلاقها، وجعلها تابع ذليل يدور مع الغرب حيث دار.

وتحت هذا الواقع السياسي العلماني المتصلب والمعقد والمحمي بكل أنواع القوى.. يكون التغيير في لحظات معينة غير ممكن، وليس من الحكمة الاصطدام به، بل تحين الفرصة المناسبة، والتوقيت المناسب لعملية التغيير..

ومن جانب آخر: يكون تَحين الفرصة المناسبة، والتوقيت المناسب مدعاة لدى البعض للعيش في "**وهم الاستضعاف**" والبقاء في حالة من الاستكانة والذلة والمسكنة والوهن، فالعيش في وهم "الاستضعاف" يبدد كل طاقاتنا ومواردنا ويجعلنا - على الحقيقة - مُستضعفين، ومُستذلين من الجميع. بينما قد يعطينا الله - سبحانه - المال والرجال والقوة والانتشار، ثم نظن بعد ذلك أننا مُستضعَفون! فنكفر بنعمة الله، فتضيع منا.. وإنَّ الاتجاه نحو "فقه التدافع" والعزم على الخروج من "وهم" الاستضعاف.. سيدفع بنا نحو التمكين إن شاء الله.

ومن ثم نجد أن مسألة **التوازن** هنا.. مسألة دقيقة جداً في واقع سياسي متحرك ومتفاعل ولا يتوقف عن الحركة والتدافع، والمكر والكيد، والطمع والأثرة، والشح والحسد!

ومن جانب ثالث: يكون الاندفاع للانتقام والثأر للإسلام والمسلمين من عادية المنافقين والكافرين.. بلا وجود قاعدة اجتماعية، وخطة سياسية، وترتيبات ما بعد الثأر، خطة انتحارية تنتهي نهاية مأساوية! وأكثر مآسيها هو اليأس من القدرة على التغيير، والزهد في تحصيل القوى اللازمة لمواجهة الواقع بالوسائل المكافئة.. والعيش في هواجس قوة الباطل التي لا تقهر! ولا يمكن صدها! والوصول إلى حالة يهود مع موسى ـ عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: 22] والاستجابة إلى تخويف الشيطان، وإرهابه: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]

أما الحالة الإيمانية فهي: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]

والاهتمام القرآني بهذه الأحوال يشير إلى قضية إيمانية ونفسية وفكرية متشابكة في مواجهة قوى الباطل، وكيف تعتمل في النفس والفكر.

ومن الأهمية البالغة التذكر دوماً ـ وفي كل لحظة ـ الهدف الأساس من عملية التغيير السياسي هذه، وهو: **إعلاء كلمة الله، وشريعته، وتحرير الأمة من أسر أئمة النفاق في الداخل، ومن أئمة الكفر بالخارج، واسترداد سيادة الإسلام، وسلطة الأمة المسلمة، وحقوقها وثرواتها..** حيث مع طول الأمد قد ننسى في زحمة الأحداث هذا الهدف، أو يصرفنا عنه السفهاء أو المنافقين.

وإنَّ محاولة التغيير الاجتماعي، والصدع بالحق ـ كما جاء من عند الله بلا مداهنة الباطل ـ مما ترصده الأجهزة الأمنية والسياسية من أول لحظة.. ويحاولون جهدهم ـ خدمة للشيطان ـ صرف الدعاة عن هذه الدعوة بشتى الوسائل بالترغيب والترهيب، واستعمال كل الوسائل الخسيسة من أجل ذلك، حتى إذا يأسوا من صاحب الدعوة.. حاولوا البحث عن بديل ديني صُنع على أعينهم من أجل تفتيت القاعدة الاجتماعية لدعاة الحق، وجعل الناس تنصرف عنها إلى بديل ديني آخر يتحرك في الإطار الذي رسمه الباطل، وخدمة له!

كما يحاولون أيضاً تحييد الأفكار الصلبة المؤثرة، والتي يمكن أن تحرك الجماهير نحو الفعل السياسي.. فيحاولون ضرب مركز الدعوة بتمييع القضايا الإيمانية الكبرى، وتأويلها تأويلات باهتة ميتة، وتهوين أمرها في نفوس الجماهير، واتهام أصحابها بالغلو والبدعة والتطرف؛ من أجل أن ينصرف الناس عنها، ولا يبقى لدعوتهم شيء ذُو بال.

والباطل لا ييأس إلا في اللحظة التي يدمغه فيها الحق في ضربة لا يقوم منها أبداً.. فالباطل يحاول حتى اللحظة الأخيرة!

وأثناء الدعوة على المستوى الاجتماعي، والحديث ـ مثلاً ـ عن المظالم والانحرافات ضد السلطة الحاكمة؛ يرصد العدو الخارجي هذه الدعوة، وينظر في **كيفية استغلال "دعوة الحق" لخدمة "واقع الباطل"** فللعدو من المكر والتمرس فيه، وبث الدساس والفتن ما يجب أن ينتبه إليه كل مسلم..

ومِن مكره أن يحاول تقديم يد العون لدعوة الحق هذه!! حتى يخترقها، ويحرفها عن مسارها، ويجعل أصاحبها في دائرة الذين ظاهروا العدو على إخوانهم في الدين! رغم أن هذا العدو نفسه هو الذي يدعم السلطة الحاكمة الفاسدة، ويبارك مظالمها، ويشاركها في السرقة والفجور والإفساد.. ويعلّمها ذلك بنفسه!

فقد يشعر الدعاة إلى الحق بالضعف أمام هول قوة الباطل.. ويجدون من يقدم لهم يد العون (ولكن العون يأتي من العدو الماكر الحاقد!) فتتحرك في نفوسهم الرغبة في التعاطي مع هذا العون، الذي ينفجر فيهم وفي دعوتهم، وينتهي بهم إلى البوار.. لذا فإن توقيت التغيير السياسي، ومحاولة دعاة الحق المضي فيه بلا قوة ذاتية من أنفسهم قد تعرضهم لبلاء شديدة، وفتنة عظيمة.

وليس ذلك فحسب.. إن مظاهر الدعوة إلى الحق، ونشرها بين الناس، ونقد الواقع السياسي الجاهلي من حولهم، والرغبة في تغييره، أو الثورة عليه، أو تحييد منظومة الحكم هذه، كل ذلك يكون مِن حوله متربصون يراقبون كل حركة وسكنة، للاستفادة من هذه الأحداث، والوصول بها في النهاية إلى ما يخدم مصالح الباطل وأهله، خاصة القوى الدولية الخارجية!!

فالتحرك للتغيير السياسي يجب الانتباه فيه إلى: **التوقيت**، وإلى **الثمرة**.. متى يحدث؟ وفي يد من تقع الثمرة؟ حيث ـ للأسف ـ نجد أن الثمرة تقع في كل مرة في يد العدو! وترسخ وجوده! وتزيد من هيمنته!

فمثلاً: رفض الاستبداد والمظالم والطمع والأثرة مما لا خلاف عليه.. والدعوة إلى رفع هذا الظلم دعوة إسلامية لا غبار عليها، بل أمر بها الإسلام.. ولكن نجد إذا أخطأنا التوقيت والفعل السياسي الصحيح، وأخطأنا خطة الإمساك بهذه الثمرة، وجهلنا الأفخاخ، وسقطنا في الخداع السياسي.. سنجد أن هذه الدعوة تحولت ـ في النهاية ـ لسيطرة العدو على مقاليد الحكم، بزعم أنه يُلبي دعوتنا لرفع الاستبداد والمظالم، ويحقق أمانينا.. ثم نجد أنفسنا في النهاية قد خُدعنا، فلم يُرفع الاستبداد والظلم، بل زاد معه وأضافوا إليه الانحلال والإباحية والمفاسد الأخلاقية ومزيد من التبعية للغرب! كما حصل ـ مثلاً ـ مع "الثورة العربية"، وإثارة الفتنة والقومية البغيضة بين العرب والترك إبان سقوط الدولة العثمانية،

وقد كان وراء إثارتها أمريكا ويهود، من خلال الجامعات الأمريكية والمفكرين النصارى وقادة الجيوش وغيرهم.

إنَّ الذي يحدث باختصار هو تحويل **"المطلب الاجتماعي" إلى "نَجْ سياسي"** - (والمطلب في دعوتنا هنا: التحرر من الظلم والفساد، وإعلاء كلمة الله، وسيادة الأمة) وبغض النظر عن مضمون هذا المطلب الاجتماعي - فعند خطة التحرك السياسي من أجل تحقيق المطالب الحقة المشروعة في الواقع.. هناك محترفون يقفون على الطريق **لكل مطلب اجتماعي يريد أن يتحول إلى واقع سياسي**، هؤلاء المحترفون يتبنون هذه المطالب، ولكنه **التبني المخادع**، ويدعمونها، ويشاركون أصحابها.. هؤلاء المحترفون هدفهم الأساس قيادة قافلة التغيير هذه نحو مصالح العدو في النهاية، وفي أدنى أحوالها تحييد خطرها بعيداً عن العدو!

وإذا كان الواقع سيئاً - والعياذ بالله - فإن خطة التغيير السياسي يجب أن نتأكد أنها لن تحول بهذا الواقع إلى الأسوأ.. وهي مسألة دقيقة - كما أسلفنا - لا نستطيع حسمها بصورة قاطعة، فالتغيير - من جانب آخر - يكون له فترة تحول، ونمو، ومعالجة.. ونعول على رحمة الله وفضله وهدايته وذكره في كل لحظة، ومن ثم فإنْ انقطعنا عن ذكر الله - في نياتنا وفي أقوالنا وفي أفعالنا - فإنَّ هذا هو أول **هزيمة سياسية** نكراء لنا؛ ولهذا أمرنا الله بالثبات وبالذكر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 36-37]

إنه لا نصير لنا إلا الله، ولا معين لنا إلا الله، ولا هادي لنا إلا الله.. يجب في حركتنا السياسية أن نظل معلقين بحبل الله، وإن انقطع هذا الحبل - لا قدر الله - فقد وقعت

الهزيمة الحتمية، فأمام هذه التحديات السياسية المتشابكة والمعقدة والمستمرة، وإحاطة الباطل بنا من كل جانب.. لا نستطيع أن نستقل بعقولنا أو بمهاراتنا أو بقوتنا، فإنه لا حول لنا، ولا قوة، إلا بالله. وهو ـ سبحانه ـ نعم المولى، ونعم النصير.. لمن أخلصوا له الدين، وأخلصوا له العمل، واتبعوا رضوان الله.

ومن ثم.. فالتغيير السياسي، والخطة السياسية، وتوقيت تنفيذها، يجب الانتباه فيه إلى الآتي:

ـ إنَّ الدعوة الاجتماعية إلى إنكار المنكر، وإقرار المعروف يجب أن تظل مستمرة أبداً، فهي أمانة يجب أن نوفيها في بلاغ تام مبين، وهذا حق لا ينازعنا فيه أحد، جاء في بيعة المؤمنين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: "**وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ**"[1]

ـ إنَّ شرعية التغيير السياسي، وحقنا الشرعي في منازعة السلطات الحاكمة ـ بالوسائل المناسبة لكل عصر ـ يبدأ عند ظهور "الكفر البواح"، وقد سبقت الإشارة إليه في مقال منفرد.[2]

ـ إنَّه لا يحل لمسلم ـ مهما كان هدفه ودعوته ونيته ـ أن يُظاهر العدو التاريخي للمسلمين، والواغل في بحور دمائهم، بحجة التغيير السياسي.. لا يحل لمسلم أبداً أن يستنصر العدو على المنتسبين للإسلام ـ حتى ولو كان إسلامهم نفاقاً! ـ فهذا العدو إنما يمد يد العون ليقتلنا بها، وليأخذ هو الثمرة في النهاية، وليثير الفتن فيما بيننا، وليدمر مقومات الدولة، ويتحكم فيها، ويتجسس عليها ويحمي مصالحه ويضمن بقاءه.

---

(1) [صحيح البخاري/ 7199]

(2) انظر درس: "الكفر البواح" ص 108 من هذا الكتاب.

ـ إنَّ من الأمانة والإيمان عدم السماح للعدو ـ مهما كانت دعوته ناعمة داعمة لنا مؤيدة لحركتنا ـ بأن يتدخل في أي شأن من شؤوننا داخلية كانت أو خارجية، فإذا كانت خطتنا التحرر من أئمة النفاق في الداخل، فلا يمكن بحال أن يكون البديل أن يحكمنا أئمة الكفر! وإن من الإيمان عدم إحسان الظن بالعدو لحظة واحدة، وتوقع خيانته وغدره في كل حركة وكلمة.

ـ يجب أن يكون التغيير السياسي ليس مجرد التعبير عن الغضب، وتفريغ العاطفة الهائجة، أو لمجرد الثأر من الظالمين.. بل يجب أن يكون هناك حد أدنى من خطة عمل سياسي، وبطانة اجتماعية، ورداء من شرفاء الأمة وعلمائها المرضيين، بحيث لا يحدث فراغ سرعان ما يملؤه الباطل وأهله.

ـ يجب أن لا يستغل الحق (ومطالبه وأهدافه) من أجل المزيد من إقرار الباطل، فلا نعمل من خلال "خطة العدو" فنحقق له ـ دون أن نشعر ـ أهدافه.. ونجد أنفسنا ـ في النهاية ـ لم نقدم شيئاً لا لديننا ولا لأمتنا! وهذا الأمر يحتاج إلى يقظة شديدة، وتجرد كامل، ومراقبة دائمة على أنفسنا وأحوالنا، وتواضع للحق دوماً، واستبانة سبل المجرمين أينما كانوا، وإخلاص مطلق لله جل جلاله.

ـ وأما مسألة التوقيت.. المسألة المعقدة المُحيرة! فإنه يمكن أن نقول: إنَّ لها لحظات مثل لحظات الميلاد، وإرهاصات، وعلامات لمن يحسن الرصد والمراقبة؛ حيث تتهيأ الظروف، وتشيع علامات التحول الاجتماعي والسياسي، ويبدأ أهل البصيرة في الحديث عنها، والإشارة إليها.. والله ـ جل جلاله ـ بفضله سيمنحنا الفرص، ويجعل لنا من المحن المنح..

والآن.. يجب أن ننشغل كثيراً بالإعداد، حتى إذا جاء التوقيت المناسب.. كنا له نافرين منطلقين محتسبين مجاهدين لا نخاف في الله أحداً.

***

53- الحَمل السياسي

في واقع الحياة بشكل عام لا يحدث شيء من قبيل الصدفة، وفي الواقع السياسي ـ بشكل خاص ـ يحدث كل شيء كنتيجة لمقدمات طويلة، فالسياسة التي يراها الإنسان حوله هي ثمرة القوى والتوازنات المختلفة إقليمياً ودولياً.

وتغيير أي واقع سياسي (سواء من الأسوأ إلى الأفضل، أو من الأفضل إلى الأسوأ) يحتاج إلى إعادة ترتيب هذه القوى، وضبط التوازنات لصالح من يقوم بعملية التغيير.

يحدث "الحَمل السياسي" نتيجة وجود أفكار معينة يتم تلقيحها في جسم المجتمع، وبغض النظر عن طبيعة هذه الأفكار، هل هي حق أم باطل، فإنه لكي ينجح هذا الحمل.. لا بد من الإعداد الجيد للمجتمع لتقبل هذه الأفكار. والرعاية التامة الدقيقة حتى يضع حمله في صورة واقع سياسي وليد وجديد.. يأخذ دورته في الحياة، من الميلاد فالصبا فالشباب فالشيخوخة فالموت، فإعادة دورة الحياة من جديد. ومع الإعداد الجيد لا بد من وجود "القوة اللازمة" لحماية الجنين في كل مراحله.

فعالم الأفكار هو البداية، وليس هو رفاهية ثقافية.. صحيح إن رجال الأفكار يبدون في أحيان باردين، قد يثرثرون كثيراً بلا عمل، وقد لا يملكون حلاً آنياً لمشكلات مزمنة! ولكن كل هذا لا يلغي أن من عالم الأفكار يتولد الواقع، ويخرج الجنين السياسي، وأنظمته إلى الحياة.. فإذا وصل لمرحلة القوة والشباب، فلا يستطيع أحد تغييره بسهولة أبداً! ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] فماذا بالنفوس؟ لا شيء سوى الأفكار والنوايا، والتطلعات.. فالأفكار تولد الإرادات، والتي بدورها تولد الحركة والعمل.

وإذا نظرنا في ميلاد الأمة الإسلامية على يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنجده ميلاداً ربانياً من نور كتاب الله، فتم ميلاد الأمة الرسالية التي بلغت مشارق الأرض ومغاربها تحمل رسالة الله.. وإذا نظرنا إلى "غثائية" الأمة الآن وتماوتها[1].. فإنه جاء من عالم الأفكار أيضاً، جاء من أفكار مبتدعة باطلة في سياسة الحكم، رسخها بعض فقهاء الملك العضوض قديماً، وبأفكار علمانية حقنها المحتل الغربي في عقول أبناء الأمة، وهو يستعمرهم فكرياً، قبل أن يستعمرهم سياسياً، واقتصادياً، وعسكرياً، وتقنياً، واستخباراتياً... إلخ.

والعدو يعرف قيمة الأفكار، وقدرتها على احتلال الأمم والشعوب والدول بغير سلاح! فيواليها الأهمية القصوى في كل مجال، وبكل وسيلة.. حتى لا يُحقن المجتمع بالأفكار الربانية التي تؤدي إلى "حمل سياسي" رباني جديد، وإنه لحريص كل الحرص على عملية "إجهاض" كل محاولة سياسية واقعية لحقن المجتمع بهذه الأفكار الربانية، وفي المقابل يوالي رعايته التامة لحقن المجتمع بالأفكار الباطلة العلمانية التي تؤدي إلى "حمل سياسي شيطاني"..

وإنه لحريص كل الحرص على إتمام ولادته على أتم وجه، وبعد ولادته يحرص على رعايته حتى يُسيطر على المجتمع ككل! فالمولود السياسي ـ أياً كان ـ هو الذي سيرث المجتمع ويكون قيماً عليه، ومن ثم فتشكيله وتشكيل وعيه منذ البداية، هو الذي يحدد شكل السياسة لاحقاً.

والذي يريد أن يفهم الواقع السياسي المعاصر ـ في بلد ما ـ لا يمكنه ذلك دون دراسة التاريخ، تاريخ الحمل السياسي، وتاريخ نمو الجنين، وميلاده، وصباه، وشبابه، ومن أي أصل آتى.. وفي أي مرحلة هو الآن، وهل هو قادر على تجديد نفسه وخلاياه، ومن

(1) جاء في الأثر: «لَا تَكُونُوا عَيَّابِينَ، وَلَا مَدَّاحِينَ، وَلَا طَعَّانِينَ، وَلَا مُتَمَاوِتِينَ» [«الزهد والرقائق لابن المبارك»]

يدعمه في ذلك؟ وبذلك يستطيع أن يفهم ويقرأ ويفسر الأحداث تفسيراً دقيقاً وعلمياً.. بل ويستشرف المستقبل بصورة صحيحة إلى حد كبير..

واستشراف المستقبل ليس رفاهية في عالم السياسة، بل هو أساس من ضمن الأسس والأدوات السياسية، ويمكن أن نطلق عليه "الحاسة الاستراتيجية"؛ لأن هذا الاستشراف للمستقبل، ضرورة لإعداد الخطط، وتحديد أطر العمل، والحركة، ويحافظ على الموارد المتاحة.. ويُعظم من استخدامها، ويُبدد الأوهام.. ويكشف عن الأفخاخ التي في الطريق، وما أكثرها في عالم السياسة، ومن ثم يضع خطة "الإعداد" في مكانها الصحيح، كما يفهم الإرهاصات السياسية، ومآلاتها، وكيف يجد الفرصة المناسبة.

و"الإعداد" ليس مجرد كلمة، وفي عالم السياسة الحقيقي لا معنى للشعارات دون خطة عمل، فالإعداد يعني ضمانة "صحة الأفكار التي سيتم تلقيحها في المجتمع".. ثم بثها في الجسد الاجتماعي، وحمايتها من الأفكار الضارة والمفسدة، وإعطائها الأدوية اللازمة، واليقظة الدائمة لدفع كل فكرة ضارة، وتغذية الفكرة بالمقويات اللازمة، حتى ينمو "الجنين السياسي" في بيئة مناسبة؛ ليضع حمله، وتأتي الرعاية الدائمة له من "الرواد" الذين وهبوا أنفسهم لهذه المهمة العظيمة، حتى يكبر وينمو، ويشتد عوده.. ثم يتحين الفرصة ليأخذ مكانه في القيادة، ويطرد "أبناء الحرام" من سدة الحكم، والتوجيه، والقيادة، وأبناء الحرام: هم الذين يحملون الأفكار الباطلة، والفاسدة، والمنافقة، وهم الذين جعلوا من أنفسهم خدماً لأعداء الأمة.

وإنْ كانت الأفكار التي تم حقنها في الجسد الاجتماعي بها بعض الخلل أو الضعف أو التشوهات، فإنها ستصيب المولود بالضعف والتشوه، وربما الموت في لحظة الميلاد أو بعده بقليل.. والتشوه والضعف الفكري، يأتي من:

عوامل داخلية: أن يكون مَن يقوم بحقن الأفكار في المجتمع يحمل بعض العدوى الفكرية الضارة، نتيجة تلوثه ببعض الأباطيل والأمراض، وربما تظل هذه العدوى أو

البكتريا الضارة كامنة.. ثم تظهر في اللحظات الحاسمة، فتُفسد عملية الميلاد كله، دون الحاجة لتدخل العدو.. ومن هذه الأفكار الضارة مثلاً:

ـ التحلل من القوى؛ فيصاب الجسم الاجتماعي بالمرض والهزل والضعف، ويفقد قدرته على المناعة، فيكون عرضة لكل الأمراض.. بل والموت في كثير من الأحيان.

ـ عدم القدرة على كشف الفيروسات الفكرية الغازية، وتعامل الجسد معها على أنها كائنات صديقة؛ فتخترق الجسد الاجتماعي، وتصيبه بالأمراض العلمانية والدنيوية. وفشل الجهاز المناعي في التعرّف على العدو، ومن ثم اعتباره صديقاً، يمكنه توجيه الجنين والتحكم فيه.

ـ الغرور، والطمع بعد الشعور بالحمل، ورؤية حركة الجنين، وهو بعد لم يُولد، ولم يشب ويقوى.. والتعامي عن مراحل "الحمل السياسي" وما تتطلبه من إعداد ويقظة وحذر.

ـ أكل الجسد نفسه من خلال "التحسس التكفيري" حيث تهجم هذه الأفكار على الجسم، وتتعامل مع الجسد الاجتماعي كجسد معادٍ، ولا تميز خلايا الجسد الاجتماعي من الخلايا الضارة، فتأكل في المجتمع ذاته.

ـ العيش في بيئة غير مناسبة للجسد الاجتماعي أو منفصلة عنه، والمحاولة القصرية لتطويع الجسد.. مما يسبب مقاومة داخلية له.

ـ الحمل الكاذب، وهو إثارة الجسد الاجتماعي، وإشغال وإنهاك قواه في معارك تافهة.. باعتبارها مسائل مصيرية، وما هي بذلك؛ من أجل إضعاف الجسد، والتوهم بأنه بحالة جيدة، وبأنه حامل بالأفكار الصحيحة القادرة على التغيير.

والعوامل الخارجية: وهي تأتي من العدو الذي يراقب الجسد الاجتماعي، ويراقب الأفكار الحبلى فيه.. ويحاول تسميم الجنين قبل ميلاده، وقتله عند ميلاده، وتشويه صباه،

فإذا شب وقوى حاول التفاوض معه، وتحجيم قوته قدر المستطاع، وإشغاله بنفسه عن المزيد من القوة والتمدد! ومن هذه الأفكار مثلاً:

ـ الأفكار العلمانية التي تجعل الجنين السياسي ابناً من أبناء العدو، وخادماً له.

ـ الهزيمة النفسية التي تجعل مجرد المحاولة والتفكير حلماً بعيد المنال، ومستحيل لا يمكن الوصول إليه.

ـ الاستسلام والانبهار والتبعية باستخدام أدوات التزيين المادية، والغرور بها.

ـ الرهبة حتى التماوت من إمكانية القدرة على مواجهة العدو.

ـ تسميم الجسد الاجتماعي بالمفاسد والإباحية والانحلال والظلم والفقر.

وكَمْ من محاولة كاد الجنين السياسي أن يُولد.. ثم تأتي الأمراض الداخلية لتقتل الجنين في بطن المجتمع أو في مهده، وتُضيع فرصاً قد تحتاج إلى جيل واحد لإعادة المحاولة من جديد!

فالحمل السياسي الناجح: يجب أن يضمن صحة الأفكار التي سيتم تلقيح الجسد الاجتماعي بها، ويضمن حمايتها من الأمراض الداخلية خاصة، والخارجية بشكل عام.

وإذا أخذنا مثالاً للتوضيح: فالنظام السياسي الملكي الذي كان راسخاً، ثم تحول ـ بعد انقلابات ـ إلى نظام سياسي عسكري، وتم الميلاد بالقضاء على النظام الملكي الذي كان كثير المساوئ والخطايا.. إن الحكم على النظام السياسي العسكري بالصلاح لا يمكن أن يكون بسبب أنه ينتقد النظام الملكي، ويتبرأ منه.. فهذا من الدعاية الكاذبة والسهلة أيضاً، فما أسهل الحط على القديم، والتبشير بالجديد! ولكن الحكم الصحيح يأتي من البحث عن الأصل، وعن الأفكار التي تم على أساسها ميلاد هذا النظام العسكري، ومن الذي راعى هذا الجنين حتى ميلاده، ومن الذي يحميه، وماذا يستخدم من أدوات التمويه والخداع،

وما هي عوامل الصحة والمرض بالنسبة له.. وفي أي مرحلة هو. كل ذلك مما يُسهل عملية الحكم الصحيح على هذا النظام.. وليست السياسة ـ ولا الحياة ـ بالتمني، ولا بالتوهم، ولا التغيير يأتي بطريقة سحرية غامضة الأسباب.

ومن ثم عندما يزعم هذا النظام العسكري "الديمقراطية" و"الجمهورية" و"العمل النيابي والبرلماني"... إلخ، فلا شك في أن هذا الزعم من الأباطيل، أو على أقل تقدير تحت السيطرة التامة.. والبحث في تاريخ النظام السياسي العسكري سيكشف عن هذه الأباطيل، وسيحفظ الجهد والفرص من تبديد الجهد في الأوهام، والولوج في حقول الأنفاخ.

حيث سيظل الجنين العسكري الذي تم ميلاده ـ ويجب أن نعرف في أي مرحلة هو الآن ـ سيكبر ويسيطر ويظل يسيطر حتى يأتي جنين جديد يطرده ويأخذ مكانه! ولا يمكن أن يأتي الجنين الجديد الصالح من رحم موبوءة بالفساد، ولا يمكن أن يكون متحللاً من القوة، بل لا بد من أن يكون قوياً بما فيه الكفاية لإزاحة القديم.

وإننا في هذا المثال نحاول توضيح أهمية قراءة المشهد السياسي قراءة صحيحة وتحليلية وتاريخية، حتى نقف بالضبط على كيفية التغيير، بعيداً عن "الدجل السياسي" الذي يعمي الإنسان عن الرؤية، ويبدد طاقته في العبث والأوهام.

***

وإنَّ الحمل السياسي الصحيح لا يمكن أن يقوم به إلا المخلصون المسلمون.. حيث الإسلام هو الضمانة الوحيدة للإصلاح وللجزاء، إن الوطنية وحدها لا تكفي.. فيمكن للإنسان أن يشتري وطناً جديداً في أي مكان (والعالم أصبح صغيراً)، وأما المرتزقة فتبيع نفسها لمن يدفع أكثر. أما الإسلام الحق فهو يربي أجيالاً لا تقوم إلا لله، ولا تشهد إلا لله.

فالتربية الإسلامية السياسية الراشدة هي التي تستطيع أن تُخرّج ـ بفضل الله ـ الأطباء الرواد الذين لديهم القدرة على تلقيح الجسد الاجتماعي بالأفكار الربانية الصحيحة، ورعايتها حتى الميلاد، ويعدوا القوة اللازمة لوضع "أبناء الإسلام" مكان "أبناء الحرام".

***

54- التيار السياسي

يُروى مرفوعاً إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ "عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كُنَّا فِي بَيْتِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَجَاءَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى وَقَفَ، فَأَخَذَ بِعِضَادَةِ الْبَابِ، فَقَالَ: "الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَلَهُمْ عَلَيْكُمْ حَقٌّ، وَلَكُمْ مِثْلُ ذَلِكَ، مَا إِذَا اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا، وَإِذَا حَكَمُوا عَدَلُوا، وَإِذَا عَاهَدُوا وَفَّوْا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"[1]

وفِي رواية: "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "الأُمَرَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ مَا عَمِلُوا فِيكُمْ بِثَلاثٍ: مَا رَحِمُوا إِذَا اسْتُرْحِمُوا، وَأَقْسَطُوا إِذَا قَسَمُوا، وَعَدَلُوا إِذَا حَكَمُوا".[2]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ..."[3]

وجاء في حديث السقيفة لاختيار الخليفة بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لرجل من الأنصار يطلب الخلافة: «فَمَا ذَكَرْتُمْ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ وَلَنْ تَعْرِفَ الْعَرَبُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ فَهُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا (يعني مكة) وَنَسَبًا (يعني أشرفهم)»[4]. فكان الصِدّيق يخاف من وقوع انشقاقات تؤدي إلى تفكك الدولة الإسلامية. وانتهوا إلى صياغة توافقية، فقال أبو

(1) [مسند الإمام أحمد/ 12489]

(2) [المستدرك على الصحيحين/ (4 : 494)]

(3) [صحيح البخاري/ 3496]

(4) [«مصنف عبد الرزاق» (6/ 93 ط التأصيل الثانية)، وسيرة ابن هشام]

بكر: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا نُنْكِرُ فَضْلَكُمْ وَلَا بَلَاءَكُمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَا حَقَّكُمُ الْوَاجِبَ عَلَيْنَا، وَلَكِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَنْزِلَةٍ مِنَ الْعَرَبِ لَيْسَ بِهَا غَيْرُهُمْ، وَأَنَّ الْعَرَبَ لَنْ تَجْتَمِعَ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَنَحْنُ الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَصَدَّعُوا الْإِسْلَامَ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ أَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ، أَلَا وَقَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، لِي (أي عمر بن الخطاب) وَلِأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ، فَأَيُّهُمَا بَايَعْتُمْ فَهُوَ لَكُمْ ثِقَةٌ»(1)

وقد ظن بعض الفقهاء ـ غفر الله لهم ـ أن "القرشية" (من حيث النسب) شرطاً من الشروط الواجب توافرها في الخليفة ـ وقد حكوا الإجماع في ذلك ـ منهم من جعلها شرط صحة، ومنهم من جعلها شرط كمال! ومنهم من فرّق بين الولاية العامة، والولاية الخاصة كذلك.

والإسلام أبعد ما يكون عن أن يجعل مسألة "النسب" مجرداً.. شرطاً في تحديد المواصفات والشروط التي يجب توافرها في الخليفة.. فسبحان القائل لأبينا إبراهيم ـ عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124]. وقال تعالى لنوح ـ عليه السلام ـ عندما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: 45، 46]

وفي الآية الجامعة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]

(1) [«مصنف ابن أبي شيبة» (7/ 432 ت الحوت)]

وفي حجة الوداع، "عَن أُمِّ الْحُصَيْنِ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ حَسِبْتُهَا قَالَتْ: أَسْوَدُ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا**"[1]

وقال ـ عليه الصلاة والسلام: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟ "، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ**"[2]

وقد أعطى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأسامة بن زيد قيادة جيش يضم كبار الصحابة، بمن فيهم أبي بكر وعمر ـ رضي الله عن الجميع. "فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ بَعْثًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَطَعَنَ النَّاسُ فِي إِمَارَتِهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعَنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، **وَايْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ**، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ"[3] وقد كان أسامة ـ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حينها في سن الثامنة عشرة، وكان شديد السواد.

ولو كانت "قرشية النسب والوراثة" لكان أولى الناس بها آل محمد، وكان الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ أكبر ولد فاطمة ـ رضي الله عنها ـ أولى الناس بها، فهو في القمة من النسب القرشي![4] ولكن لم تمض الأمور أبداً على هذا النحو، ولا فكر فيه الصحابة رضوان الله عليهم، ولا جال بخاطرهم.

---

(1) [صحيح مسلم/ 1299]

(2) [مسند الإمام أحمد/ 22977]

(3) [صحيح البخاري/ 4469]

(4) جاء في الحديث الشريف: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ" [صحيح مسلم/ 2279]

إنَّ الإسلام في أمر الخلافة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يُوزع ميراثاً، ولا يُقسم تركة، ولا يخلع ألقاباً.. إنما هي مهمة عظيمة لحمل الرسالة وتبليغها بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فليست هي ملكاً ولا ميراثاً، بل هي أمانة كبرى وتضحية وبلاء وجهاد في سبيل الله.

إذن.. كيف نفهم مقولة: "الأئمة من قريش"؟

نفهم منها طبيعة التكوين السياسي حينها، ومكانة قريش ووزنها في جزيرة العرب، وأن الناس يخضعون لها بحكم "العادات القبلية" التي تدين بالطاعة لأعلى القبائل مكانة، وقد كانت قريش تميزت في الجزيرة العربية بخدمة البيت الحرام المُعظم عند الجميع، وكانت القبائل عندما تسمع بدعوة الإسلام، كانت تقول: ننظر في أمر قريش مع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن آمنت قريش آمنا معها. فقد كانت القبيلة المركزية في جزيرة العرب، وكما جاء في الروايات أعلاه: "الناس تبع لقريش"، "ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش فهم أوسط العرب داراً ونسباً"، ومن جانب آخر: كان الاختيار من قريش في "السابقين الأولين من المهاجرين". وقد روى ابن سعد في طبقاته بسنده عن عمر بن الخطاب قال: **"هَذَا الأَمْرُ فِي أَهْلِ بَدْرٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، ثُمَّ فِي أَهْلِ أُحُدٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَفِي كَذَا وَكَذَا، وَلَيْسَ فِيهَا لِطَلِيقٍ وَلا لِوَلَدِ طَلِيقٍ وَلا لِمُسْلِمَةِ الْفَتْحِ شَيْءٌ"**.(1)

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: **"إن الخلافة لمن سار بسيرة رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وسيرة صاحبيه وعمل بطاعة الله، وليست الخلافة لمن عمل بالجور وعطل الحدود، ومن لم يعمل بمثل سيرتهما كان ملكاً من الملوك يتمتع في ملكه، فكان قد انقطع**

(1) [الطبقات الكبرى ج3، ص260، تاريخ دمشق ج59، ص 145، أسد الغابة ج4، ص 436]

عنه وبقيت تبعته عليه، فهو كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾"(1)

وقد كان اختيار "خليفة" من هذه القبيلة يعني إذعان وخضوع القبائل الأخرى، ولا يترك حجة لمعترض.. على أن بعض الاعتراض والطمع قد وقع رغم ذلك! ووقعت "حروب الردة" التي تصدى لها أبو بكر رضي الله عنه.

ولكن ذلك لم يكن يعني أن قريش هكذا أفضل من الأنصار ـ مثلاً ـ الذين كانوا يطالبون أيضاً بأن تكون الإمامة فيهم.. لكن مراعاة "التيار السياسي" حينها هو الذي جعل الأمر في قريش. وقد قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الأنصار: **"لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا، أَوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا**"(2)

يقول ابن خلدون: «المصلحة في اشتراط النّسب وهي المقصودة من مشروعيّتها وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلّا **اعتبار العصبيّة الّتي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة**، بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملّة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها؛ وذلك أنّ قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم، وكان لهم على سائر مضر العزّة بالكثرة والعصبيّة والشّرف، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم فلو جعل الأمر في سواهم، لتوقّع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم.. ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردّهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكرّة فتتفرّق الجماعة وتختلف الكلمة... فإذا ثبت أنّ اشتراط القرشيّة إنّما هو **لدفع التّنازع بما كان لهم من العصبيّة والغلب**، وعلمنا أنّ الشّارع لا يخصّ الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمّة علمنا أنّ

(1) [ربيع الأبرار، ونصوص الأخبار للزمخشري، ج3، ص322]

(2) [صحيح البخاري/ 7245]

ذلك إنّما هو من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلّة المشتملة على المقصود من القرشيّة وهي وجود العصبيّة فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبيّة قويّة غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية»(1)

”كان الأمر إذن للشورى بين المسلمين، وللإقناع وللاقتناع بمن هو أحق الناس بالخلافة. ولئن كان الجدل يوم السقيفة قد انتهى إلى أن تكون الخلافة في المهاجرين، فما كان ذلك فرضاً إسلامياً؛ ولكنه تواضع واتفاق بين جماعة المسلمين، كان الأنصار يملكون رده ولا تثريب عليهم، لولا أنهم ارتضوه لأنه أصلح خليفة، ولأن المهاجرين أسبق إلى الإسلام، ولعوامل محلية واقعة بين الأوس والخزرج كذلك في المدينة.

وإذا كان التراضي قد تم يومذاك أن تكون الخلافة في المهاجرين، فما كان هناك ما يلزم أن تكون في قريش خاصة؛ ولو كان الأمر كذلك ما قال عمر بن الخطاب وهو يعين أهل الشورى بعده: "ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته" فسالم ليس قرشياً عن يقين، **وروح الإسلام ومبادئه تأبى أن تجعل لقريش درجة فوق المسلمين، لمجرد أنها قريش، أو أن فيها نسب الرسول. والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يقول: "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"** رواه مسلم.“(2)

وإذا فهمنا الأمر على هذا النحو، ندرك أن محاولة البحث عن أي قرشي لجعله خليفة من الناحية الشكلية فقط ـ كما حصل في بعض فترات الملك العضوض ـ كانت محاولة ساذجة! والأخطر من ذلك أنها مخالفة لسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وبعض الفقهاء ـ غفر الله لهم ـ يُدخلون مسألة "الأئمة من قريش" في صلب "العقيدة الإسلامية"! ويتهمون ويُبدِعون أي أحد يقول بخلاف ذلك، حتى إن بعض الدعاة

(1) [«تاريخ ابن خلدون» (1/ 244)]

(2) [العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، ص 153]

المعاصرين أعتبر أن من الحل السياسي لقضايا المسلمين وصلاحهم.. البحث عن قرشي لتوليته منصب الخلافة! وظن البعض أنها حقيقة قدرية خالصة! وتشددوا غاية التشدد في هذا الأمر، وهذا كله أراه تكلفاً لا معنى له.

فما جاء في قريش جاء على سبيل الخبر لا الأمر، ولو كان أمراً قاطعاً من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما اعترض عليه الأنصار أبداً، ولا استشكلوا فيه، وكانوا أحق الناس بتنفيذ أمره عليه السلام، كما أنه لو قصد رسول الله تعيين الخليفة بعده في قول: "الأئمة من قريش" لكان السؤال التلقائي الجدير بالذكر، أن يُعين لهم هذا الخليفة، ولكن رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يُعين أحداً، وإنما ترك الأمر شورى بين المسلمين؛ لقد كانت هذه المسألة تدور مع علة اجتماع الكلمة لا على نسب قريش، فلا نسب إلا التقوى، ولا سلطة إلا لكتاب الله، ولا شرعية إلا لشورى الأمة واجتماعها.(1)

***

إننا نجد هنا درساً مهماً من دروس السياسة، وهو رغم تساوي المكانة والفضل بين أهل التقوى.. **يجب عند اختيار الأئمة والقيادات مراعاة:**

ـ التيار السياسي الذي يخضع ويدين له عموم الجماهير.(2)

ـ مراعاة أفهام الناس، وطريقة تفكيرها.

ـ عدم التنافس على المنصب، والطمع فيه، واتخاذه وسيلة للعلو والمغنم.

(1) من الفقهاء الذين مالوا إلى عدم اشتراط القرشية إمام الحرمين الجويني، والقاضي أبو بكر الباقلانيّ، والشيخ محمد أبو زهرة، وصرّح بذلك القاضي نجم الدين الطرسوسي الحنفي في كتابه "تحفة الترك".

(2) سألت امرأة الصِدّيق رضي الله عنه: "قالَتْ: ما بَقَاؤُنَا علَى هذا الأمْرِ الصَّالِحِ الذي جَاءَ اللَّهُ به بَعْدَ الجَاهِلِيَّةِ؟ قالَ: بَقَاؤُكُمْ عليه ما اسْتَقَامَتْ بكُمْ أئِمَّتُكُمْ، قالَتْ: وما الأئِمَّةُ؟ قالَ: أمَا كانَ لِقَوْمِكِ رُؤُوسٌ وأَشْرَافٌ يَأْمُرُونَهُمْ فيُطِيعُونَهُمْ؟ قالَتْ: بَلَى، قالَ: فَهُمْ أُولَئِكِ علَى النَّاسِ." [صحيح البخاري/ 3834]

وإنه عند الاختيار لا يعني أن هذا الإمام أو القائد هو الأفضل على الإطلاق، أو أفضل من الكل. ولا يعني أن نسبه أو وزنه سيظل هكذا أبداً (بحيث يصبح قاعدة لا يجوز خلافها).. بل هو سياق سياسي وتاريخي، قد يتغير لاحقاً.

بل إنه قد يوجد الأفضل، والأتقى.. ولكن تياره السياسي ضعيف، ومكانته بين الناس غير مُقدرة! ومع ذلك يقع الاختيار على القادر على قيادة التيار السياسي العام بقوة واقتدار.. وبكل تأكيد ليس هذا هو الشرط الوحيد! **فهناك شروط أخرى أساسية، وهي**:

- حمل الرسالة الإسلامية، وإعلاء كلمة الإسلام بحيث يعلو ولا يعلى عليه.

- إقامة الشريعة الإلهية، بالحق والعدل الرباني.

- تحرير الأمة والدفاع عنها.

فبعد هذه الشروط نبحث في أقوى التيارات السياسية، وأكثرها جماهيرية، وطاعة، وبطانة صالحة.. لنختار منها القيادة، دون محاولة عرقلة هذا التيار، أو إضعاف وجوده، أو منافسته، أو تفتيت وحدته وقوته، أو - والعياذ بالله - التحالف مع العدو حتى يتم القضاء عليه، من أجل الطمع أن يصل التيار الأضعف إلى السلطة، فهذه خيانة!

كما نتطلب الزعامة السياسية عدة صفات أساسية، منها:

"- **الإخلاص الملهم للصواب** والمجبر للخطأ والمحقق للثواب في كلا الأمرين، والمحقق في نفس الوقت للتجرد من الصراعات النفسية والمؤثرات العاطفية والمصلحة الشخصية.

- **التوكل المعين على خوض التجربة** قبل بدئها وعلى تحمل آثارها بعد تمامها.

ـ **الذكاء المحقق للإحاطة بالقرار** وآثاره واحتمالاته وبدائله، بدقة ذهنية واستشفاف مستقبلي يستوفي حق التفكير في القرار بأسرع وقت ممكن بحيث لا يصل صاحب التفكير إلى مرحلة الاستغراق النظري المضل والمحير.

ـ **الخبرة المستخلصة من تجارب الماضي** المشابهة للتجربة القائمة لتحقيق كل عناصر الصحة والصواب بأسهل الأساليب، وتحقيق أكبر العوامل المنبهة للتجربة إلى المزالق والثغرات التي دفع ثمنها أصحاب التجارب السابقة حتى لا يتضاعف الثمن وتتضاءل الحصيلة.

ـ **العزم** الذي يجعل صاحب القرار منطلقاً بقرار بأقصى درجات الاطمئنان الشرعي والحركي والنفسي.. اطمئناناً يملؤه ويتعداه منه إلى جميع المحيطين به فيطمئنوا كما اطمأن اطمئناناً واثقاً، بغير غرور يعمي عن الحقيقة، وبغير تردد يضيع الهدف ويحير المشاركين له في الموقف.

ـ **القوة الشخصية** التي يأخذ بها فرصته الكاملة في اتخاذ قراره ويتنبه بها إلى المحاولات الطبيعية المصاحبة لكل قرار جديد والتي يحاول فيها أصحابها نقد أو رفض القرار من المحيطين بصاحب القرار عندما يكون حوله المخلص غير الذكي، والذكي الفاقد للخبرة؛ حيث سيتمثل كل فقدٍ لأي عنصر من عناصر الإخلاص والذكاء والخبرة في محاولة معاكسة لصاحب القرار..

القوة الشخصية التي ينشئ بها واقعاً جديداً، ويدخل بها في مرحلة جديدة، ويحدث بها متغيرات جديدة بقرار واحد يتطلب رجلاً قوياً وزعيماً سياسياً.

ـ **صدق الإيمان** الذي يجعله يتعرف على مصلحة الدعوة بكل كيانه ومواهبه.

تخطر له الفكر ويلهم الأمر. ويعيش الصواب.

يعيش قضيته.. يغير ظروفه وينهض بأمته ويُحيي حضارته.

ـ **الصبر** الذي يتحمل به المناوأة من المختلفين معه داخل كيانه السياسي، والمتربصين به خارج كيانه، والضاغطين عليه من العقول غير الفاهمة، والحاقدين عليه من النفوس غير السوية.. الصبر الذي يحقق المرحلية المنضبطة بلا بطء الخائف، ولا تهور المتحمس.

ـ **الحب والألفة**: التي تعين على الاطمئنان لقراره وتخفف من وطأة الخطأ إذا حدث وتعين على تحمل المعاناة المترتبة على الخطأ.. الحب الذي يجعل الجميع يبذل كل ما في وسعه؛ لإنجاح قرار يحبون صاحبه "**خير أمرائكم من تحبونهم**".

ـ **الربانية** التي تحمي الزعيم من أي تناقض بين الحق المطلق وإنسانيته.

ـ **البصيرة** التي تحمي الزعيم من غيبة الغاية عن تصوره.

ـ **العلم** الذي يحمي الزعيم من الغفلة بالواقع وطبيعة الأمور"[1]

***

ولا شرعية ابتداء لكل تيار سياسي علماني ـ مهما كان زخمه وقوته ـ فهو بعلمانيته قد فقد وجوده الشرعي الإسلامي، إنما نتحدث عن التيارات الإسلامية؛ مثل أن يكون هناك تيارات إسلامية متعددة ذات هوية إسلامية، ومشروع إسلامي، ومرجعية واحدة هي: كتاب الله، وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم.

ومثل هذا التنوع بين التيارات يجعلنا نقول: إنه لا مانع من وجود هذه التيارات، وقيمها بواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح لله ورسوله وللمؤمنين، وأن تدخل من ضمن البطانة الصالحة، وأن تدعم التيار الأساسي، وتكون من روافده، فليس

(1) [كتاب: "التصور السياسي للحركة الإسلامية"، ص 33، للشيخ رفاعي سرور رحمه الله]

هناك من (طمع وحرص وأثرة) بل (بذل وفداء وتضحية) هذه هي السياسة الإسلامية، والسنة النبوية السياسية..

وكذلك التيار السياسي الأقوى لا يسعه أن يتجاهل إخوانه.. أو يستعلي عليهم، بل عليه توظيف كل طاقة، وتوظيف كل قوي أمين بغض النظر عن مكانته الاجتماعية وانتمائه السياسي، فلا محاباة في الإسلام[1]، وإرخاء روابط الود والتراحم والألفة والتواضع بين الجميع.. حتى لا تشتعل الغيرة والحسد والغل، ومن ثم الحرص والكيد والتنافس؛ فيقع التنازع والفشل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: 46-47]

إنَّ التنافس المباح هو التنافس إلى نعيم الجنة: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26]

وإنَّ التسابق الكريم، هو التسابق إلى مغفرة الله ورضوانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21]

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا

(1) عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حِينَ بَعَثَنِي إِلَى الشَّامِ: يَا يَزِيدُ، إِنَّ لَكَ قَرَابَةً عَسَيْتَ أَنْ تُؤْثِرَهُمْ بِالإِمَارَةِ، ذَلِكَ أَكْثَرُ مَا أَخَافُ عَلَيْكَ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **"مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا، وَلا عَدْلا، حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ".** [المستدرك على الصحيحين/ (4 : 89)]

فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 48-50]

وإنَّ استحضار هذه المعاني في "عالم السياسة والحكم" لهو توجيه قرآني أصيل، على معرفة بطبيعة النفس الإنسانية من حرصها على الإمارة، وعلى الجاه، والسلطة، والطمع في تسود الناس، والغيرة والحسد والحقد تجاه الآخرين، فيأتي التوجيه القرآني ليعيد ترتيب هذه المشاعر، ويزكيها، ويهذبها، ويوجه مسارها نحو الصراط المستقيم، نحو مغفرة الله وجنته.

***

55- الأحزاب السياسية

في **بلاد الغرب** الديمقراطية: تنتظم الأيديولوجيات (اليمينية، واليسارية)[1] في صورة أحزاب سياسية، تسعى للوصول إلى الحكم من خلال إقناع الجماهير بالتصويت لها، ومن ثم الوصول إلى صناعة القرار السياسي سواء من خلال التشريع عبر المجالس التشريعية، أو من خلال تنفيذ خطط الأحزاب عبر الوصول للرئاسة..

وقد تحولَ تشكيل وعي الجماهير إلى صناعة خطيرة تُكلف مليارات الدولارات، وتشمل وسائل الإعلام، ومراكز الأبحاث، والجامعات، وتصميم البرامج، والانتشار عبر وسائل التواصل الاجتماعي... إلخ، ومن ثم أصبح "المال" هو أساس العملية السياسية الديمقراطية..

ودون المال لا يستطيع أحد أن يصل إلى الحكم، أو تنتظم أيديولوجيته في كيان سياسي مؤثر.. ومن يملك المال يملك الأحزاب، وأقرب مثال على ذلك هو اللوبي اليهودي، وكياناته ـ وعلى رأسها "أيباك"[2] ـ في الولايات المتحدة، فكل رئيس أمريكي لا بد ـ أثناء ترشحه ـ أن يقدم فروض الولاء والطاعة لهذا اللوبي، وبعد نجاحه لا بد من أن يثبت

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ مقال: "صور المعارضة السياسية.. وآفاتها". واليمين السياسي الغربي: هو الذي يتمسك بالأفكار المحافظة ـ ومنها الأسرة والأخلاق، مثل مناهضة الإجهاض، والشذوذ ـ وينتهج النهج الليبرالي الرأسمالي الحر، وله مجموعة منتظمة من القيم والأفكار، ولديه حماسة للدين وللصهيونية.. ومعاداة شرسة للإسلام. واليسار السياسي: يتمسك بالأفكار التقدمية ـ على حد تعبيره ـ ويُعادي الأديان ويعتبرها مجرد أساطير أو خرافة أو لا تدخل للفضاء السياسي، ويتحدث عن العدالة الاجتماعية والفئات المهمشة... إلخ، وكل منهما في نظر الإسلام تيارات علمانية تُعادي الإسلام بصورة من الصور؛ فاليمين الغربي عدائه واضح للإسلام، واليسار يُعادي الدين من جذوره كلها، وقد يناصر بعض قضايا الأقليات المسلمة في الغرب جنباً إلى جنب مع قضايا الشواذ والملحدين! وقد يناصر بعض الأفكار الديمقراطية في عالمنا العربي!

(2) انظر ـ على سبيل المثال ـ كتاب: "سطوة إسرائيل في الولايات المتحدة" لـ جايمس بتراس.

ولاؤه الدائم حتى يستطيع أن يستمر في الحكم دون ضغط من مؤسسات الحكم الأخرى، ومن يرضى عنه هذا اللوبي فإن الدعم المالي يُفتح له، ووسائل الإعلام جزء من هذا المال.

وعندما يأتي الرئيس إلى الحكم فإنه لا يستطيع أن يصطدم بمصالح الكبار والفئات التي دعمته أثناء الانتخابات لصالح الأغلبية التي تذهب حقوقها؛ وفي أحيان يتحول الرئيس إلى مجرد سكرتارية لأصحاب رؤوس الأموال؛ لأنها "ديمقراطية رجال الأعمال".

لكن ما يميزها: التداول السلمي للسلطة، والاستقلال القضائي (إلى حد ما)، وحرية التعبير، وحرية تكوين الأحزاب والهيئات والجمعيات (وما لم تجد دعماً يصبح تأثيرها محدوداً)، ومحاولة استرضاء الجمهور، ونيل بعض الحقوق الوطنية السياسية.. وكل ذلك يمثل نوعاً من الاستقرار السياسي، والنشاط الاقتصادي المتدافع، والبحث العلمي المتطور؛ الذي يؤدي إلى التصنيع العسكري الذي يرفع من شأن الدول... إلخ، وهذه المميزات يفتتن بها العلمانيون في بلادنا ويرونها طريق الخلاص، وشعاع النور الذي يجب علينا المضي على طريقه!

وفي بلادنا: لا يوجد مثل هذه الديمقراطية الغربية، يوجد ملكيات تحميها الجيوش، وأنظمة عسكرية تحمي نفسها بسلاح شعبها، وتزعم أنها جمهوريات ديمقراطية! ولا نطيل المقام هنا سوى التأكيد على أن هذه الأنظمة لا تملك شرعية إسلامية، ولا شرعية وطنية.. إنما هي تعبد السلطة، وتؤمن بالطغيان، وتدور مع كرسي السلطة حيث دار! وتدوس في سبيله على كل شيء: الدين، والوطن، والأخلاق، والمروءة، والإنسان!

والممارسة السياسية في بلادنا ـ بهذا الحال ـ هي مجرد عبث، وديكور كأحد لوازم الجمهورية ولا يترتب على هذه الممارسة فعل جاد ينفع الناس في دينها أو دنياها؛ حتى أصبحت بلادنا مستضعفة، مستذلة، تابعة للغرب وتحت هيمنته في كل شيء تقريباً.

وفي هذه الجمهوريات: يُمنع تكوين الأحزاب على أساس ديني! فهي علمانية، وتدافع عن العلمانية! وهذا هو موضوع مقالتنا.

***

الأحزاب الإسلامية في الدول الباغية والعلمانية:

هل يجوز المشاركة السياسية في أنظمة غير شرعية؟

تبرز قصة يوسف ـ عليه السلام ـ كدليل شرعي على جواز المشاركة الجزئية في أنظمة غير شرعية (باغية أو غير مسلمة)، فكيف نستدل الاستدلال الصحيح بهذه القصة؟

جاء في قوله تعالى، حاكياً عن يوسف ـ عليه السلام ـ لما أوشكت المجاعة أن تقع في مصر: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ. قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ. وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 54-56]

لقد كان لهذا الفرعون ـ وهو غير فرعون موسى عليه السلام ـ من التعقل والحكمة والرغبة في الإصلاح، رغم أنه لم يكن على دين الله، ولكنه أنصف يوسف ـ عليه السلام ـ مما لحق به من السجن والأذى، ولما رأى الملك حكمته في تفسير الرؤى، وفي تدبير أمور الدولة.. جعله الملك من أهل المكانة والوجاهة والأمانة، ولما أدرك يوسف ـ عليه السلام ـ فتنة الجوع التي ستفتك بالناس طلب تولي إدارة هذا الأمر، رحمة بالناس، فاختار يوسف ـ عليه السلام ـ أن يجعله على خزائن الأرض، أي رئاسة وزارة الاقتصاد والتخطيط والتموين بمصطلحات اليوم. وقد أصبح عزيز مصر وهو كمنصب كبير الوزراء، وليس في هذا المنصب مغنم بل مسؤولية كبرى وتبعة ثقيلة.

ونلحظ من هذا السياق:

ـ الإنصاف والحكمة من الملك، وتمكينه لأهل القوة والأمانة.

ـ الوضع الحرج للدولة، وهي على وشك مجاعة مُهلكة قد تأتي على الدولة كلها، إن لم تدار الأمور بحكمة وعلم وأمانة.

ـ تقديم الحلول، والرؤية الواضحة لخطة الإنقاذ.

ـ عدم مباركة الباطل، أو المتابعة عليه، أو تصحيح دين الملك.. بل كان يوسف ـ عليه السلام ـ يدعو إلى الله في كل مناسبة، حتى قال لهم مؤمن آل فرعون ـ بعد انتهاء حقبة يوسف عليه السلام ـ وجاء فرعون موسى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: 34]

ـ **الإصلاح مع كامل الصلاحيات**، فلم يكن يوسف ـ عليه السلام ـ مجرد ديكور وزينة للملك أو حاشية من حواشيه ـ وحاشاه ـ بل كان حاكماً مطاعاً له كامل الصلاحيات، وحرية التصرف فيما تولاه، ومن ثم يملك قراره وأدوات تنفيذه. (وهذه من أهم الشروط)

ـ رحمة الله الواسعة بالناس، وبيعقوب ـ عليه السلام ـ وببني إسرائيل، وبنصرة نبيه يوسف ـ عليه السلام ـ وتدبير المقادير وفتح أبواب الرحمة من حيث لا يحتسب أحد؛ لتجري أقداره كما يشاء سبحانه وتعالى.. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100].

وإذا توقفنا قليلاً عند مسألة "**الإصلاح مع كامل الصلاحيات**" وهي التمكن من إصلاح جزء من حياة الناس، يخص قوام حياتها ومعاشها.. نجد أن الإسلام يدعو إلى

التعاون على البر والتقوى مع أي أحد كائناً من كان، ولا يدعو للتعاون على الإثم والعدوان مع أي أحد كائناً من كان.. فجعل "البر والتقوى" هو المعيار، وفي سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله عن "حلف الفضول"(1): "**شَهِدْتُ حِلْفًا فِي دَارِ ابْنِ جُدْعَانَ: بَنِي هَاشِمٍ، وَزَهْرَةَ، وَتَيْمٍ، وَأَنَا فِيهِمْ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الإِسْلامِ لأَجَبْتُ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَخِيسَ بِهِ وَإِنَّ لِي حُمْرُ النَّعَمِ**". وَكَانَ مُحَالَفَتَهُمْ عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ لا يَدَعُوا لأَحَدٍ عِنْدَ أَحَدٍ فَضْلا إِلا أَخَذُوه، وَبِذَلِكَ سُمِّيَ حِلْفَ الْفُضُولِ."(2)

ومن ثم.. فلم يكن هناك من إثم أو حرج في هذا الإصلاح، طالما بشروطه السابقة من: **التمكن، ومن حرية الدعوة إلى الله..**

فهل مثل هذه الحالة موجودة اليوم في أنظمة الدولة الحديثة؟

الدولة القومية العلمانية اليوم تتوغل في حياة الناس، وتسيطر عليهم سيطرة تامة، محاولة تأليه نفسها! وممارسة صور الربوبية على الناس، وأصبحت صور الحكم أكثر شمولية وتوحشاً بحيث لا تسمح بمثل هذه الهوامش، أو السماح بالتمكن السياسي لمن يناوئون ـ ولا يباركون ـ الأنظمة الاستبدادية (الملكية والعسكرية).. وعلى استعداد لإهلاك الشعب في سبيل الحفاظ على مناصبهم، بل هم يجهدون في إفقاره، وتبديد مقدراته وثرواته.. فهي أنظمة لا تحمل شرعية إسلامية، ولا حتى شرعية وطنية.. ومن ثم لا تسمح لأحد من خارج منظومتها المفسدة العلمانية أن يتمكن من إصلاح شيء..

---

(1) وهو: "قَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ: بَنُو هَاشِمٍ، وَبَنُو الْمُطَّلِبِ، وَأَسَدُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى، وَزُهْرَةُ بْنُ كِلابٍ، وَتَيْمُ بْنُ مُرَّةَ، فَتَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا عَلَى أَنْ لا يَجِدُوا بِمَكَّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا، وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ إِلا قَامُوا مَعَهُ، وَكَانُوا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، حَتَّى يَرُدُّوا عَلَيْهِ مَظْلَمَتَهُ، فَسَمَّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ".

(2) [مشكل الآثار للطحاوي/ 5971، ومسند الشاشي، وصحيح ابن حبان]

ولو حصل ضغط داخلي أو خارجي من أجل إخراج "عرس ديمقراطي" لزوم الجمهورية أو ادعاء التعددية، فإن وجود بعض المصلحين في هذا العرس لا يعني أن لهم صلاحيات حقيقية تسمح لهم بحرية القرار، وبالقدرة على تنفيذه.

ويتحول وجودهم إلى مجرد إقرار شرعية الباطل، ومباركته، والدخول فيه، والرضى به.. دون أن يعود ذلك بالنفع على الدعوة إلى الله، أو الإصلاح في حياة الناس، أو مقاومة الفساد.

ولقد وقعت مآسي كثيرة وراء الغفلة عن هذه الحقائق، فقد ظن البعض أن "الصندوق الديمقراطي" يستطيع أن يحقق وحده التمكين السياسي، وخرج مَن وصل إلى سدة الحكم، أو مراكز قيادية ليقولوا: "إنهم بكامل الصلاحيات" بينما كان يتم التجسس على أنفاسهم، والتحضير للانقلاب عليهم، ولم يستفيقوا إلا وهم على أعواد المشانق؛ فضيعوا أمانة "الثورة على الظالمين، وأمانة المنصب" رغم نيتهم الخالصة للإصلاح والتجرد من المكاسب المادية!

فلا بد لأي منصب من: الأمانة والقوة.. **الأمانة**: التي تعصم صاحبها من التلوث بالظلم والغش والخداع، أو يأخذ المنصب من دينه وأخلاقه؛ فيعود يعبد الجاه والمنصب والمال. **والقوة**: التي تملك القدرة على الإصلاح، وأدوات التنفيذ، والشدة في الحق، والأخذ على يد الظالمين، وإحباط كيد ومكر المعتدين والمتربصين والطامعين، وقطع السبيل على المجرمين.

فإذا دعوك أحد لمركز قيادي لحل مشكلة في حياة الناس، فحيّ هَلا بكل إصلاح وبر وتقوى.. ولكن دون رعونة وغفلة ودروشة وجهالة بالواقع السياسي، وألاعيب الشياطين، فإذا أعطاك أحد منصباً قيادياً لإصلاح مشكلة الصحة أو التعليم ـ على سبيل المثال ـ فطالما تملك "صلاحيات كاملة" وقدرة على التنفيذ، وأدوات تحقيق الخطة،

فتوكل على الله.. دون مباركة لباطل أو تشويش على دعوة حق أو الانتفاع الذاتي بالمنصب.. مستحضراً قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 114]

وإنْ اكتشفت أنك مجرد "ديكور وسكرتير" فانبذ لهم وللناس على سواء، إن الله لا يحب الخائنين.

وهذه الدعوة اليوم للمشاركة تكاد تكون شبه مستحيلة ـ حيث لا هوامش ولا تعددية ـ وفرضية لا وجود لها على أرض واقع ـ في بعض بلادنا ـ يتشكك فيمن يصلي الفجر أو تلبس زوجه الحجاب، ويفصلون موظفي الدولة من مناصبهم رغم عدم تقلّدهم لمناصب قيادية خطيرة، ويتحرون أمنياً على عامل النظافة قبل تعيينه في الجهاز الإداري للدولة؛ للتأكد من خلو منظومة الحكم من أي منفذ للحق أو حتى لمن يحمل أبسط درجات التدين! إضافة إلى توفر الآلاف ممن يقفون على أبواب الظالمين والباغين ويحملون أعلى الدرجات العلمية، ويطمعون في الحصول على شيء من وراء المنصب، وراضون بأن يكونوا مجرد ديكور أو سكرتارية![1]

***

الأحزاب في الدولة الإسلامية:

أساس الدولة الإسلامية، والقاعدة التي تقوم عليها هي **"الإيمان بالله، واليوم الآخر"** أي إنها ليست علمانية دنيوية مادية.. بل هي إسلامية دنيوية أخروية، وهذا أساس لا

(1) للمزيد راجع درس: "فرضيات خاطئة" ص 196 من هذا الكتاب.

يمكن تجاوزه أبداً، بل هو أصل الأصول، والذي دونه لا يمكن للدولة أن تكون إسلامية مهما رفعت من شعارات!

ومعنى إيمانها بالله واليوم الآخر:

ـ إنها تعمل لله، وتسعى لتمكين دينه في الأرض.

ـ إنها تدعو إلى الله، وتجتمع على دينه، وتنتسب إليه.

ـ إنها تسعى لتكون أمة شاهدة ومعلمة، وذات سيادة عالمية؛ لتصل بالدعوة إلى الله كل مكان.

ـ إنها تقيم كتاب الله، وموازينه وقيمه، وأحكامه، وشعائره، وحدوده وشرائعه، وتدور معه حيث دار.

ـ إنها تلتزم ـ قدر الوسع والطاقة ـ بالسنة النبوية السياسية.

ومن جانب آخر:

ـ إنها تمنع تكوين الأحزاب والجمعيات والهيئات على أساس علماني (مادي، إلحادي). فمثل هذه الأحزاب ليس لها شرعية ابتداء؛ فالاجتماع يجب أن يكون باسم الله، وعلى أساس الانتساب للإسلام. وليس على أساس محاربته في شعائره وشرائعه! فهو بذلك في وضع "**المحاربة لله ورسوله**" وليس في وضع "**الحق السياسي الديمقراطي**". حسبما تقرر "**قواعد الشورى**" في الإسلام، والمخالفة للفكر الديمقراطي، وإن التقت معه في بعض

الممارسات.[1]

ـ إنها تمنع أن يكون لهذه الأحزاب والجمعيات صلات خارجية من ناحية الفكر والتمويل؛ لتنفيذ أجندات غربية علمانية؛ حيث لا شرعية لها ابتداء، والدولة الإسلامية لا تؤمن بشرعية العلمانية عموماً[2] بل تعتبرها فكرة معادية تستهدف الإسلام والمسلمين.

ـ إنها تسمح بتكوين الأحزاب والجمعيات والهيئات على أساس إسلامي؛ بمعنى: أن يكون هدفها ربانياً.. فإذا قلنا مثلاً: قمنا بتأسيس "حزب العدالة" من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية لشعبنا الكريم.. فإن الدعوة والأفكار والخطط والحركة والطريق إلى تحقيق هذه العدالة لا بد من أن يكون "ربانياً" أي تحقيق العدالة بمفهومها الرباني[3]، وضمن إطار كتاب الله، وليس ـ مثلاً ـ من خلال المنظور اليساري المادي العلماني؛ وهكذا في كل مشروع أو فكرة في الإصلاح.

ـ إنها تسمح بحرية التعبير، وتعتبرها فضيلة وتمثيلاً للكرامة الإنسانية، وتعبيراً عن الذات الفردية والاجتماعية.. شرط أن تكون هذه الحرية لا تعتدي على المبادئ الإسلامية والأخلاقية أو تحاربها، فليس من حرية التعبير: الجهر بالإلحاد، والإباحية، والشذوذ، والانحلال، والفسوق... إلخ، ومن حرية التعبير: نقد النظام الحاكم، ونقد خططه التنفيذية، والرقابة الحرة على أدائه، والمطالبة بالشفافية المالية في كل مجال، وفضح الفساد،

---

(1) يقول الشيخ يوسف القرضاوي ـ رحمه الله: "يشترط لتكتسب الأحزاب شرعية وجودها أمران أساسيان: (الأول) **أن تعترف بالإسلام ـ عقيدة وشريعة ـ ولا تعاديه أو تتنكر له، وإن كان لها اجتهاد خاص في فهمه، في ضوء الأصول العلمية المقررة.** (الثاني) **ألا تعمل لحساب جهة معادية للإسلام ولأمته، أياً كان اسمها وموقعها.** فلا يجوز أن ينشأ حزب يدعو إلى الإلحاد أو الإباحية أو اللادينية، أو يطعن في الأديان السماوية عامة، أو في الإسلام خاصة، أو يستخف بمقدسات الإسلام: عقيدته أو شريعته أو قرآنه، أو نبيه عليه الصلاة والسلام." [فصل: تعدد الأحزاب في ظل الدولة الإسلامية، من كتاب "من فقه الدولة في الإسلام"، ص 198]

(2) انظر مقال: "خطورة الفكر العلماني".

(3) انظر ـ مثلاً ـ كتاب: "العدالة الاجتماعية في الإسلام".

وتقديم النصح، والمشورة.. والمشاركة في اتخاذ القرار، وحرية الوصول للحكم ـ إن تعذر إصلاح النظام ـ لتقديم ما هو أفضل.

ـ إنها تسمح كذلك بوسائل التعبير، مثل: القنوات، والصحف، والكتب، وغيرها من الوسائل، وإن كانت الدولة تمتلك مؤسسات إعلامية فيجب العدالة والتوازن في الطرح بين جميع المرشحين وأحزابهم بحيث يتقدم الأفضل قوة وأمانة لا الأكثر مالاً وترويجاً وإعلاماً!

كما تسمح بالتظاهر والتعبير عن الروح الاجتماعية، لكن الأفضل عدم تقليد الغرب في طريقته في التظاهر، والصواب: "الصبغة الإسلامية" كأن يكون الاجتماع للدعاء لله، والصلاة له، ورفع ذكره سبحانه وتعالى، والتعبير عن المطالب بصورة ربانية راقية مبتكرة.

ـ من أهم صور الممارسة السياسية الحرة التي تسمح بها الدولة المسلمة، هو حرية الرقابة على أداء الحكومة المالي، والرقابة على جودة أعمالها، وطريقتها في تنفيذ الخطط السياسية المعلنة.. والشفافية والعدل في جميع ميزانيات الدولة، وجميع الموارد ، وطرق الإنفاق والمصارف التي تذهب إليها، والحوكمة الحرة لجميع مؤسسات الدولة، من خلال هيئات محاسبة ورقابة تهدف إلى: إنفاذ المساءلة، وكفاءة المسؤولية، وإتمام المساواة العادلة، والاستفادة من النظم التقنية الحديثة في تحقيق الحوكمة الإلكترونية مثل: (مراقبة الأنشطة، ومراجعة القرارات، والتحقق من الأداء، والمدخلات البشرية والمادية، والمخرجات والأهداف).

وتعتبر ذلك ضرورة ومسؤولية اجتماعية سياسية على المجتمع المسلم، حيث هذه الرقابة أحد ضمانات منع الفساد، ومنع الاستبداد، ومنع تأليه الحاكم (الرئيس)، وهذه الرقابة تُعبر عن حيوية المجتمع، وكرامته، ومشاركته الحرة، وهي التي تصنع الحب والانتماء

للوطن، والقدرة على النهضة به، في ظل التدافع العالمي. وهذا هو "حرية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر".

ـ ليس بالضرورة في كل مرة أن يكون النقد صحيحاً، فقد يكون الحق مع فريق ما مرة والآخر مرة أخرى، وقد يكون جزء من الحق مع فريق، وجزء مع الفريق الآخر.. ولكن حرية النقد، وحرية التصحيح والتقويم، وحرية النظر وتقليب وجوه الرأي، مما تساهم في رفع الوعي، وحساسية التقوى، والتعلم من الأخطاء، وتربية النفس على تقبل النصح، وتغيير الخطأ (دون اتهام بالتخوين، أو إرهاب الآخرين) طالما هذا النقد (النصح) لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي: يبتغي رضى الله، ويمضي على صراطه المستقيم، ويتمثل فيه الحق والعدل الرباني..

ومن ثم إن وقع الخطأ في النظر والتقدير والتنفيذ فهو إلى اعتدال واستقامة في المرات الأخرى، حيث الذات الفردية والحزبية والجماعية تتضاءل أمام "ابتغاء مرضاة الله".. فليس هناك من ضغينة ولا غل ولا حقد ولا حرص ولا طمع ولا حسد تجاه المكونات السياسية الأخرى، ومن ثم فالاستماع للنقد، وتغيير الخطأ عمل يسعى إليه المسلم؛ لأنه يعمل لله ومع الله أولاً قبل أن يعمل مع الناس أو لهم.[1]

ـ الدولة المسلمة تمنع أن يكون "المال السياسي" هو الذي يحكم الدولة، أو يتلاعب بوعي الجماهير، أو تكون الحكومة وتشريعاتها مجرد تعبير عن رغبة القلة التي تملك المال، وهذه مسألة ليست سهلة، لكن تنظيمها ممكن، وضبط تدخل المال في العملية السياسية ممكن أيضاً، والشفافية المالية وكشوف الحسابات للأحزاب ممكن أن تساعد في تحجيم هذا الأمر.

---

(1) انظر مقال: "النقد وأنواعه".

ـ الإسلام لا يعرف السياسة الانتهازية التي تنتهك القيم والأخلاق في سبيل تحقيق مكاسب سياسية معينة في موازين السفهاء، بل الإسلام يُحرم تحريماً شديداً: الخيانة، والكذب، والغدر، والفجور في الخصومة ويعتبر أصحابها من المنافقين الخُلص.. وكل حركة سياسية للمسلمين إنما يجب أن تمضي على سنة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في إتمام مكارم وصالح الأخلاق.

ـ الدولة المسلمة تسمح بأن يكون للطوائف غير المسلمة تمثيل سياسي يُعبر عنها، وعن احتياجاتها، ومصالحها، شرط أن تكون هذه الطوائف مُسالمة وطنية، تريد العيش في سلام وسكينة (لها ما للمسلمين، وعليها ما على المسلمين) ولا تحارب الإسلام لا في شريعته وشعائره، ولا في قيمه ومبادئه، ولا في خطط الدولة المسلمة لتمكين دين الله في الأرض، ولا تتحالف أو تتآمر مع عدو للدولة والأمة المسلمة.

ـ الدولة المسلمة تطلب تكوين مجالس الشورى على أساس الكفاءة والعدالة والبلاء الحسن في الإسلام، وعلى أساس رضى الناس وحبهم ورغبتهم وتمثيلهم، وهناك من المجالس ما لا يدخلها إلا أصحاب الخبرة والرأي والكفاءة، وهذه هي "المجالس المتخصصة"، وهناك من المجالس ما يكون تمثيلاً عن الناس وعن متطلبات حياتهم كوجوه الناس وأحلامهم وذوي المكانة منهم..(1) وتمنع أن تكون هذه المجالس مجرد محاصصة سياسية، أو تقسيم لغنائم السلطة، أو مجرد تعبير ذاتي عن مصالح فردية خاصة لجماعة من الناس، أو شهادة زور على باطل، فكل ذلك من الغش والخيانة لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأمة المسلمة.

ـ الإسلام ينظر إلى المرأة نظرة تكريم ورعاية وحنان، ويعتبرها مساوية للرجل في الكرامة الإنسانية، وأفضل منه ـ ولا شك ـ إذا كانت أتقى منه، فمعيار التفاضل بين

(1) راجع بحث: "الشورى وآلياتها".

الخلق كلهم هو "الإيمان والتقوى". والإسلام يُميز بينهما في الأدوار والمسؤوليات.. فلا يدفع المرأة دفعاً للممارسة السياسية، ولا يدفعها مثلاً للأعمال الحربية، فهذا من الظلم والعدوان على طبيعة المرأة وسعادتها وهنائها وسكينتها.. والأنظمة العلمانية الغربية تدفع المرأة دفعاً لكل ما هو ضد طبيعتها، وضد رغباتها الفطرية، تدفعها باعتبارها في صراع مع الرجل؛ لا بد من أن تنتصر فيه، فإذا نجحت في الوصول إلى إنجاز ما، قالوا: انظروا إلى المرأة إنها تستطيع أن تفعل كل شيء! ثم تتركها العلمانية ـ في النهاية ـ غنيمة رخيصة للرجل تحت دعاوى الإباحية والانحلال!

وبالفعل المرأة تستطيع أن تفعل، وعقلها قد يتفوق على الرجل بمراحل، وقد وصلت وتقلدت بالفعل الكثير من المناصب العلمية والسياسية.. ولكن ما هي الضريبة التي دفعتها المرأة من أجل ذلك؟ وما هي الضريبة التي تحملها المجتمع والأسرة كذلك؟

فالمجرم الذي دفعها إلى تخيل المسألة صراعاً مع الرجل عليها أن تتفوق وتنتصر فيه! ـ وقد تفوقت وانتصرت بالفعل ـ قد سلب منها أنوثتها، وفطرتها، وحياتها الطبيعية.. وتحولت إلى امرأة مسترجلة لا يمكن أن تَسكن لرجل، ولا يودها الرجل![1]

فالمسألة ـ في الإسلام ـ وفي الحياة الطبيعية ليست صراعاً بين الرجل والمرأة، وإنما تكامل للأدوار.. ومن يؤدي دوره وأمانته (في أي مكان كان) فهو الأفضل وهو الأتقى، ونظرة الإسلام إلى المرأة، وإلى العلاقات الجنسية، وإلى الحياة الأسرية.. تحدد كثيراً من دور المرأة في الحياة السياسية.

(1) كما دُفعت من قبل إلى سوق العمل؛ لتكون مجرد أداة لزيادة الإنتاج، ثم الاستقلال عن الأسرة والعائلة، ثم الاستقلال الجنسي (الإباحية الجنسية)، وكل ذلك تحت مزاعم الحرية، وحقوق المرأة، والمرأة الجديدة، وتمكين المرأة. فانتقلت من رحاب الأسرة إلى جحيم الفردانية! وسوق العمل هذا يُفضل المرأة غير المتزوجة وغير المسؤولة عن الأسرة، لتتفرغ للعمل.. ولا تنشغل بغيره!

إنَّ العلمانية الغربية تفرض أن تشارك المرأة ـ ولو بالمحاصصة أي: شرط أن يكون للمرأة عدد معين من المقاعد البرلمانية ونحو ذلك ـ في النظام السياسي؛ حتى يكون النظام ديمقراطياً أو مرضياً عنه! والإسلام لا شك يرفض هذه النظرة، وينظر إلى المرأة نظرة رفق، ولين، ومودة، وحنان، ولا يعاكس طبيعتها، وتطلعاتها الفطرية.

ومن جانب آخر: يرحب بكل مشاركة من المرأة التي قُدرت ظروفها أن تتميز في مجال ما، وتتفوق فيه.. ولا يحرم المجتمع من المتميزات في هذا الجانب ـ طالما محافظاً على الآداب والأخلاقيات الإسلامية ـ دون أن يشعر بالضغط والضرورة لمشاركة المرأة.. ويتعامل بكل حرية واستعلاء على المقررات العلمانية الغربية.[1]

وفي غزوة حُنين فرّ كثير من الرجال عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووقفت أم سليم (وهي حامل) تصيح على الرجال الفارين وتقول: "مالكم وللفرار"! [2]

ولكن ليس معنى ذلك أو نفهم من ذلك ضرورة مشاركة المرأة في الأعمال العسكرية والجهادية، كواجب يجب علينا التمثل له والتخطيط على أساسه! ولا يمثل ذلك هاجساً ضرورياً لا بد من تحقيقه باسم "حقوق المرأة"! على عادة التصورات المادية العلمانية.. التي تريد أن تُقحم المرأة عنوة في كل مجال لتحقيق المساواة المتوهمة منهم مع الرجل!

فالإسلام ليس لديه هذه الهواجس، ولا يلبي دعاتها! ولا يجعل المرأة جُندياً مثل الرجل، ولا يُعاملها معاملة الرجل، فهذه من الوقاحة التي لا تحتاج إلى رد.

(1) انظر فصل "ترشيح المرأة للمجالس النيابية بين الإجازة والمنع" من كتاب "من فقه الدولة في الإسلام" للدكتور يوسف القرضاوي.

(2) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَغْزُو بِأُمِّ سُلَيْمٍ وَنِسْوَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مَعَهُ إِذَا غَزَا، فَيَسْقِينَ الْمَاءَ وَيُدَاوِينَ الْجَرْحَى.**» [«صحيح مسلم»/1810]

ـ العمل السياسي الحزبي ـ وغيره من الأعمال العامة ـ يدور حول قوله تعالى:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 114]

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2]

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 113-116]

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13]

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 104-105]

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]

***

ومن دعائم النظام السياسي الإسلامي:

ـ **المرجعية العليا**: وهي لكتاب الله، والصحيح الثابت من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ـ **الشورى**: التي تبحث عن الحق، وتحقق مصلحة عموم الأمة.

ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: وذلك من خلال المؤسسات الملاءمة للمرحلة الحضارية التي تمر بها الأمة، وتحقق فاعلية الأمر بالمعروف في الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية والأخلاقية، وتنهى عن المنكر في ذلك.

ـ **الرحمة**: فهي قوام رسالة الله الأخيرة للبشرية، ويجب تعميمها في كل تشريع وقانون.

ـ **القسط**: وهو من أسس هذه الرسالة، والعدل مع كل الناس.

ـ **المساواة**: فلا استئثار بالمال لصالح الحاكم وبطانته، ولا توريث للحكم والسلطة لذوي القرابات.

فالإسلام كما هو نظام أخلاقي وتعبدي وروحي، فهو كذلك نظام يقرر المبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يجب أن تسير عليها الأمة.

***

هل وجود الأحزاب في الدولة الإسلامية يُعتبر تَعبيراً عن الفُرقة المنهي عنها في كتاب الله؟

إنَّ الأحزاب، والجمعيات، والنقابات، والهيئات... إلخ، وكل اجتماع سياسي، طالما هو يجتمع على كتاب الله، فله شرعية.. ولا يدخل في الفرقة المنهي عنها، وإنما يدخل في الفرقة المنهي عنها:

ـ من يبغي ويظلم، ويحرص على مصالحه الخاصة، ويستأثر ويتغول مال الأمة.

ـ من يتعصب لحزبه ويظن وحده صاحب الحق المطلق، ويفجر في الخصومة، ويسعى على إخوانه بالسيف والإرهاب والخيانة.(1)

ـ من يخون أمانة النصح، ويغش المسلمين.

ـ من يُقدم المصالح (المادية والمعنوية) لحزبه أو جماعته على حساب باقي المسلمين. ويجعل "الولاء والبراء" لحزبه وجماعته، وليس لله ورسوله وعموم الأمة المسلمة.

ـ من يستجيب لشهوة السلطة وحب الرياسة على الناس، ويمضي في الكبائر العظيمة من أجل إشباع تلك الشهوة المتوحشة.

ـ من يُظاهر أعداء الإسلام والمسلمين على إخوانه؛ فيجعل بأسه بين إخوانه.(2)

وإنَّ السماح بوجود الأحزاب، والجمعيات، والنقابات وغيرها من صور الاجتماع السياسي.. طالما كان يمضي على صراط الله المستقيم، وطالما يبتغي رضى الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم، فوجوده يعطي للمجتمع الحيوية والتنوع والفعالية اللازمة لحركته الدائمة.. ويسمح بتربية الكوادر والقيادات، ويدفع للإبداع والرغبة الحثيثة في التغيير، والتحسين، والخلافة الراشدة في الأرض..(3)

ويكره الإسلام العصبية الجاهلية، والتأييد الأعمى، ويأمر بالطاعة في المعروف، ولا يكون الناس إمعة.. يكره أن تتحول الرسالة إلى أيديولوجيا(4) مُتعصبة تجتزأ جزءاً من الرسالة الإسلامية العامة، وتترك أو تعادي باقي الأجزاء، ثم تتحول الأيديولوجيا إلى مكون

(1) انظر بحث: "خطورة الفكر المتعصب". ومقال: "الفكر والالتصاق بالذات".
(2) انظر بحث: "ويُذيق بعضكم بأس بعض".
(3) راجع مقالات: " الفرق بين الشخصية الرسالية والحزبية"، و"معالم الشخصية الحزبية" و"الشخصية المسلمة".
(4) للمزيد انظر مقال: "ماهية الأيديولوجيا".

ذاتي لصيق بالإنسان، يعبر عن ذاته، ويخدمها! فيجعل إلهه هواه، بينما الصواب: أن يخدم المسلم الرسالة، ويتسع لكل مضامينها.

"ومع وحدة الأمة ووضوح هويتها ومنهجها الواحد حقق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشاركة الأمة في إدارة شؤونها وحكمها وذلك من خلال الأطر المختلفة كمشاركة السعود الخمسة بوصفهم ممثلين عن أحياء الأنصار، وأبي بكر وعمر بوصفهما ممثلين عن المهاجرين ومشاركة غيرهم من ممثلي القبائل.

فبذلك حقق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشاركة الأمة له من خلال ممثليها عن أطرها المختلفة التي أبقى عليها. سواء كانت أطر ولاءات خاصة أو أطر عمل إسلامي ولكنها داخل ولاء الإسلام العام وعقيدته الواحدة وشريعته الواحدة وهويته الواحدة، سواء كانت الأطر عرقية أو وظائف شرعية أو مصالح مشتركة، فالمهاجرون والأنصار مثال لأطر الوظائف الشرعية، وغفار وأسلم وجهينة أمثلة لأطر قبليات عرقية ورحم.

وينبني على هذا مشروعية الاختلاف في البحث عن أوجه المصالح وبيانها وتقديم البرامج المختلفة لتحصيل مصالح المسلمين في أمور الدنيا كما في الاجتهادات الشرعية في النوازل الحادثة، والذي يتمثل حديثاً في الأحزاب السياسية المهتمة بالعمل العام، والتي يكون تنوع اجتهادها مع حفاظها على تقديم الولاء للإسلام على الولاء الخاص لهذه الأحزاب، ومع الابتعاد عن التعصب المذموم للهوى والبعد عن احتراف المعارضة في الباطل، مع هذه الشروط يكون تنوع الاجتهاد عبارة عن إثراء لأفكار النخبة وأطروحاتها لإيجاد أفضل الحلول الناتجة عن دراسات حقيقية لا عن مزايدات سياسية.

وفي نفس الوقت تملأ هذه الأحزاب الفراغ بين الأمة والسلطة من خلال العمل العام والتعبير عن الآراء، لتصبح هذه الأحزاب أطر مشاركة وتمثيل للأمة، وأطر عمل

وتقديم برامج تعود على الأمة بالتماسك والتآلف الناتج عن تضييق هوة الاختلاف باستبانة أوجه النظر المختلفة وبالمشاركة التي تنفي الاغتراب السياسي.

وبالإبقاء على التعدد عمّق ـ صلى الله عليه وسلم ـ المشاركة، وبتعميق المشاركة يتعمّق الانتماء ولا توجد أي درجة من الاغتراب، ولكن تحقق الجماعات والأحزاب ذلك لا بد لها من أن:

ـ تقدم ولاءها العام للمسلمين على ولائها الخاص لطائفتها إذا تعارضا.

ـ تكون ارتباطها كإطار عمل وليس إطار انتماء.

ـ تحافظ على وحدة الهوية والعقيدة مع غيرها من جماعات أهل السنة والجماعة."[1]

***

وأما **البعد النفسي**: وهو محرك أساسي لحركة الإنسان وسعيه في الأرض، فالإنسانية عوالم شتى، يصعب جمعها على صورة واحدة ـ وليس مطلوباً كذلك ـ ولكن يمكن جمعها على إطار عام يتفاعل فيه الجميع ويتشارك، وحتى يتفاعل: بمحبة، وتضامن، وصدق، ومودة، ورغبة في صلاح وفلاح الآخرين، بل وإيثارهم على النفس.. وليس على: الحسد، والغل، والحقد، والتباغض، لا يمكن أن يكون ذلك إلا أن يكون الله ـ جل جلاله ـ هو أساس الاجتماع والاعتصام، فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]

(1) [كتاب: "العقائد والمقاصد"، ص100، و 115، الشيخ عبد المجيد الشاذلي، رحمه الله]

فالاعتصام بالله وبنوره وكتابه هو أساس "الألفة" ولا يمكن تحقيق الألفة الراسخة الصادقة الدائمة إلا بالله، وكانت أوثق عُرى الإيمان الحب في الله، ومن علامات حلاوة الإيمان. حيث حب الله في القلب يحميه ويُحصنه أن يغلي بالحقد والحسد على الآخرين، الأمر الذي يتحول فيما بعد إلى اقتتال وانقسام وتشظ.

والبعد النفسي للإنسان يجعله يميل تلقائياً ـ ودون موازين عقلية صارمة ـ إلى ما يشابهه:

ـ فمن يحب العدالة، وينفعل بمنتهى الشدة مع حالة فقير أو معدم.. ستجده يتجه تلقائياً للمكون السياسي الذي يُعبر عن حقوق الفقراء، وسيبحث عن "الأفكار أو المبادئ" التي تدعو إلى حقوقهم والعدالة معهم.

ـ ومن يحب القوة والسيادة، وينفعل بمنتهى الشدة مع حالة ضعف أو موقف مُخز لوطنه.. ستجده يتجه تلقائياً للمكون السياسي الذي يرغب في تحصيل القوة والسيادة ولديه دعوة وخطط لذلك، وسيبحث عن "الأفكار والمبادئ" التي تأمر بذلك.

ـ ومن يحب القتال والغلظة على العدو، وينفعل بمنتهى الشدة مع حالة انكسار للمسلمين أو سياسة ضعيفة.. ستجده يتجه تلقائياً للمكون السياسي الذي يدعو إلى ذلك، وسيبحث عن "الأفكار والمبادئ" التي تأمر بذلك.

ـ ومن يحب التغيير الهادئ التدريجي، ويحب أن يمضي في تؤدة وهدوء، ويتجنب الصدام.. ستجده يتجه تلقائياً للمكون السياسي الذي يدعو إلى ذلك، وسيبحث عن "الأفكار والمبادئ" التي تدعو لذلك.

ـ ومن يشعر بالغيرة الشديدة لوجود بعض مظاهر الفواحش وبقايا الانحلال، ويرى ضرورة التعجل في القضاء عليها، ستجده يتجه تلقائياً للمكون السياسي الذي يُركز على

الفضيلة، وسيبحث عن "الأفكار والمبادئ" التي تدعو إلى التركيز على هذا الجانب باعتباره أولية أساسية.

ـ ومن يرق لأحوال الفئات المُهمشة والضعيفة والأقليات، ويرى في نصرتهم ضرورة وواجب، ستجده يتجه تلقائياً للمكون السياسي الذي يُعبر ويدعو إلى إقرار حقوقهم، وسيبحث عن "الأفكار والمبادئ" التي تدعو إلى نصرتهم والتضامن معهم.

ـ ومن يرى إصلاح التعليم ـ مثلاً ـ هو بداية البدايات، ويشعر بالحسرة والغيرة تجاه حال المسلمين، بينما العدو متفوق علمياً وبمراحل بعيدة، ستجده يتجه تلقائياً للمكون السياسي الذي يدعو إلى ذلك، وسيبحث عن "الأفكار والمبادئ" التي تأمر بذلك.

والأمثلة عديدة.. وهكذا نرى أثر البعد النفسي ـ والذي يتكون على مراحل عمرية، وتتداخل فيه عوامل وظروف مختلفة: تربوية وبيئية ووراثية واجتماعية وثقافية ـ في تكوين الرأي والقناعات.. والإسلام لا يغفل ذلك، ولا يريد أن يكون المسلمون نسخة متطابقة من بعضهم البعض، بل يدفع كل من يتميز في مجال ويتمكن منه نفسياً وعقلياً وحركياً إلى مكانه الحق ـ بمنتهى الأمانة والصدق ـ وسنجد أننا نحتاج النفس القوية الشديدة في الغلظة على العدو، ونحتاج النفس الهادئة الوديعة في التراحم والإصلاح بين الناس، وسنجد أننا نحتاج النفس التي تكره الظلم بشدة وتسعى في تحقيق العدالة بين الناس... إلخ.

فالإسلام يَسع كل نشاط حق وفطري، بل يدعو إليه، ويحبب فيه، ويُجازي الله أصحابه جزيل الثواب عليه إذا أخلصوا لله جل جلاله.

وهكذا تتكامل النفس الاجتماعية الإنسانية في صورة من التناغم والتكامل والتعاضد.. وتُشبع كل نفس ميولها في طريق صحيح متكامل، دون كبتها أو قهرها أو

إذلالها أو إكراهها، فتتفجر كل طاقاتها في سبل الخير، على أساس من تقوى الله، ورضوانه.

ومن ثم فالمعارضة بين هذه الأحزاب ـ على النحو الذي ذكرنا ـ هي معارضة تكامل لا معارضة تطاحن، معارضة بر وتقوى، لا إثم وعدوان.. ومن ثم يسعد بها الإسلام والأمة المسلمة.[1]

***

(1) انظر مقال: "المعارضة الإسلامية، والمعارضة العلمانية".

56- البرنامج السياسي

ـ "عَن أبي سعيد الخدري، قال "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**". [صحيح مسلم/ 49]

ـ "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَن رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ**[1]**، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ**[2]**، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ**" [صحيح مسلم/ 50]

هذا ـ فيما أرى ـ هو البرنامج السياسي الحقيقي للأمة المسلمة، ولم تستطع الأمة منذ سقوط الدولة العثمانية ـ وتسلط العدو الغربي المحتل عليها، وتنصيب وكلائه على رقاب الأمة المسلمة، وإحاطتها من كل جانب ـ أن تصل بالإسلام إلى سدة الحكم عن طريق "الانتخابات والمسار الديمقراطي وبرامجه السياسية" حيث لا يمكن لأئمة النفاق في الداخل، وأئمة الكفر في الخارج أن يُسلّموا الأمة مقاليد الحكم والسلطة، ومقاليد الثروة والمال هكذا ـ بكل نزاهة واحترام! ـ لمجرد أن صَوّت المسلمون لمرشح إسلامي! أو وطني.. فهذا لن يحدث أبداً إلى قيام الساعة.

---

(1) انظر درس: "السنة النبوية السياسية" ص 254 من هذا الكتاب.

(2) انظر درس: "الكفر البواح" ص 108 من هذا الكتاب.

فأمريكا - على سبيل المثال - التي تتولى رأس الحربة في العدوان على الأمة المسلمة، هي صانعة الانقلابات العسكرية في دول العالم، ونَصّبت الجنرالات العسكريين في بلادنا، وفي غيرها من البلدان، وهي التي تطلق حربها الاقتصادية على ما تشاء من الدول[1]، وحتى في الأنظمة الديمقراطية فإنها تحاول التلاعب بالنتائج من خلال تمويل الحملات الانتخابية التي تُكلف ملايين الدولارات للحملة الواحدة والمرشح الواحد! وفي داخل أمريكا ذاتها من خلال جماعات الضغط، وممولي الحملات الانتخابية.[2]

هذه البديهية التي لا تحتاج إلى بيان، ما زالت بحاجة إلى بيان وبيان، وشرح وتفصيل؛ لأنها لم تستقر بعد في أذهان كثير من المسلمين، بل وكثير من الدعاة إلى الله، بل وكثير من العاملين في الحقل السياسي، بل ومن الذين دفعوا تضحيات تنوء بحملها الجبال! ولا يدري الكثيرون السبب النفسي والفكري وراء هذه المعضلة، رغم شاهدة التاريخ والواقع المعاصر، وشاهدة العقل، وشاهدة أهلها، بل - وقبل كل ذلك - شهادة كتاب الله عليها؟!

يُعارض هذه البديهية "المثال التركي"، ويبرز بقوة كمثال على إمكانية "الإصلاح الديمقراطي" من خلال صناديق الاقتراع، ويصبح هو القشة التي يتعلق بها أصحاب "صندوق الانتخاب"، والمثال التركي هو موضوع طويل لا يتسع له المقال هاهنا، لكن نقول باختصار: إن فوز حزب "العدالة والتنمية" جاء في خضم أحداث عالمية معينة، وجهود سابقة للأستاذ نجم الدين أربكان - رحمه الله - في وسط "تعددية سياسية" محسوبة في رسوخ واضح للعلمانية وتشجيع من مراكز البحث الأمريكية - حينها - على تجربة "الإسلام المدني الديمقراطي"، وكان الصعود محسوباً بحيث لا يضر بالمصالح الأمريكية، ولا يعمل على إصلاحات جذرية أو كما يسمونها "أصولية"..

---

(1) انظر - إن شئت - كتاب: "الاغتيال الاقتصادي للأمم" لجون بيركنز. و"عقيد الصدمة" لنعومي كلاين.

(2) انظر فصل: "الديمقراطية" من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".

هذه "التعددية الحزبية" في تركيا ـ وانتهاء سياسة الحزب الواحد منذ عام 1946م ـ جاءت بتشجيع من الغرب ـ رغم الانقلابات العسكرية ـ والاطمئنان لعدم عودة الإسلام من جديد ورسوخ العلمانية! ثم محاولة احتواء العاطفة الإسلامية في تركيا، وتعطش الجماهير للإسلام، وتحجيم التيار الماركسي الشيوعي، والأمل في معالجة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية كل ذلك ساهم في بروز وتأسيس الأحزاب التركية ذات التوجه الإسلامي.. إلا أن هذه التعددية لا وجود لها في عالمنا العربي.

ثم كانت المهارة السياسية لحزب العدالة ـ وهو يعرّف نفسه كحزب محافظ ـ في الحصول على مكتسبات إسلامية لتركيا، والتشجيع والدعم للمدارس الإسلامية، والحجاب، والرفاهية الاقتصادية، ومقاومة النزعة العلمانية المتجذرة في النظام التركي، وفي المجتمع كذلك، ثم جاء انقلاب 2016م الذي يؤكد أن الوصول إلى الحكم والتمكن منه ليس مجرد "صندوق انتخاب"، وبلطف الله نجت تركيا من محاولة انقلاب ـ بتخطيط أمريكي وأوروبي ـ والتي كانت ستقضي على المكتسبات الإسلامية والوطنية معاً، وإرجاع تركيا إلى مربع الصفر!

ومن جانب آخر: يجب التأكيد على أن نموذج حزب العدالة ـ رغم كل المكتسبات التي حققها، والتي يمكن الاستفادة الكبيرة من دروسه وتجاربه ـ ليس هو النموذج الذي نطمح إليه، ونريد الوصول إليه، فحزب العدالة يُقر بشرعية العلمانية، والمسلم يرفض هذا المبدأ من الأساس، وحزب العدالة لم يُمكن بعد للقوانين الإسلامية في منظومة القضاء والتعاملات، كما لم يستطع القضاء على "اللعنة الأتاتوركية" التي أصابت تركيا منذ تأسيس الجمهورية[1]، بل ولم يحاول حتى التخفيف منها.. وإيجاد رموز وطنية إسلامية يمكن لتركيا الانتساب إليها، وغيرها الكثير..

(1) انظر مقال: "أسلمة أتاتورك".

وقد فشل وسقط في العديد من القضايا المصيرية لا مجال للتفصيل فيها هنا.. وبدأ يفقد بريقه تدريجياً باعتباره نموذجاً إسلامياً نهضوياً كان يشار إليه بالبنان، تحت وطأة الحسابات المادية والتحالفات البراجماتية!

ولكنه رغم كل ذلك يعتبر أفضل من الأحزاب العلمانية والأحزاب التي تتخذ "الأتاتوركية" ديناً غير دين الإسلام! ويمكن اعتباره مرحلة انتقالية ذات مكاسب هشة، وكل المكاسب هشة ما لم تكن هناك قوة إسلامية تحمي هذه المكتسبات وتدين بالولاء الخالص والتام للإسلام، وتنزع ـ ولو بالتدريج ـ أي شرعية لحكم العلمانية، والهيمنة الغربية.[1]

كان لا بد من هذا الاستطراد على "النموذج التركي" لأنه يصبح عقبة، وحجة في كل حديث عن "التغيير" كأنه حجة الله على العالمين![2]

***

وعودة إلى البرنامج السياسي:

يتلخص هذا البرنامج في مجالين في الفضاء السياسي، ومجال في الفضاء القلبي والنفسي:

أما الفضاء السياسي فهو:

أولاً: المقاومة المسلحة **"فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ".**

وثانياً: المقاومة السلمية **"وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ".**

---

(1) والمنهج الصحيح ـ فيما أرى ـ هو تأييد ومباركة (المعروف من الدين والخير) بكل الحب، والبراءة من (المنكر من الدين والشر) بكل حرية.

(2) انظر مقال: "أوجه الفشل في التجربة التركية".

والفضاء القلبي:

ثالثاً: "وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ".

***

فأما المقاومة المسلحة "فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن".

فهذه "الثورة المسلحة" ـ أو الانقلاب المسلح ـ لا بد من أن تكون:

أولاً: "في سبيل الله" حتى ينال المسلم بها الأجر والمثوبة عند الله.

وثانياً: بيان **التكييف الشرعي** لها، حيث كان وما زال معضلة عند كثير من المسلمين، بل وضارب هذا الخلاف في جذور التاريخ السياسي الإسلامي، فهل الذين يتحكمون في رقاب المسلمين بالحديد والنار، وبدعم الغرب المحارب لهم.. هل هم "كفار مرتدون" أم "مسلمون عاصون" مرتكبون للكبائر؟ وإذا كانوا كذلك هل يجوز الخروج "الثورة" عليهم؟ وهل نقاتلهم قتال أهل الردة؟

واختلف المسلمون اختلافاً شديداً، ودخلوا في قضايا فقهية معقدة، مثل: حكم مرتكب الكبيرة، ونواقض الإسلام، والإرجاء، واعتناق فكر الخوارج.. وللأسف وقعنا بين تفريط المرجئة، وغلو الخوارج، وبرود المثقفين، وما أُبرئ نفسي!

حتى وصل الأمر إلى جعل مجرد الحكم على الذين يتحكمون في رقاب المسلمين قضية ينعقد عليها الولاء والبراء، والرمي بالتبديع والتفسيق والتكفير للمخالف فيها! فهي إذن مسألة دقيقة يجب ضبطها فقهياً ودعوياً وحركياً.

والصواب فيها ـ إن شاء الله ـ هو أن هؤلاء الفجرة البغاة الطغاة، هم "أئمة النفاق" لا شرعية لحكمهم، ويجب جاهدهم باليد، ورغم ذلك تجري عليهم أحكام الإسلام الظاهرة، فيكون قتالهم.. قتال أهل البغي، وهو قتال إصلاح وتأديب ورحمة[1].

وثالثاً: الإعداد والتمكن.

والنجاح في هذه المرحلة "الإعداد والتمكن" هو شرط نجاح الثورة المسلحة، إذ الأمر ليس مجرد حالة من الثأر، أو الانتقام، أو الاندفاع الأهوج.. بل لا بد من إعداد رجال كأهل بدر؛ لأنهم يقومون بمهمة فدائية لتخليص الأمة من أسر واسترقاق مئات السنين، ولا بد لهم من الخلوص الكامل، والتضحية والفدائية، وصحة القلب وإخلاصه، والعقل وحصافته، والبدن وسلامته، والوعي التام بأعدائهم.

ولقد كان إعداد رجال كرجال أهل بدر؛ ينطلقون لمعركة "فرقان كبرى" جديدة لإحياء الأمة من جديد، ولوضعها على طريق الحرية والسيادة والعبودية الخالصة لله، والتمكين لدينه في الأرض.. حلماً يراود رواد التغيير وأئمة الهدى عبر التاريخ الإسلامي كله، حيث كانوا كالعملة النادرة.. فالناس إما مستكين للوضع الحالي، وليس لهم من الهمة لتغييره.. وتدفع ـ في صمت ـ ضريبة الذل كاملة وهم الأكثرية[2]، وإما أهوج ـ لا عقل له ـ يريد أن ينتقم، دون بصيرة بالعواقب، ولا تخطيط سياسي، وهم قلة متمردة! وإما ضائع بين المناهج العلمانية المادية!

وكان رائد الحركة الإسلامية بمصر ـ على سبيل المثال ـ الشيخ الأستاذ حسن البنا (رحمه الله) يقول في رسائله: "**متى تكون خطوتنا التنفيذية؟**

---

(1) انظر بحث: "الفئة الباغية".

(2) انظر مقال: "العبيد.. وضريبة الذل".

إنَّ ميدان القول غير ميدان الخيال، وميدان العمل غير ميدان القول، وميدان الجهاد غير ميدان العمل، وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطئ.

يسهل على كثيرين أن يتخيلوا، ولكن ليس كل خيال يدور بالبال يستطاع تصويره أقوالاً باللسان، وإن كثيرين يستطيعون أن يقولوا ولكن قليلاً من هذا الكثير يثبت عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيع أن يعمل، ولكن قليلاً منهم يقدر على حمل أعباء الجهاد الشاق والعمل المضني.

وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الأنصار قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله، وفي قصة طالوت بيان لما أقول، فأعدوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختبار الدقيق وامتحنوها بالعمل، العمل القوي البغيض لديها الشاق عليها، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها.

وفي الوقت الذي يكون فيه منكم ـ معشر الإخوان المسلمين ـ ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسياً وروحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لُجج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء. وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإني فاعل إن شاء الله، وصدق رسول الله القائل: (ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة).

إني أقدر لذلك وقتاً ليس طويلاً بعد توفيق الله واستمداد معونته وتقديم إذنه ومشيئته، وقد تستطيعون أنتم معشر نواب الإخوان ومندوبيهم أن تقصروا هذا الأجل إذا بذلتم همتكم وضاعفتم جهودكم، وقد تهملون فيخطئ هذا الحساب، وتختلف النتائج المترتبة عليه، فأشعروا أنفسكم العبء وألفوا الكتائب وكونوا الفرق، وأقبلوا على الدروس، وسارعوا إلى التدريب وانشروا دعوتكم في الجهات التي لم تصل إليها بعد، ولا تضيعوا دقيقة بغير عمل.

وقد يظن من يسمع هذا أن الإخوان المسلمين قليل عددهم أو ضعيف مجهودهم، ولست إلى هذا أقصد وليس هذا هو مفهوم كلامي، فالإخوان المسلمون والحمد لله كثيرون، وإن جماعة يمثلها في هذا الاجتماع آلاف من أعضائها كل منهم ينوب عن شعبة كاملة لأكثر من أن يستقل عددها أو ينسي مجهودها أو يغمط حقها، ولكن أقصد إلى ما ذكرت أولاً من أن رجل القول غير رجل العمل، ورجل العمل غير رجل الجهاد، ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد المنتج الحكيم الذي يؤدي إلى أعظم الربح بأقل التضحيات....

ويتساءل كثير من الناس : هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم؟...

ولا أريد أن أدع هؤلاء المتسائلين في حيرة، بل إني أنتهز هذه الفرصة فأكشف اللثام عن الجواب السافر لهذا في وضوح وفي جلاء، فليسمع من يشاء.

أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته، فالقرآن الكريم ينادي في وضوح وجلاء: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [لأنفال:60]

والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف)، بل إن القوة شعار الإسلام حتى في الدعاء وهو مظهر الخشوع والمسكنة، واسمع ما كان يدعو به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في خاصة نفسه ويُعلمه أصحابه ويناجي به ربه: "**اللّهُمّ إِنّي أَعوذُ بِكَ مِنَ الْهَمّ وَالْحَزَنِ، وَأَعوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ والْبُخْلِ وَأَعوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدّيْنِ وَقَهْرِ الرّجَال**"، ألا ترى في هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف:

ضعف الإرادة بالهم والحزن، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل، وضعف الجيب والمال بالجبن والبخل، وضعف العزة والكرامة بالدَين والقهر؟ فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قوياً في كل شيء، شعاره القوة في كل شيء؟ فالإخوان المسلمون لابد أن يكونوا أقوياء، ولابد أن يعملوا في قوة.

و لكن الإخوان المسلمين أعمق فكراً وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصوا إلى أعماقها ولا يزنوا نتائجها وما يقصد منها و ما يراد بها، فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة **قوة العقيدة والإيمان**، ثم يلي ذلك **قوة الوحدة والارتباط**، ثم بعدهما **قوة الساعد والسلاح**، ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعاً، وأنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك.

هذه نظرة، ونظرة أخرى: هل أوصى الإسلام ـ والقوة شعاره ـ باستخدام القوة في كل الظروف والأحوال؟ أم حدد لذلك حدوداً واشترط شروطاً ووجه القوة توجيهاً محدوداً؟

ونظرة ثالثة: هل تكون القوة أول علاج أم أن آخر الدواء الكي؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون؟

هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه...

وبعد كل هذه النظرات والتقديرات أقول لهؤلاء المتسائلين: **إنَّ الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها**، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون

أولاً، وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون في كرامة وعزة، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح.

ويضيف ـ رحمه الله ـ تحت عنوان "وسيلة الإخوان المسلمين": أما وسائلنا العامة، **فالإقناع ونشر الدعوة** بكل وسائل النشر حتى يفقهها الرأي العام ويناصرها عن عقيدة وإيمان، ثم **استخلاص العناصر الطيبة** لتكون هي الدعائم الثابتة لفكرة الإصلاح[1].. ثم **النضال الدستوري** حتى يرتفع صوت هذه الدعوة في الأندية الرسمية وتناصرها وتنحاز إليها القوة التنفيذية، وعلى هذا الأساس سيتقدم مرشحو الإخوان المسلمين حين يجيء الوقت المناسب إلى الأمة ليمثلوها في الهيئات النيابية، ونحن واثقون بعون الله من النجاح ما دمنا نبغي بذلك وجه الله ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]

أما ما سوى ذلك من الوسائل فلن نلجأ إليه إلا مكرهين، ولن نستخدمه إلا مضطرين، وسنكون حينئذ صرحاء شرفاء، لا نحجم عن إعلان موقفنا واضحاً لا لبس فيه ولا غموض معه، ونحن على استعداد تام لتحمل نتائج عملنا أياً كانت، لا نلقي التبعة على

---

(1) ويوضح ذلك، فيقول: **التكوين**: "باستخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد وضم بعضها إلى بعض، ونظام الدعوة ـ في هذه المرحلة ـ صوفي بحت من الناحية الروحية، عسكري بحت من الناحية العملية، وشعار هاتين الناحيتين دائماً (أمر وطاعة) من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج، وتمثل الكتائب الإخوانية هذه المرحلة من حياة الدعوة" والطاعة الصارمة هاهنا نظراً للطبيعة الجهادية التي تفرضها الجندية، وإلا فالنصح والمشورة واجبة في كل حين..

بينما ـ مثلاً ـ في "**مرحلة الدعوة والتعريف**" يقول رحمه الله: "وليست الطاعة التامة لازمة في هذه المرحلة بقدر ما يلزم فيها احترام النظم والمبادئ العامة للجماعة"

بينما في "**مرحلة التنفيذ**"، يقول: "والدعوة في هذه المرحلة جهاد لا هوادة معه، وعمل متواصل في سبيل الوصول إلى الغاية، وامتحان وابتلاء ولا يصبر عليهما إلا الصادقون" [ص 378 من كتاب: "مجموعة رسائل الإمام الشهيد"]، ويجب الانتباه إلى أنه بعد اغتيال المؤسس، وإعدام سيد قطب ـ رحمهما الله ـ وتفكيك النظام الخاص، وتموضع الجماعة داخل النظام السياسي.. حدث تحول وتشظي في فكر وحركة الجماعة، وكانت "الثقة المفرطة، والطاعة العمياء" مما أورد الجماعة المهالك.

غيرنا، ولا نتمسح بسوانا، ونحن نعلم أن ما عند الله خير وأبقى، **وأن الفناء في الحق هو عين البقاء وأنه لا دعوة بغير جهاد، ولا جهاد بغير اضطهاد**، وعندئذ تدنو ساعة النصر ويحين وقت الفوز، ويتحقق قول الملك الحق المبين: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 110]"(1)

وما أن يتم هذا الإعداد، الذي به يمكن تحقيق النصر، ويقترب من "مظنة النصر، والترجيح به".. وتتهيأ الفرصة المناسبة، التي يشعرها أصحاب البصيرة، ويستبقون إليها قبل أن يخطفها منهم أحد، فيتحركون لتخليص الأمة من حكم "أئمة النفاق والبغي" بعد أن يكونوا قد انتشروا شعبياً بين الجماهير، وكونوا لأنفسهم الحاضنة والرداء الذي يدعمهم في هذه المعركة، التي يستهدفون فيها "أئمة النفاق" فقط، ولا يستهدفون عموم الناس، ولا عموم منظومة الحكم، ولا المغلوب على أمرهم من رجالهم.. فقط "أئمة النفاق وقيادات الصف الأول"، وهؤلاء لا يتعدون بضعة آلاف أو مئات من بين مائة مليون مثلاً! ولهذا لو وصل الوعي لنصف الشعب، وكان هناك رابطة تجمعهم، وقيادة ترشدهم لاستطاعوا القضاء على هذه الآلاف التي تستعبدهم بكل سهولة وبأقل كلفة، ولكن أئمة النفاق يَحولون بينهم وبين الوعي، ويحاربون الترابط بين الجماهير من خلال: الفقر والفحشاء والإباحية والإلهاء والإفساد، وترويج كل المفاسد، ومنع كل ما يصلح للناس دينها ودنياها؛ ليكونوا عبيداً للطغيان، وعبيداً للشهوات.. ولذا يأتي دور الرواد الذين يقاومون ويقتحمون كل هذه العقبات، ويحررون الناس من هذه الأغلال.. أغلال الطغيان، وأغلال الفواحش.

(1) [رسائل المؤتمر الخامس، للشيخ حسن البنا رحمه الله، عُقد في 2 فبراير 1939م، من كتاب: "مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا"، ص 176 وما تلها، ص 332، دار الدعوة]، مع الأخذ في الاعتبار التحولات التي طرأت لاحقاً على فكر الجماعة. انظر ـ مثلاً ـ مقال: "التحولات في الحركة الإسلامية".

والتضحيات في هذا السبيل لهي أقل ضريبة يمكن للمرء أن يدفعها.. وأما ضريبة الذل والاستعباد ـ والتي ظاهرها السلامة! ـ فإن المرء يخسر معها كل شيء، "إنَّ كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله، ليُعبد الله وحده في الأرض، وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام، ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده الله للإنسان.. إنَّ كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليبذل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله! والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة النفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل الله، عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد، وفوقها الأخلاق والأعراض.. إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله، وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار!"[1]

يقول الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي ـ رحمه الله ـ في قضية "**تغيير المنكر بالقوة، ومتى يجوز**": "المسلم ليس مجرد إنسان صالح في نفسه، يفعل الخير، ويدع الشر، ويعيش في دائرته الخاصة، لا يبالي بالخير، وهو يراه ينزوي ويتحطم أمامه، ولا بالشر وهو يراه يُعشش ويفرخ من حوله.

بل المسلم ـ كل مسلم ـ إنسان صالح في نفسه، حريص على أن يصلح غيره، وهو الذي صوّرته لك السورة الموجزة من القرآن، سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 1-3]

فلا نجاة للمسلم من خسر الدنيا والآخرة، إلا بهذا التواصي بالحق وبالصبر، الذي قد يعبر عنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو حارس من حراس الحق والخير في الأمة.

---

(1) [في ظلال القرآن، سيد قطب، ص1941]

فكل منكر يقع في المجتمع المسلم، لا يقع إلا في غفلة من المجتمع المسلم، أو ضعف أو تفكك منه، ولهذا لا يستقر ولا يستمر، ولا يشعر بالأمان، ولا يتمتع بالشرعية بحال.

المنكر ـ أي منكر ـ يعيش "مطارداً" في البيئة المسلمة، كالمجرم المحكوم عليه بالإعدام أو السجن المؤبد...

والمسلم إذن مطالب بمقاومة المنكر ومطاردته، حتى لا يكتب له البقاء بغير حق في أرض ليست أرضه، ودار ليست داره، وقوم ليسوا أهله...

شروط تغيير المنكر: [(1) أن يكون محرماً مجمعاً عليه، (2) ظهور المنكر (وشيوعه). (3) القدرة الفعلية على التغيير. (4) عدم خشية منكر أكبر منه.]

إذا كان المنكر من جانب الحكومة:

إذا كان المنكر من جانب الحكومة أو الدولة، التي تملك مقاليد القوتين المادية والعسكرية، ماذا على الأفراد والفئات أن يعملوا لتغيير المنكر الذي ترتكبه السلطة أو تحميه؟

والجواب: **أن عليهم أن يملكوا القوة التي تستطيع التغيير**، وهي في عصرنا إحدى ثلاث:

الأولى: **القوة المسلحة** التي يستند إليها كثير من الدول في عصرنا ـ ولا سيما في العالم الثالث ـ في إقامة حكمها، وتنفيذ سياستها، وإسكات خصومها بالحديد والنار، فالعمدة لدى هذه الحكومات ليس قوة المنطق، بل منطق القوة، فمن كان معه هذه القوات استطاع أن يضرب بها كل تحرك شعبي يريد التغيير...

الثانية: **المجلس النيابي** الذي يملك السلطة التشريعية، وإصدار القوانين وتغييرها، وفقاً لقرار الأغلبية، المعمول به في النظام الديمقراطي، فمن ملك هذه الأغلبية في نظام

ديمقراطي حقيقي غير مزيف، أمكنه تغيير كل ما يرى من منكرات بوساطة التشريع الملزم، الذي لا يستطيع وزير، ولا رئيس حكومة، ولا رئيس دولة أن يقول أمامه: لا.

الثالثة: **قوة الجماهير الشعبية** العارمة التي تشبه الإجماع، والتي إذا تحركت لا يستطيع أحد أن يواجهها، أو يصد مسيرتها؛ لأنها كموج البحر الهادر أو السيل العرم، لا يقف أمامه شيء، حتى القوات المسلحة نفسها؛ لأنها في النهاية جزء منها، وهذه الجماهير ليسوا إلا أهليهم وآباءهم وأبناءهم وإخوانهم. كما رأينا بوضوح في ثورة إيران.

فمن لم يملك إحدى هذه القوى الثلاث، فما عليه إلا أن يصبر، ويصابر، ويرابط، حتى يملكها، وعليه أن يغير باللسان، والقلم، والدعوة والتوعية والتوجيه، حتى يوجد رأياً عاماً قوياً يطالب بتغيير المنكر، وأن يعمل على تربية جيل طليعي مؤمن يتحمل تبعة التغيير...

وأود أن أنبه هنا على قضية في غاية الأهمية لمن يشتغلون بإصلاح المسلمين، وهي أن التخريب الذي أصاب مجتمعاتنا، خلال عصور التخلف، وخلال عهود الاستعمار الغربي، وخلال عهود الطغيان والحكم العلماني؛ تخريب عميق ممتد، لا يكفي لإزالته تغيير منكرات جزئية... إن الأمر أكبر من ذلك وأعظم، لا بد من تغيير أشمل وأوسع وأعمق.

تغيير يشمل الأفكار والمفاهيم، ويشمل القيم والموازين، ويشمل الأخلاق والأعمال، ويشمل الآداب والتقاليد، ويشمل الأنظمة والتشريعات. وقبل ذلك لا بد من تغيير الناس من داخلهم بالتوجيه الدائم، والتربية المستمرة، والأسوة الحسنة، فإذا غير الناس ما بأنفسهم كان أهلاً لأن يغير الله ما بهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]".[1]

(1) [باختصار من فصل "مراتب تغيير المنكر" كتاب "من فقه الدولة في الإسلام"، ص 154، د. يوسف القرضاوي]

ورابعاً: اليقين في صحة الطريق[1]

فلا يمكن خوض معترك هذه المعركة "معركة التغيير"، وفي قلوب أصحابها شك من جدوى هذه المحاولة، أو الظن ـ ولو للحظة واحدة ـ أن هناك طرقاً أخرى غير هذا الطريق.. حيث إن هذا الطريق مليء بالأشواك، والتضحيات، ويحتاج إلى "الصبر واليقين" أن لا طريق غيره! ولا مفر من دفع ضريبة الكرامة، وضريبة إعلاء كلمة الله، والشك في هذا الطريق، ومحاولة التملص منه، والهرب عنه.. لحل مثل "الحل الديمقراطي" و"الحل التوافقي"[2] هو تبديد للطاقات والأعمار والفرص، وإحباط للعمل السياسي كله؛ فيجب قبل المضي في هذا الطريق "الإعداد الفكري والنفسي والتربوي" والاطمئنان إلى الوصول إلى القناعة التامة اليقينية بصحة هذا الطريق، والإجابة على كل شبهة، وتساؤل، وشك.. حتى يطمئن الفرد المسلم، وتطمئن القيادة المسلمة إلى يقين أصحابها، فالتدافع والمقاومة لا تعرف الشكوك والظنون والتردد والتذبذب فهذا بحد ذاته هو "الفشل والخسارة"..

وإنَّ المسلم لا يمضي في هذا الطريق لأنه يشتهي "المقاومة المسلحة"، أو لأنه يفضل "العنف" ويميل إليه! بل على العكس.. المسلم هو أكثر أهل الأرض حرصاً على حقن الدماء، وحفظ النفوس، والتضحية بنفسه من أجل صلاح الآخرين، فهو أرقهم قلباً، وأفضلهم خلقاً.. وإنه ما يخوض هذه المعركة إلا من أجل "حقن الدماء"، وحفظ النفوس، والأعراض والأموال، وقبل كل هذا "حفظ الدين".. وإنه يرى أن هذه الضريبة الضرورية هي أقل ضريبة يمكن أن يدفعها الإنسان لينال بها إعلاء كلمة الله، وسيادة الأمة المسلمة..

---

(1) للتذكير: "رابعاً" من شروط المقاومة المسلحة "فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن". وكان أولاً: "في سبيل الله"، وثانياً: "بيان التكييف الشرعي"، وثالثاً: "الإعداد والتمكن".

(2) انظر مقال: "خطورة الفكر التوافقي".

وإنَّ هذا الأمر هو "سنة من سنن الاجتماع والتاريخ" كل فكرة ـ سواء كانت حقاً أم باطلاً ـ عاشت بين الناس من خلال الدماء والأشلاء والتضحيات، كل الذين سادوا عبر التاريخ البشري دفعوا الضريبة كاملة من دمائهم وأموالهم وأنفسهم.. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]

فلا دولة ولا حكم إلا بالقوة، ولا سيادة للقوة إلا بالتدافع، وأولى بالمسلمين ـ والعالم كله يتدافع ويرسخ باطله وكفره ـ أولى بهم أن يضحوا ـ في سبيل الله ـ من أجل دينهم وحريتهم ومقدراتهم وثرواتهم وسيادتهم ومستقبل أبنائهم، بل ورحمة للإنسانية جمعاء.

فلا بد إذن من التربية على هذا الأمر، والتأكد من أنه لإعلاء كلمة الله، وسيادة أمته ضريبة من الدم والمال والأنفس.. ولا بد من التدافع مع الباطل، ولا بد من التضحيات، وهذا اليقين يسهل عملية الإعداد، ويسهل عملية قطع الطريق على قطاع الطرق الذي يذهبون بالشباب إلى التيه وإلى المحارق من أجل أوهام، ومن أجل لا شيء.

وخامساً: الحكم والتمكين

إنَّ الجهاد باليد لتخليص الأمة من حكم أئمة النفاق في الداخل، وهيمنة أئمة الكفر في الخارج، ليس الغرض منه مجرد المقاومة، وليس الغرض منه القضاء على البعض دون الآخر.. بل الغرض منه: **الوصول بالإسلام إلى سدة الحكم، والتمكين له، وترسيخ وجوده في كل مجال، وفي كل فضاء.. بحيث يتحول الإسلام إلى الروح التي تنبثق منها كل حركة المسلمين، وفكرهم، وشعورهم، وسلوكهم كما كان حاله أول مرة بُعث فيها.**

ولذلك فالأمر لا يقتصر على خطة التخلص من حكم المنافقين والمحتلين، بل بالأساس هناك خطة أساسية للتمكين للإسلام، وتنظيف التربة من كل لوثات النفاق والعلمانية، وتطهير الأرض من أنخاخ الغرب المحارب المعتدي.. والتحرك وفق هذه الخطط في كل مجال بدقة، وتأن، وترو، وحماية.. في كل خطوة نخطوها نحو التمكين للإسلام.

فهناك سُراق وقطاع طرق يتحينون كل فرصة للانقضاض على مكتسبات الجهاد، وقطف ثمرته إما لتحقيق مصالح ذاتية، أو أيديولوجية، أو اختراق وخدمة للعدو.. والفرد المسلم أوعى وأرشد من أن يستخف به أحد، أو يسرق منه أحد ثمرة أجيال، ورواد سقوا شجرة الإيمان والحرية بدمائهم.

ويجب أن يكون هذا التخطيط من ضمن البرامج التربوية التي يجب أن يتشرّبها الشباب، ويتعلمون من دروس التاريخ والتجارب المعاصرة. ويتعلمون من خلال التفكير التحليلي والنقدي والإبداعي بحيث تتكون لديهم مهارة وحاسة اقتناص الفرص، والحفاظ على المكتسبات، وحمايتها بالقوة القتالية والسياسية والدعوية.

وسادساً: "إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا"

يجب أن يكون هذا هو شعار "حركة التغيير" الذي تردده صباح مساء، وتكون على يقين منه، وتتعبد الله ـ جل جلاله ـ به، بحيث لا تظن للحظة واحدة أن لها صديق أو ولي غير الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذين آمنوا، فلا تلجأ إلى الغرب والشرق تطلب منه النصرة والولاية، ولا تذهب إلى الهيئات الدولية تطلب منها العدالة والإنصاف، ولا تفرح بمظاهرة في الغرب هنا أو هناك تؤيد حقوقهم! فكل ذلك مما يشوش عقل المسلم، ومما يجعله يحسب حساباته بناء على من يزعمون الصداقة والدعم؛ فيختل الميزان في يده، وربما يضيع منه كل شيء.

إنَّ هذه المعركة من أجل الله وحده لا شريك له، والمسلم يبذل فيها ثمرة قلبه، وصفقة يده.. من أجل جنة عرضها السموات والأرض، ولا يمكن التضحية بهذا الجزاء العظيم والخير الباقي الأبدي، بتلويث النية والعمل باتخاذ أولياء من دون الله.

وإنَّ شعور الضعف، وشعور الاستضعاف، وقلة الإيمان.. قد تدفع المسلم للبحث عن أولياء - غير الله ورسوله والذين آمنوا - ليناصروه في معركته هذه، وهذا أول طريق الهزيمة، فإنما نستنصر الله - جل جلاله - فكيف نتخذ من أعداء الله أولياء لنا!

ولا بد للمسلم أن يكون على يقين من ذلك، كما أن المسلم لا يستنصر من يتخذ آيات الله هزوا، أو من يشمئز من ذكر الله.. لمجرد التوافق السياسي، والمعارضة السياسية لأنظمة الحكم، فهذا التوافق العرضي.. لا يعني الولاية، ولا يعني التوافق، ولا يعني الاستعانة بهم.. فأهم **مصلحة سياسية** لنا: **أن نظل في المجال الإيماني الصحيح الذي نستحق به استنصار الله، ولا نخرج عن مرضاته في كل فكر وحركة بل وفي كل خاطرة وشعور.**

كما على رواد التغيير أن يحذروا من "أفخاخ الدعم المزيف" من القريب والبعيد؛ لنصب الشباك لهم للإيقاع بهم، فهي حيلة قديمة للكشف عن الإعداد للثورة واختراقها عن طريق زعم القربى والتأييد والمبايعة.. من أجل القضاء عليها، وكشف أحوالها، وهي مسألة - لا شك - صعبة تتطلب اليقظة، والحذر، والفطنة، وحسن التوكل على الله.

وفي عالم السياسة الدولية: هناك مصالح تتعارض، وتتشابك، وتتفق أحياناً وتختلف أحياناً أخرى، وهناك من يعرض الخدمة والمساعدة نكاية في الخصوم أو "وحدة العدو"، وهناك من يعرض المساعدة لمحاولة الاختراق وإفساد الجهاد وسرقة ثمرته.. ولا بد للمسلم أن يعرف وضعه ضمن الخريطة العالمية، ولا يعمل من خلال خطة العدو، وإن عرض أحد المساعدة فلا بد من أن تكون: مساعدة غير مشروطة وهي حالات نادرة؛ فكل مساعدة مشروطة هي مردودة وتعني شراء الحركة وتوظيفها، ويجب أن لا يكون فيها

أذى لغيرهم من المسلمين، وأن لا تكون محاولة للاختراق أو تحول عن الأهداف أو يُدس إليهم ما يناقض ما قاموا من أجل تحقيقه، وأن لا يُفتح الباب لأحد للاطلاع على خططهم وحركتهم الحالية والمستقبلية، ولا تكون غسيل سمعة لطاغية عنيد، وأن يكون هناك إجماع من القيادة المسلمة على قبول هذه المساعدة، وأن يعملوا على ردها بالمثل حتى لا يكون لأحد يداً عليهم، وأن يكون هناك رقابة وشفافية وتجرد ومراجعة دورية للتأكد من أن هذه المساعدة لا تمس سمعة الجهاد، ولا المجاهدين، ولا تؤثر سلباً في جهادهم.[1]

والصواب والسلامة: في الابتعاد عن ذلك، وبناء القوة الذاتية بسواعد وأموال المسلمين.

***

وهذا الفضاء السياسي "**فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن**" يحدد البرامج السياسية، والتربوية، والحركية، والدعوية، والتخطيطية، ويمهد الطريق، ويفتح الآفاق للإبداع في إيجاد أفضل الوسائل والأدوات التي تساعد في تحقيق هذا البرنامج السياسي.

***

الفضاء السياسي الثاني "فمن جهادهم بلسانه فهو مؤمن".

وهذا المجال هو "مجال المقاومة السلمية" ونجد فيه أنه ربما يكون تمهيداً للمقاومة المسلحة، أو إسقاط شرعية أئمة النفاق، والبلاغ التام للرسالة الإسلامية..

فالعجز اللحظي عن "المقاومة المسلحة" لا يعني أن المسلم في إجازة، بل في إعداد.. وإن العجز اللحظي لا يعني العجز الدائم الأبدي! بل إن العجز اللحظي ـ في حس المسلم

---

(1) انظر بحث: "أجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المسلح".

الصادق ـ يعني العمل على رفع مسببات هذا العجز، والمقاومة السلمية هي إحدى هذه الوسائل، وهي جهاد أيضاً بنص الحديث الشريف، وفي الحديث أيضاً: ـ عَنْ طَارِقٍ بن شهاب البجلي، قَالَ: جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "**كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ**"(1)

ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**تَكُونُ أُمَرَاءُ تَغْشَاهُمْ غَوَاشٍ، أَوْ حَوَاشٍ مِنَ النَّاسِ، يَظْلِمُونَ، وَيَكْذِبُونَ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ، فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَيُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَيُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ**"(2)

ـ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "**سَيَكُونُ مِنْ بَعْدِي خُلَفَاءُ يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَسَيَكُونُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلَفَاءُ يَعْمَلُونَ مَا لا يَعْلَمُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ أَنْكَرَ بَرِئَ، وَمَنْ أَمْسَكَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**"(3)

ففضاء المقاومة السلمية هنا:

ـ قول كلمة الحق، مهما كان السلطان جائراً، حتى ولو أفضت إلى القتل!

ـ الامتناع عن الإعانة على الظلم بالقول أو بالفعل.

ـ الامتناع عن الرضى والمتابعة على الظلم، والمشاركة فيه، ولا بالتأييد اللفظي.

ـ تكوين الوعي العام بحقيقة الإسلام، والتبصير بأحوال الأمة، وواجب المسلمين.

ـ نشر هذا الوعي من كل طريق، والجهاد بالمال والنفس فيه.

---

(1) [مسند الإمام أحمد / 18447]

(2) [مسند الإمام أحمد/ 10808]

(3) [صحيح ابن حبان/ 6658]

ـ العمل على إصلاح الروابط بين المسلمين، وإصلاح ذات بينهم، وتحقيق الائتلاف القلبي بينهم.(1)

ـ كشف أحوال وشبكات الفساد التي تحكم في رقاب المسلمين، وثرواتهم، ومقدرات حياتهم.

ـ بيان دين الله الحق، ودفع دجل الدجالين، وإفك الكاذبين، وشبهات المفترين الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً.(2)

ـ تشبيع المجتمع بكلمة الحق ـ وبكل وسيلة ـ من خلال المنابر ووسائل الإعلام، والفن، والقصة، والكتابة، والدراسات... إلخ. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]

وإنَّ قول كلمة الحق عند سلطان جائر، متكبر.. لا تعني أن يقولها فرد مسلم لا يعرفه أحد، ولا يسمع به أحد.. ليس له كلمة مسموعة، ولا أتباع يطيعونه؛ فيعرض نفسه للهلاك هكذا.. خاصة في ظل الأنظمة المتوحشة المجرمة التي تفتك بلا رحمة، وتأخذ بالظن والشبهة، إنما قول كلمة الحق هذه ـ في الغالب ـ إنما هي للقادة والرواد الذين تنتظر الأمة كلمتهم، وتتوجه الأنظار إلى مواقفهم.. فحينها لا بد لهم من قول كلمة الحق، ولو كان فيها حياتهم؛ لأنهم بتقديم حياتهم رخيصة ـ في سبيل الله ـ فقد اشتروا حيوات الناس، وأبصروهم بالحق الذي لا ترخص فيه.. فالقائد لا يأخذ بالرخصة إنما بالعزيمة، وأما الفرد المسلم فله أن يأخذ برخصة السكوت حتى تأذن له القيادة. وإن غابت القيادة فليس أمام المسلم إلا أن يصدع بالحق في سبيل الله، دون أن يتعمد إهلاك نفسه!

---

(1) انظر درس: "الائتلاف القلبي" ص 461 من هذا الكتاب.

(2) انظر مقالات: "وإن ضرب ظهرك" و"منازعة أولي الأمر" و"درجات العلماء".

ونحاول هنا الاستدراك على هذا الأمر حماية لفريضة الصدع بالحق، وحماية للمسلمين أن يتعرضوا للهلاك دون مقابل؛ حيث يدعو البعض إلى "تظاهرات سلمية محدودة" ضد الأنظمة الفاسدة الباغية، تحت راية "كلمة حق عند سلطان جائر" فيتعرضون للاعتقال لسنوات طويلة، وإلى تعذيب شديد، وإلى فتنة عظيمة.. دون أن يكون لها مردود عند الناس، ولا أثر، وينساهم الناس بعد حين، وهذا ـ ولا شك ـ لا ندعو إليه، بل هذا مما يبدد طاقات المسلمين، وربما يزرع الخوف في قلوب بعضهم، فيشعرون اليأس والتضحية بلا مقابل، فيتنكبون للطريق كله، أو ينطوون على أنفسهم!

والإسلام يريد الفعالية والاستمرارية من كل مسلم، وأن تنتظم حركته في بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، لا أن يُهلك بعضه بعضاً.

وإنَّ النجاح والانتصار في معركة الوعي معركة "**من جاهدهم بلسانه فهو مؤمن**" وارتباط الناس بهذه المعركة، واقتناعهم بها ـ باسم الله ـ لهو مقدمة أساسية للانتصار في معركة "**من جاهدهم بيده فهو مؤمن**" بل إن النجاح في معركة جهاد اللسان هذه كلما ارتفع فيها الوعي، كلما قلت فاتورة الدماء.. بل إنها قد تستطيع إذا بلغت حد الثورة الشاملة أن تُسقط أنظمة البغي، ولكن لا بد من وجود القيادة الراشدة، والتخطيط والحكم، وقوة الحماية لإحلال الإسلام محل أنظمة البغي والتمكين له، دون حدوث انقلابات أو تسلط أئمة بغي جدد على الحكم.[1]

والسلمية ـ في هذه المقاومة "جهاد اللسان" ـ ليست فضيلة كبرى كما يظنها ويروج لها البعض، بل هو "مجال دعوي وتربوي وإعلامي" وبلاغ للناس.. لحين إعدادهم للمعركة الحتمية ـ التي لا مفر منها ـ مع الباطل وأهله.

(1) انظر بحث: "أجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المدني".

وهناك بعض القيادات الإسلامية التي تلوث فكرها بأفكار "المقاومة السلمية الغربية" باعتبارها السبيل الأوحد ـ الذي لا سبيل غيره ـ من أجل التغيير، بل وجعلوا هذه الأفكار إحدى أهم مقومات التربية السياسية عندهم ولا يتحرجون أن يذكروا ويروجوا لـ "غاندي وجين شارب"! ـ أصحاب هذا الفكر ـ بل ومن يُبدي رغبة في التفكير في العمل المسلح وبيان ضرورة القوة، فيتم طرده إخلاصاً لهذا المنهج الفكري المنحرف!

إنَّ "العمل السلمي" هنا يعني أنه لم يأذن بعد في القتال، ولم يتم التحضير المناسب له الذي يُمكّن من النصر، ولم تحين الفرصة المناسبة، أو يكون "العمل السلمي" كافياً ـ في حالات ـ لحدوث الثورة الشاملة التي تحميها القوة.. ولكن بالعموم هناك رجال فيهم من (الصلابة والفداء والإخلاص والتجرد والتضحية) يتم إعدادهم من أجل ذلك، وتكوين القاعدة الشعبية لهم، وهناك رجال يتعشقون الشهادة في سبيل الله تنتظر أن يتخذها الله عنده في الشهداء، فالعمل السلمي هنا ليس معناه إلقاء السلاح والاستسلام للفكر السياسي العلماني الغربي، والسقوط في أوهام الديمقراطية![1]

والفهم الصحيح للمقاومة السلمية هنا، تساعد في وضع البرنامج السياسي الصحيح المناسب لتصحيح الوعي، والتربية السياسية الراشدة التي تحمي الحق وأهله، وتدمغ الباطل وأهله.

وإنَّ الانصراف عن ذلك البرنامج التغييري الإصلاحي إلى غيره.. يجعلنا ندمر أنفسنا ذاتياً! فمن يقرأ التاريخ يلحظ أن الفراغ من الجهاد وإنكار المنكر والمظالم السياسية والاجتماعية ومن السعي في تغييرها، يجعلنا نقعد للثرثرة فيما لا يُصلح الدين ولا الدنيا، ثم نصرف طاقتنا في الخلافات الفقهية والأيديولوجية ونحو ذلك، ثم ننطلق ندمر أنفسنا

(1) انظر درس: "السلمية والعنف" ص 725 من هذا الكتاب.

ذاتياً، ويبغي بعضنا على بعض بغياً فوق بغي الحاكمين، فتنفجر الأمة من داخلها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

***

وجدير بالذكر أنه يوجد حل يبدو من الناحية النظرية عظيماً، ويمكن اعتباره وسطاً بين جهاد اليد، وجهاد اللسان، وهو حل يتمناه كل مسلم، وليس التمكن بالتمني! وهو: أن تستطيع جماعة مسلمة أن تخترق برجالها الأمناء الأوفياء العقلاء المنظومة الأمنية والعسكرية والسياسية وترتقي في المناصب دون أن تتلوث أو تنقلب؛ حتى تصل إلى مرحلة تستطيع فيها السيطرة على زمام الدولة، ومن ثم التمكين للإسلام، كنقيض لما فعله المنافقون عندما تسلطوا على حكم ورقاب الأمة المسلمة!

ولكن العدو الخارجي منتبه جداً لهذا الحل، والمنظومة الأمنية والعسكرية والسياسية حريصة كل الحرص على طرد كل من يبدو عليه علامات الصلاح والتدين، فضلاً أن يكون صاحب رسالة إسلامية، وروح تغييرية.. بل يتم حتى طرد الذين يغارون على أوطانهم بدافع وطني فقط! حتى تخلص هذه المنظومة لأهل الفواحش الذين لا دين لهم، وأهل الفساد الذين يبيعون أوطانهم بثمن بخس.

ويقوم العدو الخارجي من خلال هيمنته، وسيطرته على هذه المنظومة وتسليحها، بوضع البرامج التدريبية لكبار القادة، وإرسالهم إلى أمريكا ـ على سبيل المثال ـ ليتم صناعتهم هناك على أعينهم، واختيار الأفضل لهم، والأسوأ للدين والأمة، والتخلص من كل قيادة يبدو عليها سمات العزة، والوطنية، والكرامة!

واليوم في بلادنا وصل الأمر إلى أن يتم الفحص الأمني لمن يعمل "خادم أو ساعي" في أي جهة حكومية مدنية، فما بالنا بالعسكرية والأمنية والسياسية؟!

وجدير بالذكر أيضاً أن هناك بعض حركات التغيير تطمع ـ وهي عاجزة ـ أن تخرج قيادة هكذا من الجيش ـ مثلاً ـ تنقلب على السلطة الحالية ثم تسلمهم زمام السلطة بكل نزاهة ووفاء!! وهناك من يخاطب هذه الجهات وينتظر ردها.. ونحب أن نقول لهم: إنكم ستنتظرون إلى يوم الدين، وإنكم بذلك لا تفقهون شيئاً من سنن التمكين، ولا سنن الاجتماع البشري، وإنكم تُضيعون من ورائكم.

وإننا لا نقول ذلك يأساً، فالمسلم لا يعرف اليأس.. فهو يتعامل مع الله ـ جل جلاله ـ ومن ثم فربحه مضمون وزيادة، ولكن نقوله لندرس كل الاحتمالات، ونبحث عن كل الفرص، ونصنعها ـ بإذن الله ـ إنْ لم نجدها، ولا نتعامى عن شيء، ولا نخدع أنفسنا، ولا نعجز، ولا نتمنى على الله الأماني، ومن وجد فرصة للتمكين لدين الله في أي مكان وزمان.. فليغتنمها لوجه الله الكريم.

"والسنة الجارية الغالبة في باب تأسيس الدول هي كالآتي:

تبدأ القصة بفكرة، تنبثق في ذهن قائد موهوب، فيجتمع حوله رجال مؤسسون أكفاء، يعملون في الدعوة بين الناس إلى فكرتهم التي تستهدف إصلاحاً وتغييراً قوياً في واقعهم، فيسبب هذا توتراً واضطراباً، وقد تنتهي إلى معركة بينهم وبين سلطة النظام القائم.

1ـ فإذا هم أخفقوا في معركتهم مع سلطة النظام القائم ذهبت فكرتهم وحركتهم إلى الذبول والضمور والاندثار.

2ـ وإذا هم انتصروا في هذه المعركة بدأت دولتهم تتأسس، وبدأت فكرتهم تخرج إلى الحياة وتشهد فرصة تطبيقها.

ثم إن هذه الدولة تجاهد مرة أخرى جهاداً كدولة بين الدول المحيطة، وهو جهاد لا يقل عن جهاد مؤسسيها كأفراد ودعاة في مجتمعهم، وبحسب قوة الفكرة وكفاءة

المؤسسين معاً تثبت أمام الهجمات الآتية لها من محيطها الذي بدأ يضطرب ويرتبك مع تأسيسها، ثم تبدأ في التوسع وضم المزيد من الأنحاء إليها.

1ـ فإذا هُزِمت هذه الدولة في مهدها أو في مبدئها ذهبت الفكرة والحركة إلى الذبول والضمور والاندثار، لكنها تكون أطول عمراً وأقوى أثراً وأمكن لإعادة بعثها من الفكرة التي أجهضت في مرحلة الدعوة وما قبل الدولة.

2ـ فإذا انتصرت هذه الدولة وثبتت في مهدها، ثم استطاعت أن تنتصر وتتوسع وتهزم أعداءها، فإنها تذهب إلى أن تكون إمبراطورية وحضارة، فقد خطت اسمها في صفحة التاريخ، وانخرطت فيها أعداد هائلة من البشر، وصعب خلعها إلا بعد مئات السنين أو آلاف السنين"[1]

وكل وضع سياسي قائم يفرض مجموعة من المحددات والفرص سواء للنظام السياسي نفسه، أو لمن يرغب في تغييره، فالوضع السياسي يتنوع بين: (القمعي الوحشي، والثوري، والعسكري، والملكي المطلق، والملكي الدستوري، والديمقراطي التعددي التشاركي، والذي يتعرض لأزمات بنيوية خطيرة، والذي تعلو فيه قيم القبيلة والعشيرة، والذي تعلو فيه الفردانية... إلخ)، ومهم لكل حركة تغيير فهم هذه الخريطة جيداً حتى تستطيع أن تجد لها موطن قدم، وتطمئن وهي تضع ثقلها؛ فيكون قوياً راسخاً.

وعالم السياسة دائم التغير والحركة.. وقد يحصل الضعف في الأنظمة الباغية أو تتراخى العزائم أو تتوانى الفرص.. وفي هذه الحالة يجب استغلال كل فرصة، والانطلاق في كل انفراجة، فإذا حصل انفراجة ما مثل انتخابات نزيهة (فلا مانع من استغلال هذه الفرصة) ولكن بحذر، وحكمة، ورشد.. والتركيز دوماً على الإخلاص والتجرد حتى نبصر بنور الله، وإن حصل انفراجة في محاولة استقطاب رجال الدولة الكبار والقادة

(1) [كتاب: "سبيل الرشاد"، محمد إلهامي، ص 86]

العسكريين لتنفيذ خطة المشروع الإسلامي فلا مانع أيضاً من استغلال هذه الفرصة، طالما لم تكن نخاً، ولا استدراجاً، ولا خداعاً. والتركيز دوماً على الإخلاص والتجرد والتواضع حتى نبصر بنور الله. وإن حصل التهيؤ للثورة الشعبية فيجب الانطلاق نحوها وحمايتها بجند الإسلام، واستقطاب كل فئات الشعب إليها. وإن حصل التهيؤ للكفاح المسلح، وتمهدت أسبابه، وتَجند جنده بالإيمان الصادق، والعزيمة القوية.. فيجب التحضير والإعداد لهذا الجهاد المقدس..

فأي قوة (سياسية، عسكرية، اجتماعية، تشريعية، شعبية... إلخ) يمكن أن تخدم المشروع الإسلامي فيجب العمل على استمالتها ومشاركتها في صالح مشروع الدولة الإسلامية الراشدة. والمرونة الحركية في ذلك حسب الظروف والأحوال. وكل هذه الوسائل ليست ثوابت أو أيديولوجيا يجب اعتناقها أو مسار تاريخي يجب التزامه أبداً! فما قد ينجح في بلد ما في ظرف ما في زمان ما قد لا ينجح في بلد أخرى في ظروف أخرى في أزمنة أخرى، والأمر متروك لتقدير الظروف والملابسات والمعطيات والفرص، فمثلاً "طلب النصرة" من أصحاب الشأن، ماذا نفعل إن لم يستجيبوا؟ هل سنظل هكذا واقفين منتظرين إلى الأبد؟! وهل نعتبر انتظار هذه النصرة هو منهج فكري ثابت لا حياد عنه، إنْ فعلنا ذلك تحولنا إلى "محرقة للطاقات"، ومثلاً: تعليق الآمال على الانتخابات في جحيم أنظمة استبدادية ديكتاتورية قمعية متوحشة هو أيضاً "محرقة للطاقات".. بل نبحث عن البدائل، ونضرب في كل سبيل، حتى نجد الفرصة، ونظل في حركة مستمرة، لا تيأس ولا تتصلب، بل إن لم نجد الفرصة نصنعها بإصرارنا وإيماننا وعزيمتنا.

وفي كل مرة نتذكر (في سبيل الله) لننال الأجر في الدنيا والآخرة إن شاء الله.

لقد كانت سياسة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في التمكين للإسلام، الاستفادة من كل الفرص المتاحة، واستغلال أي شيء يخدم الدين ـ ما لم يكن إثماً ـ والمرونة الحركية.. فعرض نفسه على أشراف قريش، وذهب للطائف، وعرض نفسه على القبائل في مواسم

الحج، وأثمر ذلك الجهاد المبارك استجابة الأنصار رضوان الله عليهم.. فكانت خطة الهجرة، ثم الدولة، ثم الدعوة العالمية.

***

وأخيراً: الفضاء القلبي "ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن"

والفضاء القلبي هنا هام لنجاة الإنسان، والإسلام يهتم بالإنسان كله ـ بكل فضاءاته ومجالاته ـ وإنه لحريص على أن ينجو، ويسعد في الدارين.. ولذا لم يغفل الحديث الشريف ـ وحاشاه ـ وهو يتحدث عن الفضاء السياسي، أن يحدد مجال النجاة عند العجز عن المقاومة المسلحة، والمقاومة السلمية.. وهو "جهاد القلب" وسماه جاهداً؛ لأن القلب يقاوم عملية الخداع، والسحر، والتسمّع للكذب والدجل، ويجاهد لإقرار المعروف في القلب، ويجاهد لإنكار المنكر في القلب.. حتى لا ينتكس فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. وهذا هو أضعف الإيمان، أو الإيمان الذي ليس ورائه مثقال حبة خردل من إيمان.. حيث لا سلطان لأحد على القلب، فلا هو يتعرض لفتنة السلطان الجائر في حال المقاومة السلمية، ولا يتعرض لبريق السيوف في حال المقاومة المسلحة.. ومن ثم فالحق والقلب في حالة اختيار حر، والإعراض عن الحق هنا هو إعراض عن الإيمان ذاته، وانتكاسة للقلب، وانشرح الصدر للباطل والعياذ بالله.

وإنَّ هذا الفضاء القلبي، وهذا الجهاد بالقلب.. هو مقدمة لأن ينتفض هذا القلب في لحظة ليجاهد بلسانه، ويثور على الظلم.. ولينطلق ليجاهد باليد.

هذا الجهاد بالقلب يمنع الإنسان أن يقع في قلبه الرضى بالظلم، أو أن يشجع عليه، أو يباركه.. هذا الجهاد بالقلب هو الذي به ينعقد الولاء لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذين آمنوا، وهو الذي يحقق الولاء والنصرة والتعاضد والتضامن بين المسلمين.

وكل ذلك مصداقاً لقول الله تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116]

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا. وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا. فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 50-52]

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 1-3]

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73]

***

57- الأمانة السياسية

جاء في الحديث الشريف:

ـ "عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: "اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ رَجُلًا مِنَ الْأَسْدِ، يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ، قَالَ عَمْرٌو، وَابْنُ أَبِي عُمَرَ: عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِي أُهْدِيَ لِي، قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: **مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ، فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا، إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٌ تَيْعِرُ**، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ مَرَّتَيْنِ"[1]

ـ و"عَنْ خَوْلَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ـ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلم ـ يَقُولُ: "**إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"[2]

والمقصود بـ "الأمانة السياسية" تحديداً هي:

الأمانة والشفافية المالية اللازمة لتنفيذ المشروعات والبرامج والخدمات التي هي قوام حياة الناس، مثل خدمات: (البنية التحتية، والتعليم، والمواصلات، والنظافة، والتنظيم العمراني والبيئي، والخدمات الصحية، والسكنية، وخدمات البلديات، ونحو ذلك من خدمات).

---

(1) [صحيح مسلم/ 1834، وصحيح البخاري/ 7174]

(2) [صحيح البخاري/ 3118]

بداية يجب أن تأتي الموارد المالية لهذه الخدمات من طرق مشروعة، وليس عن طريق الغبن والسحت والضرائب الجائرة.. فتأتي من فوائض موارد الدولة مما امتن به الله ـ جل جلاله ـ عليها من ثروات وطبيعة وموارد، فإن لم تكفِ هذه الموارد، وكان هناك ضرورة لمشروعات وخدمات معينة تُفرض "ضريبة الخدمة" لهذه المشروعات، وتُأخذ من الأغنى فالذي يليه، وتكون مُسببة ومُؤقتة ومرضية من عموم الناس.. فالمال منهم، ويعود إليهم.

وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: 41] **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنْ هَذَا الْفَيْءِ شَيْءٌ وَلَا هَذَا، وَرَفَعَ أُصْبُعَيْهِ إِلَّا الْخُمُسَ وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ"**[1]

ولا يجوز بأي حال من الأحوال السقوط في وحل الربا، وترك الدولة والأمة تسقط فريسة أباطرة الربا الذين يسعون في الأرض فساداً، ونهباً، وسرقة.. ويأسرون الدولة والأمة لصالحهم بعدما تعجز الأمة عن وفاء الديون.. أو الوفاء بها بعض اقتراض ربوي جديد، يُضعِف العملة المحلية، ويهدد الاستقرار الاقتصادي والمالي، ويُسقط الدولة ـ والأمة من ورائها ـ في فخ دوامة الديون!

ولكي تنجح هذه المشروعات، ويشعر بها الناس، ويرضون بها.. لا بد من عدة أمور:

ـ تحديد مصادر الموارد اللازمة لهذه المشروعات، وتكلفتها، وإعلام الناس بها، وحرية تدفق المعلومات.

ـ طرحها لعموم الناس لأخذ المرئيات حول إمكانية تقليل التكلفة، ومدى تعظيم الفوائد، والاستفادة من جميع الخبرات.

---

(1) [سنن أبي داود/ 2694]

ـ تحديد الجدول الزمني، والكلفة المالية، ونطاق العمل، واستخدام التقنية الحديثة في الشفافية المالية، وفي الرقابة التنفيذية، وفي جودة العمل والمخرجات.

ـ الاستفادة من التجارب والخبرات السابقة (وتعظيم أسباب النجاح، وتجنب أسباب الفشل)، والبدء مما انتهى إليه الآخرون.

ـ تعيين مراقبين متطوعين من عموم الناس للوقوف على مراحل العمل والتنفيذ.

ـ منع أي محاولة لاستغلال النفوذ، أو التربح من وراء الوظيفة، أو المحاباة للبعض دون بقية الناس.

ـ المراجعة الدورية (كل ثلاثة أشهر مثلاً)، والمراجعة المفاجئة غير المجدولة للاطمئنان لسير العمل بالجودة المطلوبة، دون إهدار للمال، ولا الوقت.

ـ توثيق ونقل الخبرات، بحيث يستفيد منها الجميع، وتعظيم الإيجابيات.. وتقليل السلبيات، ووضع الخطط لوقف أي هدر للوقت أو المال أو الموارد.

ـ تجنب العمل البيروقراطي، والحذر منه بشدة.. حيث تضخم الجهاز الإداري يُعطل الأعمال ومصالح الناس، ويشجع على الفساد واللامبالاة والتراخي. والتركيز على تبسيط الإجراءات الروتينية، وأتمتة الأعمال من خلال التحول الرقمي الذي يُسرع العمل، ويُشدد الرقابة، ويُسهل عملية التنفيذ، ويُركز على المخرجات.

وإنَّ من خيانة الأمة التركيز والمغالاة في الهياكل الإدارية ومسمياتها الكثيرة وصرف كثير من الأموال لها، حتى تصبح كأنها (رشوة مُقننة) دون أن يكون لها كبير جدوى في خدمة الناس.

ـ تسهيل الوصول إلى المسؤولين في حال وجود أي شكاوى أو مخالفات، وسرعة معالجتها بالحزم والعدل دون محاباة أو توانٍ.

والتطوير الإداري والتنظيمي يخضع اليوم إلى مؤشرات دقيقة، ومعايير عالمية، ومحددات صارمة، وحوكمة رشيدة، وقياس واضح للخدمات ـ مثل: التحول الرقمي[1]، ومعايير الحكومة الإلكترونية، ومستوى الشفافية، وسهولة الممارسات ـ ولا مجال فيها للدجل والعبث والترهل والمحسوبية، ولا تعترف بالسلطة الأبوية في العمل الإداري التي تظهر في الأنظمة البيروقراطية العتيقة الفاسدة التي تُعطل حياة الناس، وتُفسد وتأخر عملية التحديث والتطوير والتقدم.[2]

***

وإنَّ من الأمانة السياسية:

ـ أن يتصدر القوي الأمين في كل مكان.

ـ أن يُسند الأمر لأهله (حسب كل تخصص، وكل مجال).

ـ توزيع الخدمات والموارد بالعدل بين كافة الناس، دون تخصيص بعض المناطق والأشخاص بخدمات على حساب الآخرين. (والمشروعات العملاقة التي من موارد الدولة، لا بد من موافقة مجلس الشورى المنتخب عليها).

ـ التواضع للناس، وخدمتهم بحب وحرص واهتمام.

ـ الشهادة لله لا للحزب، ولا للأيديولوجيا.. والقيام بالقسط لا بالمحاباة والظلم.

---

(1) ورغم ما للتحول الرقمي من تسهيل وتيسير لحياة الناس لكن يجب الانتباه إلى جانب الهشاشة فيه مثل: الاختراق، والتجسس، وسهولة تقويضه، واعتماده على الإنترنت والاتصالات، فالأفضل أن يكون النظام الورقي رديفاً له، لإتاحة القدرة على سهولة استبداله عند حالات الطوارئ مع تبسيطه قدر الإمكان، فتسهيل وتيسير حياة الناس هدف رئيس لأي حكومة رشيدة.

(2) [انظر ـ على سبيل المثال ـ ملف: "الحوكمة الرشيدة، والتحول الرقمي"]

ـ إخلاص العمل لله، وأن يكون أولاً "باسم الله".

وإنَّ لأي منصب سياسي "فتنة"، فتنة (الغرور والاستكبار)، وفتنة (استغلال النفوذ والتربح منه)، وفتنة (استمراء الظلم والعدوان).. ولكي يظل المنصب السياسي طاهراً نقياً من هذه الفتن لا بد من: التربية السياسية الربانية، والرقابة الدائمة، والشفافية والحرية الإعلامية في متابعة أحوال الساسة وشؤون الأمة اليومية، ومقومات وسبل حياتها.

وللحماية من فتنة "**الغرور والاستكبار**": لا بد من تقليل البريق الخاص بالمنصب، وعدم جعل الناس تتهافت عليه لما فيه من متاع وزينة، بل جعله حملاً ثقيلاً وجزاء قليلاً لا ينهض له إلا الأوفياء المخلصين المتجردين.

وللحماية من فتنة "**استغلال النفوذ والتربح منه**": لا بد من الإفصاح الدقيق عن الذمة المالية للساسة وأقربائهم، وتتبع أحوال الشركات المنفذة، والمصارحة والمكاشفة في اختيار الشركات المنفذة، والاطمئنان إلى عدالة الإنفاق.. دون التربح الفاحش، وتوسيع قاعدة الشركات المنفذة ليستفيد الجميع، دون احتكار لفئة أو جهات معينة.

وهذا الأمر من أعقد الأمور، حيث الاحتيال فيه كبير والالتفاف فيه حول القوانين ممكن.. ونفترض أمانة المسلم، وأمانة المجتمع المسلم في تحقيق العدل، وهناك من المشروعات ما يكون ربحه مضموناً ووفيراً، ويمكن تحديد بعض "الشركات الوطنية المُساهمة" التي تقوم بعملية تنفيذ المشروعات الكبرى، بحيث يعود هامش من الربح على عموم الناس بعد أن تُوزع هذه الأسهم عليهم (فالدولة ليست بتاجر ولا سمسار، الدولة تنظم وتراقب مصالح الأمة وثرواتها لصالح الجميع).. وتوسيع مشاركة الشركات الصغيرة؛ لتشجيعها على النمو والابتكار، مع تشديد الرقابة المالية على الشركات الوطنية خاصة، حتى لا ينخر فيها الفساد، وتحصينها من الأمراض الإدارية والمالية والتنفيذية عن طريق تطبيق أفضل نماذج أعمال الشركات الناجحة.

ويمكن الابتكار في طريقة التنفيذ من خلال العمل التطوعي العام (تحت مسؤولية الدولة) كالتطوع بـ (الأفكار والاستشارات، والمال، والجهد، والخبرة، والتدريب)، وتعظيم الاستفادة من جميع الموارد المتاحة، بحيث تُنفذ هذه المشروعات مجاناً من خلال العمل التطوعي، ومن ثم تكون ثمرة هذه المشروعات مجانياً أيضاً، شريطة أن تكون بالجودة المطلوبة، والإدارة الاحترافية الحديثة، والشفافية المالية والإعلامية، ولا يكون عملاً عشوائياً أو رديئاً غير ذات نفع. ويمكن أن يكون العمل التطوعي مجانياً بالكامل أو جزئياً أو تشاركياً بحيث تقل التكلفة وتعظم الاستفادة مع ضمان استمرارية مرحلة "التشغيل والصيانة" الدورية، بحيث نضمن دوام النفع للجميع.

وللحماية من فتنة "**استمراء الظلم والعدوان**": لا بد من المسارعة في الأخذ على يد الظالم، والشدة عليه، وإجباره على الحق بكل حزم، ورد الحقوق للمظلومين مهما كان شأنهم؛ حتى لا يعتاد الناس رؤية الظالم يسرح ويمرح ويتمتع بالسيادة والنفوذ؛ فإن ذلك خيانة لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفتنة للناس، وصد عن سبيل الله.

هذه هي مسؤولية الدولة السياسية، وعليها الوفاء بها.. وإشراك الناس في عملية الرقابة والمحاسبة، على مدار العام.. وعدم خداع الناس بالوعود الزائفة وقت الاستحقاقات الانتخابية، ثم بعد انتهاء وقتها ينفض الجمع، وتذهب الوعود هباء! فذاك من أوضح صور الدجل والخداع.. فلا بد من التوثيق الدقيق لكل شيء، والمتابعة المستمرة.. حتى لا نترك فرصة لانحراف المنحرف، أو الفتنة بالمنصب.

أما **المسؤولية الاجتماعية** من خلال "العمل الاجتماعي" الذي هو مبادرة من المجتمع عبر: الجمعيات الخيرية، والوقف، والنقابات... إلخ، فلا بد من إفساح المجال كله لهذا العمل الاجتماعي، وتذليل كل العقبات التي يمكن أن تقف في طريقه، وعدم إعاقته بأي إجراءات روتينية أو بيروقراطية، وتشجيعه بكل وسيلة، ومباركة عمله، بحيث يسهم

مع مسؤولية الدولة السياسية في رفع جودة الحياة، ورفع مستوى الخدمات، وتقليل آثار أي مشكلات يُعاني منها المجتمع.

فيمارس المجتمع دوره، ويشعر قيمته، ويحقق مسؤوليته، وكرامته، وينشغل الناس بالنافع المفيد، وتُصرف طاقاتهم في عمل الخيرات، وترك المنكرات.. فيشيع البر، والود، والتراحم، والتماسك، وصلة الأرحام، ويصبح المجتمع بناء عظيماً متنوراً يشد بعضه بعضاً، ويُقوي بعضه بعضاً، وهو مسلم وجهه إلى الله وهو محسن.

***

58- التربية السياسية

ما يُذكر في الكتب السياسية ـ بشكل عام ـ من أطروحات وأفكار هو مجرد نظريات.. والمسلم ـ بحكم إسلامه لله ـ يستمد نظريته (عقيدته) السياسية (وغيرها من نشاط الحياة) من كتاب الله، ومن الصحيح الثابت من السنة النبوية الشريفة، فتتحول من "ثقافة باردة" إلى "عقيدة حارة دافعة".

أما التربية: فهي عملية الإنشاء والتدريب العملي التطبيقي للنظرية في واقع الحياة، فهي ترسيخ الوعي، وتتبع عملية تطبيقه بصورة صحيحة في الواقع، ثم تأتي عملية التقويم والتصحيح والتحسين.

وتبدأ التربية السياسية بوضع النظرية الربانية الصحيحة من خلال تحديد المبادئ العامة، والقواعد التفصيلية، والتحليل التاريخي، والتشريح الواقعي، ومن ثم تحديد خطة العمل المناسبة.

ويحسن بنا أن نربي أبناءنا ـ بعد تشرب النظرية الربانية السياسية الصحيحة ـ على التطبيقات العملية، التي تتطلب نوعاً من التركيز الفكري، والعصف الذهني، والنقد والتحليل والتمحيص والإبداع.. حتى يتدربوا على مواجهة التحديات والصعاب، فمهما بلغ الوعي بالنظرية وفهمها، فعند التطبيقات العملية، أو لنقل: المواجهة المباشرة مع الباطل.. يحصل هزة ورهبة للجميع، والمؤمن هو الذي يَثبت ويحتسب الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى، وليس الأمر مجرد الخوف من بطش وأذى الباطل، ولكن النظرية نفسها تكون محل اختبار، هل يثبت عليها المؤمن؟ أم تأخذه الأوهام والأماني والظنون، وينجذب لثقل الواقع ومقرراته؟

وإننا نستهدف من وراء النظرية ومن وراء التربية: **إخراج جيل من الشباب المسلم القادر والمؤهل للقيادة العالمية** ـ كما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يُربي أصحابه ـ ومعالجة كافة المشكلات بكفاءة واقتدار، **انطلاقاً** من الثوابت الإسلامية "باسم الله"، **وببصيرة** بالحل الأمثل والناجع لكل مشكلة، **وبقدرة** على فهم عقلية العدو وأدواته في محاولة الإفشال والتعويق، **وبالخطاب الإعلامي** المناسب للداخل المسلم، وللخارج الذي يُناصب الأمة العداء والهيمنة والاحتلال والاستعباد، **وبالدقة** التي تعرف المدى الذي تتحرك فيه، فلا تفوت الفرصة، ولا تتجاوز مداها، ولا تقنع بها في نفس الوقت.. بل تحاول أن تكسب ساحة جديدة كل يوم.[1]

وتساعد "التطبيقات العملية" في التمرين على الممارسة الواقعية، مثلها مثل "التدريبات القتالية العسكرية" التي يحاول فيها الجنود محاكاة ساحة المعركة؛ بحيث يتأهلون نفسياً وواقعياً وفكرياً لهذه المواجهة فلا تأخذهم الرهبة والخوف والضعف أمام انتفاش الباطل.. كما تساعد التطبيقات والتدريبات الواقعية على تعويد العقل على التفكير والتحليل، وهو في حالة من البرودة والهدوء اللازمان لعملية التأمل والاستيعاب.

وإذا أخذنا مثالاً لذلك، فيمكن وضع برنامج تطبيق عملي على عدد معين من المشكلات التي تتطلب عملية تحليل وتدقيق ورصد، وجعل الشباب ـ بعد استيعاب النظرية السياسية الربانية ـ يحاولون حلها، ثم بعد الوصول إلى الحل.. تأتي عملية نقده وقلبه ظهراً لبطن، وبطناً لظهر ـ كما كانت العرب تقول قديماً ـ لمعرفة مدى صحته، وأين ثغراته، وكيف

(1)"العمل الحركي التنظيمي ليس ملجأ للأيتام، ولا داراً للعجزة، ولا رعاية لذوي الإعاقات، ولا مستشفى لمداواة الأمراض. إنه عملٌ خاصٌ يحتاج إلى قوة وقدرة وموهبة وإمكانيات، وهذا الكلام هو تفضيل في شأن الدنيا، وقد يكون الضعيف محدود الموهبة أفضل عند الله من آلاف الموهوبين، وقد يكون من أولياء الله الصالحين، ولكن العمل لإقامة الإسلام وتمكينه في الدنيا يحتاج إلى نوعيات خاصة من الناس تنقله من الاستضعاف والذلة إلى التمكين والعزة" [كتاب "سبيل الرشاد"، محمد إلهامي، ص 98]

نواجه أي محاولات في الإخفاق أثناء التطبيق، وما هي خطة العدو لإفساد أي محاولة للحل، وذلك لتدبير الأمور على الوجه الصحيح.

فمثلاً: **الحديث عن "السلمية والعنف" في مواجهة التحديات السياسية**، فيكون واجب الشباب في هذا التطبيق العملي، كالآتي:

ـ تحديد الواقع السياسي الذي يتحدثون عنه، ورسم خريطته بدقة.

ـ تحديد طبيعة النظام السياسي، وكيفية وصوله إلى الحكم.

ـ إطلالة على النظرة التاريخية التحليلية التأسيسية للبلد الذي يتحدثون عنه. مع مراعاة تعظيم الرؤية التحليلية وليس مجرد السرد التاريخي.

ـ إطلالة على النظرة التاريخية القريبة للواقع السياسي (خلال خمسين سنة مثلاً).

ـ تحليل تجارب التغيير المحلية الفاشلة، وأسباب فشلها.

ـ تحديد مراكز القوى في هذا البلد، وكيف تتفاعل مع بعضها البعض.

ـ تحديد مراكز الهيمنة الغربية، ومدى تأثيرها، وأدواتها، وطبيعة خطورتها.

ـ طبيعة المعارضة السياسية، ومدى تأثيرها، وشكل الأحزاب ومدى قدرتها على الوصول إلى الحكم أو مراكز صنع القرار، ومدى الهامش المسموح به.

ـ مدى تغلغل الحكم العسكري في البلد المراد وضع خطة لتغييره.

ـ طبيعة العمل السلمي، ومدى تأثيره.. وهل له سابقة نجاح؟ وما هي؟

ـ تكلفة العمل السلمي إن صحت النظرية السلمية؟ وما هي المخاطر التي تواجهه؟

ـ طبيعة العمل المسلح، ومدى تأثيره.. وهل له فرصة نجاح؟

ـ ما هو الأساس الشرعي للعمل المسلح؟

ـ تكلفة العمل المسلح إن صحت النظرية المسلحة، وما هي المخاطر التي تواجهه؟

ـ شكل وأدوات التجسس المحلية والعالمية التي يستهدف بها العدو صناع التغيير؟

ـ الحالة الاجتماعية للشعب، ومدى تقبله للتغيير ونوعه، وهل هو في حالة سكون أم استعداد أم تحفز للثورة؟

ـ ما هي الموارد المتاحة لكل حل، وما هي الخطة البديلة؟

ـ ما هي خطة المخاطر لمواجهة أي معوقات لهذا الحل؟

ـ هل هناك أفكار مسبقة تعوق البحث المجرد والمحايد، وتضفي طابعاً نفسياً خفياً على مخرجات البحث وإجاباته؟

ـ ما هي اللحظة المناسبة التي تُفعل فيها مبدأ "**ادخلوا عليهم الباب**"؟

وبعد تحديد الإجابات المناسبة والدقيقة لهذه الأسئلة.. تأتي مرحلة "تحليل" هذه الإجابات والوقوف على مدى دقتها، ومناقشة أصحابها مناقشة دقيقة شاملة.. بحيث يتدربون أولاً: على تقبل النقد، وثانياً: على القدرة على إيجاد الحل الأمثل لكل مشكلة بعيداً عن ميولهم النفسية وتكوينهم العاطفي والتحيزي، وثالثاً: المرونة والسرعة في مواجهة أي أخطار.

بمعنى.. عندما يُجيب الشاب على سؤال بدقة، يكون الرد: ماذا تفعل إن حصل كذا؟ وماذا تفعل إن لم يحصل كذا؟ وما هي خطتك عند حصول كذا؟... إلخ من الأسئلة التي توسع الإدراك، وتساعد في تمرين العقل على رؤية الواقع بصورة شاملة ودقيقة، والغرض من هذه الأسئلة ليس الإجابة النموذجية عليها فحسب، إنما هو الاستعداد والتدريب على المواجهة، والاستعداد لكل الاحتمالات.

وقد يساعد الشباب في هذا المثال مقالات: [السلمية والعنف، وأجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المدني، وأجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المسلح، وآلية قراءة مشكلات الأمة المصيرية] وأدعو الشباب لقراءتها بعد أن يكونوا وضعوا هم إجاباتهم.. ليقارنوا بينها وبين ما هو مذكور في هذه المقالات، ثم البحث عن مواطن الاتفاق والاختلاف، وما قد يعتري هذه المقالات من خطأ.. أستغفر الله منه، فالغرض ليس هو مجرد دراسة نقدية نظرية، بل **الوصول إلى الحل الأمثل.**

ثم تأتي مرحلة التطبيق العملي، الذي من المحتمل أن يكون هناك فجوة بينه وبين التصور الذهني، والصحيح أنه كلما تضاءلت الفجوة بين إمكانية التطبيق العملي، وبين التصور الذهني.. كلما صح التصور والنظرية، لذا يجب العمل على تقليل الفجوة إلى أقصى درجة ممكنة..

وبعد البدء في التطبيق العملي تأتي مرحلة "الرقابة والجودة".. للتأكد من صحة التطبيق، ومن مراجعة كل مخرجاته.. وكذلك تحسينه وتجويده لأقصى درجة ممكنة.

وإذا أخذنا مثالاً آخر حول "الاقتصاد والتضخم":

فالاقتصاد هو الوجه الآخر للسياسة، ولا يمكن فهم الاقتصاد دون فهم السياسة أو النظرية السياسية، ومن ثم فبالإضافة إلى الأسئلة السابقة حول التحديات السياسية تأتي أسئلة خاصة بالاقتصاد، مثل:

- مدى هيمنة المؤسسات الدولية على اقتصاد الدولة؟

- حجم الديون، ومدى تأثيرها على سيادة الدولة؟

- شبكات المال والسياسة التي تدير اقتصاد الدولة؟

- موارد الدولة، وكيف يمكن تعظيم الاستفادة منها؟

ـ طبيعة العُملة المحلية، ومدى قدرتها على أن تكون مخزناً للقيمة؟

ـ كيف يمكن حماية العملة المحلية من الانهيار والمضاربة، وكيف يمكن تحديد القيمة العادلة لها، بحيث تكون مخزناً ثابتاً للقيمة والجهد، وفي نفس الوقت الحفاظ على قدرة الدولة على المنافسة في السوق العالمي؟

ـ كيف تعمل البنوك المحلية، وكيف يمكن توجيه نشاطها ليكون إسلامياً خالصاً بحق؟

ـ كيف يمكن تطهير البورصة (سوق الأسهم المالية) من لعبة القمار، والاحتكار، والتلاعب، والغبن؟

ـ ما هي الخطة المناسبة في حال قررت المؤسسات الدولية البنكية والمالية إطلاق حرب اقتصادية على الدولة؟

ـ كيف يمكن مواجهة شبكات الفساد المالية في مؤسسات الدولة، وفي القطاع الخاص.. دون حدوث انهيار اقتصادي؟

ـ كيف يمكن تحقيق الاستقلال الاقتصادي، وخطة التخلص من مصيدة الديون؟

ـ كيف يمكن بناء الاقتصاد الإسلامي، والتحرر من دورة الربا العالمية؟

ـ هل تؤيد مصادرة أموال الفاسدين؟ وإلى أي مدى تسمح بذلك؟

ـ كيف تعالج مشكلة التضخم، وما هو المدى الزمني الذي تتوقعه لذلك؟

ـ ما هي المخاطر التي تواجه كل الحلول التي طرحتها؟

ـ وما هي خطة إدارة هذه المخاطر؟

ـ كيف يمكن إدارة الشركات الوطنية بصورة فعالة، ومربحة؟

ـ هل تؤيد تدخل الدولة في الاقتصاد الوطني وإلى أي مدى؟ وما هي أسباب الموافقة أو الرفض؟

ـ كيف تنظر إلى الاستثمار الأجنبي، وما هو تعريف الأجنبي لديك؟

ـ لدينا شركة وطنية كانت ناجحة ومنتجة، ثم قامت رؤوس الفساد ببيعها لأجنبي وقبضوا ثمنها في جيوبهم! كيف يمكن استرداد هذه الشركة، وما هي الطريقة الأفضل لإدارتها، وكيف تعطي كل ذي حق حقه؟

ـ هل لديك خطة لتوطين السلع الاستراتيجية، وما هي؟ وما هي التحديات التي تواجه هذه الخطة، وكيفية مواجهتها؟

وإذا أخذنا مثالاً آخر، في "مواجهة هيمنة العدو":

ـ اتصل بك رئيس دولة (من الدول الغربية)، يريد أن يقيم علاقات طيبة حسنة قائمة على الشراكة والتعاون والصداقة.. زعموا! كيف يكون رد فعلك؟ هل ترفض بشدة؟ هل توافق وترحب وتشرح الصدر؟ هل تتردد؟

ـ اتصل بك سفير دولة (صاحبة تاريخ من العداء والعدوان على الأمة)، يريد مساعدتك في برنامجك الحزبي، ويريد أن يعرض خدماته.. كيف يكون رد فعلك؟

ـ اتصل بك سفير دولة (من الدول العظمى)، يريد إملاء شروط بلاده عليك بكل صفاقة وصلافة، كيف يكون رد فعلك؟

ـ تتعرض للتهديد العلني والمبطن والسري من جهات أجنبية خارجية، هل تواجه بها شعبك وجماعتك؟ أم تسكت عنها؟

ـ تتعرض (وأنت رئيس، أو في منصب قيادي) لحرب إعلامية شرسة تنال من شخصك، ومن أهدافك، ومن دينك.. كيف تواجه هذه الحرب؟

ـ تتعرض لعملية تجسس ممنهجة على المستوى التقني، والعملياتي، والبشري.. ويتم تهديدك بها، كيف تواجه هذا التهديد؟

ـ كيف تواجه التعرض للابتزاز الجنسي أو المالي أو السياسي أو الإرهابي؟

ـ كيف يمكنك نصرة الأقليات المسلمة المستضعفة في البلاد غير المسلمة؟ وما هي أدوات التفاوض التي يمكنك استخدامها؟

وإذا أخذنا مثالاً آخر في "العمل السياسي":

ـ هل لديك رغبة في القيادة؟ وهل لديك الكفاءة في أن تتحول من جندي لقائد.. وهل لديك القدرة على أن تتحول من قائد لجندي؟

ـ كيف تتجنب فتنة السلطة والمال؟ وكيف تحقق ـ في نفس الوقت ـ الفاعلية السياسة والخطة التنفيذية؟

ـ إذا كان لديك حزب أو جماعة، ما هي اللحظة التي تقرر فيها حل هذا الاجتماع؟ ولماذا؟ وكيف تعيد بناء حركة جديدة؟

ـ ما هي خريطة الهيمنة الثقافية والفكرية للعدو داخل الدولة، وكيف يمكن تحييدها؟ وكيف نتعامل مع مؤسساتها وأفرادها؟

ـ ما هو الخطاب الإعلامي، والرسالة التي نتوجه بها للناس، وكيف تحشدهم لمشروع التغيير؟ وكيف تواجه الحرب الإعلامية التي ستُطلق عليك؟

ـ إلى أي مدى نتوقع خذلان الصديق، وكيد العدو المحلي والإقليمي والدولي؟

ـ كيف تواجه المعارضة العلمانية (اليسارية، والليبرالية) في بلدك؟

ـ ما هي خطة تأمين شخصك ونظامك من التجسس والاغتيال والانقلاب؟

ـ ما هي خطتك في تطهير مؤسسات الدولة، بعد التمكن؟

ـ ما هي الفئات التي تأخذها بأقصى العقوبة، والأخرى التي تأخذها بأقصى الرأفة والعفو؟

... إلخ، من المواقف والأمثلة التي تساعد في عملية إعداد الشباب المسلم، ويمكن تطبيقها على كافة المجالات والأنشطة، مع الحذر من الدخول في ساحة "**المراء والجدال**" أو البقاء في ساحة "**النظرية**" دون الخروج للتطبيق والعمل!

فالتطبيق في الواقع هو الغاية الكبرى والهدف الأساس.

وإنَّ هذه التربية السياسية ليست من أجل التخرج في كلية السياسة والاقتصاد مثلاً، ولكنها من صميم تربية الشباب المسلم، ومن أوجب الواجبات الشرعية، فليس العلم الشرعي دراسة حواشي ومختصرات الكتب الفقهية فحسب! فهذا المجال (السياسي الاجتماعي) يجب أن يكون أساساً من أسس "العلم الشرعي" لدينا، لأننا نبحث عن إجابات شرعية له مستمدة من كتاب الله..

وإننا نستهدف "نصرة ديننا" و"تحرير أمتنا"، وردها لدينها رداً جميلاً، ومواجهة أئمة النفاق في الداخل، وأئمة الكفر في الخارج.. وهذا من أوجب الواجبات بعد معرفة المسلم بفرائض دينه.

وإنها لجريمة كبرى أن نُخرّج شباباً لا يعرفون شيئاً عن واقعهم، ولا تاريخهم، ولا عدوهم.. فإننا بذلك نُقدّمهم قرباناً للباطل والجاهلية والعلمانية، ونلقي بهم في أتون معركة حتمية (وقعت، وتقع، وستقع) معركة تستهدف دينهم وأمتهم ومقدراتهم وثرواتهم وحريتهم، لا يعرفون عنها شيئاً، ولا يملكون فيها سلاحاً، ولا يبصرون فيها عدواً من صديق، ولا مؤمن من منافق..

وإنَّ التربية الربانية السياسية تساعد ـ بفضل الله ـ في وضع الشباب على الطريق الصحيح، وتُعظّم من الاستفادة من طاقاتهم، وإمكاناتهم، وتُعد الأمة لمعركة التحرير الكبرى بإذن الله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21]

***

59- آفة الوعي

للوعي أهمية بالغة في تحقيق النجاح والتمكين، وأهمية الوعي بشكل عام ـ والسياسي بشكل خاص ـ تكمن في تحديد المسار الصحيح للحركة والعمل، ونقصد بالوعي السياسي بمفهومه الشامل الواسع، والذي يتشكل من خلال النور القرآني، وليس مجرد البصيرة بالأحوال السياسية والاجتماعية المعاصرة..

إنَّ فكرة واحدة خاطئة.. بل فكرة واحدة غير ناضجة أو ذات غلو قبيح قد تأتي على كل الجهود، وتأكل كل الثمار، وقد رأينا في واقعنا المعاصر كيف أن فكرة واحدة فاسدة.. تُفسد على المسلمين ـ رغم إخلاصهم، وتضحياتهم! ـ حياتهم وسياستهم وتُمكن منهم عدوهم.

وللأسف يظن بعض المسلمين أن هذا الوعي هو عملية "تنظير فارغة" و"فلسفة سخيفة" وإنهم نظراً لعاطفتهم الهوجاء المشتعلة، ليسوا بحاجة إلى مثل هذا التنظير البارد! إنهم بحاجة إلى العمل والحركة؛ لتفريغ تلك الشحنة العاطفية! التي ما تلبث أن تهدأ وتنطفئ! فيتحمسون لأي حركة وأي عمل دون الوعي ودون التخطيط ودون النظر في السياقات التي أدت بنا إلى هذه الحالة! أو لأن عقولهم لا تطيق الصبر على النظر والفهم والتدبر والتحليل والدراسة.

فالوعي ليس مسألة هينة، وليس العمل عليه عمل الفارغين، ولكن عن أي وعي نتحدث؟

إننا نقصد الوعي الراشد الرباني.. المبني على تقوى من الله ورضوان، المتبع النور التام المبين، الوعي الذي ينطلق من أسس إسلامية خالصة، ويمضي في سبيل الله؛ لتمكين

دينه في الأرض، بصير بسبل المجرمين، وعارف بأحوال المنافقين والكافرين، ويعد العدة لهم؛ ليدمغ باطلهم، وليُعلي كلمة الله، وليتم نور الله على العالمين بإذنه ورحمته.

***

ولكن.. ما هي آفة هذا الوعي؟

آفة الوعي هي: **غياب أو انعدام خطة العمل والحركة.**

إنَّ الوصول إلى حالة "الوعي التام" ليس معناه أننا حققنا دورنا وأمانتنا في الحياة، بل معناه إننا عرفنا الطريق، ولا تغني المعرفة من "المضي" في الطريق، ولكي نمضي في الطريق لا بد من بعد "الرؤية والوعي": إلى قيادة، وخطة عمل، ومشروع عمل. ودون الحركة فإننا نعيش في: "حسرة" المعرفة، و"عجز" الوعي، و"ذل" تمكن العدو، و"احتقار وذلة" المجرمين لنا، و"تمكن الفساد والبغي" كل يوم!

«فلا يقعدن القادر على العمل وهو يطمع أن يؤدي واجبه بالكلام.. ذلك خاطر أحب أن أحذر منه بعد ما أسلفت من الإيمان بقوة الكلمة، وإلى آثارها الملموسة في الحياة. إنه في كثير من الأحيان يكون القول الفصل للشاعر الذي يقول: "السيف أصدق إنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب".

وفي كثير من الأحيان يصبح من العبث أن نظل نتكلم ونتكلم، ثم لا نفعل شيئاً. إن الكلمات في هذه الحالة تكون استهلاكاً للطاقة الكامنة وليست توليداً للطاقة.

ثم إنَّ عددا نادراً من الكُتاب الموهوبين هم الذين يملكون أن يحولوا الكلمات إلى طاقة. أما القاعدة فهي أن يعمل الناس، وأن يحققوا بالعمل ما يريدونه من مقدرات.

والكلمة ذاتها ـ مهما تكن مخلصة وخالقة ـ فإنها لا تستطيع أن تفعل شيئا، قبل أن تستحيل حركة، وأن تتقمص إنساناً. الناس هم الكلمات الحية التي تؤدي معانيها أبلغ أداء.

إنَّ الفارق الأساسي بين العقائد والفلسفات أن العقيدة كلمة حية في كيان إنسان، ويعمل على تحقيقها إنسان. أما الفلسفة فهي كلمة ميتة، مجردة من اللحم والدم، تعيش في ذهن، وتبقى باردة ساكنة هناك.

ومن هنا كانت العقائد هي الحادي الذي سارت البشرية على حدائه، في درب الحياة المتعرج الطويل. تصعد الروابي وتهبط السفوح، وتردد حداءه في المتاهة المهلكة، فتنجو وتحيا، وترتقي وتثق في رسالتها، لأنها رسالة تنبع من أعماق الضمير، ويشتعل بها الوجدان، ويتلألأ بها الشعور.

إنه لا بد من عقيدة. وقوة الكلمة إنما تبع من أنها ترجمان العقيدة. والعقيدة هي التي يغذيها الناس بحياتهم فتوهب لهم الحياة.»[1]

وإننا ـ على سبيل المثال ـ اليوم بالملايين، ممن لا ينقصهم الوعي، ولا الإخلاص، ولا التضحية (هكذا نظن في أنفسنا، وما يعلم بأحوال القلوب إلا الله)، ولكننا عاجزون، قاعدون، محاصرون.. وإننا اليوم ـ وأنا أكتب هذه الكلمات ـ نشاهد إخواننا في "قطاع غزة" ـ وغيرهم في بلاد المسلمين![2] ـ وهم يتعرضون للإبادة الجماعية على مرأى ومسمع منا، وعلى بُعد خطوات منا! ولا نستطيع لهم شيئاً، ونشاهد أئمة الكفر في الخارج، وأئمة النفاق التي تحكمنا وهو يتواطؤون على هذه الإبادة، والخيانة العظمى الجلية.. حتى صاروا

(1) [مقال "قوة الكلمة"، سيد قطب، مجلة الرسالة عدد 1007]

(2) وهذه مجرد أمثلة قريبة بين أعيننا، وإلا فالاعتداء على ديننا وأمتنا قديم، ومستمر، ومتنوع، ومختلف الأشكال والألوان، وفي قلب بلادنا، وعلى أفضل الصالحين منا.

يتبجحون بالخيانة العلنية حتى دون تجمل أو مراعاة لمشاعر المسلمين![1] ورغم أن أعدادنا بالملايين لكننا لا نملك قيادة، ولا قوة، ولا مشروعاً، ولا خطة عمل.. رغم وعينا بحقيقة الأمر وبخطورته على حاضرنا ومستقبلنا وديننا وأمننا ومقدرات حياتنا.. وإن كان ذلك ليس بحاجة إلى الوعي العميق ابتداء، فهو ظاهر للعيان دون اجتهاد!

إننا قوة مهدرة مسكوبة.. قوة مُعطلة، مشلولة، لا تملك حيلة، ولا تستطيع سبيلاً، رغم قوتها التي يمكن أن تغير وجه العالم كله، إننا نملك قوة على كل صعيد - رغم وهم الاستضعاف الذي نعيشه اليوم! - إننا نملك قوة هذا الكتاب العظيم، ونوره التام المبين، ونملك الإيمان الصادق بالله، ونملك روح الجهاد في سبيل الله - وإن كان حب الدنيا يعيق انطلاقها - ونملك ثروة عددية بالملايين، ونملك الخبرات والأموال في شتى المجالات، ولكن لا يوجد رابط يجمعنا وينظم حركتنا، ويُفعل طاقاتنا المعطلة والمهدورة! ولا يوجد قيادة راشدة تأخذ بهذه الجموع إلى طريق الحق، وسبيل الرشد.

وإنَّ الوعي عند وقوع المصيبة ليس بوعي بل هو جهالة كبرى.. الوعي بالعدو عندما يذبحك من الوريد إلى الوريد وكنت تظنه صديقاً هو غفلة واستخفاف وسفه! إنه الوعي بعد فوات الأوان، وبعد تمكن العدو! بعدما شلّ حركتك، وقدرتك على رد الفعل! وأحاط بك من كل جانب!

---

(1) وصل عدد الشهداء الفلسطينيين في عدوان الاحتلال الإسرائيلي المستمر على قطاع غزة لليوم 372 على التوالي إلى أكثر من 42 ألف شهيدًا، ونحو 100 ألف جريحًا، معظمهم من النساء والأطفال، واستهدف يهود كل شيء؛ المستشفيات والمدارس والمساجد والمنازل وأماكن الإيواء. ودعمت أمريكا يهود بجميع أنواع الأسلحة والمعلومات الاستخبارية، وبلغت حجم المساعدات الأمريكية العسكرية ليهود منذ معركة طوفان الأقصى 17.9 مليار دولار، وإرسال حوالي 50 ألف طن من المساعدات العسكرية! وحوالي ألفي ضابط أمريكي رفيع المستوى. وحسب معهد واتسون الأمريكي قامت واشنطن بتمويل 70% من تكلفة الحرب الإسرائيلية على غزة ولبنان، وقدرت التكلفة الإجمالية بـ 22.76 مليار دولار أمريكي على الأقل، وأكد المعهد أن الرقم الحقيقي أكبر من ذلك نظراً لوجود معوقات أمام مصادر المعلومات.

إنَّ الوعي الصحيح والحقيقي هو "الوعي الاستباقي" الوعي الذي يبصر بأحوال العدو، ويعرف خطته، وديدنه، وتاريخه، ومنهجه.. ثم يُعرّف به، ويستعد له، ويتحرك لمواجهته. وقد كانت هذه مهمة القرآن العظيم.. تعريف الأمة المسلمة بعدوها دون الحاجة إلى أن تذوق مرارة العدوان، وآثار الطغيان.. فنور الوحي يحقن دماءها، وعندما تبتعد عن نور الوحي فإنها تُدرك بمداد الدم من دمائها وأبنائها! وهذه ضريبة "الوعي المتأخر".

ولقد عاب الله ـ جل جلاله ـ على المؤمنين أن يقولوا ما لم يفعلوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2-3]

بل سمّاه الله ـ سبحانه ـ "المقت الأكبر" والفعل القبيح البغيض والجرم الكبير.. أن يقول المؤمن، ولا يكون له نصيب من الفعل، فالقول المجرد وحده لا أثر له في مواجهة الطغيان، والبغي، والإفساد في الأرض.. فالباطل والكفر والعدوان لا يقول فقط، بل يفعل ويُفسد ويقتل، ولذا كانت الآية التالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4] لا بد من الفعل، ولا قيمة سياسية للقول دون الفعل، ولا بد للفعل أن يكون في سبيل الله، وفي تماسك وقوة وتكامل وتعاضد كالبنيان المرصوص؛ لأننا سنواجه عدواً يتحزب علينا، ويجتمع ـ رغم تشتته ـ على إبادتنا، فلا بد من الاستعداد التام: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: 73]

وفي حض المؤمنين الضعفاء المبطئين عن الجهاد بالمال والنفس ـ في بداية الدعوة ـ للنهوض بأعباء الجهاد، وترك القعود عن نصرة الدين، وإعلامهم بفضل ومكانة المجاهدين عند الله، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ

دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 95-96]

وفي حالة أخرى اعتبر القرآن الكريم القعود عن العمل من أفعال المنافقين: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ. رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ. لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: 86-88] فلكل قول حقيقة، وحقيقة الإيمان ومجال عمله الجهاد بالمال والنفس وهذا هو طريق العزة والتمكين، طريق الخير والفلاح.

بل كان مجرد التخلّف عن الاستجابة لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمر الجهاد هو "الخيانة" لله ورسوله، وخيانة لأمانة الرسالة؛ فنادى الله على عباده المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 24-27]

***

وإنَّ من آفة الوعي أيضاً "**الحسد**"! حيث يرد البعض الحق، عندما يأتي من غيرهم، أو من هو دونهم منزلة أو مكانة ـ في موازينهم! ـ فيرون في الحق تعبيراً وكشفاً لباطلهم أو جهلهم أو سفههم، فيحاربونه لا لشيء إلا لأنه كشف نواقصهم! وقد فعلها أهل

الكتّاب من قبل لما ردوا الحق الذي في هذا الدين: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109]

ولا علاج لهذا الكِبر إلا التواضع للحق، والأخذ به، وحب المؤمنين، والتخلص من العصبية الجاهلية.. وتعظيم شعور المسؤولية والتحديات الكبرى التي تواجه الأمة بأفرادها وجماعاتها، والخطر المحدق بها من كل جانب.

وإنَّ من آفة الوعي "**الذاتية**" حيث التعصب لفرد أو جماعة، والانغلاق على الذات، يجعل الإنسان أعمى عن رؤية ما حوله، ويصم عن الاستماع للنصح، ويغلق قلبه دون غيره، فيتحول الوعي وحركته إلى مسألة ذاتية، خاصة بجماعة مُعينة.. تنفصل شيئاً فشيء عن الأمة، ويُعمق العدو هذا الانفصال، حتى تغدو حركتها ووعيها مسألة حزبية خاصة بجماعة من الناس لا تُمثل إلا نفسها، ثم يُكال لها الاتهامات من كل شكل ولون؛ حتى يلفظها الناس، أو في أحسن الأحوال تكون محل شك وريبة!

وإنَّ من آفة الوعي "**المناهج المختلطة**" الفاسدة.. حيث يتلوث فكر المسلم بمناهج باطلة في التغيير، ويتأثر وينفعل بها بشدة، ويقرأ كثيراً وكثيراً، ويكتب كثيراً وكثيراً.. ولكنها قراءة وكتابة لا تبصر بنور الوحي، ولا تتبع السنة السياسية النبوية الشريفة.. بل تتبع المفكرين الغربيين العلمانيين، أو تتبع قيادات إسلامية فسد فكرها بفعل هذه الدراسات العلمانية؛ فيتحول الوعي إلى "مسرحية هزلية" سخيفة.. ولكنها لا تنتهي عند إسدال الستار، بل تنتهي ودماء المسلمين تجري أنهاراً، والعياذ بالله.

وإنَّ من آفة الوعي "**خيانة الأمانة**".. حيث توسيد الأمر لغير أهله، محاباة أو تعصب أو مصالح ذاتية وحزبية، فيتوسد الأمر في أحرج اللحظات، وأخطر المهمات من ليس له نصيب من العلم، ولا العمل.. ويظن المنصب مغنماً أو مكافأة على تاريخه النضالي!

فيُضيع الناس من ورائه، ويظل ممسكاً بالمنصب لا يتصور نفسه دونه! في حالة من البحث عن العوض والجزاء، ليس من الله ولا من نصيب الآخرة، إنما من حظوظ الدنيا، وهذا مما يُفسد النيات والأعمال.

وإنّ من آفة الوعي "**الهرب من الوعي**".. إلى وعي مزيف، الهرب إلى تفريعات العلوم، وأوهام المعارك الفقهية التاريخية، وصراعات حول دقائق العقيدة، والذهاب بالشباب في متاهات مُضلة عن نصرة الدين، والدفاع عن الأمة، بزعم التربية والتنقية، وإخراج شباب غافل عن عدوه، وعن معارك أمته، متنطع متشدق يثرثر فيما لا ينفع في دينه ولا ينصر أمته.

وإنَّ من آفة الوعي "**ولاية غير المؤمنين**".. حيث يظن البعض أنه ضعيف، يجب عليه أن يستقوي بمن يحاد الله ورسوله، ويخون الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ولكنه يشاركه "طريقه النضالي والحقوقي"؛ فيتخذ غير الله ورسوله والذين آمنوا أولياء، ويظن ذلك من الحكمة السياسية، والكيد للعدو! ويكون أول من يكيد لهم هم شركاء النضال!

وإنَّ من آفة الوعي "**الأحكام المسبقة**".. حيث يكتفي المرء بمقررات ثابتة، وأحكام مسبقة، يفسر بها كل شيء، ويطوع لها كل شيء، ويغالي في تفسير الحوادث على أساسها، حتى يتحول الوعي إلى جهالة وسفه، وتعنت وتشدق، وهذا مما يعمي عن البصيرة بالواقع - كما هو لا كما نتمنى - ومن ثم يعمي عن التخطيط الصحيح والحركة الراشدة.

وإنَّ من آفة الوعي "**الخوف والاستسلام**".. حيث يعمل العدو على إرهاب الناس جميعاً، وزرع الرعب في قلوبهم حتى النخاع؛ حتى لا يفكر أحد مجرد تفكير في مقاومته وجهاده، ويتعمد إظهار نماذج من الوحشية والفتك؛ ليُرهب الناس، فيتحول الخوف من العدو إلى هاجس مرضي يُقعد - حتى بالعقلاء - عن أي حركة أو أي عمل.

وإنَّ من آفة الوعي "**الخوف من الفشل**".. حيث يتحول رصيد التجارب الفاشلة والمتكررة إلى هاجس يطارد البعض، ممن يُغالون في الصورة المثالية، ويشترطون على أنفسهم شروطاً تقعد بهم عن المحاولة والحركة، فيكون الخوف من الفشل هو سبب الفشل ذاته.

وإنَّ من آفة الوعي "**العجز والكسل**".. وفي الدعاء الشريف: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ، وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**"(1) فالهم والحزن وحش يهجم على الإنسان فيشل طاقته وحيويته وقوته، والعجز والكسل وانتظار النصير أو انتظار الوهم.. كل ذلك مما يشل فعالية الإنسان.

وإنَّ من آفة الوعي "**البرودة والرخاوة**".. حيث لا ينفعل العقل بالقراءة الكثيرة، وتخبو شعلة العاطفة الحارة الدافعة، فلا يكون جاداً، ولا حاسماً، ويستقبل الأحداث ـ رغم الوعي والمعرفة ـ بحالة من البرودة، والرخاوة.. فلا نجد الصلابة والحرارة اللازمة لتحويل الوعي إلى حركة وجهاد.

وإنَّ من آفة الوعي "**غياب الرابطة الاجتماعية**".. حيث يكون الوعي بلا حاضنة اجتماعية، ولا ائتلاف قلبي، ولا تواصل اجتماعي حقيقي، وقد يظن البعض أن الناس تستجيب هكذا بلا رابطة تمسكها، وقيادة ترشدها، ودعوة تصلحها، وتربية تُمكن الحق ـ بإذن الله ـ في قلوبها.

وإنَّ من آفة الوعي "**العيش في المنطقة الآمنة**".. حيث يتحول عملنا ـ وما أُبرئ نفسي! ـ إلى مجرد كتابة، خالية حتى من "خطة تربية" و"خطة إعلام" و"خطة تشبيع المجتمع والتأثير فيه".. وندمن عمل "المراكز البحثية" في بلاد بعيدة، والغرق في تفاصيل مكررة؛ ثم نعيش فراغ العمل، وشيخوخة الحركة.

(1) [صحيح البخاري/ 6369]

وإنَّ الحركة والعمل دون وعي راشد هو "**محرقة كبيرة**" للطاقات والأعمار والتضحيات، وقد رأينا كيف تحولت الحركة الإسلامية ـ في أحيان كثيرة ـ إلى "**محرقة كبيرة**" عند غياب الوعي الراشد.. محرقة طحنت طاقات الشباب، وبددت الأموال، وضيعت الأعمار في سبيل لا شيء!

وإنَّ الوعي الراشد دون حركة وعمل هو "**ذلة ومسكنة**" كبيرة، وحسرة مشاهدة العدو، وهو يتسلط علينا كل يوم، ويفسد كل لحظة.. تمتلئ قلوبنا بالغيظ والضيق، وتشتعل صدورنا بالحنق والنيران، ونحن عاجزون عن صده، بينما بين أيدينا كل شيء! وتحيط بنا "**أوهام الاستضعاف**" كخيوط العنكبوت من كل جانب، ويُخوفنا الشيطان بوساوسه وبإيحاءاته!

وإنَّ الوعي الراشد والحركة.. **دون قيادة راشدة مرضية، ودون قوة، ودون خطة عمل، ودون فداء وتضحية**، ستكون إضافة إلى قائمة "التجارب الفاشلة" أيضاً.

والحقيقة.. إنني لا أعرف نقطة البدء حركياً في هذا الموضوع! خاصة وقد أفلست الحركة الإسلامية المعاصرة، وعقمت حتى الآن عن إيجاد القيادة الراشدة[1]. وأما القيادات المميزة فقد أجهز عليها العدو قتلاً وأسراً وقابعة في غياهب المعتقلات لا نملك لها أيضاً حيلة، ولا نستطيع لها سبيلاً!

ونحن في حالة من الشتات، والضياع، والتشرذم ـ رغم قوتنا الهائلة الكبرى! ـ والخوف الذي لا يُفارقني هو أنني أشك ـ إلى درجة اليقين! ـ أننا لم نتعلم شيئاً من دروس الماضي! وإنه إن عاد بنا الزمان لكررنا نفس الأخطاء بصورة طبق الأصل! ولا حول ولا قوة إلا بالله! حيث إننا لم نرَ مراجعة ولا تقويماً لأخطاء الماضي بل محاولات تبريرية لفشلنا وكوارثنا دون البحث في الأسباب، ودون معالجة للخطأ، ومحاسبة المخطئ!

---

(1) انظر بحث: "القاعدة الجماهيرية الإسلامية.. والقيادة الجديدة".

ومن بين كل ذلك هناك عدو متربص يراقب حركاتنا وسكناتنا ويطلق علينا حروباً من كل شكل ولون.. وفي كل مصيبة وكارثة تحل بالأمة ـ وما أكثرها! ـ يطلقون الحفلات الماجنة، والأغاني الإباحية، والمباريات التافهة لإشغال الناس، ومنع التضامن، وتجريمه، ومعاقبة أصحابه، والمشاركة مع العدو الكافر في حربه.. ودعمه مالياً ولوجستياً وإعلامياً وعسكرياً عبر المشاركة في الحصار والدعم الاستخباراتي، وحتى عن طريق رجال دينهم من المنافقين، والتضييق على المسلمين وتبديد ونهب ثرواتهم ومقدرات حياتهم، وتمكين الفقر والفحشاء في مجتمعاتهم! والفتك بالمؤمنين عند كل محاولة لتصحيح الوعي، أو التحرك لأي عمل.

***

وإنَّ كل هذا "العسر" لا بد وأن يتبعه "اليسر" ـ إن شاء الله ـ وإن الله لا يُقدر إلا الخير، وإن الله ناصر دينه، ومُعز جنده، وإن نصر الله قريب.. فلنقترب منه **بوعي رباني، وبحركة راشدة، بإيمان صادق وعمل صالح.**

وإنني إذ أكتب هذه الكلمات أخشى أن تكون حُجة عليّ لا لِي ـ والعياذ بالله ـ فاللهم اجعل هذه الكلمات حجة لِي لا عليّ، وهيأ لنا القيادة الراشدة التي تأخذنا بالحق إلى الحق.. إلى صراطك المستقيم..

لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين.

نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، ونتوب إليه.

***

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأسأل الله ـ جل جلاله ـ أن يكون هذا الكتاب من الأعمال الصالحة، وأن يتقبله، وأن ينفع به من شاء من عباده..

لقد كان ميلاد هذا الكتاب على نحو غير مألوف لي، فلم يكن هناك موضوع محدد يمكن تقسيم الكتاب على أساسه إلى أبواب وفصول ومباحث، بل كان بحثاً حراً عن "العقيدة" ـ النظرية ـ السياسية في كتاب الله، وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومحاولة مُحاكمة واقعنا إلى هذه العقيدة.

فجاء على هذه الصورة من الموضوعات التي قد تبدو في أحيان ليس لها رابط يجمعها، ولكن الواقع الاجتماعي السياسي يجمعها، وهناك بعض موضوعات الكتاب كانت بارزة المعالم مثل موضوع "السُنة النبوية السياسية"، وهناك من موضوعات الكتاب ما تألف بالتجربة الواقعية، وبالنظرة التاريخية، وبالتصور المستقبلي..

فأحياناً كنت أشاهد برنامجاً أو أقرأ مقالة أو أتابع حدثاً سياسياً، فأجد من الأهمية ليس الرد على ما أراه باطلاً، بقدر ما هو التأصيل العام للفكرة الصحيحة، فتألف الكتاب من خلال هذه المحاولة.

وقد حاولتُ الابتعاد بموضوعات الكتاب عن المذكور في بعض كتب ما يُسمى "السياسة الشرعية"، والتي تدور موضوعاتها ـ في الغالب ـ عن أمور وأحوال فقهية كانت تخص في أحيان كثيرة فترة الملك العضوض، ومتأثرة بثقافتها، فكانت تتحدث عن: شروط الإمامة، والحسبة، والقضاء، والمذاهب الفقهية، ونصائح في شأن الرعية، وبعض

الأمور التنظيمية للقصور الملكية.. وبعضها مأخوذ من الجاهلية الفارسية والرومية واتباعاً لسننهم... إلخ، وقد يظن البعض أن السياسة الشرعية تنحصر في هذه الموضوعات! بحكم أن الذي كتبها أئمة عظماء ـ رحمهم الله جميعاً ـ ولا تخلو هذه الكتب من فائدة ـ ولا شك ـ إلا إنها في نظري لم تكن تُعبر عن النظرية السياسية بصورة شاملة وعامة بحيث تصلح أن تُخرِّج الشباب المسلم الواعي بدينه ودوره في الحياة السياسية والاجتماعية وكل صور وأنشطة الحياة.

وقد حاولتُ أيضاً الابتعاد بموضوعات الكتاب عن بعض الكتب السياسية المقررة في الجامعات، والتي تتحدث عن الفلسفة السياسية من منظور مادي علماني، أو تتحدث عن موضوعات تافهة مثل البرتوكولات الدبلوماسية والمراسم، أو تُمجد في الطاغين والمفسدين والمجرمين، فهذه سوف تُخرِّج جُهالاً يحملون درجات علمية! ويكونون فتنة لأقوامهم إذا رجعوا إليهم ليستفتونهم!

ولقد كنت حريصاً ومتعمداً استخدام "الأسلوب القرآني" في التأصيل باعتباره هو المرجعية العليا، وفصل الخطاب.. مهما ما قد يراه البعض أن الكتاب تحول إلى موعظة دينية! ـ فهناك من يسخر من الموعظة، ويذكرها على سبيل النقص، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57] وهذه السخرية والتنقص من أجهل الجهل، وأضل الضلال..

فلا حياة ولا وجود ولا سيادة لهذه الأمة إلا بهذا الكتاب العظيم الذي فيه ذكرها ورفعتها، وإنه لا يكفيها أن تقدسه ذاك التقديس الموهوم للتبرك والحماية من الحسد! بل ذاك من الإعراض عن ذكر الله، واتخاذ الكتاب مهجوراً..

إنَّ وظيفة هذا الكتاب أن يحكم في حياتنا كلها ـ ومنها السياسية والاجتماعية ـ بل أن تنبثق حياتنا ويكون ميلادنا من رحم هذا الكتاب، وهذا النور المبين.

كما لا يمكن الحديث عن التصور الإسلامي إلا أن يكون كتاب الله، وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المرجعية، وكذلك من جانب آخر: إذ لم يكن الحديث باسم الله ـ وهو مقصد ومعنى التصور الإسلامي ـ فهو قطعاً ولا شك سيكون حديثاً باطلاً جاهلياً، يؤدي إلى حركة سياسية واجتماعية جاهلية، تكون في النهاية الشقاء والضلال والبوار.

وإنَّ محاولة المسلم استخلاص معالم هذا التصور من كتاب الله وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي محاولة قد يشوبها بعض النقص أو الجهل أو الوهم أو الخطأ أو الهوى أو النسيان من هذا المسلم، ولكن عوامل النقص هذه إنما تعود على صاحبها لا على المرجعية العليا.. وما يُقال عن استخلاص معالم النظرية، يُقال أيضاً على صور التطبيق..

فكل جهالة وكل عيب في الفهم أو التطبيق إنما هو يخص صاحبه.. ويكون حينها واجب المسلمين هو تصحيح هذه الأخطاء سواء في الفهم أو في التطبيق، وليس جعل هذه الأخطاء مبرراً لنبذ الكتاب وراء ظهورنا، واتباع سبل الغي والضلال!

هذا ـ وبفضل الله ـ قد بذلت وسعي وحرصي في بيان بعض معالم "التربية السياسية الربانية الراشدة" فإذا مِن توفيق فمن الله ـ جل جلاله ـ وإنْ مِن خطأ أو عيب أو تقصير فمن نفسي، فاللهم اغفر لي..

وليكمل غيري وليتم هذا التربية ويستكمل عوامل الضعف والنقص، لنصل إلى تمام التربية السياسية الربانية الراشدة.

***

وإنني أرجو الله أن يكون موضوع هذا الكتاب مُقدمة لمنهجية "التربية السياسية للشباب المسلم"[1]، وأحد أهم الدروس التي يجب أن يتلقاها "طالب العلم"؛ حتى تخرج الكوادر الواعية الراشدة البصيرة بدينها وواقعها، وقادرة على إرشاد الأمة إلى صراط الله المستقيم، فلا يُستغل طالب العلم في إقرار الباطل أو شهادة الزور أو شرعنة البغي والإفساد! ولا يحترق الشباب المسلم في التجارب السياسية الفاشلة.

وإنني أرى قصوراً في هذا الجانب من التربية رغم عِظم أهميته، وضرورته التي تعلو على كثير من الموضوعات التي يهتم لها الشباب المسلم ويظن أن العلم الشرعي ينحصر فيها!

بل يجب على الشباب المسلم أن يرفع لواء **إحياء السنة النبوية في شؤون السياسة والمال**، ويُعرّفون الناس بها، ويُبصرونهم بهذه الحقائق؛ إحياء للدين وللأمة، وحتى لا تتخطفهم شياطين العلمانية من حولهم؛ وليحرروا أمتهم، ويفكوا أسرها لتنطلق "باسم الله" لحمل "رسالة الله"، وتحقيق الخلافة الراشدة في الأرض.

وقد تَحوّل اهتمام كثير من الشباب المسلم ـ المحب لدينه وأمته ـ إما إلى الاهتمام بقضايا فقهية وخلافية بعيدة عن واقعنا، ويغوص فيها، ويبعد.. حتى ينقطع عن واقعه، وإما إلى الاشتباك السياسي مع واقعه دون أن يكون متسلحاً بسلاح القرآن العظيم (فهماً وتدبراً) وهو الدرع الواقي من ظلمات الجاهلية من حوله.

وإنَّ أمتنا وشبابنا بحاجة إلى العودة القرآنية وإلى النظرة القرآنية لواقعهم؛ لتكون تلك العودة ليس للانقطاع في المساجد والخلوات بل لاقتحام الحياة بهذا الكتاب، وإعلاء ذكر الله في كل شأن، وفي كل مجال..

---

(1) وقد حاولتُ إنشاء قسم خاص على "مدونة أمتي" بعنوان "المكتبة السياسية" والتي تضم كثيراً من جهود علماء المسلمين في هذا المجال ـ وغيرهم من غير المسلمين ـ لرفع وعي الشباب المسلم باتساع هذا العلم، وأثره على حياتنا وديننا، ولبيان ضرورة تكوين العقل السياسي الرباني الراشد، الذي يمضي لبناء الدولة المسلمة الراشدة.

وأخذ الكتاب بقوة، والاستعلاء به بكل عزة، والثقة به بكل يقين، وإقرار حقائقه بلا خوف، وتبليغ رسالته بلا خشية.. لا يخافون في الله لومة لائم، ولا بطش متآمر حاقد، لا ينتظرون عوضاً، ولا جزاءً سوى رضوان الله وجنته.

والله مُنجز وعده، ومُتم نوره، ومُنتصر لجنده، ومُمكن لدينه..

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55]

***

الروابط الإلكترونية للكتب، والمقالات

هذه قائمة بالروابط الإلكترونية للكتب والمقالات الداعمة لموضوعات هذا الكتاب، والموجودة على "مدونة أمتي"، كما يمكن للقارئ الكريم الوصول إليها ـ هي وغيرها ـ من خلال محرك البحث على المدونة، أو من خلال فهرسها.

ت	الاسم
1	كتاب: "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته".
2	مقال: "خط الفاعلية.. وأجهزة الاستخبارات الفكرية".
3	كتاب: "دروس من غزوة أحد".
4	كتاب: "أمراض الاستبداد ـ الجزء الثاني".
5	كتاب: "انحرافات في الحركة الإسلامية".
6	مقال: "سنن الله في الأمم وتطبيقها على المسلمين".
7	مقال: "وإن ضرب ظهرك".
8	كتاب: "العلمنة من الداخل".
9	بحث: "الدين والسياسة.. تحليل المشهد".
10	كتاب: "المثلية الجنسية بين الإسلام والعلمانية".
11	كتاب: المستشرقون والإسلام.
12	مقال: خطورة الفكر العلماني.
13	بحث: الإسلام.. العلمانية، ونمط الحياة.

14	مقال: فتنة العلمانية.
15	مقال: الإسلاميون.. إشكالية المصطلح.
16	بحث: "مُنازعة أولي الأمر".
17	مقال: "العلم والإلحاد".
18	مقال: "اليسار الناعم".
19	كتاب: "أمراض الاستبداد ـ الجزء الثالث".
20	مقال: "غثاء السيل".
21	بحث: "الغلو في التكفير".
22	مقال: "بين منهجين".
23	مقال: "مجالات التكفير".
24	مقال: "البعد النفسي للخوارج".
25	بحث: "أجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المسلح".
26	بحث: "الخوارج المعاصرون.. الجيا والدولة".
27	مقال: "تكفير المتوقف في التكفير".
28	مقال: "العقيدة الإسلامية".
29	مقال: "أسئلة في العقيدة".
30	كتاب: "العقائدية القاصرة".
31	كتاب: "لا مهدي يُنتظر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم".
32	بحث: "مشكلات في تناول الفقه الإسلامي".

33	بحث: "فتح القسطنطينية.. والملاحم".
34	مقال: العمل المؤسسي.
35	مقال: "التحولات في الحركة الإسلامية".
36	ملف: "مجزرة رابعة".
37	مقال: "أوجه الفشل في التجربة التركية".
38	بحث: "الفئة الباغية".
39	بحث: "ما بعد طوفان الأقصى".
40	بحث: "أجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المدني".
41	مقال: "كأس العالم.. وصناعة التفاهة العميقة".
42	مقال: "مونديال قطر".
43	مقال: "التعري.. وعبادة الشيطان".
44	كتاب: "الموسوعة الإنسانية".
45	مقال: "مشكلة التحرش الجنسي".
46	مقال: "التشبع الاجتماعي".
47	مقال: "حركة طالبان.. وتعليم المرأة".
48	كتاب: "من فقه الدولة في الإسلام".
49	مقال: "الإسلام.. ومشكلات العلمانية".
50	مقال: "النظام الملكي في الإسلام".
51	بحث: "الشورى وآلياتها".

52	كتاب: "حول تطبيق الشريعة".
53	مقال: "البناء في الدولة المسلمة".
54	مقال: "العُملة الشرعية، والربا".
55	بحث: "عقيدتنا الجهادية".
56	مقال: "النقد وأنواعه".
57	مقال: "صور المعارضة السياسية.. وآفاتها".
58	بحث: آلية قراءة قضايا الأمة المصيرية.
59	مقال: "المعارضة الإسلامية والمعارضة العلمانية".
60	مقال: "الدولة الإله".
61	كتاب: "السلام العالمي والإسلام".
62	مقال: "معالم في الثورة".
63	مقال: "ميلاد الثورات العربية".
64	مقال: "الفرق بين الشخصية الحزبية والرسالية".
65	مقال: "معالم الشخصية الحزبية".
66	بحث: "ألغام في الفكر الإسلامي".
67	بحث: "ويُذيق بعضكم بأس بعض".
68	مقال: "الفكر والالتصاق بالذات".
69	كتاب: "العدالة الاجتماعية في الإسلام".
70	مقال: "فخ المعارضة".

71	مقال: "خريطة تحكيم الشريعة".
72	مقال: "مراحل الواقع الإسلامي".
73	مقال: "مفهوم الحاكمية".
74	بحث: "إقامة الدين، وتحكيم الشريعة".
75	كتاب: "نحو مجتمع إسلامي".
76	كتاب: "أفضل ديمقراطية يستطيع المال شرائها".
77	مقال: "الديمقراطية والهوية".
78	كتاب: "الشورى وممارستها الإيمانية".
79	كتاب: "التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي".
80	مقال: "المتهوكون والمتخرصون".
81	مقال "فرق السرعات".
82	مقال: "المبدأ العلماني".
83	مقال: "فصل الدين عن العمل السياسي".
84	مقال: "مرض القومية".
85	مقال: "ماهية الأيديولوجيا".
86	كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".
87	مقال: "المُتدين العلماني".
88	بحث: "الثابت والمتغير في العمل السياسي الإسلامي".
89	مقال: "درس في المواجهة".

90	مقال: "بين المبدأ والفعل".
91	مقال: "النقد وأنواعه".
92	مقال: "الجماعات الإسلامية الوظيفية".
93	بحث: "الشخصية المسلمة".
94	بحث: "خطورة الفكر المتعصب".
95	بحث: "الاتجاهات النفسية للحركة الإسلامية".
96	كتاب: "ملف التغيير".
97	مقال: "أسلمة أتاتورك".
98	كتاب: "الرجل الصنم".
99	كتاب: "الاغتيال الاقتصادي للأمم". و "عقيد الصدمة".
100	كتاب: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين".
101	تقرير: "وسائل العلمانية في محاربة الحركة الإسلامية (الناصرية نموذجاً)".
102	كتاب: معالم في الطريق.
103	كتاب: حسن السلوك الحافظ دولة الملوك.
104	كتاب: "خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم".
105	كتاب "الإسلام وأوضاعنا القانونية".
106	حلقة: "كيف تعمل بطاقات الائتمان؟".
107	تحقيق: "العملية سيرلي".
108	مقال: "هل التيار المُدخلي صديق لدولة إسرائيل".

109	كتاب: في ظلال القرآن.
110	موسوعة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية.
111	كتاب: "التجنيد الاستخباري".
112	كتاب: "الملاك (الجاسوس المصري الذي أنقذ إسرائيل)".
113	بحث: "مستقبل الاستخبارات".
114	بحث: "شذرات في الاستخبارات والدفاع والسياسة".
115	كتاب: "الحرب ـ WAR".
116	مقال: "فتاوى التطبيع".
117	حلقة: "سلاسل التوريد".
118	ملف: "اختراق الأمريكان لسلاسل التوريد".
119	فيلم: "مجتمع الاستخبارات".
120	كتاب: "سطوة إسرائيل في الولايات المتحدة".
121	كتاب: "إيران وحماس.. من مرج الزهور إلى طوفان الأقصى".
122	الفيلم الوثائقي: "الخلاص المقدس".
123	كتاب: "الانتخابات وأحكامها".
124	كتاب: "فوق الدولة، وتكاليف الفساد في مصر".
125	كتاب: "أولياء الجمهورية".
126	كتاب: "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر".
127	كتاب: "هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس".

128	كتاب: "الحكومة الإسلامية.. رؤية تطبيقية معاصرة".
129	ملف: "الحوكمة الرشيدة، والتحول الرقمي".
130	مقال: "خطوط عريضة".
131	مقال: "كتاب الله وأمانة الأمة المسلمة".
132	مقال: "التحليل النفسي لرئيس مصر".
133	مقال: "الجاسوس الذي حكم مصر".
134	مقال: "إسلام أمريكاني".
135	كتاب: "جاهلية القرن العشرين".
136	مقال: "دولة يهود.. والملك داود".
137	مقال: العبيد.. وضريبة الذل.
138	مقال: "خطورة الفكر التوافقي".
139	مقال: "درجات العلماء".
140	مقال: "الأسلوب القرآني.. والأسلوب التبريري".
141	كتاب: "سبيل الرشاد".
142	بحث: "القاعدة الجماهيرية الإسلامية.. والقيادة الجديدة".

* * *

تم بحمد الله